الشعر في العصر الفاطمي

(بلاط بنيُ رزيك نموذجاً)



تأليف

أماني زين كامل الخويسكي

كلية الأداب جامعة الإسكندرية

الشعر فى العصر الفاطمى

(بلاط بنى رُزّيك نموذجًا)



الشعر في العصر الفاطمي
(بلاط بنى رُزَّيكِ نموذجا)

تأليف

أماني زين كامل الخويسكى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢٠١١م



عدد الصفحات :-٤٥٢

المؤلف د:-اماني زين كامل

عنوان الكتاب :- الشعر في العصر الفاطمي

(بلاط بني رزيك نموذجا)

رقم الايداع :-



الاداره :- ٣٦ ش سوتير - الازريطة - أمام كلية الحقوق – جامعة الاسكندرية – جمهورية مصر العربيه
تليفاكس :- ٠٠٢٠٣٤٨٧٠١٦٣
محمول :- ٠٠٢٠١٢١٦٦٦٩١٣
الفرع الثاني :- ٣٨٧ ش قنال السويس – الشاطبي – الاسكندريه
Email: -
darelmaarefa@gmail.com,d_maarefa@yahoo.com
Web site: - www.darelmaarefa.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

صدق الله العظيم

(سورة النساء: آية ١١٣)

إهـــداء

إلى روح والدى

فهذا العمل بعضَ الذي زرعت

وهذا حصادُ علمك الذي غرست

وأنت باقٍ معنا دائمًا وأبدًا ما مُت

فنَم هانئًا بيننا ...

رحلت وما رحلت

المقدمة

الحمد لله العلي الأكرم، الذى علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على رسول الله الأعظم ، محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم على الطريق الأقوم .

أما بعد ...

فمع أن العصر الفاطمي في مصر من أزهى عصور الأدب في مصر ، وأكثرها ثراء فإنه لم ينل حظه – بعد – من الدرس ، وما تزال عديد من جوانبه بحاجة إلى النظرة المتعمقة التى تسبر أغوارها ، وتستجلى إبداعاتها ، لذا رأيت أن يكون موضوع ((الشعر في بلاط بنى رُزِّيك)) "مجالا لدراستى" فالسنوات التى تولى فيها طلائع بن رُزِّيك الوزارة (٥٤٩ – ٥٥٥م) تعد بحق ذروة الازدهار الأدبي في العصر الفاطمي كله، فقد أغدق طلائع وأولاده على الشعراء، وأوى إلى بلاط بنى رُزِّيك حشد من الشعراء منهم الجليس بن الحباب ، والمهذب بن الزبير، والرشيد بن الزبير، وعمارة اليمنى، وابن الصياد، هذا فضلاً عن أن طلائع نفسه كان شاعراً.

كان بلاط بنى رُزِّيك في السنوات الست التى ولى فيها كبيرهم "طلائع" الوزارة يموج بحركة أدبية نشطة، وتعقد فيه المجالس الفكرية والأدبية ، ومانتى المراسلات الشعرية ذاهبة آيبة إذ كانت تربط طلائع صلات وثيقة بأسامة بن منقذ ، وقد حفظ لنا التاريخ قدراً لا بأس به من هذه المراسلات الشعرية ، فلا عجب – بعد ذلك – أن يأسى الذين أرخوا لهذه الحقبة على بنى رُزِّيك، وأن يقول صاحب الخريدة إنه بانقضاء عهد بنى رُزِّيكَ "انكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فضاء الفضل ، واتسع جاه الجهل ، وانحل نظام أهل النظم ، وانتثر عقد ذوى النثر ، واستشعر الفاقة الشعراء " .

ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن أغلب الدارسين لم يولوا هذا العصر العناية اللازمة، وخاصة بلاط بنى رُزِّيك على الرغم كثرة ما فيه من شعراء ، فلم نجد إلا إشارات متناثرة في بعض الكتب منها :

كتاب " الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية " للدكتور/ أحمد أحمد بدوى ، وكتاب " الأدب في العصر الفاطمي " للدكتور/ محمد زغلول سلام ، وكتاب " في أدب مصر الفاطمية" للدكتور/ محمد كامل حسين ، وكتاب "مصر الشاعرة في العصر الفاطمي " للدكتور/ محمد عبد الغنى حسن، وكتاب "تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والإمارات – مصر " للدكتور/ شوقى ضيف، ومقدمات دواوين الشعراء مثل مقدمة ديوان أسامة بن منقذ تحقيق الدكتور/ أحمد بدوى ، حامد عبد المجيد، ومقدمة كتاب شعر المهذب بن الزبير للدكتور/ محمد عبد الحميد سالم ، ومقدمة ديوان طلائع بن رُزّيك تحقيق الدكتور/ أحمد بدوى، ومقدمة ديوان طلائع بن رُزّيك تحقيق محمد هادى الأمينى .

وهناك دراسة متخصصة وهي دراسة الدكتور/ محمد عبد الحميد سالم بعنوان (طلائع بن رُزّيك حياته وشعره) رسالة ماجستير ، دراسة غير منشورة ، بدار العلوم ، القاهرة .

وهي دراسة منصبة على حياة طلائع بن رُزّيك وشعره دون دراسة شعر شعراء هذا البلاط .

وقد واجه هذا البحث صعوبات جمة لعل من أهمها على الإطلاق تعذر الحصول على المادة العلمية ، ونقصد بها شعر هؤلاء الشعراء رغم أن البحث استطاع أن يحصل على ديوان طلائع بن رُزّيك، وديوان عمارة اليمنى ، وديوان أسامة بن منقذ ، ومجموع أشعار المهذب بن الزبير ، إلا أن باقي الشعراء لم نجد لهم إلا أشعارًا متفرقة في بطون أمهات الكتب ، وعلى الأخص (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهانى قسمى مصر ، والشام .

وهذه الصعوبة التى عانينا منها يعود فيها السبب الرئيسي إلى الدولة الأيوبية التى أبادت كل آثار الدولة الفاطمية ، إذ كانت ترى فيه خروجاً عن الدين فيما كتب في آثار هؤلاء الأدباء الفاطميين.

والصعوبة الثانية هي ندرة الدراسات التى انصبت وتوجهت توجهاً مباشراً إلى دراسة الشعر في عصر الوزير طلائع بن رُزّيك .

ومن هنا كان حافزى لاختيار دراسة (الشعر في بلاط بنى رُزّيك) لبيان قيمة إبداعهم الشعر خاصة من شهروا وعرفوا ببراعتهم الشعرية .

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تأتي في تمهيد وستة فصول وخاتمة.

تحدثت في **التمهيد** عن كيفية صعود بنى رُزّيك إلى الوزارة ، في ضوء ما لابس ذلك من أحداث ، كما تحدثت أيضاً عن المجالس الأدبية في بلاط بنى رُزّيك محاولة وصل ما بقى منها من شذرات دالة .

ويأتي **الفصل الأول** : بعنوان **شعراء بنى رزيك واتجاهاتهم الشعرية.**

وقد قمت بالتعريف بشعراء بنى رزيك ، وما يمثلونه – بصفة عامة – من مناحٍ شعرية مختلفة .

ويأتي **الفصل الثاني** : بعنوان **الموضوعات الشعرية**

وقد عرضت في هذا الفصل الموضوعات الشعرية المختلفة التى طرقها شعراء بنى رزيك من فخر، ومديح، ووصف، وغزل، ورثاء، وقد توقفت أمام ظاهرة أسميناها بالمراسلات الشعرية ، والتى كانت تمثل نمطاً جديداً من أنماط الشعر في ذلك العصر وهي كانت قصائد (رسائل) بين الصديقين الشاعرين طلائع بن رزيك وأسامة بن منقذ.

ويأتي **الفصل الثالث** : بعنوان **البناء الفنى**

وعرضت في هذا الفصل البناء الفني للقصيدة ، كما عرضت للسمات الفارقة بين القصيدة المنشدة ، والقصيدة الرسالة ، ثم تناولت (المقطوعة الشعرية) مقطوعة الفكرة ، مقطوعة الصورة ، مقطوعة بديعية، محاولة أن أبين ما يميز المقطوعة من القصيدة أولاً، وما يميز كل نوع من أنواعها ثانياً.

ويأتى **الفصل الرابع** : بعنوان **الصورة**

وقد تناولت في هذا الفصل الصورة من حيث:

- مادة الصورة ، وأثر البيئة المصرية فيها .
- تشكيل الصورة (التشبيه، والاستعارة، والكناية) .
- السمات الفارقة في طرائق التصوير للاتجاهات الشعرية المختلفة .

ويأتي **الفصل الخامس** : بعنوان **التشكيل اللغوي**

وحاولت في هذا الفصل أن أصل إلى ما يميز شعر شعراء بنى رزيك مع عدم إغفال الفوارق الفردية في:

- الألفاظ والتراكيب اللغوية .
- الألوان البديعية .
- الأثر التراثي في لغة العصر .

ويأتي **الفصل السادس** : بعنوان البنية الموسيقية

وقد رصد هذا الفصل البنية الموسيقية متمثلة في البحور والقوافي ، وفي بعض الإيقاعات الداخلية، كما حاولت تلمس الفوارق بين البنيـة الموسـيقية للقصيدة المنشدة ، والقصيدة الرسالة، والمقطوعة .

ثم تعقب هذه الفصول **بخاتمة** تسجل أهم ما انتهى إليه هذا البحث مـن نتائج ، وما قد يكون قد أضافه البحث إلى حقل الدراسات الأدبية .

ثم أرفقت بالبحث ثبتاً بالمصادر والمراجع التى اعتمد عليها البحث وقد جاءت متنوعة بين القديم والحديث .

.... وبعد، فإن أكن قد وفقت فيما عرضت فالفضل من الله – سـبحانه وتعالى – له الأمر كله من قبل ومن بعد ، ثم الفضل كل الفضل يعـود إلـى أستاذى ومرشدى ومعلمى الأستاذ الدكتور/ فوزى محمد أمين الذى تفـضل – مشكوراً – برعاية هذه الدراسة منذ أن كانت مجرد فكـرة أحاطهـا بعنايتـه ورعايته وعلمه ، ومنحنى من وقته وجهده وعلمه وصبره وسديد رأيه مـا لا أستطيع الوفاء بشكره ، فله منى عظيم الاحترام والتقدير والإجلال والعرفان، داعيةً الله – عز وجلّ – أن يمتعه الله بموفور الـصحة والعافيـة وأن يظـل نبراساً هادياً لكل طلابه ومريديه .

فجزاه الله خير الجزاء على ما قدَّم من جهدٍ وفضلٍ وعلم .... وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد

المبحث الأول
صعود بني رزيك للوزارة

١- صعود بني رُزِّيك*:

---

* انظر ترجمته في:
- عمارة اليمنى ـــ النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ـــ طبع مدينة شالون ١٨١٧م في مواضع متعددة.
- أسامة بن منقذ ـــ ديوانه ـــ تحقيق د. أحمد بدوى ود. حامد عبد المجيد ـــ عالم الكتب ـــ بيروت ـــ لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣م.
- العماد الأصفهانى ـــ خريدة القصر وخريدة العصر ـــ قسم شعراء مصر ـــ الجزء الأول ـــ بتحقيق د. أحمد أمين، د. شوقى ضيف ـــ د. إحسان عباس ـــ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م ص ١٧٣.
- على بن محمد بن الأثير ـــ الكامل فى التاريخ ـــ المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠١هـ ـــ ج ٩ ص ٧٥.
- عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ـــ الروضتين فى أخبار الدولتين ـــ مطبعة وادى النيل بمصر ١٢٨٧ هـ ج ١ ص ٢٤٥.
- أحمد بن خلكان ـــ وفيات الأعيان ـــ المطبعة الميمنية ١٣١٠هـ.
- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ـــ الوافى بالوفيات ـــ مصور بدار الكتب رقم ١٢١٩ تاريخ.
- أحمد بن عبد الوهاب النويرى ـــ نهاية الأرب فى فنون الأدب ـــ مصور بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة.
- أحمد بن على المقريزى ـــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـــ المعروف بالخطط المقريزية ج ٤ طبعة مكتبة الثقافة الدينية ـــ القاهرة ١٩٨٧م ـــ واتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا الجزء الثالث ـــ تحقيق د. محمد حلمى أحمد ـــ طبعة الذخائر ـــ فى مواضع متعددة.
- جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ـــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـــ الجزء الخامس ـــ طبعة دار الكتب المصرية ـــ القاهرة ١٣٥٥هـ.
- محمد بن أحمد المعروف باليمنى ـــ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـــ مخطوط بدار الكتب ـــ رقم ٧١م تاريخ.
- العماد الحنبلى ـــ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـــ ذخائر التراث العربى ـــ بيروت ـــ ج٤ ـــ ص ١٧٧.
- خير الدين الزركلى ـــ الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ـــ عشرة أجزاء ـــ القاهرة ١٩٥٤م جـ٣ ـــ ص ٣٢٩.
- ياقوت الحموى ـــ معجم الأدباء، طبع دار المأمون ـــ جـ ٩ ـــ ٤٧.

كما توجد ترجمته فى المراجع التالية:
- د. أحمد أحمد بدوى ـــ محقق ديوان طلائع بن رزيك مكتبة نهضة مصر ـــ الفجالة ـــ القاهرة.
- محمد هادى الأمينى ـــ محقق ديوان طلائع بن رزيك ـــ من منشورات المكتبة الأهلية ـــ النجف الأشرف، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ ـــ ١٩٦٤م.

زخر تاريخ الإسلام بسير أبطال الحروب وفرسان الميادين ، ممن حملوا راية الجهاد، وفتحوا البلاد، وقوضوا العروش، كما حفل هذا التاريخ أيضا بأخبار قادة الفكر ورواد المعرفة وأعيان العلماء والحكماء والشعراء وملوك البيان، وبجانب هؤلاء فريق ممن جمع بين السيف والقلم، وتهيأ له شهود الوقائع، وخوض المعامع والمشاركه فى العلوم والفنون والآداب، وكان من هذا الفريق (طلائع بن رزيك بن عبد الله بن الصالح الأرمنى الغسانى) والذى تمتد جذوره إلى بنى غسان، وكانت أسرته تعيش فى مدينة تسمى (أرمينية) [1] التى تقع فى أواسط آسيا، والتى كانت واقعة تحت احتلال الحكم السلّجوقى[2] .

فبعدما كانت دولة السلاجقة دولة قوية متماسكة، انقلب الحال عقب وفاة السلطان ملكشاه، وانقسمت الدولة إلى أجزاء، وتنافس أبناؤه الأربعة وهم:

- د. محمد زغلول سلام – الأدب فى العصر الفاطمى – الكتابة والكتاب – منشأة المعارف بالإسكندرية.
- د. محمد عبد الحميد سالم – رسالة ماجستير – طلائع بن رزيك – حياته وشعره.
- د. محمد كامل حسين – فى أدب مصر الفاطمية – دار الفكر العربى – ١٩٥٠م.
- د. محمد عبد الغنى حسن – مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى – الهيئة القومية العامة للكتاب.
- د. شوقى ضيف – تاريخ الأدب العربى – عصر الدول والإمارات مصر – دار المعارف.
- د. أحمد بدوى – الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام – نهضة مصر.

١ – انظر مقدمة ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق – محمد هادى الأمينى – جده.

٢ – السلاجقة هم نوع من الأتراك الغز ويتصل نسبهم بالجد الأكبر لسلاطين الأتراك العثمانيين الذين أسسوا إمبراطوريتهم فى آسيا الصغرى ثم فى سورية والبحر الأبيض المتوسط بأوربا وشمال أفريقيا عن طريق ملاحقة الروم كما يذكر عنهم ابن خلكان (أنهم لا يدينون بالطاعة لسلطان) – وفيات الأعيان جـ ٤ ، ص ٥٥ وللسلاجقة يرجع الفضل فى تجديد قوة الإسلام وإعادة تكوين وحدته السياسية ولهم أهمية خاصة فى التاريخ، لقيام الحروب الصليبية فى أيامهم وظهورهم على مسرح هذه الحروب (د. حسن إبراهيم حسن – تاريخ الإسلام السياسي – القاهرة ١٩٤٩م - جـ ٤ – ص ٧ وما بعدها).

للوقوف على تاريخ السلاجقة ومدينة أرمينية يرجع إلى:

السيوطى – تاريخ الخلفا – القاهرة ١٣٥١م – ص ٢٨٦.

ابن الأثير – الكامل فى التاريخ – جـ١ ص ١٩٨.

ابن تغرى بردى – النجوم الزاهرة – جـ ٥ ص ١٨٦.

(بركيا روق ـ محمد ـ محمود ـ سنجر) على السلطة والحكم ومن هنا بدأ عهد جديد لدولة السلاجقة عُرف باسم (عصر السلاجقة العظام) وكان الأخوان بركيا روق ومحمد وقد اشتد بينهما الصراع حتى إنه استمر خمس سنوات من سنة ٤٩٢ ـ ٤٩٧هـ وخلال هذه السنوات ولد طلائع بن رزيك في سنة ٤٩٥ هـ، فولد طلائع فى مناخ مليء بالحروب والمعارك فكانت فيه الأموال منهوبة والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطة مطموعاً فيها ومحكوماً عليها فأصبح الملوك فيها مقهورين بعد أن كانوا قاهرين، فالبلاد كانت فى حالة إعياء شديد نتيجة لواقع هذه الحروب إلى أن أضطر السلطان بركيا روق أن يعقد معاهدة صلح مع أخيه محمد وذلك لانعدام المال بخزانته وازدياد طمع جنده فيه ـ وهى السنة التى حكم فى أولها المستعلى أحمد ثم الآمر ولده واستمر الحال بين منازعات وصراعات حول السلطة والحكم وطلب حقوقهم بعد السلطان محمد ومن جاء بعده من حُكّام.

وكانت مصر فى ذلك الحين قد بدأ الضعف يدب إلى أوصال حكامها الفاطميين فقد انقضى عهد الخلفاء الأقوياء، القادرين على حماية البلاد وهم:-

(الخليفة المعز، العزيز، الحاكم، الظاهر) فبالرغم من مرور البلاد فى عهدهم بأيام عجاف إلا أنهم استطاعوا أن يسيطروا على زمام الأمور، إلى أن بدأ عهد الخليفة المستنصر بالله، وفى أيامه تعرضت مصر لبعض الكوارث الطبيعية وأمامها فقد القدرة على حماية البلاد فقد بخل النيل بمائه، فجفت الزراعات، ونفقت الحيوانات وتساقط الناس جوعاً، وفقد الأمن والنظام، وشاعت الفوضى، وانتشر السلب والنهب، وسيطر القوى على مقدرات الضعيف.

فكان لابد من حاكم قوى يفرض الأمن والنظام بقوة السيف، فاستعان الخليفة المستنصر بالله ببدر الجمالى الأرمنى فى سنة ٤٤٦ هـ وبذلك جنى الخليفة الفاطمى على نفسه وعلى الخلفاء الفاطميين من بعده، لأنه قلد بدر الجمالى الوزارة أملاً فى تحقيق الأمن، وبالفعل فرض بدر النظام وتمكن من تنفيذ الأوامر ولكن بدون مشورة الخليفة أو أخذ رأيه ومن هنا بدأ عصر جديد عُرف باسم (عصر الوزراء العظام) فالخليفة الفاطمى أصبح دوره على الهامش فى الحياة السياسية، فالتزم القصر وتحول إلى دمية تعبث بها أيدى الوزير.

ودليل استبداد الوزير فى ذلك العهد أن بدر الجمالى قد عهد لابنه الأفضل بالوزارة من بعده، وبذلك امتدت سلسلة الاستبداد والطغيان حى إنه تدخل فى اختيار الخليفة الجديد بعد وفاة الخليفة المستنصر، فكان الخليفة المستنصر قد اختار ابنه نزار للخلافة من بعده، لكن وليّ الأفضل بن بدر الجمالى المستعلى أخاه الخلافة، ومنذ ذلك الحين انقسم الفاطميون إلى نزاريه ومستعليه وذلك حدث فى سنة ٤٨٧ هـ ثم تولى الخلافة الآمر ابن الخليفة المستعلى فى سنة ٤٩٥ هـ ومسك زمام الأمور فى البلاد إلى أن قتل لاتهامه بميله للسنيين ـ وتولى الوزارة بعد الأفضل ابنه أى على وتلقب بالأكمل فقبض على الخلافة واستولى على القصر وعلى ما فيه من ذخائر وأموال.

ومن هنا أصبح منصب الوزير له أهمية كبرى فى آخر عصر الدولة الفاطمية لدرجة تصل أن الوزير يتربص به أعداؤه حوادث الزمن ليغتصبوا سلطانه ويسلبوا منصبه، لذلك كان يستخدم الوزير كل ما فى يده من قوة للفتك بأعدائه وإبادتهم، وهذه ظاهرة تخلقها الفردية فى الحكم، وقد أصبحت الوزارة الفاطمية حقاً مشروعاً لمن يجد فى نفسه أنه أكثر قوة وأدق تخطيطاً، وأشد مكراً ودهاءاً إلى حد جعل من المألوف فى تلك الحقبة أن يصبح الناس ذات يوم - فيجدوا الوزير جثة معلقة على باب زويلة، أو يلتمسوا أثره فلا يجدون له أثراً أو يرون رأسه يطاف به فى الشوارع والأسواق، ولا يملك الخليفة العاجز فى قصره إلا أن يبارك القادم الجديد، الذى تفوق فى صراع القوة، فيخلع عليه خلع الوزارة وألقابها، وهو قانع من الأمر كله بتلك الهيمنة الروحية التى تكمن فى كونه أميراً للمؤمنين، وسليل الأئمة الطاهرين الذين أودعهم الله آثار حكمته وخصهم بخفى علمه[1]

هذا يمهد لنا دخول الأرمن إلى مصر ، وذلك بدخول الوزير بدر الجمالى الأرمنى الأصل إلى مصر فكان من الطبيعى أن يتعصب لبنى جنسه واشترط على الخليفه المستنصر أن يدخل منهم من ينضم إلى صفوف الجيش المصرى، فكان الجيش يضم العديد من الأجناس المتعددة وبذلك قويت شوكة الأرمن فى مصر .

١- د. فوزى أمين - الحركة الفكرية والأدبية فى الاسكندرية - ص١١

وكان والد طلائع بن رزيك ضمن الذين استقدمهم بدر الجمـــالى إلـــى مصر وانضموا إلى صفوف الجيش المصرى إلى أن توفى سنة ٥٣١هـ[١].

وكان دخول الأرمن أيضاً إلى مصر مع قدوم الوزير بهرام الأنصارى الذى تولى الوزارة للخليفة الحافظ على الرغم من أنه نصرانى ،وسرعان مـــا تزايد نفوذه وأحضر اخوانه وأهله من تانبداشر وأرمينية وسمح لبنى جلدته من الأرمن بالإقامة فى مصر، حتى بلغ عددهم ثلاثين الفاً [٢].

فكانت مصر فى ذلك الحين تضم أجناساً متعددة وكان لهذا عواقبه حيث نشبت النـــزاعات والثورات فى كل حين مما أضعف الدولة أكثر، فقد صادر الأرمن أموال المسلمين، وبنوا الكنائس والأديرة لدرجة أقلقت بال المـــسلمين فرفعوا شكاياتهم إلى الخليفة ولكن دون فائدة فالخليفة ليس له ســـلطان علـــى الدولة وهذا ساعد على استبداد الوزير أكثر وزاد فى ضعف الخلفاء.

أما طلائع بن رزيك فقد اختير عضوا فى فرقة الحجرية عندما كبـــر[٣] وهذه الفرقة هى إحدى فرق الجيش المصرى، كانت موجودة منذ أيام الخليفة المعز عندما شرع فى تكوين جيش خاص من شباب أهل البلاد (أولاد الناس) أو من عناصر المماليك الذين يُسَرون أو من سبى الفرنجة أو من غيرهم الذين يؤتى بهم صغارا فأفرد لهم ثكنات فى قصره عرفت بالحجرية يتعلمون فيهـــا أنواع الحرب وصنوف حيلها [٤].

فكان طلائع كثير الترحال مع أسرته يجوب البلاد ، وكان ذلك حال من تعرضت بلادهم للاحتلال فكانوا يتشتتون فى البلاد، لذلك كان يتجة الأرمـــن إلى الشام ومصر فكانت طلائع بن رزيك و أسرته من ضمن هـــؤلاء الـــذين رحلوا عن بلادهم متجهين إلى مصر.

ويذكر عنه المقريزى أنه زار مشهد الإمام على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ فى جماعة من الفقراء ــ أمام مشهد على ــ رضـــى الله عنـــه ــ يومئذ السيد ابن معصوم فزار طلائع وأصحابه وباتوا هناك ، فرأى السيد فى

---

١ – المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ــ ج ٣ ــ ص٢٥١

٢ – د. حسن إبراهيم حسن ــ تاريخ الإسلام ــ ج٤ ــ ص١٧٣

٣ – ابن الفطى الشيبانى ــ تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب ــ تحقيق د. مصطفى جواد القسم الثالث ج ٤ – ص١٣، ص ١٤.

٤ – د. عبد المنعم ماجد ــ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ــ دار المعارف مـــصر ــ ص٣٧٠ ــ ٣٧١

منامه الإمام ـ صلوات الله عليه ـ يقول له قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له طلائع بن رزيك من أكبر محبينا، فقيل له: اذهب فإنا قد وليناك مصر فلما أصبح أمر من ينادى: من فيكم اسمه طلائع بن رزيك فليقم إلى السيد بن معصوم فجاء طلائع إلى السيد وسلم عليه فقص عليه رؤياه فرحل إلى مصر[1].

والحقيقة أن المصادر التى بين أيدينا لم توضح لنا فى عهد من قدم طلائع إلى مصر ؟ وهل هذه أول زيارة له لمصر ؟ ولكن الذى يتضح لنا هو أن طلائع ابن رزيك كان موجوداً فى مصر منذ زمن بعيد ، وخاصة أن والده كان قد انضم إلى صفوف الجيش المصرى فى عهد الوزير بدر الجمالى إلى أن توفى سنة ٥٣١ هـ وهذا يعنى أنه كان موجوداً فى مصر قبل هذا التاريخ.

ولقد تناول دكتور محمد عبد الحميد سالم فى رسالته عن طلائع بن رزيك حياته وشعره نشأة طلائع بالتفصيل و ذكر أنه نشأ خارج مصر ولكن أسرته عادت إلى مصر الرحال ومعهم طلائع ولما كبر اختير عضواً في فرقة الحجرية ثم خرج من مصر مع والده فى مهمة دينية أو دنيوية لخدمة القصر ولعل طلائع رُزىء فى والده وعانى من الأعداء أكثر من طاقته بعده حتى نفذ ماله فاتجه إلى النجف لزيارة مشهد الإمام ثم اتجه إلى مصر[2].

علي أية حال فإن طلائع قدم إلى مصر واتصل بالفاطميين، ونال رضاهم وحبهم بذكائه وطموحه حتى إنه ترقى فى المناصب الإدارية إلى أن تقلد منصب والى البحيرة فى سنة ٥٣٨هـ وكان ذلك فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله وفى ذلك الحين نشب بين طلائع وبين محمد بن رافع اللواتى حرب، وتقاتلا[3] و هذا يؤكد لنا وجوده فى مصر فى تلك الفترة.

كما نستدل على ذلك أيضاً بما رواه أسامة بن منقذ ـ وهو أحد أمراء الشام ـ يذكر أنه عندما دخل مصر فى سنة ٥٣٩ هـ اتصل بطلائع بن

---

١ - المقريزى ـ الخطط ـ ج ٤ ـ صـ ٧٤ وما بعدها.
٢ - د.محمد عبد الحميد سالم ـ طلائع بن رزيك ـ حياته وشعره ـ ص٩٧.
٣ - المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ـ جـ٣ ـ صـ ١٧٨

رزيك وأكرمه وهذا يعنى أن طلائع كان قد تبوأ مكانة عالية فى ذلك الحين حتى يستضيف أمثال أسامة بن منقذ من الوافدين على مصر[١]

وشهد طلائع فى عهد الخليفة الظافر فى سنة ٥٤٤ هـ وكان يحتل وظيفة مقدم فى ذلك الحين فى جيش ابن السلار على وقع القتال الذى دار بين جيش ابن السلار السنى بقيادة عباس ربيبه وبين ابن مصال المغربى الشيعى ، وانتهى النزاع بقتل ابن مصال على يد عباس فكان النزاع بينهما على كرسى الوزارة لكن فيما يبدو أن السبب الخفى وراء ذلك كان صراع بين المذهب السنى والمذهب الشيعى، وبعد مقتل ابن مصال خلا الجو للوزير ابن السلار فخلعت عليه خلع الوزارة وكان سنياً مغالياً وأظهر مذهبه الشافعى حتى إنه أكرم ضيفه الحافظ السلفى الفقيه الشافعى فى سنة ٥١١هـ وأنشأ مدرسة للشافعية وأسند إليه إدارتها فى سنة ٥٤٦هـ[٢] لذلك تضجر منه الخليفة الظافر وبات يدبر له مكيده لقتله وتم ذلك على يد نصر بن عباس بن تميم حفيد زوجة ابن السلار حتى يتولى والده عباس الوزارة و يستبد بالأمر وكان الخليفة مستغرقاً فى أهوائه وملذاته ومنادمته لابن عباس (نصر).

وفى تلك الفترة كان طلائع بن رزيك قد ذاع صيته وعلا نجمه فى الدولة الفاطمية واحتل مكانة مرموقة لكنه لم يسلم من شرور الحاقدين والحاسدين الذين خافوا على مراكزهم من تفوق طلائع ونجاحه و سرعة ترقيه فى المناصب العليا، فخاف منه الوزراء والأمراء على مراكزهم فى القصر لذلك أسروا للخليفة بإصدار قرار يقضى بترقية ابن رزيك وتعيينه والياً على قوص ثم تعيينه والياً على أسوان إلى أن وصلت ولايته على منية بنى خصيب من أعمال صعيد مصر ، وهناك أثبت طلائع وجوده ولم يهتم بأمر نقله فقام بأعمال عاد نفعها للدولة والشعب، ووجد الفقراء فى عهده خيوطاً من النور كانت لأنفسهم أنساً وشفاءاً [٣] .

واستطاع أن يضم صعيد مصر تحت لوائه، وكان الصعيد فى ذلك الوقت له أهمية كبرى؛ حيث كان مركزاً للفقهاء الشيعة والسنة، فكان محط الأنظار إلى جانب أن مدينة قوص كانت تمثل واحدة من ثلاث مدن فكرية فى

---

١ - أسامة بن منقذ ــ كتاب الاعتبار ــ مقدمه وناشره ــ فيليب ــ ط جامعة ونشون سنة ١٩٣٠م ــ ص ٩

٢ - ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج١ ص٣٧ ــ ص ٤٦٧ ، ص ٤٦٨

٣- مقدمة ديوان طلائع بن رزيك ــ تحقيق ــ محمد هادى الأمينى ــ ص٩.

مصر في القرن السادس الهجرى وكانت أولها القاهرة والثانية قوص والثالثة في الإسكندرية [١].

وفي ذلك الحين كان الوزير عباس الصنهاجي مستبداً بالسلطة والحكم، والخليفة الظافر مستغرقاً في أهوائه وملذاته مع ابن عباس (نصر) فبات معه يلهو ويشرب الخمر، وينفردا بالجوارى حتى اتهما في أخلاقهما.

فاستغل عباس هذا الاتهام وأوحى إلى ابنه أن يقتل الخليفة حتى يبرئ نفسه من هذه التهمة، ويخلو لهما الجو للتفرد بالحكم ونهب أموال الدولة أكثر من ذلك، وبالفعل دبر نصر وعباس المؤامرة لاغتيال الخليفة الظافر، وقتله نصر عندما أتى له في إحدى الليالي ليلاً فألقى به في بئر بعدما قتله ولم يعرف أهل القصر ما حدث للخليفة.

وفي اليوم التالي استبد عباس بالحكم و اتهم أخوى الخليفة يوسف وجبريل وابن عمهما بقتل الخليفة وأمر بقتلهم أمام أهل القصر وكان هذا مشهدًا مروعاً لما حدث في القصر من قتل وعنف وسفك الدماء وقطع الرقاب، وشهد هذه الموقعة أسامة بن منقذ فقال (كان ذلك من أشد الأيام التي جرت على لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره الله سبحانه وجميع خلقه) [٢].

ثم قام عباس بتولية ابن الخليفة الظافر الخلافة وكان اسمه (عيسى) صغيراً لا يعدو الخمس سنوات ولقبه بالفائز بنصر الله وذلك في سنة ٥٤٩ هـ ، وحمله على كتفه وأمر أهل القصر أن يطيعوا هذا الطفل، وأن يكون هو الخليفة فقال من في القصر : سمعنا وأطعنا وصاحوا صيحة واحدة عظيمة زل منها عقل الصبي واختل حتى بال على كتف عباس [٣].

ومنذ ذلك الحين أصيب هذا الطفل طوال مدة خلافتة باضطراب نفسي لما شاهده من قتل وعنف وسفك للدماء أمام عينيه.

وكان عباس الصنهاجي مثل غيره من وزراء عصره المستبدين، اختار الخليفة صغير السن حتى يستبد بالحكم والسلطة، وأصبح أهل القصر ليس لهم من سلطان، فاستطاع عباس أن يمارس نشاطه في السرقة والنهب من أموال

١- د. فوزى أمين ــ الحركة الفكرية والأدبية ــ ص٤٣.

٢ - عبد الرحمن ابن إسماعيل المقدسي ــ الروضتين في أخبار الدولتين ــ ج١ ص٢٤٥.

٣- انظر: النويرى نهاية الأرب ص٢٨ ابن تغرى النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٠٨ ، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٣٩٥.

الدولة، وأكثر من الفساد والبغي، فاستوحش منه أهل القصر وكرهوا سياسته وازداد الامر سوءاً عندما اكتشف أهل القصر ما جرى للخليفة الظافر وأن عباس وابنه نصر هما القاتلان الحقيقيان له، ومن هنا دب القتال واشتد الفساد في البلاد وأسرع أتباع عباس بالتخلي عنه، وأخذ الناس يسمعونه المكروه في الشوارع والطرقات ويلقون عليه قدراً مملوءة ماءاً حاراً ويقذفونه بهاون من نحاس[1].

فكانت مصر في ذلك الحين في حاجة إلى حاكم حازم يسيطر على زمام الأمور ويقضي على طغيان عباس وولده نصر ويأخذ بثأر الخليفة المقتول ويحافظ على خيرات البلاد وثرواتها.

وسرعان ما ورد اسم (طلائع بن رزيك) في ذاكرة أهل القصر؛ لما عرفوه عنه من قوة وشجاعة وإصرار على العمل وإثبات ولائه لهم في حبه للعمل وإخلاصه في حب أهل البيت، لذلك استنجد به نساء القصر أخوات الخليفة الظافر، فبعثن إليه بشعورهن في كتب كلها سواد وكتب إليه فيمن كتب القاضي الجليس ابن الحباب بقصيدة منها قوله:

دَهَتْنِي عَنْ نَظْمِ الْقَرِيضِ عَوادِي ... وَشَفَّ فُؤَادِي شَجْوُهُ الْمتَمَادِي
فَأَينَ بَنُو رُزَيكَ عَنْهَا ونُصَرْهَمْ ... ومَالهُمْ مِنْ منْعَةٍ وَزِيَادِ[2]

وقد لبى طلائع النداء لما عرف عنه من نصرة الدين ومؤازرة أبناء النبي فحشد طلائع جنوده وخرج من الأشمونين والبهنسا [3]، وهما بصعيد مصر ـ متجهاً إلى القاهرة لإبساً السواد حاملاً شعور أهل القصر على الرماح ودخل قصر الوزارة وأخرج جسد الظافر من البئر الذى ألقي فيه بعد قتله وجعله في تابوت ومشى بين يديه إلى مرقده الأخير حافياً مكشوف الرأس وفعل الناس مثل ذلك وكثر في هذا اليوم الضجيج والبكاء والعويل[4] .

وعندما علم بذلك عباس وابنه نصر عزما على قصد الشام والاستنجاد بنور الدين محمود صاحب دمشق ، وكان عباس حريصاً على أن يأخذ معه ما

١- د. أحمد بدوى ـ مقدمة ديوان طلائع ـ ص٣ـ٤.
٢- ابن تغرى ـ الزاهرة ج٥ ـ ص٢٩٢ خريدة القصر ـ ج١ـ ص١٩٠.
٣- انظر ابن الاثير الكامل ـ ج١١ـ ص٧٣ ، النجوم الزاهرة ج٥ ـ ص٣٠٩ المقريزى المواعظ والاعتبار ج١ ص٢٠٥.
٤- مقدمة ديوان طلائع ابن رزيك ـ تحقيق د. أحمد بدوى ـ ص ٤.

جمعه من أموال الدولة وخيراتها التى نهبها، فكان يدبر أمر خروجه من القاهرة فاستحلف الأمراء ألا يخونوه لا يخامرون عليه، وبلغ ذلك طلائع فسار ونزل قبالة المقس، وقد خرج الأمراء إليه فمنهم من قاتله ومنهم من انضم اليه حتى انجلى الأمر عن فرار عباس وولده فنهب الناس دورهم، وفر عباس يقصد بلاد الشام، وفى ذلك الوقت أرسلت أخت الخليفة الظافر إلى الفرنج بعسقلان رسالة تعلمهم الحال وبذلت لهم الأموال فى الخروج لعباس، وبالفعل اعترض الفرنج طريقه فقاتلهم حتى قتل، واستولوا على ما معه هو وابنه من أموال وخيول وذهب، وأسر ابنه نصير وأرسل إلى مصر فى قفص حديد وخلعت يداه وضرب ضرباً مهلكاً وقرض بالمقراض ثم صلب على باب زويلة حتى مات، وبقى مصلوباً إلى يوم عاشوراء ، فى سنة ٥٥١ هـ ثم أنزل وحرقت عظامه[١].

ومن هنا قدر أهل القصر ما فعله طلائع وإنقاذه للخلافة وأخذه بثأر الخليفة، فخلعت عليه خلع الوزير، ولقب بألقاب الوزراء فى ذلك العصر ومنها (الملك الصالح ، نصير الدين ، وفارس المسلمين......وغيرها) من الألقاب التى اتخذها الوزراء لأنفسهم دليل تحكمهم فى الدولة، وأنهم أصحاب السلطان فيها.

ونستطيع أن نقول إن طلائع بن رزيك نال الوزارة دون رغبة منه فى أعتلائها، وإنما بترشيح من أهل القصر له، وهذا يجعله يختلف عن الوزراء الآخرين فى ذلك العصر، الذين كانوا يتقاتلون من أجل كرسى الوزارة فطلائع نال هذا المنصب لما عرف عنه من شجاعة وإقدام وإخلاص فى العمل وولائه لأهل البيت فهو جدير بالثقة والاحترام.

ومن هنا بدأت رحلة طلائع ابن رزيك فى منصب الوزارة و التى تولاها من سنة ٥٤٩هـ و امتدت إلى سنة ٥٥٦ هـ ، فعلى الرغم من قصر مدته فى الوزارة إلا إنها تعد صفحة مشرقة فى تاريخ مصر، لما قدم فيها طلائع من جهود وأعمال عادت بالنفع على مصر وأهلها، وهذا لا يعنى أن طلائع كان يخلو من الأخطاء فلا أحد معصوم من الخطأ، خاصة أنه كان يتقلد منصباً مغرياً تقع تحت يده جميع أمور الدولة وأموالها، والخليفة صغير السن طفل ليس له دراية بهذه الأمور، ولعلنا نتذكر هنا ما قاله عنه معاصره الشاعر الجليل عمارة اليمنى حين قال عنه:

١- انظر المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ص٢١٣ إلى ص٢٢٠ ، مقدمة ديوان طلائع د. أحمد بدوى ص٥، والنجوم الزاهرة ج٥ ص٣١٠ ، ص٣١١.

(كانت أحواله طوراً له وتارة عليه .... فما هو عليه فرط العصبية في المذهب ولو شرحت هذه الواحدة لكثرت وطالت واتسعت وعالت .... ومنها جمع المال واحتجازه وهذه هي غرامه وأشجانه ومنها الميل على جانب الجند وإضعافهم والقص من أطرافهم .... وأما التي له فكان مرتاضاً قد شم أطراف المعارف وتمز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة....) (١)

فمن الأشياء التي تؤخذ على طلائع أنه شرع في الميل على المستخدمين وأخذ أموالهم وتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم نعمتهم، كما أنه قبض على عدد من الأمراء وقتلهم وكان أشرهم (الأوحد ابن تميم) وإلي دمياط وتنيس وكانت بينه وبين طلائع عداوة لأنه كان يحقد على طلائع لتوليه منصب الوزارة فكان يطمع أن يكون محله؛ لذلك نقله طلائع لولاية أسيوط وأخميم فخلت له القاهرة، كما باع طلائع الولايات للأمراء وجعل لكل ولاية سعراً ومدة ستة أشهر فقط، فتضرر منه الناس لكثرة تردد الولاة عليهم.

كما أنه كوّن فرقة خاصة له لتكون طوع إرادته وقد أخذ في جلب أفرادها من برقة وسماها (فرقه البرقية) وأخذ يقتل كبار قواد مصر، وأفنى ذوى الرأى فيها حتى فر عدد كبير من أهل البلاد وأعيانها إلى الحجاز واليمن.

وكان طلائع هنا مثل غيره من وزراء عصره، فمنذ أيام الخليفة العزيز كون وزيره (يعقوب ابن كلس) طائفة عرفت(بالوزيرية) نسبه إلى هذا الوزير وهناك الوزير بدر الجمالي كون فرقة عرفت (بالجيوشية) في عهد الخليفة المستنصر(٢) وابنه الأفضل كون أيضاً فرقة عرفت (بالأفضلية) لتحمي استبداده وجعلها من المماليك والأرمن(٣).

فكانت فكرة تكوين الفرق قائمة منذ زمن، بدأها الوزراء، ثم قلدهم من جاء بعدهم فأمدت سلسلة وزراء التنفيذ وأن لهم مطلق الحرية في أن يفعلوا ما يرونه في صالح مصلحتهم الشخصية دون التفكير في صالح الدولة وجنودها .

---

١ - عمارة اليمنى ـ النكت العصرية ـ ص٤٨.

٢ - د. عبد المنعم ماجد - نظم الفاطميين ورسومهم في مصر - في جزئين - القاهرة ١٩٥٣م - ص١٩٩.

٣ - صبح الأعشى - القلقشندى - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر - الهيئة العامة- ج ٣ ـ ص ٥٠٨.

ومن الأعمال التي تحسب لطلائع في تلك الفترة وتدل على أنه كان يهتم بالعلم والمعرفة، أنه كان يخرج كل سنة مراراً البعوث، وكان يحمل في كل عام إلى أهل الحرمين مكة والمدينة من الأشراف سائر ما يحتاجون إليه من كسوة وغيرها حتى يحمل إليهم ألواح الصبيان التي يكتب فيها والأقلام والمواد و آلات النساء(١).

وعلى الرغم من تفاوت أقوال المؤرخين عن طلائع بشأن أعماله الداخلية وما آلت عليه الوزارة على يده، إلا إن المؤرخين أجمعوا على أنه واحد من الذين اهتموا اهتماماً كبيراً بمحاربة الفرنج والقضاء عليهم وهذا من أهم أعمال طلائع الخارجية ، فهذا هو الهدف الذى كان يحركه وكرس له كل جهده ولم يتوانَ في بذل الأموال والسلاح وإعداد الأسطول و تدريب الجنود ، وحتى لو احتاج الأمر لمعاونة ، المهم أن يحقق الأمن والنصر للبلاد وهذا ما يسوغ تكنيته (بأبي الغارات) لأنه كان دائم الحروب والمعارك، وكثيراً ما كان يشن الغارات في وجه الصليبيين وهذا اللقب هو تقدير لمجهود طلائع ابن رزيك في مواجهة الصليبيين خلال مدة وزارته في مصر .

وكان حال البلاد عندما تولى طلائع الوزارة في سوء ، وخاصةً وأنه في عهد الوزير ابن السلار أهمل إمداد الجنود بالأموال والمؤن لمحاربة العدو (الصليبيين) لذلك وقعت مدينة عسقلان فريسة في يد العدو ولذلك لم يبق لمصر مركز في القدس، واستولى العدو أيضاً على مدينة تنيس وقتلوا ونهبوا وأسروا، وكان هذا نتيجه انشغال ابن السلار بمحاربة ابن مصال والمحافظة على كرسي الوزارة، فجاء طلائع ابن رزيك منجداً حقيقياً للبلاد محاولاً التصدى للخطر الصليبي الذى بدأ يدق أبواب مصر، لذلك كانت أمنية طلائع في تحقيق هدفه هو معاونة نور الدين محمود له ، خاصةً وأنه استولى على الشام وقوى مركزه، وأصبح له قوة عظمى فيها فكثيراً ما بعث طلائع إليه قصائد ومراسلات شعرية ليحثه على أن يتحدا ليضيقا الخناق على العدو ، أحدهما يهجم من الشمال والآخر من الجنوب وكان يتفق مع طلائع في هذا الرأى صديقه الحميم أسامة ابن منقذ – وهو أحد أمراء الشام ومن رجال نور الدين محمود – فكثيراً ما تراسل الوزير والأمير بالشعر وفيها شارك كلاً منهما صاحبه فيما يصحبه من الخير والشر فكانت هذه المراسلات تفضح عن ود تمين بين قلبيهما وفيها كان يحث طلائع أسامه لإقناع نور الدين محمود

---

١ – د. محمد زغلول سلام الأدب في العصر الفاطمي – الكتابة والكتاب – ص٦٥.

كي يتحدا معاً ويحققا النصر للبلاد، ولكن يبدو أن مسعى طلائع لم تفلح في تحريض نور الدين محمود على قتال الصليبيين ، أو التحالف معه، وربما الذى حال دون تحقيق الهدف هو اختلاف العقيدة بين طلائع الشيعى ونور الدين السنى[1].

فوقف طلائع فى وجه الأعداء وحده بعد أن فقد الأمل فى أن يعاونه نور الدين على قتال الصليبيين أو التحالف معه، فأخذ زمام المبادرة بنفسه، وبعث عدداً من السرايا التى اشتبكت مع الصليبيين فى عدد من مدن الشام، فحققت بعض الانتصارات العسكرية التى تعد انتصارات معنوية كبيرة.

ولقد روى المقريزى فى كتابه أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا روايات مفصلة عن حروب طلائع موضحاً الجهود التى بذلها فى تحقيق خطته التى رسمها لنفسه [2].

وفي سنة ٥٥٥ هـ توفى الخليفة الفائز بعد مدة خلافة دامت ست سنوات ، لم يكن له فيها رأى ولا مشورة ، فاختار وزيره طلائع ابن رزيك الخليفة الجديد وهو ابن عم الفائز الأصغر ولقبه (بالخليفة العاضد) .

ويروى ابن الأثير فى كتابه (الكامل) أحداث مبايعة العاضد لدين الله والتى تعكس لنا هوان الخلفاء الفاطميين على وزرائهم، والعبث بهم، حيث دخل طلائع بن رزيك القصر الفاطمى، فاستدعى أكبر الخدم سناً، يستشيره فيمن يصلح للخلافة، فقال له: من هنا يصلح للخلافة؟ فقال ههنا جماعة، ذكر أسماءهم وذكر له منهم إنساناً كبير السن، فأمر بإحضاره، فقال له بعض أصحابه سراً : لا يكون عباس أحزم منك حيث أختار الصغير وترك الكبار واستبد بالأمر، فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه وأمر حينئذ بإحضار العاضد لدين الله أى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه الخليفة وكان مراهقاً قارب البلوغ [3] .

ومن هنا ضمن طلائع السيطرة على الدولة فترة أطول، حتى إن طمعه فى هذا المجد أوحى له أن يجبر الخليفة العاضد على الزواج من ابنته، فأراد بذلك أن يرزق بطفل يجمع فيه شرف الملك مع الخلافة، فكان لهذا التصرف أثره السئ عند أهل القصر، فشعروا أنه بدأ ينشر طغيانه وثقلت سياسته، لهذا

١- د. أحمد بدوى ـ الحياة الأدبية ـ ص١٣.

٢- أنظر المقريزى ـ اتعاظ الحنفا فى مواضع متعددة منها ج٣ـ ص٢٢٤ ، ص٢٣٦ ، ص٢٣٣.

٣ - ابن الاثير ـ الكامل فى التاريخ ـ ج٩ ـ ص ٤٣٨.

دبرت له عمة العاضد الكبرى مؤامرة لقتله لكنه نجا منها وعرف بأمرها فقتلها هو، ثم دبرت له العمة الصغرى مؤامرة أخرى لكنه لم يسلم منها هذه المرة، ولقد روى المقريزى فى كتابه اتعاظ الحنفا تفصيل هذه المؤامرة فقال إنها:

عرضت قوم من السودان الأقوياء أن يقيموا منهم في باب السرداب من الدهليز المظلم الذى يدخل منه إلى قاعة الجماعة ويقيموا آخرين فى خزانة هناك وأرسلت ابن الراعي والى الأمير المعظم ابن قوام الدولة صاحب الباب وقررت معه أن يخلى الدهليز من الناس ، فلما كان يوم التاسع عشر أكثب الصالح على عادته للسلام على الخليفة ، فلما انفصل من خدمة السلام بقاعة الذهب وخرج من الدهاليز عرض عليه أستاذ حديثاً طويلاً يقال له ابن عنبر الريفى، وتقدم رزيك بن الصالح ابنه فخرج رجلان وثبا على الصالح وضربوه بالسكاكين وشلت سلسلة ظهره فوضع يده على جرحه وأنشد:

إنْ كَانَ عِنْدَكَ يَا زَمَانِ بَقِيةٌ ... مِمَّا تُهِينُ بِهِ الْكِرَامِ فَهاتِهَا

وضرب رزيك ابن طلائع فى عضده الأيمن، وتكاثروا على الصالح فسقط على وجهه منكباً واستفرغ بالدم [1].

وكانت هذه الحادثة فى سنة ٥٥٦هـ ، ولا نجد أفضل مما قال الاصفهانى عندما توفى الملك الصالح طلائع بن رزيك فقال:

(... انكسفت شمس الفضائل الزاهرة، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاقت فضاء الفضل، واتسع جاه الجهل وانحل نظام أهل النظم وانتشر عقد ذوى النثر ، وأستشعر الفاقة الشعراء ، وعدم البلغة البلغاء ، وعُدّ الفضل فضولاً ، والعقل عقولاً ...)[2].

وبوفاة طلائع بن رزيك بدأ ابنه رزيك بن طلائع ـ خلفه فى الوزارة ـ مرحلة جديدة من الصراع المرير بغية الحفاظ على إرثه، بعد أن لقن الدرس من أبيه، وورث عنه حسن السيرة والشجاعة والكرم فمن أعماله الحسنة التى بدأ بها وزارته أنه سامح الناس بما عليهم من البواقى الثابته فى الدواوين وأسقط من رسوم الظلم مبالغ عظيمة، وظفر بقتلة أبيه وأخذ بثأره ويشهد له عماره اليمنى فى كتابه النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية بقوله:

---

١ - انظر المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ـ ج٣ ص٢٤٧ ص٢٤٨ ص٢٥٣ ، عمارة اليمنى ـ النكت العصرية ص٣٥ ، نهاية الأرب ص٢٨ ، النجوم الزاهرة ج٥ ص٣١٥.
٢ - الأصفهانى ـ خريدة القصر ـ ج١ ـ ص١٧٤

(من محاسن أيامه وما يؤرخ عنها بل هي الحسنة التي لا تـوازى ، واليد البيضاء التي لا تجازى ، خروج أمره إلى ولـى الإسكندرية بتـمسير القاضي الأجل الفاضل أبي على عبد الرحيم بن على البيسانى إلـى البـاب واستخدامه بحضرته ، وبين يديه في ديوان الجيش فإنه غرس منه للدولة بـل للملة شجرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت وفرعها في الـسماء ، تـؤتى أكلها كل حين بإذن ربها)[1].

وبذلك امتد مجد بنى رزيك مرة ثانية، فلقد حاول ابن رزيك بن الصالح أن يكون امتداداً لأبيه بما عرف عنه من جود وكـرم وحبـه لأهـل البيـت والتعصب الشديد لمذهبه، لكنه لم يكن على قدر كبير من الحكمة و الـسياسة التي تمكنه من التصرف في شؤون الدولة ومحاربة من يقـف فـى طريـق نجاحه، فقد أطاع من حوله من أقاربه الذين كانوا يحقدون عليه ومنهم عمـه (فارس المسلمين بدر بن رزيك وصهره سيف الدين)، فأطاعهم فـى عـزل شاور بن مجير السعدى وإلى قوص من منصبه، رغم أن والده حـذره مـن التعرض لشاور فكان طلائع يندم على ثلاث غلطات في حياته أولهـا ولايـه شاور الصعيد الأعلى ، والثانية بناء الجامع على باب زويلة فإنه مَضرَّة على القاهرة والثالثة خروجه بالعسكر إلى بلبيس وتأخيره إرسالها إلى بلاد الفرنج وكان قد أنفق على العساكر مائتى ألف دينار[2].

لكن (الأمير عز الدين حسام برق فضه) وهو من أقارب الملك العـادل رزيك ابن طلائع ، يلح عليه أن يعزل شاور ويأتى محله في ولايتـه قـوص الأمير نصير الدين شيخ الدولة ابن الرفعة، فكان لهذا التصرف رد فعل سـيئ من شاور، فأعلن الحرب على ابن رزيك ومن معه وكـان ذلـك فـى سـنة ٥٥٨هـ وكانت النتيجه مقتل ابن رزيك وتشتيت لباقى أفراد أسرته في البلاد ،وبذلك زالت دولة بنى رزيك ، وبزوالهم زالت دولة الفاطميين حيث بـدأت الجولة الأخيرة من جولات الصراع الوزارى الفاطمى بين الوزير شاور الذى احتل هذا المنصب بعد أن قتل ابن رزيك ، وبين ضرغام ـ وكـان رئـيس لفرقة جند طلائع الخاصة المعروفة بالبرقية ـ فأتى من الصعيد إلى القـاهرة ليثأر لمقتل رزيك ، فتمكن من هزيمة شاور حتى فر منه إلى الشام، وبـذلك أتاح لنفسه الفرصة في أن يحتل منصب الوزير واستبد بالحكم ونشر طغيانـه فكانت الدولة في حالة إعياء شديد فلا يوجد حاكم حازم أو من هـو حـريص

١ - عمارة اليمنى ـ النكت العصرية ـ ص٥٤
٢ - المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ـ ج٣ ـ ص٢٥٤

على مصلحة الدولة الفاطمية، بل الطمع والجشع فى نهب الأموال وخيرات الدولة هو الهدف الذى سعى إليه معظم رجال الدولة خاصةً وأن الخليفة لا وجود له ، ليس له من سلطان على الدولة، ومن يحاول أن يدافع عن دولة الفاطميين يكون مصيره القتل، فلقد قتل ضرغام أمراء الدولة حتى بدأ الضعف يسيطر عليها إلى أن آلت للسقوط بسبب ذهاب أكابر الدولة وأمرائها.

وعندما أحس شاور بالخطر استنجد بنور الدين محمود، فبعث إليه أسد الدين شيركوه، كما أنه استنجد بآخر ملك ببيت المقدس، وبذلك دخلت عناصر أخرى إلى مصر، وظلت مصر مسرحاً للصراع على الحكم والسلطة، ومن هنا وقعت مصر فريسة يتصارع من أجلها الفاطميون والزنكيون والأيوبيون ثم الصليبيون، حتى حسمت المعركة لصالح الأيوبيين، فاستولى عليها صلاح الدين الأيوبى وحجر على الخليفة العاضد فى أنه لن يتصرف فى أى أمر من أمور الدولة دون الرجوع إلى صلاح الدين، فهو تحت يده يفعل ما يرضيه ولا يفعل ما لا يرضيه[1].

وبدخول صلاح الدين الأيوبى مصر حقق مراده، وهو إبادة الآثار الفاطمية لاعتقاده أن عقيدتهم كفر وإلحاد فمحى كل ما يتعلق بهم حتى ما كتب عنهم فى الكتب والشعر والدواوين، وأحل محلها العقيدة السنية وكان هذا انتصار للسنة على الشيعة.

١- انظر ــ المقريزى ــ الخطط المقريزية ــ ج ١ ص ٣٥٨ ، اتعاظ الحنفا ــ ج٣ ص ٣٢٤ وما بعدها ، والنويرى ــ نهاية الأرب فى فنون الأدب ــ ص ٢٨، ابن الأثير ــ الكامل ج ١١ ــ ص ١٠٨، ابن تغرى ــ النجوم الزاهرة ــ ج ٥ ص ٣٥٧.

المبحث الثانى

الحياة الأدبية فى بلاط بنى رزيك

٢- الحياة الثقافية فى بلاط بنى رزيك:

أولى الفاطميون الشعر عنايتهم، وقربوا الشعراء، وأغدقوا عليهم، فقد أدركوا ما للشعر من أثر فى نشر دعوتهم، وأن له دوراً مهماً فى تأييدهم، وتوطيد أركان ملكهم وتأليف القلوب حولهم، وإضفاء العظمة والهيبة على ملكهم، وإعلاء شأن خلافتهم وخلفائهم أمام الخلافة العباسية المنافسة لهم فى بغداد(١) حتى بلغ من عناية الفاطميين بالشعر والشعراء أنهم خصصوا وظيفة لأحدهم باسم (مقدم الشعراء)، وأنهم جعلوا لبعضهم مرتبات شهرية مجزية.

كما أنهم خصصوا للشعراء يوماً من كل أسبوع للدخول على الخليفة، وكان الخليفة حريصاً على سماع كل الشعراء الواقفين ببابه، وإثابتهم، وهذا الحرص على سماع كل الشعراء دفع أحد الخلفاء وهو (الخليفة الحافظ) إلى أن يأمر الشعراء بالاختصار فيما ينشدون من أشعار، فدخل عليه شاعر يدعى أحمد بن المفرج، وأنشده:

أَمَرْتَنَا أَنْ نَصُوغَ الْمَدْحَ مُخْتَصَراً ... لِمَ لاَ أَمَرْتَ نَدَى كَفَّيْكَ يَخْتَصِرُ؟
وَاللهِ لاَبُدَّ أَنْ تَجْرِىِ سَوَابِقُنَا ... حَتَّى يبينَ لَنَا فِي مَنْحِكَ الأَثَرُ

فعدل الخليفةَ عن رأيه، وعاد الشعراء إلى ما كانوا عليه من الإطالة فى الإنشاد(٢)، كما ذهبت مبالغتهم فى تقدير الشعر والشعراء والاهتمام بهم إلى أنهم جعلوا طاقات فى منتزهات بركة الحبش، وعلى كل طاقة صورة شاعر، وبجانبها قطعة من شعره فى المدح، ويذكر المقريزى: "أن الخليفة الآمر هو الذى بنى هذه المنظرة فلما دخل وقرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده(٣)

كما يرجع اهتمام الفاطميين بالشعر والشعراء إلى أنهم كانوا مجيدين للشعر وتذوقه واستحسان معانيه، ويذكر التاريخ أن كثيراً من حكام ذلك العصر قرضوا الشعر، وعنوا بنظمه، فكان للخليفة المعز لدين الله الفاطمى نظم ونظر فى الأدب ومن أشعاره:

١- د. فوزى أمين ــ الحركة الفكرية والأدبية فى الإسكندرية ــ ١٠٥.
٢- المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ــ ج ٣ ــ ص ١٧٦.
٣- المقريزى ــ الخطط المقريزية ــ ج ٢ ــ ص ٣٧٩

للـــه مَـــا صَـــنَعتْ بِنَـــا	تِلْـكَ المَحَــاجِرُ فــي المَحَــاجِرِ
أمْضَى وأقْضَى فــي النُّفــوسِ	مـــنَ الخنَـــاجِرِ فـــي الحنـــاجِرِ
ولَــقَـــدْ تَعـــبِتَ بِبِنكـــمْ	تَعَــب المُهاجِـر فِي الهواجِرِ [1]

وهناك الخليفة الآمر وروى له المقريزى شعراً، منه ما يحـدثنا عـن عزمه على الجهاد، والسفر إلى بغداد حتى يعيد للدين وحدته، إذ يقول:

دَعْ اللَّومَ عَنِّى لَسْتَ منى بِمُوثـق	فَلابُدَّ لِــى مِــنْ صَـدْمَةَ المَتحقــق
وأسقِي جِيَادى مِنْ فُرَاتِ وَدَجْـلَةَ	وأجْمع شَمَلَ الدِّينَ بَعْدَ التَّفَــرقِ [2]

وكان وزراؤهم كذلك يتذوقون الشعر، بل وينظمونه أيضاً، فمـا قالــه الأفضل بن بدر الجمالى فى غلامه تاج المعالى:

أقَـــضِيبُ يمَـــيِنَ أمْ هَوَقَـــد	أوْ شَقَيِق يلُــوح، أمْ هُــوَ خَــدْ
أنَا مِثْــل الهَــلالِ ، سَقَماً عَلَيه	وَهُــوَ كَالبَدْر، حِيَن وافا سَعَدْ [3]

ومن خلال هذه النماذج نستطيع أن نقول إنّ الدولة الفاطمية كانت تقدّر الشعر والشعراء وهذا لم يأتِ من فراغ، فالخلفاء والوزراء والأمراء كانوا فى الأصل شعراء، أجادوا فن الشعر وتذوقوه، وبما أننا بصدد بلاط بنى رزيـك فإننا نجده أكثر اهتماماً وحظاً فى مجال الشعر والذى ساعد على ذلـك هـو شخصية الوزير طلائع بن رزيك التى تتميز بعدد من السمات التى أهلتـه أن يجعل من بلاطه قبلة للشعراء والأدباء فى مصر والعالم الإسـلامى؛ إذ وفـد على بلاطه عدد غير قليل من الشعراء الكبار، وسوف يوضح البحث ترجمـة لهم فيما بعد، ولكى نستطيع أن نلمس ونتبين الأسباب وراء ازدهـار الـشعر والشعراء فى بلاط بنى رزيك علينا أن نقف عند:

أولاً: شخصية طلائع بن رزيك:

والتى تميزت وانفردت بالآتى:

أ - ثقافته:

تربى طلائع على العلم والمعرفة على يد والده الـذى تعهـد بتأديبـه وتربيته منذ أن كان شاباً صغيراً، فألم طلائع بالعديد من علوم عصره منهـا

---

١ - ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج ٢ ــ ص ١٠٣
٢- المقريزى ــ الخطط المقريزية ــ ج ٤ ــ ص ٧٨
٣- المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ــ ج ٣ ــ ص ٧٣

علم المنطق والرياضيات والموسيقى، والطب، والتنجيم والطبيعات والإلهيات وكانت تسمى فى ذلك العصر بالعلوم الفلسفية كما أنه درس العلوم اللغوية والعربية واهتم اهتماماً خاصاً بالشعر العربى فتذوقه ولمس معانيه، حتى برع فى نظمه وأجاد فى إنشاء قصائد خلدت ذكره على مر التاريخ.

فكان طلائع حريصاً على التزود بالعلم والمعرفة والتفقه فى جميع العلوم والآداب، حيث كان يلقى بنفسه في زاوية للمطالعة رغبة منه فى الكمال، تلك الرغبة التى تسلطت عليه منذ نعومة أظافره، فاهتم بتكوين نفسه علمياً وثقافياً، وأنفق فى سبيل ذلك أموالاً كثيرة فى طلب العلم والمعرفة حتى أصبح حكيماً وافر العقل رضى النفس، بصيراً بالتجارب عالماً بأيام الناس وبصيراً بالعلوم الأدبية محباً إلى الناس لإظهار الفضل والدين وإنكاره الظلم والفساد (1)

ومع مرور الزمن اتخذ هذا الكمال منحنى جديداً غير منحنى الثقافة والمعرفة، فهو يريد أن يكون رجل مجتمعات علمية يشار إليه فى المنتديات الأدبية والجمعيات العلمية ويريد أن يكون حديث مجالس ينصت إليه ذووه ويصفه التاريخ بأحسن أوصافه من النبل والتهذيب والظرف واللباقة (2).

كما أقبل طلائع على دراسة العلوم الفقهية وسائر علوم القرآن الكريم والأحاديث حتى إنه ألف كتاباً جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو كتاب (الاعتماد فى الرد على أهل العناد) وهو كتاب يتضمن الأحاديث الواردة فى الإمام على بن أبى طالب وأحقيته بالخلافة.

وله قصيدة أشار إليها المقريزى فى أنه كان يجادل بقوة عن مذهب المعتزلة فى القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية وله فى ذلك قصيدة سماها (الجوهرية فى الرد على القدرية) ومن قوله فى الرد عليهم:

يَـا أُمَّـةً سَلَكَتْ ضَـلالاً بيِنـاً ... حَتىّ استَوى إقْرارُهَا وجُحُودُهَـا (3)

وإلى جانب هذه الثقافة الواسعة، فإن طلائع كان فارساً شجاعاً تدرب على الفروسية وأجاد فيها، وكان الفضل فى ذلك يرجع لوالده الذى شجع فيه روح المحارب الفارس، والتطلع لأخذ ثأره، كما أنه حبب إليه رياضة الصيد وتعلم الصبر والقدرة على تحمل الصعاب.

---

1 - المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ـ ج 3 ـ ص 73

2 - ديوان طلائع ـ المقدمة ـ تحقيق محمد هادى الأمينى ـ ص6.

3 - ديوان طلائع ـ تحقيق د. أحمد بدوى - ص46

ب ـ شاعريته:

كان طلائع بن رزيك من أعظم وزراء العهد الفاطمى الأخير حظاً من الشعر وله نماذج من الشعر كثيرة جمعت فى ديوانه المطبوع والذى قام بتحقيقه الأستاذ محمد هادى الأمينى وهو أديب عراقى، وهناك تحقيق آخر بقلم دكتور/ أحمد أحمد بدوى، ومن خلال هاتين النسختين اللتين بين أيدينا يتضح لنا مدى شاعرية طلائع وقدرته على نظم الشعر.

وشعر طلائع متوسط الجودة، يرتفع فى كثير من الأحيان، ويمتاز بالتماسك بين أجزائه، وتسلسل الانتقال من خاطر إلى خاطر، فهو بالرغم من طول نفسه أحياناً إذ تبلغ القصيدة أربعة وستين بيتاً، ترتبط أبياته بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، حتى يخيل إلينا أننا نقرأ رسالة منثورة لا قصيدة منظومة، ولعل أطول قصائده هى القصيدة الميمية التى أولها:

أَلاَ هَكَذَا فــى اللهِ تَمْضِي العزائم وَتَمضي لَدَى الْحرْبِ السُّيوفُ الصوارمُ

وتعددت الأغراض الشعرية الموجودة فى ديوان طلائع بين قصائد المدح والرثاء [١] والفخر والوصف والغزل وقصائد فيها زهد وحكمة، وحنين وعتاب وغيرها، فكان لديه ملكة شعرية تساعده على تسجيل حوادث الزمان وكأنه أراد بذلك تخليد أعماله وأمجاد بنى رزيك وأيامهم، فكثيراً ما كان يفخر بانتصاراته وصولاته فى مواجهة العدو واصفاً كيف تصدى لهم وهزمهم بكل قوة وشجاعة، محاولاً إقناع نور الدين محمود أن يتحدا ويعقدا اتفاقاً بينهما للتصدى للصليبيين.

فأرسل طلائع لأسامة بن منقذ قصائد شعرية كثيرة ليكون همزة الوصل بينه وبين نور الدين محمود، وكثيراً ما راسله طلائع بالشعر ليخبره عن أخباره وأخبار جيشه وأسطوله، ويصور له فى قصائده هذه كيف خاض المعارك وحقق فيها انتصاراً كبيراً وعاد العسكر منها غانمين، وكان يرد عليه أسامة بن منقذ أيضاً بالشعر، فهذه المراسلات الشعرية تعد من أجود القصائد التى وردت فى ديوان طلائع بن رزيك، ومن خلال هذه الأشعار يتبين لنا أنه كان رجلاً عظيم المنزلة استطاع أن يكون سياسياً ماهراً، فارساً شجاعاً فى حياته الرسمية داخل البلاط الفاطمي وفي الوقت نفسه نراه يخلص إلى شعره

---

(١) مقدمة ديوان طلائع بن رزيك ـ تحقيق: أحمد بدوى، ص ٣٠

وفنه ويقتحم ميادين الأدب اقتحاماً، ولجودة شعر طلائع أثنى عليه العديد من النقاد المعاصرين له واللاحقين به؛ منهم صديقه الشاعر عمارة اليمنى فقال عنه "إنه كان شاعراً محباً للأدب وأهله، ويكرم جليسه، ويبسط أنيسه، وكان كرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل" (١)

وقال عنه العماد الأصفهاني "نفق في زمانه النظم والنثر واسترق بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء واتخذهم لنفسه جلساء، ورحل إليه ذوو الرجاء وأفاض على الداني والقاصي بالعطاء، وله قصائد كثيرة مستحسنة، أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام، وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته وإحكام مباني حكمته، وأقسام معاني بلاغته(٢).

وقال عز الدين بن الأثير الجزرى "كان الصالح كريماً فيه أدب، وله شعر جيد، وكان لأهل العلم عنده إنفاق ويرسل إليهم العطاء الكثير (٣)

كما قال عنه ابن خلكان "إنه كان فاضلاً، سمحاً في العطاء، سهلاً في اللقاء، محباً لأهل الفضائل جيد الشعر ووقفت على ديوان شعره، وهو في جزأين(٤).

أما المقريزى فلقد أشاد بأنه "كان شجاعاً، كريماً، فاضلاً، محباً للأدب وأهله جيد الشعر، رجل وقته، فضلاً وعقلاً، وسياسة وتدبيراً، وكان مهاباً في شكله عظيماً في سطوته وجمع أموالاً عظيمة، وكان محافظاً على الصلاة فرائضها ونوافلها شديد المغالاة في التشيع (٥)

وقال أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي" لقد ساس الأمور ، وتلقب بالملك الصالح وسار في الناس أحسن سيرة وفخم أمره، وكان طلائع أديباً كاتباً ولما ولى الوزير وتلقب بالملك الصالح خلع عليه مثل الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي من الطلمسان الموقر، وأظهر مذهب الإمامية وجعل له مجلساً في أكثر الليالي يحضره أهل الأدب ونظم هو شعراً ودونه وصار الناس يهرعون إلى نقل شعره (٦)

---

١ – عمارة اليمني ــ النكت العصرية ــ ص ٤٨
٢ – الأصفهاني ــ خريدة القصر ــ ج ١ ــ ص ١٧٤
٣ – ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ ــ ج٩ ــ ص ٧٥
٤ – ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج١ ــ ص ٢٠٨
٥ – المقريزى ــ نقلاً عن ديوان طلائع ــ تحقيق د. أحمد بدوى ص ٢٤، ص٢٥
٦ – ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة ــ ج ٥ ــ ص ٣١٠.

وقال المؤرخ الفقيه العماد الحنبلي: "وكان أديباً شاعراً فاضلاً شيعياً جواداً ممدوحاً وكان في نصر التشيع كالسكة المحماة، كان يجمع الفقهاء ويناظرهم على الإمامة وعلى القدر وله مصنف في ذلك سماه: الاجتهاد في الرد على أهل العناد، قرر فيه قواعد التشيع" (١)

وقال خير الدين الزركلي : طلائع بن رزيك وزير عصامي يعد من الملوك أصله من الشيعة الإمامية، كان شجاعاً حازماً مدبراً جواداً صادق العزيمة عارفاً بالأدب شاعراً له ديوان شعر في جزأين، وكتاب سماه — الاعتماد في الرد على أهل العناد — ووقف أوقافاً حسنة، ومن آثاره جامع على باب زويلة بظاهر القاهرة وكان لا يترك غزو الفرنج في البحر والبر"(٢)

كما أثنى عليه الشيخ الأكبر الأميني، والشيخ عباس بن محمد رضا القمي، علي بن أحمد السخاوي الحنفي(٣) وغيرهم من النقاد، ومعاصروه الذين بينوا لنا ما كان عليه طلائع من فضل وعلم ومواهب وعبقرية وأدب ، فضلاً عن قدرته العالية في مجال الحرب والشئون السياسية التي تعامل معها بحكمة.

وبعدما تعرضنا لهذه الآراء التي دلت على شاعرية طلائع وجودة شعره، نشك فيما قيل عنه إن أكثر أشعاره ليست من صنعه وإنما هي من صنع المهذب بن الزبير والجليس بن الحباب وهما شاعران كانا ينضمان لبلاطه وصديقان مخلصان له ، فالعماد الأصفهاني قال:

(إن المهذب بن الزبير كان ينضم له والجليس بن الحباب كان يعينه)(٤)

وقال صاحب النجوم الزاهرة (جعل له مجلساً في أكثر الليالي يحضره أهل الأدب، ونظم هو شعراً ودونه، وصار الناس يهرعون إلى نقل شعره وربما أصلحه له شاعر كان يصحبه يقال له ابن الزبير)(٥)

كما قال ياقوت الحموي (إن أكثر الشعر الذي في ديوان الصالح إنما هو من عمل المهذب ابن الزبير، وحصل له من الصالح مال جم، ولم ينفق عنده أحداً مثله)(٦)

---

١ - العماد الحنبلي — شذرات الذهب — ج ٤ — ص ١٧٧.
٢ - خير الدين الزركلي — الأعلام — ج٣ — ص ٣٢٩.
٣ - أنظر مقدمة ديوان طلائع بن رزيك وردت فيها آراء هؤلاء المؤرخين — ص ٣٧ ، ص ٣٨ — تحقيق محمد هادي الأميني.
٤ - الأصفهاني — خريدة القصر — ج١ — ص ١٧٤.
٥ - ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة — ج ٥ — ص ٣١٣
٦ - ياقوت الحموي — معجم الأدباء — ص٩ — ص ٤٧

فلا شك فى أن هذا الاتهام كان عن جهل بقدرة طلائع الشعرية، ويؤكد لنا هذا تميز شعره وجودة معانيه وإحكامه حتى إنه لم يصدق من يقرأه أنه من صنعه دون مساعدة، وربما جاء هذا الاتهام لكثرة ملازمة المهذب بن الزبير والجليس بن الحباب لطلائع فكانا يتنافسان فى نظم الشعر ويتنافسان فى بعض المسائل الفقهية والشعرية والبلاغية وبالطبع كان يستفيد منهم طلائع فى تنقيح شعره، وهذا ليس عيباً يؤخذ عليه إنما هو دليل على حرصه على أن يقدم أشعاراً جيدة خالية من الأخطاء، ولعله اقتدى بفحول الشعراء العرب من تنقيحهم للشعر وتجويده والروايات الدالة على هذا كثيرة ومتناثرة فى بطون كتب تاريخ الأدب العربى نحو البحترى ومروان بن أبى حفصة ... وغيرهما[1]

فالذين عاشوا مع طلائع وخالطوه واشتركوا فى مجلسه لم يشكوا فى شعره غير أن الذى يظهر لنا أن الملك الصالح كان ينشد القصيدة أو المقطوعة، ولكنه كان يعرض ما ينشده على المهذب ابن الزبير وعلى غير المهذب ممن كان يتوسم فيهم المقدرة والكفايه على تثقيف الشعر [2].

كما أن طلائع كان يرتجل الشعر فى بعض المواقف وكان ينشد شعراً جيداً دون تنقيح من أحد ونستدل على ذلك بما ذكره عنه الشاعر عمارة اليمنى فى كتابه فقال:

دخلت عليه ليلة السادس عشر من شهر رمضان سنة ٥٥٦هـ قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السماط، ولم أكن رأيته من أول الشهر بليلة فأمر لى بذهب وقال لا تبرح، ودخل ثم خرج إلى وفى يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما فى تلك الساعة هما:

نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَنَوم وللْمَو ... ت عَيُونٍ يَقْظَانَةٍ لاَ تَنَامُ
قَدْ رَحَلْنَا إِلَى الْحمام سِنَيناً ... لَيتَ شِعْرِي مَتَى يَكُونُ الحِمَامُ

ثم قال لى "تأملهما وأصلحهما إن كان فيهما شىء ، قلت هما صالحان".[3]

وهناك رواية أخرى رواها عمارة اليمنى تدل أيضاً على حب طلائع بن رزيك للشعر وقوله ارتجالاً ، وهذه الرواية هى أنه عندما دخل عمارة مصر

١- مقدمة ديوان طلائع ــ تحقيق محمد هادى الأمينى ــ ص ٤٥.
٢- المصدر نفسه ــ ص ٤٤ ــ ص ٤٥.
٣- عمارة اليمنى ــ النكت العصرية ــ ص ٤٨ ــ ص ٤٩.

والتقى بأحد أفراد أسرة آل رزيك وهو الأجل سيف الدين بن أبى الهيجاء صهر الصالح وهو الذى أبلغ الصالح بوصوله وقال له: عندى رسول صاحب مكه وكنت أظنه عاقلاً وإذا هو ناقص قال له الصالح: وبأى شىء عرفت نقصه قال لكونه يحسن شيئاً من هذا السحت الذى تعمله أنت والجليس وابن الزبير قال الصالح: لعله شاعر قال نعم، قال الصالح هاته هات الرجل ثم أنشد الصالح:

إنَّ الـذِى تَكْـرَهُـونَ مِنْـهُ ... ذَاكَ الَّـذِى يَشْتَهِيـهِ قَلْبِـي [1]

ولعل هذه القصة توضح لنا مدى حب طلائع للشعر وحرصه على سماع الشعراء واستقبالهم وحسن ضيافتهم حتى لو لم يكن بينه وبين هؤلاء الشعراء معرفة من قبل فهو مستعد لأن يتعرف عليهم بل ويكون صديقاً لهم ، لأنه تجمعهم صفه واحدة وهى حب الشعر وإجادة نظمه، ومسألة عرض شعره على غيره من الشعراء فهى مجرد عادة اعتاد عليها طلائع للتأكد من سلامة شعره وهذا دليل حرصه على أن يقدم أفضل ما عنده وأجوده من معانٍ وألفاظ وتعبيرات حتى تعلق فى أذهان سامعيه.

جـ- عقيدته:

ينتمى الفاطميون إلى الشيعة الإسماعيلية الذين يعتقدون بالمعتقد الإسماعيلى نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق والذى ينحدر نسبه من على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ وهم يعتقدون أن الإمامة فى إسماعيل.

وهناك أيضاً الشيعة الإمامية أو (الاثنا عشرية) والتى يعتقدون فيها بانتقال الإمامة إلى موسى الكاظم أخى إسماعيل.

وينتمى طلائع بن رزيك للشيعة الإمامية وهى أكثر الفرق غلواً وتعصباً؛ إذ يؤمنون بأن الولاية هى الأساس، وفلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتمجيده أكثر من أى شىء أخر، والأئمة عندهم معصومون من الخطأ، فهو يرتفع فوق المستوى الإنسانى بفضائل فطرية تجعلهم مبرئين من الذنوب، ومطهرين من الآثا، لا يتورطون فى معصية؛ ولا يقعون فى أى خطيئة، مهما كانت صغيرة، لما ينتقل فى أصلابهم من نور إلهى ينقى أرواحهم ويخليها من دواعى الشرور وآثامه وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى

---

١ - عمارة اليمنى ــ النكت العصرية ــ ص ١٢٢

انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكأنما أصاب علياً حفيده الآخر منه شعاع لا يزال ينتقل فى الأئمة جيلاً بعد جيل[1].

لذلك طاعة الإمام على بن أبى طالب ــ كرّم الله وجهه ــ هى ركن أساسى من أركان الدين فى رأى الفاطميين، وهذا ما تبين لنا من خلال مدائح طلائع بن رزيك فى الإمام على بن أبى طالب وألفاظه وكلماته المعبرة عن حبه الشديد لآل البيت والعترة الطاهرة ، فديوانه الذى حققه الأستاذ محمد هادى الأمينى يضم عدداً غير قليل من القصائد الشعرية التى مدح فيها طلائع أهل البيت وتحدث فيها عن بعض المسائل والأمور الخاصة بالمعتقد الفاطمى منها مسألة الخلافة ، ومسألة الإرث وأحقيه الإمام على بهذه الخلافة ووجوب طاعته، وأنه سيظل حياً حتى يعود ليملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً .

فطلائع نشأت فى نفسه روح العقيدة والولاية والتفانى فى ولاء أئمة الدين عليهم السلام ونشر مآثرهم والدفاع عنهم بنعمه وقلبه ونظمه، وبحبه لأهل البيت وإخلاصه استطاع أن يصل إلى قلوب الفاطميين ويتقرب من أهل القصر، فكان تشيعه هذا من أهم الأسباب التى قوّت مركزه عند أهل القصر وجعلته من المقربين والمخلصين لهم.

وكما كان معتقده الشيعى سبباً فى تقربه من أهل القصر، كان فى النهاية أحد الأسباب التى أزعجت منه أهل القصر لأنه كان شديد التعصب للشيعة الإمامية وهم كانوا من الشيعة الإسماعيلية ، وعلى الرغم من ذلك كان سياسياً في أمور كثيرة محاولاً إثبات ذاته وتقوية مركزه فحاول أن يدعو لمعتقده بشتى الطرق، واتخذ من شعَره وسيلة لذلك حتى أنه كان يضم أكبر عدد من الشعراء والأدباء فى مجالسه الأدبية التى كان يعقدها كل ليلةَ فى القصر حتى تدور فيها المبادلات والحوارات الفكرية والفقهية ومناقشة الأحاديث الواردة فى على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ وأحقيته بالخلافة حيث أوجب الرسول خلافة على عند غدير (خم) فقال : مَنْ كنتُ مولاه فَعلىٌّ مولاه.

لذلك رفض الشيعة خلافة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وفيما بعد لم يعترفوا بالأمويين والعباسيين، ولقد ألف طلائع فى ذلك

١- د. شوقى ضيف ــ تاريخ الأدب العربى ــ عصر الدول والإمارات ــ دار المعارف مصر ــ ص ٥٧ ــ ص ٥٨.

كتاباً، وقال عنه المقريزى: إنه كان محافظاً على الصلاة فرائضها ونوافلها شديد المغالاة فى التشيع [1]

وقال ابن العماد الحنبلى: وكان فى نصر التشيع كالسكة المحماه كان يجمع الفقهاء ويناظرهم على الإمامة وعلى القدر [2]

وهذا دليل على ثقافة طلائع الواسعة التى شملت العديد من علوم الشريعة وفروعها وأصولها محاولاً التفانى فى سبيل توحيد الكلمة والتفانى فى حبه لآل البيت وعترة نبيه الأقدس عليهم السلام وإذابة شخصيته فى سبيلهم والنضال والمثابرة فى الذود عن عزم الله والذب عن أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بحيث أصبح فى هذا السبيل كالسكة المحماه[3]

ثانياً: المجالس فى بلاط بنى رزيك:

تجلت ثقافة طلائع بنى رزيك عند وصوله لكرسى الوزارة، لأنه اختلف عن كثير من وزراء عصره فى أنه اهتم بالعلم والأدب، وحرص كل الحرص على إقامة المجالس التى كان يرتادها المثقفون والأدباء على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ويتجادلون فيما بينهم.

فيذكر لنا عمارة اليمنى أحد معاصريه أنه لم تكن مجالس أنسه تنقطع إلا بمذاكرة فى أنواع من العلوم الشرعية والأدبية وفى مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته .. وكان مرتاضاً، قد شم أطراف المعارف، ويتميز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله ويكرم جليسه ويبسط أنيسه، وكان كرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل[4]

أما العماد الأصفهانى قال هو سلطان مصر فى زمان الفائز، وأول زمان العاضد، ملك مصر استولى على صاحب القصر، ونفق فى زمانه النظم والنثر، واسترق بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء، واتخذهم لنفسه جلساء ورحل إليه ذوو الرجاء وأفاض على الدانى والقاصى بالعطاء[5]

---

١ - المقريزى - اتعاظ الحنفا - الجزء الثالث - ص ٤٠١
٢ - ابن العماد الحنبلى ــ شذرات الذهب ــ ج ٤ ــ ص ١٧٧
٣ - مقدمة ديوان طلائع بن رزيك ــ تحقيق محمد هادى الأمينى ــ ص٧
٤ - عمارة اليمنى ــ النكت العصرية ــ ص ٤٨ ــ ص٤٩
٥ - العماد الأصفهانى ــ خريدة القصر ــ ص ١٧٣

ويذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه جعل له مجلساً فى أكثر الليالى يحضره أهل الأدب ونظم هو شعراً ودونه، وصار الناس يهرعون إلى نقل شعره (١)

فطلائع بن رزيك قدّر للكلمة قيمتها، وساعده على ذلك العوامل التى كونت شخصيته الجادة، الطموحة، الحكيمة، التى استطاعت أن تخلد ذكر صاحبها فيكفى أن نذكر ما قاله العماد الأصفهانى فى خريدته واصفاً ما حل بالأدب بعد مقتل (طلائع) لنبين إلى أى حد كانت عنايته بالأدب وأهله.

"وانكسفت شمس الفضائل الزاهرة، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، وانتثر عقد ذوى النثر، واستشعر الفاقة الشعراء، وعدم البلغة البلغاء" (٢)

فكانت مجالس طلائع الأدبية تناقش فيها القضايا البلاغية والنقدية، وتقام فيها المباريات الشعرية إلى جانب المجادلات الفقهية والفكرية، وسوف يعرض الباحث بعض نماذج من هذه المجالس، فيحدثنا عمارة اليمنى صديق طلائع وأشهر معاصريه عن هذا فيقول:

"أنه كانت تجرى بحضرته مسائل ومذاكرات ويأمرنى بالخوض مع الجماعة فيها وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين فى مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عزوجل "فلا تقعد معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره" ونهضت وخرجت فأدركنى الغلمان فقلت حصاه يعتادنى وجعلها فتركونى، وانقطعت فى منزلى أياماً ثلاثة ورسوله فى كل يوم والطبيب معه ثم ركبت بالنهار فوجدته فى البستان المعروف بالمختص فى خلوه من الجلساء، فاستوحش من غيبتى وقال: خيراً، فقلت إنى لم يكن بى وجع، وإنما كرهت ما جرى فى حق السلف، وأنا حاضر فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت وإلا فلا وكان لى فى الأرض سعة وفى الملوك كثرة فعجب من هذا، وقال: سألتك بالله ما الذى تعتقد فى أبى بكر وعمر، قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا، ولا عليكم وأنه ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه ثم قرأت قوله تعالي" ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه" فضحك وكان مرتاضاً

---

١ - ابن تغرى بردى ـــ النجوم الزاهرة ـــ الجزء الخامس ـــ ص ٣١٣
٢ - العماد الأصفهانى ـــ خريدة القصر ـــ ص ١٧٤

حصيفاً، قد لقي في ولاية فقهاء السنة وسمع كلامهم، وبعد أيام جاءتني منه رقعة وفيها أبياتاً بخطه، ومعها ثلاثة أكياس ذهباً والأبيات أولها:

قُلْ للفقيهِ عُمَارة يا خَيْرَ مَنْ ... أضحَى يُؤلِّفُ خُطبةً وخِطَابا

فأجابه عمارة مع رسوله بأبيات أولها:

حَاشَاكَ مِنْ هَذَا الخِطَابِ خِطَاباً ... يَاخَيرَ أَمْلاكِ الزَّمَانِ نِصَابا[1]

وهنا يظهر لنا أن طلائع صار يدعو لمذهبه الشيعي ويحاول أن يضم تحت لوائه الكثير، لكن رغم فشل هذه المحاولة مع عمارة اليمني لأنه سني المذهب إلا أن طلائع كان متسامحاً فالبرغم من كل شيء دامت علاقتهما طويلاً ولم تتأثر باختلاف المذاهب بينهما.

كما روى ابن ظافر في كتابه بدائع البدائه فيقول: أخبرني بعض أصحابنا أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التي يسميها المصريون الزكالش ويسميها العراقيون كان وكان.

النَّارُ بَيْنَ ضُلُوعِي ... وَأَنَا غَرِيقُ مَدَامِعِي
كَأنِّي فَتِيلَةُ قِنْدِيل ... أَمُوتُ حَرِيق غَرِيق

وكان عنده القاضي الجليس بن الحباب، والقاضي المهذب بن الزبير فتقدم إليهما بنظم معناه فصنعا بديهياً فكان ما صنعه الجليس:

هَلْ عَاذِرُ إنْ رُمْتُ خَلْع عِذَارِي ... فِي شَمِّ سالفة ولثم عِذارِ
وَتَتَألف الأضداد فيه ولمَ تَزَل ... فِي سَالِفِ الأيَامِ ذَاتَ نِفَارِ
فله مِنْ الزفراتِ لَفْحُ صواعقٍ ... وله مِنْ العَبَراتِ لجُ بِحَارِ
كذُبالةِ القِنديل قُدرَ هَلَكُها ... مَا بَيْنَ مَاء في الزُّجاج ونَارِ

وكان ما صنعه ابن الزبير:

كأني، وَقَدْ سَالَت سيولُ مَدَامِعِي ... فَأذكَتْ حَرِيقاً في الحَشَا والتَّرائِبِ
ذُبَالَةُ قِنْدِيلٍ تَعُومُ بِمَائِها ... وتُشْعَلُ فِيهَا النَّارُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وصنع الصالح:

وإذا تشب النَّار بَينَ أَضَالعِي ... قَابَلْتُهَا مِنْ عبْرتِي بِسيولِ
فَأنَا الحَرِيقَ بلْ الغَرِيق أمُوت في ... هَذَا وذَا، كَذُبَالَةِ القِنديلِ [2]

---

١ – عمارة اليمني – النكت العصرية – ص ٤٤ إلى ص ٤٦

٢ – على بن ظافر الأزدي – بدائع البدائه – مطبعة بولاق سنة ١٢٧٨ هـ – ص ٢٥٠

فهذه الرواية تدل على أنه كان فى مجلس طلائع مناقشة بعض القضايا النقدية، وتبادل الآراء فيها وكل فرد يدلى برأيه أو بنظم من شعره.

كما كان يناقش فى مجلسه كتب الحديث وما بها من قراءات فينكر على بن ظافر:

"وأخبرنى القاضى الأشرف أبو الحسن على بن مؤيد رحمه الله ــ قال ــ أخبرنى والدى قال: كان الصالح بن رزيك الوزير لا يزال يحضر مجلسه فى ليالى اجتمع جلساؤه وبعض أمرائه لسماع قراءة مسلم والبخارى وأمثالهما من كتب الحديث وكان الذى يقرأ رجلٌ أبخر، فلعهدى به وقد حضر المجلس مع الأمير على بن الزبير والقاضى الجليس بن الحباب وقد أمال وجهه إلى القاضى المهذب بن الزبير وقال له: أبخر قلت: لا تجلس جنبى.

فقال الأمير: إذا قابلت بالليل البخارى.

فقال الجليس: ولم؟

فقلت:

وقَـدْ سَئِمـتَ بِـلا احْتشَامِ لأنكَ دَائماً مِنْ فِيكَ خَارِى [1]

ومما يؤكد أيضاً أن مجالس طلائع بنى رزيك كانت معروفة لدى المؤرخين والنقاد ما رواه الوهرانى حيث قال: هذا طلائع بن رزيك مع سخافه عقله وسكره من خمر الولاية قال يوماً فى مجلسه لما عرض عليه الشيرزى قصائد الشعراء (ورقاع المكدين) من أهل الشام، ومن جملتها رقعة لابن العميد سطر مكتوب بالأخضر اليانع وسطر بالأخضر الفاقع وسطر بالأبيض الناصع وسطر بالذهب الخالص، فى الورق الأحمر القانى مطرز الجوانب بالذهب الإبريز من صاحب هذه الرقعة يازتى؟ فقال: رجل من رؤساء دمشق ومقدميهم أحذق الناس بالرويق فى الأوراق، والتصحيف بالألفاظ، ومعرفة أصناف الفواكه والثمار فقال له ابن رزيك: ما أدرى ما تقول غير أنك سلبت (هذا المذكور) فضل الفضلاء ونسبته إلى الفلاحة والرعونة والجنون، ومع هذا فهى رقعة رجل مهيف (تدل على جهل قائلها ومهانته).

ألا ترى أن الناس توصلوا إلينا بالفضل والبلاغة وتوصل هذا الرجل بلعب البنات وزخارف الصبيان لو كتب هذا الكلام الذى فى

---

١ - المصدر نفسه ــ ص ١٨٦.

رقعته على فخذ خروف سمين، وألقى على طريق (لأنفقت من أكله الكلاب) ثم ناولها بعض الواشين وقال: ادفعها لجارك القضاعى يلصقها على عتبة باب دكانه يستجلب بها الزبون ثم التفت إلى الناس فقال: هؤلاء فضلاء الشام ورؤساء الدمشقيين، قال أبو المجد وأنا والله ما أتجاسر أوصالها إلى رضوان بعد أن سمعت هذا الكلام وأنا رايح أردها عليه فقلت له: ادفعها إلى أقرانها مع أخواتها فإنى قد حصلت من رقاعه إلى ملوك مصر خمس رقاع (أنا أجاذبه عليها ويجاذبنى)(١)

هذا عن بعض الدلائل التى تؤكد لنا أن طلائع كان يعقد مجالساً أدبية فى أكثر لياليه، فشخصية مثل شخصية طلائع محبة لأهل الأدب والعلم، كان يغرى الشعراء فى مجلسه حتى تزداد روح الحماسة لإنشاد ما هو أفضل، فكان هدفه نشر العلم والمعرفة والإفادة من صفوة الشعراء والأدباء الذين التفوا حول بلاطه وأيضاً هم يستفيدون من علمه وثقافته.

ويؤكد لنا هذا ما قاله المهذب بن الزبير أحد شعراء بلاطه فى قصيدة أولها:

يَاأيُّها المَلِكُ الذى أوْصَافُهُ غُررَ تَجلَّتْ للزَمَانِ الأسفَعِ
لا تَطْمعِ الشّعَراء فىَّ فإننى لَوْ شئتُ لَمْ أجْبُن ولَمْ أتَخشَّعِ (٢)

وكان من شعراء ابن رزيك شاعر سريع الخاطر فى النظم لا يقف قلمه، وكثيراً ما تعرض للمهذب بن الزبير وتهكم فى أنفه وقبح منظره فى كثير من قصائده، فكان يغريه طلائع ويحمسه حتى تزداد المنافسة فى إنشاء الشعراء للشعر ومن أشعار المهذب يعرض بشاعر طلائع المعروف بالمفيد ابن الصياد:

فَيَا شاعِراً قَدْ قَالَ ألْفَ قَصِيدَة وَلَكِنها مِنْ بَيْتِهِ لَيْسَ تبرحُ
ليهنيكَ ـ لاهُنئت ـ أنَّ قَصَائدى مَعَ النَّجمِ تسرى أوْ مَعَ الرّيح تَسرَحُ(٣)

---

١ - الشيخ ركن الدين محمد بن محمد الوهرانى ـ منامات الوهرانى ورسائله ـ توفى ٥٧٥ هـ ـ تحقيق إبراهيم شعلان، محمد نغش مراجعة د. عبد العزيز الأهوانى ـ دار الكتاب العربى ١٩٦٨م ـ ص ٣٣ ـ٣٤.

٢ - د. محمد عبد الحميد سالم ـ شعر المهذب بن الزبير ـ هجر للطباعة والنشر القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م، ص ٢٠١

٣ - المرجع نفسه .

ثالثاً: رعاية الشعر والشعراء:

بلغ من عناية طلائع بن رزيك بالشعر والشعراء أنه كان يغدق عليهم أمواله، ويجازيهم بالهدايا والعطايا والذهب، فنمى في عهده الشعر وازدهر وخلفه ابنه الملك العادل الناصر رزيك بن طلائع فكان مثل أبيه شاعراً، يجيد الشعر ويستحسنة ويثيب عليه، وشهد لهم بذلك عمارة اليمني، لأنه عاصر عهد طلائع وابنه، حتى استقى مادة كتابه النكت العصرية من أخبارهم وأيام ملكهم، لذلك سوف نعرض بعض الأمثلة التى تدل على عناية طلائع بالشعر والشعراء، منها ما ذكره عمارة عندما وفد إلى مصر في عهد الخليفة الفائز والوزير له الملك الصالح فلما أحضر للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخليفة أنشدهما قصيدة أولها:

الْحَمد للعيس بَعْد الْعَزم وَالهمم ... حَمْداً يقوم بِمَا أولتَ منَ النَعَم

فيقول عمارة وعهدى بالصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مراراً والأستاذون وأعيان الأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان بكل مذهب ثم أفيضت على خلع من ثياب الخلافة مُذهبة ودفع لى الصالح خمس مائة دينار وإذا بعض الأستاذين قد أخرج لى من عند السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمس مائة دينار أخرى وحمل المال معي إلى منزلى، وأطلقت لى من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد من قبلى، وتهادتنى أمراء الدولة إلى منازلهم واستحضرنى الصالح للمؤانسة ونظمنى في سلك أهل المؤانسة وانثالت على صلاته وغمرنى ببره" [1]

وعندما ودع عمارة اليمنى الملك الصالح في دار الوزارة بقصيدة منها:

لازَمتُ خدمته فلَذَّبَ خَاطِري ... فَالمدح منْ إحسانه مَعْدُودُ

فخلع عليه ودفع له مائتى دينار، وكتب له إلى الأمير ناصر الدولة والى قوص بمائة أردب قمحاً وحملها من مال الديوان إلى مكة حرسها الله تعالى[2]

فكان طلائع كريماً سمحاً في العطاء سهلاً في اللقاء، حيث أنشده عمارة قصيدة وهو بدار الوزارة يقول منها:

دَعُوا كُلَّ برقٍ شِمتمُ غَيْر بَارِقٍ ... يَلُوح عَلَى الفسطَاطِ صَادقٍ بِشْره

١- عمارة اليمنى ــ النكت العصرية ــ ص ٣٢ ــ ص ٣٤
٢- عمارة اليمنى ــ النكت العصرية - ص ٣٨

فرمى له الملك الصالح خريطة فوجد فيها مائة دينار وخمسين رباعياً، ومدحه فى شعبان سنة خمسين وخمس مائة بقصيدة منها:

قَصَدَتْك مِنْ أرْضِ الحَطِيم قَصَائِدُ   حَـادِي سُـرَاها سُنَّـةٌ وَكِتَـابُ

فألقى خريطة له فوجد فيها ثلاثة وسبعين ديناراً [1]

كما يروى عن طلائع بن رزيك ابن الأثير فى كتابه أن الشيخ أبا محمد بن الدهان النحوى البغدادى المقيم بالموصل قد شرح بيتاً من شعره وهو:

تَجَنَّب سَمْـعِي مَا يقُـولُ الْعَوَاذِل   وأصْبَحَ لِي شُغْل مِنْ الغزو شَاغِلُ

فجهز إليه هدية سنية، ليرسلها إليه، وبلغه أيضاً أن إنساناً مـن أعيـان الموصل قد أثنى عليه بمكة فأرسل إليه كتاباً يشكره ومعه هدية [2]

كما يقرر المهذب بن الزبير فى مدحه لطلائع أنه كان كريماً معه ونال فى أيامه كثيراً من العطف والاهتمام.

يَامُنْعِـماً مَا للْثَنـاء وَلَـوْ غَـلاَ   يَوْمـاً بِمَا تَـولَّى يَـداُه يَـدَانِ [3]

ويشير إلى ذلك أيضاً صديقه أسامة بن منقذ فى قصيدة يـشكره فيهـا منها:

والَندَى طَبْعَكَ الْكَـرِيُم فَـمَا   أهَـنْىَ نَـوالاً تُنِيـله وتَثِيـبُ [4]

وغيرهم من شعراء عصره الذين شهدوا له بالكرم والجـود عرفانـاً بالجميل لما وجدوه فى بلاطه من كرم وسخاء لم يجدوه عند غيره من أهـل عصره، لذلك ألف الرشيد بن الزبير كتابه (جنان الجنان ورياض الأذهان) فى معاصريه من الشعراء ومادحيه وافتتحه بترجمته، كما ألف شاعره الجليس بن الحباب كتاباً قصره على مدائح الشعراء فيه [5]

---

١ - المصدر نفسه ـ ص ٣٥ ـ ص ٣٧

٢ - د. أحمد بدوى ـ مقدمة ديوان طلائع ـ ص ٢٢.

٣ - د. محمد عبد الحميد سالم ـ شعر المهذب بن الزبير ـ ص ٢٣٧.

٤ - ديوان أسامة بن منقذ ـ جمعه وحققه د. أحمد أحمد بدوى ـ د. حامد عبد المجيد ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م ـ ص ٢١٤.

٥ - د. شوقى ضيف ـ تاريخ الأدب العربى ـ عصر الدول والإمـارات مـصر ـ ص ٣١٣ ـ ص ٣١٤.

ويذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه لكرمه مدحه الشعراء وجمع مدحه في كتاب (سمي الدر المنظوم) ويحتوي على جملة شعراء ما بين شريف وجليس وعالم وشاعر وقاصد وكاتب [1]

وكان ابنه الملك العادل الناصر رزيك بن طلائع شاعراً، وكان كريماً فلم يكن بخيلاً وأبوه أكرم منه، وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه.

فعندما قال عمارة قصيدة في غارته إلى أبي عروق في التماس الأفرنج حين أغاروا على الجوف منها:

أَنْتَ الَّذِي يَعْقِدِ الإِسْلاَمُ خِنْصَرَهُ ... عَلَيْــهِ إِنْ حَلَّ خَطْبٌ أَوْ طَرا وَطرُ

خلع على عمارة اليمني ثياباً وأمر له بغلةٍ وذهب فقال عماره يشكره من قصيدة:

مِنْ شَاكِرٍ عَنِّــي نَــدَاهُ فَــإِنَّنِي ... عَنْ شُكرِ مَا أَوْلاَهُ ضَاقَ نِطَــاقِي
مِنَنٌ تَخِــفُّ عَلَيْــهِ إِلا أَنهَــــا ... ثَقُلَــتْ مُؤَونَتُها عَلَى الأَعْنَاقِ [2]

فكان عهد الملك الصالح طلائع والملك العادل رزيك عهد ازدهار ونماء للشعر والأدب، وربما أرادوا بذلك أن يجعلوا من بلاطهم قبلة للشعراء من مصر ومن الوافدين عليها، فضم بلاطه كثيراً من الشعراء ولعل أشهرهم من ذكرهم عمارة اليمني في كتابه حيث ذكرهم كما قسمهم طلائع على النحو التالي:

(واستحضرني الصالح للمجالسة، ونظمني في سلك أهل المؤانسة، وانثالت عليّ صلاته وغمرني بره، ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بنَ الحباب، والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبا محمد الحَسن بن الزبير وما من هذه الحلبة أحد ألا ويضرب في الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية، بأوفر نصيب، ويرمي شاكلة الإشكال فيصيب، وما زلت أحذو على طرائقهم، وأعرّض جذعي في سوابقهم، حتى أثبتوني في جرائدهم، ونظموني في سلك فرائدهم، هؤلاء جلساؤه من أهل الأقلام، وأما أهل السيوف والأعلام، فمنهم مجد الإسلام ولده وصهره سيف الدين حسين وأخوه فارس المسلمين بدر بن رزيك، وعز الدين حسام قريبه، وهؤلاء هم أهله فأما غيرهم من أمراء دولته

---

١ - ابن تغري بردي ــ النجوم الزاهرة ــ ج ٥ ص ٢١٨.
٢ - عمارة اليمني ــ النكت العصرية ــ ص ٥٥ إلى ص ٥٧.

المختصين بمجالسه في أكثر أوقاته فمنهم ضرغام ونال الوزارة ومنهم على بن الزبد ويحى بن الخياط ورضوان ابن حلب راغب وعلى هوشات ومحمد بن شمس الخلافة ... (١)

بالإضافة إلى صديقه الأمير أسامة بن منقذ أحد أمراء الشام، الذى كثيراً ما دارت بينهما مراسلات شعرية، تنم عن وُدّ وصداقة وحب مخلص من كلا الشاعرين.

---

١ – عمارة اليمنى ـــ النكت العصرية ـــ ص ٣٤ ـــ ص ٣٥.

الفصل الأول
شعراء بنى رزيك
واتجاهاتهم الشعرية

١- ابن قادوس
٢- المهذب بن الزبير
٣- الجليس بن الحباب
٤- الرشيد بن الزبير
٥- الموفق بن الخلال
٦- ابن قلاقس
٧- عمارة اليمنى
٨- المهذب بن أسعد
٩- أسامة بن منقذ
١٠- ابن الصياد

ابن قادوس

توفى سنة: ٥٥١ هـ

ابن قادوس: (*)

هو أبو الفتح محمود بن القاضى الموفق إسماعيل بن حميد الفهرى الدمياطى، المعروف بابن قادوس، من أهل دمياط، نشأ وتربى فيها، وكانت دمياط في ذلك الحين إحدى مراكز الثقافة فى العالم الإسلامى كله (١) كون فيها ثقافته حتى أصبح لديه ثقافة واسعة ومتنوعة فى كل علوم عصره.

وكان ابن قادوس رجلاً حكيماً ذا خبرة واسعة وعلم غزير، استطاع أن ينتفع به أهل عصره، فتقرب إليه كبار الشعراء والأدباء فى تلك الآونة،

---

* للوقوف على ترجمته أنظر:
- العماد الأصفهانى ــ خريدة القصر وخريدة العصر ــ ص ٢٢٦.
- أبو شامة المقدسى ــ الروضتين في أخبار الدولتين - تحقيق د. محمد حلمى - محمد أحمد - مراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٦٢م ــ الجزء الأول ــ ص ١٠٣ ، الجزء الثانى ص ٢٤٤.
- ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ الجزء الأول ص ٥٣.
- السيوطى ــ حسن المحاضرة ــ الجزء الأول ص ٢٤٢ ، الجزء الثانى ص ١٦٨، ص ٢٠٢.
- ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة ــ الجزء السابع ص ٣٣٧.
- أبى ميسر ــ تاريخ مصر ــ الجزء الثاني ص ٩٧.
- شلبى حاجى خليفة ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - طبع الأستانة سنة ١٩٤١ - الجزء الثاني ص ٧٦٧ ، ص ٧٧٢.
- ياقوت الحموى ــ معجم الأدباء ــ الجزء الرابع ص ٦٠.
- عمارة اليمنى ــ النكت العصرية ص ٣٤ ، ص ٣٥.
- أمية بن أبي الصلت ــ الرسالة المصرية ــ بتحقيق عبد السلام هارون - القاهرة - لجنة التأليف ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١م - ص ٥٦.
- د. شوقى ضيف ــ تاريخ الأدب العربى ــ عصر الدول والإمارات ــ مصر ص ٣٢٨.
- د. أحمد أحمد بدوى ــ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ــ ص ٣٤٧.
- د. محمد زغلول سلام ــ الأدب فى العصر الفاطمي ــ الكتابة والكتاب ــ ص ٤٩٧.
- د. محمد كامل حسين ــ فى أدب مصر الفاطمية ــ ص ٣٣٨.

١ - د. أحمد أحمد بدوى ــ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بين مصر والشام - ص ٣٤٧.

خاصة بعد أن رحل إلى القاهرة حاضرة الخلافة، وعمل بديوان الإنشاء وتدرب على يد كبار رجال الدولة، وأخذ خبرة واسعة، فكان يعمل مع ابن الصيرفى وهو من أشهر كتاب الديوان.

وحدثنا أمية بن أبى الصلت فى رسالته المصرية أن ابن قادوس نزيل مصر، وكانت رسالته هذه فى سنة ٥١٠ هـ ، هذا يعنى أن ابن قادوس عاصر شعراء مصر وكتابها فى النصف الأول من القرن السادس، وعرف اتجاهاتهم الفنية فى الشعر والكتابة، وظل يعمل فى ديوان الإنشاء ويترقى فى المناصب العليا حتى أسندت إليه رياسه مع الموفق بن الخلال.

شهد ابن قادوس عهد الأفضل بن بدر الجمالى، وله فيه مدائح تدل على الصلة القوية التى كانت بينهما.

كما عاصر عهد الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح بن رزيك، وكان من أهم جلساء الصالح وانضم لمجالسه الأدبية، فنشأت بينهما صداقة قوية حتى إنه لما توفى ابن قادوس حزن عليه الملك الصالح، وصلى عليه ومشى فى جنازته حتى ورى التراب، وكان ذلك فى سنة ٥٥١ هـ.

وله فى الملك الصالح بن رزيك مدائح أيضاً تدل على إعجاب وتقدير وذكر لنا عمارة اليمنى عند ما قدم إلى مصر أنه:

"وجد بحضرته ــ أى الملك الصالح بن رزيك ــ من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى بن الحباب والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء وأبا الفتح بن قادوس والمهذب بن الزبير، وما من هذه الحلبة أحد وإلا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب ويرمى شاكلة الإشكال فيصيب" [1]

وأثنى عليه العماد الأصفهانى فقال: "إن له أشعاراً محكمة النسج كالدر فى الدرج" [2] ، كذلك ابن ميسر قال "كان من أمثال المصريين وكتابهم مقدماً عند ملوكهم" [3]

وكان يسميه القاضى الفاضل ذا البلاغتين: الشعر والنثر.

---

١ - عمارة اليمنى ــ النكت العصرية ــ ص ٣٤.
٢ - الأصفهانى ــ الخريدة ــ ص ٢٢٦.
٣ - أبى ميسر ــ تاريخ مصر ــ طبع المعهد العلمي الفرنسي بمصر - الجزء الثاني - ص ٩٧.

عُرف ابن قادوس بقدرته وبراعته فى فن الكتابة والترسل، واتضح لنا ذلك من خلال رسائله التى بقيت لنا من إنشائه، فمن رسائله ما كتبه بمناسبة ركوب الخليفة فى عيد النحر، وأخرى فى البشارة بوفاء النيل[1] وغيرها من الرسائل التى نرى فيها تأثير العقائد الفاطمية فى السجل الفاطمى مما لا يدع شكاً فى أن العقائد أثرت فى الكتابة كما أثرت فى الشعر بالإضافة إلى الصنعة الفنية فى الكتابة التى رأيناها عند جل كتاب الفاطميين[2] .

كما برع ابن قادوس أيضاً فى نظم الشعر وظهرت لنا أشعار جيدة تدل على موهبة وحب لفن الشعر، ويذكر أنه كان لديه ديوان شعر ضخم فى مجلدين[3] لكن مع الأسف لم يرد لنا من ديوانه إلا أشعار متفرقة فى بعض المصادر التى تعرضت لترجمته.

فقد ضاع الديوان مثل باقى الآثار الفاطمية النفيسة التى فقدت وتم إبادتها على يد الأيوبيين، اعتقاداً أن ما بها فى مدح الخلفاء والأئمة كان كفراً وإلحاداً.

ومن خلال شعره يتضح لنا أنه كان مثل أغلب كتاب عصره الذين كانوا حريصين على أن يؤثر لهم إلى جانب نثرهم شعر يذيع عنهم نحو ابن قادوس، وابن الخلال، والقاضى الفاضل، والعماد الكاتب[4]

وقد أكثر ابن قادوس من استعمال المحسنات البديعية والزخرف والصنعة متأثراً بأسلوبه فى كتابة النثر، فعلى سبيل المثال ما قاله فى مدح الأفضل بن بدر الجمالى نرى فيه التكلف فى الأسلوب:

مَلِيكٌ تُذَلُّ الْحَادِثَاتُ لِعِزِّهِ ... يُعِيدُ وَيُبْدِي وَاللَّيالِي رَوَاغِمُ
وَكَمْ كُرْبَةَ يَوْمَ النِّزَالِ تَكَشَّفَتْ ... بِحَمْلاتِهِ وَهِيَ الْغَوَاشِي الْغَوَاشِمُ
تُشِيدُ بِنَاءَ الحَمْدِ وَالمَجْدِ بِيضُهُ ... وَهُنَّ لآسَاسِ الهَوَادِي هَوَادِمُ[5]

كما تبين لنا أن شخصية ابن قادوس كانت مرحة ومحبة للحياة، ينتهز الفرصة للاستمتاع بما فيها من لهو ولعب وشرب الخمر قبل أن يحرمه الموت من متع الحياة، وظهر لنا ذلك من خلال بعض أشعاره التى تناول فيها غرض الوصف.

---

١ – القلقشندى ـ صبح الأعشى ـ ج ٨ ـ ص ٣٢٦.
٢ – د. محمد كامل حسين ـ فى أدب مصر الفاطمية ـ ص ٣٤١.
٣ – الحاجى خليفة – كشف الظنون – الجزء الثاني – ص ٧٧٧.
٤ – د. أحمد بدوى ـ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ـ ص ٣٥٤.
٥ – الأصفهانى ـ خريدة القصر ـ ج ١ ـ ص ٢٢٩.

ومن أشعاره أيضاً عرفنا أنه كان شاعراً ساخراً، كثيراً ما يتهكم بالآخرين ويحب الفكاهة، ويصل التهكم إلى درجة الهجاء.

ولعل أشهر من تهكم بهم هو القاضي الرشيد بن الزبير فقال فيه، عندما اجتمع في ليلة عند الصالح مع جماعة من جلسائه، وألقى عليهم الصالح مسألة في اللغة، فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد بن الزبير فأعجب به الصالح فقال الرشيد: ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتني أتوقد منها فقال ابن قادوس وكان حاضراً.

إنْ قُلْتَ: منْ نَارٍ خُلقْـ ـتَ وَفُقْتَ كُلَّ النَّاس فَهْمَا
قُلْنَا: صَدَقْتَ، فَمَا الَّذِي أطْفَاكَ حَتَّى صِرْتَ فَحْمَا؟ (١)

وغيرها من الأشعار التي ذم فيها الرشيد بن الزبير لأنه كان أسود اللون، قصير القامة، سمج الوجه، قبيح المنظر، مثل الزنوج، فكان يستغل ذلك ويسخر منه كثيراً.

---

١ - المصدر نفسه ــ ص ٢٢٩

المهذب بن الزبير

توفى سنة: ٥٦١ هـ

المهذب بن الزبير: (*)

هو أبو محمد الحسن بن أبى الحسن على بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير المصرى، الملقب بالقاضى المهذب، من أهل أسوان ولد لأسرة عريقة يرجع نسبهم إلى بنى غسان، نشأ وتربى على العلم والأدب حتى تكونت لديه ملكة شعرية خصبة فلم يلبث أن لهج بالشعر.

وبموهبته الشعرية استطاع أن يتصل بأسرة بنى الكنز من أهل أسوان حماة الأدب وكعبة الأدباء فى هذا البلد فهم أمراء أصائل من ربيعة أهل فتوة ومكارم مُمدَّحون مقصودون من البلاد الشاسعة والأماكن المتباعدة، فمدحهم

---

* للوقوف على ترجمته انظر:

- عمارة اليمنى ــ النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ــ ص ٣٥ وفى مواضع متفرقة.
- العماد الأصفهانى ــ خريدة القصر وخريدة العصر ــ الجزء الأول ــ ص ٢٠٤
- أحمد بن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ الجزء الأول ص ٥١.
- جمال الدين بن تغرى بردى الأتابكى ــ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة الجزء الخامس ص ٣١٣
- الأدفوى الشافعى ــ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ــ تحقيق سعد محمد حسن مراجعة الدكتور/ طه الحاجرى ــ القاهرة ١٩٦٦م
- أحمد بن على المقريزى ــ الخطط المقريزية ــ الجزء الثانى ــ ص ٢٧٩
- عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ــ الروضتين فى أخبار الدولتين ــ الجزء الأول ــ ص ١٤٧.
- ابن شاكر الكتبى ــ فوات الوفيات ــ تحقيق محى الدين عبد الحميد ــ الجزء الأول ص ١٢٤.
- ياقوت الحموى ــ معجم الأدباء ــ المجلد الخامس ــ الجزء التاسع ص ٤٧.
- كما توجد ترجمته فى المراجع التالية:-

- د. أحمد أحمد بدوى ــ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ــ ص ١٤٩.
- د. شوقى ضيف ــ تاريخ الأدب العربى ــ عصر الدول والإمارات ــ مصر ــ ص ١٩٦.
- د. محمد عبد الغنى حسن ــ مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى ــ ص ٢٩٤.
- د. محمد كامل حسين ــ فى أدب مصر الفاطمية ــ ص ٢٠٣ ، ص ٢٣٠.
- د. محمد عبد الحميد سالم ــ شعر المهذب بن الزبير.

بأشعار كثيرة ونال رضاهم، لكن طموح المهذب لم يقف عند هذا الحد فدفعه هذا الطموح الأدبى إلى النزوح عن بلده إلى القاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية وموطن الشعراء الكبار.

فمدح رضوان بن الولخشى وزير الخليفة الحافظ، وعلى بن السلار وزير الخليفة الظافر .. وغيرهم، ولكن أهم وزير اتصل به المهذب هو الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز وأول زمان الخليفة العاضد.

فكان ممن مدحه وهنأه بتوليه الوزارة وحاول التقرب إليه حتى قرّظه القاضى الجليس بن الحباب وأثنى عليه أمام الصالح طلائع بن رزيك فقربه منه وقدمه، ولم ينل أحد عند الوزير منزلة تشابه منزلة المهذب بن الزبير فانضم إلى مجلس طلائع، وكان من المقربين إليه حتى إنه وثق فى رأيه وذوقه الفنى فكان يعرض عليه الصالح طلائع بن رزيك أشعاره حتى يراجعها وينقحها له ويدلى إليه برأيه لكى يقدمها للناس فى أتم صورة، فاتهم البعض طلائع بن رزيك أن أكثر شعره إنما هو من عمل المهذب بن الزبير.

وللمهذب كتاب قيم ألفه حينما وفد إلى بلاد اليمن فى رسالة من بعض ملوك مصر، فاستطاع بجهده أن يحصل كتب النسب وجمع منها ما لم يجتمع عند أحد حتى ألف كتاب (الأنساب).

ويذكر ياقوت الحموى عن هذا الكتاب أنه:

(كتاب كبير، أكثر من عشرين مجلداً، كل مجلد عشرون كراساً، رأيت بعضه فوجدته مع تحقيقى هذا العلم وبحثى عن كتبه، غاية فى معناه لا مزيد عليه يدل على جودة مؤلفه، وكثرة اطلاعه، إلا أنه حذا فيه حذو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى، وأوجز فى بعض أخباره عن البلاذرى، إلا أنه إذا ذكر رجلاً ممن يقتضى الكتاب ذكره، لا يتركه حتى يعرف بجهده من إيراد شىء من شعره وخبره ..)(١)

فثقافة المهذب كانت ثقافة متنوعة بين العلوم الطبيعية، وحفظ القرآن الكريم وعلوم التاريخ واللغة إلى جانب حفظه للشعر العربى القديم وغيرها من الثقافات التى أثرت عليه وعلى شعره، فالمهذب اجتهد فى أن يجمع بين العلم والشعر، لذلك أثنى عليه معاصروه ومنهم العماد الأصفهانى بقوله:

---

١ - ياقوت الحموى ـ معجم الأدباء ـ الجزء التاسع ـ ص ٤٨ ـ ص ٤٩.

(هو أخو الرشيد، محكم الشعر كالبناء المشيد، وهو أشعر من أخيه وأعرف بصناعته وإحكام معانيه ... ولم يكن فى زمانه أشعر منه وله شعر كثير ومحل فى الفضائل أكثر ...) [1]

وفى موضع آخر علق الأصفهانى بقوله:

(للشعراء المهذبين المذهبين المذهب، على هذا الوزن المعجز المعجب قصائد فرائد، قلائد، وهذا مهذب مذهبهم؛ إذ هو وحيد العصر ، مجيد النظم والنثر) [2]

ويقول عنه ياقوت الجموى:

(.. كان كاتباً مليح الخط، فصيحاً جيد العبارة، وكان أشعر من أخيه الرشيد، وكان قد اختص بالصالح بن رزيك وزير المصريين .. ولم ينفق عنده أحد مثله) [3]

كما أثنى عليه ابن خلكان معلقاً على شعره بقوله:

(وله كل معنى حسن) [4]

وقال عنه الأدفوى : (وذكره العماد الأصفهانى فى الخريدة، وأثنى عليه وقال: إنه لم يكن بمصر فى زمنه أشعر منه ...

سألت قاضى القضاه ابن عين الدولة عنه ، وعن أخيه الرشيد: أيهما أفضل؟ فقال: المهذب فى الشعر والأدب، وذلك فى فنون. [5]

ومن العصر الحديث أثنى عليه الدكتور/ أحمد أحمد بدوى بقوله:

(الحسن بن على، أحد أخوين أجادا قول الشعر وأحسناه)[6]

وهناك ما قاله عنه دكتور محمد كامل حسين:

(فقد كان المهذب شاعراً من فحول شعراء العربية، ولا أغالى إذا قلت إن مصر الإسلامية منذ دخلها العرب، ومنذ عرفت الشعر العربى ، لم تنجب من أبنائها شاعراً له شاعرية المهذب وقوة شعره، وحسن ديباجته) [7]

---

١ – العماد الأصفهانى ــ خريدة القصر ــ الجزء الأول ــ ص ٢٠٤.
٢ – المصدر نفسه ــ ص ٢٠٨.
٣ – ياقوت الحموى ــ معجم الأدباء ــ الجزء التاسع ــ ص ٤٧.
٤ – ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ الجزء الأول ــ ص ١٤٤.
٥ – الأدفوى ــ الطالع السعيد ــ ص ١٩٤
٦ – د. أحمد أحمد بدوى ــ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ــ ص ١٤٩.
٧ – د. محمد كامل حسين ــ فى أدب مصر الفاطمية ــ ص ٢٤٠.

والدكتور شوقي ضيف: (ولد بأسوان فى أوائل القرن السادس الهجرى وبها تلقف علوم العربية، وأوتى ملكة شعرية خصبة) [١]

تمتع المهذب بن الزبير بأخلاقه الحميدة التى جعلته صديقاً حميماً للوزراء وكبار رجال الدولة، فكانوا يجتمعون به لحسن مجلسه ومؤانسته، ومن خلال أشعاره يتبين لنا مدى حبه وإخلاصه ووفائه لأخيه الرشيد، فكتب المهذب قصيدة استعطاف مشهورة تسمى (القصيدة النواحة) يلتمس فيها العفو والسماح من داعى اليمن لما فعله أخوه الرشيد حينما مضى إلى اليمن وادعى الخلافة هناك فغضب منه داعى اليمن وزاد الأمر تفوق الرشيد وشهرته فدب الحقد فى قلبه، فتم القبض عليه (لا نعلم كيفيته وهمّ بقتله) [٢]

فجاءت قصيدة المهذب لتهدأ الأمر ويلين قلب داعى اليمن حتى أطلق سراحه وأولها:

يَارَبْعَ أَيْنَ تَـرَىَ الأَحِبةَ يمَمُـوا هَلْ أَنْجَدوَا مِنْ بَعْدنِا أَمْ أتهَموا؟ [٣]

فهذه القصيدة أثر من أهم الآثار التى نظمها المهذب لما فيها من حسن العبارة ودقة فى اختيار الألفاظ، فكان من الشعراء الذين أعادوا إلينا ذكرى الشعر العربى الرصين وإشراق ديباجته، وأنه كان من الشعراء الذين لم يخدعوا ببهرج اللفظ، ولم تبهرهم زينته، حقيقة قد لم ببعض مقابلات بديعية ولكنه لم يسرف فيها إسراف غيره من الشعراء الذين أعجبوا بالصنعة البديعية فأفرطوا فيها إفراطاً جعلهم يخرجون الشعر عن طبيعته وسلامته، وأخلوا بالمعنى فى سبيل اللفظ[٤].

وفى أواخر أيام المهذب بن الزبير تعرض لمحنة وتهمة هو برىء منها ولعل السبب فيها ربما علاقته الوطيدة بأخيه الرشيد حيث اتهمه الوزير شاور ابن مجير السعدى وزير الخليفة العاضد بأنه على اتصال وثيق بصلاح الدين عندما حاصر الإسكندرية ـــ وكان الرشيد يومئذ يلى النظر فى الدواوين

١ - د. شوقى ضيف ـــ عصر الدول والإمارات ـــ ص ١٩٦.
٢ - ياقوت الحموى ـــ معجم الأدباء ـــ ص ٤٨.
٣ - انظر كتاب د. محمد عبد الحميد سالم ـــ شعر المهذب بن الزبير ـــ ص ٢١٩ إلى ص ٢٢٣.
٤ - د. محمد كامل حسين ـــ فى أدب مصر الفاطمية ـــ ص ٢٠٦.

السلطانية ـ كما اتهمه أنه وثيق الصلة بشيركوه حين قدم مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين، فكانت نتيجة هذا الاتهام قتل الرشيد والقبض على المهذب وحبسه وهذا لما عرف عن الوزير شاور أنه كان مستبداً طاغياً فحاول المهذب استعطافه بالشعر لكنه لم ينجح، فمدح ولده الكامل أبى الفوارس شجاع بن شاور بأشعار كثيرة وهو فى الحبس حتى قام بأمره واستخرجه من حبسه وضمه إليه واصطنعه [١]

وسرعان ما انتهت حياة المهذب بن الزبير بوفاته فى سنة ٥٦١ هـ، أما عن مذهب المهذب، فقد تعرض لبعض الخلاف، فالبعض ذهب إلى أنه سنى المذهب، والبعض الآخر رأى أنه شيعى المذهب، وتناول هذه القصة بالتفصيل د. محمد عبد الحميد سالم فى كتابه (شعر المهذب ابن الزبير) وعرض آراء المؤرخين فى المهذب بن الزبير وأثبت لنا بالشعر الذى ورد فى ديوانه أنه:

شيعى المذهب مثل أخيه الرشيد فكان شيعى من بيت شيعى [٢]

ومن شعره يظهر ذلك خاصة أنه خالط الخلفاء والوزراء الفاطميين ولم يصل للمذهب السنى.

وخلف لنا المهذب بن الزبير أشعاراً عديدة لكنها متفرقة فى مراجعه ومصادره المختلفة تدل على أنه كان لديه ديوان شعر ضخم لكنه فقد مثل باقى الآثار الفاطمية التى أبيدت على يد الدولة الأيوبية إعتقاداً منهم أن أشعار الفاطميين فى مدح الأئمة والخلفاء كفر وإلحاد.

ويذكر ابن خلكان معاصره ومعاصر الرشيد أن (له ديوان شعر، ولأخيه القاضى المهذب ديوان شعر أيضاً) [٣]

واتضح لنا هذا من رأى المؤرخين فيه وفى أشعاره وثنائهم عليها.

فمن خلال ما وصلنا من شعر المهذب بن الزبير نستطيع أن نرى تنوعاً فى أغراض الشعر الغنائى عنده بين المدح والغزل والوصف والفخر والاستعطاف والهجاء والعتاب والشكوى والرثاء والحكم والمواعظ.

---

١ - ياقوت الحموى ـ معجم الأدباء ـ ص ٥٨ ـ ص ٥٩.

٢ - للتفصيل راجع كتاب د. محمد عبد الحميد سالم ـ شعر المهذب بن الزبير ـ ص ٢٩ إلى ص ٣٥.

٣ - ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ ج ١ ـ ص ١٤٤.

واتجه المهذب فى شعره للجمع بين طريقة التقليديين وطريقة المجددين معاً فهو من الاتجاه المحافظ المجدد.[1]

ويحتل غرض المدح الجزء الأكبر من أشعاره خاصة ما مدح به الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز والخليفة العاضد، فمدحه بشجاعته وبطولاته وانتصاراته فى القتال والمعارك، كما وصف الأساطيل وكثرة عددها وفخامتها ومواجهتها للعدو برا وبحراً، ووصفه للأسرى وقد غلّت أعناقهم إلى أذقانهم.

وهناك مدح فى الوزير رضوان بن الولخشى وزير الخليفة الحافظ، وعلى بن السلار وزير الخليفة الظافر، ومدح شاور بن مجير السعدى، وولده الملك الكامل، كما كان للأمير كنز الدولة بن متوج نصيب من مدائحه وكذلك أسامة بن منقذ أحد أمراء الشام.

ومدح من الخلفاء الإمام علياً ــ كرم الله وجهه ــ والخليفة العاضد كما مدح داعى اليمن واستعطفه لإطلاق سراح أخيه الرشيد.

أما الغزل عند المهذب فليس من الغزل المادى بل غزل رقيق عفيف طاهر غير متكلف ولا مصنوع سواء أكان مقصوداً غزلاً لذاته أم كان مقدمة يخلص منه فى القصيدة إلى غرض آخر؛ فلم تكن لديه محبوبة بذاتها.

كما أكثر المهذب من غرض الوصف خاصة وصف معارك الصالح طلائع وانتصاراته ووصفه الجيوش والحروب، إلى جانب وصفه للطبيعة عامة فقد تأثر بنشأته فى مدينة أسوان حيث الطبيعة والهدوء والصفاء وله وصف فى الخمر والخيل.

والفخر من أهم أغراض ديوان المهذب وفيه يفخر بمناقبه وأمجاده وعفته وطهارته وقوته وطموحه وعزيمته الماضية واستقلال رأيه وكثرة خبراته وعمق تجاربه، وإن كان أكثر فخره وزهوه يدور حول التغنى بثقافته وفصاحته، والإشادة بشعره وشهرته [2].

أما غرض الرثاء فلم يبق فى شعر المهذب إلا نموذجان عرضهما د.محمد عبد الحميد سالم [3] فى كتابه أحدهما فى رثاء الوزير رضوان بن

---

١ – د. محمد عبد الحميد سالم ــ شعر المهذب ــ ص ١٤٣.
٢ – د. محمد عبد الحميد سالم ــ شعر المهذب بن الزبير ــ ص ٦١.
٣ – المصدر نفسه ــ ص ٥٣ ــ ص ٥٥

الولخشى والثانى رجح أنه فى رثاء الصالح طلائع بن رزيك مبينــاً كرمــه وشجاعته وفيه أيضاً يذم الدهر ويعاتبه.

وغرض الهجاء لم يقصده المهذب قصداً إلا إذا تعرض لموقف يدفعــه للدفاع عن نفسه خاصة أنه لم يكن جميل المنظر مما جعله يتعــرض لــبعض التهكم بمظهره خاصة من شاعر يعرف بابن الصياد الذى كان يغريه الصالح طلائع فى مجالسه حتى يزداد المجلس نشاطاً ومنافسة بين الــشعراء، وعلــى الرغم من ذلك لم يتجاوز المهذب بالهجاء إلا أكثر من هذا مما يدل على عفة لسانه فقال:

فَيَا شَاعِراً قَــدْ قَــالَ ألــفَ قَــصِيدَةٍ ... وَلَكِنَّــــهَا مِنْ بَيــــتِه لَــيْسَ تَبْــرَحُ
لِيَهْنِــكَ ـــ لاَ هُنِئْتَ ـــ أَنَّ قَصــائِدِي ... مَعَ النَّجْمِ تَسْرِي ، أَوْ مَعَ الرِّيحِ تَسْرَحُ

والمهذب بن الزبير كثيراً ما تعرض لمواقف ظلم ومحن مــن النــاس والزمان، لذلك لجأ إلى غرض الشكوى والاستعطاف، فكثيراً مــا كــان يــذم الزمان ويتألم لأخلاق الناس حوله فهم سواسية فى اللؤم، كما أجبرته المواقف أن يستعطف داعى اليمن مثلاً ويستعطف شاور وابنه الكامل ومما قاله فى ذم الزمان:

كَمْ كُنْت أَسْمَعَ أَنَّ الدهرِ ذُو غَــيرٍ ... فَالْيوم بِالخُبْرِ أَسْتَغْنِى عَنْ الخَبرِ [1]

ولعل شاعراً مثل المهذب حنكته الحياة بالتجارب والــشدائد والمحــن، يخرج منه شعر جيد متأثراً بما مر فى حياته من أحداث فيبرع فــى غــرض الحكم والنصح والمواعظ نحو:

لاَ تَــرجُ ذَا نَقْــص وَلــوْ أَصْــبَحَتْ ... مِنْ دُونِــــه فِي الرُّتْــبةِ الشَّمْـــسُ
كَيــوانُ أعلـــىَ كــوْكــبٍ مَوضْـــعاً ... وَهُوَ ـــ إِذا أنْصَــفْتَه ـــ نَحْـــسُ [2]

وهناك أشعار له فيها شوق وحنين لوطنه وأهله ومدينته التى عاش فيها ونبغ وكان لها الفضل فى أن يكون شخصية قوية مشهورة فى الشعر والنثر.

---

١ – د. محمد عبد الحميد سالم ـــ شعر المهذب بن الزبير ـــ ص ١٩٦.
٢ – شعر المهذب بن الزبير ـــ ص ١٥٩.

الجليس بن الحباب

توفى سنة: ٥٦١ هـ

الجليس بن الحباب: (*)

هو القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحيسن بن الحباب الأغلبي السعدي التميمي من ذرية بني الأغلب التميميين، سلاطين إفريقية (١)، سمي بالقاضي الجليس لأنه كان يجالس الخلفاء والوزراء (٢) كما أنه كان يعلّم الظافر وأخويه أولاد الحافظ (القرآن الكريم والأدب)، وكانت عادتهم يسمون مؤدبهم الجليس (٣)، كما لقب بأمين الدين (٤)

كان أوحد عصره في مصر نظماً ونثراً وترسلاً وشعراً، تولى ديوان الإنشاء مع خاله الموفق بن الخلال في عهد الخليفة الفائز (٥٤٩ هـ ــ ٥٥٥ هـ) ووزيره الصالح طلائع بن رزيك.

كانت بداية صلته بطلائع بن رزيك عندما تفشى طغيان عباس الصنهاجي على أهل القصر والبلاد وقتل الخليفة الظافر، فبدأ الضعف يدب في أركان الدولة، واستنجد أهل القصر بطلائع وكان الجليس بن الحباب ممن كتب له ليحرضه على إدراك ثأر الظافر وكان طلائع متولياً صعيد مصر والياً على منية خصيب ــ كتب إليه الجليس بن الحباب قصيدة منها:

---

* للوقوف على ترجمته انظر:
- عمارة اليمني ــ النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية ــ ص ٣٥
- العماد الأصفهاني ــ خريدة القصر وخريدة العصر ــ قسم شعراء مصر ــ ج ١ ــ ص ١٨٩.
- ابن تغري بردي ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ــ ج ٥ ــ ص ٢٩٢، ص ٣٧١.
- ابن شاكر الكتبي ــ فوات الوفيات ــ ج ١ ــ ص ٢٧٨.
- السيوطي ــ حسن المحاضرة ــ ج ١ ص ٣٢٤ ــ مطبعة الكتبي القاهرة ١٣٢١ هـ

١ - العماد الأصفهاني ــ خريدة القصر ــ ج ١ ــ ص ١٨٩

٢ - ابن تغري بردي ــ النجوم الزاهرة ــ ج ١ ــ ص ٢٩٢

٣ - د. محمد زغلول سلام ــ الأدب في العصر الفاطمي ــ ص ٤٩٨

٤ - ابن فضل الله العمري ــ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ــ تحقيق الأستاذ أحمد زكي الباشا - دار الكتب المصرية - ١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م ــ ج ٢ ــ ص ٢١٨٧.

فَأيْن بَنُوْ رُزَيْـك عَنْهَا وَنَصْـرُهُمْ   وَمَا لَهُـمْ مِنْ مَنْـعَةٍ وَزِيَـادِ
فَلَوْ عَايَنَتْ عَيْنَـاكَ بِالْقَصْرِ يَوْمَهُـمْ   وَمَصْـرَعَهُمْ لَـمْ تَكْتَحِلْ بِرُقَـادِ

وغيرها من القصائد التى حاول أن يصور فيها حال مصر لطلائع بن رزيك حتى ينقذ الخلافة، وبالفعل لبى طلائع النداء، وأعد جيشه وقواته ودافع عن الخلافة وتولى الوزارة للخليفة الفائز، وأحسن تدبير شؤون الدولة، وتمتع معاصروه بالأمن والرخاء.

ومن هنا توطدت الصلة بين القاضى الجليس والوزير طلائع بن رزيك، حتى جعله من جلسائه فى مجالسه الأدبية وكان من أعيان أهل الأدب كما ذكر عمارة اليمنى عندما حضر المجلس فقال: (وجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى بن الحباب والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح بن قادوس والمهذب ابن الزبير وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب، ويرمى شاكلة الإشكال فيصيب) [١]

فالقاضى الجليس بن الحباب كان من أهم جلساء الصالح بن رزيك ومن المقربين إليه فعلى الرغم من قلة شعره إلا أنه اهتم بديوان الإنشاء وهذا ما شغله عن نظم الشعر.

هذا ولم يصلنا شىء من كتاباته حتى نقارن بين نظمه ونثره، فمن المعروف أن أكثر الآثار الفاطمية أبيدت على يد الدولة الأيوبية، لكن نجد له بعض الأشعار المتفرقة فى بعض المصادر التى تبين لنا جودة معانيه وإحكام عباراته وقدرته على الارتجال عندما كانت تقام المجالس الأدبية فى بلاط الصالح بن رزيك.

وشعره عامة كشعر غيره من الكتّاب من طبقته ومعاصريه، فيه مدح للخليفة والوزير والإشادة بأيامهما؛ خاصة مدح الوزير الصالح بن رزيك.

وشعر الجليس بن الحباب تنوع بين الغزل الرقيق، والوصف ومنه وصف الخمر ووصف الخيل ووصف المعارك والحروب وانتصارات الجيش المصرى، كما ظهر فى شعره الرثاء والعتاب والشكوى والهجاء، ولا يلجأ الجليس بن الحباب للهجاء إلا عندما يتعرض لموقف يستدعى ذلك، نحو ما

---

١ – عمارة [illegible] مصر [illegible]

تعرض له عندما تهكم اشاعر المعروف بابن الصياد بأنف الجليس بن الحباب لكبر حجمه فهجاه ابن قادوس قائلاً:

يَامَــنْ يَعِيــبُ أُنُوفَنَا الشَّــــــــم الــتى لِيِســت تُعَــــــابُ
الأنــف خِلْقَـــةُ ربِنَــــــا وَقُرُونَــكَ الشَّــم اكتسِــابُ [1]

كما تظهر لنا بعض الأبيات فى مدح القاضى الجليس التى توضح لنا أنه كان محبوباً بين أهل عصره فمدحه ابن قلاقس ومدحه رضــى الدولــة أبــو سليمان داود بن مقدام، كما مدحه الشاعر عمارة اليمنى.

وسرعان ما تنتهى حياة الجليس بن الحباب فى سنة ٥٦١ هـ وقد أناف على السبعين [2] ،وقيل إنه توفى قبل وفاة المهذب بن الزبير بشهر واحد وأنه شمت به المهذب ولبس ثياباً مذهبة فى جنازته فاستقبح الناس فعله [3]

على الرغم أن القاضى الجليس هو الذى أثنى عليه وقرّظه عند الملــك الصالح طلائع بن رزيك، ولم يتم العثور على ديوان يضم أشعار الجليس بــن الحباب، إنما ما بين أيدينا مجموعة متفرقة من الأشعار من المصادر والمراجع التى ترجمت له ومن خلالها يتبين لنا أنه كان من أهم جلــساء طلائــع بــن رزيك، كما أن توليه ديوان الإنشاء مع الموفق بن الخلال ــ خاله ــ هو خير دليل على مكانته وقدرته الأدبية.

فلا يقوم على ديوان الإنشاء إلا من يمتلك الخبرة الواسعة والثقافة العالية والعلم الغزير، كما أن مجالسة القاضى الجليس للوزراء والخلفاء وقيامه بتعليم أولادهم القرآن والأدب لدليل آخر يؤكد ما نذهب إليه من تمتع الجلــيس بــن الحباب بمكانة عالية لدى طلائع بن رزيك.

---

١ - ابن شاكر ــ فوات الوفيات ــ ج١ ــ ص ٧.
٢ - ياقوت الحموى ــ معجم الأدباء ــ ص ٤٨.
٣ - ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة ــ ج ٥ ــ ص ٢٩٢ ــ ص ٣٧١.

الرشيد بن الزبير

توفى سنة: ٥٦٢ هـ

الرشيد بن الزبير: [*]

هو أبو الحسين أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغساني الأسواني الملقب بالقاضي الرشيد،من أهل أسوان، ويرجع نسبه إلى بني غسان وهي قبيلة كبيرة من الأزد شربوا من ماء غسان، وهو باليمن فسَمّوا به، ولد لأسرة أسوانية عريقة، فتربى على العلم والأدب، فكان الرشيد من أهل الفضل والنباهة والرياسة.

نبغ في علوم عصره من لغة وفقه ونحو وتاريخ ومنطق وعلم الهندسة والطب وغيره فكان الرشيد أعلم من أخيه المهذب بن الزبير، حتى ذكر عنه العماد الأصفهاني أنه (كان ذا علم غزير، وفضل كثير) [١]

وقال ابن خلكان أنه كان : (أسود الجلدة، وسيد البلدة، أوحد عصره في علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعيات والآداب الشعريات)[٢].

كما اجتهد الرشيد في نظم الشعر حتى كون ديواناً جيداً وأكد لنا ذلك قول ابن خلكان (أن له ديوان شعر، ولأخيه القاضي المهذب .. ديوان شعر أيضاً، وكانا مجيدين في نظمهما ونثرهما) [٣].

لكن لسوء الحظ لم يصل إلينا هذا الديوان، ربما أباده الأيوبيون مثلما حرقوا وأبادوا معظم الآثار الفاطمية النفيسة اعتقاداً منهم أن ما بها من مدح الأئمة والخلفاء كفر وإلحاد.

---

* للوقوف على ترجمته انظر:
- العماد الأصفهاني ــ خريدة القصر وخريدة العصر ــ الجزء الأول ــ قسم شعراء مصر ــ ص٢٠٠.
- ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ الجزء الأول ص ١٦٠.
- ابن العماد الحنبلي ــ شذرات الذهب ــ الجزء الرابع ص ١٩٧.
- ياقوت الحموي ــ معجم الأدباء ــ الجزء الرابع ــ ص ٥١.
- أبو شامة ــ الروضتين ــ الجزء الأول ــ ص ١٤٧.
- الإدفوي ــ الطالع السعيد ــ ص ٥٢.
- د. محمد كامل حسين ــ في أدب مصر الفاطمية ــ ص ٢١٠.

١ - الأصفهاني ــ الخريدة ــ ص ٢٠٠.
٢ - ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج ١ ص ١٦٢.
٣ - المصدر نفسه ص ١٦١.

اهتم الرشيد بن الزبير بفن النثر، فأبدع في كتاباته حتى ظهرت له بعض المؤلفات القيمة ولعل أشهرها هو:

كتاب (منية الألمعي وبلغة المدعي)، وكتاب (المقامات)، وكتاب (جنان الجنان وروضة الأذهان) وذكر الأصفهاني أن هذا الكتاب ذيل به اليتيمة وطالعت به جزءاً، وذكر فيه شعراً [1].

وهناك كتاب (الهدايا والطرف) ، وكتاب (شفاء الغلة في سمت القبلة).

رحل الرشيد من أسوان إلى القاهرة، حاضرة الخلافة رغبة في أن يتصل بالخلفاء والوزراء وكبار رجال الشعر والأدب، فالقاهرة كانت مركزاً لهم فاتصل الرشيد بالخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٣٩ هـ ، فأنفذه إلى اليمن داعياً له وهذه البعثة كانت سبباً في شقاء الرشيد، لأنه تعرض لاتهام باطل هو بريء منه، فاتهم أنه ادعى لنفسه بالخلافة حتى لقب (بقاضي قضاة اليمن وداعي دعاة الزمن).

واستدلوا على ذلك من خلال مدحه للأمير على بن حاتم الهمداني بقصيدة منها:

لَقَدْ أَجْدَبَتْ الأَرْضُ الصَّعِيد وَأَقْحَطُواْ	فَلَسْتُ أَنَال القَحْطُ فِـي أَرضْ قَحْطَانِ
وَقَدْ كَفَلَت لِي مَأرِب مَآرِبِي	فَلَسْتُ عَلَى أَسْوان يوماً بأَسْوَانِ
وإنْ جَهلَت حَتَّىً زَعانِف خَنْدِقٍ	فَقَدْ عَرِفَت فَضْلِي عَطارِفِ هَمَدَانِ [2]

وقيل إنه ضربت له السكة فنقش على وجه (قل هو الله أحد ، الله الصمد) وعلى الوجه الآخر (الإمام الأمجد أبو الحسن أحمد).

ولهذا قبض عليه داعي اليمن وتم حبسه، فأرسل المهذب إلى داعي اليمن قصيدة فيها استعطاف محاولاً أن يميل قلب هذا الداعي ليفرج عن أخيه الرشيد، وسميت هذه القصيدة (بالقصيدة النواحة)، وبالفعل تم إطلاق سراح الرشيد، وعندما سمع الرشيد هذه القصيدة أجابه بقصيدة منها:

يَاربع، أَين تَرىَ الأَحبة يمَّموا	رَحَلواُ، فَلاَ خَلَتَ المَنَازِل مِنْهُمُ
وَسَرِو،، وَقَدْ كَتَمواُ الغَداة مَسِيْرَهُمْ	وَضياءُ نُور الشَّمْس ، لاَ يُكْتَمُ [3]

---

١ - الأصفهاني ــ الخريدة ــ ص ٢٠٢.

٢ - من كتاب د. محمد كامل حسين ــ في أدب مصر الفاطمية ــ ص ٢١١.

٣ - معجم الأدباء ــ ج ٤ ــ ص ٦٢ .

والذى تبين لنا أنّ هذا الاتهام كان نتيجة لحسد وحقد تعرض له الرشيد خلال المدة التى قضاها فى اليمن، والتى كانت حوالى سنتين، فخلال هذه المدة ذاع صيت الرشيد وظهر علمه وتفوقه فيه، والتف حوله كثير من الناس يتعلمون منه وينتفعون من خبراته، لذلك حقد عليه داعى اليمن وأراد أن يحط من شانه، فاتهم بهذه التهمة التى لا تليق مع شخصية مثل الرشيد بن الزبير الذى ينتمى للعقيدة الشيعية، بل هو شيعى متعصب، ولعله يدرك أن أهم شروط الإمامة أن يكون الإمام من نسل النبى (صلى الله عليه وسلم) ويكون الإمام قبله قد نص عليه.

ويؤكد لنا السيد محسن الأمينى تشيع الرشيد بن الزبير، فقد ذكره ضمن أعيان الشيعة وترجم له ترجمة وافية فى كتابه (أعيان الشيعة)، ومن شعره قوله فى أهل البيت عليهم السلام، وهو مسك الختام:

خذوا بيدى يا آلَ بيتِ محمدٍ   إذا زلّتْ الأقدام في غدوة الغدْ
أبى القلب إلاّ حُبكم وولاءكم   وما ذاك إلاّ من طهارة مولدي [1]

كما اتصل القاضى الرشيد بالخليفة الفائز ، بعد مقتل الخليفة الظافر، وأنشد قصيدة نالت إعجاب الحضور، وفيها مدح الوزير الصالح بن رزيك مطلعها:

مَا للغُصُون تَميدُ سكَراً   هَلْ سُقِيتْ بالمُزْنِ خمْراً [2]

إلى أن يوصل إلى قوله :

أفكربَلاَءَ بالعِراق   وكَربلاء بمصرَ أُخْرَى

فضج القصر بالبكاء، وانثالت عليه العطايا والهدايا، وانضم الرشيد إلى بلاط بن رزيك وصار واحداً من جلسائه، فانضم إلى أهل الأدب مثل أخيه المهذب بن الزبير، ونال رضا الوزير وتمتع بنعمه وببره.

كما اتصل الرشيد بالعديد من شعراء عصره وأدبائه، وكانت بينهم صداقة وطيدة ومراسلات شعرية ولعل أوضح شخصية كانت على صلة به هو الشاعر ابن قلاقس، فكثيراً ما راسل الرشيد وأجابه بقصائد بديعة تنم عن صداقة وإعجاب كل منهما بالآخر.

---

١ – نقلاً عن د. محمد عبد الحميد سالم من كتاب شعر المهذب بن الزبير ــ ص ٣٤ ــ ٣٥.

٢ – الأصفهانى ــ الخريدة ــ ص ٢٠١.

كما كانت بينه وبين القاضى الجليس بن الحباب صداقة حتى إن الرشيد عند وفاته رثاه الجليس بقوله:

ثَـروَة المكْرمَـات بَعْـدك فَقْـرُ   وَمحـل العُـلاَ بِبعْـدكَ قَفْـرُ
بكَ تُجلى إذَا حَـلْلتَ الديـاجي   وتَمـرُ الأيَـام حَيْـثُ تَمـرُ
أَنْب الدَّهـر فـيِ مَسـيرِكَ ذَنبـاً   لَيْـس منْه سُوى إيابك عُذْرٌ (١)

أما شعر الرشيد بن الزبير فغالباً ما كان يغلب عليه طابع الحزن والأسى وشكوى الزمان والناس، ربما لما قاساه فى حياته من أزمات وصعوبات وربما لأنه كان معروفاً بقبح وجه، فكان سمج الخلقة، ذا شفة غليظة، وأنف مبسوطة كخلقة الزنوج قصيراً. (٢)

فكانت هيئته سبباً في تهكم الشعراء به، خاصة شعراء مصر، فكان لهذا أثره السيء فى نفس الرشيد بن الزبير مما جعله لا يثق بأحد، دائم الشك والشكوى من الأيام.

ومن الروايات التى وضحت لنا مدى ما تعرض له الرشيد من ذم وتهكم منها: ما يروى أن الرشيد ولى على المطبخ، فقال الشريف الأخفش يخاطب الملك الصالح بن رزيك:

يُولى علَـى الشَّيء أشْكَالهُ   فَيصْبَح هَـذَا لهـذَا أخَـاَ
أقَام علَـى المطبَخ ابـنَ الزَّبير   فَـولىً علَـى المطْبَخ المَطْبَخاَ

كما تعرض للهجاء من قبل الشاعر ابن قادوس، عندما اجتمع فى ليلة عند الملك الصالح هو وجماعة من الشعراء والفضلاء، فألقى الصالح مسألة فى اللغة فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد فأعجب به الصالح فقال الرشيد: ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتنى أتوقد منها فارتجل الشاعر ابن قادوس:

إنْ قُلْـتَ مِـنْ نَـارخُلِـقْـ   ـتَ وَفُقْـتَ كُلَّ النَّـاس فَهْـمَا
قُلْنَا: صَـدَقْت، فَمَـا الـذَّى   أطفاك حَتَّـى صِـرْتَ فَحْمَـاً (٣)

---

١ – ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج١ ــ ص ١٦٣
٢ – الحموى ــ معجم الأدباء ــ ج٤ ــ ص ٥٨
٣ – ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج١ ــ ص ١٦٣.

وهجاه ابن قادوس مرة أخرى بقوله:

يَاشَبِيــهَ لُقمَــــان بِـــلاَ حكمَـــــة وَخَاسراً فِـــي الْعِــــلْم لاَ رَاسِــخاً
سَلَخْــت أشْعــاَرَ الْــــورَىَ كُلّهِم فَصِـرْت تُدعَىَ الأَسْــوَد السالخا (١)

لذلك كان الرشيد دائم الحزن والأسى فكان لهذا تأثير واضح على شعره اتضح لنا من قوله:

لئنْ خَابَ ظَنّى فِي رَجَائِكَ بَعْــدَمَا ظَنَنتُ بِأنّـــى قَدْ ظَفَــرتْ بِمَنَــصِــفِ(٢)
لأَنّكَ قَــدْ حَذرتنِى كــلّ صَاحِــبِ وَأعلمتنى أنْ ليس فى الأَرض مَنْ يفــى

وظل الرشيد فى بلاط بنى رزيك حتى زوال ملكهم، ثم اتصل بالوزير شاور بن مجير السعدى فى سنة ٥٩٩ هـــ.

وكانت هذه بداية نهايته، فقد اتهم بأنه على صلة بصلاح الدين الأيوبى وكان محاصراً للإسكندرية وكان الرشيد فى ذلك الحين متولى النظــر علــى الدواوين السلطانية بالإسكندرية، وهذا أغضب الوزير شاور كما اتهم أيضاً أنه وثيق الصلة بشيركوه حين قدم مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضــد الصليبيين، وقد عرف الوزير شاور أنه كان مستبداً طاغياً، لذلك فر الرشــيد واختفى بالإسكندرية.

لكن لم يدم الحال طؤيلاً، فقد طالته يد شاور الطاغية، وقــبض عليــه وشنقه ثم صلبه وذلك كان فى سنة ٥٦٢ هـــ وفى (ابن خلكان فى سنة ٥٦٣ هــ).

١ - المصدر نفسه ص ٢٢٦.
٢ - الأصفهانى ــ الخريدة ــ ص ٢٠١.

الموفق بن الخلال

توفى سنة: ٥٦٦ هـ

الموفق بن الخلال: (*)

هو أبو الحجاج يوسف بن محمد ، المعروف بابن الخلال، الملقب بموفق الدين، تولى منذ أيام الخليفة الحافظ لدين الله منصب كاتب الدست أو صاحب ديوان الإنشاء، وكان لهذا المنصب مكانة مرموقة، لا يحظى بها إلا رجل حكيم خبير، ولعل ابن الخلال توفرت فيه صفات حميدة جعلته يشغل هذا المنصب حتى نهاية الدولة الفاطمية، فهو آخر رؤساء ديوان الإنشاء فى العهد الفاطمى.

برع ابن الخلال فى فن الكتابة والترسل، ولكنه كان مثل أغلب كتّاب ذلك العصر الذين كانوا حريصين على أن يؤثر لهم إلى جانب نثرهم شعر يذيع عنهم نحو ابن قادوس وابن الخلال والقاضى الفاضل والعماد الكاتب(١)

ورد لابن الخلال بعض الأشعار القليلة فى بعض المصادر التى تعرضت لترجمته ولم يتم العثور على ديوان خاص له، فهو عُرف ككاتب ناثر أكثر منه شاعر وعلى أية حال فقد كان شعره متأثراً بنثره، وتبين لنا ذلك من خلال ما ورد فى شعره من محسنات بديعية استخدمها بكثرة، فاعتنى فى

---

* للوقوف على ترجمته انظر:
- العماد الأصفهانى ــ خريدة القصر وخريدة العصر ــ قسم شعراء مصر ــ الجزء الأول ص ٢٣٥.
- ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ص ٢١٩.
- المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ــ الجزء الثالث ــ ص ٢١٩
- ابن الأثير ــ الكامل فى التاريخ ــ ج ١١ ــ ص ١٦٤.
- السيوطى ــ حسن المحاضرة ــ الجزء الأول ــ ص ٢٤٢.
- ابن تغرى بردى ــ النجوم الزاهرة ــ الجزء الخامس ص ٢٩٢ ، ص ٢٩٤ ، ج ٧ ص ٣٣٧.
- عمارة اليمنى ــ النكت العصرية ــ فى مواضع مختلفة.
- القلقشندى ــ صبح الأعشى الجزء الأول ص ٩٦ ، ج ١٠ ص ٣١٠.
- د. أحمد أحمد بدوى ــ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٣٥٤.
- د. محمد زغلول سلام ــ الأدب فى العصر الفاطمى الكتابة والكتاب ص ٤٩٤.

ابن العماد الحنبلى ــ شذرات الذهب ــ الجزء الرابع ــ ص ٢١٩

١ - د. أحمد بدوى ــ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ــ ص ٣٥٤

شعره بالصنعة والزخرف، وهو المنهج الذى سار عليه فى كتابة النثر وسار عليه أيضاً فى نظم شعره وعلى سبيل المثال قوله:

عَذُبَتْ لَيَال بالعُذَيب خَوالي	وَحلَتْ مَوَاقِفُ بالوِصَال حَوالي
وَمَضَتْ لذاذاتٌ تَقَضَّى ذكرُها	تُصبي الحَلِيم وتستهيمُ السَّالى
وَجَلَت مُوردَة الخدُود فأوثَقتْ	في الصبْوة الخَالىَ بحسنِ الخَال
قَالُوا سراة بَنى هلالَ أصلُهاَ	صَدَقوا كَذاك البَدرُ فَرْعَ هَلالِ

وأكد لنا العماد الأصفهانى قوة ابن الخلال فى فن الكتابة والترسل فقال إنه[١] (هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره، وجامع مفاخره، وكان إليه الإنشاء وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء، عاش كثيراً وعطل فى آخر عمره وأضرّ، ولزم بيته إلى أن تعوض منه القبر، وتوفى بعد تملك الناصر مصر بثلاث أو أربع سنين[٢]

وجاء عن ابن حجة الحموى فى ثمرات الأوراق، ما بين لنا أن شعر ابن الخلال مثل نثره حيث قال:

(الذى ثبت وتقرر عند المؤرخين وعلماء هذا الفن أن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الإنشاء وحكمه عن موفق الدين بن الخلال منشىء الخليفة الحافظ العلوى، ورتبته فى الإنشاء معلومة، ولكن جنحت إلى الوقوف على شىء من نظمه لأنظر فى الرتبتين كما قررت ذلك فى نظم القاضى الفاضل ونثره، فوجدت قاضى القضاه شمس الدين بن خلكان رحمه الله قد أورد له فى تاريخه نظماً ونثراً دلنى على أن نظمه ونثره رضيعا ألبان وفرسا رهان) [٣].

وفى عهد الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح بن رزيك، تولى الديوان الموفق بن الخلال ابن أخته الجليس بن الحباب، وكان الموفق بن الخلال هو الذى كتب تقليد الوزارة لطلائع بن رزيك، وتوطدت صلة وطيدة بين الوزير وابن الخلال، حتى انضم لبلاط بنى رزيك وأصبح من جلسائه ونظمه مع أهل الأدب وذكر لنا ذلك عمارة اليمنى عندما وصل إلى مصر فوجد:

---

١ - الأصفهانى ــ خريدة القصر وخريدة العصر ــ ص ٢٣٥.
٢ - المصدر نفسه.
٣ - نقلاً عن د. محمد زغلول سلام ــ الأدب فى العصر الفاطمى ــ ص ٤٩.

(من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس بن الحباب ، والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، المهذب بن الزبير، وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب، ويرمى شاكلة الإشكال فيصيب ..) (١)

ونال ابن الخلال إعجاب عمارة اليمنى وتوطدت الصلة بينهما حتى إن عمارة مدحه بأبيات معبرة صادقة منها:

مَا هَـاجَ مُزْنَـةَ دَمعَـةِ المتَرقْـرِقِ ... إلاَّ تَألُّـــقُ بَــارِقٍ بالأبْـرَقِ
بَـرقٌ يُفكرني ومِـيضَ مَبَاسِـمٍ ... يَسْرِي الهَوَى في ضوئها المتَألِّقِ (٢)

وهكذا ظل الموفق بن الخلال يعطى الدولة من علمه ومن خبرته طيلة حياته إلى أن كبر سنة وعجز عن الحركة فانقطع فى بيته، وكان يساعده ويرعاه تلميذه القاضى الفاضل الذى تتلمذ على يده، وأخذ عنه أصول فن الكتابة والترسل حتى أصبح من أشهر كتّاب عصره، كما أخذ عنه الحكمة والمعرفة، وتقديراً لهذا الجميل وعرفاناً بأنه ظل بجانبه فى أيامه الأخيرة إلى أن توفى فى سنة ٥٦٦ هـ.

ثم تولى القاضى الفاضل بعد ذلك ديوان الإنشاء لأسد الدين شيركوه ثم لصلاح الدين الأيوبى.

---

١ - عمارة اليمنى ــ النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ــ ص ٣٤ ــ ص ٣٥

٢ - المصدر نفسه ــ ص ٢٩٩

ابن قلاقس

توفى سنة : ٥٦٧ هـ

ابن قلاقس:(*)

هو أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوى الأزهرى اللخمي الإسكندرى – لقب بالقاضي الأعز والمعروف بابن قلاقس.

ينتهي نسبه إلى (لخم) وهى قبيلة يمنية حلت الثغر، ويعتز بانتمائه إلى اليمن ويفتخر بذلك، ولد بالإسكندرية فى سنة ٥٣٢ هـ نشأ وتربى بها على يد كبار علمائها وأدبائها وشيوخها، وأهمهم الشيخ الحافظ أبى طاهر السلفى أكبر المحدثين فى عصره، أخذ منه ابن قلاقس العلم والمعرفة حتى تفتحت موهبته الشعرية فمدحه بالكثير من أشعاره.

ألم ابن قلاقس بالكثير من العلوم والمعارف التى عرفها عصره، فحفظ كثيراً من الشعر العربى، وحفظ القرآن الكريم، وأحاط بقدر كبير من علوم اللغة والنحو ودرس الفقه، فكانت ثقافته متنوعة واسعة، وظهر لنا ذلك من خلال أشعاره فأكثر من الاقتباس والاستشهاد بالقرآن والعلوم الفقهية والشعر العربى القديم فى قصائده.

---

* للوقوف على ترجمته انظر:
- العماد الأصفهاني – خريدة القصر وخريدة العصر – قسم شعراء مصر – الجزء الأول ص ١٤٥.
- ياقوت الحموى – معجم الأدباء – الجزء التاسع عشر ص ٢٣٦.
- ابن خلكان – وفيات الأعيان – الجزء الخامس ص ٣٨٥.
- السيوطى – حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة – تحقيق – محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربى – ١٩٦٧م – الجزء الأول ص ٢٤٢
- المقريزى – الخطط المقريزية – الجزء الثانى ص ٢٤٣.
- ابن فضل الله العمرى – مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار – المجلد الأول – ص ٢٣.
- د. فوزى أمين – الحركة الفكرية والأدبية فى الإسكندرية فى القرن السادس الهجرى ص ٣٥٢.
- د. محمد كامل حسين – فى أدب مصر الفاطمية – ص ٢٢٢.
- د. شوقى ضيف – تاريخ الأدب العربى – ص ١٩٩.
- ديوان ابن قلاقس – تحقيق د. سهام الفريح – مكتبة المعلا – الكويت ١٩٨٨.

عاش ابن قلاقس حياة حافلة بالرحلات والأسفار، فلم يستقر فى مكان واحد فله مزاج خاص يدفعه للتنقل والترحال دائماً، لذلك كان يعانى من عدم الإحساس بالأمان أو الاستقرار فكان ساخطاً على الحياة، يشكو حاله، وما يمر به من أحداث وأزمات، رغم أنه كان فى ريعان شبابه فكان فى حوالى الثلاثين من عمره.

سعى ابن قلاقس وراء الرزق والكسب المادى والبحث عن حياة أفضل، فاشتغل بالتجارة، فكان يتاجر فيما يحصل عليه من أموال أو هدايا [١]

كما انه اتخذ من موهبته الشعرية وسيلة لهذا الرزق، فأكثر من المدح وسعى وراء ممدوحيه فى البلاد، من أجل المال والعطايا والهدايا والمؤن، ولم يكن هذا بغريب فى العصر الفاطمى الذى أحدث انتعاشاً ورواجاً لسوق الشعر العربى، فالشاعر ينشد أجود ما لديه من أشعار لينال من وراء هذا أكثر الأموال والممدوح يستفيد بما ينشده فيه الشاعر من مدح فى كرمه وأفضاله وجوده ويمجد أيامه فيعلى ذلك من نفسية الممدوح فينفق أموالاً وذهباً كثيراً.

لذلك اتصل ابن قلاقس بكبار رجال هذا العصر من خلفاء ووزراء وأمراء وأعيان وتكونت بينهما صداقة وطيدة فمدح وهو بالإسكندرية الشيخ الحافظ السلفى وولى الدين بن المخيلى، نجم الدين بن مصال، واتصل ببنى خليف وغيرهم.

لكن شخصية طموحة مثل ابن قلاقس وجد أنه لابد أن يرحل إلى القاهرة حاضرة الخلافة ومركز العلم والشعر والأدب، فاتصل بالخليفة ووزيره الملك الصالح بن رزيك وانضم إلى مجلسه الأدبى، وهناك تعرف على جلسائه من الشعراء والأدباء منهم (المهذب بن الزبير وأخوه الرشيد، وعمارة اليمنى والقاضى الجليس بن الحباب والقاضى الفاضل وابن قادوس ... وغيرهم).

وظل ابن قلاقس بمصر إلى أن زالت دولة بنى رزيك، فبعد مقتل ابن رزيك أصاب الأدب بوار، فأصبح سوق الشعر كاسدة، لا نشغال الخلفاء والوزراء بالصراع الدامى حول الوزارة والملك، فنشب الصراع بين شاور وضرغام حول الوزارة واضطربت الأحوال السياسية من السوء إلى الأسوأ إلى أن سقطت الدولة الفاطمية فى يد الأيوبيين وسرعان ما أسقطوا شعار الدولة الفاطمية وأحلوا مكانه شعار الدولة الأيوبية.

---

١ - ديوان ابن قلاقس ــ ص٢٣ ــ ص٢٤.

فلم يجد ابن قلاقس فى مصر فى ذلك الحين راحته، لذلك رحل إلى اليمن فى حوالى سنة ٥٦٠ هـ وهناك اتصل بياسر بن بلال وزير عمران الداعي سليل آل الزريع وبعد وفاته اهتم ياسر بأولاده، فتكونت بين ابن قلاقس والوزير ياسر بلال صداقة، فأنشده بالعديد من مدائحه منها:

فَيَابنَ بَلال المَلكُ الّذى قَدْ ... شَأى آبساءه وأى الجُنوداَ
إليكَ قَدْ أرتَمَستُ مَسلى مسالى ... فَجَاوزَتْ التّهائم والنجودَا
وَقَدْ عَوّدتَني إبداءَ فَضلٍ ... أعيشُ بِهِ وَظَنىَّ أنْ يَعُودَا
وَمِثْلكَ مِنْ تُلبِيهِ الأمَاَني ... رُكُوعاً حَولَ كَعْبتهِ سُجُوداَ (١)

كما اتصل ابن قلاقس بالقاضى السعيد على بن خليف وعمارة اليمنى والكثير من أهل اليمن، إلى أن قرر العودة إلى الإسكندرية تقريباً فى سنة ٥٦٢ هـ ، وبعد حوالى عام نوى الرحيل إلى مدينة صقلية فى سنة ٥٦٣ هـ وهناك اتصل بأبى القاسم بن الحجر هو زعيم أهل الجزيزة من المسلمين فى عصر النورمان بصقلية وأثنى عليه بكثرة الصدقات، ففى أيامه صنف له كتاباً سماه (الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم) (٢)

ثم عاد إلى الإسكندرية ومكث بها حوالى سنتين، إلى أن عاوده الحنين للسفر وركوب البحر فاتجه إلى اليمن، ودخل عدن فى سنة ٥٦٥ هـ متكسباً بشعره، وظل فى رعاية ياسر بن بلال حوالى سنتين إلى أن نوى الرحيل فى سنة ٥٦٧ هـ وفى هذه المرة غرقت سفينته فى البحر وغرق ما فيها من كتب وهدايا وأموال كان يحملها معه، فكانت حادثة مؤلمة لابن قلاقس أثرت فيه، وظل يشكو مما حدث له وما حل عليه من خراب ولجأ إلى جزيرة (دهلك) واتصل بأميرها مالك بن السداد، وظل بجانب الأمير فترة فاشتغل عنده شاعراً وكاتباً له.

وسرعان ما ينقلب الحال فى دهلك ويتعرض لأزمات وصعوبات دفعته للرحيل مرة أخرى إلى صديقه ياسر بن بلال فى اليمن فشكى له حاله وما لقاه فى دهلك فمكث فى كنفه فترة، إلى أن نوى الرحيل إلى عيذاب فى سنة ٥٦٧ هـ وفى هذه المرة لبى نداء ربه، وهو يبلغ من العمر حوالى خمسة وثلاثين عاماً.

---

١ - ديوان ابن قلاقس ــ ص ٣٢٧، ص ٣٢٨.
٢ - ذكر لنا العماد الأصفهانى ــ قطعة من هذا الكتاب فى خريدته ــ ص ١٤٧.

فبالرغم من قصر حياة ابن قلاقس، إلا أنه مر بكثير من الأحداث وعاصرها، واتصل بأهم شخصيات ذلك العصر، وقضى حياته بين تنقل وترحال وتبين لنا معرفة أخباره من خلال ديوانه الضخم الذى تركه لنا، ليبين لنا أسرار هذه الشخصية الرحالة.

وخاصة أن ابن قلاقس كان شخصية متقلبة المزاج، لم يستقر على حال، فنرى فى ديوانه بعض الألفاظ الغامضة المبهمة التى تدل على شخصيته وما بها من حيرة وتوتر، كما تبين لنا من خلال ديوانه أنه لم يعتنق المذهب الشيعى، بل ظل محافظاً على مذهبه السنى، لكن حدة طبعه كانت سبباً فى تبرم الشاعر بالقيود الدينية فأطلق للهو عنانه وأسلم نفسه للذات الحياة، حتى عرف عنه التساهل فى أمور الدين، واتهمه بعض الناس بالزندقة والفسق (١)

فيروى على بن ظافر أنه حينما عاد ابن قلاقس من صقلية خرج إليه أصحابه يستقبلونه وإذا بأبى العباس أحمد بن أبى الصلاح يراه، فينشد مرتجلاً:

أَطِلُّ هِلاَلُ لِلْفَاسِقِين فَلاَ أَهْلاَ ... وَلاَ مَرْحَباً بِالْقَادِمِينَ وَلاَ سَهْلاً(٢)

كما نرى أن غرض المدح فى ديوانه يحتل المركز الأول، فتقريباً مدح ابن قلاقس كل من اتصل بهم من خلفاء ووزراء وأمراء وأعيان وكبار رجال الدولة فعلى سبيل المثال مما قاله فى مدح الشيخ حافظ السلفى:

فَبَدَا الُصبحُ وَقَدْ كَا ... نَ غَدَا تَحْتَ حِجَابِ
مِثْلِ وَجْهِ الْحافِظ الْحَبْـ ... ـرُ المُرَجَّى لِلصِعَابِ
مَنْ لَهُ الْحكْمَةَ حَقّاً ... وَلَهُ فَصلُ الْخِطَابِ(٣)

كما مدح الخليفة الفاطمى العاضد ووزيره ابن رزيك، وفى هذا فنحن لا نتفق مع دكتور شوقى ضيف فى أن ابن قلاقس ليس فى ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاور وزير العاضد (٥٥٧ ت ٥٦٤ هـ) (٤)

---

١ - د. فوزى أمين ــ الحركة الفكرية والأدبية فى الإسكندرية ــ ص ٣٦٢.
٢ - على بن ظافر الأزدى ــ بدائع البدائه ــ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٧٠م ــ ص ٢٢٨.
٣ - المصدر نفسه ــ ص ٣٥٥.
٤ - د. شوقى ضيف ــ تاريخ الأدب العربى ــ عصر الدول والإمارات فى مصر ــ ص ٢٠٠.

فمدح ابن قلاقس ابن رزيك وجلساءه المقربين له ومنهم القاضي الجليس بن الحباب فقال في مدحه:

إلىَ الحظُّ الجَليلُ تَتَوقُ نَفسي فَقَدَ شَرفُتْ عَنْ الحظِ الخسيسِ

ومنها:

ولَو أنَّ الزَّمانَ أرادَ سِلْمِي لَقَرّبني مِنْ القَاضي الجَليسِ[١]

كما ظهرت لنا مدائح للوزير شاور وابنه الكامل ومديح للخليفة العاضد، فابن قلاقس عاصر نهاية الدولة الفاطمية ودخول الدولة الأيوبية، فمدح صلاح الدين الأيوبى وهنأه بانتصاراته.

وهناك قصائد مدح فيها ابن قلاقس الشيخ أبا الحسن على بن محمد بن الكاتب باليمن وأبا الغنائم بن أبى الفتوح الكمونى صاحب الديوان، والقاضى الأشرف بن الحباب ، والشيخ الجليل بن عزام، ومدح مالك بن أبى السداد صاحب دهلك.

على أية حال فقد اجتهد ابن قلاقس فى أن ينظم أروع القصائد فى غرض المدح معبراً عنه بألفاظ وعبارات صادقة مؤثرة، بالرغم أنه كان مغرماً بالغوص وراء المعانى والغموض أحياناً، لكن هذا أعطى لشعره التميز والتفرد، كما ظهر بها بعض عبارات التوسل والنداء وطلب العون والمساعدة، واستخدم ذلك للاتجار بشعره وتأثر بالشعر العربى القديم فى مدائحه، فأحياناً كان يبدأ القصيدة بالغزل أو الخمر أو الوقوف على الأطلال ثم ينتقل إلى الغزل ثم الوصف، ويكون وصف للرحلة أو الناقة ثم الغرض الأساسى وأحياناً يغفل عنه.

كما انه أكثر من استخدام المحسنات البديعية واللفظية وتعمد ذلك حتى يظهر ثقافته وقوته الشعرية على غيره من شعراء عصره فلم يتعمدوا هذه المحسنات [٢] كما أكثر من ذكر المطر والبرق والرعد والسحاب فى شعره وهذا طبيعى أملته عليه بيئته فى الثغر [٣] فنرى أنه تميز فى غرض الوصف وأجاد فيه، وكما تبين لنا أن هذا العضر كان فيه انتعاش للشعر العربى، فكان

---

١ – المصدر نفسه ـ ص ٢٠٠
٢ – د. محمد كامل حسين ـ فى أدب مصر الفاطمية ـ ص ٢٢٦.
٣ – د. محمد زغلول سلام ـ الأدب فى العصر الأيوبى ـ ص ٣٢٨.

على الشعراء أن يستغلوا المظاهر الجديدة فى هذا العصر من تقدم ورقى فوصف ابن قلاقس ذلك، كما وصف أعياد الفاطميين ومناسباتهم التى ابتدعوها فى مصر، وتصوير ما يحدث فيها من ترف وبزخ وفخامة فى مواكب الخلفاء والوزراء، وما يمنحوه للشعراء من هدايا ومنح وصدقات.

وطبيعى أن يظهر فى ظل هذا الرخاء، انتشار اللهو والمجون وشرب الخمر والتفرد بالجوارى، فقد برز شعر ابن قلاقس وتميز فى وصف الخمر، فيذكر د. محمد زغلول سلام: (أن له فى وصف الخمر معانٍ جميلة وإن كانت معانيه فى معظمها من معهود معانى سابقيه وخاصة معانى أبى نواس ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك) [1].

وله بعض القصائد وصف فيها الخمر ممتزجاً بالغزل، وهناك وصف خاص بالخمر، ووصف وغزل أو وصف وحده دون امتزاج بأغراض أخرى.

كما ضم ديوان ابن قلاقس قصائد فى غرض الرثاء، ولكنه يحتل جزءاً ضئيلاً فى ديوانه فرثى من اتصل بهم إذا أصابتهم مصيبة أو محنة بألفاظ صادقة ومعبرة.

وكان ابن قلاقس شاعراً فخوراً بنفسه وبقدرته الشعرية على تصوير ما يجرى من أحداث، فاتخذ لنفسه أسلوباً خاصاً انفرد به عن باقى شعراء عصره فقد سلك ابن قلاقس كل جهة وطريقة وطرق كل باب فى سبيل الحصول على مبتغاه من العطايا والمنح، ليصل لحياة كريمة وأفضل مما هو عليه، ولو كان على حساب الآخرين والحط منهم فالمهم ألا ينافسه أحد على أبواب الملوك والوزراء ولعلنا نلاحظ أنه شاعر تميز بأنه مُحبٌ للسخرية والفكاهة والدعابة، فسخريته لاذعة تصل به أحياناً إلى الفحش فلا ينزه قوله عنه [2] فعلى سبيل المثال ما قاله فى هجاء شاعر:

تَولى ابنُ حُجُرْ بأشغارِهِ ... وَجَاء ابنُ جُخْرٍ بأبغارِه
فَذاك امْرؤُ القَيسْ فِي غَورِهِ ... وَهذا امرؤُ النَيسِ فِي غَارِه [3]

---

١ - المصدر نفسه ـ ص ٣٣٢.
٢ - د. فوزى أمين ـ الحركة الفكرية فى الإسكندرية ـ ص ٣٧٧.
٣ - ديوان ابن قلاقس ـ ص٤٤١.

وإلى جانب موهبة ابن قلاقس الشعرية التى أثني عليها الكثير من المؤرخين منهم: ابن خلكان فقال عنه (إنه كان شاعراً مجيداً، وفاضلاً نبيلاً، صاحب الشيخ الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السلفى المتقدم ذكره، وانتفع بصحبته، وله فيه غرر المدائح) (١)

كما أكد لنا جودة شعره أيضاً ما قاله عنه ياقوت الحموى: (إنه كان أديباً فاضلاً وشاعراً مجيداً) (٢)

وبرزت موهبته فى الكتابة الأدبية نتيجة لتطور الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ومن أهم آثاره النثرية كتاب (الزهر الباسم فى أوصاف ابى القاسم، ديوان ترسله، وكتاب مواطر الخواطر وكتاب روضة الأزهار فى طبقات الشعراء).

وظهر فى نثره أيضاً المحسنات البديعية من جناس وطباق ومزاوجة، والحقيقة أن العماد الأصفهانى وضح لنا فى خريدته بعض هذه الآثار النثرية مبيناً لنا كيف مزج ابن قلاقس النثر بالشعر (٣)

---

١ - ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج٥ ــ ص ٢١.
٢ - الحموى ــ معجم الأدباء ــ ج ١٩ ــ ص ٢٢٦.
٣ - الأصفهانى ــ خريدة القصر ــ ج ١ ــ ص ١٥١ وما بعدها.

عمارة اليمنى

توفى سنة : ٥٦٩ هـ

عمارة اليمنى: (*)

هو نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبى الحسن الحكمي اليمنى، من أهل تهامة باليمن ينتمى لأسرة عربية عريقة من مدينة يقال لها مرطان ولـد بهـا سنة ٥١٥ هـ ، يرجع نسبه لسادات أشراف العرب، نشأ عمارة على المذهب السنى الشافعي وعلى طلب العلم والصلاح والبحث عن المعرفة، فكانت حياته

---

* للوقوف على ترجمته انظر:
- عمارة اليمنى ــ النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية.
- عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ــ الروضتين فى أخبار الدولتين الجزء الأول ــ مواضع متفرقة.
- ابن ميسر ــ تاريخ مصر ــ طبع المعهد العلمى الفرنسى بمصر ــ الجزء الثانى ــ ص ٩٥.
- ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ الجزء الأول ــ ص ٢٢١ ، ٣٧٦.
- جمال الدين بن واصل ــ مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب ــ نشره دكتور/ جمال الدين الشيال - مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم سنة ١٩٥٣م - ص ٣٤.
- شمس الدين ابن عبد الله المعروف بالذهبى ــ تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ــ مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٥٢ تاريخ.
- عماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير ــ البداية والنهاية ــ مطبعة السعادة بالقاهرة ــ جز ١٢ ــ ص ٢٧٤.
- إبراهيم بن محمد بن أيدمر الشهير بابن دقماق ــ الانتصار لواسطة عقد الأمصار ــ المطبعة الأميرية ــ ص ٩٣.
- المقريزى ــ الخطط المقريزية ــ ص ١٩٥ ، ص ٣٥١ ، ص ٣٥٢.
- ابن حجه الحموى ــ خزانة الأدب وغاية الأرب ــ المطبعة الأميرية ببولاق ت ص ١١.
- ابن فضل الله العمرى ــ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ــ ص ١٠٧١.
- ابن العماد ــ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ــ ص ٢٣٤.
- د. أحمد أحمد بدوى ــ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ــ ص ١٦٣.
- د. محمد كامل حسين ــ فى أدب مصر الفاطمية ــ ص ٢١٩.
- د. حسن إبراهيم حسن ــ تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ــ ج ٤ ص ٤٥٩ مكتبة النهضة المصرية.
- عمارة اليمنى ــ ديوانه ــ تحقيق عبد الرحمن بن الأريانى وأحمد عبد الرحمن المعلمى.

حافلة بالرحلات التى اكتسب منها الكثير حتى كونت شخصية جادة، مثقفة طموحة، واسعة الأفق.

فكانت ثقافة عمارة واسعة، فضلاً عن موهبته فى الشعر الذى برع فيه وأجاد، رحل عمارة وهو فى بداية حياته إلى مدينة زبيد سنة ٥٣١ هـ طلباً للعلم والمعرفة فاتصل بكبار الفقهاء والعلماء ورجال الدين والفقه حتى سطع نجمه ولمع اسمه، وأصبح له رأى راجح يعتد به، واستفاد من أستاذه على بن مهدى الحميرى واندمج مع مشايخ ووزراء وسلاطين الصليحيين والزريعيين وامتزج بأشراف مكة (الزيديين) على الرغم من اختلاف العقيدة فهو سنى المذهب، حتى لقب بعدة ألقاب منها (عمارة الفرضى ـ عمارة اليمنى ـ عمارة الحكمى) كما أنه كان يعد من جملة أكابر التجار وأهل الثروة ومن أعيان الفقهاء الذين أفقهوا ودرسوا غيرهم، ومن أفضل أهل الأدب منزلة وأوضحهم عارضة [١]

لذلك تعرض لمكائد ودسائس الحاسدين والواشين الذين أفسدوا عليه صفو حياته وأصبحت حياته مهددة بالخطر فى مدينة زبيد وعدن وصنعاء، لذلك فر هارباً إلى مكة هاجاً وليس حاجاً، سنة ٥٤٨ هـ خوفاً على ماله وأولاده من أهل مدينة زبيد، واتصل بأمير الحرمين هاشم بن فليته وولى الحرمين قاسم ابن هاشم، حتى كلفه ـ هاشم بن فليته ـ السفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المصرية وكان ذلك فى سنة ٥٥٠ هـ والخليفة بها يومئذ الإمام الفائز بن الظافر والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك.

فلما حضر للسلام عليهما فى قاعة الذهب فى قصر الخليفة أنشدهما قصيدة أولها:

اَلْحَمد للعيس بَعْد الْعَزم وَالهِمَم ... حَمْداً يقُوم بِمَا أولتَ مِنَ النِّعَمِ

فاستحسنوا شعره وأفيضت عليه خلع من ثياب الخلافة مذهبة، وانثالت عليه الأموال والهدايا من الخليفة والوزير وأهل القصر.

فوجد عمارة فى مصر رغد العيش والرخاء، الذى افتقده فى بلاده، فمصر فى ذلك الحين كانت مشهورة بالازدهار والبذخ فى أيام الدولة الفاطمية، إلا إنه عاد إلى مكة واليمن بعد حوالى عام، لكن ظلت الصورة

---

١ - عمارة اليمنى ـ النكت العصرية ـ ص ٢٨.

المشرقة التى رآها فى مصر فى خياله، حتى قرر العودة لها ثانية فى سنة ٥٥٢ هـ ونوى الاستقرار فيها، وقويت صلته بالوزير الصالح بن رزيك حتى انضم إلى مجلسه ونظمه طلائع فى سلك أهل المؤانسة وانثالت عليه صلاته وغمره ببره.

وظلت الصداقة بينهما والمودة لا لشيء إنما لحسن صحبة عمارة اليمنى، وظهرت قدرة عمارة الشعرية وبراعته فيما أنشده فى الصالح من مدح وفخر ووصف فى خوضه للمعارك والحروب وتحقيق النصر والبطولات ولم تنته العلاقة بين الوزير والشاعر حتى بعد مقتل الوزير طلائع فى سنة ٥٥٦ هـ، بل ظل عمارة مخلصاً لأسرته خاصة ابنه الذى تولى الوزارة بعد مقتل أبيه، فمدحه عمارة ومجّد أيامه، ومدح شجاعته وخوضه للحروب وانتصاراته، لكن سرعان ما تنتهى أيام الوزير الناصر العادل رزيك بن طلائع على يد شاور بن مجير السعدى طمعاً فى منصب الوزارة، وبزوال آل رزيك زالت الدولة الفاطمية حيث ظل الصراع بين شاور وضرغام حول منصب الوزارة إلى أن سقطت الدولة الفاطمية فريسة فى يد صلاح الدين الأيوبى، وسرعان ما أسقط شعار الفاطميين وأقام الدولة الأيوبية.

وبدخول الأيوبيين تم القضاء وإبادة أى أثر للفاطميين لاعتقادهم أن أشعارهم ومدائحهم فى الخلفاء والوزراء كفر، وهذا التصرف أغضب الكثير من الفاطميين وحاولوا التصدى لهم لكن دون نتيجة.

وخلال هذه الأحداث عبر لنا عمارة اليمنى بأشعاره عن هذه الأحداث الجارية ووقائع الحياة السياسية، فوجد الحال قد تبدل من أمن وبذخ ورخاء إلى صراعات ونزاعات وتغير شامل فى الأوضاع مما جعله يتذكر أيامه فى عهد الفاطميين، ويشكو حاله فى عهد الأيوبيين.

فكتب قصيدة شكاية المتظلم ونكاية المتألم للسلطان صلاح الدين شرح فيها حاله وهى قصيدة بديعة، قد تكون أصدق وصف لحالة عمارة وهى من الشعر المعبر الناطق المصور مطلعها:

أيا أُذنَ الأيامِ إنْ قلْتُ فاسْمَعي لِنَفْثَةِ مَصْدورٍ، وأنّهِ مُوجَعِ

ولعلنا نرى أن عمارة اليمنى يدافع عن الدولة الفاطمية الإسماعيلية، وهذا ما جعل المؤرخين يختلفون فى صحة عقيدته هل هو سنى شافعى أم غيّر عقيدته ومذهبه إلى المذهب الإسماعيلى الشيعى؟

هناك من ذهب إلى أنه اعتنق المذهب الإسماعيلى لاتصاله بأستاذه (ابن المهدى) بزبيد واختلاطه بالزريعيين وغيرهم ممن يعتنقون المذهب الشيعى فضلاً عن انتقاله إلى مصر، واتصاله بآل رزيك والبلاط الفاطمى واستدلوا من بعض أشعار له يرون فيها تعابير وألفاظ توضح المذهب الإسماعيلى.

وذلك على الرغم من وجود أشعار لعمارة تؤكد صدق مذهبه السنى ودفاعه عنه عندما كانت تقام مجادلات فكرية ودينية مع علماء الفاطميين وفقهائهم ملتزماً بمبادىء أهل السنة، وهناك قوله فى قصيدة طويلة يخاطب السلطان صلاح الدين يذكر مكارم الخلفاء الفاطميين ووزرائهم عنده وأفضالهم عليه منها:

مَذْهبهمُ فِي الْجودِ مَذْهبُ سُنَّةٍ ... وَإِنْ خَالَفُونِي فِي اعْتِقَادِ التَّشَيعِ

كما أن لعمارة دليلاً آخر على صدق مذهبه السنى عندما أغراه الصالح طلائع بن رزيك بالمال والجاه للدخول فى العقيدة الشيعية فأرسل له أبياتاً ومعها ثلاثة أكياس ذهب وقال فيها:

قُلْ لِلْفقَيهِ عُمَارَةَ يَا خَيْرَ مَنْ ... أَضْحَى يُؤَلِفُ خُطْبةً وخِطَاباً

فأجابه عمارة بقوله:

حَاشَاك من هذا الخطابِ خطاباً ... يا خَير أملاك الزمَّانِ نِصاباً

وهناك رأى لابن خلكان الذى يؤكد لنا صحة عقيدته فيرى أنه:

(كان شافعى المذهب شديد التعصب للسنة، أديباً ماهراً شاعراً مجيداً، محادثاً ممتعاً، فأحسن الصالح وبنوه وأهله إليه كل الإحسان، وصحبوه مع اختلاف العقيدة لحسن صحبته).

وكذلك معاصره العماد الأصفهانى رأى أنه كان سليم العقيدة، فعمارة اليمنى كان شيعى الفكر وليس العقيدة.

والرأى الذى يميل إليه البحث يتفق مع ما ذهب إليه محقق ديوان عمارة اليمنى [1] أن عمارة كان مثل معظم فقهاء وعلماء وشعراء اليمن يدينون بمحبة الطيبين الطاهرين من أهل البيت على اختلاف مذاهبهم؛ وإذا كان بعض

---

١ – للوقوف على عقيدة عمارة اليمنى ر مقدمة ديوانه – شرح وتحقيق عبد الرحمن يحي الإريانى، وأحمد عبد الرحمن المعلمى – ص ٢٠ إلى ص ٣٤.

(الزيدية) يحصرون الإمامة فى أولاد البطنين فإن (الشافعية) ينشدون دائماً مع الإمام محمد بن إدريس الشافعى قوله:

يَا آلَ بَيتِ رَسُولِ الله حُبُّكُمُ ... فَرضٌ عَلَى النَّاسِ فِي القُرآنِ أَنزَلَهُ

فعمارة كان شافعى الرأى والمذهب، محباً لآل الرسول (ص) وكان مثله مثل المصريين والأيوبيين.

ومع هذا انتهت حياته بالإعدام شنقاً ضمن جماعة دبروا أمر إعادة الدولة الفاطمية فكان واحداً منهم، ورأوا فى هذا تحقيق هدف وطنى، وانضم عمارة إليهم لما لاقاه فى مصر من كرم وتقدير وحسن استقبال، فاتخذها وطناً ثانياً عاش فيها بقية حياته حتى إنه أعجب بأهلها وعقيدتهم ، مما جعل السلطان صلاح الدين يغضب، فأمر بالقبض على هذه الجماعة وصلبهم وأعدمهم، وكان عمارة منهم وحدث هذا فى سنة ٥٦٩ هـ، وخلف عمارة اليمنى ديوان شعر ضخم يعد من السجلات والوثائق التى تطلعنا على تاريخ مصر إبان هذه السنوات المضطربة التى أدت إلى زوال الدولة الفاطمية، حتى إنه استقى مادة كتابه (النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية) من أخبار الخلفاء والوزراء والأمراء فى هذا العصر.

فضم ديوانه الكثير من القصائد الشعرية على مختلف ألوان الشعر الغنائى من مدح، ورثاء، وهجاء وغزل ووصف، واستعطاف وشكوى وتضرع واعتذار وتهنئة وغيرها من الأغراض التى أكدت شاعريته وثقافته المتنوعة.

ولعل غرض المدح يحتل الجزء الأكبر فى هذا الديوان، وتتنوع مدائحه وممدوحيه ما بين خلفاء ووزراء وأمراء وكبار رجال الدولة، فنراه قد مدح الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك والخليفة العاضد ووزيره الملك العادل الناصر بن رزيك، ثم وزيره شاور بن مجير السعدى، وابنه الملك الكامل، وله مدائح فى شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبى وهناك مدائح فى القاضى الفاضل وغيرهم...

ولعل أبرز مدائحه وأشهرها تلك التى كانت فى الصالح بن رزيك وآل رزيك إلى أن سقطت الدولة الفاطمية، فمدح السلطان صلاح الدين وأسرته ومن قبل مدح ياسر بن بلال وزير الداعى سبأبن أحمد بن رزيع باليمن.

فيتضح لنا أن غرض المدح هو الغرض الأساسى فى ديوان عمارة، وفيه تعبير صادق عن مشاعره تجاه كل من اتصل بهم على الرغم أنه سنى

متعصب لمذهبه، لكنه تأثر بما كان يجرى فى مصر وأسهم مع غيره من شعراء مصر فى الإشادة بعقائد الفاطميين.

أما مراثيه فتمثل الغرض الثانى من أغراض شعره، ولعل أكثر مراثيه كانت فى آل رزيك وهذا يثبت لنا صدقه ووفاءه وإخلاصه للوزير الصالح بن رزيك وهناك مراثٍ شخصية لأهله نحو رثائه في زوجته وأولاده وأهله.

ثم يأتى غرض الفخر، فكان عمارة فخوراً بأهله ونسبه وأمجاده وهذا الغرض كان يدخل ضمن قصائده الشعرية فلم يخصِ به قصيدة بعينها، فديوانه يبين لنا اهتمامه بأهل عصره ، فيعد هذا الفخر فخراً جماعياً.

أما غرض الوصف فله مكانته فى ديوان عمارة فله وصف فى الطبيعة، كما وصف المعارك والحروب والانتصارات وحال الأسطول المصرى والجيش المصرى وخاصة حروب الصالح بن رزيك، فكثيراً ما أشاد بانتصاراته وبطولته وشجاعته فى ميدان القتال.

كما وصف عمارة فى أشعاره الحياة الفاطمية مصوراً ما بها من أعياد ومواسم وما يجرى بها من بزخ ورفاهية وترف، موضحاً الصورة التى عاش فيها أهل هذا العصر من أحوال سياسية واجتماعية وما وجده فى مصر من كرم وجود وتقدير وهدايا حببت إليه الحياة فى مصر مع أهلها.

وبالرغم من أن عمارة اليمنى لم يكن من عمال ديوان الرسائل، ولم يُعرف عنه أنه كان كاتباً لأحدالأمراء إلا أن له بعض الرسائل الإخوانية، فجمع بين الشعر والنثر، وفى نثره ظهرت خصائص الكتابة التى عرفت عند كتاب الديوان ، فاستخدم فى رسائله السجع والبديع والتورية والجناس والتضمين والاقتباس ومراعاة النظير وتشخيص وغير ذلك من هذه الألوان التى تدفق سوقها عند كتاب مصر الفاطمية.(١)

ومن آثاره النثرية وأشهرها و أهمها كتابه المعنون بـ (النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية) وكذلك كتابه (تاريخ اليمن).

١- د. محمد كامل حسين ـ فى أدب مصر الفاطمية ـ ص ٣٥٣.

المهذب بن أسعد

توفى سنة: ٥٨١ هـ

المهذب بن أسعد(*)

هو أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن على بن عيسى بن على المعروف بابن الدهان الموصلى ، ويعرف بالحمصى أيضاً، المنعوت بالمهذب.

من أهل الموصل اشتهر بالعلم الوافر والثقافة الواسعة المتنوعة فى علوم شتى، كما أنه كان أديباً ناثراً وشاعراً مجيداً. عمل بالتدريس فى مدينة حمص لذلك ينسب اسمه إليها.

فضلاً عن كونه فقيهاً شافعى المذهب ، وإماماً من الأئمة البارزين بين أهل عصره.

أثنى عليه ابن خلكان فى كتابه، فقال عنه :

(كان فقيهاً فاضلاً وأديباً شاعراً لطيف الشعر مليح السبك ، حسن المقاصد ، غلب عليه الشعر ، واشتهر به وله ديوان صغير كله جيد ...)[1]

كما كتب عنه العماد الأصفهانى أفضل العبارات، منها قوله :

(إنه بحر زاخر ، وحبْر فاخر ، وناقد بصير ، وعالم خبير ، و جوهرى لفرائد الفوائد مروج، وصيرفى لنقود المزيفين، مبهرج، سائر الشعر، شاعر العصر، محسن النظم، ناظم الحسن لسن القوم قويم اللسن ، فيه تمتمه تسفر عن فصاحة تامة، وعقدة لسان تبين عن فقه فى القول وبلاغة من عالم مثله علامة...)[2]

---

* للوقوف على ترجمته انظر:
- العماد الأصفهانى ــ خريدة القصر وخريدة العصر ــ قسم شعراء الشام ــ ج٢ ص ٢٧٩.
- ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ المجلد الثالث ص٥٧.
- السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب) ــ طبقات الشافعية الكبرى ــ تحقيق محمود الطناحى ــ ود. عبد الفتاح الحلو ــ القاهرة ١٩٦٤م ــ ج٤ ص ٢٣٣.
- ابن عساكر ــ ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن الدمشقى ــ تهذيب التاريخ ــ عبد القادر بدران ــ ١٣٢٩ هـ ــ ج ٧ ــ ص ٢٩٢.
- ابن العماد الحنبلى ــ الشذرات ــ ٤ : ٢٧٠.

١ - ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ص ٥٧.
٢ - العماد الأصفهانى ــ الخريدة ــ ص ٢٨٠ ــ ص ٢٨١.

اتصل هذا الفقيه الفاضل والأديب الشاعر بالملك الصالح بن رزيك في مصر ، لما عُرف عن بني رزيك أنهم أهل كرم وجود ، وبلاطهم هو خير ملجأ لكل قاصد ومحتاج وهذا ما حدث مع المهذب بن أسعد عندما اشتد به الحال في الموصل وتقلب، عزم على قصد الصالح بن رزيك ومن شدة حاجته عجز عن اصطحاب زوجته معه إلى مصر، فتركها في الموصل في رعاية الشريف ضياء الدين الحسيني نقيب العلويين في الموصل فتكفل بها ،

وتوجه المهذب إلى مصر ومدح الملك الصالح بن رزيك بأجمل الأشعار ولعل أشهرها قصيدتة الكافية ومنها:

أَمَا كَفَاكَ تَلافِي فِي تَلافِيكَا وَلَسْتَ تَنْقِمُ إلا فَرْطَ حُبِيكَا
يَا مُخْجِلَ الْغُصنِ مَا يُثْنِيكَ عَنْ مِلَلٍ هَوىً وَكَلُّ هَوَاءٍ هبَّ يُثْنِيكَا (١) .

فنال على هذه القصيدة المنح والهدايا والعطايا وجزيل الشكر وحظى بمال وفير يكفي حاجته ويعدل من حاله.

هذا على الرغم من أنه سني المذهب ، لكن اختلاف العقيدة لم يكن عائقاً أو مانعاً في بلاط بني رزيك، فقد ضم هذا البلاط العديد من الشعراء والأدباء و العلماء على اختلاف أجناسهم وعقائدهم، وبالرغم من ذلك استقبلهم بكل ترحاب حتى عرف عن بلاط بن رزيك أنه كعبة لكل قاصد ومحتاج، وبذلك يكون فرصة جيدة لنشر الدعوة والعقيدة الشيعية بطريقة سهلة وبسيطة، ربما ينضم إليه المزيد من الناس في ذلك الحين.

وظل المهذب يمدح الملك الصالح حتى بعد عودته من مصر عرفاناً بالجميل و مقدراً له موقفه النبيل عندما قصده ولم يخذله .

وهذا نموذج نستدل به على كرم طلائع بن رزيك وجوده ونعرف من خلال شخصيته القويه التي استطاع أن يخلد ذكرها إلى زمن في عصر لم تكن فيه الأحوال مستقرة، فكانت وزارة طلائع بن رزيك لمصر صفحة مشرقة في تاريخها.

كما اتصل المهذب بن أسعد بالناصر صلاح الدين ، والملك العادل نور الدين بن زنكي ومدحهم بالعديد من الأشعار، لكن لم يصل إلينا ديوانه، وربما يكون فقد مثل باقي الآثار الفاطمية وما بين أيدينا مجموع أشعار له من المصادر التي ترجمت له. وفارق المهذب الحياة بمدينة حمص، قيل في سنة ٥٨١ هـ أو في سنة ٥٨٢هـ .

---

١ - العماد الأصفهاني ـ الخريدة ـ ص ٢٨٢.

أسامة بن منقذ

توفى سنة : ٥٨٤ هـ

أسامة بن منقذ : (*)

هو أبو المظفر أسامة بن مرشد على بن مقلد بن نصر بن مقلد الكنانى الكلبى الشيرزى الملقب بمؤيد الدولة مجد الدين، من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيرز التى شهدت ملكهم زهاء ثمانين عاماً.

ولد أسامة فى سنة ٤٨٨ هـ لأسرة عريقة من بنى منقذ، لأب وأم صالحين ربياه تربية الأمراء، فتعلم الصيد والفروسية منذ نعومة أظافره حتى يشتد عوده فتفتحت عيناه على حروب الصليبيين على الشام، فعرف معنى خوض المعارك والانتصارات والدفاع عن الوطن، فبرزت شخصيته من الناحية الحربية التى غلب عليها الشجاعة والقوة والفتوة والرجولة.

هذا بالإضافة إلى نشأته الأدبية التى تلقاها على يد كبار شيوخ وعلماء وأدباء هذا العصر، فكان يحضر إليه الشيوخ الكبار ليعلموه هو وأخوته العديد من العلوم منها حفظ القرآن الكريم، والأحاديث وروايتها وعلوم اللغة والنحو وحفظ الشعر العربى القديم، ومن أهم الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، الشيخ الصالح السنبسى، والشيخ العالم أبو عبد الله محمد المعروف بابن المنيرة.

---

* للوقوف على ترجمته انظر:
  - ياقوت الحموى ـ معجم الأدباء ـ الجزء الخامس ـ ص ١٨٨ ـ ص ٢٤٥.
  - ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ المجلد الأول ص ١٩٥.
  - عماد الدين بن كثير ـ البداية والنهاية ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ مكتبة الرياض ١٩٦٦م ـ الجزء ١٢ ـ ص ٢٣١.
  - ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة ـ الجزء الخامس ـ ص ٢٨٨ ، ص ٢٩٣، جزء السادس ص ١٦٠ ، ص ١٠٧.
  - العماد الأصفهانى ـ خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ـ الجزء الأول ص ٤٩٨ ، ٥٤٧.
  - محمد راغب بن محمود الطباخ الحلبى ـ أعلام النبلاء ـ المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٢هـ ـ ٤ / ٢٧٦
  - أسامة بن منقذ ـ لباب الآداب ـ طبع مصر ١٩٣٠م
  - أسامة بن منقذ ـ المنازل والديار ـ تحقيق مصطفى حجازى ـ دار سعاد الصباح القاهرة.
  - ديوان أسامة بن منقذ ـ تحقيق د. أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ـ عالم الكتب.
  - د. أحمد بدوى ـ الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ـ ص ١٧١.

ونرى صاحب الخريدة يثنى عليه بقوله:

(هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء والكرماء الكبراء والسادة القادة العظماء وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء وهو معدود من شجعان الشام وفرسان الإسلام ... وأسامه كاسمه، في قوة نثره ونظمه ...حلو المجالسة، حالي المساجلة، معتدل التصاريف، مطبوع التصاريف)[1]

ويقول عنه ياقوت الحموى: (إنه فى بنى منقذ جماعة أمراء شعراء ولكن أسامة أشعرهم وأشهرهم)[2].

وكان للبيئة الأدبية التى شب فيها أسامة أثر كبير فى شعره،فدفعت به إلى النبوغ والتفوق.

في الكتابه ونظم الشعر ، وليس هذا غريباً على بنى منقذ ، فكان لأمراء بنى منقذ ممن يقصدهم الشعراء والأدباء ،كما أنهم كانوا هم علماء شعراء ، ويحفظ تاريخ الأدب كثيراً من أشعار أبيه وأعمامه.[3]

لذا نرى فى ديوانه كثيراً من الأشعار المعبرة عن الشكوى وذم الزمان والحنين والعتاب، وذلك لأنه منذ أن كان صبياً يعيش مع أسرته فى شيرز يدافع عن وطنه ، ويحارب ضد الصليبيين مع عمه (أبى العساكر) حاكم شيرز، الذى اتخذه ولداً له واستمر الحال إلى، أن رزق الله عمه بأولاد فتغيرت علاقته بأسامة لأنه خاف على أولاده من مكانة أسامة وأن يحتل الملك من بعده لذلك غضب أسامة من حقد عمه عليه، فرحل إلى الموصل حزيناً على فراق وطنه بعيداً عن أهله وأسرته وهناك انضم إلى صفوف الجيش لدى عماد الدين زنكى وظهرت شجاعته وفروسيته فى خوض المعارك ضد الفرنج والروم سنة ٥٣٣ هـ و من أشعاره المعبرة عن حنينه لوطنه :

إِلَى اللهِ أشكُوا عَيشَةً قَدْ تَنَكَّدتْ ... علىَّ وَدَهراً قَدْ أَلَحَّت نَوائِبُهُ
تَكَدَّرَ مِنْ بَعْدِ الصَّفَاءِ نَميرهُ ... وأحزنَ مِنْ بَعْدِ السهُولَةِ جانِبه[4]

ولكن شوقه لوطنه دفعه للعودة إليه، وهناك حاول أن يستعطف عمه فى البقاء مع أهله لكن زاد عمه فى الطغيان فأمره بالرحيل هو وأخوته فتشتتوا فى البلاد، وأثر فى أسامة وفاة والده فى سنة ٥٣١هـ، فأكثر من شعره فى

١ - الأصفهانى ـ خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ـ الجزء الأول ـ ص ٤٩٨
٢ - ياقوت الحموى ـ معجم الأدباء ـ الجزء الخامس ـ ص ١٩١
٣ - مقدمة ديوان أسامة بن منقذ ـ ص ٦
٤ - ديوان أسامة بن منقذ ـ ص ١٠٦

غرض الرثاء فى أهله وإخوته وكثيراً ما بعث إليهم برسائل تعبر عن حبه وشوقه وحنينه لهم، فبعث بشعره إلى بهاء الدولة منقذ ونجم الدولة وعز الدولة وشمس الدولة عبد الرحمن ابن أخيه محمد وإلى أبيه ، فعلى سبيل المثال ما كتبه إلى أخيه عز الدولة:

أشْكُو فُرَاقَكَ فَهُو أوْ جَعُ مَا لَقِيتُ مِنْ الحَوَادِثْ
شَكْوى مَشُوق يَسْتَرِيحُ إلَيكَ ، والمَصْدُورُ نَافِثْ
وَأَلُومَ دَهْراً جَدَّ فِي تَشْتِيتِ شَمْلِي ، وَهُو عَابِثْ[1]

وبعد أن ترك شيرز بأمر من عمه اتجه إلى دمشق وحاول هناك إثبات نفسه وظهرت قوته وشجاعته فى خوض المعارك والحروب حتى اتصل بمعين الدولة أونر وزير شهاب الدين محمود وتكونت بين أسامة أونر صداقة، فمدحه أسامة بشعره :

مُعِين الدِّينِ ، كَمْ لَكَ طَوقُ مَنٍّ بِجِيدِى مِثْلُ أطْوَاقِ الحَمَامِ[2]

لكن لم يدم الحال طويلاً فسرعان ما دب الحقد فى قلب أونر بتدبير من الحاسدين والواشين فأوقعوا بينهما، فقال أسامة معبراً عن ذلك فى شعره :

أطَاع مَا قَاله الوَاشِي وَمَا هرقا فَعَادُ يُنْكِرُ مِنَّا كُلَّ مَا عَرفا[3]

فلم يجد أسامة مفراً من الرحيل من دمشق ، غاضباً حزيناً مما يفعله به الزمن فاتجه إلى مصر فى سنة ٥٣٩هـ فى وقت لم تكن الأمور فيه مستقرة حيث كثرت الخلافات والنزاعات حول منصب الخلافة والوزارة ، فبعد مقتل الخليفة الحافظ لدين الله خلفه ابنه الظافر ، نشب الصراع بين ابن نصار وابن السلار طمعاً في الوزارة وتدخل فى الأمر عباس الصنهاجي وولده ، وكان لهم غرض أيضاً فى المنصب، وفى ذلك الحين تكونت صله بين أسامة بن منقذ وطلائع بن رزيك وكان حينئذ أحد المقدمين فى الدولة ، ولم يواسِ أسامة فى مصر سوى صداقته بطلائع، لأنه اتهم بأن له يد فى مقتل ابن السلار وابن

١ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ١٦٧.
٢ - المصدر نفسه ـ ص ٢٦٩.
٣ - المصدر نفسه ـ ص ٧٧.

مصال وهنا اجتمعت بعض الآراء[1] التى توضح براءة أسامة من هذا الاتهام.

والثابت أنه كان على صلة وطيدة بطلائع بن رزيك وأحسن إليه الصالح حتى رأى فى خروجه من مصر خسارة لا تعوض، فأغراه بولاية أسوان لحماية جنوب مصر لكن خاف أسامة من فتن مصر وسوء ظن أهلها به، وبالرغم من ذلك اعتنى طلائع بأسرة أسامة بعد رحيله عن مصر فكيف يتهم بذلك ويغفر له طلائع الأمر؟

ثم رحل أسامة من مصر متجهاً إلى دمشق فى سنة ٥٤٩هـ وتقرب من نور الدين محمود أكبر أبطال الحروب الصليبية فى عصره .

كان أسامة قد اتصل بشعراء مصر وظلت الصلة قائمة حتى بعد رحيله عن مصر فراسلهم بقصائده الشعرية ومنهم الرشيد ابن الزبير والمهذب ابن الزبير وعمارة اليمنى والجليس ابن الحباب وغيرهم، وهذه الأشعار تندرج تحت غرض الإخوانيات فعلى سبيل المثال ما بعثه الرشيد من مصر:

أَأَحْبابَنَا مَا مِصرُ بَعْدَكُمْ مِصرُ ... وَلَكنَّهَا قَفْرٌ، إليكم بِهَا قَفْرٌ

فكتب له أسامة جواباً عنها، منه :

تُذَكِّرهُ أَحْبَابِهِ الأَنْجُم الزهرُ ... فَيَا وَيحَه مَاذا به صَنَع الذِّكْرُ
سَقَى مصرِ جُودَ الصَّالِحِ المَلْكِ إِنَّه ... هُوَ الوَابِلُ المحْيى البَرية لاَ القَطْرُ
ففيها كرامٌ أسعروا بِجوانِحِي ... بِبُعْدِهِم جمراً ، به يُحْرَق الجمرُ [2]

كما ظلت الصداقة قائمة أيضاً بين الوزير الصالح بن رزيك وأسامة ودارت بينهما الكثير من المراسلات الشعرية التى تكشف عن ود وإعجاب كلاً منهما بالآخر ، واشترك الاثنان فى الجهاد ضد الصليبيين، فرأى طلائع أن أسامة يستطيع أن يؤثر على نور الدين محمود حاكم دمشق ويقنعه أن تتحد مصر وسوريا ضد العدو المشترك ولكن لم يخرج هذا الحلم من نطاق الأمانى.

---

١ – من مقدمة لباب الآداب ص ٢٣، الكامل ـ لابن الأثير ١١ / ٧٥ و ٧٨، النجوم الزاهرة ٥٥ / ٢٨٨ ـ ٢٨٩ و ٢٩٣ ، ٣٠٩ ، الخطط المقريزية ٣ / ٤٦ ـ ٤٨.
٢ – ديوان أسامة بن منقذ ـ ص ١٠١ ـ ١٧٢.

وعلى أيه حال ظل الصالح طلائع يراسل أسامة ، ويغريه بالعودة إلى مصر ، وفى ذلك الحين تعرضت أسرة أسامة للغرق فى البحر فوصل الخبر لأسامة أن أهله انكسر بهم المركب فى ساحل عكا ونهب الإفرنج كل ما فيه من ذهب وأموال وهدايا ولم يصلوا إلى دمشق، فأثر هذا الحادث فى نفس أسامة وجعله يشكو الزمان والحياه فقال فى هذا :

إلى الله أشْكُو فُرْقَةً دَمَّيَتْ لَها جُفُونى وَأذْكَتْ بِالْهُمُومِ ضَميرى
تَمَادتْ إلىِ أنْ لانَتْ النفسُ بالْمنَيَ وَطَارَتْ بِهَا الأشْوَاقُ كُلَ مَطِيرِ
فَلَمَا قَضَى الله اللقَاءِ تَعرَضَتْ مَسَاءَة دِهْرِى فِي طَرِيقِ سرورِى[1]

وفى ديوان أسامة العديد من قصائد الشكوى والحنين التى بعث بها إلى صديقه الصالح طلائع، يشكو إليه حاله وما حلّ به من دمار وفقر وفقد للأهل والمال ، فلم يتأخر عنه طلائع فغمره بره وكرمه وجوده ، ودل على ذلك ما مدحه به أسامة فى شعره ، فأسامة كان شديد الإعجاب بشجاعة طلائع وقوته وأشاد بذلك فى ديوانه عن كثرة حروبه وخوضه للمعارك وما حققه فيها من انتصارات وبطولات.

وفى سنة ٥٥٢هـ تعرضت شيرز إلى زلزال مدمر ،هدمها وقضى على بنى منقذ فزاد هذا الحادث من ألم أسامة، وأطال من حزنه وأكثر من شكواه فتأزم لما مر به من أحداث فلجأ إلى العكوف عن الحياة والبعد فى حصن (كيفا) يحاول فيه استرجاع الهدوء والأمان، وكانت هذه فرصة له للدراسة والبحث والاطلاع إلى أن عاد صلاح الدين الأيوبى إلى دمشق ، فكان صديقاً لأسامة اتصل به وحاول أن يرجعه للحياة فكان صلاح الدين شديد الإعجاب بأسامة وأدبه ومؤلفاته.

إلا أن كبر السن والمرض حل على أسامة واشتد حتى وافته المنية فى سنة٥٨٤هـ بعد أن أربى على التسعين ودفن فى جبل قاسيون بدمشق[2]

وتعد حياة أسامة بن منقذ حياة حافلة بالأحداث والأخبار التى جعلت منه رجلاً حكيماً، صبوراً، ألم بتجارب الحياة وهذا ما اتضح لنا من ديوانه الشعرى فمما قال أسامة عن الصبر وأنه طريق الأمل:

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ ــ ص ١٢٦.
٢ - ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ المجلد الأول ــ ص ١٩٩.

اصبرْ إذَا نَابَ خَطْبُ ، وانْتظرْ فَرجاً ... يَأتى بِهِ اللهُ بَعْدَ الرَّيْــثِ واليِاسِ
إن اصطِبارِ انبةَ الْعنُقودِ ، إذ حُبَستْ ... في ظُلْمَةَ القَار؛ أدَّاهَا إلىِ الْكاسِ [1]

وفي ديوانه شعر يفتخر به بنفسه و بأسرته ، فخــراً بمـــا حققـــه مـــن انتصارات في ميدان القتال واثقاً من نفسه ، لكن أثر في أســـامة كبـــر ســـنه وعجز عن تلبية نداء الحرب، فالمشيب حل عليه، لكنه مازال فخوراً بما حققه من انتصارات وبطولات:

رَجِــلاتي وَالسَّبْــعونُ قَدْ أوهَنَــتْ ... قَــوايَ عَــنْ سَعي إلىِ الْحَـــــــرْبِ
وَكُنْــت إنْ ثَــوَّب دَاعــيِ الْوغَىَ ... لَبَيــتُه بالْطَــــعْنِ والــضَّـــــربِ
أشقْ بالسَّيــــفِ دُجَــى نَقْعِهـــا ... شَــقَّ الدَّيَاجِــيِ مُرسَـــلُ الشَّهُبِ[2]

وغيرها من الأشعار التى ملأت ديوان أسامه ، فتعددت الأغراض بين غزل ومدح ووصف ورثاء وشكوى وعتاب وغيرها من الأغراض التى رتبها أسامة بنفسه فى ديوانه وأعتنى به، وخلفه ابنه مرهف واهتم بهذا الديوان القيم ويذكر بن خلكان أن (له ديوان شعر من جزأين موجود فى أيدى الناس ورأيته بخطه ...) [3]

ولعله بدأ ديوانه بالغزل اعتقاداً منه أنه يصل للقلب أسرع، أو لأنه تأثر بالقصيدة العربية القديمة التى تبدأ بالغزل.

ومن خلال ديوانه ظهرت لنا ثقافته الواسعة وأنه ألم بالعديد من العلوم، وخبرته فى الحياة أثرت فى شعره حتى أصبح ديوانـــه يـــؤرخ لحياتـــه فـــي أشعاره، فيها جدية ورصانة وقوة ، وغلب عليه الجد ولم يرد المزاح إلا قليلاً.

وكما يرى محقق ديوانه[4] أنه يعد بحق فى الطليعة بين شعراء عصره الذين خلد الأدب أسماءهم، ومن بينهم:

المهذب بن الزبير وأخوه الرشيد طلائع بن رزيـــك وعمـــارة اليمنـــى والعماد الأصفهانى ولعل سر تفوقه، فضلاً عن ثقافته الأدبية الواسعة ــ أنـــه

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ ــ ص ٣٠٢.
٢ - ديوان أسامة بن منقذ ــ ص ٢٥٨.
٣ - ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ المجلد الأول ــ ص ١٩٦.
٤ - مقدمة ديوان أسامة ــ ص ٤٣.

كان يعنى بالتعبير عما يمر به فى الحياة من تجاربه الشخصية والتى كان لها أثر كبير فى شعره وأدبه.

عقيدته:

أما عن عقيدة أسامة بن منقذ، فقد تناولها د. حسن عباس بشيء من التفصيل فى كتابه "أسامة بن منقذ ـ حياته وشعره"، وعرض عدداً من الأدلة من خلال آراء المؤرخين التى تبين لنا أن أسامة كانٍ ينتمى إلى المذهب الشيعى وأنه من بيت شيعى، ولكن أسامة كان معتدلاً فى تشيعه، فليس فى تشيعه غلو أو تعصب[1]

ومما خلفه لنا أسامة من آثار أدبية ومؤلفات قيمة أثرى بها الأدب العربى وفيها ترجمة لحياته، وما مر بها من أحداث ، وذكر أخباره وأشعاره كما ورد فيها النصح والإرشاد والحكمة من هذه المؤلفات:

- كتاب المنازل والديار ـ وكتاب لباب الأدب ـ وكتاب العصا.
- مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.
- مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز.
- كتاب نصيحة الرعاه.
- كتاب تاريخ القلاع والحصون.
- كتاب أخبار النساء.
- كتاب الشيب والشباب.
- كتاب النوم والأحلام ـ وكتاب أخبار البلدان.
- كتاب التجائر المربحة والمساعى المنجحة.
- كتاب ذيل يتيمة الدهر ـ وكتاب فى أخبار أهله.
- كتاب تاريخ أيامه ـ وكتاب فضائل الخلفاء الراشدين. [2]

---

١ – راجع د. حسن عباس – أسامة بن منقذ ـ حياته وشعره– الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الأول – ص١٣٣ ـ ١٤١.

٢ – ورد ذكر هذه الكتب فى كتاب المنازل والديار ص ٥٠ إلى ص ٥٢ ، وفى مقدمة ديوانه ص ١٠ إلى ص ١٢.

ابـن الصيـاد

ابن الصياد (*):

هو الخطيب المفيد أبو القاسم هبة الله بن بدر المعرف بابن الصياد، هو من شعراء بنى رزيك، أجاد نظم الشعر وبرع فيه وكان سريع الخاطر في نظمه لا يقف قلمه ولا يتضع فيه علمه ، وكان يغريه الصالح بجلسائه يهجوهم، وخاصة أنه كان مولعاً بهجاء القاضى الجليس بن الحباب، فكثيراً ما يتهكم بأنفه الكبير حتى قيل إن ابن الصياد أنشد أكثر من ألف مقطوعة في أنف الجليس وما كان يصده شيء حتى انتصر له أبو الفتح بن قادوس فقال فيه:

يَامَنْ يَعِيبُ أُنُوفَنَا الشُّـ ـمَ التى ليست تُعَابُ
الأَنْفُ خِلْقَةُ رَبِّنَا وَقُرُونَكَ الشُّم اكْتِسَابُ (١)

والحقيقة أنه لم نعثر على ديوان لابن الصياد أو ترجمة واضحة تبين لنا معلومات دقيقة عن حياته أو عن أشعاره، إنما الذى بين أيدينا هو مجموع أشعار له وهى ليست قصائد كاملة إنما هى عبارة عن مقطوعات شعرية وردت فى بيتين أو خمسة أبيات على الأكثر، وتتدرج هذه المقطوعات تحت غرض المدح، فلقد مدح فيها طلائع بن رزيك بالقوة والشجاعة والكرم، وله من قصيدة يتحدث فيها عن موقعة بين الملك الصالح طلائع والصليبيين وعن قتل مقدم خيل الفرنج الذى سماه بن الصياد (بأرناط) واسمه الصحيح (رينولد)، منها قوله:

عَنْ سِيفَ دِينَ الله سِلْ أَرْنَاطَا حَيثُ المنيَّةُ كَاسُهَا يُتَعَاطَى (٢)

---

* لم ترد له ترجمة كافية إلا في خريدة القصر ـ الأصفهانى ـ ج١ ص٢٤٢ إلى ص٢٤٥ وفيها بعض الأشعار التى نظ[illegible] ابن الصياد.

١ – انظر ـ فوات الوفيات ـ ج ١ ـ ص٧.

٢ – العماد الأصفهانى ـ خريدة القص[illegible] ـ ج١ ـ ص ٢٣٤.

الفصل الثاني

الموضوعات الشعرية

المـدح

ازدهرت الحياة الأدبية في رحاب بلاط بني رزيك ازدهاراً كبيراً فتنوعت فنونها وتعددت ألوانها، وأسهم شعراء مجالس طلائع الأدبية في الموضوعات التي عرفها الشعر العربي في العصور السابقة : من مدح ، وغزل ، ووصف ، وفخر ، ورثاء وإخوانيات ... وغيرها ، وجددوا في صورها وأخيلتها ، وصياغتها ومعانيها .

أولاً: المدح :

المدح فن من فنون الشعر العربي أثرى سجل العرب الشعري ، ورسم جوانباً من الحياة التاريخية للملوك ، والخلفاء ، والأمراء ، والقواد وغيرهم ، فهو يشغل معظم صفحات ديوان الشعر العربي، وكان الدافع في البداية عشق العربي للمثل العليا ، وإعجابه ببعض الرجال الذين رآهم تجسيداً لهذه المثل فأشاد بفضائلهم ، وترنم بمآثرهم [1] .

كما اهتم النقاد بإرشاد الشعراء إلى الطريق التي ينالون بها الحظوة عند ممدوحيهم لذلك حصر قدامه بن جعفر الفضائل الإنسانية التي كان القاصد لمدح الرجال بها مصيباً والمادح بغيرها مخطئاً وهي :

العقل ، والشجاعة ، والعدل ، والعفة ثم يأخذ قدامة في التفريع والتقسيم فيخرج من تلك الفضائل الأربع فضائل أخرى ، كما لاحظ هذا وأشار إليه ابن رشيق القيرواني فيلاحظ مثلاً أن فضيلة العقل قد تفرعت إلى أنواع منها : ثقافة المعرفة والحياء ، وغير ذلك، أما الشجاعة فقد دخلت فيها الحماية والأخذ بالثأر والدفع عن الجار وغير ذلك [2] .

ولكن سرعان ما تطور الأمر ، وأصبح شعر المديح سبيلاً للتكسب والرزق وهذه كانت سمة شائعة في العصر الفاطمي فأصبحت قصائد المديح قوالب معروفة وعلى الشاعر أن يعيد تشكيل هذه القوالب من ممدوح لآخر حسبما يتفق مع شخصية الممدوح ، ومن هنا تحتل قصيدة المديح مكانة باسقة في العصر الفاطمي نتيجة لتهافت الخلفاء والوزراء والأمراء على شعراء المديح ، فأخذوا يغدقون عليهم الأموال والهدايا في مقابل أن يخلعوا عليهم من

---

١ – د. فوزي أمين – الحركة الفكرية والأدبية في الإسكندرية – ص ١١٣.

٢ – راجع تلك الإرشادات والتقاليد في نقد الشعر – قدامه بن جعفر – تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان – ص ٦٦ – ص ٦٩.

خيالهم ما يخلد ذكرهم ومن هذه النقطة بالذات ، وهي اتصال الشعراء بالخلفاء والملوك والوزراء تأتي أهمية شعر المديح حيث يكشف لنا كثيراً من غوامض التاريخ ويصور أحداثه تصويراً حياً، ويبرز جوانب منه يغفلها المؤرخون ، فالمؤرخ يعرض تتابع الأحداث والشاعر يبرز صدى هذه الأحداث في النفوس [١] .

ولم يكن شعر المديح ينبعث من دافع التكسب وحده ، إذ نجد من الشعراء من استخدموا المدح رغبة في التقرب من الخليفة أو الوزير ومنهم من كان محل إعجاب ، ومثلاً أعلى للشعراء في الكفاح الدائب والمستمر من أجل الذود عن حياض الإسلام ودرء خطر الأعداء الداهم .

ولم يكن الملك الصالح بن رزيك الوحيد الذي شدّ إليه الشعراء الرحال لكن هناك وزراء غيره عرفوا للشعر قيمته فقربوا أصحابه وأدنوا منزلتهم وأجزلوا لهم العطاء؛ ولهذا فإن كان هذا العصر عصر انحلال سياسي وتفسخ فقد كان عصراً زاخراً بالنهضة الأدبية والعلمية .

وقد امتلأ ديوان الشعر العربي بفرائد هي من غرر القصائد وعيون أشعار العرب ، وكان في بلاط بن رزيك عدد كبير من أعلام الشعر المصريين ، والوافدين ، وقد أراد طلائع بن رزيك أن يجمع رجال الأدب والقلم في إمارته لتكون شهرته الأدبية كشهرته الحربية في مقارعة الصليبيين.

بل لعله كان خير من أدرك أن هؤلاء الشعراء هم لسانه الذي ينطق فينشرون أعماله ويمجدون بطولته وشجاعته ، ويخلدون كرمه ونخوته لذا أجاد العطاء المادي فكانوا أسخى منه عطاءاً شعرياً ، ظل خالداً إلى يومنا ، فكان ما حصل عليه من الشعراء أبقى وأطول عمراً من تلك الدنانير التي ملأ بها جيوبهم .

إن المديح في تراثنا الشعري فن رائع ، لا لما تحمل مقدمات قصائده من فنون الغزل، والوصف، والحكم، وصور المجتمعات، فحسب بل لما يحتوي من مثل أسلافنا في التربية الخلقية والنفسية والاجتماعية، ولما يسجل من تاريخنا ووقائعه .

وهو ولا شك جدير بكل اهتمام وعناية ، وموضوع دراسة الأدباء :

---

١ – د. فوزي أمين – الحركة الفكرية والأدبية في الإسكندرية – ص ١١٤.

يقول العقاد : " إن المجتمع يستفيد من القصيدة (قصيدة المديح) أنها تحيي فيه أخلاق لا قوام له بغيرها في قيادته وسياسته ومعاملاته المتبادلة بين أفراده ، وتلك هي أخلاق الشجاعة والرأي والحزم" [1] .

وقد دار شعراء المديح في بلاط بن رزيك حول ثلاثة محاور تتصل بشخصية بن رزيك ووزارته .

أول هذه المحاور هو جهاده في سبيل الإسلام وبلاؤه في قتال الأعداء، وثانيها هو ما يتصل بصفاته النفسية من كرم وجود ونكاء ، وثالثها هو ما يخص معتقده الديني ، وفيما يلي تفصيل لمجمل هذا الكلام :

١- الجهاد :

طلائع بن رزيك وزير فاطمي، وفارس مغوار، وقف نفسه على بناء مجد الدولة الفاطمية خاصة وأن الخطر الصليبي بات يهدد أمن البلاد واستقرارها، بعد ضياع هيبة الخليفة ، فكان الوزير هو المتصرف في جميع شؤون الدولة وحاكمها، وكان طلائع أحد الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب الصليبية وأبلى فيها بلاءً حسناً ، فسجل في الأدب اسمه وأحاطه الأدب بهالة من التقديس والإعجاب وخلده في صورة حبيبة إلى النفس قريبة من القلب ، يزينها الإيمان ويجملها اليقين .

وقد أشاد الشعراء بانتصارات طلائع في الحروب ضد الإفرنج براً وبحراً، ووصفوا زحفه إلى العدو بجنوده الأبطال ، وبذله للنفس والنفيس في سبيل نصرة الإسلام ، وإعلاء رايته.

هذا المهذب بن الزبير – شاعر طلائع الأول – مدحه بالعديد من الأشعار التي تشير إلى صدق العزيمة والإصرار على تطهير بلاد الشام من دنس الصليبيين، وإصرار طلائع على تحقيق هذه الغاية وتطهير الشام أرض آبائه .

ولم يترك المهذب غزوة من غزوات طلائع إلا ومدحه وسجل لنا معاركه، ولعل أوضح مثال بين أيدينا هو تصويره الرائع لشجاعة المسلمين وعلى رأسهم طلائع في معركة (تل العجول) [2] والتي ذكرها أبو شامة بقوله:

---

١ – عباس محمود العقاد – أشتات مجتمعات في اللغة والآداب – دار المعارف – ص ١٢٩.

٢ – تل العجول هو مكان قريب من عسقلان وغزة .

(في أوائل ربيع الأول سنة ٥٥٣ هـ ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكره إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين ، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسرا بحيث لم يفت منهم إلا اليسير وغنموا من ظفروا به، وعادوا سالمين ظافرين) [١] .

ولعل طلائع نفسه قد سجل هذه المعركة بقصيدة ميمية رائعة حدد لنا فيها زمن السير ، وكيف كان، فيقول طلائع :

نَذَرْنَا مسيرَ الجيْشِ فِي صفَرٍ، فَمَا ... مَضَى نصفُهُ حَتَّى انثنى وَهُو غَانِمُ
بَعثْناهُ مِنْ مِصرٍ إلى الشَّامِ قَاطِعاً ... مَفَاوِزَ ، وَخَدُ العِيسِ فِيهنَّ دائِمُ [٢]

يمدحه المهذب بقصيدة بدأها بمقدمة غزلية في حوالي أحد عشر بيتاً ثم انتقل إلى المديح فمدح طلائع بالقوة والبأس ووصف ما ألحقه بالعدو من ذعر وخوف، فيقول :

يَاكاسِرَ الأصنَامِ قُمْ فَانهضْ بِنَا ... حتى تصيرَ مُكَسِّرَ الصلْبَانِ
فالشَّامُ مُلْكُكَ قد ورِثتَ تُرَاثَهُ ... عَنْ قَوْمِكَ الماضينَ مِنْ غسَّانَ
مَا زُلْزِلت أَرْضُ العدَا ، بَلْ ذَاكَ مَا ... بِقُلُوبِ أَهْلِيهَا مِنَ الخَفَقَانِ
وأقولُ: إنَّ حُصُونَهم سَجَدتْ لمَا ... أُوتيتَ مِنْ مُلْكٍ ومِنْ سلطانِ
والنَّاسُ أَجْدَرُ بالسُّجودِ، إذا غدا ... لعُلاكَ يسجدُ شامِخُ البُنيانِ [٣]

والطريف في هذه الأبيات أن الشاعر يربط بخياله بين الزلزلة التي صادفت المعركة، وبين هزيمة العدو ، فيرى أن هذه الزلزله حدثت من رعب جنود العدو، وأن خفقان قلوبهم المرتعدة زلزل الحصون، والقلاع ، فإذا كانت حصون العدو قد سجدت للسلطان رعباً ، فما أحرى جنودها بهذا السجود .

ولقد بعثتَ إلى الفرنجِ كتائباً ... كَالأُسْدِ حينَ تَصُولُ في خفَّانِ
وتيمَّموا أرضَ العدوِّ بقفْرةٍ ... جَرْدَاءَ خَالِيةٍ مِنَ السُّكانِ
حتى إذا قطعوا الجفَارَ بجَحفَلٍ ... هُوَ فِي العَدِيدِ ورَمْلُهُ سِيَّانِ
أغريتهُم بحمى العدا فجعلتَهُ ... بِسُطَاكَ بعد العزِّ دارَ هوانِ
عجلَتْ في تلِّ العُجولِ قِرَاهُمُ ... - وَهُمُ لك الضَّيْفَانِ - بالذِّيفَانِ

---

١ - أبو شامه - الروضتين - ١/٢٨٨ .
٢ - ديوان طلائع بن رُزيك - تحقيق د. أحمد بدوي - ص ٩٣.
٣ - د. محمد عبد الحميد سالم - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢٣٢ - ص ٢٣٣.

لمّا أبَوْا ما فـي الجِفـان قـِرىً لهُمْ ... بـصَوارِمٍ سُلَّتْ مِـنَ الأجْفـانِ
وثُللتَ في يوم العريش عُروشُـهُمْ ... بِـشَبَا ضِـراب صَـادقٍ وطعـانِ
ألجـأتهُمْ للبحـر لمَّـا أنْ جَـرى ... منْه ومِـنْ دَمهـمْ معـاً بَحْـرانِ
حتى ترى دمهم وخُـضْرَةَ مائـه ... كـشقائقٍ نُثِـرتْ علـى الرَّيحـانِ
وكأنَّ بحر الرُّوم خَلُقَ وجهُـــهُ ... وَطَفَـتْ عَلَيْهِ مَنَابِتُ المَرْجَانِ (١)

إن الشاعر يشيد هنا بالمعارك التي خاضها طلائع منها (تل العجـول) و(يوم العريش) موضحاً ما لحق بالعدو من هزيمة، وأنهم فـي معركـة تـل العجول رفضوا السلم واختاروا الحرب ليحتسوا منه السمَّ الزعاف، وفي يـوم العريش ضيق عليهم طلائع السبيل وألجأهم إلى البحر فكانت دمـاؤهم بحـرا آخر إلى جانب البحر ويتوقف الشاعر ليشكل بعض الصور الطريفـة فيـشبه خضرة الماء تعلوها الدماء بشقائق النعمان نثرت على الريحان أو كأن البحر دهن وجهه بالخلوق وطفت عليه منابت المرجان، هكذا عكست لنـا الأبيـات قدرة الشاعر على التصوير بما أبدعه من تشبيه.

ويستمر الشاعر في تسجيله الفني البارع وتـصويره الـدقيق لهزيمـة الإفرنج، وهروبهم من أمام طلائع وتركهم البر إلى البحر، ثـم ينتقـل إلـى الحديث عن ما بعد المعركة ، فيقول:-

فَأَتَتْـكَ مُـوقَرَةً بِـسَبْيِ بُيُـوتِـهُ ... أسْـــرَاهُمُ مَغْلولَـــةَ الأذْقَـــانِ
حَرْبٌ عَوانٌ حكمتْـكَ مِـنَ العـدا ... فـي كـلِّ بِكْـرٍ عنـدهمْ وعَـوَانِ
وأعَدْتَ رُسُلَ ابن القسيم(٢) إليه في ... شَعْبَانَ كَـيْ يَتَـلاءَمَ الشَّعْـبانِ(٣)

وهكذا لم يفت أن يرصد الغنائم والسبى ، ويرصد تاريخَ عـودة رسـل نور الدين إليه في شهر شعبان.

كما سجل المهذب هذه المعركة البحرية التي انتصر فيها جيش طلائـع سنة ٥٥٣ هـ ، وقيل إن مقدم الغزاه في البحر ظفـر بعـده مـن مراكـب

---

١ – د. محمد عبد الحميد سالم – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٣ إلى ص ٢٣٥.
٢ – ابن القسيم: يقصد الملك العادل نور الدين محمود ، القسيم جده آق سـنقر البرسنـقى الغازي. انظر وفيـات الأعيـان ١/٥٤٢ ، ٥ / ١٨٤، ومفـرج الكـروب ١/١١ ، والروضتين ١/٩ .
٣ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٦ .

المشركين وهي مشحونة بالفرنج فقتل وأسر من العدو الكثير وأخذ من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى وعاد ظافراً غانماً ، ويقول مشيراً إلى الصلة الوثيقة بين طلائع ونور الدين محمود صاحب الشام :

والفألُ يشهدُ باسمه أنَّ سوفَ يَغـ ... ـدُو الشَّامَ وهوَ عَلَيكُمَا قِسمانِ
وأرَاكَ مِنْ بَعْدِ الشَّهيد أباً لَهُ ... وجَعَلْتَهُ مِنْ أَقْربِ الإِخْوَانِ
وَهُو الذِّي مازَالَ يفعَلُ في العِدَا ... مَالَمْ يكُنْ ليُعَدَّ في الإمكَانِ
قَتَلَ البرنْسَ ومَنْ عَصاهُ أعانَه ... لمَّا عَتَا في البَغْيِ والعُدْوانِ (١)

وهذه الأبيات توضح لنا أن الشاعر يتكئ على الجذر اللغوي (قسم) الذي اشتق منه كنيه نور الدين (ابن القسيم) واشتق منه أيضاً القسم بمعنى (النصيب) فيعقد علاقة بين المشتقين فيرى أن العلاقة بابن القسيم فأل حسن بأن ينقسم الشام بينه وبين طلائع.

ولعل الشاعر هنا بهذا الربط الفني يلمح إلى اتفاق معقود بين نور الدين محمود وبين طلائع لم تسجله كتب التاريخ ، وكان الفضل في ذكره لشاعرنا المهذب .

ومن قصيدة أخرى للمهذب بن الزبير مدح بها طلائع بن رزيك بالشجاعة والإقدام يقول:

وتَلْقَى الدَّهرَ منْهُ بِلَيث غاب ... غدَتْ سُمْرُ الرِّماحِ لَهُ عَرِينا
تَخالُ سيُوفَهُ إمَّا انْتَضاهاً ... جَداولَ والرِّماحَ لَها غُصُونَا
وتَحسَبُ خيْلَه عُقبانَ دَجْنٍ ... يَرُحْنَ مع الظَّلامِ ويَغْتَدِينا
إذَا قَدَحتْ بِجِنحْ اللَّيلِ أوْرَتْ ... سَناً يعْشَى عُيُونَ النَّاظِرِينا (٢)

وواضح ما في هذه الأبيات من تصوير حيث يشبه الشاعر طلائع بالليث الذي كانت الرماح عرينه، ويشبه سيوفه في بياضها ولمعانها بجداول الماء، والرماح بالغصون التي نبتت حول هذه الجداول، أما الخيل فهي تشبه عقبان

---

١ - شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٦ .
٢ - المصدر نفسه – ص ٢٢٨ .

الدجن إذا سارت في الليل، وقدحت بحوافرها الأرض كان للشرر المتطاير سنا يعشى العيون .

وعلى هذا كان مدح المهذب لطلائع ، ولعنا قد وقفنا على ما تميز به هذا المديح من نزعة تصويرية ، فهو يعرض لنا شخصية طلائع وانتصاراته من خلال صور مبهرة تدل على تفنن الشاعر واقتداره .

وإذا تركنا المهذب وانتقلنا إلى طلائع بن رزيك نفسه فإننا نجد له قصيدة تصور إحدى معركه الشرسة تصويراً رائعاً ، فيقول في قصيدته الميمية التي أرسلها إلى أسامة بن منقذ ، يبين له فرحته بنصر المسلمين ، واستردادهم عسقلان ، وقتلهم ما بها من الفرنج :

وواجههم جَمْعُ الفرنج بُغملةٍ ... تَهونُ على الشُّجْعَان منها الهَزَائمُ
فلقَّوْهُمُ زُرْقَ الأسنَّة ، وانطووا ... عليهم ، فَلَمْ يَنْجُمْ مِنَ الكُفْر ناجمُ
وَمَا زالت الحربُ العَوَانُ أشدُّهَا ... إذا مَا تلاقى العَسكرُ المُتَصَادِمُ
يُشبِّهُهُمُ مَنْ لاحَ جَمْعُهُمُ لَهُ ... بلجَّةِ بَحرٍ مَوْجُهَا مُتَلاطِمُ
وَحَسْبُكَ أنْ لمْ يَبْقَ في القوْمِ فَارِسٌ ... مِنَ الجَيْش إلاّ وهْوَ للرُّمْح حَاطِمُ
وعَادُوا إلى سَلِّ السُّيُوف، فقطَّعَتْ ... رُءُوسٌ ، وَحُزَّتْ للفرنْج غَلاصِمُ
فلم يَنْجُ منهمُ يَوْمَ ذاك مُخْبِرٌ ... ولا قِيلَ : هَذا وحْدَهُ اليَوْمَ سَالِمُ [1]

وقد دارطلائع حول المعاني التي دار حولها المهذب غير أنه أشار إلى ضخامة جيش المسلمين فشبهه بلجة البحر، وأن الجنود حاربوا العدو حتى تكسرت رماحهم، فسلوا سيوفهم وضربوا بها رؤوس الأعداء الذين لم ينج منهم ناجٍ .

كما يشجع طلائع نور الدين محمود على الحرب بالقول والفعل ..، مما يؤكد لناشجاعة طلائع وشدة بأسه وإقدامه وعزمه الدائم فنراه يقول:-

فَقُولُوا لنُور الدِّين ، لا فُلَّ حَدُّهُ ... ولا حكمَتْ فيه اللَّيالي الغَواشمُ :
تَجَهَّزْ إلَى أرْضِ العَدُوِّ ، ولا تهِنْ ... وتُظْهِرْ فُتُوراً أنْ مَضت منكَ حَازمُ [2]

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق د. أحمد بدوي - ص ٩٧ ، ص ٩٨ .
٢ - المصدر نفسه - ص ٩٩ .

وهذا يبين لنا نظرة طلائع الثاقبة التي رأت أن الشام امتداد استراتيجي لمصر ، وأن الانتصار على الصليبيين لن يتحقق إلا إذا تآزرت جيوش مصر وجيوش الشام ، ومن هنا كان حرصه على إقناع نور الدين محمود بالجهاد رغم التباين العقيدي بينهما .

ونجد أن أسامة بن منقذ قد رد على طلائع بقصيدة من البحر نفسه وعلى الروى نفسه موضحاً له إعجابه بشجاعته ومشجعاً له على المضى قدمًا في حربه ضد الصليبيين :

غَزَوتَهمْ فــي أرْضِــهِمْ وَبِلادِهِــم ... وَجَحفلُهــمُ فــي أرْضِــهاَ مُتَــزاحمُ
فأَفْنَيتَهم قَــتلاً وأسْــرا بِأسْــرِهِمْ ... فَنَــاجَيْهمُ مُسْتَــسلمٌ أو مُــسالمُ
فلمَّا أبَــادَتْهم سُــيوفُك، وانْجَلَــتْ ... عَنْ الأَرْضِ منْهمْ ظُلْمــةٌ وَمظَــالِمُ
غَزَوتَهم في البَحْرِ، حتَّى كأنَّما الــ ... ـــأساطِيلُ فيه مَوْجُــه المُــتَلاطمُ
بِفرْسَانِ بَحْرٍ، فَوقَ دُهــمٍ، كأنَّهــا ... عَلَى المَاءِ طَيْــرٌ ، مَــالهنَّ قَــوادمُ
يُــصرِّفُها فُرسَــانُها بِأعنَّـــةٍ ... جَرَتْ ، حَيْثُ لم تُوصلْ بِهِنَّ الشَّكائمُ
إذَا دَفَعوُهاَ قُلْتَ: فُرســانِ غَارةٍ ... سَــرَوا بجيادٍ، ماَلهنَّ قَوائمُ(١)

ولعل ما يلفت النظر في قصيدة أسامه هو تصويرها للأساطيل وهو باب طريف في الشعر العربي ، حيث شبه الشاعر الأساطيل بموج البحر ، وشبه السفن فوق سطح البحر بالطير التي ليس لها قوائم، والفرسان فوقها كفرسان الخيل يصرفون السفينة بأعنة كأعنة الخيل غير أنها غير موصلة بشكائم .

وكان من أقطاب مجلس طلائع بن رزيك القاضي الجليس أبو المعالي بن الحباب وله جملة قصائد في مدح طلائع نبدأ منها بقصيدته الرائية :

سُــيُوفُك لاَ يُقَــلُّ لهــا غِــرارُ ... فَنَــومُ المَــارِقينَ بِهــاَ غِــرارُ
يُجرِّدُهــا إذا أخْرَجــتَ سَــخْطٌ ... علَــى قَــومٍ ويُغْمِــدُها اغْتفــارُ
طَرِيــدكَ لاَ يفوتُــكَ منــهُ ثَــارٌ ... وَخَــصْمكَ لاَ يُقَــالُ لــهُ عِثَــارُ
وفيمــا نلْتَــه مِــنْ كَــلِّ بَــاغٍ ... لمَنْ نَاوَاكَ - لَوْ عقَلَ - اعْتبَــارُ
فَمُــرْ يَاصَــالحَ الأَمْــلاكِ فِينــاَ ... بِمــاَ تَخْتَــارُه ، فَلَــك الخيَــارُ
فَقَدْ شَــفعَتْ إلــيَ مــاَ تَبْتَغِيــه ... لَــك الأقْــدارُ ، والفَلَــكُ المُــدارُ
وَلَوْ نَوتْ النُّجومُ لهُ خِــلاَفاً ... هَوت في الجَوِّ يذْرُوهَا انْتِثَارُ(٢)

١ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٧٥ ،ص ٢٧٦ .
٢ - خريدة القصر - ج١ - ص ١٩١ .

والأبيات تصور قوة طلائع بصفة عامة، فسيوفه قاطعة لا يفل لها حد ، لذلك يخشاها المارقون فلا يكادون ينامون خوفا ، إنها سيوف يجردها السخط ويغمدها الغفران ، وفي هذه الصوره دلالة على جانب في شخصية طلائع هو التسامح مع الأعداء، غير أن الشاعر يمضى مغالياً في وصف قوة طلائع، فيبين أن الأقدار والفلك المدار طوع أمره ، وأن النجوم لو نوت خلافاً له لهوت مهشمة في الفضاء .

ويدور الجليس حول هذه المعاني مرة أخرى مشيراً إلى قوة طلائع الخارقة وقدرته على هزيمة العدو ، وذلك إذ يقول :

أَماَ وَجِيادَكَ الْجُردِ العَوَادي لَقَدْ شَقِيتْ بِعزْمَتكَ الأَعَادى
رَأوْا أنَّ الصَّعِيدَ لَهُمْ مَلاذٌ فَلَم يُخمَ الصَّعِيدُ مِنَ الصِّعَاد
وَرامُوا مِنْ يَدَيْكَ قِرى عَتِيداً فَأَهديت الحتُوفَ عَلَى الهَوادي (١)

وكما يبدو لنا فهو مديح بالشجاعة في المعارك والصمود والثبات مع الإشارة إلى الرعب الواقع في قلوب العدو ، وإلى الموت الذي يتخطفهم واحدا بعد الآخر .

أمَا الشاعر المعروف بابن الصياد فقد مدح طلائع بن رزيك مشيراً إلى شجاعته وقوة بأسه عند خوضه لمعركة قتل فيها مقدم خيل الفرنجه ، يقول فيها :

هُو مُلْبِسٌ جُثَثَ العدَا في الْحَرْبِ منْ حُلَلِ النَّجِيعِ مُجَاسداً ورِيَاطاَ
فَجِيَادُهُ تشكو مُزَاحَمَةَ القَنَا وتَرُدُّ خِرْصَانَ الرِّمَاحِ سِيَاطاَ
هُوَ فَارسُ الإسْلاَمِ يَحْفَظُ بالظُّبا مِنْ دِينِه الأَطْرافَ والأَوْسَاطاَ
كَمْ قدْ أَثَارَ مِنَ الأَسِنَّةِ أَنْجماً لمَّا أَثَارَ مِنَ العَجَاجِ غُطَاطا
فتخالُهُ مَلَكاً رمَى بِشهابِهِ فِي الرَّوعِ شَيطانَ الحُرُوبِ فشَاطاَ(٢)

يبين الشاعر أن طلائع جعل من نجيع الدم حللا لجثث العدو ، وجعل جيشه رماح العدو هزيلة الفعل فهي أشبه بالسياط، إنه الملك الذي يحفظ أوساط أرض الإسلام وأطرافها ، سنان رماحه تبدو كالنجوم بين العجاج الذي تثيره الخيل ، وهذا العجاج أشبه بالدخان المنبعث من شيطان الحروب المحترق بفعل شهب الأرماح التي يرميه بها طلائع بن رزيك .

ومن قصيدة أخرى يقول ابن الصياد :

١ - المصدر نفسه - ص ١٩٧ .
٢ - المصدر نفسه - ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

شَرَّدْتَهمْ حَتَّى لَقَدْ قَاسَوْا عَلَى تلْكَ العقَابِ أليمَ كلِّ عقَابِ
سيمُوا العذابَ وذكَّرتهُمْ حالَهمْ حفظَاتُ أيامِ سَلَفْنَ عذابِ
هابُوكَ فاتذعروا وَمِنْ أعذَارِهمْ أنَّ السَّوامَ تُهابُ لَيْثَ الغَابِ (١)

ويطالعنا ابن الصياد في هذه الأبيات بصورة العدو المشرد الذي يرى راية طلائع فيتوقع العذاب الأليم ، ولعلنا نلاحظ تجنيس الشاعر بين العقاب بمعنى الراية والعقاب بمعنى العذاب ، ولعلنا لحظنا أيضا كيف شبه ابن الصياد فرار الأعداء أمام طلائع بفرار السَّوام من الليث .

ولابن الصياد أبيات كثيرة في مواضع متعددة يتحدث فيها عن المعاني ذاتهاوالتي يحرص على تكرارها واثباتها وكأنها أمر واقع لا شك فيه ولا جدال ، تلك المعاني المتمثلة في قوة طلائع وشجاعته وبسالته وإقدامه وانتصاره على أعدائه من الفرنجه وتشريده لهم في كل مكان حتى إن الفضاء قد ضاق بهم من كثرة مطاردته لهم وأنه هو حامي حمى الإسلام والمدافع عنه لذا فهو فارس الإسلام وناصره (٢) .

ومن الشعراء الذين أبدعوا في مدح طلائع بن رزيك ، وكانت تربطهما صداقة وطيدة هو الشاعر الأمير أسامة بن منقذ الشيرزى الذي ارتبط بطلائع وظلت بينهما مراسلات شعرية حتى بعد أن ترك أسامة مصر ورحل إلى الشام فأكثر من مدحه ، وكشف لنا عن مشاعر إعجاب وتقدير لهذا الوزير البطل الذي كان أحد الفرسان المدافعين عن بلادهم وحاول أن يحقق في عهده الأمن والرخاء للبلاد ، ويشهد على ذلك أشعار معاصريه التي تؤرخ لنا تاريخ هذا الوزير خاصة في ميدان الحروب والمعارك ضد الصليبيين .

فها هو أسامة بن منقذ يمدح طلائع بأصله وأنه كالأسد الشجاع لا يهاب خوض الحروب ، اتسم بالوقار والهيبة كما أنه اعتاد جو الحرب :

وَمَا النَّاسُ إلاَّ آلُ رُزّيكَ؛ إنّهمْ همُ الذَّادةُ الشُبَّانُ ، والسَّادةُ الشُّمطُ
بَنُو الحَرْبِ في يومِ الوَغَى ، وَبنُو النَدَى إذَا ما بلادُ النَّاسِ جَرَّدَهَا القَحْطُ
إِذَا مَا احْتَبُوا فَالرَّاسياتُ رَجَاحَةً وإنْ ركبُوا فَالأُسدُ هيّجتْ ، لَهَا نَحْطُ
لَهُمْ جَبَلٌ ، لا زَعْزَعَ الخَطْبُ رُكْنَهُ به تُؤمَنُ الأَحْدَاثُ والمَيّتةُ الغَبطُ
أَقَرَّ الوَرَى أنَّ لَيسَ كُفْئاً لمُلْكِه سَوَاهُ ، فَقَدْ زَالَ التَنَافُسُ والغَبطُ

---

١ - انظر خريدة القصر - ج ١ - ص ٢٤٤ .
٢ - المصدر نفسه - ص ٢٤٤ ، ص ٢٤٥ .

فَلاَ زَالَتْ الأَقْدَارُ تَجْـــــرِي بِأَمْـــرِهِ   وَفِـي يَدِهِ حَـــلُّ المَمَالِكِ والرَّبْطُ[1]

يستهل أسامة أبياته المدحية لصديقه وصفيه الذي أحبه كثيـراً الملـك الصالح بن رزيك بذلك الأسلوب البلاغي الجميل المتمثل في القصر المعتمـد على النفي والاستثناء فاختزل الناس جميعاً في بنـي رزيـك، فهـم الحمـاة المدافعون عن الإسلام وعن أركانه وهم الوقورون المجربون الحكام ، وهـم بنو الحرب والكرم وهم الأسود الهادرة في الحروب، وتأسيـساً علـى تلـك المعطيات فلقد اعترفت الناس جميعاً وأقرت بأنه لا نظيـر ولاكـفء للملـك الصالح طلائع؛ لذا فليس هناك تنافس أو حقد بل وصل الأمر إلى أنه هو المتحكم في الأقدار فصارت تسير بأمره وصارت أمور البلاد كلها طوع أمره.

كما قال أسامة في مدح الصالح بن رزيك بالشجاعة والقوة:

يــاأميرَ الجيُــوش ، مــازال للإســـ   ـــلام وَالْـدينِ منْـكَ رُكْـنٌ وَثِيـقُ
أسمــعَـتْ دعـوةُ الجـهـاد ، فلبَّـا   هــاً مليـكٌ، بِالمُكَرَّمــاتِ خَلِيـقُ
ملـكٌ عــادلٌ ، أثَــار بـه الدِّيـ   ـــنُ ، فَعمُّ الإسْـلامَ مِنْـهُ الشُّرُوقُ
مَالَــهُ عَـنْ جِهـادِه الكفُـرَ وَالْعَـد   لِ وفِعْـلِ الخَيْـرَاتِ شُـغلٌ يَعُـوقُ
هُــو مِثْـلُ الحُسام: صَـدرٌ صَقِيلٌ   لَـيِّنٌ مَـسُّه ، وحَـدٌّ نَلِيـقُ
ذُو أناةٍ يخَالُهَا الغَـــــرُ إهمـــا   لاً ، وفِيهاَ حَتْفُ الأَعَــادِي المُحِيقُ[2]

وفي هذه الأبيات يدور أسامة حول عدة خطوط في شخـصية طلائـع تتمثل في أنه الأمير المقدم للجيوش وهو المجاهد الأكبر لأعداء الدين ، فمـا ينفك يسمع دعوة للجهاد إلا ويسارع بتلبيتها ونصرتها، ومازال حريصاً على الجهاد ضد الكفر والكافرين، وهو حاسم قاطع مثل السيف ويجمع مـع هـذا الحسم وتلك الشجاعة كرم وعطاء وجود لا يناظر ولا يماثل ، وهو مع هـذه الخصال الجميلة المتعددة وقور حكيم ذو صبر ورؤية وبصيرة يخالها الجاهل إهمالاً وهي تدبير مميت مهلك لأعداء الإسلام من الفرنج .

ويقول أسامة في قصيدة أخرى :

تَوهَّموا أنَّ ضَارِى الأَسْـدِ يَنْفُـر عـن   عَرِينِــه لحـشُودِ البُــومِ والـرَّخَمِ
وَمــا دَرَوْا أنَّــه فــي جَحفَـل لجَـب   مـنْ بَأسِـه ، غَيْـرُ هيَّـاب ولا بَـرَم

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٢٥
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٣٨ ، ص ٢٣٩

مُغامرٌ ترهبُ الآجالُ سطوتَهُ — وتَفرَق الأسدُ منه في حمَى الأجَمَ
يَستقبلُ الحربَ بسَّاماً ، وقد كشَرتْ — بها المنِيةُ عن أنيابها الأزْمِ
يَلقىَ الألُوفَ ويحَبُوها، ففي يَده — من العَطا والسُّطا بحرا ندىً ودَمِ
ماَ غركمُ بصَدُوقِ الظَّنّ يُخبرُه الرَّ — أىُ الصحيحُ بماَ في الصدرِ من سَقَمِ
يَرَى الضَّغائِنَ في قلبِ الحسودِ له — تَدبُ مِثْل دبيب النَّار في الفَحَمِ[1]

يصل أسامة إلى ذروة إبداعه في مديحه لصديقه طلائع ، وأيضاً لنا أن نقول مبالغته في مديح طلائع بن رزيك، إذ نراه في هذه القصيدة ومنها هذه الأبيات – نراه – يخلع على طلائع صفات الشجاعة والبسالة والإقدام التي تصل إلى حد الأسطورة؛ فهو أسد ضارٍ يذود عن عرينه وهو مقدام باسل لا يهاب أحداً بل يصل الأمر إلى أن الموت يرهبه ويفر منه ، وهو يكون سعيداً كل السعادة حين يستقبل الحروب، وهي تكون عابسة تحمل الموت لمن يقدم عليها – وكأنه يذكرنا بأبيات المتنبي في مديح سيف الدولة الحمداني – فهو أكول شروب للجيوش ولو وصل عددها إلي الألوف الكثيرة ، ويستمر أسامة في هذا المديح الرائع الذي يحمل قدراً كبيراً من المبالغة المحمودة إذ تتفق الروايات على شجاعة طلائع وإقدامه وبسالته وكثرة حروبه للأعداء من الفرنج.

وفي قصيدة أخرى أجاب بها على قصيدة لطلائع بن رزيك : يمدحه أيضاً بقوته وشجاعته في حرب الأعداء وحبه لبلده ودفاعه عنها براً وبحراً ، وتكوينه جيشاً مصرياً قوياً استطاع أن يتصدى لأعداء الإسلام فيقول :

وحَمي البلادَ بسيفِه — عَنْ أنْ تُذالَ ، وأنْ تُدالاَ
وأحَلَّ بالإفرنج في — بَرٍّ ، وفي بحرٍ نكالاَ
حتىَّ لقد سَئموُا لقَا — ءَ جُيوش مصرٍ والقَتالاَ
نبَّهت عبداً طالماَ — نبَّهتَه قدراً وحالاَ
وَعَتبْتَه ، فأنَلتَهُ — شَرَفاً وَمَجْداً لَن يُنالاَ
وكَسَوْتَهُ شَرفاً ، إذاَ — ماَ طَاولتهُ الشُّهْبُ طَالاَ [2]

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٤٥
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦ .

وفي هذه القصيدة الرسالة – يرد أسامة على قصيدة طلائع، فيبدأ بمدح طلائع بالكرم والجود والعطاء ثم يخلص منه إلى مديحه بالقوة والشجاعة والبسالة، وأنه حامي البلاد والمنتصر على الأعداء في البر والبحر حتى إنهم سئموا من قتال المصريين وقائدهم طلائع ، ويستمر أسامة في قصيدته هذه مثنياً مادحاً طلائع مذكراً إياه بما بينهما من ود وحب ودافعاً إياه إلى التعاون والتآزر مع أمير الشام والمدافع عنها نور الدين، فبهما أي نور الدين وطلائع يستقر حال المسلمين ويدوم مجدهم وانتصارهم على أعدائهم من الفرنجة المتربصين بالإسلام والمسلمين فيقول :

فَاسْلَم لَنَا ، حَتَّى نَرَى ... لَكَ فِي بَنِي الدُّنْيَا مِثَالاَ
وَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِوُدِّ نُورِ ... الدِّينِ ، وَالْقَ بِهِ الرِّجَالاَ
فَهُوَ الْمُحَامِي عَنْ بِلاَ ... دِ الشَّامِ جَمعاً أَنْ تُذَالاَ
وَمُبِيدُ أَمْلاَكِ الفِرنْـ ... ـجِ وجَمْعِهُمُ حَالاً فَحَالاَ
مَلِكٌ بِتِيهِ الدَّهْرِ والـ ... دُّنْيَا بِدَولَتِهِ اخْتِيَالاَ
جَمَعَ الخِلاَلَ الصَّالِحَاتِ ... فَلَمْ يَدَعْ مِنْهَا خِلاَلاَ
فَإِذَا بَدَا لِلنَّاظِرِ ... ينَ رَأَتْ عُيُونُهُم ، الْكَمَالاَ
فَبَقِيتُمَا لِلْمُسْلِمِـ ... ـينَ حِمىً ، ولِلدُّنْيَا جَمَالاَ [1]

أما الرشيد بن الزبير فله مقطوعة فيها إشارة لقوة طلائع بن رزيك وحكمته في إخماد نار الفتنة منها:

جَارِي الْمُلُوكَ إِلَى الْعُلاَ ... لَكِنَّهُمْ نَامُوا وأَسْرَى
سَائِلْ بِهِ عَصَبَ النِّفَا ... قِ غَدَاةَ كَانَ الأَمْرُ إِمْرا
أَيلَمَ أَضْحَى النُّكرُ مَعْـ ... ـرُوفاً وأَمْسَى العُرْفُ نُكْرَا

ومنها :

قَسماً بِمَنْ طَافَ الحَجِيـ ... ـجُ بِبَيْتِهِ شُعْثاً وغُبْرَا
لَوْلاَ طَلاَئِعُ لَمْ نَكُنْ ... نَرجُو لِمَيْتِ الدِّينِ نَشْرَا [2]

يمدح الرشيد بن الزبير في أبياته طلائع بن رزيك بأنه يسمو إلى العلا ولا يقف أمامه حائل ثم يلمح إلى موقفه من الفتنة التي حدثت وانتصاره على

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٦٧ .
٢ – خريدة القصر – ج١ – ص٢٠١ ، ص٢٠٢ .

عباس الصنهاجي ومن معه من المنافقين أعداء الخلافة وحفظه لهيبة الدولة واستقرار أمورها وتثبيت دينها ، فلولاه لما بعث الدين حيا بعد أن مات أوكاد.

وننتقل إلى الشاعر المعروف بابن قلاقس فنراه يمدح طلائع بن رزيك مشيراً إلى شجاعته وشدة بأسه بقوله:

خلَّد الله مُلْكَ مالكنَا الصا ... لح فهْوَ السميذَعُ المختارُ
ملكٌ شاكلَتْ شمائلَهُ الروْ ... ضَ وأضْحَتْ كوَجْهه الأقمْارُ
هُوَ كالسَّيف غيرَ أنّ لَهُ منْ ... كل وجهٍ للمُفسدينَ غرارُ
عزمُهُ سيفُهُ وهيبتُهُ الرُّعــ ... ـبُ حقيقاً ونصرَتُهُ الأنْصارُ
فَلَهُ منْهُ وحْده حالةُ الحَرْ ... بِ للأعْداءِ جَحْفلُ جَرَّارُ
فإذا ما الخطيُّ غُرِّسَ في الأعــ ... ـداء يوماً فللرؤوس نثارُ
وإذا ما ظلامُ ليلٍ من الشرْ ... كِ دَجَا والمُهَمُّ فهو نَهارُ(١)

يبدأ ابن قلاقس مدح طلائع بالدعاء له بأن يحفظ الله ملكه ويجعله ملكاً خالداً أبداً، ومن هذا الدعاء يبدأ في عرض معطيات هذا الدعاء لذلك الملك الصالح فهو شجاع قوي مختار كريم قاطع حاسم كالسيف له عزم وهيبة ورعب يلقيه في قلوب أعدائه، وهو في حروبه مثل الجيش الجرار الذي لا يبقى على أحد من أعدائه فهو يقتل أعداءه في الحرب فيجعل الرؤوس متناثرة مترامية لذا فهو بقوته وانتصاره على أعدائه من المشركين والفرنجة مثل النهار الذي يمحو ليل الشرك وما فيه من ظلمة وظلام.

ومن الشعراء الذين ألموا ببلاط بن رزيك الشاعر الشريف أسعد بن الجواني وقد أورد صاحب الخريدة أبياتاً يبدو أنها من قصيدة كانت في مدح طلائع حين قتل عباس فيقول:

صَاحِ إنْ أهْجُرْ سلَيْمى والرَّبابَا ... فلَقدْ بُدِّلْتُ منْ غيٍّ صوابا
ولَقدْ واصلْتُ منْ بَعْدهمَا ... مَدْحَ منْ أغْرَى بجَدْواهُ انْتسابَا
إنّ في كَفِّ ابنِ رزيك لمَنْ ... يبْتَغي الرفْدَ لآمالاً خصَابا
وَيمِيني فَارسِ الإسلام قد ... أجْرَى البحرُ الذي عَبَّ عُبَابَا
كمْ لَه في الشامِ منْ معجزةٍ ... ومقَامٍ لمْ يكُنْ إلاّ احْتسابَا
جرَّبَ الإفْرنْجَ منْ أفْعالَه ... في صَنَاديدَهُم أمراً عُجَابا(٢)

---

١ – ديوان ابن قلاقس – ص٣١٢ ، ٣١٣ .
٢ – خريدة القصر – ج١ – ص ١٢٠ .

يمدح الشاعر في هذه الأبيات طلائع فيلتزم في استهلال قصيدته بالمقدمة التقليدية لقصيدة المديح العربية القديمة ، فيلتزم بالبدء بالغزل ثم يبدأ في مديح طلائع مادحاً إياه بالكرم والجود والعطاء الذي لا يخيب طالبه، فطلائع يجمع بين الشجاعة والإقدام والقوة وبين الكرم والعطاء والندى مشيراً إلى انتصاراته المتتالية المتتابعة على الفرنجة التي شبهها بالمعجزات، وقد شهد الفرنجة من قوته وشجاعته الأمر العجاب الذي يحار منه أصحاب العقول والفرسان الشجعان من الفرنجة والأعداء .

ومن الشعراء الذين وفدوا على طلائع بن رزيك ، وعاشوا في كنفه وتفيئوا ظلاله ومدحوه بغرر شعرهم وذوب أنفسهم وروائع نتاجهم الشاعر عمارة اليمنى الذي قدم إلى مصر، فعاش في بلاط بن رزيك بقية حياته وعاصر نهاية الدولة الفاطمية وله في طلائع مدائح كثيرة . وقد كان عمارة شاعراً بارزاً في بلاط بن رزيك، احتفى به طلائع برغم ما بينهما من خلاف مذهبي ، كذلك احتفى عمارة بطلائع وأحبه ، ومدحه بعدة قصائد منها قصيدته البائية التي يقول فيها :

إذاَ ماَ ذَكَرناَ وَقعةَ منْ حُرُوبِه ... فَماَ يُذكرُ الحيَّان بكرٌ وتَغلبُ
لَهُ مُعجِزاتٌ فِي الشَّجَاعَة والندى ... وَسرٌ عَنْ الأَبصارِ فِيهاَ مُغَيَّبُ
تَرَى كلَّ رَعدِيد الفُؤادِ وباخلٍ ... يَصدّقَها فِي نَفْسه ويكذّبُ
عَلى بَهَرتْ آياتها بطلائعٍ ... فَهَلْ فِي العُلىَ أيضاً نَبِيٌّ مُقرَّبُ
تَيَقَّنَت الأفرنج أنّكَ إنْ ترد ... دَمارَهم لَمْ يَنجِهِمْ منْكَ مُهرَبُ
وَخافتْكَ إنْ لَمْ تُعطِهاَ الأَمنَ مُنعماً ... فَجاءتْكَ بالأسدِ الشَّرَى تَتَغلَّبُ
وَأهدوُا رِجالَ السّلم آلةَ حَربِهِم ... وَمِنْ بَعضِ ماَ أهدَوُا مجنٌ ومُقْضَبُ[1]

يقول عمارة إن ذكر للوقائع التي يخوضها طلائع تنسى ذكر وقائع بكر وتغلب، ويمضى عمارة فيبين أن ما يأتيه طلائع في شجاعته وكرمه معجزات سرها مغيب ينظر إليها كل جبان وبخيل في حيرة بين تصديق وتكذيب ، إنها معجزات باهرة فهل بعث طلائع نبياً للعلا ؟!

ويمضي عمارة فيبين أن الفرنجة تأكدوا من هزيمتهم على يد طلائع إذا غشى بجنوده ديارهم، ولذلك جاؤه مستسلمين يلقون إليه بسلاحهم .

---

١ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الأول – ص ٢٠٠ ، ص ٢٠١ .

وله من قصيدة أخرى يقول:

قَـدْ عَلِمَتْنَـا سُـطاه أنَّ عَزْمَتـه | مَخْلُوقَةٌ وَحَدِيـدُ الْهِنْـدِ مـا خُلِقـاَ
مَوسَّـعِ الْحِلْـمِ لَـمْ تَخْفِـقْ أسِـنَّتَه | إلاَّ عَلَى صَدْرِ خصمٍ أضْمَرَ الْحَنَقـاَ
لاَ يَهْجِرُ الرأسُ جِسماً كَـانَ يَحْمِلُـهُ | إلاَ إذاَ عانَقَـتْ أسَـيافَهُ عنُقَـاَ
إذاَ انْتَضِينَ فَكَـم رُوحٍ تَـرُوحُ هَبـاَ | عِنْدَ اللِّقَاءِ وكَمْ جِسْمٍ تَـراَه لَقَـىَ
كَأَن هَـلَمَ الأعْـادِي وَهِـيَ تَفْلِقُهـاَ | لَيلٌ صَـبَبْتَ عَلَـى ظُلْماتِـه فَلَقـاَ
مُزْجَى الْكَتَائِـبَ إنْ تَكْتُـبْ أسِـنَّتها | كَانَتْ صُدُورُ أعادِيهِ لَهـاَ وَرَقـاَ[1]

ويبدو لنا من خلال قراءتنا لهذه الأبيات أن عمارة معجب كل الإعجاب بممدوحه طلائع بن رزيك ومأخوذ بشجاعته وسطوته وعزمه الذي لا يفل ولا يلين فهو منتصر دائماً على أعدائه لا تخفق رماحه إلا على صدور أعدائه الحاقدين عليه فهو مقدام، شجاع، محارب، صنديد، منتصر على أعدائه يزيل الهام منهم، ويلفتنا هذا التشبيه الرائع الذي يشبه فيه رقاب الأعداء بالليل المظلم الذي سلطنا عليه صباحاً مضيئاً من سيوفه فأزاحه وأضاء الدنيا ، وهو لا يمل من حربه للفرنج فهو يرسل دائماً الكتائب تطارد الفرنج وتشردهم وتقتل منهم الكثير والكثير.

جُرد يُرِيكَ سَوادَ اللَّيـلِ عُثيرُهـا | ومُرْهَفَات تُرِيـكَ الـصُّبْحِ مُؤتَلَقـاَ
خوَارِق لِصُدُور النَّقْعِ لَوْ صَـدَمَتْ | صُدُورُها سدَّ (ذِى الْقَرنَيْنِ) لاَ نَخْرقاَ
ضَاقَت بِهَيْبَتِهاَ الآفَاق واصـطمتْ | أهْلَ النِّفاَقِ فَلَـم تَتْـرِكْ لَهُـمْ نَفَقـاَ
كأنَّها مِنْ دُخَـانِ النَّقْـعِ خَارِجَـةً | مَوارِق النَّبلِ مِمَنْ خَـانَ أو مرَقَـاَ
تَغْزُو ثُغُورَ الْعِدَى مِنْهـاَ مـسُوَمةً | تَأْبَى الْعَلِيقَ إلَىَ أنْ تَـشْرَبَ الْعَلَقـاَ
لاَ يَشْتَكِي بَلَـدٌ حلَّـتْ بِـهِ ظَمـأً | وَالركضُ يُمْطِر مِنْ أعطاَفِهاَ عَرَقـاَ
كَمْ مَعْرك عَرَكَتْ فُرسانُ حَوْمَتِـهُ | وَمـأْزَقٍ تَركَـتْ أبْطاَلَـه مزقـاَ
يَنُـصُّها كُـلُّ مغْـوارٍ إذاَ سَـئمتْ | إعْنَاقَها السَّيْرَ زادَ الـنَّص والعَنَقـاَ
يَسْرِى إذاَ تَرِكَ النَّجْمِ السُّرى فَتَرى | جُـــرْدَ الجِيَادِ عَلى آثارِهِ حُزُقاً[2]

ويستمر عمارة في هذه المدحية الرائعة واصفاً تلك المعركة وهذه الجياد التي تحمل طلائع وأبطاله من المصريين الشجعان .

---

١ – المصدر نفسه – المجلد الثاني – ص ٧٠٣ .
٢ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٧٠٤ ، ٧٠٥ .

ولعمارة مدائح كثيرة متعددة في طلائع بن رزيك ، يخلع عليه فيها من صفات الشجاعة والقوة والبأس ما لا نجد له نظيراً عند معاصريه ، وكذا مدح أولاده من أمثال رزيك بن طلائع والذي مدحه بأكثر من قصيدة في حياة أبيه الصالح طلائع ، ومنها تلك القافية الرائعة التي مزج فيها بين مدح رزيك وأبيه الملك الصالح ومن ثم آل رزيك جميعاً .

وهي التي يبدؤها بقوله :

لَماَّ أدَارَ مُدَامَةَ الأَحــــدَاقِ   نَبَّت حَمِياَ نَشــــوَةَ الأَخلَاقِ[1]

ومنها تلك الأبيات الرائعة التي يقول فيها مادحاً :

مِنْ " آل رزّيك " الّذينَ سَمَاَ بِهِمْ   شَرَفٌ لِنَيْــلِ العِــزِّ والأَعْــرَاَقِ
مِنْ دَوحةِ المَجْدِ الَّتي أَغْصَانُهَا   مَجْنِيَّـــــةُ الثَّمَـــــرَاتِ والأَوْرَاقِ
أَسادُ حَرْبٍ لم تُــرَعْ بِكرِيهَـــةٍ   وبُدُور مجد لَــمْ تُــشَنْ بِمحَــاقِ
أَضْحَى "بِمُحيِ الدِّينِ" كلُّ مُعانَدٍ   وَفُـــؤَادُه كَلوَاتِـــــه الخفَّـــــاقِ
عَضُدُ الإِمَامِ وَمَجْدُ الإِسْلَامِ الذَّي   يَرْمِي عُيُـــونَ عــدَاه بِــالإِطراقِ
الفَارِس المُزْرِي بِكُــلِّ مُنَــازِلٍ   في يَوْمِ مَعْركَةٍ – وَيَــومِ سِــباقِ
والوَاضِع الأَرْسَاحِ بعــد نبالـــهِ   في الدَّرْعِ بينَ تَرَائِــبِ وتَــرَاقِ
مَنْ لاَ يروِّعه الهِيَاجِ إِذاَ الْتَقَـــىَ   والتفَّ سَاقٌ في الْجِــلَادِ بِــسَاقِ
شَاَهدت في المَيْدَانِ مِثْلَ فِعَالِــهِ   في الحَرْبِ بَيْنَ نَوابِــلٍ ورِقَـــاقِ
يِرْمِي وَيِطْعَنُ جَامِعاً فِي حَالَةٍ   عَمَلَ النِصَالِ الزُّرقِ والأَفْوَاقِ[2]

هكذا يمدح عمارة آل رزيك بالشجاعة والمجد والبأس فهم أسود في الحرب لا تروعهم الحروب ولا يفت عضدهم أى عدو وهم ساعد الإمام وحماة الإسلام ، وهذا ليس بغريب عليهم فهم من شجرة المجد وهم أوراق هذه الشجرة المثمرة ويستمر عمارة في بقية مدحيته الرائعة مختصاً العادل رزيك بن طلائع ببقية أبياته المدحية خالعاً عليه صفات القوة والبأس والإقدام والفروسية المطلقة التي لا تقف أمامها أي قوة في الحروب أو ميادين القتال .

ولعلنا لحظنا فيما أوردناه من شعر الشعراء أن الشعراء لم يقصروا مدائحهم على معارك طلائع وجهاده فقط ، ولكنهم كانوا ينفذون إلى فضائله

---

١ – المصدر نفسه – ص ٧٢٢

٢ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٢٤.

النفسية وبخاصة الكـرم ، وإذا تأملنا شعر المديح كله في أدبنا العربي رأينـا خط الكرم خطا بارزا فيه وهذا أمر طبيعي ؛ فوصف الممدوح بالكرم والبـذل إنما هو حث له على العطاء ، ومدخل للشاعر للاستجداء والتكسب .

وربما يؤكد هذا الخط في مدائح طلائع أن طلائع نفسه كان مجبولا على الكرم والعطاء ، مغدقاً على الشعراء وهذا خلق فيه شهد به القاصي والـداني وأجمع عليه تقريبا كل من أرّخو له ، وكتبوا عنه (١) .

وإبرازاً لهذا الخط في مدائح طلائع نعرض بعض النماذج لنرى كيـف مزج الشعراء بين مدح طلائع بالشجاعة وذكر معاركه وبطولاته وبين وصف كرمه وإغداقه ، يقول المهذب بن الزبير:

عَضَدْتَ النَّدى بالبأسِ تَقْضى على العدَا ... سُيوفُك ، أوْ تَقْضى عَلَيْـكَ المَكَـارمُ
سحائبُ جــــودٍ في يَدَيْك تضَمَّنَتْ ... صواعـــقَ ظنُّوا أنَّهُنَّ صوارِمُ(٢)

فانظر إلى هذا التماثل بين الندى والبأس الذي يعقده الشاعر ، وكيف أن المكارم هي الأخرى سيوف ، وإذا كانت السيوف الحقيقية تقضي على العدو ، فإن المكارم تقضي على مال طلائع، وسحائب الجود في يدي طلائع تتـضمن المال والسيوف ، فالمال للأتباع، والسيوف صواعق للأعداء وكأنها قرى لهم كما يقول الشاعر القديم : " وعجلنا القرى أن تشتمونا " .

وعلى هذا النسق يقول المهذب من قصيدة أخرى :

هو الحُسامُ الذي يـسموُ بحاملـه ... زهواً ، فيفَتكُ بالأسـياف والـدُوَلِ
إذا بداَ عارِياً مــن غِمْـده خلعَـتْ ... غِمْدَ الدِّماءِ عليـه هامــةُ البطـلِ
وإن تقلَّــد بحــراً مــن أناملــه ... رأيت كيف اقترانُ الـرِّزق بالأجـلِ

---

١ - انظر العماد الأصفهاني - خريدة القصر وجريدة العصر - الجزء الأول - ص ١٧٤.

- ابن الأثير - الكامل في التاريخ - الجزء التاسع - ص ٧٥ .
- ابن خلكان - وفيات الأعيان - الجزء الأول - ص ٢٠٨ .
- ابن تغري - النجوم الزاهرة - الجزء الخامس - ص ٣١٠ .
- العماد الحنبلي - شذرات الذهب - الجزء الرابع - ص ١٧٧ .
- خير الدين الزركلي - الأعلام - الجزء الثالث - ص ٣٢٩ .
- ياقوت الحموى - معجم الأدباء - الجزء التاسع - ص ٤٧ .

٢ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢١٧ ، ص ٢١٨ .

من السيّوف التي لاحــتْ بوارقُهــا   في أنْمُلٍ هي سُحُبُ العارضِ الهَطِلِ
فَجاَءنا لبني رُزِّيكَ مُعْجِــــــزُها   بآيةٍ لم تكُــن في الأعْصُرِ الأُولِ[1]

يقول المهذب إن طلائع هو السيف الذي يرتفع فخراً وزهواً بمن يحمله، وهو الذي يحمل الدماء لدول الأعداء ويفتك بسيوف فرسانهم ، وإذا ما رأيتــه دون غمده وجدت دماء الأعداء تنزف من هامات الأبطال مــنهم ومــع هــذه الشجاعة الفائقة فإن بحراً من الكرم ينساب من أنامله ومعه يقتــرن الــرزق بالأجل؛ فهو قد جمع بين العطايا التي هي سحاب عارض ممطر وبين القــوة المتمثلة في شجاعته وبأسه؛ وهو قد أتى بمعجزة لم نرَ آية أو مثيلاً لها فــيمن سبقه من عصور الأوائل .

على أن للمهذب بن الزبير قصائد عديدة يمدح فيها طلائع بــن رزيــك بالكرم والجود دون ذكر للشجاعة ، ومن أمثلة ذلك قوله :

أعِرْ نَظْم شِعْرِي منْكَ عيناً بصيرةً   فَفِــي طَيِّــه – لِلْكيميــاءِ كُمُــونُ
فَقَدْ شارَكَتْنا فِيــه كَفُّــكَ إذْ غَــدتْ   عليــه لنــا عنــد العطــاءِ تعُــينُ
تجــودُ لنــــا بالبرِّ ، ثُمَّ تَرُدُّهُ   لهــا ، وهْــوَ دُرٌّ بالمديح ثَمينُ[2]

وفي هذه الأبيات يمدح المهذب طلائع بالكرم الشديد، فهو معطاء دائمــاً وهو منه الخير وله ، فالشعراء قد وجدوا فيه رجلاً جديراً بالمدح والثناء فــلا عجب أن يستعير الشعراء منه نظم الشعر لأن فيه الخير وإليه يعود الثناء .

ومن ذلك أيضاً قوله :

عَجَبــاً لجُــودِ يديــه إذْ يبنــي العُــلا   والــسيلُ يَهــدِمُ ثابِــتَ الأرْكــانِ
ولِنَــارِ فِطْنَتِــه تُرِيــكَ لــشعره   عَــذْباً يُــرَوِّي غُلَّــةَ الظَّمــآنِ
وعُقــودَ دُرٍّ لــوَ تجــسَّمَ لفظُهــا   مــا رُصِّــعَتْ إلاَّ علــى التِّيجــانِ
وتنزّهــتْ عــن أن تُــرى أفرادُهــا   لمواضــعِ الأقْــراطِ والآذانِ
من كــلِّ رائقــةِ الجمــالِ زَهَــتْ بهــا   بــين القــصائد عِــزَّةَ الــسلطانِ
سَــيارةٍ فــي الأرضِ لا يَعُــوقُهــا   فــي ســيرها قَيْــدٌ مــن الأوزانِ

١ – المصدر نفسه– ص ٢٠٢ .
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٠٦ ، ص ٢٢٧

يامُنعمــاً مــا للثنــاء ولا غــلا
يومــاً بمــا تُــولى يــداهُ يَــدان

قلَّــدتَ أعنـــاقَ البريّـــة كلّهـــا
مننــاً تحمَّــلَ ثقلهــا الـــثَّقلان

حتَّى تَساوىَ الناسُ فيكَ وأصبحَ الـــ
ــقاصِي بِمنْزِلــةَ القَريــبِ الـدَّاني

ورَحِمْتَ أهــلَ العَجــزِ مِنهمْ مِثلمَا
أصْبَحــتَ تَغْفِرُ للمسئِ الجَانيِ[1]

يمدح المهذب هنا طلائع بن رزيك بكرمه وجوده الزائد وإنعامه علـى كل الناس ، مشيداً برفقه وعطفه على المساكين والفقراء وأنه قريب منهم ، متسامح يعفو عن المسئ منهم ، في قلبه رحمة وشفقة بالعاجزين، وهي صفات حميدة تحلى بها الممدوح وهي خِصال الكريمِ وشمائله صاحب العفو والجود والعطايا حتى صار كرمه شاملاً للناس جميعاً ، وطوقاً من الحمد قد قلد أعناقهم وهو مع ذلك الكرم صاحب رحمة وعفو عن المسئ الجاني منهم؛ فهو يجمع بين الحلم والعفو والكرم .

وفيه يقول:

جَمَــعَ الفَــضَائِلَ كُلَّهــا فَكَأنَّمــاَ
أضْحَى لِــشَخْصِ المَكْرُمــاَت مثــاَلاَ

مــاَ كَــاَن يُبقــى عدلُــهُ مُتظلِّمــاَ
لَوْ كَــاَن يُنْــصِفُ جُــودَهُ الأَمْــوالاَ

لاَ يَرْتَضِى في الجُودِ سَبْقَ سُؤالِ مَنْ
يَرْجُــوهُ، حتَّــى يَسْبِقَ الآمالاَ[2]

وهذه الأبيات من أفضل ما قاله المهذب في طلائع إذ إنه يذهب إلى أن طلائع بن رزيك قد جمع الفضائل كلها وكأنها تمثلت في شخص مثالاً مجسداً، وهو ظالم لأمواله بكثرة إنفاقه وجوده وهو لا ينتظر من سائله أن يطلب بل هو سباق دائماً إلى كل من يأمل خيراً أو يسأل معروفاً، وهو بهذا يذكرنا بأصحاب الكرم والجود والندى الذين يضرب بهم المثل في العطاء وكأننا نتذكر قول زهير في (هرم بن سنان) :

تَــراَهُ إذاَ مــاَ جِئْتَهُ مُتَهَلِلاَ
كَأنَّكَ تُعطِيــهِ الذَّي أنْتَ سائِلــهُ

أما القاضي الجليس بن الحباب فيقول في مدح طلائع بن رزيك ووصفه بالكرم والجود:

مَلِيكٌ ، إذاَ ألْهَى الملوكَ عَــنْ النُّهَــا
خُمارٌ ، وخمرٌ ، هاجرَ الــدَّلَّ والــدَّنَا

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٧ .
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٠٦ .

وَلَـمْ تُنْـسه الأوتــادَ أوْتــارَ قَينـةٍ	إذَا مَا دَعَاهُ السَّيفُ لم يَثْنِـه المَثْنَـي
وَلَوْ جَـادَ بالْـدُنْيَا وَعَـادَ بِـضَعفهَا	نَظَـنَّ مِـنْ استِـصْغَارِه أنَـه ضَـنا
وَلاَ عَيبَ فِـي إنعَامِــه غَيـرَ أنَّـهُ	إذَا مَـنَّ لـم يُتَبِـعْ مواهِبَـهُ مَنَّـا
وَلاَ طَعنَ فِـــي إقدَامِـه غَيرَ أنَّهُ	لَبُوسٌ إلى حَاجَاته الضَرب والطَّعْنَا[1]

ويطالعنا القاضي الجليس في هذه الأبيـات بمدحـه لطلائـع بكرمـه الشديد وعطاياه التي لا تنقطع، فهو جواد معطـاء وهـو يستـصغر دائمـاً ما يجود به ويظن أنه قد بخل ولم يعـط ، وهـو لا يتبـع مـا يجـود بـه ويعطيه أي مَن ولا أذى في إشارة واضحة إلى سـمة هـؤلاء المتـصدقين الذين لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى ثـم يمـزج ذلـك الكـرم بـشجاعته وإقدامه وبأسه الشديد ، مستخدماً أسلوباً بلاغياً بـديعاً متمـثلاً فـي أسلوب المدح بما يشبه الذم .

وفي أبيات أخرى يقول :

وَأرْوعَ يَشكُو الجُـودُ طُـولَ ثَوائـه	لَديه ، وَيَشكُو المَالُ طُولَ اغتِرَابِـه
تَصدُّ الملوكُ الصيدُ عن قصد أرْضه	فَيَرْجِعُهــاَ مُخرُوبَـــةً بِحرابِـــه
ويَعطُفهَـا ميـلَ الرِّقـابِ مَهابَـةً	ولَـمْ تكتحـل أجْفانُـهُ بِتُرابِـه
وأغـــزُو بأبكـــارِ القصَائدِ وَفرَهُ	فَأرْجِـــعُ قَدْ فَازَتْ يدَي بِنهابِه[2]

وفي هذه الأبيات يستمر الجليس في مديحه لطلائع بن رزيـك بـالكرم الممتزج بالشجاعة؛ فالجود يشكو طول مقامه لديه، والمال يشكو طول اغترابه عنه، والملوك الصناديد الأبطال تنأى بعيداً عن أرضه لأنها تعلم علم اليقين أنه إن أخطأت وقصدت أرضه فسوف تعود مهزومة مطرودة مطـاردة، وهـو معطاء كريم للشعراء ومنهم شاعرنا القاضي الجليس فيذهب إليـه بالقـصائد الجميلة البكر، ويعود من عنده، وقد فاز بكرمه وعطاياه وجوده .

ثم ننتقل إلى الشاعر ابن قلاقس الذي مدح طلائع بن رزيـك بـالكرم والجود، وهذا ما يؤكد صفة الكرم في طلائع فلولا أنه كريم معطاء ما مدحـه ابن قلاقس، ولا قصد بلاطه، فابن قلاقس شاعر يتوجه بشعره إلى حيث يوجد

---

١ - خريدة القصر - الجزء الأول - ص ١٩٤.
٢ - المصدر نفسه - ص ١٩٧.

البذل والعطاء، ولا غرابة في ذلك فهو شاعر متكسب بشعره يبذله لمن يعطي سواء في مصر أو خارجها ويقول ابن قلاقس في طلائع :

يَدُ الصَّالِحِ المَنْصورِ أعْظَمُ نـائِلاً … وأجْـزَلُ إعْطـاءً وأوْفَـرُ مغْنَمـاً
مَلِيكٌ أضاءَ الليلَ مِنْ نُورِ وَجْهِـهِ … وأفعالِه الحُسْنَى وَقَدْ كَـانَ مُظْلِمـاً
سَجِيَّتُه بذلُ النَّـوالِ فَلَـنْ تَـرَى … بأرْضٍ ثَوَى فيها من الناس مُعْـدَما
يُرِيكَ إذاً سـالَمْتَهُ البـدرَ طالعـاً … تَماماً وإن حارَبْتَـهُ الليـثَ مُقْـدما
أجِدَّكَ ما تنفكُّ تُعْطِي لِسـائِرِ الـ … ـمُعادِينَ بُؤْسـى والمُوالِينَ أنْعُما(١)

يمدح ابن قلاقس طلائع بالكرم والجود والعطاء وأنه لا يوجد من هو أكرم منه عطاءاً أو أسخى منه يداً؛ فهو ملك كريم قد أضاء الليل المظلم بنور وجهه وحسن أفعاله وهذا ليس بأمر غريب أوعجيب فتلك طبيعته التي فطر عليها؛ لذا فالملك الصالح طلائع لا يترك أحدا حل بأرضه إلا أكرمه وأعطاه ، وهو كريم معطاء وقت السلم ، مقدام شجاع، أسد جسور وقت الحرب، فهو منعم أشد ما يكون الإنعام لمؤيديه ومسالميه وهو نذير شر ودمار وهلاك لمحاربيه ومن يعاديه .

وتبدو في الأبيات قدرة ابن قلاقس الكبيرة على المديح وتعبيره البديع عن المعاني المدحية الجميلة، وفي قصيدة أخرى يكرر الأمر ذاته في مدح طلائع بالكرم والشجاعة فيقول :

فَمَلِيكُهُ المَرْهُوبِ يُغْدِمُـهُ نَـدَىً … فَيَعُودُ حَيَّ العَـودِ بَعْـدَ مَمَاتِـهِ
لا غَرْوَ إن صلُحَ الزَّمَانُ بصالحٍ … أفْعالُـهُ غُـرَرٌ علـى جَبَهَاتِـهِ
مَلِكٌ لَوْ أنَّ الله قَـدَّمَ عَصْرَهُ … لأتى به القـرآن في آياتِه(٢)

هكذا يكون كرم الممدوح عديم المثيل والنظير ، ويبدو الممدوح وحيد زمانه في الندى وأفعاله شاهدة على هذا الصنيع النادر ، ثم يبالغ ابن قلاقس مبالغة غير مقبولة عقلاً فيذهب إلى أن الملك الصالح بن رزيك لو تقدم عصره أى لو أدرك عصر الوحي لذكره القرآن في آياته .

ويقول أيضا مادحاً طلائع بشجاعته مع الإشادة بكرمه وجوده :

---

١ - ديوان ابن قلاقس – ص ٢٩٨.
٢ - المصدر نفسه – ص٥٩٨ ، ٥٩٩ .

كَالْغَيْـثِ فِـي إِرْوائِـهِ وَرَوائِـهِ
والليـثِ فـي وثَبَاتِـهِ وثَبَاتِـهِ

ذُو رَاحَةٍ وكَفتْ نَـدىً وكَفَـتْ رَدَى
فَقَضَتْ بِهُلْكِ عَداتِـهِ وعُدَاتِـهِ

زَهرتْ نُجُـومُ السَّعْدِ عَـنْ آرائِـهِ
وَسَطَتْ جُيُوشُ النَّصْرِ عَنْ رَايَاتِـهِ

فَـرْعٌ فَـالْمُجْتَلي والمُجْتَنَـى
مِنْ حُسْنِهِ يحظَـى وَمِـنْ ثَمرَاتِـهِ

أَلِفَتْ خَزَائنُ مالِـهِ مِـنْ جُـودِهِ
مَـا تَـأْلَفُ الأَعْـدَاءُ مِـنْ فَتَكَاتِـهِ

يَاماجِـداً يَطْـوِي بِـشَارِقِ عَدْلِـهِ
مَا مَدَّ لَيـلُ الجَهْـلِ مِـنْ ظُلُمَاتِـهِ

إِنَّا حَمِدْنَا الدهرَ منكَ ولم نكُـنْ
لِنَذُمَّ دهـراً أَنْتَ مِـنْ حَسَنَاتِهِ[1]

ويستمر ابن قلاقس على هذا النحو في مدحه لطلائع مستغلاً قدرته على التجنيس في إحداث التمازج بين الشجاعة والكرم فانظر إلى (وكَفَتْ نَدىً) و(كَفتْ رَدىً) كيف جمع فيهما بين وكف الندى وهطوله ، وكفاية السيوف ، وانظر أيضا إلى جمعه بين العدات والعداه ، وهكذا نرى أن ما ذهب إليه ابن قلاقس من التجنيس إنما هو عنصر أصيل من عناصر التعبير، وخيط لا غنى عنه من نسيج الأبيات .

كما أثنى الشاعر عمارة اليمني على كرم طلائع بن رزيك وجوده ، خاصة وأنه كان مقرباً إليه وتربطهما صداقة وطيدة ، فكثيراً ما نال عماره الهدايا والعطايا والأموال والذهب في كل المناسبات من الملك الصالح طلائع وطبيعي أن نرى صدى لذلك في مدائح عماره لطلائع منها قوله :

أَلَمْ تَرَ فَضْلَ الصَّالِحِ المَلْكِ لَمْ يَدَعْ
عَلَى الأَرْضِ مَنْ يُثْنِي عَلَيْهِ ويَمْـدَحُ

كَأَنَّ مَساعِي جُمْلَةِ الْخَلْـقِ جُمْلَـةٌ
غَدَتْ بِمَسَاعِيهِ الْحَمِيـدَةُ تُـشْرَحُ

تَجمّع فِيهِ مَا تَفرَّقَ فِـي الْـوَرَى
عَلَى أَنَّهُ أَسْنَـى وأَسْـمَى وأَسْـمحُ

يُرجَى النَّدى مِنْهُ فَيغْنِي ويَـسْمَحْ
وَيَخْشَى الرَّدَى مِنْهُ فَيعفُو ويَـصفَحُ

وَقَافِيةٌ تَجلُـوْ غَـرائبَ فَضْلِهِ
فَتُعْرِبُ عَنْ فَصْلِ الخِطَابِ وتَفْصَحُ[2]

يقول عمارة إن فضل الملك الصالح جعله متفرداً بالمديح ، فلم يعد هناك على الأرض من يستحق أن يمدح، إذ تجمع في طلائع كل الكرم والفضل

---

١ - ديوان ابن قلاقس – ص ٥٩٩ .

٢ - ديوان عماره اليمنى – المجلد الأول – ص ٢٦٦ .

الذي وزع على الناس ، أو كان الكرم جملةً محملة المعنى في الناس ، وكان كرم طلائع شرحاً لها وتفصيلاً .

ويستمر عمارة على هذا النحو في جميع قصائده التي يمدح فيها طلائع بالكرم والجود والعطاء، والنماذج الدالة على ذلك كثيرة ومتعددة [1] .

كما مدح عمارة طلائع مدح أيضاً ابنه العادل في حياة أبيه ، وكأنه يريد أن يقول إن كرم بنى رزيك لا يتوقف عند الملك الصالح بل هو أصل متأصل في أسرته ومن بعده أبنائه ، فيمدح ابنه بأنه معطاء جواد يفوق السماء جوداً في العطاء وهو يروي ظمأ الطامحين إليه الشاكين حالهم، وهو الذي يعطي دون انتظار الثناء أو الشكر على النعمة والفضل والكرم .

ويقول إن الممدوح قيده بقيد النعمة فصار عبداً له ، ثم يختم عماره أبياته بالدعاء له ولأبيه بأن يبقيهما الله ويطيل في عمرهما ، فهما بحق واستحقاق قد سادا ملوك الأرض جميعاً فيقول :

ملكٌ إذا جادت سماءُ نوالـه	أزرَتْ بصَوْبِ الْوابِلِ الغَيْداقِ
لا أشتكي ظمأ الأماني بعدما	روَّت سَحائبُه ثَرَى إملاقي
من شاكرٌ عنّي نداهُ فإنني	عَنْ شُكْرِ ما أو لاهُ ضاقَ نطاقي
منن تخفُّ عليه إلا أنها	نَقُلَتْ مُؤونتها علَى الأعناقِ
قد كنتُ حُرّاً قبل أنعمه التي	حكَمَتْ عَوارفُهنّ باسْترقاقي
فالله يبقيه ووالده فقد	سادَا مُلوكَ الأرْضِ باسْتِحقاقِ [2]

وننتقل إلى أسامة بن منقذ فنراه يمدح طلائع بقوله :

مَثَلَ مُنْهَلُ أنْعُمِ الملك الصَّا	لِح : يُروي دانٍ به وسَحيقُ
سُحُبٌ ، وبُلُها النُّضَارُ وللأعـ	ـداء فيها صَواعقٌ وحَرِيقُ
ملكٌ زَادَه التّواضعُ للَّـ	ـه جَلالاً ، يُروعُ ، ثُمَّ يَروقُ
سَطَواتٌ تُخشَى ، وحلمٌ يُرجّى	ونَوالٌ طَلْقٌ ، وَوَجهٌ طَليقُ
مَنْ حكَى بى وُرقَ الحمائم في الأفْـ	ـنَان : جيدي حال ، وغُصنى وَرِيق

١ – انظر ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٢٠ ، ص ٧٢١ ، ص ٧٠٥ ، ص٧٠٦ .... وغيرها.

٢ – المصدر نفسه – ص ٧٢٥.

وثنائي كشذوهينٌ مــــدَى الأيَّــــامِ ، يَحلــوُ سماعهُ ، ويَروقُ[1]

في هذه الأبيات يمدح الشاعر طلائع بالكرم والإنعام مشبهاً أنعمه وعطاياه بالمنهل العذب الذي يشرب منه القريب والبعيد ، وهذه العطايا مثل السحائب التي تحمل الخير لمن يريد ، وتحمل الموت والصواعق لأعدائه ، وهو ملك متواضع سمح يجمع بين السطوة والندى والحلم والعطاء وحسن اللقاء، ويقول الشاعر إن أفضال طلائع طوقت عنقه ونعمته في حياته فهذا أشبه بورق الحمام في أفنانها جيد حالٍ ، وغصن وريق ، وإذا كانت الحمائم تشدو على أغصانها حين تحس النعمةَ والخصب فالشاعر منها يشدو ، وشدوه شكر لمن وهبه النعمة والخصب .

ومن قصيدة أخرى يقول :

يامَالِكاً مالَكاً رِقِّي بأنْعُمِهِ ... ومِلْكُ مِثْلِيَ لا يُبْتَاعُ بِالقِيَمِ
مَا الشُكْرُ كُفءٌ لما أوْلَيْتَ مِنْ مِنَنٍ ... وإنْ تَسَهَّل لِي مُستَوعَرُ الكَلِمِ
وإنْ أكُنْ كزُهَيْرٍ في الثَّنَاءِ ، فقدْ ... عَلَوتَ مجداً وجُوداً عَنْ مَدَى هَرِمِ
وإنْ تَكُنْ مَنْحِي وقْفاً عَلَيكَ فَلاَ ... تَظُنَّ أنَّ ثَنَائِي مُنْتَهَى هَمَمِي
فَفِي يَمينِكِ مِنِّي صَارِمٌ خَذِمٌ ... يفْرِي، إذَا كلَّ حَدُّ الصَّارِمِ الخَذِمِ [2]

وعلى هذا النحو من صدق المشاعر وقوة الأحاسيس وشدتها، يستمر أسامة في مديحه لصديقه الوزير طلائع بن رزيك ، وهذا ليس بأمر مستغرب، فكما مر بنا، فقد أكرم طلائع أسامة وأنزله منزلاً كريماً، وجاد عليه بما يملك لذا فنجد مدائح أسامة لطلائع تتميز بعنصر مهم وهو عنصر الصدق في العاطفة ، وعليه فهو يقول بأنه قد صار أسيراً للملك الصالح طلائع أسير نعمه وعطاياه وكرمه ، وهو يحاول أن يشكره على ما قدم إلا أنه يعلم أن الشكر ليس يكافئ ما قام به طلائع نحوه، وهو يعتذر أنه لا يستطيع تقديم سوى هذا المديح الصادق ، ويغريه بأنه سيكون سيفاً صارماً من سيوفه ويكون ملك يمينه يصرفه طلائع كيف شاء وأنىّ شاء.

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٣٨.
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٤٥

وهكذا نجد أسامة في مواضع كثيرة متعددة دائم الثناء والمدح والعرفان بالجميل لطلائع بن رزيك ، وهذا يبدو واضحاً من خلال تتبعنا لمواضع هـذا المدح وفيه نشعر بالعاطفة الصادقة نحو طلائع . (١)

المدح المذهبي :

يعد المدح المذهبي ثالث المحاور التي دار في فلكها شعر المـديح فـي بلاط بن رزيك ، وكيف لا يكون ذلك والخلافة تتكئ علـى مـذهب دينـي، والوزير الصالح طلائع شيعي من الشيعة الإمامية ، ولا خلاف على ذلك بين المؤرخين فنحن أمام خلافة فاطمية تقوم على مـذهب دينـي وأمـام وزيـر يتعصب لمذهبه ودائماً ما يمدح آل البيت ويجاهر بحبهم معبراً عن حقهم فـي الإمامة والخلافة وإرث النبي (ص)، لذلك لا عجب أبداً في وجود مدح مذهبي في بلاط بن رزيك ، ولا عجب أيضاً أن يختلط المدح الذهبي بالمديح السياسي فمديح الخلفاء مديح مذهبي يمتزج بالسياسة كما هو الحال في مديح الـشعراء للوزير طلائع ، ونحن في بلاط بن رزيك نجد أمامنا عـددا مـن الـشعراء المدّاحين الذين يتكئون في مدحهم على معاني حب آل البيت والتعصب لهـم والدفاع عن حقهم في الخلافة وغيرها ونجد من هؤلاء الـشعراء مـن كـان صادقا في مديحه وحبه وتشيعه ومن هؤلاء الشعراء المهذب بن الزبير الـذي وإن اختلف بعض النقاد المؤرخين حول تشيعه (٢) على أنه من الثابت أنه كان شيعياً من بيت شيعي فنجد له مدائح من الخلفاء الفاطميين كما نجد له مـدائح في طلائع مدحاً يتكأ على المذهب الشيعى ومن هذه الأشـعار قولـه يمـدح الخليفة العاضد (٣) :

وَإِنَّ أَمِيـرَ الْمُـؤْمِنِينَ وَذِكْـرَهُ ... قَرِينَانِ لِـلآْيِ الْمُنَـزَّلِ فـي الـذِّكْرِ
لِقَولِ رَسُولِ اللهِ تَلْقَـونَ عِتْرَتِـي ... مَعاً ، وَكِتَابَ اللهِ في مَوْرِدِ الْحَـشْرِ
إِذَا مَا إِمامُ الْحَشْرِ لاقَىَ لِنَـاظِرِي ... فَو الْعَصْرِ إِنَّ الْجَاحِدِينَ لَفِي خُـسْرِ
وَيَكفي الْوَرَى مِنْهُ يَتِيمَـةُ تَاجِـه ... وَمَا قَدْ حَوَتْهُ مِنْ بَهَاءٍ وَمِـنْ فَخْـرِ

---

١ – المصدر نفسه في مواضـع متفرقـة منهـا – ص ٢١٢ ، ص ٢١٤ ، ص ٢٢٣ ، ص٢٢٦ ، ص ٢٣٠، ص٢٤٦ ... وغيرها.

٢ – انـظـر د. عبد اللطيف حمزة – في أدب الحروب الصليبية – مطبعة الإعتماد سنة ١٩٤٩م – ص ٨٥ ، وانظر د. محمد عبد الحميد سالم – طلائع بن رزيك – ص ٢٩ إلى ص ٣٥ .

٣ – الخليفة العاضد هو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ بن محمد بن المستنصر ، آخر ملوك مصر من العبيدين ، ولد في المحرم سنة ٥٤٦ هـ ، وتولى الخلافة سـنة ٥٥٥ هـ ، وكان شديد التشيع ، مغاليا في سب الصحابة ، وإذا رأى سُنيا اسـتحل دمه. توفي سنة ٥٦٧ هـ .

وَلَم تَرَ عَيْنِي قَبْلَهاَ قَــــطُّ كَوكَباً   يَلُوحُ مَعَ الشَّمْسِ المُنِيرَةِ في الظُّهرِ (١)

فيبدأ المهذب أبياته بجعل أمير المؤمنين ويقصد بـه الخليفة العاضد وذكره أو الثناء عليه في درجة واحدة من مكانة آيات القرآن الكريم وهذا القول وإن كان فيه مبالغة إلا أننا لا نعجب من مدح الشعراء الشيعة لأئمتهم فهو قائم على المبالغة وفي توضيح لهذا الرأي يحلل لنا المهذب سبب هذا القول بأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال (بأنكم ستجدون آل بيتي مع كتاب الله يوم الحشر الأعظم) ، وهو هنا لعله يشير إلى ما تدعيه الشيعة من أن الرسول - (صلى الله عليه وسلم) - قال لأصحابه (إنيّ قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به ما تضلوا بعدي أبدا : الثقلين وأحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل الله ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتى أهل بيتي إلا أنهما لم يفترقا حتى يرد على الحوض) .

موضحاً أن من يجحد ذلك القول ولا يعترف به سيكون من الخاسرين يوم الحشر ويكفي الناس من الخليفة العاضد أنه لا واحداً مثلـه فتاجـه تـاجَ يحتوي على الفخر والبهاء والعزة .

وللمهذب أيضاً أشعارٌ تدل دلالة صادقة على صدق مذهبه الشيعي فله أبيات في مديح أمير المؤمنين (على بن أبي طالب) كرم الله وجهه - وعند الشيعة الأئمة لا يموتون فعليٌّ حي باقٍ بإذن الله وقد أنكرت طائفة منهم وهي طائفة السبيئة قد أنكرت موتِ أمير المؤمنين - على بن أبي طالب - في إيمان منهم بأنه يعود فيملأ الأرض إنصافاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً لذلك فمديح أمير المؤمنين - على بن أبي طالب - حسب عقيدة الشيعة مدح لا عجب فيه لأنه مديح لشخص حي باقٍ يرجع بإذن الله .

وللمهذب هذه الأبيات في مدح أمير المؤمنين عليّ يقول فيها :

أميرَ المـؤمنين ، وخيـرَ ملْجـا   يُسارُ إلـى حمـاهُ ، وخَيْـرَ حـامِ
كـأنّيَ إنْ جَعَلْـتُ إلَيْـكَ قـصدي   قـصَدْتُ الـركْنَ بالبيـتِ الحـرامَ
وخُيِّـلَ لـي بـأنّي فـي مقـامي   لديـه بـين زمـزمَ والمقـام

١ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٩٥ ، ص ١٩٦

أيا مولايَ ذِكرُكَ في قعودي ... ويامولايَ ذِكرُكَ في قيامي
وأنتَ إذا انتبهتُ سميرُ فكري ... كذلك أنت أُنسى في منامي
وحُبُّكَ إن يكن قد حلَّ قلبي ... ففي لحمي استكنَّ وفي عظامي
فلولا أنت لم تُقبلَ صلاتي ... ولولا أنت لم يُقبل صيامي (١)

يستهل المهذب أبياته بندب أمير المؤمنين وكأنه يستحضره ويأنس به موضحاً أن أمير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه خير ملجأ يطلبه الإنسان وخير شخص يقوم بحماية أتباعه جاعلاً قصد أمير المؤمنين عليّ مساوياً لقصد الركن بالبيت الحرام وكأن الإنسان في مقام حضرة أمير المؤمنين عليٍّ كأنه يقوم بمناسك الحج ، فهو بين زمزم ومقام إبراهيم وهو لا يمل ذكر أمير المؤمنين ، فيذكره دائماً في كل أحواله في قيامه وقعوده، في منامه وفي يقظته موضحاً أن حب أمير المؤمنين عليّ قد حلَّ في قلبه فلا يزول وأن ذلك الحب قد خالط العظم واللّحم فأصبح ساكناً مستقراً فيه وهذا الحب من عقائد الشيعة وهو فرض من فرائض الدين الإسلامي عندهم عملاً بقوله تعالى :

(قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودّة في القربى) ، ويذهب المهذب في مديحه لأمير المؤمنين إلى أن عليّاً به تقبل الصلاة وبه يقبل الصيام فلولاه لم يقبل صوم ولا صلاة .

وهكذا يستمر الشاعر في مدحه المذهبي متنقلاً بين خلفاء الفاطميين وبين أمير المؤمنين عليٍّ وبين مديحه للصالح طلائع بن رزيك ، فنجد له أبياتاً يمدح فيها طلائع مدحاً يتكئ على معانٍ مذهبية يقول فيها:

يَقُودُ كُلُّ مُجِنٌّ ضِغْنَ ذي تِرَةٍ ... يَكَادُ مِن حَرِّه المَاذِيُّ يَنْسَبِكُ
حَتَّى أعادَ بِحَدِّ السَّيفِ مُلْكَ بَنِي الـ ... ـزَّهراءِ، واسْتُرْجِعَ الحَقُّ الَّذي تَرَكُوا
فَلَو يَكُونُ لَهُمْ أَمْثَالُهُ عَضُداً ... فِيما مَضَى ما غَدَتْ مَغْصُوبَةً فَدَكُ (٢)

فيتحدث عن شجاعة طلائع بن رزيك التي مكنته من أن يكون قائداً شجاعاً لا يخشى أحداً ولا يخاف شيئاً وقد تمكن بفضل حد سيفه أن يعيد ما اغتصب من حق أبناء فاطمة الزهراء ويسترجع إرثهم وحقهم كما تقول الشيعة

---

١ - شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢٤ ، ص ٢٢٥
٢- المصدر نفسه – ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٥

من خطأ خليفة المسلمين أبي بكر ومن بعده عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – حينما لم يوافقا على أن ترث فاطمة الزهراء أباها محمداً– صلى الله عليه وسلم – في (فدك) [١]

وما يهمنا في هذه الأبيات هو مدح المهذب لطلائع بأنه قد استطاع أن يسترجع حق بني فاطمة الذي اغتصب منهم وهو يشيرإلى تدهور حال البلاد بعد قتل الخليفة الظافر واضطراب الأمور حتى اجتمع رجال القصر وسيدات البلاط يفكرون في ما حل بهم من التدهور والارتباك فوقع الاختيار على طلب طلائع بن رزيك إلى مصر فكتبوا إليه وهو حينئذ والي قوص وأسوان والصعيد، يخبرونه بقتل الظافر ، ويستنجدونه على عباس الصنهاجي وولده نصر ، وأرسلت إليه أخوات الظافر بشعورهن في كتب كلها سواد وكتب إليه فيمن كتب القاضي الجليس بن الحباب قصيدته الدالية التي أولها :

دَهَتْنِي عَنْ نَظْمِ الْقَرِيضِ عَوَادِي ... وَشَفَّ فُؤَادِي شَجْوَةَ الْمُتَمَادِي
وَأَرَّقَ عَيْنِي والْعُيُونَ هَوَاجِعٌ ... هُمُوم أَقَضَتْ مَضْجَعِي وَوِسَادِي
بِمَصْرَعِ أَبْنَاء الْوَصِي وعِتْرَةَ النَّـ ... ـبِي وَآلَ الذَّارِيَاتِ وَصَادَ
فَأَيْنَ بَنُو رُزَّيْكَ عَنْهَا وَنَصْرُهُمْ ... وَمَالَهُمْ مِنْ مَنْعَةٍ وَزِيَادَ
أُولئكَ أنصَار الْهُدَى وَبَنُو الرَّدَى ... وَسمُّ العِدَا مِنْ حَاضِرِينَ وَبَادَ
لَقَدْ هُدَّ رُكن الدين ليلةَ قتلـه ... بِخَيْرِ دَلِيلٍ لِلنَّجَاةِ وَهَادَ
تَدَارَكَ منَ الإِيمَانَ قَبْلَ دُثُوره ... حُشَاشَةَ نَفْسٍ آذَنَتْ بِنَفَادَ

---

١ – فدك: هي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله – صلى الله عليه وسلم – في سنة نسبه صلحاً فيها عين فوّارة ونخل . وهي التي قالت فاطمة – رضي الله عنها – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – نحلنيها . فقال أبو بكر : أريد عن ذلك شهوداً .
والشاعر – هنا – يشير إلى ماكان من رأى أبي بكر وعمر في أن فاطمة لا ترث (فدك) التي تركها الرسول؛ لقوله – صلى الله عليه وسلم – " نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة " . والشيعة يعتقدون أن الخليفتين قد جانبهما الصواب ، وأنه يجب عليهما أن يسلماها لفاطمة ، لأنهم يرون ألا دليل لمانعي فاطمة – رضي الله عنها – هذا الحق فيما رووه عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الرواية – كما تشير كتب الشيعة – (صدقة) بالنصب على الحالية ، لا بالرفع على الإخبار في قوله – صلى الله عليه وسلم – (ما تركناه صدقة) وفدك لم تشترك حالة كونها صدقة حتى تحرم فاطمة من ميراثها بل صعدت روح النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الرفيق الأعلى وهي ملك له ، فهي ملك لأولاده كسائر ما ترك . انظر (أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري)– ص ٢٧٤ نقلاً عن كتاب د. محمد عبد الحميد سالم – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٠٥ .

وقَدْ كَادَ أَنْ يُطْفِئَ تَأَلُّق نُورِه عَلَى الحَقِّ عَادٍ مِنْ بَقِيَّةِ عَادِ
فَلَوْ عَايَنَتْ عَيْنَاكَ بِالقَصْرِ يَوْمَهُمْ وَمَصْرَعَهُمْ لَمْ تَكْتَحِلْ بِرُقَادِ (١)

فلما بالغ طلائع الخبر امتعض من ذلك وجمع الجموع وحشد الجنود وقصد القاهرة فوضع السيف فيمن بقي من أصحاب عباس وتكفل بأمر الخليفة الفاطمي وساس الأمور وتلقب بالملك الصالح، وسار في الناس سيرة حسنة وفخم أمره، ولما ولى الوزارة وتلقب بالملك الصالح خلع عليه وأنشئ له السجل فتناهى فيه كتاب الإنشاء وصدر بحقه – المرسوم الملكي – الذي يؤهله بمباشرة أمور الدولة جميعاً . (٢)

ويطالعنا شاعر آخر من الشعراء الذين اتخذوا المذهب الشيعي عماداً له في مدائحهم ولقد اختلف حوله المؤرخون ولقد أوضحنا ذلك في موضعه سابقاً (٣) والذي نطمئن إليه بأن الشاعر عمارة اليمنى ظل على مذهبه الديني فقهياً شافعي المذهب سنياً مخلصاً لعقيدته الدينية وزغم هذا فهو كان مادحاً كثير المدح محباً شديد الحب لآل البيت ويذهب المؤرخون إلى أن شعراء اليمن يدينون بمحبة الطيبين الطاهرين من أهل البيت على اختلاف مذاهبهم ، وكان عمارة واحداً منهم فعمارة يحب علياً كرم الله وجهه – مستنداً في ذلك على حديث صحيح منسوب إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – الذي يقول فيه :

(ياعليٌّ لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) ، وما نود أن نقف إليه هنا هو مدائح عمارة المذهبية والتي تنوعت بين مدحه لخلفاء الدولة الفاطمية ، ومدحه لعليٍّ وآل بيت رسول – صلى الله عليه وسلم – ، ومدحه للوزير طلائع بن رزيك فنجد له كثيراً من القصائد التي مدح فيها مدحاً مذهبياً، ومنها قصيدته في مدح الإمام العاضد وفيها أيضاً يمدح وزيره الصالح طلائع :

لاَ يَبْلُغُ البُلَغَاءُ وَصْفَ مَنَاقِبٍ أَثْنَى عَلَى إِحْسَانِهَا التَّنْزِيلُ
شِيمٌ بِكُم غُرٌّ أَتَى بِمَدِيحِهَا الـ ـفُرْقَانُ والتَّوْرَاتُ والإِنْجِيلُ

١ – ابن تغرى – النجوم الزاهرة – الجزء الخامس – ص ٢٩٢
٢ – انظر مقدمة ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق – محمد هادي الأميني – ص ١٤ إلى ص ٢٣
٣ – انظر مقدمة ديوان عمارة اليمنى – من ص ٢١ إلى ص ٢٦

سَيَرٌ نَسَخْنَاهَا مِنَ السُّوَرِ الَّتِي | مَا شَانَهَا نَسْخٌ وَلَا تَبْدِيلُ
قَامَتْ خَوَاطِرُنَا بِخِدْمَةِ نَظْمِهَا | فِيكُمْ وَقَامَ بِنَثْرِهَا جِبْرِيلُ
شَرَفٌ تَبَيَّتُ بِهِ "قُرَيْشٌ" كُلُّهَا | عُولاً بِكُمْ وعَلَيْكُمْ التَّعْوِيلُ
إِنَّ الرَّسُولَ أَبُوكُمُ مِنْ دُونِهَا | فَمَنْ الَّذِي مِنْهَا أَبُوهُ رَسُولُ؟ (١)

ففي هذه الأبيات يمدح الخليفة العاضد بأنه لا يستطيع أي بليغ مهما أوتي من بلاغة أن يثني على هذه المناقب والشمائل ويوفيها حقها ، فلقد أتتى عليها تنزيل من رب العالمين فهم أصحاب شيم غرٌ، أثبت مديحها الكتب السماوية من قبل التوراة والإنجيل والقرآن وهي شيم مذكورة منسوخة من أماكن لم يلحقها إبطال أوزوال وهم من آل قريش، وقريش كلها تعول عليهم وعمادهم في هذا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أبوهم ومن كان أبوه محمداً فلا يخشى ولا يخاف فمن يماثله في نسبه فمن أبوه رسول الله ؟!، ويستمر عمارة في مدحه بتلك المناقب السامية التي تفرد بها آل بيت الرسول ومنهم الخليفة العاضد حتى يصل إلى مدحه للوزير الصالح طلائع فيقول :

شِيَمٌ كَفَلَتْ بِهِنَّ مِلَّةَ أَحْمَدَ | وَ"الصَّالِحُ الْهَادِي" لَهُنَّ كَفِيلُ
كَافٍ هُوَ الْبَابُ الَّذِي مَنْ لَمْ يَصِلْ | مِنْهُ فَلَيْسَ لَهُ إِلَيْكَ وُصُولُ
أَمِنَتْ خِلَافَتُكَ الْخِلَافَ وَقَدْ غَدَتْ | تَسْطُو بِمَاضِي عَزْمَةٍ وَتَصُولُ
هُوَ طَوْدُهَا الرَّاسِي وَصَالِحُهَا الَّذِي | حَدُّ الْفَسَادِ بِحَدِّهِ مَفْلُولُ
شَمِلَتْ حَقِيقَةَ نَعْتِهِ أَقْطَارُهَا | فَبِكُلِّ قُطْرٍ لِلصَّلَاحِ شُمُولُ (٢)

فيقول الشاعر مادحاً الوزير طلائع بأنه تكفل بحماية ملة أحمد عليه السلام وهو الذي كف أيدي الأعداء عن خلافة بني فاطمة وهو بسطوة سلاحه ومضى رأيه وعزيمته وصلابته وثباته جعل حداً للفساد والخلاف ومن صلاحه ، وهو يشير إلى اسمه الصالح، ومن صلاحه جعل الصلاح شاملاً لكل قطر لذاالملك الصالح طلائع كان حصناً حصيناً لخلافة أبناء آل البيت .

ولعمارة أبيات أخرى في موضع آخر يمدح فيها أيضاً الخليفة العاضد متكئاً على ما يذهب إليه الشيعة من أحقية آل البيت في إرث محمد (ص) فموضوع الإرث إرث فاطمة الزهراء من أبيها – صلى الله عليه وسلم – إرث

---

١ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٧٦٢
٢ – المصدر نفسه – ص ٧٦٤

لا خلاف فيه ولا جدال ومن ثم فإرث آل بيت الرسول والخلافة والإمامة إرث لا جدال فيه فنراه يقول :

وَرِثُوا الإمامَةَ حاضراً عَنْ غائبٍ ... وتداولوها آخراً عن أوّلِ
مِنْ "ظافرٍ" أوْ "فائزٍ" أوْ "عاضدٍ" ... بيْت خلافته على النَّصِّ الجَلِي
أَوْصَى إليْهِ بِها ابنَ عمِّكَ بَعْده ... نصًّا كما نَصَّ النَّبي على عَلِي
فَتَيقَّنَ العَصرُ الذي لكَ أنّه ... منْ كُنْتَ حجَّةَ عَصْرِهِ لَمْ يَخْجَلِ
وَتَيقّنتْ رُتَبُ الخِلافَةِ أنَّها ... سَعِدتْ بِطلعةِ وجهكَ المتهلِّلِ [1]

فكما يوضح الشاعر في أبياته أن إرث الإمامة حق للأئمة الشيعة واحداً بعد الآخر حاضراً عن غائب ذاكراً أسماء بعض الخلفاء الفاطميين من الظافر والفائز والعاضد ، وجعل وصية الإمامة التي أوصى بها الخليفة الفائز لابن عمه الخليفة العاضد بالخلافة في مرتبة سواء مع وصية النبي – صلى الله عليه وسلم – لابن عمه عليّ بن أبي طالب – كرم الله وجهه – لهذا فأنت أي (الخليفة العاضد) هو الحجة والمرجع والمآل الذي يعود إليه العصر والخلافة قد سعدت بطلعته فهو صاحب وجه متهلل بشوش ، هذا الوجه المتهلل يرى فيه الشيعة أن في جبينه نور من نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – وشاهد حق لا تخفي دلائله .

ويستمر عمارة على هذا النحو من شعره المذهبي ويخص طلائع بمدح آخر في إحدى قصائده التي يقول فيها :

لولا طلوعُ طلائعٍ ما أشرقت ... نَارُ الْهُدَى في جنحِ لَيلٍ أَلْيَلِ
ولما سَمِعْتَ بأرضِ مصرٍ قائلاً: ... إنَّ النَّبي الطهر نصَّ على عَلي
ولما عَلَتْ لبني علي رايةٌ ... فيهَا ولاَ امتَازَ العدوُّ منَ الْولِي
يا ((آل رزيك)) نداءَ مناصحٍ ... لجَميلِ مَا أوليتُمْ لَمْ يُجْهَلِ
إن جادَ فيكمْ ما أقولُ فإنَّكُمْ ... أَطْلَقْتمُ بالْجُودِ مَوْثَقَ مِقْولي [2]

ففي هذه الأبيات يرجع عمارة إشراق نور الهداية وتثبيت دعائم الخلافة الفاطمية في مصر إلى طلائع الذي وقف وقفة شجاعة مجاهداً الفساد والفتنة مثبتاً أركان البيت الفاطمي في مصر لذلك يقول الشاعر بأنه لولا طلائع ما

---

١ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٧٧٦
٢ – المصدر نفسه – ص ٧٩٧

أشرقت نار الهدى وسط الظلام الحالك ، ولا سمع للخلافة الفاطمية صوت وهناك قول بالإمامة أو الوصية أنه لولا طلائع أيضا لما علت راية أبناء عليّ وما قتلت الفتنة في مهدها وقتل الفساد وانطفئت نار الفتنة .

وعلى هذا النحو يستمر عمارة اليمني في مدح طلائع بن رزيك وفي مدحه أيضا للخلفاء الفاطميين مدح ينم عن صدق وعن حب رغم أنه يصدر من شاعر سنى المذهب لم يفارق مذهبه ولم يتشيع .

فإذا ما انتقلنا إلى طلائع بن رزيك الشاعر الذي تحول إلى مدّاح كثير المدح للبيت وآله، لوجدنا أنفسنا أمام ظاهرة واضحة جلية في شعر طلائع تلك الظاهرة التى تكاد تسيطر على شعره فنجد له أشعاراً يتغنى فيها بمآثر العترة الطاهرة ، وأشعاراً يأسى فيها لفقدهم ويتحسر لذهابهم، وأشعاراً ثالثة يصب فيها جام غضبه على أعدائهم موضحاً مشاعره تجاههم ، وما يهمنا هنا هو شعر طلائع في مديح آل البيت وفي مدحه لمناقب العترة الطاهرة ، وبتصفح ديوان طلائع نجد أن مدائحه لآل البيت تمثل النصيب الأكبر من شعره، فطلائع كشاعر سلك مسلك الشعراء المادحين لأهل البيت وفاءاً لهم وتعصباً ، وأيضاً تثبيتاً لعرش الفاطميين ، فالشاعر لا ننفي عنه أنه كان يهدف إلى تحقيق أمله وتثبيت مآربه، فإن لم يكن هناك فئة تهوى آل البيت وتعشقهم وتمدحهم فلن يكون هناك ملك ولا خلافة هذه الخلافة التي هو متربع على الوزارة في حكمها متحكم في أمور دولتها، فطلائع بن رزيك الشاعر أجاد كل الإجادة في مدائحه الخاصة بآل البيت ، وقد استطاع بذكاء ومهارة أن يستثمر ثقافته ويمدح متكأ على حجج قوية وبراهين وأدلة تثبت موقفه من آل البيت وموقف آل البيت من حقهم في الإرث والإمامة والخلافة ومرَّ علينا في حديثنا عن المهذب بن الزبير أبياته التي ذكر فيها إرث فاطمة من أبيها – صلى الله عليه وسلم – وهو المتعلق بقرية (فدك) فكتب في هذا الأمر طلائع أبياتاً يوضح فيها أحقية فاطمة الزهراء في إرث أبيها محمد – صلى الله عليه وسلم – فنراه يقول :

هُوَ يَدَّعِي حَقاً الْخِلَافَةَ أَحْمَدَ	وَإِلَيهِ ذَلِكَ أَحْمَدَ مَا فَوَّضْنَا
مَنَعَ الْبَتُولَ الْمَالَ مِنْ مِيرَاثِهَا	إِذَا أَثْبَتَتْهُ فَصَدَّ عَنْهُ وأَعْرَضَا (1)

---

1 – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق – محمد الأميني – ص ٨٣

فيعيب طلائع في هذين البيتين على الخليفة أبي بكر الصديق هذا الموقف الذي وقفه من فاطمة متكئا على أحقيتها في الميراث ومن ثم تقرير الإرث الذي تعتمد الشيعة عليه في مذهبها فكما أن فاطمة الزهراء لها حق وإرث من أبيها – صلى الله عليه وسلم – فعليّ أحق وأولى أن يرث الخلافة وهي حق من الحقوق تورث كما تورث الحقوق الأخرى، فعليّ أولى بها وذريته من بعده إذ إنهم هم أهل النبي، وعصبته هم أيضا أولى بالخلافة بعد عليّ ويقف بنا طلائع على موقف من المواقف التي توضح أن علياً وذريته من بعده هم أولى الناس بإرث الخلافة بعد الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيقول :

أَوْلاَهُمْ بِالْمُصْطَفَى فِي النَّاسِ	مَنْ هُوَ ، دُونَهمْ وَالْمُصْطَفَى إِخْوَانِ
مَا بَاهَلَ الْمُخْتَارُ أَهْلَ الْخِلاَفَةِ	فِي دِينِهِ ، بِفُلاَنَةٍ ، وَفُلاَنَ
كَلاَّ ، وَلاَ صَلَّى وَتِلْكَ وَغَيْرَهَا	مَعَهُ بِجِنْحِ اللَّيْلِ فِي الأَرْدَانِ
مَا كَانَ إِلاَّ المُرْتَضَى فِي المِرطِ	بِالإِجْمَاعِ، وَالزَّهْرَاءِ، وَالسِّبْطَانِ (١)

فيوضح لنا طلائع في هذه الأبيات أن أولى الناس بالمصطفى – صلى الله عليه وسلم– هو عليّ وذريته فهما أخوان ، فأهل النبي وآل البيت هم الذين بهل بهم نصارى نجران وما المباهله إلا بولده وأهل بيته وفي هذا إقرار من الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأن علياً وفاطمة والحسين والحسن هم آل البيت، ويتمسك طلائع بتلك القصة متخذاً منها سنداً ودليلاً على صدق ما يذهب إليه الشيعة من أحقيتهم في إرث الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الخلافة .(٢)

---

١ – المصدر نفسه – ص ١٤٤ ، ص ١٤٥

٢ – وفد نجران كانوا أربعين رجلاً على رأسهم عبد المسيح بن يونان أسقف نجران ، ودارت بينه وبين الرسول – ص – مناقشة هو يسأل والرسول يجيب إلى أن سأله عن عيسى – ص – من أبوه؟ فنزلت الآية : " إن مثل عيسى عند الله ... الخ الآية "فلما تلاها الرسول. قال : أتزعم أن الله أوحي إليه ، ولا نجده فيما أوحي إلينا ولا يجده هؤلاء اليهود فيما أوحي إليهم . فنزل : " فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم"= =الآية قال الأسقف : أنصفتنا ، فمتى نباهلك؟ فقال الرسول – ص – بالغداة إن شاء الله" وانصرف النصارى ودار بينهم الحديث فقال الأسقف : إن غدا فجاء بولده وأهل بيته، فاحذروا مباهلته ، وإن غدا بأصحابه فليس بشئ. فغدا الرسول محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفهما .. ثم جثى بركبتيه وجعل علياً أمامه بين يديه وفاطمه بين كتفيه والحسن عن يمينه والحسين عن يساره .. فقال الأسقف جثى والله محمد كما يجثو الأنبياء للمباهله وخافوا وصالحوه . نقلا عن رسالة د/ محمد عبد الحميد سالم – طلائع بن رزيك حياته وشعره – ص ١٦٣ .

معلوم في الناس جميعاً ، ويخرج طلائع الشاعر من خصوصية مدح عليّ – كرم الله وجهه – إلى عمومية مدح آل البيت جميعاً فهو أهل الفضائل والمناقب والخصائل الحميدة ، وذرية عليّ وآل بيته هم الذين استكملوا جماع الفضائل الدينية من علم بأحكام الله وتفقه في الدين وزهد وتقوى وعدل واجتناب هوى وحسن معاملة .

ويقول طلائع في إحدى قصائده المدحية التي مدح بها آل البيت :

فَآلُ أحمد فاقُوا النَّاس أجْمَعُهم كَمَا يَفُوقُ ثَمين الجَوْهر الصَّدَفَا
بذكرِهم تَتَحلّى كُلُّ سَامعَة حَياً ، حَسبُنَا عَلَى أسْمَاعنَا شَنَفَا
مَاذَا أقُولُ أنَا : وَالوَاصفُونَ لَهُمْ وَقَدْ تَعَالُوا عَلَى أوْصَافِ مَنْ وَصَفَا
لَوْ اسْتَطَعْتَ رَكِبْتُ الرِّيح عَاصفَةً حَتَّى أزُور سَرِيعاً سَيِّدَ الخُلَفَا (١)

فطلائع يمدح آل البيت بأنهم السابقون الأولون دائماً الذين فاقوا الناس نبلاً وعدلاً وتقوى وورعا، وهم سفينة النجاة والرشاد للناس في دنياهم وآخرتهم وهم طيبوا الذكر أصحاب الطلعة البهية والوجوه المشرقة ، وهم غرّة الدنيا وأنشودة الزمان منهم عصبة النبي وأهله الذين تعالوا على الوصف، فلا يستطيع واصف أن يصفهم .

ويستمر طلائع الشاعر في مدحه لعليّ وآل بيته متنقلاً من قصيدة إلى أخرى مثبتاً مناقبهم وخصالهم الطيبة الطاهرة مشيداً في أكثر من قصيدة بمواقف عليّ بن أبي طالب – كرم الله وجهه – المتعددة الحربية والتي أثبت فيها بطولة لا تقارن وشجاعة لا تناظر فيبين كيف كان يردى الأبطال وكم كان سيفه (ذو الفقار) قضاءً وحتفاً لأعدائه وكم كشفت الغمة بطلعته وببطولته، فعليّ جامع لكل صفات الكمال ومزايا الخلافة العربية فنراه يقول :

رَبُّ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَالعِلْم وَالتَّقْوىَ وزَيـن لِلسُجود الرُكَّـعِ
وَلَى به غَسَقُ الضَّلاَل وَقَدْ رَمَى مـنْ هَنْيه فِيهِ بَـرِيحٍ زَعْـزَعِ
لاَ يَرْهَبُ البِيضَ الصِّفَاحَ كَغَيْرِهِ حِيناً ولاَ دَعْس الرِّماحَ الشرَعِ
بَتَّ المَطَامِعَ مِنْ زَخَارِف هَذِهِ الدُّنيَا وَلَمْ يخل امْرءُ مِنْ مَطْمَعِ (٢)

فعليّ كما يراه طلائع هو أفضل الناس جميعاً وأطولهم في الندى وأفضلهم في الحياة، فهو رب الشجاعة والعلم والكرم والتقوى، فهو مبدد ظلمات الضلال لا يرهب الموت ولا تزعجه رماح الأعداء، وهو بتقواه وورعه

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – محمد الأميني – ص ٩٦
٢ – المصدر نفسه – ص ٨٩

قدوة لمن يأتي بعده وهو مبدد ظلمات الجهل والشرك، فعليّ لا مثيل له ولا ضريب .

وفي موضع آخر يضيف طلائع إلى تلك المزايا أن زوجه هي فاطمة الزهراء قرة عين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأخوه هو خاتم النبيين محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد دافع عن أخيه ووقاه بالنفس وبذل دونه الروح فيقول :

مَنْ كالإمامِ الذى ، الزّهراءُ ثَاوِيةٌ	في بَيْتِه وأخُوهُ خَاتَم الرُسُلِ..؟
الْباذِلُ النَّفْسَ مِنْ دُونِ النبي وَقَدْ	فَرَّ الجُبَانَانِ مِنْ عَجْزٍ وَمِنْ فَشَلِ
في يَوْمِ خَيْبَرَ وَالأجنَادُ شَاهِدَةٌ	بِنَصِّ ذَلِكَ مُنْذُ الأعْصرِ الأولِ
وَمُطْعِمِ السَّائِلِ البَادِي بِخاتَمِهِ	عِنْدَ الرُكُوعِ أوانَ الفَرْضِ والنُفُلِ
وَالخاشِعِ المتَجِرى فِي تَوَاضُعِه	كَأنَّهُ لَمْ يَصِلْ يَوْماً وَلَمْ يَصِلِ
وَقَابِضِ الكَفِّ عَمَّا لاَ يَحِلُّ لَهُ	كَأنَّها لَمْ تَصِلْ يَوْماً وَلَم تَطُلِ
وَمَنْ يُرِد عَنِ الدُنْيا بِنَانَ يدٍ	كأنَّها لَمْ تَنَلْ يَوْماً وَلَمْ تَنَلِ (١)

فعليٌّ كما يصوره طلائع شديد الشجاعة حامى الإسلام خاشع في تواضعه ، عفيف ، أمين ، زاهد، قنوع، فمن مثل عليّ ومن يدّعى مقارعة عليّ في الشجاعة وفي العفة وفي الورع وفي التقوى وفي تقدمه الجيوش في كل غزوات الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويستمر الشاعر طلائع بن رزيك ناسجاً على هذا المنوال مشيداً بعليّ وبآل بيته وتتكرر المعاني كثيراً، ونشعر فيها بتقريرية بعيدة عن روح الشعر ، يصل فيها طلائع إلى حد الأسطورة في تصويره لمعجزات عليّ وكراماته، وكأن طلائع بما نظمه من أساطير مشيداً فيها بعليّ يريد أن يقرر متسائلا من أحق بالخلافة غير صاحب هذه المعجزات ؟

والجواب أنه لا أحد سوى عليّ ومن بعد علي آل بيته وعترته .

وبعد فقد استطاع طلائع بن رزيك أن يكرس حق عليّ وذريته من بعده في الخلافة وأن يصوغ نظرية الوراثة صياغة شعرية ، وأن يثبت أفضلية آل البيت على من سواهم، وأن يتخذ من الشعر منبراً يدافع به عن حق آل البيت، متخذاً من ثقافته العريضة ودراسته المستفيضة عوناً كبيراً على ذلك.

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادى الأمينى – ص ١١٧

الوصـــف

الوصف باب واسع من أبواب الشعر ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه داخل فـــي كل أغراض الشعر كما ألمح إلى ذلك إبراز ابن رشيق له في قوله : (الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره أو استقصائه) . [١]

وبخصوص شعراء بنى رزيك كنا نطمح إلى أن نقع على بعـض مـا تناولوه من أوصاف شعرية في مجالس طلائع ، أو بعض ما تطارحوا به في موضوعات الوصف كما هو الشأن في مجالس الأمراء الوزراء علـى ذلـك العهد ، ولكن للأسف لا نكاد نقع إلا على شذرات لا تشفي ، ولا تنفع غلـيلاً على الرغم من أن طلائع كان شاعراً ، والمفروض أن يكون الشعر محـوراً من محاور مجالسه ولا ندري هل كانت هناك مطارحات ومساجلات وضاعت مع ما ضاع من التراث الفاطمي ؟ أو أن طلائع ومجلسه كانـا فـي شـغل بمناقشات المعتقد عن مساجلات الشعر.

ولا سبيل أمامنا إلا أن نراجع قصائد شعراء بنى رزيك وأخبارهم لنرى إلى أى حد بلغوا في وصفهم ، والذي لا نشك فيه أننا سنقع في شعرهم علـى جوانب مشرقة ، والذي لا نشك فيه كذلك أن شعراء بنى رزيـك – كـسائر الشعراء المصريين – تأثروا بالطبيعة المـصرية ، وبـرزت قـسماتها فـي شعرهم، كذلك كان لما درج عليه المصريون من الاحتفال بمواسم معينة صدى في شعرهم هذا فضلاً عما اتبعه الفاطميون من أعياد ومناسبات . وغني عـن الذكر أن وصف المعارك يدخل أيضاً في باب الوصف .

ونبدأ بالمهذب بن الزبير ، وبلقطة شعرية له في وصفَ شـمعة يقـول فيها:

ومُصفَرَّةٍ لاَ عَنْ هَوىً غَيـرَ أنَّهـا ... تَحوزُ صِـفاتِ الْمُـستَهامِ المُعَـذبِ
شُجوناً ، وسُقْماً، واصْطِباراً، وأدْمعاً ... وخَفَقاً، وتَـسهُّداً ، وفَـرطَ تلَهُّـبِ
إذا جَمَّشَتْـها الريحُ كانَتْ كمِعْصَمٍ ... يُردُّ سلاَماً بِالْبنـانِ المُخضَّبِ [٢]

---

١ – أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدى – العمدة في محاسن الـشعر ونقـده – تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد – دار الجيل – لبنان – الطبعة الخامـسة ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م – الجزء الثاني ص ٢٩٤.

٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٧٨

والشاعر في هذه الأبيات الثلاثة يقارب ويباعد بين الشمعة والعاشق المتيم ، فهي وإن كانت تأخذ شكل العاشق من الصفرة ، وتشابهه في الشجن والسقم والخفق والسهد والتلهب فهي ليست مثله في التعلق بالمحبوب فهي لم تعشق ، ولم تهوَ .

غير أن الشمعة في الأصل لا تمت لتلك المشاعر بصلة ، ولكنها تبدو قريبة الشبه من صورة المعصم المخضب الذي يرد السلام وقت التحية خاصة إذا غاز لها الريح وداعبتها النسائم .

ولا يختم الشاعر أبياته دون أن يعقد مماثلة بين الشمعة والغادة اللعوب، حيث تعابثها الريح فيتحرك لسان اللهب وكأنه معصم الحسناء ذو البنان المخضب .

ومن شعر المهذب أيضاً في وصف غلام:

ومُرَنَّحِ الأَعْطافِ تَحْسَبُ أنَّهُ	رُمْحٌ ، ولَكِنْ قَدَّ قَلْبِيَ قَدُّهُ
إنْ قُلْتُ: إنَّ الوَجْهَ مِنْهُ جَنَّةٌ	أضْحَى يُكَذِّبُنِي هُنالِكَ خَدُّهُ
ولَئِنْ تَرقْرَقَ دمْعهُ يَوْمَ النَّوىَ	فِي الطَّرْفِ مِنْهُ وَمَا تَنَاثَر عِقْدُهُ
فالسيْفُ أقْطَعُ ماَ يكونَ إذاَ غَداَ	مُتَحيِّراً في صَفْحتَيْهِ فِرِنْدُهُ (١)

فالجديد الذي أتى به المهذب هنا أنه اتخذ من أدوات الحرب والقتال وسيلة في تصويرذلك الغلام، وسيلة لتصوير قوامه وجماله متأثراً في ذلك بثقافة دينية ، في رسم جمال الوجه وإشراقه ، فهذا الغلام الذي تغرغرت عيناه عند الوداع بالدموع ، متمايل الأعطاف اختيالاً كأنه الرمح ليناً والسهم نفاذاً وتأثيراً ثم يؤكد الشاعر نضرة الوجه وإشراقه وجمال الخد وفتنته في مقابلة رائعة بين الجنة والنار ، فيجعل من هذا الخد إنساناً مزهواً بجماله ، ثم يعرض لنا في تشبيه تمثيلي رائع يعقد مماثلة بين عيني الغلام وقد تحير فيهما الدمع ومع ذلك لم يفقدا تأثيرهما في القلوب وبين السيف حين يصفو لونه فهو حينئذ أقطع ما يكون .

---

١ - شعر المهذب بن الزبير – ص ١٨٧ ، ص ١٨٨

وتلك الصورة الشعرية البديعة أجاد الشاعر رسمها بألفاظه ، ونقلها نقلاً موحياً مؤثراً ، وقد أجاد الشاعر أيضاً ، استخدام الألفاظ والعبارات مختاراً لكل معنىً ما يلائمه من الألفاظ .

ومن شعره يصف مجلس من مجالس الخمر :

كَأنّ قُدودَهُمْ أنبتَتْ	علَى كُثُبِ الرَملِ قُضبانَهَا
حَجَجْنا بِهِ كَعْبةً للسُرورِ	تَرانا تُمَسَّحُ أركانَهـا
فَطَوْراً أعَانِقُ أغْصانَهَا	وطَوْراً أنادِمُ غزْلانَهـا
علَى عاتِقٍ إنْ خَبَتْ شَمْسُنَا	فَضَضْنَا عَنْ الشَمْسِ أدْنَانَهـا
وإنْ ظَهَرتْ لَكَ مَحْجُوبَةً	فَرأتَ بأنْفِكَ عَنْوانَهاَ (١)

ومع أن الشاعر لم يكن من أصحاب الكأس ولم يُعرف عنه ذلك إلا أنه أجاد في وصف مجلس الخمر ، فنشاهده يلتقي بأحبابه وهو يتجه معهم إلى مجلس الشراب لينعم فيه بالمتعة والسعادة التي يكون مصدرها معانقة الغلمان ومنادمة الغزلان ، وهم يستمتعون بتلك الخمر الصافية التي تسمو لأرواحهم وتجلب المتعة لأنفسهم كما يرى ، ويوضح لنا في بدء قصيدته بعضاً من مقاييس الحسن والجمال في عصره حيث القدّ الذي يشبه الغصن ، والأعجاز التي تشبه الكثبان، ثم يبين لنا بعد ذلك أن اختلافهم إلى مجلس اللهو والخمور كان منعقداً للمتعة والسرور ، كاشفاً عن مدى حبه لهذا المجلس ومنزلته في نفوسهم .

والملاحظ أن الشاعر لم يسرد الأوصاف ، ولم يقم بتسجيلها تسجيلاً عقلياً بل مزجها بعواطفه وأعمل فيها خياله فجاءت مصورة مزينة عميقة وخمره خمر قديمة حسنة معتقة ، وهي مكشوفة كالشمس صافية وإذا ماحجبت عنهم في الدنان ، فرائحتها العبقة تشهد بقدمها وحسنها.

ويمضي الشاعر في وصف مجلسه :

كُمَيْتٌ مِنَ الرّاحِ لكنّما	جَعَلْنا مِنَ الرُوحِ فُرْسَانَها
إذَا وُجِدَتْ ، حَلْبَةٌ للسرور	وكَانَ مَدَى السُكرِ مَيْدانَها

---

١ - شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٤٠

يَطــوفُ بِهــاَ بــاَبِليُّ الجُفــون   تُفــــضَحُ خــــدَّادُ أَلْوانَهـــــاَ
إذاَ مـــاَ ادَّعــتْ سَــقماً مُقْلتـــاهُ   أَقمــــتُ بِجــــسمىَ بُرْهاَنَهــــاَ
بِكَــأسٍ إذاَ مــاَ عَلاَهــا المِــزَاجُ   أَحــالَ إلـــى التِّبْــرِ مَرْجانَهــاَ
كــأنَّ الحَبـــابَ قُلِّدتـــــــــــ   ـــــهُ دُرٌّ يُفـــصِلُ عقيانَهـــاَ
ومُسْمِعَةٍ مثلِ شمسِ الضُّحَـــى   أَضافَــتْ إلى الحُسنْ إحْسانَهاَ [١]

يستغل الشاعر ما تعنيه لفظة كميت ، وما تشيرإليه من دلالات مختلفة فيجعل من راحة الكميت أي الحمراء فرساً كميتا وهذا ما يعرف في البلاغة باسم (الاستخدام) ثم يمضي فيجعل من الروح فرسانا لهذه الكميت وهو في ذلك يتكئ على التماثل اللفظي بين (الروح والراح) فيما يسمى بجناس الاشتقاق ، وأخذ الشاعر يرسم ملامح ساقيها ، ويصف الكأس التي يحملها ويطوف بها مبيناً أن هذا الساقي ساحر العينين، جميل الخدين بل نسب الشاعر جفون ساقيه – كي يبين مدى ما فيها من سحر وأصالة وما فيها من روعة وفتنة – نسبها إلى (بابل) التى يعزى إليها السحر والخمر، وجعل حمرة خديه دليلاً على حسنهما وجمالهما وكفاهما حسناً وكمالاً– في نظره – أنهما يسموان في لونهما على لون تلك الخمر، ويكشفان عما في هذا اللون من عيب ونقص.

ويستمر المهذب على هذا النحو في ذلك الوصف التفصيلي، وجميل منه هنا أن يشخص الكأس الممزوج بالماء فيجعل الحباب المتراص فوق سطحها عقداً من الدر مفصلاً بالعقيان على صدرها ، وفي نهاية الأبيات تطالعنا تلك المغنية التي جمعت بين الحسن وبين إحسانها في الغناء.

وهكذا يلعب خيال الشاعر دوراًكبيراً في تصوير أفكاره ، وتجسيم معانيه ، ولعل هذا النص الذي كان عرضه الأصيل الوصف استطاع المهذب فيه أن يضع كل صوره جزئية في مكانها المناسب ويربط بينها بسياجٍ من عواطفه حتى أتت ملائمة متناسبة في تلك الصورة الكلية التي تعبر عن تجربته ، وجاءت الألفاظ رقيقة والعبارات دقيقة ، خاصة في ذلك الجزء الأخير من قصيدته الذي صور فيها المهذب ذهاب النهار ودخول الليل إنساناً يطوى هذا الثوب حتى إذا ما انتهي إلى حبيبه رأينا دياجيه تنزع عنه أردائه ، بل تجر كُميه جراً في قوله :

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢٤٠ ، ص ٢٤١

وَلَمَا طَوَىَ اللَّيلُ ثَوبَ النَّهارِ ... وجَرَّتْ دياَجِيهِ أرْداَنَهاَ
جَلَوْناَ عَراَئسَ مثْلَ اللُّجَيْنِ ... صَنَعْناَ منَ النَّارِ تيِجاَنَهاَ
وَصاَغتْ مَدامعَها حلْيَةً ... عَلَيهاَ تُوَشِّحُ جُثْماَنَهاَ
رِماَحاً منَ الشَّمعِ تفْرِى الدُّجى ... إذاَ صَقَلَ اللَّيلُ خرْصاَنَهاَ
بِها ماَ بِأفْئدةِ العاَشِقينَ ... فَلَيستْ تُفاَرِقُ نيراَنَهاَ (١)

أما الوصف عند القاضي الجليس بن الحباب فيطالعنا في مواضع من أشعاره الموجودة بين أيدينا في الخريدة ، وهي مقطوعات صغيرة لا تتجاوز الواحدة منها أربعة أبيات ، ومنها هذه المقطوعة في وصف زهرة النرجس :

وَقَدَ الرَّبيعُ عَلَى الْعُيونِ بِنَرْجِسِ ... يَحكِي الْعُيونَ فَقَدْ حَباَهاَ نَفْسهاَ
عَلِقَتْ عَلَى اسْتِحْساَنِه أبْصاَرُناَ ... شَغَفاً إذِ الأشْياءُ تُعْشقُ جِنْسَهاَ
يُلْهِي وَيُؤْنِسُ مَنْ جفاَهُ خليلُهُ ... كَم مِنَّةٍ فِي أُنْسِهِ لَم أَنْسَهاَ
فَاَرِضَ الرِّياَضِ بِزُوْرةٍ تَلْهُو بِهاَ ... واحِثْثْ عَلى حَدَقِ الحدائقِ عكْسَهاَ(٢)

وواضح أن الشاعر في هذه الأبيات يحاول أن يستثير ذهن السامع فيقدم له بعض ما يستدعي التفكير ، وذلك واضح في قوله إن النرجس يحبو العيون نفسها ، والعيون تعشقه لأن الشئ يعشق جنسه ، وتفسير هذا الإلغاز أن زهرة النرجس تشبه العين فهي من جنسها ، والعين حين تنظرها إنما تنظر نفسها ، ومثل هذا الإلغاز نجده في البيت الأخير (واحثث على حدق الحدائق عكسها) فعكس الحدق (قدح) فكأن الشاعر يريد أن يقول واشرب علي زهور النرجس التي تشبه الأحداق أقداح الخمر .

والقاضي الجليس بن الحباب مغرم بمثل هذا الإلغاز وحث السامع على التفكير ومن ذلك ما وصف به غلام ، هذا الوصف الذي قال عنه العماد في خريدته إنه جمع ثمانية تشبيهات في بيت واحد :

---

١ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢٤١
٢ - خريدة القصر - الجزء الأول - ص ١٩٥

بَدا وَأرَاَنــا مَنْظَـراً جامعــاً لِمــا تَفرَّقَ مِنْ حُسْنٍ عَلَى الخُلْقِ مُونقــا
أقَاحاً ورَاحــاً تَحْتَ وَرْدٍ ونَرْجِسٍ ولَيْلاً وصُبْحاً فَوْقَ غُصْنٍ عَلَى نَقَا(١)

فالبيت الثاني مبني كله على الاستعارة التصريحية ، (فالأقاح والـراح) استعارة للأسنان والرضاب ، و(الورد) استعارة للخد، و(النــرجس) اســتعارة للعين ، و(الليل والصبح) استعارة للشعر والوجه ، و(الغصن والنقا) اســتعارة للقوام والعجز ، وهذا يذكرنا بقول أبي نواس :

تَبْكِي فَتذْرِي الدَّمْعَ مِـنْ نَـرجِسٍ وتَلْطُــم الْــوَرْدَ بِعنــابِ

وله فى وصف الخمر :

مُعتقةٌ قَدْ طَالَ فِى الـدنِّ حبْـسُها ولم يَدْعُهاَ شُـرَّابُهاَ بنـتَ عامهـا
وَقَدْ أشبهتْ نارَ الخَلِيلِ لأنَّهـــا حكَتْهاَ لَناَ فِى بَرْدِهــاَ وَسَلاَمِهُا (٢)

فالشاعر هنا في وصفه للخمر لم يخرج عن المعانى القديمة التى وصف بها الشعراء الخمر الجيد، فجودة الخمر تعود إلى قدمها، فهي خمر معتقة قديمة طال حبسها في إنائها ولم يزعم أحد شاربيها أنها حديثة ، أو بنت عامها، فهى تشبه نار الخليل إذ هى علي توهجها وتلهيبها تنزل على الشاربين برداً وسلاماً.

وإذا ما انتقلنا الى الموفق بن الخلال فنجد له مقطوعتين تمثلان شعر الوصف ، وكلا المقطوعتين قالهما فى وصف الشمعة خالعاً عليها عدة أوصاف تتناسب وطبيعتها فيقول فى المقطوعة الأولى:

وَصَحِيفَة بَيْضاَء تطلُعُ فى الـدُّجيَ صُبحاً وَتُـشْفِي النَّـاظِرينَ بَـدائِهاَ
شَــابَتْ ذَوائبهـــا أوَانَ شَــبابِهاَ وَاسْــودَّ مَفْرِقُهـــا أوَانَ فَنائِهـــا
كَالْعــين فِى طَبَقاَتِهـــاَ وَدُمُوعِهـــاَ وَسَــوادِهاَ وبِياَضِهاَ وضَيَائِهاَ (٣)

١ – المصدر نفسه – ص ١٩٨
٢ – خريدة القصر – الجزء الأول – ص ١٩٨
٣ – المصدر نفسه – ص ٢٣٦

رأي الشاعر في تلك الشمعة صورة الصحيفة البيضاء التى تقطع مداد الدجى بصبحها المشرق الفياض ، وأن بياضها المشع دلالة الشيب قبل الأوان، وفي اسوداد مفرقها دلالة الفراق والفناء ، ويقرنها في ذلك بصورة العين في سواد مقلتها وبياض صفحتها . والصورة هنا تعتبر جديدة في طبيعتها فهي تعكس لنا بعد نظر الشاعر في وصفه لتلك الشمعة من كل وجهاتها .

ولم يخرج فى المقطوعة الثانية عن تلك الأوصاف بل زاد في تشبيهاته، أنه شبه الشمعة بالعاشق المستهام المحب في اللون والمشاعر فنراه يقول :

وَصَـعدَة لدنـة كـالتبرتَفتقُ فـي	جُنحِ الظَّلامِ إِذَا مـاَ أَبـرزَتْ فَلَقـاَ
تدنو فَيَخْرِقُ بُـرْدَ الليـل لَهْـذَمُها	فإنْ يأت رتْـق الإظـلامُ مـاَ فَتقـاَ
وَتـستهلُ بمـاء عنـدَ وقْـدتها	كَما تـألَّق بَـرقُ الغيـث فَانْـدَفَقاَ
كالصبِّ لوناً ودَمْعاً والتظاً وضـناً	وطاعـةً وسـهاداً دائمـاً وشَـقاَ
والحبِّ أُنساً ولينا واستوا وشذَا	وبهجـةً وطرُوقاً وأجْتلاً ولقَاَ [1]

ونتنقل الي ابن قادوس وهو شاعر بارز من شعراء بنى رزيك ، ونقع له على عدة قصائد يصف الخمر فى أبيات منها ، ومن ذلك قوله من قصيدة لامية :

فَبِتُّ منْهاَ أَري النَّارَ التَّي سَـجَدَتْ	لَهاَ المَجُوسُ ، منَ الإبْرِيقِ تَسَجدُ لي
رَاحٌ إِذاَ سَفَكَ النَّدمَانُ مِـنْ دَمِهـاَ	ظَلتْ تُقَهْقَهَ فِي الكَاسَاتِ من جَـذَلِ
فَقُلْ لِمَنْ لامَ فِيهَا إِنَّنى كَلِـفٌ	مُغرِيٌ بِهاَ مِثْلَماَ أُغرِيتَ بِالعَذَلِ [2]

ويرى الشاعر في الخمر وتوهجها شيئا أشبه بالنار ، ويذكر نار المجوس ولكنه يفرق بينها وبين الخمر ، فنار المجوس كان يسجد لها أما الخمر فهي تسجد له، كذلك يلفتنا إحساس الشاعر بأن الخمر كائن حي وكأن الشاربين يسفكون دمها فى الكاسات ولكنه يفرق أيضاً بينها وبين الكائن الحى، وسفك الدماء يعتبر منها قهقهة لا ألما ، والشاعر بذلك يشير الي قرقرة الخمر ساعة المزج .

وله فى وصف مجلس خمر :

---

١ – خريدة القصر – الجزء الأول – ص ١٩٨
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٢٨

قُمْ قبلَ تأذين النَّواقيس وأجلُ علينا بنتَ قسّيسِ
عروسَ دَنٍّ لم يَدَعْ عتقُها إلاّ شُعاعاً غيرَ ملموسِ
تُجلي علينا باسماً ثغرُها فلا تُقابلْها بتَعبيسِ
مُذهبةُ اللَّونِ إذا صُفِّقتْ مُذْهِبةٌ للهمِّ والبُؤسِ
نارٌ الي النارِ دعا شُربُها وشُرِّدتْ بالعقلِ والكَيْسِ
لَيسَ لها عَيبٌ سوىَ أنَّها حَسرةُ أقوامٍ مفاليسِ [١]

يدعو شاعرنا مخاطبه أن يسرع الى التماس الخمر، ثم يبدأ في وصف تفصيلى لها فهى عروس جميلة مكانها إناؤها الذى يعرف بالدن وهي قديمة معتقة ، وتلك صفة يحرص الشاعر علي وصف الخمر بها وهي إذا تجلي علينا مبتسمة فرحة فيجب ألا نقابلها بالعبوس ، ثم يتطرق الشاعر الي أوصاف الخمر في أحوالها المختلفة متلاعبا بالألفاظ تلاعبا بديعا يناسب ويواءم المعانى التي يعبر عنها فهي اذا مامزجت بالماء تصبح ذهبيه اللون ، كما أنها تتميز بأنها تذهب الهم والبؤس فهي من وجهة نظر شاعرنا مكتملة المزايا ليس لها عيب سوي أنها تذهب المال وتجلب الحسرة لشاربها الذى لا يحد مالاً للحصول عليها .

ثم يبدأ ابن قادوس في توسيع صورته ، واصفاً مجلس الخمر بأنه روضة ذات أزهار جميلة زاهية الألوان تشبه ريش الطواويس ، مشبها تلك الروضة بالدولة الصافية الخالصة من كل ما يكدر صفوها ويذهب حسنها وبهاءها ، ثم يختم أبياته بالدعاء لمخاطبه الذي بدأ الحديث معه في أول النص بطول العمر والنجاة من كل شئ قد يصيبه فيقول :

في رَوْضةٍ كانَتْ أزاهيرُها كأنَّها ريشُ الطَّواويسِ
فاغتنمِ اللَّذاتِ في دَولةٍ صَافيةٍ مِنْ كُلِّ تَعْكيسِ
بَقيتَ في عُمرٍ فسيحِ المَدَي مِنْ كُلِّ ما تَحذَرُ مَحْرُوسِ [٢]

ويبدو لنا ابن قادوس شاعراً ظريفاً ذا حس جمالي بديع ، و ذا قدرة علي الوصف والغوص في معانيه والتعبير عنها في قدرة وإجادة بديعة ، فهو واحد من هؤلاء الشعراء الوصافين المجيدين لذلك الفن الشعري الأصيل .

---

١ - المصدر نفسه – ص ٢٢٧
٢ - خريدة القصر – الجزء الأول – ص ٢٢٧

أما عمارة اليمني فيبدو لنا من خلال التفاتـه الـي أهرامـات مـصر الشهيرة، أن البيئة المصرية كانت عاملاً مهماً فـي ذلـك الالتفـات، وتلـك الخصوصية لتلك البيئة المصرية بما فيها من أهرامات فنراه يقول :

خَلِيليَّ هَلْ تَحْـتَ الـسَّمَاء بِنْيـةٌ ... تُمَاثِلُ فِي إتْقَانِهـا هَرَمَـي مِـصْرِ
بِنَاء يَخَافُ الدَّهْر مِنْـهُ وكُـلُّ مَـا ... عَلَي ظَاهِرِ الدُّنْيا يَخافُ مِنَ الـدَّهْرِ
تَنَزَّه طَـرفِي فِي بَدِيـعِ بِنَائِهَا ... ولَمْ يتَنَزَّد فِي المُرادِ بِهاَ فِكْرِي [١]

هنا يستوقف عمارة صاحبيه – علي عادة الشعراء القدماء – مستحضراً من يشاركه ذلك الإعجاب وتلك الدهشة من جمال المنظر الذي لا يماثله نظير علي مستوي العالم كله ، فهو بناء يخاف الدهر منه ، وأتاح لناظره أن يجول كيف شاء في ذلك الإبداع والإتقان والروعة في البناء رغم أنه يعجز بأفكاره عن أن يصل الي المراد من وراء هذه الأبنية الرائعة العظيمة وعليه فهو لا يستطيع فهم أسرارها أو المراد منها .

قدم عمارة في وصفه صوراً تفصيلية للحياة الفاطمية في مصر ، ليبرر مدي حبه للفاطميين في تلك الحقبة، ومن أمثلة ذلك تلك الأوصاف البديعة التي أتى بها وصفه التفصيلي لأحد قصورهم الفارهة وديارهم الفاخرة موضحاً إلى أى مدى انفرد الفاطميون بالرقي في فن العمارة ، فقصورهم كانت علي درجة عالية من الروعة مما دفع شاعرنا إلي تسجيل ذلك في ديوانه ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قوله :

أَنْـشَأْتَ فِيهـا لِلْعُيـونِ بَـدائِعاً ... رَقَّتْ ، فَأَذْهل حُسنَها مَـنْ أَبْـصرَا
فَمِنَ الرُّخَـام مَـسيَراً ومـسهَّماً ... وَمُنَمْنَمـاً ومُـدَرْهَماً ومـدنرا
العَـاجُ بَـيْنَ الأَبَنُـوس كأَنـه ... أرْضٌ مِنَ الكـافُور تَنْبُـتُ عَنْبَـراَ
قَدْ كَـاَن منظَرُهَـا بَهِيجـاً رائِعـاً ... فَجَعلْتَهـا بالوَشْـي أبْهـيَ مَنْظَـرا
أَلْبَستَها بِيض الـسُتُور وحُمرهـاَ ... فَأَتتْ كزَهْرِ الرَّوضِ أبـيض أحْمَـرا
فَمجَالِس كُـسِيَتْ رَقِيمـاً أبْيـضاً ... وَمَجَالس كُـسِيتْ طَمِيمـاً أصـفرا
لَمْ يَبْقَ نَـوعٌ صَـامِتٌ أو نَـاطِقٌ ... إلاَّ غَـدا فِيهـاَ الْجَمِيـع مُـصَوَّرا
فِيها حَـدائِق لَـمْ تَجِـدهَا دِيمـةٌ ... أبداً ولاَ نَبتَتْ علي وَجْـه الثَّـرى
وَالطَّير مُذْ وقَعَتْ عَلَي أغْـصَانِهاَ ... وَثِمارِهَـا لَـم تَـسْتَطِيع أنْ تُنفَـرا

---
١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٦٦٠

لاَ تَعْدم الأَبْــصار بِــيْنَ مُرُوجِهــاَ　　　ليثــاً ولا ظَبيــاً بِــوَجْرَة أعفَــرا
أُنسَتْ نَــوافر وَحْــشها بِــسباعِهاَ　　　فَظِباؤُهــاَ لاَ تَتَقــي أُسْــدَ الــشرَى
وبِهــاَ زَرافَــاتٌ كَــأنَّ رِقابهـــا　　　فِي الطُّــول ألويــةُ تَــؤمُّ العَــسْكَرا
نُوبِيةُ المنشا تُرِيــك مِــنَ المَهــا　　　رُوقاً ومِن بُزْلِ المَهــاري مُــشفرا
جبلَتْ علي الأَقْعاءِ مِنْ إعْجابهــاَ　　　فتخَالُها لِلْتيهِ تَمْشِـــي القَهْقَراَ (١)

لقد وصف لنا عمارة أحد قصور بني رزيك وقد تملكه الدهشة والإعجاب الذي دفعه لأن يسجل لنا مفاتن هذا القصر بدقة حتى لنرى مداخل القصر والقاعات الرخامية بكل أشكال الزخارف من المنمنات والمدرهمات والمندرات ، ومروراً بالمجالس العاجية المختلفة الألوان، ووصولاً الي الحدائق والفناءات المتخمة بالطيور والتماثيل والحيوانات المتباينة – من ليوث وظباء ومها وبزل وحتى الزرافات التي جذبت أنظار عمارة وخلبته بخصوصيتها في الطول والفراعة ، كما يضم القصر حدائق غاية في الجمال فهي – كما يراها الشاعر – جنة لامثيل لها في شتى جنات الأرض تشم بها روائح العبير والكافور والعنبر .

ولاشك أن عمارة اليمنى قد نجح في أن ينقل لنا وحى اندهاشه وانبهاره من هذا القصر للذي فاق كل التصورات وكأنه من معجزات السحر والعجب .

كما أنه وفق أيضا في أن يرسم هذا الوصف في صورة كلية مترابطة الأجزاء قوامها الحركة واللون والصوت .

وله في موضع آخر من شعره يصف صورة حية للحياة الفاطمية من الاحتفالات والأعياد فى إحدي قصائده التي رثي فيها زوال ملك الدولة الفاطمية ومنها قوله :

" دَار الضِّيَافَة " كَانَتْ أُنْس وَافِــدِكمْ　　　وَالْيَوم أَوْحَش مِنْ رَسْمٍ وَمِنْ طَلَلِ
وَ" فِطْرَةَ الصَّوم " إن أَضنَعَتْ مَكَارِمكمْ　　　تَشكُو مِنَ الدَّهْر حيفاً غير مُحْتَمِل
وَ"كِسْوَة النَّاس فِى الفَصْلَين" قَد دَرَسَتْ　　　وَرَثَّ مِنْهاَ جديــدٌ عِنْــدهم وبَلَــى
وَمَوسم كَانَتْ فِي "يَوْمِ الخَلِيج" لَكُــمْ　　　يَأْتِي تَجَمُّلكم فِيــه عَلَــي الجُمَــلِ
وَ"أَوَّلَ العَام" وَ " العِيدَين" كَــمْ لَكُــمُ　　　فِيهِنّ مِنْ وَبَلِ جُود ليس بالوَشَــلِ
والأَرْض تَهْتَزُ فِي " يَوْم الغَدير" لِمــاَ　　　يَهْتَز ماَ بَيْنَ قَصرَيكُم مِنَ الأَســلِ

١- ديوان عمارة اليمنى – المجلد الأول – ص ٤٨٨ إلى ص ٤٩٠

والخَيل تَعْرِضِ فِي وَشيٍ وفى شِـيةٍ   مثْل العَرائِسِ فِي حُليَ و فَي حللِ
ولاحملتمْ قُري الأضياف من سعة الـــ   أطْباق إلا علي الأكْتـــاف والعَجـــل
ولاخصـــصتمْ ببِـــرَّ أهْـــل ملّـــتكُمْ   حتّى عَممتم بهاَ الأقْصي منَ المللِ
كانتْ رَواتبكُمْ للذمّتَين وللضـــيْف   المُقيـــم وللطّاري منَ الرُسُلِ [1]

يصف هنا عمارة مظاهر احتفال الدولة الفاطمية بأعيادها الموسمية التى ابتدعوها طول العام وذكر لنا أسماءها وما كان يقوم به المصريون من طقوس وما كان يرتدونه من ملابس وما كان لذلك من أثر جيد على كل الكائنات سواء الخيول أو الناس أو الأرض فالكل يشارك في الاحتفال ببهجة وسعادة .

ومن الشعراء الوافدين – أيضاً – على مصر وكان لهم أشعارٌ مميزة في وصف آثارها الشاعر ابن قلاقس الذي تأثر بمنار الإسكندرية وبعظمة بنائه ودقته ، فوقف أمامه واصفا إياه بوصف بديع ، خلع عليه صفات العظمة والسمو والرفعة فيقول :

وَمَنْزِل جَاوَزَ الجــوازاء مُرْتَقيــاً   كَأنّمـــا فيـــه للنّـــسرين أوكـــارَ
رَاسيَ القرَارَة ، سامِي الفَرع فِي يَدِهِ   للنّـــون والنُـــور أخْبـــار وأخْبـــار
أطْلَقتْ فيهِ عنَان للنظم فاطرَدَت   خيْل لَهاَ فِي بَديعِ الشّعْر مِضمَار [2]

يصف الشاعر هنا منار الإسكندرية بأنه بناء عظيم قد جاوز الجوزاء وهى من أعلى النجوم في السماء موقعا وكأن النسور تتخذ منه أوكاراً لها وهو بناء شامخ ومن شدة جماله وروعته نظم فيه ابن قلاقس أبياته وكأنها خيل يتسابق في ميدان سباق فلا يقف أمامها أحد، وذلك من شدة روعة وعظمة هذا البناء . ولنا أنَ نقول بأن هذا الوصف يعد أثرا طبيعياً من آثار البيئة المصرية الطبيعية.التى انفردت بها دون بلاد المسلمين الأخري فهى التى ألهمت الشعراء مثل هذه الأوصاف البديعة .

إن ابن قلاقس يتعامل مع اللغة تعامل الفنان المبدع الذي يعرف كيف يختار ألفاظه وينقى ألوانه التي يرسم بها لوحته الفنية المحددة فنراه يرسم صورة من الحياة المصرية التى تلائم روح العصر الفاطمى معبراً عما فيها من مظاهر الترف والبذخ فيقول :

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – صَ ٨٤٤ ، ص٨٤٥
٢ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٧٢

مــاَ عَهِــدنَاَ النَّخــل لــوْلاَ هَــذهِ ... باســـــقاتٍ بثمـــــار اللَّهـــــب
هَطَــل الغَيــثُ لَهــاَ مِــن فِــضة ... فَهِــي فِــي قَنَوَاتِهــا مِــنْ ذَهَــب
تَلْعَــبُ الــسُرُجُ عَلَــي أرجَائِهـــا ... فَتُحــــاكى أنمــــلَ المُرتَعــــب
ولقـــد أحْسَبهـــــا ألسنــــةً ... هَزَّهــا للسُكـــرِ خَمْرُ الطَّرب (١)

فوصف ابن قلاقس هنا لا يستطيع القارئ معه إلا أن يترك خياله ويفسح له كى ينطلق ويسبح في هذه الآفاق الرحبة التي يخلقها له الشاعر بألفاظه وخياله وموسيقاه، ومنها وصف الشاعر لهذه النخلة المزينة بالأنوار والإضاءات في علوها وسموها وكأن ثمارها من نيران اللهب، وكأن المطر الذي يسقيها هو الفضة وما يجرى فيه قنوات من الذهب، وهي بألوانها تشبه الألسنة التي هزها الخمر والطرب فهي تتمايل من شدة سعادتها ونشوتها .

وإذا ما انتقلنا إلي أسامة بن منقذ فنجد أنه كما قال عنه حسين نجيب المصري أنه (ليس أسامة بن منقذ من شعراء الوصف والهزل في كثير ولا قليل ، فما له خيال الوصافين ، ولا تبسط الهزالين). (٢)

لذلك ندر فن الوصف في ديوان أسامة ، فنراه في صورة نماذج صغيرة في وصف الشمعة والفرس والمقلمة والخمر ، وهى أشياء لا تعطي لنا حكماً واضحاً علي ملكة الوصف بمعناه العام في شعر أسامة ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قوله في وصف شمعة :

أُنسيَ في لَيْلِ القَطِيعَةِ مُـشْبِهي : ... نُحُولاً ، وتَسْهيداً ، ولَوناً ، وأدْمُعــاً
أُواجِهُ وَجْهاً مِنْــه حَيْــثُ رأيتــهُ ... مُنِيــراً إلــي مــن أمَّــهُ مُتَطلِّعــاً
كملْبسِ جِسمِي سُقْمَ جِفْنيهِ حَيْثُما ... بدَا لــيَ عَاينتُ الملاحةَ أجْمعاً (٣)

هنا وصف أسامة عنصراً من عناصر الطبيعية الصامته المتمثلة في الشمعة وصفاً قد بلغ الذروة في الاكتمال لما استطاعت أن تحققه من معالم جديدة مبتكرة في هذا المجال الفني والنفسي ، فلقد شخص أسامة الشمعة حين شعر بالوحدة والحزن فخلع علي الشمعة مشاعره فوجد أنها هي أنيسه في تلك الليله الطويلة تؤنس وحدته في ليل الهجر والقطيعة والعجيب أنه اكتشف أنها

---

١ - ديوان ابن قلاقس – ص ٣٧١
٢ - نقلا عن د. حسن عباس – أسامة بن منقذ حياته وشعره – الجزء الأول – ص ٢٨٧
٣ - ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٠٤

مثله في النحول والأرق واللون والدموع فلقد اتفقا في السقم والبكاء فاتخذ من الشمعة إنساناً قام بوصفه وتشخيصه علي هذا النحو، فالشمعة ليست جماداً لا حياة فيها ، بل هي إنسان حزين صامت من شدة إحساسه بالألم والفراق .

وله في موضع آخر وصف بديع للشمعة – أيضاً – فنراه يقف أمام الشمعة بصيرا بها وبأحوالها وبما تمر به وكأنها صديق له يشاركه مشاعره وأحاسيسه فيقول :

وَمفرده تَبْكــي إذَا جَــنَّ لَيلُهــا خُفَاتاً ، وفي أَحْشائِهاَ النَّارُ واللَّذْعُ
تَذُوب جَوىً ، إمَّا لصدٍّ وهَجرةٍ وإمَّا لبَين ، ماَ لتــشتيته جَمْــعُ
فَلم أرَجمراً ذَائِباً غيرَ دَمْعِهــا ولا جِسمَ باكٍ قَبْلَها كلُّــه دمعُ (١)

ومن شعره يصف مجلساً من مجالس الخمر :

وَسلِّ عنــكَ الهمــومَ إن طَرقَــتْ ببِنْتِ كَــرَم ، فـي الكَــأْسِ تَــأْتلِقُ
إذاَ فرَاهـــا المَــزاجُ أَضْــرمَهاَ وقلــتَ : أيــدي الــسُّقاه تَحْتَــرِقُ
توَّجَهـــا المَــاءُ مِــنْ فوَاقِعِــه تاجـــاً ، بـــه تَرتَــدي وتَنْتَطــقُ
يقالُ : مـــا تـــستقرُّ والهـــمَّ فـــي صدر ، فَيــا نعمتَــاه لــو صَــدَقُوا
وَأيْن مِنْ هَمِّيَ المُدامُ ، وقـــد سُــــدَّتْ عَلَيْهاَ مِنْ دُونِه الطُّرُقُ (٢)

ينصح أسامة في هذه الأبيات مخاطباً وكأنه يستحضر نفسه ليخاطبها ، ناصحا إياها بأن تلجأ إلى صديقة مواسية وهي بنت الكرم – ويقصد الخمر – فهي تواسي وتسلي عن صاحبها الهموم، ثم يصفها بأنها تتألق في الكأس مشعشعة وحين تمزج بالماء محدثة نوعا من الفوران الذي يصاحبه فقاقيع ، وكأنه تاج ترتديه وتلبسه موضحاً بعد ذلك التأثير المعنوي الذي تحدثه الخمر في شاربها إذ لا يستقر الهم والخمر في صدر ، وهذا ما يأمله الشاعر في أبياته، وبالرغم من هذا الأمل الذي يحدو الشاعر إلا إنه يقرر أن المُدام لن تستطيع أن تصنع شيئا، فالطرق كلها مسدودة أمامها وعليه فلن تستطيع أن تؤثر في الشاعر .

وله في موضع أخر وصف بديع لمقلمة سوداء يقول فيها :

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٠٤
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٥

وافتكَ حالكــةُ الســوَاد ، يَخالُهــا	صَــبغَ الــشَّباب النَّــاظرُ المتوسـَــمُ
فيها رماحُ الخــطِّ مُرْهفــةُ الــشَّبا	تُردي الطَّعــينَ ، ولا يُــضرِّجُها دمُ
منْ كلِّ أهْيفَ إن جَريَ في طِرسِــه	نَــاجي ، فــأفْهم ، هــو لاَ يــتكلَّمُ
بيضُ الأيادي فــي ســواد لُعابِــه	فَكأنَّمــــا الأرْزَاقُ منــــه تُقــسَّمُ
تحوي مُسلَّطةً عليهــا ، يَخْتَــشي	منْ حَدِّها الماضي الحُسامُ المخَــذَمُ
تَأديبُهـــا لهُــم بقَطْــعِ رُءوســهم	إن قَصَّروا في السَّعي عمــا تَرسُــمُ
فأنعَم بِحُسنِ قبولِهــــــا مُتَطوِلاً	فالشكـــــرُ لاَ يحــويــه إلاّ منْعُمُ[1]

يطالعنا أسامة في هذه الأبيات بوصف بديع لمقلمة جلد سوداء اللون تحتوي علي أقلام مبرية مسنونة وسكين لمعاودة هذا السن إذا احتاج القلم إلى ذلك ، كما يصف لون المقلمة أنه شديد السواد ويشير في ذلك إلى لون الشباب المتوسم لمن يريد أن يصبغ تلك الصبغة اللونية، ثم ينتقل الي وصف ما في هذه المقلمة من أقلام فجعلها رماحا مسنونة ذات حد قاطع وهى تلطخ ما تطعنه بلون أسود إلا أنها لا تقتله ومعها سكين علي استعداد دائم لقطع رؤوس الأقلام. وهو وصف طريف قد يكون مبتكراً جديداً في شعرنا العربى .

كما وردت أشعار في ديوان أسامة بن منقذ يصف فيها الحروب والمعارك، وهي تعد بمثابة وثيقة تسجيلية مهمة تجعل شعره أقرب إلى الموضوعية بما فيه من تسجيل للمواضع والأسماء ومراحل الصراع ونتائج الحرب .

ومن الأمثلة الدالة علي ذلك ، إحدي قصائده المشهورة التي أجاب فيها الصالح بن رزيك بعد انتصار طلائع علي الفرنج انتصاراً مبهراً رائعاً فنراه يقول في مطلعها :

لكَ الفَضْلُ منْ دوُن الورَي والمكَارم	فَمنْ حاتمٌ ما نَالَ ذا الفخرَ حاتمٌ [2]

وبعد أن ينتهى أسامة من مديحه لطلائع بالكرم والجود يبدأ في وصف إحدي معارك طلائع البحرية وصفا بديعاً فنراه يقول :

غزَوتَهمُ في البَحرْ ، حتَى كأنَّما الـــ	ـــأساطِيلُ فيــه موجــةُ المُــتلاطمُ
بفُرسانِ بَحرٍ ، فَوْقَ دُهْمٍ ، كأنَّهــا	على الماءِ طيــرٌ ، مــالهنَّ قَــوادمُ
يــصرِّفُها فرُســـانُها بأعنَّـــه	جَرَتْ ، حيث لَم تُوصل بهنَّ الشَّكائمُ

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٠٥

٢ – المصدر نفسه – ص ٢٧٤

إذاَ دَفعُوهاَ قُلْتَ : فُرسانُ غارَةٍ ... تغزوْا بجِياد ، مالهن قَوائمُ
يَسوقُ أساطِيلَ الفرنج اليهمُ ... حمامٌ ، وطيرٌ للفرنج أشائمُ
دماؤهمُ في البحر حُمرٌ سَوائحٌ ... وَهامُهمُ في البرّ سُحمٌ جوائمُ
فَلَمْ يُخفَ فِي فَجٍ مَن الأَرْضِ هاربٌ ... ولم ينْجُ في لُجٍّ من الماء عائمُ
وَعادَ الأساريِ مُردَفِينَ وسُفنُهم ... تُقادُ ، كما قَادَ المَهارِي الخَزائمُ
وقَد شَمَّرَ الملكان في الله ، طالبيَ ... رضاه ، بعزمٍ لم تعُقهُ اللّوائمُ
بجدٍّ هو العضبُ الحسامُ ، وحدُهُ ... لعاديهِ الأعداءِ والكُفْر حاسِمُ
وقَاماَ بِنَصْر الدِّينِ ، والله قَائمٌ ... بِنَصرِهِما ، مادَام للسيفِ قَائمُ
وما دُون لن يفنى الفرنَجُ وتُفتحَ الـ ... بلادُ، سِويَ أنْ يَمْضِيِ العزمَ عازِمُ [١]

يصف هنا الشاعر ملحمة حربية بحرية بقيادة طلائع بن رزيك حقق فيها النصر والفوز هو وجنوده الشجعان مصوراً هؤلاء الأبطال الذين يجيدون فن القتال في البحر، وهم يمتطون سفن سوداء كأنهم طيور جارحة ركبت الماء ولختفي ريشها الذي هو في المقدمة، وهؤلاء الفرسان المصريون هم المتحكمون في زمامها فيوجهونها كيف شاءوا دون أن يكون في أيديهم ما يتحكمون به من زمام أو حكمة، ويستمر أسامة في وصفه حتى إننا نشعر من أسلوبه ومعانيه أننا داخل هذه المعركة نشاهد الصراع الذي يحدث بين الفرسان المصريين وبين أساطيل الفرنج التي يسوقها الموت ويتبعها طيور تحمل الأنباء السوداء لهم وقد تحول البحر إلى لون أحمر من دماء الأعداء بعد أن امتلا البر برقابهم فلم يفلحوا في النجاة أو الهرب من الموت براً أو بحراً، فلا يوجد مكان يستطيعون الاختباء فيه أو الهروب إليه في البر، ولم يستطع واحد منهم أن ينجو من الموج المتلاطم في البحر .

هكذا برع أسامة بن منقذ في وصف تلك المعركة البحرية ، فجعلنا من خلال قدرته علي التصوير والوصف أن نتخيل تلك المعركة بل ونعيشها معه كما يصورها أو يصفها .

وهذا نموذج يعبر عن وصف شعراء بني رزيك جميعهم لحروبه وانتصاراته ووصفهم لأحداث المعارك، ورأينا أن نكتفي بهذا النموذج كي لا يكون هناك ضرب من التكرار الذي يضر بالبحث، حيث إنه في غرض المدح بالجهاد عرض البحث بعض النماذج التى مدح فيها الشعراء طلائع بن رزيك

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٠٦

واصفين شجاعته وقوته، وتضمن هذا المدح وصفاً كما كان يجري في هذه الحروب من أحداث خاصة وأنهم عايشوا الحياة وتأثروا بما فيها ، ففاضت عاطفتهم بالتعبير عنها وعايشوا الجيوش إعداداً ومسيرة وقتالاً وانتصاراً وأعجبوا بالأساطيل الحربية لونها وسلاحها وبلائها وظفرها فامتلأت آذانهم بسماع هذه وتلك في عصر فرضت الأحداث الحربية أخبارها على كل سمع وأنطقت بها كل لسان .

وكان ممن تميز في وصف هذه الحروب الشاعر المهذب بن الزبير ، وعمارة اليمني وأسامة بن منقذ ... وغيرهم من الشعراء ذاكرين في أشعارهم أسماء المواقع وواصفين فيها قوة طلائع وشجاعته وانتصاره على الأعداء وكأن شعرهم هذا وثيقة تاريخية خلد ذكرها التاريخ .

الغـــزل

الغزل غرض أصيل من أغراض الشعر العربي ، وهو من الفنون التي بدأت مع الشعر الجاهلي واستمر وتطور على مرور الزمن .

وتنوع فن الغزل بين الغزل الحسي أو الغزل المادي الصريح، والغزل العفيف المعنوي ثم زاد فيه الغزل الصناعي والغزل بالمذكر وهناك الغزل الإلهي أو الحب الإلهي .

فالغزل هو فن يتصل بالحب وهو أسمي عواطف الإنسان، وهو سر بقائه ووجوده ومازال الإنسان يضرب علي أوتار هذه العاطفة منذ بدء الخليقة أغاني والحاناً، فيها البهجة باللقاء حيناً، وفيها الحزن للفراق أحيانا، واذا كان جوهر الحب ثابتا فإن التعبير عنه يأخذ أشكالاً وألواناً ويظهر في كل عصر بثوب مغاير، وفي كل بيئة بصبغ متميزة .[1]

ولقد اقتفى شعراء بني رزيك أثر الشعراء القدماء في الابتداء بالغزل في قصائدهم فهي صورة تقليدية للغزل، إنما فيها معانى صادقه معبرة عن مشاعرهم الداخلية خاصة الحديث عن الشوق لرؤية الحبيب إذا بعد عن الأنظار أو فارقهم وذهب إلى مكان آخر، فالحديث عن الفراق أخذ حيزاً لا بأس به من غزل شعراء مصر الفاطمية .

وتعد السمة المميزة للغزل في مصر تلك الحقبة هى كما يراها د. محمد كامـــل حسين:

"هو أن الشاعر المصري في غزله لا يأتي بأجزاء الجسم ليصفها وصفاً واقعياً إنما ينحدث عن الناحية النفسية أكثر مما يتحدث عن الصفات الحسية وهنا نرى فرقا كبيراً بين شعراء العرب القدماء وبين شعراء مصر الفاطمية ، فالشاعر العربي كان مادياً في وصفه والشاعر المصرى كان عاطفياً وإنما جاء هذا الاختلاف من تحضر مصر الفاطمية ورقـــي عاطفة المصريين برقى حياتهم " .[2]

فالمهذب بن الزبير، وهو شاعر كبير من الشعراء الفاطميين، نرى أن غزله ينتمي إلى النوع العفيف الطاهر، ومعاني شعره تدور حول التغني بفراق

---

١ – د. فوزي أمين – الحركة الفكرية والأدبيه في الإسكندرية – ص ١٥٢
٢ – د. محمد كامل حسين – في أدب مصر الفاطمية – ص ٢٧٢

الأحباب وحرارة الأشواق وفيض الدموع، ولديه ذلك النوع التقليدي من الغزل الذي يصف جمال المحبوبة من حيث إشراقة الوجه وسحر الجفون وجمال الخدود وغيرها من الصور التقليدية التى تأثر بها شاعرنا كنوع من الولاء للتراث العربي القديم ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قوله :

وَقَدْ أَنْكَرُوا قَتْلِى بِسَيْفِ لحاظِه ... وَلَوْ أنْصَفونِي ماَ استَطاَعُوا لَه جَحْداً
وقَالوا : دَعْ الدَّعوى؛ فَماَ صَحَّ شاَهِدٌ ... عَلَيْهاَ ، ولَسْنَا نَقبلُ الكَفَّ والخَدَّا
ولَوْ كاَن حَقّاً ماَ تَقُولُ وتَدَّعي ... علي مُقْلَتيه ، عاَدَ نَرْجِسُها وَرْدَا
وَماَ عَلِمُوا أنّ الحسَامَ بِسفْكِهِ ... دَمَ القِرْنِ يَوماً، عُدَّ أمْضيَ الظُّبا حَدَّا[1]

فالشاعر يبدأ مخاطباً من يلوم عليه قتله بهذه الطريقة المتمثلة في قتله بسيف جمال عينيه وسحرهما ونفاذهما في قلبه ، ويبدأ الشاعر في تلك المحاكمة الخيالية الجميلة التي رسمها الشاعر بخياله الواسع فقضاة الغرام أنكروا قتله بهذه الطريقة ورفضوا دعواه علي هاتين المقلتين، وقدم قضاة الغرام شاهدي إثبات ونفي، إذ لو كان الأمر كما يدعي لأصبحت المقلتان كالورد لوناً، فالشاعر يصر علي ادعائه ودعواه ويطعن في القضاة وما يأتون به من دليل متخذاً من لون النرجس الذي صبغت به المقلتان ، وهذا اللحظ القاتل الذي يشبه السيف الحاد الحاسم يقطع سريعاً قبل أن يعلق بنصله أى أثر من آثار الجريمة .

وله في موضع آخر من شعره فيقول :

هُمْ نَصْبُ عَيْني : أنْجدوُا أوغاَروُا ... ومُنَي فُؤاَدي : أنْصَفوُا أو جاَرُوا
وهُمْ مَكاَنُ السِّرِّ من قَلْبي، وإنْ ... بَعُدتْ نَوَي بِهِمْ ، وشَطَّ مَزارُ
فاَرَقْتُهمْ وكأنَّهم في ناظري ... ممَّا تُمَثِّلُهُم لِيَ الأفكارُ
تركوا المناَزِلَ والدِّياَرَ فَماَ لَهُم ... إلاَّ القُلُوبُ مَناَزِلٌ وديارُ
واستَوطَنُوا البِيدَ القِفارَ فأصبحتْ ... مِنْهُم دُياَرُ الإنْسِ وَهْيَ قِفاَرُ
فَلَئِنْ غَدَتْ مصرٌ فَلاةً بَعْدهم ... فَلَهُم بأجْوَازِ الفَلاَ أمْصاَرُ
أوَ جاوَروا نَجْداً فَلي مِنْ بَعْدِهم ... جاَراَن : فَيضُ الدَّمْعِ والتِّذْكاَرُ[2]

---

١ - شعر المذهب بن الزبير - ص ١٨٥
٢ - المصدر نفسه - ص ١٩٠

فالمهذب في هذه الأبيات يفيض بالرقة والعذوبة والوجد، فنراه يبدأ بالجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام فأحبابه هم ماثلون أمام عينه دائماً أينما رحلوا وهو متعلق بهم سواء عدلوا في حكمهم معه أو جاروا عليه ، فهم مني الفؤاد وهم مكنون العين وهم في شغاف القلب وفي سويدائه سواء بعدت بهم الديار أو شط بهم المسار، ولكنه يضيف علي ذلك الواقع المُر وهو الفراق الماثل الذي يعيش فيه وهو يفيض دمعه ندماً وألما وحزنا علي ذلك الفراق فهو يعلن أن ذلك الفراق كان منه، ولهذا فهو يزداد ألماً وحزناً علي عدم مصاحبته لهم أينما رحلوا، وبالرغم من أنهم رحلوا إلا أنهم مازالوا معه لا يردون خياله ولا يفارقونه أبداً .

وعلي هذا النحو نجد غزل المهذب بن الزبير بهذه الصورة الجميلة والمعاني العذبة الرقيقة التي اقتفي فيها أثر الشعراء القدماء في مقدمات قصائده الشعرية، ومن هذه المقدمة الغزلية ينتقل إلى موضوعه الأساسي، وربما كان يلجأ المهذب وغيره من شعراء عصره إلى هذا التقليد كنوع من الولاء للتراث العربي القديم وهذا يجلب الأصالة والفخامة لأشعارهم .

ومما يمثل ذلك أيضاً ابن قادوس من خلال أشعاره القليلة في فن الغزل ورغم قلة أشعاره إلا أنه استطاع أن يعبر عن معاني طريفة وبديعة نحو قوله:

خَلعتُ عِذَارِي والتُّقي في هَـواكمُ   فَأصْـبحَتُ فـيكم مُعْجَبـاً بِـذُنُوبي
وما مِثْلُ هـذا الحبِّ يُحْمَلُ بَعْضُهُ   ولكـــنَّ قَلْبِي فِي الْهوَيَ كَقلُوبِ (١)

يعترف هنا الشاعر بأنه قد تخلص من علامات الوقار والتقي والسكينة لأنه أصيب بهوي من يحبُ وأصبح لا يري عيوباً فيمن يحب ويهوى فهو لا يجد مثل هذا الحب فلا يوجد قلب يتحمل مثل هذا الحب – من وجهه نظر الشاعر – بينما قلبه قلب غير عادي فهو مؤلف من عدة قلوب يستطيع أن يتحمل مثل هذا الحب .

ولعل قوله (خلعت عذاري) هو مصطلح يستوقفنا قليلاً – فهو يعني عند الصوفية العاشقين أن المحب أصبح حراً من كل قيد مع حبيبه في ذلك الغرام الإلهي والعشق الخالص النقي، فلقد استمد ابن قادوس من البيئة الصوفية هذا المصطلح ليضفي علي غزله غاية الإخلاص والوفاء.

---

١ – خرَيدة القصر – ص ٢٢٧

وله في موضع آخر من شعره – فنراه يقول متغزلاً:

وَلَيلَةٍ كَاغْتِمَاضِ الطَّرْفِ قَصَّرَهَا ... وَصْلُ الحبيبِ ولم نُقْصِرْ عَنِ الأمَلِ
بِتْنَا نُجاذِبُ أهْدَابَ الظَّلامِ بِهَا ... كَفَّ المُلاَمِ وذِكْرَ الصَّدِّ والمَلَلِ
وكلمَا رامَ نُطْقاً في مَعاتَبتي ... سَدَدْتُ فَاهُ بطِيبِ اللثْمِ والقُبَلِ
وباتَ بدرُ تمامِ الحسنِ مُعْتَنقِي ... والشمسُ في فَلَكِ الكاساتِ لم تَقِلِ[1]

ففي هذه الأبيات الغزلية يخبرنا ابن قادوس عن ليلة قضاها مع من يحب يشكو فيها قصر الليل الذي شبهه باغتماض الطرف، وهو كناية عن سرعة انقضاء تلك الليلة التي قصَّرها وصل الحبيب، وباتا سويا يتجاذبان أطراف العتاب والصدّ والهجر، ثم يصرح لنا الشاعر بالدليل القاطع عن مدى عشقه لتلك المحبوبة التى إذا همت بمعاتبته يلجأ إلى وسيلة واحدة لكي يغلق بها فاه وهي القبل وبات معانقا ذلك البدر وبصحبته الخمر التي لم تغب أو ترحل عنهما في تلك الليلة .

وهذا الموفق بن الخلال نراه يتمتع بحس رقيق مرهف علي الرغم من أنه لم يأت بمعان جديدة فهي معان مستوحاة من الشعر القديم ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قوله :

أمَا اللِّسانُ فَقَدْ أخفَى وقَد كَتَمَا ... لَوْ أمْكن الجفْنُ كَفَّ الدَّمع حِينَ هَمَا
أَصَبْتُمُ بِسِهامِ اللحظِ مُهْجَتَهُ ... فَهَلْ يُلاَم إذاَ أجْرِيَ الدّمُوعَ دَمَا
قَدْ صَارَ بالسَقَمِ مِنْ تَعْذِيبِكُمْ عَلَمَاَ ... ولَمْ يَبحْ بالذِّي مِنْ جَوْرِكم عَلِمَا
فمَا عَلَي صَامِتٍ أبْدِيَ لصدِّكُمُ ... فِي كلِّ جَارِحَة مِنه السَّقَامُ فَمَا [2]

يطالعنا الموفق هنا بهوي يستطيع أن يخفيه لسانه ولكن عيونه فضحته ولم يستطع أن يمنع دموع العين التي هى الشاهد علي صدق مشاعره وقوة أحاسيسه، فهذا الغرام الذي نتج من لحظ قاتل أصاب مهجة المشاعر لالوم عليه فلقد ساء حال شاعرنا وكثيراً ما عاني من السقم والنحول فعلى الرغم أنه لم يبُح بهذا السرّ إلا أن كل جارحة من جوارحه ناطقة تعبر عما يعانيه من عاطفة وغرام وهوي .

---

١ – خريدة القصر – ص ٢٢٨

٢ – المصدر نفسه – ص ٢٣٦

فإذا ما انتقلنا إلى القاضي الجليس بن الحباب، نراه يعبر عن غزله بمعانٍ تقليدية أيضاً مستوحاة من سابقيه، كما نجد له غزلاً في مقطوعة شعرية تقع في سته أبيات وهي تنتمي إلى نوع من الغزل ظهر في العصر العباسي وهو الغزل بالمذكر فنراه يتغزل في غلام تركي أعجبه فيقول :

ظَبيٌ مِنَ الأتراك أجفانُهُ ... تَسطُو علي الرّامحِ والنابلِ
سيان منه إنْ رَمَى أوزَنَا ... لَيسَ مِنَ السَّهمين مِنْ وائلِ
يفرُّ منهُ القرنُ خوفاً كما ... يَفرُّ ظَبْيُ القاعِ مِنْ حابلِ
ياويْحَ أعداك ماهالَهُمْ ... مِنْ غُصنٍ فوقَ نقاً هائلِ
لا تَفرقُوا صَوله نُشابه ... فَرُبَّ سَهمٍ ليس بالقاتلِ
وحاذِروا أسهُمَ أجفانه ... فسحرُ ذا النابلِ مِنْ بابلِ (١)

فيلتفت هنا القاضي الجليس إلى جمال ذلك الغلام التركي موضحاً ما يتميز به من سحر وفتنة، فنراه يبدأ أبياته بتشبيه ذلك الغلام بالظبي وهذا التشبيه مستمد من الموروث الشعبي الذي ربط تشبيه المحبوبة بالظبي، وهذا أمر متداول بين شعراء الغزل - ثم يحدد شاعرنا مواطن الفتنة في ذلك الغلام والمتمثلة في أجفانه التى تتفوق علي الرماح التي تجعل الخصوم الأشداء يفرون من أمامه، ونرى إلى أي مدي يبلغ غزل القاضي الجليس أو قل إعجابه بهذا الغلام حتى إنه مشفق علي الأعداء من هول ما سيرون ويواجهون من ذلك الغصن المائل فوق ذلك النقا الهائل ثم يحذر الشاعر الأعداء من سطوة أجفانه وسحر سهامه القاتلة؛ لأن هذا السحر مصدره بابل مضرب السحر العربي القديم .

وينتهج النهج ذاته طلائع بن رزيك والذي تنوع في غَزله فأحياناً نراه يضع الغزل كمقدمة لقصيدته، وفي حين آخر يقصد إليه قصداً كغرض مستقل نحو قوله :

عَاذلي ، عَذلُكَ سَهمٌ في الحَشاَ ... كَيفَ كتمانى ، وَسِرّي قَدْ فَشاَ ؟!
صَارِماً بى مِنْ غَرامٍ كامِنٍ ... ظاهراً يَنقُلُهُ واشٍ وَشَى
مَنْ رَأي قَبْلِي يارِيمَ الفَلاَ ... أسداً يَقتَنِصُهُ لَحظُ رَشاَ (٢)

---

١ - خريدة القصر - ص ١٩٥
٢ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق . أحمد بدوى - ص ٣١ ، ص٣٢

يبرز الشاعر لعاذله أو للائمه الذي يلوم عليه غرامه بأنه قد أصيب بسهم قاتل في فؤاده فكيف يكتم ذلك الغرام وسره قد فضح واتضح ، فكلما حاول كتمانه صار ظاهراً يتنقله الوشاة الذين لا يملون ذلك ، وما الوشاة في رأي شاعرنا إلا عينه ودمعه وهنا قمة التعبير عن الحب أو الغرام ثم يتعجب من حاله كيف يحدث له ذلك وهو أسدُ جسورٌ مقدام وبالرغم من هذا لقد وقع فريسة قناص مسلح بلحاظ غزال جميل بديع الحسن .

وفي موضع آخر نراه يتغزل في مملوكٍ رآه يوم العيد لابساً الحديد فوصفه متغزلاً في حسنه الذي شبهه بالبدر فيقول :

لبس الحديدُ ، فزاد فــيِ إعجابــه ... بَدْرٌ تَظَــلُّ الــشَّمْسُ مِــنْ حُجّابِــه
لا مطمعٌ فـــي أن يــرقّ ، وقلبــهُ ... أَقْسى عَلَي العُــشّاقِ مِــنْ جلبَابِــه
قد كـــان يُغْنِيــه ســيوف لحاظــه ... عَنْ حَمْلِ صــارِمه لِيَــومِ ضِــرابِه
لو جاد لــي فــوق اللثـــام بقبلــةٍ ... تَشْفي فُؤَادَ الــصَّبِّ مِــنْ أَوْصــابِه
رويّتُ ظامئـــــة الرّماح من العدا ... وضَنَيتُ مِـــــن ظَمَأ لِبَرْدِ شَرابِه (١)

لقد شبه طلائع هذا الغلام بالبدر واصفاً سيف لحاظه الفاتكة القاتلة أنها تغنيه عن حمل السيوف الصارمة، ثم يزداد غزلا في هذا الغلام فيري أن قبلة واحدة من ذلك الغلام دواء للقلب العاشق من دائه فهي أولى أن يبخل بها الشاعر علي أعدائه ويعطيهم بدلاً منها الرماح فهي أولي وأحسن لهم.

وإذا ما انتقلنا إلى شاعرآخر فنجد أن أسامة بن منقذ لم نشعر في غزله بتلك الحرارة القوية التي تشعرنا بقلب ولهّه الحب وأضنته لوعة الغرام ... وليس معني ذلك أنه لم يذق الحب ، بل يرجّح أنه ذاقه ، وإن كان لم يشغل قلبه كله ، وقد استعمل أسامه تشبيهات الأقدمين وأساليبهم في وصف عواطف الحب ، ومما يلاحظ علي غزله أنه شاك حزين ، لاتكاد تلمح فيه ابتسامة السرور . (٢)

وبالرغم من ذلك فإننا نجد أنه أفرد باباً خاصاً في ديوانه لفن الغزل، لكنه يأتي به على سبيل الرمز فمن خلاله يعبر عن أحزانه وهمومه وشكواه من شدة ولوعة وألم الفراق ربما لأهله وعشيرته أو لأحبابه وأصدقائه فكما مرّ بنا أن حياة أسامة بن منقذ كانت حافلة بالأحداث والصعوبات ومما يمثل ذلك

---

١ – المصدر نفسه – ص ٣١
٢ – انظر مقدمة ديوان أسامة بن منقذ – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٣٧

قوله في مقدمة إحدي قصائده البديعة التي أرسلها إلى صديقه الحميم طلائع بن رزيك فيقول :

مـا خَطَـر السـلْوانُ فـي بَـالِي ... فَمـا الـذِّي أطْمـعَ عُـذَّالِي
وَجْدي بِهِمْ في الْيَوْمِ كالأمس ، ما ... غَيَّـره مـا حَـالَ مِـنْ حَـالِي
أهْوي ، وَمَا حَظّـي مِـنْهُم كَمـا ... أهـوَي ، ولا قلبـيَ بِالسَّالي
لَجاجةٌ فـي الحـبّ ، مـا تحتهـا ... سِـوي صَـبابَاتِي وَبلْبـالي
لي القِلي مِـنهم ، ومَـنْ لائمـي ... فـيهمْ طَويـلُ القيـلِ والقـالِ
وَمـا أبـالي بالـذِّي نـالَني ... لَـوْ أنَّنـي مِـنْهُمْ علـي بـالِ
ياقمراً فـي غُـصْنِ بـانٍ علـى ... نَقـا مَهُـولٍ غَيْـر مُنْهـالِ
مَيَّلَـكَ الوَاشـي ، فَمـا حِيلَتـي ... فـي أهْيَـفِ القَامَـةِ مَيَّـالِ
مُسْتَهتِرٍ بِالْهَجْرِ ألقاهُ فـي الأخـ ... ـلامِ ، وَهْـوَ المُعـرِضُ القَـالي
نـاظِرُه الفتّـاكُ لا نـاظِرٌ ... علـي تَعذّيبـه ، ولا وَالـي
يَحكُمُ فـي أرْواحِنا طَرْفـه ... حكـمَ أبي الغـارَاتِ فِي المَالِ (١)

فكما نرى فى تلك المقدمة الغزلية الرقيقة مدي الود والحب الذي يكنه أسامه لطلائع فها هو يتخذ من الغزل رمزاً ليعبر به عن مشاعره ويعكس لنا عواطفه تجاه صديقه طلائع بن رزيك، فشاعرنا يعانى من آلام البعاد والفراق والهجر لأنه فارق صديقه وبعد عنه مصوراً ذلك في صورة المحبوبة التي بعد عنها وفارقها فهو شاعر معذب لايجد من يحب سوي الهجر والبعد ولوم اللائمين وكثرة عتابهم وأقوالهم وبالرغم من ذلك فهو لا يبالي لومهم، ثم يلتفت إلى استحضار صورة محبوبته وكأنه يرد علي هؤلاء اللائمين بأنه لا يملك أمام ذلك الحسن إلا أن يهواه ويقع في غرامه ، فمحبوبه جميل الجسم ممشوق القوام ، أهيف ذو عينين قاتلتين فاتكين لكن لا نصيب لشاعرنا أن يري هذا المحبوب سوي في الأحلام فهو متحكم في مهجته ومشاعره مثل تحكم طلائع (ابي الغارات) ويقصد به طلائع بن رزيك بجوده وكرمه في المال .

وله في موضع آخر من شعره من باب الغزل يقول :

بِنَفْسي عَذُولٌ، لامَ فيكمْ ، فَردَّنـي ... بِـذِكْرِكمْ رَوْحَ الحيـاةِ عَـذُولُ
لَحَى ناصحاً فيكمُ ، فَأذْكي صَبابَتي ... وَتُذْكي الرِّيَاحُ في النَّارَ ، وَهيَ بليلُ

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٨.

أسُوفُ صَعيدَ الأرْض، إذْ وَافَقَ اسْمُهُ ... صَعيداً بِــهِ أهْـلُ الحَبيـبِ نُـزُولُ
وأغْدُوَ على أسْوانَ أسْوانَ في الحَشَا ... لِبعْدِي عَنهــا لَوْعَــةٌ وغَلِيلُ (١)

يغلب على غزل أسامة كما نرى عاطفة حزينة باكية وأنه يعانى من عذول لائم لا يكف عن لومه لكن في هذه الأبيات كان هذا العذول هو مصدر الحياة لشاعرنا لأنه بذكره للمحبوب قد ردَّ فيه روحه التي رحلت عنه برحيل من يحب ، ولوم اللائم هنا كان مفيداً لأنه أشعل نار غرام أسامة مثلما تشعل الريح النار ، ولذلك فهو يشم رائحة الحبيب الذي هجر المكان وذهب إلى جنوب مصر فزاد من شوقه وألمه وزاده لوعه حديث هذا العذول عنها الذي أشعل النار في قلبه .

كما اقتفى عمارة اليمني أثر الشعراء القدماء في استهلال بعض قصائده بمقدمة غزلية بديعة مستمداً معانيا تقليدية مما ذكره الشعراء القدماء في أشعارهم، وتنوع غزله بين الغزل الصناعي والغزل العذري ويتحدث فيه عن صدق المشاعر وقوتها معبراً عن عاطفة صادقة.

ومما يمثل ذلك قوله :

هُمُ الأحبَّـةُ إنْ جـارُوا وإنْ عَـدَلُوا ... ومَــالكُونَ لِقَلْبِـي كَيْفَمَــا فَعَلُوا
فَلْيَعْلَمُـــوا أنَّ وِدّي لا يُغيِّـــرُه ... تَغيُّـرٌ مِـنْ سَـجَايَاهُمْ ولا مَلَـلُ
ولْيقْبِضُوا اللَّوم عَنْ قَلْبـي بِبَسطَتِهِمْ ... فَقَدْ طَوَيْـتُ بَسـاطاً مـدةَ العَـذَلِ
أجِلُّهم أنْ يَـزُورَ الغَيْـثُ سـاحَتَهُمْ ... وأنْ أقُولَ لَهُـمْ : يَاقَـاطِعينَ صِلُوا
فَكُلَّمَا لاحَ ضَوْءِ البَرقِ قُلْـتُ لَـهُ : ... أقْصر فقَلْبي بِبَرْقِ (النِّيـل) مُشْتَغِل
فَمَا أُلامُ عَلَـي شَـيءٍ سِـوى كَلَفِـي ... بِحُبِّ مَنْ لَيْسَ في الـدُّنْيَا لَـهُ بَـدَلُ
أحِبـةٌ لَهُـمُ فِــي القَلْـبِ مَنْزِلَـةٌ ... أضْحَتْ وَفِرْدَوْس أخْلاقِي لَهَا نُـزُلُ
يَقُوم بِالعذرِ عَنّي فِـــي مَحَبَّتِـهِم ... عُـــذرٌ يُقدسه التَشْبِيبُ وَالغَـزَلُ(٢)

يستهل عمارة أبياته الغزلية بجملة اسمية تفيد الثبوت والدوام مؤكداً أنهم (هم الأحبَّة) في عدلهم أو ظلمهم، وهم المالكون لقلبه مهما فعلوا مؤكداً أنه لن يتغير وده وحبه لهم؛ فهو لن يمل من هذا الحب وإن لام أحد عليه هذا

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٤٥
٢ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٨٣٨

الحب والغرام فلن يُبالي أو يعود عن حبهم، فهم قوم يتميزون بالكرم الشديد فهو يستحي أن يقول لهم أكرموا مقطوعا مهجوراً بوصلكم وحبكم فهم أحبائه المقيمون في مصر لا يرى لهم بديلاً في الدنيا، وهو أسلوب بلاغي يسميه علماء البلاغه تأكيد المدح بما يشبه الذم فهو يثني على محبوبته ويمدحها حافظاً لها العهد والود فهو محبٌ لها حباً لا عذر فيه سوي أنه دائماً ما يتغزل فيها ويذكرها بما كان بينهما من ود وحب وهوىً .

الفخـــر

يعد غرض الفخر من أهم أغراض الشعر العربي، فمنذ الجاهلية كان يتغني الشعراء بمفاخرهم الذاتيه ومفاخر قبائلهم وأقوامهم، واستمر هذا الفخر حتى الآن .

والفخر هو الإشادة بالصفات الحميدة التي تخص الشاعر، معظماً لصفاته ومشيداً ومظهراً ما فيها من خصال .

والفخر إما أن يكون فخراً فردياً يبرزفيه الشاعر خصاله الذاتيه متكئاً علي صفاته ومآثره المشهورة بين الناس والمعروفه غير المنكرة، وهذه الخصال تتمثل في الشجاعة والبأس والكرم والحلم وسداد الرأي والوفاء والعطاء وغيرها من الصفات الحميدة والفضائل .

وإما أن يكون فخراً جماعياً أوقل قبلياً، كما كان الحال في العصر الجاهلي وتطور بتطور الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية، وفيه يفخر الشاعر بمآثر جماعته أو أسرته أو قبيلته أو مدينته، ويبرز مالها من أيام وبطولات وصولات ونعم وعطاء لا ينكر آثارها وأفضالها، ولهذا فالفخر فن أصيل في شعرنا العربي .

ولقد برز غرض الفخر في بلاط بنى رزيك، وكانت ظروف الدولة الفاطمية تشجع علي ذلك خاصة وأنه كان يوجد عدد غير قليل من الفرسان الشجعان الذين تصدوا للخطر الصليبي وعقدوا العزم للوقوف أمامهم وإنقاذ الدولة الفاطمية من هذا العدوان .

وبذلك فلقد أعاد بلاط بن رزيك في الشعر العربي المعاني العربية الأصيلة من شجاعة وبأس وفروسية ونخوة، وسخاء وكرم وغيرها من الصفات الحميدة .

ويرجع الفضل في ذلك إلي وجود كوكبة من الأدباء والشعراء والفرسان الذين كانون يحسنون نظم الشعر، ويتذوقون الأدب ولذلك سجلوا في أشعارهم بطولاتهم في حروبهم ليخلد ذكرها على مر التاريخ .

ونستهل شعر الفخر بشاعر توافرت فيه خصال متعددة ، فكان فخره قائماً على أساس متين عماده الفضائل والشمائل من الشجاعة والكرم والبأس وسداد الرأي ونقصد بهذا الشاعر الوزير **طلائع بن رزيك** الذي حرص علي

تكريس هذه المعاني، والتي تبدو لنا واضحة في فخره بشجاعته، وبما حققه من نصر في ميدان الحروب والمعارك ضد الفرنج مازجاً هذا الفخر بالفخر بكرمه وجوده وعطائه الوفير، ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قوله في إحدي قصائده التي بعث بها إلى صديقه أسامه بن منقذ منها قوله :

أَبَي اللهُ إلاّ أنْ يَـدِينَ لنـا الـدَّهْرُ ... وَيَخْدُ مَنَا في مُلْكِنَا العـزُ والنَـصْرُ
عَلِمنْا بـأنَّ المـالَ تَفْنَـى أُلوُفــه ... ويَبْقَي لَنَا مِنْ بَعْده الأجْـرُ والـذِّكرُ
خَلَطْنَا النَدي بالبأسِ ، حَتيَّ كَأنَّنـا ... سَحَابٌ لدَيْه البرقُ والرَّعدُ والقطـرُ
تَرانَا إذاَ رُحْنا إلى الحَـربِ مَـرَّةً ... قَرْيِنَا ، ومِنْ أضيافِنَا الذِّئبُ والنَّـسرُ
كمَاَ أنَّنا فـي السِّلْم نَبْذُلُ جُـودنا ... ويَرتَعُ فِـي إنْعامِنَا العبدُ والحرُّ (١)

يفخر طلائع في هذه الأبيات بسطوة قومه وشجاعتهم ، وأنّ النصر دائماً حليفهم ورفيقهم، وأن العز سبيلهم وغايتهم ، كما أنه يثني علي نفسه وقومه بأنهم يدركون أن المال لا يبقي فهو يفنى ولا يبقي من بعده إلا الذكر الحسن والأجر الذي يثابون عليه ، كما أنه يمزج في فخره بين الكرم والعطاء والقوة والشجاعة معتمداً علي التشبيه حيث يشبه قومه بأنهم مثل السحاب، لديهم العطاء والرزق كما أن لديهم الرعب والخوف بما يحمله السحاب من برق ورعد ومطر ، وأنهم كرام إذا ما ذهبوا إلى الحرب فإنهم يضيفون الذئاب والنسور، وهذا فيه دليل علي ثقتهم في نصرهم علي أعدائهم لذلك هم يكرمون الذئاب والنسور بما يخلفونه وراءهم من جثث الأعداء ، وأنهم في سلمهم يبذلون العطايا فيسعد في هذا الإنعام ، وهذا الجود للعبيد والأحرار.

وواضح لنا من خلال هذه الأبيات أن طلائع اعتمد علي ضمير الجمع الـ (نا) في دلالة واضحة لاعتماده علي أهله وعشيرته ، وفخره بهم ويتفق هذا المعنى مع معانٍ أخرى يذكرها طلائع في مواضع مختلفة من شعره نحو قوله :

وإنَّا بَنُـو رُزّيـكَ مـازَالَ جَارُنـاَ ... يَحـلُ لَـدَينَا بالكَرامَـةِ والخِـصْبِ
ونَفْتكُ بالأمْوَالِ في الـسِّلْم دائمـاً ... كمَا نَحنُ بالأعْدَاء نَفْتكُ في الحَـرب (١)

---

١ – ديوان طلائع رزيك– تحقيق د. أحمد بدوي –ص ٦٣ ، ص٦٤

يبدو أن طلائع في هذين البيتين اتكأ علي المعاني التي أوردها في أبياته السابقة من كرم وعطاء وجود في السلم ومن فتك وبطش بالأعداء في الحرب.

كما يتضح لنا حرصه علي الفخر الجماعي من خلال قوله (وَإِنَّا بَنُو رُزَّيك) ، فهو يذكرنا في بيته الأول ببيت السموأل الذي يذكر فيه الجار الذي يعيش في رغد وسعادة عندما يكون في جوار أناس أقوياء ، فيقول السموأل :

وماضـــرنا أنّـــا قليـــل وجارنـــا ... عَزيـــز وجَـــارُ الأَكْثَـــرِيَنَ ذَليـــلُ
لنا جبلٌ يحتلـــه مـــن نجـيره ... منيـــعٌ يردُ الطَّـــرف وَهَـــو كَلِيلُ

وله في موضع آخر من شعره في إحدي قصائده البديعة التى بعث بها إلى اسامة بن منقذ فنراه يقول فخوراً بشجاعته وكرمه :

وإنَّا أُنَاسٌ ، لَيْسَ يَبْـرَحُ جَارُنَـا ... يُحكَّمُ فـي الأمْـوالِ مِنَّـا ، فَيـشْتَطُّ
وتمْنَاحُنَـاَ زُوَّارُنَـا ، فَكَأنّمـاَ ... غدَالِهمُ شَـرْطٌ عَلينَـا ، ولا شَـرْطُ
ويُصبح بسطُ الكفَّ بالمَالِ عنْـدناَ ... وكَلُّ مَليكِ عنْـدَهُ القَـبْضُ والبَـسْطُ
وتَخْرِقُ شرقَ الأرْضِ والغَرْبِ خَيلُناَ ... عَلَيْهاَ الشَّبَابُ المُرْدُ، والجِلَّةُ الشُّمطُ(٢)

يطالعنا طلائع في هذه الأبيات بفخر جماعي فنراه يشيد بكرم أهله الشديد، ذلك الكرم الذي يجعل الجار يتحكم كيف شاء في أموالهم، كما أن من يقوم بزيارتهم له ما يريده وله ما يشترطه ، كما أن عليهم أن ينفذوا له ما يريد .

فهو يري أن كل الملوك عندهم القبض والبسط في العطاء ، بينما عند بني رزيك ليس عندهم إلا بسط الكف دائماً . وفي هذا دليل واضح علي عظمة العطاء وكثرة الجود ووفرته ، كما أنه في البيت الأخير نراه يوضح مدي قوتهم وشجاعتهم ، حيث يتساوي في هذه الصفات الحميدة كل من الشباب والرجال والشيوخ.

---

١ - المصدر نفسه - ص٤٩
٢ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق د. أحمد بدوي - ص٦٧

ويلح طلائع علي الفخر في شعره بهذه المعاني الجزلة القوية التي كرر ذكرها في مواضع مختلفة من شعره ، ومما يمثل ذلك قوله :

قَد عَلِمْـتُمْ بـأنَّ غيْـثَ أيَادِينَـا ... عَلَـى النَّـاسِ بالنُّـضارِ سَـكوبُ
وَبِنَا يُدرِكُ المُؤمِّـلُ مـا يرجُـوهُ ... قِـدما ، وَيُنقـذُ المكـرُوبُ
نَحنُ كالسُّحب ، بـالبَوارِقِ والـرَّ ... عْـدِ لَـدَيْنَا التَرَّغيـبُ والتَّرْهِيـبُ
تـارةً نُسعِرُ الحُرُوبَ عَلى النَّاسِ ... وطَـوْراً بالمكـرُماتِ نَصوبُ [١]

والمعانى في هذه الأبيات لا تخرج عن تلك المعاني التى حرص طلائع عليها دائما في فخره ، وهي توضح مدي كرمه أو كرم عشيرته وعطائهم الذي يشبه المطر السكوب المنهمر ، فهم كالسحب ولديهم الترغيب لمن يؤمل خيرهم وعطاءهم وكرمهم، والترهيب وقت الشدة لمن تساوره نفسه أن يحاربهم ، فهم أشداء في الحرب أقوياء فرسان يسعّرون الحروب وفي ذات الحين لهم مآثرهم وعطاياهم التي لا تنقطع .

ولنا أن نقول إنه لا عجب حينما يذهب طلائع إلى تلك المعاني السامية ، فهو كما كان يروي عنه المؤرخون ودارسوا الأدب أنه كان واحداً من الفرسان القلائل الذين كانت لهم صولاتهم وجولاتهم في محاربة الفرنج، كما أنه كان كريماً جواداً صاحب عطاء حريصاً علي ذلك ، لذلك نجد أن غرض الفخر في شعره فن قوي أصيل لأنه نابع من شجاعة وفروسية وكرم وعطاء ، فليس فيما قاله طلائع مبالغة أو خروج عن الواقع الذي كان عليه بنو رزيك.

وإذا ما انتقلنا إلى شاعر آخر عبر تعبيراً واضحاً عن الفخر في شعره لتوقفنا أمام **المهذب بن الزبير**، فمن أهم العناصر التي يدور حولها الفخر في شعر المهذب هو إشادته بمناقبه وأمجاده، وعفته وطهارته، وقوته، وطموحه، وعزيمته الماضية واستقلال رأيه، وكثرة خبراته، وعمق تجاربه، وإن كان أكثر فخره وزهوه يدور حول التغني بثقافته وفصاحته، والإشادة بشعره وشهرته . (٢)

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص٥٩
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص٦١

ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قوله في إحدي قصائده التي ذم بها الزمان والتي مطلعها :

كَمْ كُنْتُ أسمعُ أن الدّهرَ ذو غِيرٍ ... فاليومَ بالخُبْرِ أستغنى عن الخَبرِ

ومنها أبياته التي يفخر فيها بقوله :

تَأْبَي المَكَارِمُ والمَجْدُ المُؤثَّلُ لِـي ... منْ أنْ أُقِيمَ ، وآمَـالِي عَلَـي سَـفَرِ
إنّي لأَشهرُ فِي أهْل الفصَاحة منْ ... شَمْسٍ ، وأسيَرُ فِي الآفَاقِ مِـنْ قمـرِ
وَسَوفَ أرْمي بنَفسي كلَّ مُهْلَكَـةٍ ... تَسْرِي بها الشُهُبُ إن سارَتْ علي خَطَرِ
إمَّا العُلاَ ، وإلَيْهَا مُنْتَهَـى أملَـي ... أو الرَّدي ، وإليـه مُنْتَـهي البَشَرِ(١)

يفخر المهذب هنا بنفسه إذ يعتمد علي الفردية فى حديثه وفي شكواه من الزمان فهو يري أنه صاحب مجد وصاحب مكارم فهو الأشهر في الفصاحة من الشمس، والأسير في الآفاق من القمر، لذلك هو لا يخاف أن يري نفسه في كل مهلكة فتلك هي سمات العظماء دائماً، فهو لا يرضي إلا العُلا مكاناً وإليها غايته وقصده ، أما الموت فهو مصير البشر جميعاً فلا خيار أمامه في ذلك .

وله في موضع آخر من شعره قوله :

لا تطْمَعنْ فيَّ أرضٌ أن أُقيمَ بِهـاَ ... فَلَيسَ بيْنِي وبَيْنَ الأرْضِ منْ نَـسَبِ
حَيْثُ اغْتَربتُ فَلِي منْ عِفّتي وَطَنٌ ... آوِى إليهِ ، وأهـلٌ مِـنْ ذَوِي الأَدَبِ
لَـوْلاَ التَنقّلُ أعْيَـى أن يَبِينَ علي ... باقِي الكَواكِبِ فَضلُ السَّبعةِ الشُهُبِ(٢)

توضح هذه الأبيات مدي طموح المهذب وعفته وأدبه وفخره بنفسه ، فهو يري أنه أفضل أهل الأرض لذا هو لا يطمع في أن يقيم علي الأرض فليس بينه وبين الأرض من نسب ، فوطنه وأهله هم أهل الأدب وهم أصحابه وخلصاؤه وهم أصفياؤه ، فالتنقل دائماً هو طبعه الذي نشأ عليه لذلك يفضل السبعة الشهب علي باقي الكواكب لأنها مثله في التنقل والترحال .

ومن الأمثلة الدالة علي فخر المهذب بذاته – أيضاً – قوله :

فَمَا تَخَافُ الرَّدي نَفْسِي ، وكَمْ رَضِيتْ ... بِالْعَجْزِ ، خوفَ الردي، نَفْـسٌ فلـم تُبـلِ

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٩٦ ، ص ١٩٧
٢ – المصدر نفسه – ص١٨٠

إنّي امرؤٌ قَدْ قتَلتُ الدهرَ مَعْرِفَةً فَمَا أبيتُ عَلَى يأسٍ ولاَ أمَلِ
إن يَرْوِ مَاءُ الصِّبَا عُودِي فقدْ عَجَمَتْ مِني طَروقُ الليالي عودَ مُكْتَهِلِ
تَجاوَزَتْ بي مَدَى الأشياخِ تَجْرِبَتي قِدْماً ، ومَا جاوَزَتْ بِي سِنَّ مُقْتَبِلِ
وأوّلُ العُمرِ خيرٌ مِنْ أواخِرِه وأينَ ضَوْءُ الضُحَى، مِنْ ظُلْمَةِ الأُصُلِ؟![1]

يشعر المهذب في هذه الأبيات بأنه علي قدر كاف من الخبرة مما يجعله يستحق الفخر بذاته والإشادة بمناقبه وطموحه وعزيمته فهو صاحب رأي حكيم وذو معرفة بالأمور من خلال كثرة ما مرّ به من تجارب في حياته، هذه التجارب والخبرات التي ثقلته وقوّمته فجعلته صلباً ثابتاً، لذلك فهو يري أنه خبيرٌ مدرك لما يصنع ، ومثله مثل الذي يبصر في الضحي فلا مقارنة بين معرفته وخبراته وبين غيره من الأدباء .

وهكذا يبدو لنا المهذب بن الزبير علي عكس طلائع بن رزيك الذي كان يتكأ علي الفخر الجماعي، بينما المهذب اعتمد كلياً في شعره علي الفخر الفردي من خلال الإشادة بسماته التي تعتمد اعتماداً كبيراً علي ثقافة وشهرته وجودة أشعاره .

وهذا أسامة بن منقذ نجد أنه شديد الاعتزاز بنفسه في ميدان القتال والحرب، وشديد الاعتزاز بأسرته وقومه، وعلي قدر كبير من الثقة بنصره وثباته وصبره ، وعمق تجاربه، فهذه الثقة كانت العامل الأساسي في الفخر في شعره ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قوله :

لِخَمْسَ عَشَرَةَ نَازَلْتُ الكُمَاةَ إلَيَّ أنْ شِبتُ فِيهَا ، وَخَيرُ الخَيلِ مَا قَرَحَا
أخُوضُها كَشِهَابِ القَذْفِ مُبْتَسِماً طَلْقَ المُحَيَّا ، وَوَجهُ المَوتِ قَدْ كَلَحَا
بِصَارِمٍ ، مَنْ رَآهُ فِي قَتَامِ وَغَيً أفْرِي بِهِ الهَامَ ، ظَنَّ البَرْقَ قَدْ لَمَحَا
أغْدُو لِنَارِ الوَغَى فِي الحَرْبِ إنْ خَمَدَتْ بِالبِيضِ فِي البِيضِ والهَامَاتِ مُقْتَدِحَا
فَسَلْ كُمَاةَ الوَغَى عَنِّيَ ، لِتَعْلَمَ كَمْ كَرْبٍ كَشَفْتُ ، وكَمْ ضِيقٍ بِيَ انْفَسَحَا[2]

يفخر أسامة في هذه الأبيات بشجاعته، تلك الشجاعة التي ظهرت بوادرها ، كما يقول في أبياته وهو ابن الخمسة عشر عاماً فهو وإن كان في

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢١٤
٢ – ديوان أسامه بن منقذ – ص ٢٥٩

هذه السن الصغيرة وهو سن الصبا إلا أن ذلك لم يمنعه من أن ينازل الفرسان الأقوياء الشجعان ، فمنذ صغر سنه كان يخوض المعارك والحروب، وهو لا يعبأ بما بها من قوة وشراسة وقتل وموت فكان مبتسماً دائماً ، طلق المحيَّا بالرغم من أن الموت قريب، ويذكرنا أسامة بن منقذ بأبيات شاعرنا العربي العظيم المتبني حينما مدح سيف الدولة ببيتيه المشهورين حين قال :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ ... كَأَنَّكَ فِي جِفْنِ الرَّدَيِ وَهُوَ نَائِمٌ
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمي هَزِيمَةً ... وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ [١]

فشاعرنا يخوض غمار الحروب بشجاعة وقوة ممسكاً بسيف قاطع يقطع به رقاب الأعداء في سرعة شديدة كالبرق ، ثم يقول في فخر وعزة طالباً من مخاطبه أن يسأل عنه كيفما شاء ليعلم مدي شجاعته وقوته وبسالته في ميدان الحروب والمعارك ولكي يعلم كم من كرب قد فرَّجهُ وكم من ضيق قد جعله فسيحاً .

ويعد فخر أسامة بن منقذ ردّ فعل طبيعي لما تعرض له في حياته من محن وصعوبات والتي وصلت به في كثير من الأحيان إلى الحزن والأسى والألم ، لذلك فهو يعبر عن الفخر بذاته بكل صدق نتيجه لما عاناه في حياته من شدائد فهو حقاً أمير وفارس شجاع .

وله في موضع آخر من شعره فيقول :

سَلْ بى كُمَاةَ الوَغي فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ ... يَضِيقُ بِالنَّفسِ فِيهَا صَدْرُ ذِي الْبَاسِ
يَنْبِئُوكَ بَأنِّي فِي مَضَايِقِهَا ... ثَبْتٌ، إِذَا الْخَوفُ هزَّ الشَّاهِقَ الرَّاسِي
أَخُوضُهَا كَشِهَابِ القَذْفِ، يَصْحَبُنِي ... عَضْبٌ كَبَرْقٍ سرى أَو ضَوْءِ مِقْبَاسِ
إِذَا ضَرَبْتُ بِهِ قِرناً أُنَازِلُهُ ... أَوْحَاهُ عَنْ عَائِدٍ يَغْشَاهُ أَو آسِي [٢]

يتغني شاعرنا بشجاعته وانتصاره علي الفرسان الأقوياء في كل معركة، فهو يخوض هذه المعركة وهو سعيدٌ لما حققه من نصر علي الأقران الذين ينازلهم في المعارك ، وهو حريص علي توضيح مدي سرعته وقوته

---

١ - ديوان أبي الطيب المتنبى -بشرح أبي البقاء العكبرى - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده بمصر - ضبطه وصححه - مصطفى السقا - إبراهيم الإبياري - عبد الحفيظ شلبي - الجزء الثالث ص٣٨٦، ص٣٨٧ .

٢ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٦١

وشجاعته في هذه المعارك فهو دائماً ما يشبه نفسه بالشهاب القاذف الذي يحمل الموت للأعداء .

وأسامه يعلم جيداً أن مكانته في السلم رهينٌ لما يبديه في الحرب من بسالة وإقدام وشجاعة، فنراه يقول :

إنْ يَحْـسدوُا فـي الـسلْمِ منْـ ... زلَتَـي مـنَ العـزّ المُنيـف
فمـا أهـينُ الـنفْس فـي يـو ... م الـوغى بـيْنَ الـصفُوف
فلَطالمـا أقـدمتُ إقْـ ... ـدامَ الحُتُـوف علَـي الحُتُـوف
بعَزيمَـةٍ أمْضَـي علـى ... حَـدِّ السيـوف من السُيوفِ (١)

يخبرنا أسامة في هذه الأبيات بحقيقة يعلمها تماماً وهى أن الحسَّاد الذين يحسدونه علي مكانته وقت السلم ، ويغبطون عليه منزلته الرفيعة العالية لا يعلمون أن تلك المكانة السامية لم يكتسبها أو ينالها إلا بعد أن أظهر شجاعته وقوته وبسالته في الحرب وصبراً وجلداً في مواجهة الموت ، متسلحاً بعزيمة أمضي من حد السيف وأقطع من الرماح .

ومن الأمثلة الدالة علي الفخر – أيضاً – في شعر أسامة بن منقذ قوله :

قُلْ للْخُطُوب : إلَيك عَنيَّ ، إنَّ لـي ... في الْخَطْب عَزْمَا مثْلَ حدِّ الْمنـصُل
لا يَـستَكينُ لحـادث مـنْ نَكبـة ... طَرَقـتْ ، ولاَ يَعْيـا بـأمرٍ مُـشكلِ
يلْقَى الخطُوبَ ، إذاَ دجَت أهوَالُهـا ... بالصَبْر حتَّـي تَـضمَحلَّ وتَنجلَـي
تَنجابُ عَنه الحادثَـاتُ إذاَ عَـرتْ ... عَـن قَلْـب ثَبْـت العَـزَائم حُـوَّل
قـدْ جَـرَّب الأيَّامَ حتَّـي خلْتَه ... يُبدي لـهُ الماضَي خَفيَّ المُقبلِ (٢)

يفخر أسامة في هذه الأبيات بقدرته علي الصبر وقوته وجلده في مواجهه المصائب والخطوب غير عابئ بها متحدياً إياها، فنراه يخاطب هذه المصائب ويقول لها متخيلاً بخياله الواسع أنها شخص يخاطبه ويخبره أنه صاحب عزم وقوة وصبر لا يخضع ولا يستكين لحادث أو مصيبة فلا يهمه أمر حادثة وقعت ولا يعبأ بأمر قد يصيبه بوهن، لذلك فهو يلقي هذه الخطوب غير عابئ بها صابراً متجلداً حتي تضمحل وتختفي وتذهب عنه تلك

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص٢٦٢
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٦٩

المصائب، فشاعرنا إنسان مجرّب عارك الحياة وخبرها فلا يهمه أمر ولا يعبأ بشئ فهو ذو عزيمة وقوة وثبات .

وعلي هذا النحو يستمر أسامة بن منقذ الفارس الأمير الشجاع في شعره وفخره مظهراً القوة والعزيمه والشجاعة ، فخوراً بثباته وكثرة تجاربه ويعد فخر أسامة هنا فخراً فردياً يتكأ صاحبه علي خصال صادقة وقوة وشجاعة أيدها المؤرخون والرواة .

وينتهج النهج ذاته القاضي الجليس بن الحباب ، فلم يرد في شعره الذي بين أيدينا سوي مقطوعتين من شعره لمناقب أو مآثر واضحة يتكأ عليها في فخره فنراه يقول في المقطوعة الأولي :

خُذْهاَ إِلَيْكَ بِماَءِ الطَّبْعِ قَدْ شَـرِقَتْ ... لَوْ ماَ زَجَ البحرَ منْهاَ لَفْظَـةً عَـذُباَ
جَوَّالَـةً بِنَـواَحِي الأَرْضِ مُمْعِنَـةً ... فِي السَّيرِ لاَ تَشْتَكِي أَيْناً ولاَ نَـصَباَ
أَلْفاَظُها الدُّر تَحْقِيقاً وَمِـنْ عَجَبٍ ... تُمْلِي عَلَي الْبَحْرِ دُرَّ الْبَحْرِ مُجْتَلباَ[1]

يفخر القاضي الجليس في هذه المقطوعة بشعره وبراعته في نظم الشعر مخاطباً أحد ممدوحيه ويخبره بأن شعره مشهور في الآفاق شرقاً وغرباً ، وألفاظه مثل اللؤلؤ الذي يملي علي البحر دره فما دُرّ البحر إلا مجتلب من تلك اللآلئ، ويقصد بها هنا ألفاظه وكلماته التي نحن بصدد الحديث عنها .

ويقول في المقطوعة الثانية :

دَعْ البينَ تَحدوُنا حثـاثُ رِكاَبِـه ... فَغَيْرِيَ مَنْ يَشْجُوه صَـوْتُ غُرابِـه
سأرْكَبُ ظَهْرَ العزْمِ أو أَرْجِعَ المنيِ ... يَرجْعَـةِ مَوْفُـورِ الرَّجـاءِ مُثابِـه
فَإمَّا حَياةٌ يسْحبُ المـرءُ فَوْقَهـاَ ... ذيُولَ الْغِنَي والعـزِّ بَـينَ صَحابِه
وإمَّا مَماَتٌ فِـي العُلاَ يتْرُكُ الفَتَي ... يَقَـالُ أَلاَ للّه درُّ مُصَابِـه[2]

يطالعنا القاضي الجليس في هذه المقطوعة بفخره وبقوة عزيمته وطموحه الذي لا حدود له لذلك هو يري أن الحياة أمامه إما حياة تعتمد علي

---

١ - خريدة القصر - ص ١٩٧
٢ - المصدر نفسه - ص ١٩٧

العز فتحتاج لأن يكون فيها الإنسان ثرياً صاحب مجد ، وإما الموت في سبيل ذلك المجد والعز وهو بذلك يكون موتاً شريفاً يفخر به .

ولنا أن نقول إنه من خلال تلك المعاني لا نستطيع أن نقول إن القاضي الجليس كان صاحب شعر يمثل غرض الفخر وربما يرجع السبب في هذا إلى قلة ما وصل إلينا من شعره أو ربما أنه لم يكتب شعراً وفيراً في هذا الغرض.

وهذا عمارة اليمني، فالبرغم من كثرة أشعاره إلا أننا لم نجد في شعره صدىً كبيراً في الفخر، فلم نجد سوي مقطوعة شعرية قوامها ثلاثة أبيات يقول فيها :

إنْ كبــرتْ ســنّي فَلــي همَّــةٌ	لَــمْ يَتــأثرْ فَــضْلُها بــالكِبرْ
ماضِرتّي في غَــدْرُ اللّيــالي وَقَــدْ	وفي لــيَ الــسَّمْعُ ونُــورُ البَــصَرْ
وَلاَ خَبــاَ مِصْباحُ ذِكْــريَ ولِي	فِكْــرُ سَلِيــمٌ ولِســاَنٌ ذَكَرْ (١)

يفخر عمارة في هذه المقطوعة بعزيمته ، وهمته العالية التي لا تتأثر بكبر السن التي يراها البعض عيباً أو وسيلة نقص في الإنسان، بينما شاعرنا يري أنه مازال قوياً لم يتأثر فضله أو عزيمته أو همته بكبر سنه كما أن الليالي لم تؤثر فيه رغم غدرها طالما أن السمع ونور البصر نعمتان مازالا وفيين له؛ فهو مازال صاحب رأي سديد وفصاحة بالغة وفكر سليم .

وهكذا استطاع شعراء بلاط بني رزيك ببراعة ومهارة أن يعبروا عن الفخر تعبيراً جيداً كل بحسب صفاته وخصاله ومناقبه ، ولقد جاء الفخر في أشعارهم بنوعيه وهما الفخر الجماعي والفخر الفردي .

ورأينا الفخر الجماعي يتمثل في شعر طلائع بن رزيك، أما الفخر الفردي فتمثل في أشعار كل من المهذب بن الزبير وأسامة بن منقذ والقاضي الجليس بن الحباب وعمارة اليمني، ولقد تناولوه كل بحسب صفاته الشخصية بأسلوب جزل وعبارات واضحة تفيد المعنى وتبرزه.

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٦٤٨

الهجـــاء

الهجاء فن قديم في شعرنا العربي، فمن الطبيعي أنه حينما يوجد أناس يستحقون المدح، يوجد آخرون يستحقون الهجاء .

فالهجاء هو نقد من الحياة موجه لشخص ما أو جماعة ما، ويعتمد فيها الهجّاء علي التأثير السريع والوضوح الشديد، وتكون الصورة مستمدة من تقاليد العصر ومن العرف الجاري بين الناس .

وللشاعر الهجاء بصره الحاد ونظرته الثاقبة التي تنفذ إلى ما وراء الظواهر البراقة من مثالب ومساوئ ، يتأملها الشاعر ويصورها في شعره ، جاداً حيناً وهازلاً متهكماً أحياناً وهو في كلتا الحالتين يؤدي واجباً نحو مجتمعه بالكلمة الموجهة ، والصورة الساخرة . (١)

ولقد قسم الباحثون فن الهجاء الى أقسام :

فهناك الهجاء الشخصي ، والهجاء الأخلاقي، والهجاء السياسي ، والهجاء الديني .

ولقد ورد في شعر شعراء بلاط بني رزيك نوعان من هذه الأنواع وهما:

الهجاء السياسي وهو ما ينال من أعداء الوزير وخصومه لأسباب تتصل بالسياسة أو الحكم. **والهجاء الشخصي** الذي يتناول المهجو في عرضه ونسبه وخلقه .

ومثلما تنافس الشعراء في فن المديح ، وجدوا في فن الهجاء ميداناً أفسح وأوسع لينفثوا فيه عن سخطهم وثورتهم ، وكان ينمى هذا التنافس الملك الصالح بن رزيك خاصة في مجالسه الأدبية التي كانت تضم نخبة مميزة من الشعراء والأدباء فكان يغريهم بالمال والهدايا لتزداد المنافسة بينهم ويكثر تعريض الشعراء بعضهم ببعض ، وبذلك ينتشر صدى هذه المجالس ويشتهر ملكه .

وإلى جانب ذلك كان ينتظر من هؤلاء الشعراء الهجائين أن يقوموا بهجاء خصومه وأعدائه ويعتبر هذا انتصاراً عليهم .

---

١ – د. فوزى أمين – الحركة الفكرية والأدبية في الإسكندرية – ص ١٩٠

ومن الأمثلة الدالة علي فن الهجاء قول المهذب بن الزبير ، في قصيدة نظمها ليمدح بها الداعي اليمني مستعطفاً إياه لإطلاق سراح أخيه الرشيد بن الزبير معرضاً بأعداء أخيه فيقول:

يَفْدِيكَ قَومٌ كُنْتَ واسِطَ عقْدِهم ... ماَ إنْ لَهم مُذْ غِبْتَ شَمْلٌ يُنْظَمُ
لَكَ فِي رِقَابِهِمْ وإنْ هُمْ أنْكَروا ... مِنَنٌ كأطْوَاقِ الحَمَامِ وأَنْعُمُ
جَهِلُوا فَظَنُّوا أنَّ بُعدكَ مُغْنَمٌ ... لمَّا رَحلْتَ ، وإنَّمَا هُو مَغْرَمُ
فَلَقَدْ أقَرَّ العَيْنَ أنَ عِداكَ قَدْ ... هَلَكُوا بِبَغْيِهِمُ ، وأنْتَ مُسلَّمُ
لَمْ يَعْصِمِ اللهُ ابنَ مَعْصُومٍ منَ الـ ... آفَاتِ، واخْتَرمَ اللَّعِينُ الأَخْرَمُ (١)

استطاع المهذب أن يصور أعداءه في جهلهم وبغيهم وسفههم ونكران الجميل وعدم الوفاء تصويراً ينفر منهم ويحقر من شأنهم ، وبالرغم أن النعم والمنن في رقابهم كأطواق الحمام زينة وشهرة إلا أنهم أنكروها وكفروا بها .

ولقد أتي هجاء المهذب علي طريقة المقابلة وهذا من الهجاء المقذع الذي يعتمد علي المقارنة بين شخصين مفضلاً أحدهما على الآخر، ففي هذه الأبيات نراه يؤكد علي خطأ أعدائه وجهلهم مقابلاً مصيرهم بمصير أخيه وأن سلامة أخيه دائمة بينما هلاك أعدائه أمر محتوم .

ثم يختم أبياته بالتهكم والسخرية من ذلك الذي سماه ابن معصوم فهو يري أنه بالرغم أن اسمه ابن معصوم لكنه من الآفات غير معصوم ، ولأنه أخرم أى لا رأي له فقد اخترمه الموت من بينهم .

واعْتَضْتَ بَعدُهم بِأكْرَمِ مَعْشَرٍ ... يَدَعوا لَكَ الفعلَ الجَمِيلَ وتَمَّمُوا
فَلَعَمْرُ مَجْدِكَ إنْ كُرِمْتَ عَلَيهمُ ... إنَّ الكَرِيمَ عَلَي الكِرَامِ مُكرَّمُ (٢)

هنا أتي المهذب بهجاء واضح صريح وبمعان قريبه وصور واضحة، حينما ندد بهؤلاء الجهلة وهم أعداء أخيه فهم قوم لئام يقابلهم، ويأتي علي العكس موقف الكرام ويقصد به الداعي اليمني وعشيرته، فهذا الداعي اليمني صاحب موقف نبيل كريم لم ينكره شاعرنا .

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص٢٢١ ، ص ٢٢٢
٢ – المصدر نفسه ص٢٢٢

وله في موضع آخر من شعره :

فَيا شاعِراً قَدْ قَالَ أَلْــفَ قَــصِيدةٍ وَلَكِنَّهـــا مِـــنْ بَيْتِـــهِ لَـيْسَ تَبْــرحُ
لِيهْنِكَ – لاَ هُنِّئتَ – أنَّ قَصائِدي مَعَ النَّجم تَسْرِي أَوْ مَعَ الرِّيحِ تَسْرَحُ(١)

يعرّض هنا الشاعر بالشاعر المعروف بابن الصياد الذي ذكر عنه صاحب خريدة القصر أنه كان من شعراء الصالح بن رزيك وكان سريع الخاطر في النظم ، لا يقف قلمه ولا يتّضع فيه علمه، وكان يغريه الصالح بجلسائه فيهجوهم ، وكانوا يتعرضون به، ويقول عنه أيضاً (إن ابن الحباب كان كبير الأنف ، وكان ابن الصياد مولعاً بأنفه ولقد هجاه بأكثر من ألف مقطوعة، وما كان يصده شئ عنه) . (٢)

وتبدو لنا براعة المهذب في هذين البيتين في أنه استخدم أسلوباً بلاغياً يسميه البلاغيون بتأكيد الذم بما يشبه المدح ، فهو يعترف بكثرة شعر ابن الصياد بقوله (قد قال ألف قصيدة) فهو يوهم السامع أنه معجباً بها مثنياً عليها ثم يفاجئنا بغير ما نتوقع بقوله (ولكنها من بيته ليس تبرح) .

ثم يعمق المهذب الهجاء في تشبيه هذه القصائد بأنها نساء قبيحات فيهن قبح وسوء ما يجعلهن لا يغادرن البيت حتي لا يفتضح قبحهن ، وهو يقصد بذلك أن قصائد ابن الصياد بلغت درجة من القبح جعلتها لا تستطيع أن تفارق بيته فهو يتهكم بخصمه فإن شعره لا يسير ولا يتحرك ، ولا يغادر بيته إنما الشعر الجيد البديع هنا يقصد به هنا شعره أى شعر المهذب، فهو الشعر الذي يسري مع النجم أو يطير مع الريح مستخدماً أيضاً أسلوب المقابلة والمقارنة ليؤكد المعني ويزيده عمقاً وهذا من أقذع أنواع الهجاء .

ولم يتعرض المهذب بن الزبير لفن الهجاء في شعره كثيراً – كما أشرنا في ترجمته – لأنه كان رجلا محافظا يصون عرضه ، ويحفظ شرفه فلم ينطق بهجاء فاحش ، ولم يتعرض لأعراض الناس .

وهذا القاضي الجليس بن الحباب يمثل شعره فن الهجاء في مقطوعتين يعتمد فيهما علي الهجاء المقذع أو السباب الفاحش ولكن هجاءه يأتي علي سبيل السخرية والتعريض بالمهجو، فنراه يقول في المقطوعة الأولي علي

١- المصدر نفسه – ص١٨٤
٢- خريدة القصر – ص ٢٤٥

سبيل المداعبة ويبعثها إلى الصالح بن رزيك شاكياً له من الطبيب الذي عالجه في مرضه فيقول :

وَأَصلُ بُلِيتــي مَــنْ قَــدْ غزَاتــي ... مــنَ الـسَقَمِ المُلــحّ بِعَـسْكَرِينِ
طَبِيــب طِبُّــهُ كغُـرَابَ بَــيْنٍ ... يُفَــرِّقُ بَــيْنَ عــافِيَتي وَبَيْنــي
أَتَي الْحمي وَقَدْ شــاخَتْ وَبَاخَــتْ ... فَــردَّ لَهــا الــشَّبَاب بِنُـسْخَتَيِن
ودبَّرَهـــا بِتَــدْبِيرِ لَطِيـــفٍ ... حكَـــاهُ عَــنْ سِنَانٍ أو حُنَيْنِ (١)

يوضح لنا القاضي الجليس أن أصل مصيبته التي هو فيها الطبيب الذي يعالجه، مشبها طب هذا الطبيب بغراب البين الذين يفرق بين الأحبة فطبه فرق بين عافيته وبين جسمه، ومن العجب أيضاً أنه قد بدأ في علاج الشاعر والمرض يتأهب للرحيل إلا أنه أعاد إليه المرض ثانياً، وهو في هذا يدبر تدبير المتقن لعمله الناقل للطب عن أساطير الأطباء القدماء منهم (سنان بن ثابت بن قرة ، وحنين بن إسحاق). ثم يختم أبياته ساخراً ضاحكاً حين وضح أن النوبة التي كانت تأتيه في مرضه مرة كل يوم أصبحت بفضل هذا الطبيب تأتيه مرتين كل يوم.

وله في موضع آخر من شعره يقول :

وكَمْ فِي زَبِيدِ مــنِ فَقِيــه مُـصَدَّرِ ... وَفي صَدْرِه بحرٌ مِنَ الْجَهْـلِ مُزْبِـدُ
إِذَا ذَاب جِسْمِي من حَـرُورِ بِلاَدكُمْ ... عَلِقْـــتُ علي أَشْعَــارِكم أَتَبَرَّدُ (٢)

يهجو هنا الشاعر فقهاء مدينة اسمها زبيد بأنهم ليس لديهم علم، وأن صدورهم مليئة بالجهل وأن ليس في هذه المدينة فقيه عالم ولا شاعر يستلذ بشعره فأشعارهم باردة لا حياة فيها بالرغم من أن بلادهم تتميز بالحر الشديد إلا أن الشاعر هنا اتكأ علي أسلوب المقارنة بين حر البلاد وبارد الأشعار .

ويعد ابن قادوس من أبرز هؤلاء الشعراء الذين أجادوا فن الهجاء ، فله في شعره نماذج مختلفة تدل علي ذلك منها هجاؤه للرشيد بن الزبير، وكان الرشيد أسود اللون فجهاه ابن قادوس بذلك فقال:

يَاشَبــه لُقْمــانَ بــلاَ حِكْمــةٍ ... وَخاسِــراً فِــي العِلْــم لاَ راسِــخاً

---

١ - خريدة القصر - ص١٩٢

٢- المصدر نفسه - ص١٩٨

سَلَخْـتَ أشْعـارَ الْـوَرَي كلَّهـمْ فَصِرْتَ تدُعَي الأسْودَ السَّالِخاَ [1]

فابن قادوس هنا يرسم شكل الرشيد ولونه هادفاً من ذلك أن يسخر من خصمه ويتهكم منه ويثير لدي القارئ الرغبة في الضحك والاستهزاء منه، ساخراً من شكله مشبهاً إياه بسيدنا لقمان الذي عمر طويلاً وبالرغم من أنه يشبهه إلا أنه لا يملك علماً ولا حكمة ، وطريف منه أن يستخدم (خاسراً وراسخاً) ذلك الجناس المقلوب الجميل الذي يعتمد فيه الشاعر علي المقابلة، ثم يهجوه مرةً أخرى بأنه سارق لأشعار الناس كلهم فيجب أن يدعي بالأسود السارق نظراً لما اقترفه من سرقه أشعار الناس وهكذا تنتهي اللقطة الساخرة التي يهجو فيها ابن قادوس الرشيد بن الزبير والتي اعتمد فيها علي سواد لونه وجهله .

وله في موضع آخر من شعره نراه يهجو الرشيد بن الزبير مرة ثانية فيقول :

إن قلـت مـن نـارٍ خَلقـست وفَقْـت كـل النـاس فهمـاً
قلنـا صـدقت فمـا الذي أطفاك حتـي صِـرْت فحما ؟ [2]

اتخذ ابن قادوس من لون الرشيد مدخلاً جيداً لهجائه ، وهو يتعمد ذلك الأسلوب الساخر الذي يقوم علي المقابلة ، ففي البيت الأول يقرر مع الرشيد (المهجو) ويتفق معه أنه قد خلق من نار، وأنه قد فاق الناس جميعاً فهماً وذكاءً وعلماً ، ويستدرجه إلى البيت الثاني الذي يفاجئنا فيه بهذا الاستفهام التعجبي الذي يحمل السخرية والاستهزاء قائلاً للرشيد ، فإذا كنت قد خلقت من نار؟! فما الذي أطفاك وحولك إلى فحم في إشارة واضحة إلى لونه الأسود الشديد السواد .

وهكذا يأتي هجاء ابن قادوس علي لقطات متتابعة تشبه الرسم الساخر الهزلي (الكاريكاتورى) في عصرنا الحديث، وهو هجاء ساخر مقذع، يعتمد فيه ابن قادوس علي روحه الساخرة وقدرته الفائقة علي التقاط مثالب المهجو وعيوبه والتي يجيد استغلالها وتوظيفها .

ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قوله يهجو شاعراً ما فيقول :

---

١ - المصدر نفسه – ص٢٢٦

٢ - خريدة القصر – ص ٢٢٩

لــوْ كَـــانَ يَنْــصِفُ حِــينِ ينْــــــشِدُ شِــــعْرَهُ وسْــــطَ المَــــلا
صَفَعُـــوه عِـــدةً كُـــلِّ حـــرْف فِيــــهِ لكـــــــــن جُمَّـــــلا (١)

يهجو هنا ابن قادوس شاعراً لم يذكر اسمه متخذاً من أشعاره وسيلة لهجائه، هاجياً إياه بأن شعره ردئ سئ ، ولو كان منصفا لصفعه الناس حين ينشدهم شعره وسط الجماعة من الناس فما علي هؤلاء الناس من عيب إن صفعوه بعدد حروف أبياته، ثم تبدو لنا تلك الروح الساخرة في هجاء ابن قادوس أنه يحول الصفع بعدد الحروف إلى جمل فيأتيه الصفع جملاً وجماعات لا فرادي . وله في موضع آخر من شعره :

قَـــدْ كُنْـــتَ علَقـــاً نَفِيـــساً سَـــــمِحاً تجـــوُدُ بنَفْـــسِكْ
إِذْ جـــاَءَكَ الحَـــظُّ فـــافْخَرْ علَـــــي أَبيَنَــــاءِ جِنْـــسِكْ
وإِنْ تَذكـــــــرَّ قـــــــومٌ حَـــــديثَ أَمسِـــــك أَمْسِكْ (٢)

تدور معاني شعر شاعرنا حول هجاء شخص ما بأنه شخص كريم النفس جوادٌ معطاءٌ حتي إذا واتاه الحظ أصبح يفتخر علي أقرانه من الناس ، وإن ذكر له بعضهم ما كان عليه سابقا فلا يجاريهم بل يمسك .

وهكذا يستمر ابن قادوس في هجائه في أكثر من لقطة هجائية ساخرة فيبدو لنا فيها أنه كان ذا قدم راسخة فى فن الهجاء فهو من الشعراء الذين نستطيع أن نصفهم بالهجائين .

فالهجاء شاعر ذو طبيعة خاصة وذو عين لاقطة وذو موهبة فطرية بحيث إنه يستطيع أن يضع يده علي عيوب المهجو ، ويحسن استغلالها وتوظيفها وقد كان ابن قادوس من هؤلاء الشعراء .

ومن الشعراء الذين طرقوا باب الهجاء عمارة اليمني ، ومن الأمثلة الشعرية الدالة علي ذلك قوله في هجاء شخص يدعي (ابن دخان) :

أَقْسَمْتُ لاَكُـشفتْ لمِـصرِ غُمـةٌ وَمُدِيرُها ابْـنِ غمامَــة المُـستَوقَدِ
حَممٌ لو اكْتَحــلَ الحُـسانَ بلونـه لَمْ يَفتَقِـرنَ إلــيَ اكْتحــالَ الإِثْمِــدِ

---

١ - المصدر نفسه – ص ٢٢٧
٢ - خريدة القصر – ص ٢٢٧

وَجَدَ السَّبِيل إِلــيَ بُلُــوغِ مُــرَادِهِ   لمـــاَ أرادُوا ضَــــبْطَهُ بالأمْجَـــد
وكَأنَّـــــه مَعَــــهُ زِيادَة خِنْصــرِ   سِيأن إِنْ وَجَــدْت وإنْ لَمْ تُوجَدِ (١)

يهجو عمارة في هذه الأبيات شخصاً يدعي ابن دخان، وهو رئيس ديوان الرواتب في أيام الخليفتين الفائز والعاضد، وكان يناصب الشاعر العداوة ويحوك له المكائد ومن أجل ذلك هجاه الشاعر بهذه المقطوعه وفي مواضع أخريٍ غيرها في ديوانه، فنراه هنا يتخذ من اسمه مدخلاً جيداً لهجائه، فيقول مقسماً إنه لم تكشف لمصر غمة أومصيبية مما قد يحل بها وشخص مثل ابن دخان قائم علي أمرها، فهو غمامة النار أي الدخان الذي ينتج عن النار، فنحن بفضله نعيش في أمور تحمل السواد الشديد الذي لو اكتحلت به الفتيات الحسناوات لم يحتجن إلي كحل آخر ، ويستمر عمارة في هجائه مشبهاً إياه بخنصر زائد في أصابع اليد وجوده وعدم وجوده سواء .

وله في موضع آخر من شعره يهجو شخصاً آخر يدعي (حمدان) فيقول :

هَـــلْ تَبْلُغـــاَنِ لَبختيـــارِ   زَاكِـــي المَـــروُءَة والنجّـــارِ
الأَوْحدُ المَلَــك المُفَــضَّل عَـــ   ـــنْ ذَوِيُ الهِمَــم الكِبـــارِ
إِنّـــي لَقِيـــتَ صَـــدِيقَنَاَ   حَمْدَان أنْحَــسْ مِــنَ (قـِـدار)
لَـــمْ يَلْقنـــي إِذْ جِئتُـــهُ   إلاَّ بِمطَـــــل واعْتِـــــذَارِ
حتّـــي كَـــأنيَ عِنْـــدهُ   مِـــنْ بَعْـض أَنْــذال التجــارِ
قَـــوَمٌ بِهمُ نُفُوسَهـــــم   أَنْ يَعْصُروا دَهْـــن الحِجَارِ (٢)

يهجو عمارة هذا الرجل بأنه رجل أنحس من قدار، وقدار هذا هو قدار بن سالف الذي كان قد عقر ناقة صالح عليه السلام ، وهو رجل يضرب به المثل في الشؤم، فيجعل عمارة هنا المهجو أنحس من ذلك الرجل، ثم يستمر في هجائه بأنه رجل دائما يخلف وعده وهو شديد البخل ، لأنه ينتمي إلي قوم من شدة البخل يقومون بعصر الحجارة، ثم يهجو لحيته التي يري أنها نبتت علي الخذي والعار ثم يهجوه هجاءاً مقذعاً بل هو سب صريح مباشر عندما.

---

١ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الأول- ص ٤٠٣
٢ - ديوان عمارة اليمني - ص٦٠٦

يقول إنه لم يهجوه فأين الهجاء من الحجارة فهو شخص سئ حتى إن أخذ وأعطي نعمه لأحد فهو يندم ويوشك علي طلب استردادها .

ويطالعنا عمارة اليمني بلقطة ساخرة أخري تبرز لنا موهبته الشعرية والتي تكشف عن قدرته علي رسم صورة سريعة في فن الهجاء نحو قوله في موضع آخر لشخص يدعي (عدّي المُلك) وهو سعيد بن عماد الضيف وكان في عهد الخليفة الفاطمي متوليا أمور الضـــيافة والرسل الواصلين إلى الحضرة وكان يقف داخل العتبة وذلك موقف لا يقفه سواه في ذلك الوقت، فنراه يقول :

لَحَى اللهُ مَدحاً لاَ يُرَجَّـــي ثَوابُــه ... لَــدَيْكُم وَهَجــواً لاَ يُخــَافُ وُيتَّقَـــيَ
عَذَرتُ عدَّي المُلْك إذْ لَيْسَ عنْــده ... منَ العرَضِ شَــئٌ يُتَّقَـــي أَنْ يُمَزَّقَـــا
فَمَالَكَ لاَ تَخْشَي عَلَي عِرْضِكَ الذَّي ... يَفَــوقَ الثُّرَيَاَ والسَّمَـــاَكَ المُحَلَّقاَ (١)

فعمارة يسخر من هذا الرجل سخرية واضحة فهو يتخذ من وظيفته وسيلة للهجاء ، فهو يلوم ويعتب علي من يمدح هذا الرجل الذي لا يرجى ثوابا عنده ، كما أنه يلوم علي ذلك الهجاء الذي لا يخشي لديه ولا يتقي ، وذلك لأن عُدّي المُلك هذا شخص ليس عنده شئ يخاف عليه فليس عنده عرض أو كرامة أو حسب أو أصل – هكذا يري الشاعر – وأن ما لديه من سوء يفوق النجوم والكواكب المرتفعة في السماء .

أما أسامة بن منقذ فلا نجد لديه أشعاراً في الهجاء؛ فالهجاء من فنون الشعر التي تحتاج إلى طبيعة خاصة ، طبيعة راغبة فيه ساعية إليه ، قد تجد المتعة واللذة من الهجاء الساخر مثلما نجد عند ابن قادوس أو من هجاء القاضي الجليس وعمارة اليمني الذي يعبر عن غضب شديد وثورة عارمة ورغبة جامحة في الانتقام .

فلقد بين لنا أسامة بن منقذ في ديوانه أنه لا يلجأ إلى فن الهجاء لأنه وسيلةٌ لايستطيع أن يلجأ إليها لأن صفاته وشمائله لا تسمح له بأن يرتضي ذلك فنراه يقول :

ظَلَمْتُ شعْري ، ولَيْسَ الظُّلْمُ منْ شيَمي ... يُطيعُني وحينَ أدْعــوُهُ ، وأعْــصيِه
يَهُمُّ أنْ يَــذكَر القَــومَ اللئـــام بمــاَ ... فيهمْ ، فَــأزْجَرُه عَــنْهم ، وأُثْنيــه

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٠٨

وَلَيسَ مِنْ خُلُقِي ثَلْبُ الغَنِّي وإنْ جَنَيَ، وَلاَ ذِكرُ ذِي نَقْصٍ بِماَ فِيهِ [١]

الرثاء

سنة الله التي فطر الناس عليها ، يضحكون في ساعة الميلاد ، ويبكون في ساعة الموت وشتان ما بين الساعتين ، فدمعة الوداع كاوية، ولا سيما إذا كان المودع حبيباً أو رفيقاً أو عزيزاً أو شريكاً للحياة . فعلى هذا يسيرالكون ، ويدرج .نذ أن خلق الله العباد ، إلى أن يرث الأرض ومن عليها ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فعندما استطاع الشاعر أن يعبر عن فقدان أقرب الناس إلى نفسه وفلذة كبده وقسيم حياته وأخيه وصديقه وسيد بلده وشيخه ووطنه ، برز فن الرثاء في شعرنا العربي وأصبح من الفنون المهمة التي تعكس لنا صدى الوفاء والإخلاص كما أنها تبرز أهم المزايا والصفات الحسنة في ذلك المرثى .

لذلك قسم بعض علماء الأدب فن الرثاء إلى ثلاثة أقسام : [٢]

ندباً ، وتأبيناً ، وعزاء .

فالندب يكون محصوراً في الأهل، والأقارب، والذات، وفي الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وآله الكرام، وفي الدول والبلدان، واستخدمه الشيعة في ندب أهل البيت .

والتأبين يكون في المواقف الرسمية ، فخص به الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء وغيرهم.

أما **العزاء** فيسمو فيه التفكير في حقيقة الموت والحياة وفلسفة الوجود والعدم والخلود .

وسوف ندرج الأنواع جميعاً تحت عنوان الرثاء بغية تسهيل البحث .

ولقد تعرض شعراء بنى رزيك لهذه الأنواع وأجادوا فيها مستخدمين أفضل المعاني المعبرة عن الحزن والألم لفقد أقرب الناس إليهم، كما انعكس شعورهم بالأسى والحزن على فقد بطل الحروب الصليبية طلائع بن رزيك

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٣
٢ - انظر د. شوقي ضيف – الرثاء – سلسلة فنون الأدب العربي – رقم ٢ – ص ٥

ومن بعده زوال ملك الدولة الفاطمية وسقوطها في يد الأيوبيين متمنيين عودتها مرة ثانية ورجوع مجدها .

فكان رثاء هؤلاء الشعراء للدولة الفاطمية خير دليل على ما قدمته لهم في أيامها من خير ونعيم وعلى هذا فهم قابلوه بالوفاء والإخلاص .

ومن الأشعار التي وردت في بلاط بني رزيك في غرض الرثاء ما قاله الشاعر **المهذب بن الزبير**، وليس بين أيدينا من شعر الرثاء في شعر المهذب سوى نموذجين، النموذج الأول بيتان في رثاء الوزير (رضوان بن الولخشي) والنموذج الثاني قصيدة يرجح د/ محمد عبد الحميد سالم أنها في رثاء طلائع بن رزيك ونحن نذهب معه هذا المذهب مستندين على ما ورد في هذه الأبيات من حديث عن شمائل المرثي وصفاته وأيضا عن ارتباط المهذب بطلائع، وهذه هي الأبيات التي نحن بصدد الحديث عنها :

هُوَ الدَّهرُ ، فَانْظُر أيُّ قِرنٍ تُحارِبُهْ ... وَقَدْ دَهَمَتْنَا دُهْمُهُ وأشَاهِبُهُ
لَيالٍ وَأيّامٌ يُغرُّ بِهاَ الوَرَى ... وَماَ هِيَ إلاَّ جُنْدُهُ وكَتَائِبُهْ
وَماَ سَمُّهُ غَيرُ الكِرَامِ ، كَأنَّماَ ... مَنَاقِبهُم – عِنْدَ الفَخَارِ – مَثَالِبُهْ
لَقَدْ غَابَ عَنْ أُفُقِ العُلاَ كلُّ ماَجِدٍ ... لَهُ حاضِرُ المَجْدِ التَّلِيدِ وغائِبُهْ
إذَا ذَكَرَتْهُ النفسُ بِتُّ كَأنَّنِي ... أسِيرُ عِداً سُدَّتْ عَلَيهِ مَذَاهِبُهْ
وكَمْ لَيْلَةٍ ساهَرْتُ أنْجُمَ أُفْقِهاَ ... إذاَ غَابَ عَنّى كَوكَبٌ لاَحَ صاحِبهْ
يَطُولُ علَيَّ الليلُ حتَّى كَأنَّماَ ... مَشَارِقُهُ للنَّاظِرِينَ مَغَارِبُهْ
وَقَدْ أسْلَمَ البَدْرُ الكَوَاكِبَ للدُّجَى ... وَفَاءَ لِبَدرٍ أسْلَمَتْهُ كَوَاكِبُهْ
يُخَيَّلُ لِي أنَّ الظَّلاَمَ عجَاجُهُ ... وَأنَّ النُّجومَ السَّارِياَت مَوَاكِبُهْ
وَأن البرُوقَ اللاَّمعاَتِ سُيُوفُهُ ... وَأنَّ الغُيُوث الهامِعاَتِ مَواهِبُهْ
فَقُلْ لِلَيالي بَعْدماَ صَنَعَتْ بِناَ : ... ألاَ هَكَذاَ فَلْيَسْلُبِ المَجْدَ سَالِبُهْ؟!(١)

يبدأ المهذب بن الزبير بالحديث عن قسوة الدهر في تعبير بليغ دقيق بقوله (هو الدهر) أي لا سبيل إلى الفرار من شدته وسطوته وقوته ؛ فالدهر دائماً يداهم الكرام ، وما الأيام والليالي التي هي وسيلة غرور الناس إلا جنود الدهر وعدته في مداهمة الكرام من الناس ، ويستمر المهذب في الشكوى من الدهر ومن أحداثه التي يأتي بها والتي ينتج عنها غياب الكرام والماجدين ثم

---

١ – د. محمد عبد الحميد سالم – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٧٧ – ص ١٧٨

يلتفت إلى مصابه في ذلك المرثى (طلائع) ذاكراً مناقبه ومحاسنه ، والذي ما إن يتذكره الشاعر فيشعر وكأنه أسيرلدى أعداء لافكاك من أسرهم ، ويتحول الليل إلى حزن شديد يشمل الكون كله ويشعر معه الشاعر بأحزانه ومدى مصابه ، فيخلع هذا الحزن على الكون كله من بدر وكواكب وظلام وليل شديد الطول وليال هي جند الدهر، وقد وفق الشاعر في التعبير عن معانيه وأفكاره، وبيان مدى مصابه بذلك الخطب الفادح ، وقد تناول د/ محمد عبد الحميد سالم هذه الأبيات بالتحليل المستقصى للمعاني التي عبر عنها المهذب ، وبيان مدى قدرته على التعبير عن ذلك الحزن الذي سيطر على الشاعر ومشاعره [1] ، وقد انتهى إلى نتيجة يتفق معه البحث فيها وهي أن رثاء المهذب لطلائع جاء صادقاً قوياً عميقاً من شاعر اتسم بالوفاء والرجاء .

وهذا شعر القاضي الجليس بن الحباب الذي ورد في غرض الرثاء، ومن ذلك قوله :

ماَ كَانَ مثْلَكَ مَنْ تَغْتَالُهُ الغيَرُ ... لَوْ كَانَ يَنْفَعُ منْ ضَرْبِ الرَّدَى الحَذَرُ
قَدْ أعلَنَ الدَّهْرُ ، لَكنْ غالَنَا صَمَمٌ ... عَنْه، وأنْذَرَنَا، لَو أَغْنَت النُذُرُ
يَغُرُنَا أملُ الدنْياَ وَيَخْدعَنَا ... إنَّ الغرُوُر بأطِمْاَعِ المُنىَ غَرَرُ
قد كان أنفسَ ماضنَّت يداهُ به ... لو كان يعلم ما يأتي وما يذرُ
أُغاَلِبُ القَولَ مَجْهوُداً وأَيْسَرُ ما ... لَقيتهُ مِنْ أذاه العِيُّ والحَصَرُ [2]

يبدو لنا الشاعر القاضي الجليس وقد ارتدى رداء الحكمة والتمس العظة والعبرة وهو في رثائه هذا، فيقول بأن ذلك المرثى الذي مات ما كان له أن يغتال على يد المصائب وذلك لأن هناك حذر ينجى من القدر ؛ فقد أنذرنا الدهر بمقدمات ووعيد ولكن ما ينفع ذلك النذير ، فالدنيا تغر الإنسان وتخدعه، والموت هو سبب هلاك الناس جميعاً ، ثم يختم أبياته بأنه يشق عليه نظم الشعر بسبب هذا الفقد وهذا الحزن الذي يسيطر عليه من فقد هذا المرثى في هذه الأبيات.

وله في موضع آخر من شعره يقول :

---

١ - انظر د/ عبد الحميد سالم – شعر المهذب بن الزبير – ص ٥٥ إلى ص ٦٠
٢ - خريدة القصر- ج١ – ص ١٩٩

وَكُنْتُ أَهْدِي مَعَ الرِّيح السَّلَام لَــهُ ... مَا هَبت الرِّيحُ فِي صُبحٍ وإمْساءِ
إِحْدَى ثِقَاتِي عَلَيْه كُنْتُ أَحْسبُهَا ... ولَمْ أَخَلْ أنَّها مِنْ بَعْضِ أَعْدائِي [1]

هذان البيتان قالهما القاضي الجليس في رثاء أبيه ، وقد مات غريقاً في البحر وذلك لريح شديدة عصفت ، وقد استطاع الشاعر وهو في مقام الحزن لفقد الأب أن يستعيد ذكرى إرساله وإهدائه السلام لأبيه مع الريح صباحاً ومساءً ، وهو كان يثق في أنها أمينة في تبليغ السلام ، ولم يتوقع يوماً أن تكون هذه الريح نفسها من أعدائه وتكون سبباً في وفاة من كان يرسل له السلام معها ، وذلك المعنى طريف مبتكر أجاد فيه القاضي الجليس وعبر عنه بدقة وبراعة .

ونجد مثل هذه الأشعار التي تعبر عن العظة والتماس الحكمة والعبرة من الموت والفقد ، عند الشاعر **الموفق بن الخلال** ، والذي تحولت المرثية عنده إلى التماس العظة والحكمة والتماس العبرة للإنسان ، فكانت نظرته نظرة كونية شاملة عامة تصلح أن تكون حكمة وعظة أكثر منها رثاء يعدد مناقب المتوفى ويذكر محاسنه وشمائله [2] ، فنراه يقول:

شَيمُ الأَيامِ صدٌ بعد وُدّ ... والليالي عَهْدُها أَهْوَنُ عَهْد
إنْ أعانَتْ عَدلَتْ أوْ خذلَتْ ... سَلَبتْ أوْ وَجدَت راعت بِفَقْد
أُفٍّ للدُّنْيَا فَكمْ تَخْدَعُنَا ... مَنْ حباهَا بمُعارٍ مُسترَدّ
ماوفَتْ أعوامُ قُربٍ بالذَّي ... جَنَت اللوعةُ مِنْ ساعةِ بُعد
يأخَا الغِرَّةِ حَسْبُ الدَّهرِ مِنْ ... عظَةِ المَغرُورِ مَا أَصبحَ يُبْدِى
تُوثرُ الدُّنْيَا فَهل نِلتَ بِهَا ... لحظةً تَخلُصُ مِنْ هَمٍ وكَدّ

فيبدو لنا الشاعر وكأنه حكيم خبير مجرب عرك الحياة فعرفها، فتحدث بما عرف وما يعرفه، هنا يتمثل في هذه العظة والحكمة الكونية المتمثلة في أن الأيام لا عهد لها ولا وفاء، وأن الدنيا خادعة ماكرة وأن الإنسان العاقل الذى لا يركن للدنيا ولا مباهجها أو ما تبديه من زينة.

---

١ - المصدر نفسه – ص ١٩٩
٢ - انظر خريدة القصر – ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧

ولقد أفرد أسامة باباً من أبواب ديوانه للرثاء ، ونجد أنه قد خص ابنه أبا بكر عتيق بجزء كبيرمنه ، واصفاً مشاعره الحزينة لفقده ، وهو لا يفتأ يزور قبره ويتذكره ويعبرعن ذلك في شعره، ومن مشاعره الحزينة لفقد هذا الابن صغيراً يقول أسامة :

لَهْفَ نَفْسِي لِهِلاَلٍ طَالِعٍ	مَا اسْتَوَىَ فِي أُفْقِهِ حَتَّى غَرَبْ
لَوْ رَأَى مَا حَلَّ بِي مِنْ بَعْدِهِ	مِنْ هُمُومٍ غَشِيَتْنِي وكُرَبْ
لَبَكَى لِي تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرى	وبُكَاءُ المَيْتِ للْحَيِّ عَجَبْ
أَنَا مَيْتٌ مِثْلُهُ ، لَكِنَّهُ	مُسْتَرِيحٌ ، وَمَمَاتِي فِي تَعَبْ [1]

فهو في هذه الأبيات يعبر عن مشاعره الحزينة وعن الأسى الشديد الذي حل به بعد فقده لولده وهو صغير السن موضحاً أن حاله لا يختلف عن حال ابنه الميت بل هو أشد كرباً وحزناً منه وهو يستحق أن يبكي ابنه من أجله وهي من المعاني العجيبة أن يبكي الميت للحي ، فهو يريد أن يوضح أن كلاهما ميت ، وأن ابنه مستريح في موضعه والشاعر تعب حزين في حياته بعد فقد ابنه .

ويستمر الشاعر في مواضع كثيرة من هذا الباب الذى أفرده للرثاء ينعي ابنه ويتذكره ويزور قبره ويستحضره ، وأبياته فيه تفيض حزناً ولوعة وأسى، ومما يمثل هذا الأبيات التي يبدؤها بقوله :

إِلَىَ اللهِ أَشْكُو رَوْعَتِي وَرَزِيَّتِي	وَحُرْقَه أَحْشَائِي لِفَقْدِ أَبِي بَكْرِ
خَلاَ نَاظِرِي منه، وكَانَ سَوَادَه	وَلَمْ يَخْلُ مِنْ حُزْنِي وَوَجْدِي بِهِ صَدْرِي
خَشِيتُ عَلَيْه الْيُتْمُ ، لَكِنَّ ثُكْلَه	وَلَوعَتَه لَمْ يَخْطُرَا لِي عَلَى فِكْرِ
فَيَالَيْتَه لاَقَى الذَّى كُنْتُ أَخْتَشِي	عَلَيْه ، وَأَنَّي دُونَه صَاحِبُ الْقَبْرَ
فَمَا فِي حَيَاتِي بَعْدِه لِيَ رَاحَةٌ	فَيَاطُولَ حُزْنِي إِنْ تَطَاوَلَ بِي عُمْرِى
وَلَمْ تُسْلِنِى الأَيَّامُ عَنْهُ، وإِنَّمَا	سُلُوِّى بِمَا أَرْجُو مِنَ الأَجْرِ فِي الصَّبْرِ [2]

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٣٤٥

٢ - المصدر نفسه - ص ٣٤٧

فلقد عبر الشاعر تعبيراً صادقاً عما يعانيه من حزن وألم لفقده لابنه الصغير أبي بكر ، متمنياً الموت من بعده، فلم يعد له راحة ولا حياة بعد رحيل ولده راجياً من الله أن يلهمه الصبر والسلوان.

وله في موضع آخر من شعره يرثي فيه ابنته وقد ماتت بشيرز وهو غائب عنها بدمشق وأعمامها وأخواتها غيّبٌ:

وَيْحَ الغَرِيبَةِ ، والدِّيَارُ دِيارُهَا ... لَمْ تَرتَحِلْ عَنْهَا ، ولَمْ تَتَغَرَّبِ
مَاتَت غَرِيبَةً وَحْدَةً: مِنْ تِربِهَا ... وَشقِيقِهَا، وَمِنَ العُمومَةِ ، والأَبِ
فَهِيَ الوَحِيدَةُ ، والأَقَارِبُ حَوْلَهَا ... وَهِيَ البَعِيدَةُ فِي المحَلِّ الأَقْرَبِ
فَإذا تَضرَّمَ فِي الجَوانِحِ ذِكْرُهَا ... قَالَ الأَسَى: بِاللهِ يَاعَيْنُ اسكُبِي [1]

يرثي أسامة ابنته في هذه الأبيات وقد امتلأ قلبه بالحزن والأسى واللوعة لفقده لابنته الوحيدة ولقد أثر فيه أنها ماتت وكل أهلها بعيدون عنها فنعتها بالغريبة بالرغم من أنها لم تفارق ديارها إلا أنها غريبة ماتت وحيدة دون أحد من أقاربها أو أخواتها ، فيستعين بالدموع لكي تذرف عليه ما يطفئ النار المشتعلة بين جوانحه والتي تشتعل دائماً كلما تذكر هذه الفتاة الوحيدة .

وبقليل من الجهد في تتبع شعر الرثاء عند الشاعر عمارة اليمني نستطيع أن نقرر مطمئنين بأنه لا يوجد شاعر من شعراء بني رزيك استطاع أن يعبر عن مشاعره الحزينة تجاه فقد الدولة الفاطمية لمجدها وعزها ووفاة عدد من الخلفاء الذين عاصرهم مثل عمارة اليمني، بل والأهم من هذا كله هو رثاء الشاعر للملك الصالح طلائع ومعه يرثي بني رزيك بل يرثي الدولة الفاطمية كلها ، لذلك لنا أن نقول بأن عمارة كان شاعراً مخلصاً الإخلاص كله لهذه الدولة الفاطمية ولوزيرها طلائع فرثاها بقصائد صادقة معبرة عن عاطفة قوية مليئة بالحزن والأسى، والنماذج الدالة على ذلك كثيرة متعددة يسهل الوقوف عليها ، فمنها رثاؤه لأهل البيت في عاشوراء [2] ومنها رثاؤه للدولة الفاطمية وتذكر ما كان لها من مجد وعزة مظهراً حبه ووفاءه وإخلاصه لهم [3] ، ومنها رثاؤه لقصور الدولة الفاطمية وساكنيها وأهل هذه القصور [4] ،

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٣٤٤
٢ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٩٦٥
٣ – المصدر نفسه – المجلد الأول ص ٢٧٣
٤ – المصدر نفسه – المجلد الثاني – ص ٨٥٩ ، ص ٨٦٠

، ومنها رثاؤه للملك الصالح طلائع، وهي قصائد من أجود ما قال في الرثاء ومنها قصيدته التي يقول فيها :

أَفِي أَهْلِ ذَا النَّادِي عَلِيمٌ أُسائله ؟ فَإنِّي لِمَا بِي ذَاهِبُ اللُّبِّ ذَاهِلُهْ
سَمِعْتَ حَدِيثاً أَحْسَد الصمَّ عنْدَهُ وَيذْهل وَاعِيه وَيَخْرسُ قَائِلُهْ
فَإِنِّي أَرَى فَوْقَ الوُجُوه كَآبَةً تَدلُّ عَلَى أَنَّ الوُجُوهَ ثَوَاكِلُهُ
وَمَنْ سَدَّ بَابَ المُلْكِ وَالأمر خَارِجٌ إِلَى سَائر الأَقْطَارِ منْهُ ودَاخِلُهْ ؟
ومنْ عَوَّق الغَازِي المُجَاهِدَ بَعدَ مَا أَعدَّتْ لِغَزْوِ والمُشْرِكِينَ جَحَافِلُهْ؟
وَمنْ أَكْرَه الرَّمْحَ الرُدينِيّ فَالْتَوَى وَأَرْهَقَهُ حَتَّى تَحَطَّمَ عَامِلُهْ؟
وَمَنْ سَلَبَ الإِسْلاَم حِلْيَةَ جِيدِهِ إِلَى أَنْ تَشَكَّى وَحْشَةً لِطوقْ عَاطِلُه؟[1]

وهي قصيدة طويلة في بابها ، معبرة شديدة التعبير عن حزن وأسي ولوعة لفقد ذلك البطل المغوار وذلك الأسد الجسور، وذلك الكريم الجواد موضحاً مدى فقد الإسلام والمسلمين وشدة مصابهم بفقد هذا الشخص الذي لا مثيل له .

ولعمارة مواضع أخرى كثيرة يستمر فيها على هذا النحو من الصدق في الرثاء والوفاء لطلائع ولدولة الفاطميين، رغم أنه كان سنى المذهب إلا أن الشاعر كان صادقاً في أحاسيسه ومشاعره ، وكان وفياً الوفاء كله، وكان في أكثر من موضع من مواضع شعره يداعبه أمل أن تعود الدولة الفاطمية ويعود معها الأمل والأماني والأحلام التي كان يعيشها في كنف هؤلاء الفاطميين الذين أكرموه وأحبوه وأغدقوا عليه المال والعطايا والخير ، فقابل ذلك كله بالوفاء والإخلاص لهم صادقاً أميناً في عواطفه ومما يمثل ذلك قوله :

لَمَا رَأَيْتَ عراص القَصْرِ خَالِيَةً عَنْ الأَنِيسِ وَمَا فِي الرَّبْعِ سَادَاتُ
أَيقَنت أَنَّهُمْ عَنْ رَبْعِهِمْ رَحَلُوا وَخَلَّفُونِي وَفِي قَلْبِي حَزَازَاتُ
سَاءلْتُ أَبْلَهُ قَلْبِي فِي السَلْوِ وَقَدْ يُقَالُ لِلبْلْهِ فِي الدُّنْيَا إِصَابَاتُ
فَقَالَ رَأَى ضَعِيفَ لا يُطَاوِعُنِي : كَيْفَ السَلْوَ وأَهْلَ الفَضْلِ قَدْ مَاتُوا؟!
يارَبْ إنْ كَانَ لِي فِي قُرْبِهِم طَمَعُ عَجِّلْ بِذَاكَ فَلِلتَسْوِيفِ آفَاتُ [2]

فإذا ما انتقلنا إلى الرثاء في شعر طلائع بن رزيك لوجدنا أننا أمام شاعر (بكاء) أو كما أسماه الدكتور محمد عبد الحميد سالم في دراسته عن

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٤٠ وما بعدها
٢ – المصدر نفسه – المجلد الأول – ص ٢٧٣

طلائع وشعره بأنه (شاعر كربلاء) ونحن نتفق تماماً مع ما ذهب إليه الدكتور محمد عبد الحميد سالم ، فطلائع الشاعر الشيعي يكثر شعره في الرثاء – ويحتل المرتبة الثانية في ديوانه بعد شعر المديح – ونقول إن المتصفح لديوان طلائع يكتشف أن شعر الرثاء في ديوانه يقف كله على بكاء آل البيت وعلى وجه التحديد ما حدث للحسين وآل البيت يوم كربلاء في يوم (الطف) وهو يقرر لنا بشعره أن أي مصيبة بعد مصابه في هذا اليوم،. هي مصيبة ليست ذات بال أو أثر فهي تهون بجوار تلك المصيبة الأعظم، انظره يقول :

فَإنْ أنَا لَمْ أحْزَنْ عَلَى أثْر ذَاهِبْ ... فَإنّي عَلَى آلِ الرَّسُولِ حَزِينْ
ألاَ كُل رَزْءٍ بَعْدَ يَوْمِ بِكَرْبِلاَ ... وَبَعْدِ مُصَابِ ابْنِ النَّبِي يَهُونْ (١)

فهو يقرر في بيته الثاني أن كل مصاب بعد مصابه في آل البيت يهون، وعليه فالشاعر في شعر الرثاء كله يندب آل البيت ويبكي قراتهم ويتحسر على ماحدث لهم ، واصفاً مشاعره وإحساسه الحزين البالي المحترق أسفاً وحزناً وغماً، ولتسمعه يقول :

فَوَا حُزْنِى لَوْ أنّني فِي زمَامِهِمْ ... وَوَاحَرِ أحْشَائِي وَوَا حَسْرَتَي
لأَطْعَن فِيهِم بالأَسِنَّةِ كُلَّمَا ... مَضَتْ حَمْلَةٌ جَاءَتْ بِمُؤْتَنفَات
أقْضَى زَمَانِي زَفْرَةً بَعْدَ زَفْرَةَ ... فَقَلْبِي لاَ يَخْلُو مِنَ الزَّفَرَاتِ
وَصَدْرِي فِيهِ حُرْقَةٌ بَعْدَ حُرْقَةَ ... فَلَيسَ بِمُنفكَ عَنْ الحَرقَاتِ
فَإنْ أقُلْ النّصَابَ يَوْماً عَقَارَهُمْ ... فَإنْ إقَالاَتِي مِنَ الْعَثَرَاتِ
لأنَّهُمْ هَدُوا اعْتِدَاءَ بِفِعْلِهِمْ ... وَظُلْماً مِنَارَ الصَّوْمِ وَالصَّلَوَاتِ (٢)

ففي هذه الأبيات نرى مدى حزن طلائع ، وما يحزنه أنه كان يتمنى أنه لو كان قد ولد في زمانهم، ليروى غليله من أعدائهم ويشفى غيظه بالطعن في صدور هؤلاء الطغاه المتكبرين، ومن أجل ذلك فهو قد أصبح أتونا يحترق . يقضى عمره زفرة إثر زفرة ، وحرقة بعد حرقة، لا نصير ولا ملجأ ولا غوث، وكيف تقال عثراته أو تنتهي حسراته وهو يعلم أن هؤلاء الظالمين قد قضوا على أركان الإسلام وهدموا أعمدة الدين .

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادي الأميني– ص ١٦٠
٢ – المصدرنفسه – ص ٧٦

ويستمر طلائع على هذا النحو من الحزن والبكاءوالندب مصوراً في أكثر من قصيدة ما حدث بكربلاء للحسين وآل البيت من قتل، وسفك دماء ودك عظام وتحطيم صدور فلم يوقر الأمويون كبيراً ولم يرحموا صغيرا بل ساقوهم جميعاً إلى الموت وهم ظامئون يتمنون شربة ماء فيمنعوا منها ؛ فيقول طلائع:

يا حَرَّ قلبي على قتل الحسين ويا لَهفَي وَيَاطُولَ تَعْدَادِي وياَ حُزْنِي
لهفى على الأنجم الزُّهر التي أفلت وأبْعَدتْهَا بَنُو حَرْب عَنْ الوَطَنِ
سبوا حريم رسول الله بل طعنوا فِيهِ بِهِمْ بِأنَابِيبَ القَنَاَ لِلُدُنِ
لَهفِى عَلَى عَصَب بِالطَف ظاَمِيَةِ نَالتْ مِنْ القَتْلِ فِيهِمْ أعْظَمَ المِحَنِ
وَآل حَرْب لَهُمْ صَفْو الفُرَاتَ ولَمْ يُسْمَحْ لَهمْ بِشَرابِ الآجِنْ الأَسَنِ (١)

يقول طلائع إن الأمويين قد جزوا رأس الحسين ومن آمن معه ، فرفعوها على الأرماح كالأعلام، ألم ترهم قد سبوا نساء النبي ، وساروا بهن عرايا في موكب مهيب ؟! ترى إلى أي جهة يسير هذا الموكب ؟ انظر هاهم أولاً يدخلون على "يزيد بن معاوية " دخول الظافرين! ثم لم لا تشاركوه من أشجانه ، وهو يدري أن هؤلاء الشهداء السراة ، قد قضوا نحبهم ظامئين وقد أعوزهم الماء فصدوا . لقد أصبح الشاعر يتمنى الموت؛ فهو عنده أشهى إليه من الحياة ، فما أشهى الموت إلى نفسه حينما يتذكر مصرعهم ، فنراه يقول :

أَشْهى إلىَ مَنْ المُحَيىَ، المَمَاتَ إذاَ نَكَرْتَ مَصْرَعَهُمْ ، واعْتَارَنى حُزْنِي
لمَا تَذَكَرت إذْ سَالَتْ دِمَاؤُهُمْ عَلَى النُّحُور مَضىَ صَبْرِي وَوَدَّعنِي
أَظْللتْ صَبْرِى فَهَلْ يَاقَوْم يُنْشِدُهُ لِى نَاشِدٌ ، وَلَهُ يَاقَوْم يِنْشِدُنِى
يأُمَّةَ عَدِمَتْ أخلاقهاَ سَفَهاَ فَالغَدْر كاَنَ بِهاَ يَجْرِي مَعَ اللَّبَنْ
غَرِقْتم فِي بِحاَرِ الغَّى يَقْذفكَمْ إلىَ الْجَحِيم وَخَيبْتَمْ عَنْ السُفُنْ
غَوصتُمونى عَنْ آل الرَسُول أَسىَ فَصرتُ فيهم حَلِيفَ الوَجد وَالْحُزن

١ - ديوان طلائع رزيك – تحقيق محمد هادي الأميني – ص ١٤٧

فَالوَجْدِ مِنِّـــى لاَ يَفْنَـــى تَــضَرُّمه   عَلَيهِم أبداً والـــدَّمْع لَـــمْ يَخُـــنْ (١)

يطالعنا طلائع في هذه الأبيات وقد نفذ صبره فهو لم يستطع أن يبقى في هذه الحياة كلما تذكر مصرع هذه النفوس الطاهرة على يد الأعداء الظـــالمين بنى أمية هؤلاء السفهاء الذين عدموا الأخلاق وفطروا على الخيانة فقد ضلوا عن سفن النجاة فالتهمتهم الأمواج في بحور الغى والضلال لتقذف بهـــم إلـــى جهنم وبئس السعير ، وهذا أقل ما يستحقونه فهم سبب حسرته وألمه فجعلـــوه يغوص في الأسى حتى أصبح قرين الأحزان حليف الأشجان لا تجف عيونـــه ولا ترقأ دموعه .

---

١ - المصدر نفسه – ص ١٤٧ - ص ١٤٨

المراسلات الشعرية

ظهر في ذلك العصر فن جديد من فنون الشعر نستطيع أن نسميه بفن المراسلات الشعرية، هذا الفن يتمثل في أن يرسل الشاعر إلى صديق له بقصيدة هي أشبه بالرسالة، فيجيبه هذا الصديق الشاعر بقصيدة أخرى ملتزماً حرف الروى نفسه وكذلك الوزن العروضى للقصيدة الأولى .

وهو فن يذكرنا بفن النقائض الذى ظهر وعرف وانتشر في عصر بنى أمية إلا أنه يختلف اختلافاً كبيراً عن فن النقائض إذ إننا أمام فن يتسم بالصدق والوفاء والعلاقة الطيبة الحميمة بين المتراسلين وفي بلاط بنى رزيك ، وجدنا هذا الفن واضحاً جلياً بين شاعرين كبيرين هما:

طلائع بن رزيك وأسامة بن منقذ ، فدارت بينهما عدد من المراسلات الشعرية التي تكشف بوضوح عن مشاعر صادقة وحب كبير جمع هذين الصديقين، واستخدما في التعبير عن هذه المشاعر وهذا الحب الشعر، فكان الشعر هو الرسول الذي يصل بين قلبيهما .

ونستطيع أن نقف على عدد من السمات التي اتسم بها هذا الفن الشعري ونقصد به فن المراسلات الشعرية فالمتصفح المدقق لمراسلات طلائع وأسامة يستطيع أن يقف على جملة من الظواهر التي منها :

- تعدد أغراض القصيدة (الرسالة) فجاءت القصائد طويلة وهذا الطول يعود في المقام الأول إلى تعدد أغراض النص أو القصيدة .
- نجد في هذه القصائد (الرسائل) التعبير عن مشاعر الحب والود وإظهار الشوق والحنين لرؤية الآخر .
- التعبير عن الحزن الشديد خاصة في رسائل أسامة لطلائع والتي بثَّ فيها أسامة حزنه وألمه لفراقه صديقه طلائع ولفراقه مصر تلك الأرض الطيبة التي احتضنته هو وآل بيته واكرمته أيَّما إكرام .
- التعبير عن الفخر وجاء هذا التعبير كثيراً في رسائل طلائع إلى أسامة، وكان فخراً فردياً بالشجاعة والإقدام والبأس والذكاء والحزم وسداد الرأي .

يستهل أسامة قصيدته بمقدمة غزلية رقيقة يشكو فيها بُعد من أحب ، موضحاً أن هؤلاء الأحبة إن كانوا قريبين منه أو كانوا بعيدين فهم لا يفارقون قلبه، وهم أيضا إن ظلموه ببعده عنه أو أنصفوه بقربهم منه فهم سيظلون دائماً مُنية النفس ورجائها في الحياة ، ثم يلفتنا أسامة إلى أنه قد عصى اللائمين الذين لاموه في حبه لمن يحب ومع أنه لم ينصت إلى من يلومه إلا أن هؤلاء الأحبة قد أطاعوا هؤلاء اللائمين ، وهذا ليس عدلاً موضحاً أن حبه الشديد سيظل باقياً أبداً ، ثم يقول ولو علم هؤلاء اللائمون مقدار ما يناله منهم لما حسدوه أو تمنوا ما هو فيه، لأنه لا يلاقي في حبهم إلا الصدود والهجر فالقرب منهم مثل البعد .

ويستمر أسامة على هذا النحو في تلك المقدمة الغزلية التي تمتد في رسالته هذه التي بعث بها إلي صديقه طلائع ، فتأخذ عدداً كبيراً من الأبيات تصل إلى خمسة وثلاثين بيتاً ، والتي نقول عنها تجاوزاً بأنها مقدمة ، وهي تصل إلى أن تكون قصيدة مستقلة بذاتها غرضها الغزل .

إلا أننا بعد هذه الأبيات الغزلية التي يشكو فيها أسامة من فراق الأحبة وبعدهم عنه واصفاً لنا رحيله عن مصر تلك البلد التي أكرمته ووجد فيها الأمن والأمان واستأنس فيها بالأصدقاء والأحباب، ينتقل أسامة إلى غرض آخر من أغراض الشعر في رسالته هذه التي بعث بها إلى طلائع، فنراه يمدح صديقه مثلما رأينا وتناولنا في حديثنا عن غرض المديح ، فيقول :

وَمَنْ عَلِقَتْ بِالصَّالِحِ المَلِكْ كَفُّهُ ... فَلَيْسَ لهُ دُونَ العُلاَ والغِنَى شَرْطُ
أَنَارتْ جُدودي مُذ عَلِقَتْ بِحَبْلِهِ ... وكَانَ لَهاَ في خَطْبِ عَشْوَائِها خَبطُ
نَأَتْ بِي اللَّيَالِي عَنْهُ، لَكِنَّ جُودَهُ ... أَتانِي ، ولَمْ يَحْجِزْه نَأْيٌ ولاَ شَطُّ
كَذاَ الغَيْثُ يَسْرِي طَالِباً كُلَّ طَالِبٍ ... فَكُلٌّ لَهُ مِنْ فَيْضِ وابِله قِسْطُ (١)

هكذا ينتقل أسامة في رسالته إلى غرضه الأصيل منها ألا وهو مدح صديقه طلائع وهو مدح خالص ليس من ورائه غاية إلا الحفاظ على تلك المشاعر الصادقة التي تجمع بينهما ، فيمدحه أسامة بأنه رجل ماجد يتسامى إلى العلا والغنى والمجد الأصيل فلا يفصله ولا يقف دونه أى حائل أو مانع لافتاً إلى أنه منذ أن اتصل بصديقه طلائع وعلقت حبله به وأصبح جده سعيداً منيراً فقد كان قبل اتصاله بطلائع مظلماً متخبطاً .

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٢٤

وصديقه طلائع رجل كريم لا يقف دون كرمه شئ ، فبالرغم من أن الليالي قد أبعدته عنه وأن نوائب الدهر قد دفعته إلى الرحيل والبعد عنه فهو في كرمه مثل الغيث الذي يحمل الخير كل الخير ، وهذا الغيث يطلب طالبه ويبحث عن سائله فيعطيه من فيضه نصيبه من الخير .

ويستمر أسامة في أبياته التي بعث بها إلى صديقه طلائع بن رزيك منتقلاً إلى مدح آخر بمعانٍ جديدة تناول فيها مديح طلائع بالقوة والشجاعة، فنراه يقول :

وَمـاَ النَّـاسُ إلاَّ آلُ رُزّيـكَ ، إنّهـمُ ... هُم الذَّادةُ الشُّبَّانُ ، والسَّادةُ الشُمطُ
بَنوُ الحَرْبِ فِي يَوْمِ الـوَغيَ ، وبَنـو النّـدىَ ... إذاَ ماَ بِلادُ النَّاس جَرَّدهـا القَحْـطُ
إذاَ مـاَ احْتَبَـوا فَالرَّاسِـياَتُ رَجاَحـةً ... وإنْ ركَبوا فالأسدُ هِيجتْ ، لَهاَ نَحْـطُ
لَهُمْ جَبَلٌ، لاَ زَعْزَعَ الخَطْبُ رُكْنَـهُ ... بِـهِ تَؤْمَنُ الأحْداَثُ والمَيْتَةُ العَبْطُ [1]

يمدح أسامة صديقه طلائع بأن آل رزيك هم الناس جميعاً ، فهم السادة وهم الذادة لا يستطيع أحدٌ أن يملى عليهم أمراً وهم سواءً في شبابهم وشيبهم، فهم في الحرب بنوها وفي السلم هم أصحاب الجود والكرم والعطاء وخاصة إذا ما أصاب الناس شدة أو قحط ، فهم أصحاب عقل ورجاحة وسداد رأى ، وهم مثل الأسد إذا ما ركبوا للحرب .

وعلى هذا النحو تأتي رسالة أسامة إلى طلائع تحمل قدراً كبيراً من الصدق وتظهر عاطفة وودا وحبا عميقاً أظهره أسامة في أبياته الغزلية التي أراد بها أسامة صديقه طلائع ، كما أظهره أسامة في مديحه لصديقه طلائع .

ويجيبه طلائع برسالة (قصيدة) ملتزماً حرف الروي (الطاء) وملتزماً البحر العروضي (الطويل)، وَيبدؤها بمقدمة غزلية ملتزماً أيضاً البناء الفني لقصيدة أسامة والتي بدأها أسامة بمقدمة غزلية ، فيقول طلائعَ مجيباً على أسامة:

هِيَ البَدْرُ، لكنَّ الثُّرياَ لَهـاَ قُـرطُ ... ومِنْ أنْجُمِ الجَوْزَاءِ في نَحْرِهاَ سِمطُ
مَـشتْ وعَلَيْهـا للغَمـامِ ظِلاَلَـلٌ ... تَظِل ، ومِنْ نسْجَ الرَبيعِ لَهاَ بُـسطُ
تَؤمُّ صَرِيعاً فـي الرِّحَـالِ كأنَّـهُ ... مِنَ السُقْمِ، والأَيْـدى تُقَلِّبُـهُ خَـطُّ
فَماَ اخْضَرَّ ثوْب الأرْضِ إلاَّ لأنَّهـا ... عَلَيه، إذْ زَارَت ، بأَقْـدَامِهاَ تَخطُـوُ
وَلاَ طَاَب نَشْرُ الرَّوضِ إلاَّ لأنَّـهُ ... يُجَـرُّ عَلَيهِ مِنْ جَلاَبِيبِهاَ مِرْطُ [2]

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٥.

٢ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق . أحمد بدوي – ص ٦٤ ، ص ٦٥

فيبدأ طلائع أبياته بوصف بديع لفتاة حسناء جعلها تحاكى البدر وتماثله، بل وتفوقت على البدر بأنه جعل لها الثريا وهي كوكب تـزين أذن المحبوبـة فجعلها مثل القرط في أذنها ، وجعل الجوزاء ونجومه مثل العقد الذى يـزين عنقها ، ويبرز طلائع جمال محبوبته التي يتغزل فيها وذلك عن طريق تقديمه لعدد من الصور المتتابعة والتي تصب كلها في بوتقة واحدة كي تكون صورة مثالية ملائكية لهذه المحبوبة المتغزل فيها في هذه الأبيات .

ويستمد طلائع صوره من الطبيعة المحيطة به ، فجعل للمحبوبة ظلائل من الغمام كي تحفظها وتقيها ، وجعل لها من الربيع بسط تسير عليها وتضع أقدامها فيها، ويبين لنا طلائع أثر حبها في قلبه وأثر رحيلها عنه ، فهو سـقيم نحيل يعاني من أثرعشقه وحبه وكأنه فرع غصن يابس تقلبه الأيدي وهـو لا حول له ولا قوة ، ومحبوبته بجمالها المثالي الرائع تضفى على كل الطبيعـة جزءاً من جمالها ، فما اخضرار تراب الأرض إلا لأنها وطأته بأقدامها ، وما طيب رائحة الرياض إلا لأنها جرَّت عليه ثيابها .

ويستمر طلائع على هذا النحو من رسم صورة مثالية قدسية لمحبوبته ، وكأنه يضع أمامنا مقاييس مثالية للفتاة العربية الجميلة مـن بيـاض الوجـه والجسم، وسواد الشعر ، واحمرار الخد، وطيب الرائحة الذي يشبه المـسك ، فهي وجمال يوسف – عليه السلام – صنوان .

ثم يلتفت طلائع بعد هذه المقدمة الغزليـة – إلـى صـديقه أسـامة ، مستحضراً إياه بقوله :

أَأَحْبابَنا بالـشَّامِ ، عِفْـتُم جِوارَنـا ... فَجاوَرَكُمْ في أَرْضِها الخَوفُ والقَحْطُ
وَمَا كانَ بَعْدَ النِّيْـلِ ، والنِّيـلُ زاخِـرٌ ... بِمِصْرَ لِيُغْنِـي عَـنْكُمْ ذَلِـكَ الخُـطُ
وَقَدْ عِشْتُم فِيهاَ زَمَانَاً، فَمـا اعْتَـرى ... رِضَاكُمْ بِهَا ، لَولاَ تَخوُّفُكُمْ، سُـخْطُ
وكُنْتُم لَنَا دُونَ الأَقَــارِبِ أُسـرَةً ... ونَحْنُ لَكُمْ مِنْ دُونِ رَهْطِكُمُ رَهْطُ (١)

يستحضر طلائع صديقه أسامة بأسلوب النداء وجعل أداة النـداء هنـا (الهمزة) وهو حرف نداء للقريب، وكأن طلائع يريد أن يوضح لصديقه أنـه مازال بالقرب منه رغم الرحيل والنأى ، ويعبر طلائع لأسامة عن مدى شوقه وحنينه إليه مذكراً إياه بأيامه التي قضاها بجواره في مصر، وكان النيل زاخراً بالخيرات يمنع عن أسامة وآل بيته أى أذى أو شدة أو معاناة ، وهـذه الأيام

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٦٧

كانت أيام أمنٍ وأمانٍ وخير، وكان فيها أسامة وآل بيته قريبين من طلائع مكونين رهطاً واحداً وجماعة لا يفرقها أحد .

وطلائع في هذه الأبيات يحاول أن يستعطف أسامة متمنياً عودته إلى مصر ثانيةً ، ملمحاً إلى معاناة أسامة وأسرته في بلاد الشام ، وما واجهه من شظف العيش وقسوته .

ثم ينتقل طلائع إلى غرض جديد في رسالته هذه ، فيقول مفتخراً بنفسه وبشمائله وخصاله الطيبة ، يقول :

وإنَّا أُناسٌ ، ليس يَبْرَحُ جارُنَا ... يُحكِّمُ في الأموالِ منَّا ، فَيشْتَطُ
ويمتاحُنَا زُوَّارُنَا ، فَكَأنَّما ... غدا لَهُم شرطٌ علينَا ، ولا شَرطُ
ويُصبحِ بَسْطُ الكفِّ بالمالِ عندنَا ... وكلُّ مليكٍ عندهُ القبضُ والبَسطُ
ونَخرِقُ شرْقَ الأرْضِ والغَرْبَ خيلُنا ... عليها الشَّبابُ المُرْدُ ، والجلَّةُ الشُمطُ
وظَلْماءَ للشُهبِ الدَّرارِي إذا سَرَتْ ... هُنَاكَ مَعَ السَّارين في جُنحِها خَبطٌ (١)

يفخر طلائع في هذه الأبيات بنفسه وبكرمه الفياض وبسخائه المطلق الذى اشتهر به دون ملوك العالمين، ثم يزهو بقوة جنوده وصلابتهم وجودة أسلحتهم مبرهناً على ذلك من خلال إلقائه الضوء على إحدى معاركه التي خاض غمارها ضد الصليبيين محققاً فيها النصر مصوراً لنا كل العناصر التي شاركت في هذه المعركة من خيول سريعة الحركة قد حملت على صهواتها الأجلاء من الأبطال واصفاً كتائبه وأسلحته مشيداً بسيوفه التي لمعت في ظلمات المعركة فكان لها دور عظيم في قتال العدو وهذا ينم على شجاعتها وأنها حازمة لا ترحم هذا العدو المغتصب فيقول :

كَماَ أوّلُ الفَجْرينِ سقَطٌ بُسَلِّ مـنِ ... حَشَاهَا ، كَذلكَ البَرْقُ في جَوِّهاَ سَقَطُ
سَلَلْناَ بهاَ بيضَ السُيوُفَ ، فَلاحَ في ... شَبَابِ الدُجى لَمَّا بداَ لَمعُهَا وخَطُ
سُيوُفٌ لَهاَ في كلِّ درْعٍ وجُنَّةٍ ... إذاَ ماَ اعتَلَتْ قَدٌّ أو اعتَرَضَتْ قَطُّ
نَخَرْناَ سُطاَهاَ للفِرنْجِ ، لأنَّهاَ ... بِهِمْ دُونَ أهْلِ الأَرْضِ أجْدَرُ أنْ تسطُو
لَهمْ قِسطُهُمْ في الحَرْبِ منْهاَ ، ومالَهاَ ... عَلَيهِمْ لَدىَ الهَيْجاءِ عَدلٌ ولاَ قَسطُ (٢)

وعلى هذا النحو تدور معاني الفخر في أبياتِ طلائع موضحاً أنه بعد انتصاره على أعدائه يطلب العدو الصلح، وقد استسلم معترفاً بقوة جيش

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك - ص ٦٧
٢ - المصدر نفسه - ص ٦٨

المصريين وشجاعتهم ولكن طلائع رفض إقرار هذا الصلح حينما علم بصدق نية نور الدين محمود وإقباله على القتال حينما جاءته رسله من الشام طالبين تجهيز الجيش المصري ومشاركته للجيش المسلم في الشام، فرفض بعدها طلائع قبول الصلح مع الصليبيين وفضل الحرب عن المسالمة مستمراً في تقديم صورة عن انتصاره على هؤلاء الفرنجة في قدرة بديعة اعتمد فيها على التشخيص، فيقول :

سُطُورُ خُيُولٍ لاَ تَغِيبُ دِيَارَهُمْ ... لَهَا بالمَوَاضِي وَالقَنَا الشَّكْلَ والنَّقْطُ
وَحَرْبٌ لَهَا الأَرْوَاحُ زَاهِقَةٌ لِمَا ... تُعَايِنُ، والأَصْوَاتُ مِنْ دَهَشٍ لَغْطُ
إِذَا أَرْسَلَتْ فَرْعاً مِنَ النَّقْعِ فَاحِماً ... أَثِيثاً فَأَسْنَانُ الرِّمَاحِ لَهَا مُشْطُ
كَأَنَّ القَنَا فِيهَا أَنَامِلُ حَاسِبٍ ... أَجَدَّ بِهَا فِي السُّرْعَةِ الجَمْعَ واللَّقْطُ
رَدَدْنَا بِهَا ابن الفُنْش عنَّا ، وإنَّما ... يُثَبِّتُه فِي سَرْجِهِ الشَّدُّ والرَّبْطُ [١]

ففي هذه الأبيات يصف لنا طلائع انتصاره على الفرنجة معبراً عن سعادته بهذا النصر، فيرسم لنا صورة جميلة لتلك المعركة التى يرفع فيها جنوده السيوف والرماح لتكون هي بمثابة الشكل والنقط فوق حروف معاهدة الصلح التي طلبها العدو والتي كانوا ينتظرونها فهذا هو جوابه على طلبهم، وكانت هذه الحرب حرب حاصدة لأرواح الأعداء، حرب تحمل معاناة شديدة للعدو وتحمل دهشة كبيرة لانتصار جنوده على أعدائه، مشبهاً النقع الأثيث الكثيف الذي تثيره الخيول في كرها وفرها وكأنه فتاة ذات شعر أسود شديد السواد ، وأسنان الرماح التى تهبط على الأعداء مثل المشط الذي يصفف شعر هذه الفتاة – وحقاً إنها صورة بديعة جميلة – ثم يستكمل طلائع رسم هذه الصورة في قدرة بديعة على رسمها وكأنها صورة حية نابضة بالحياة يستطيع القارئ أن يراها رؤيا العين عن طريق خياله موضحاً سرعة جنوده في توجيه الطعن، وكأن هؤلاء الجنود على درجة عالية من الذكاء في الجمع واللقط والحساب .

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٦٩

وبعد هذه الأبيات يفخر طلائع بقوته وبقوة جيشه وإقدامه وسداد رأيه. فيوجه الحديث إلى صديقه أسامة طالباً منه أن يكون رسولاً بيْنَه وبين نور الدين محمود فيقول :

فَقُولُوا لنُورِ الدِّين: ليس لجائف الجرا — حاتَ إلاَّ الكيُّ في الطِّبِّ والبطْ
وحَسْمُ أصُولِ الدَّاء أولى لعاقلٍ — لبيب . إذَا استَولَى علَى المُدْنَف الخَلْطْ .
فَدَعْ عنْكَ مَيْلاً للفرنْج وهُدْنَةً — بهاَ أبداً يخطى سواهُمْ ، ولَمْ يُخطُوا .
تأمّلْ ، فكَمْ شرْطٍ شرَطْتَ علَيهِمْ — قَديماً ، وكَمْ غدْرٍ بهِ نُقِضَ الشَّرْطْ
وشمِّرْ ، فإنَّا قد أعنَّا بكُلِّ مَا — سألْتَ، وجهَّزْنا الجُيُوشَ، ولنْ يُبْطُو
ودُونكَ مَجْدَ الدّين عَذْرَاءَ زَفَّهَا — إلَيكَ الوَفَاءُ المحْضُ ، والكرمُ السَّبْطُ
هَدِيًّا تَهادَى بَيْنَ حُسْنٍ وفَاتِنَا — وإنْعَامِنَا ، ذَا التَّاجُ زَانَ ، وذَا القُرْطُ
عَلَى أنَّها تَشْتَطُّ إنْ هِيَ ساجلَتْ: — (أجِيرَةَ قَلْبِي، إنْ تَدانَوا، وإنْ شَطُّوا)[1]

يكلف طلائع أسامة في هذه الأبيات تكليفاً غير رسمي أن يكون وسيطاً أو رسولاً بينه وبين نور الدين ، موضحاً له أنه لن يداوي الجراح ويشفي الداء إلا حسم هذا الداء فجراحات الإنسان العميقة لا يصلحها أو يداويها إلا الكي أي استئصاله وقتله في مكمنه موضحاً لنور الدين أن الحسم في هذه الأمور أولى للعاقل اللبيب الذي يختلط عليه الأمر حيناً، محذراً في الوقت ذاته نور الدين أن يميل إلى الفرنج أو أن يقيم معهم هدنة أو صلحاً فهم ليسوا أصحاب عهود وليسوا صادقين في وعودهم ، فهم قوم يتسمون بالغدر ونقض العهود وله في التاريخ عبرة وعظة، ثم يحثه ويدفعه ويغريه أن يهب ويشمّر وأن يتكاتف معه ويجهز الجيش مثلما فعل طلائع، ويقفا سوياً في وجه ذلك العدو المتربص ، فبهذا الاتحاد فقط سيكون المجد .

وهي نصيحة يقدمها طلائع وهو شخص صادق مخلص وفيٌّ، وليس وراء مطلبه هذا أي غرض إلا رفعة الدين وانتصار المسلمين .

وهكذا جاءت رسالة طلائع أو جوابه على رسالة صديقة أسامة ، وهي تحمل الصفات التي تحدثنا عنها سابقاً من تعدد الأغراض وصدق العاطفة وغيرها مما ذكرناه آنفاً.

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٦٩ ، ص ٧٠

وهكذا جاءت رسالة طلائع أو جوابه على رسالة صديقة أسامة ، وهي تحمل الصفات التي تحدثنا عنها سابقاً من تعدد الأغراض وصدق العاطفة وغيرها مما ذكرناه آنفاً.

ومن النماذج الدالة دلالة حقيقية على صدق ما ذهبنا إليه من تحول القصيدة الشعرية في فن المراسلات الشعرية بين طلائع وأسامة ، إلى رسالة بكل ما تحمل الكلمة من دلالة . هذا النموذج الذى بدأه طلائع وبعث به إلى صديقه أسامة بن منقذ وفيه يقول :

قُـلْ لابْـنِ مُنْقِـذِ الَّـذى ... قَـدْ حَـازَ فـي الفَضْلِ الكَمـالاَ
فلِـذاكَ قَـدْ أضْـحَى الأنـا ... مُ عَلَـى فَـضائِله عيـالاَ
وَقَرِيـضه عنْـدَ الظَّمـا ... يُنْـسيُهم المَـاءَ الـزُّلالاَ
كَالـدُرِّ والْيَاقُـوت ، ما ... سكَـن البِحـارَ ، ولاَ الجِبالاَ [1]

يبدأ طلائع حديثه في القصيدة (الرسالة) مباشرة إلى صديقه أسامة بدون تمهيد أو مقدمة غزلية أو طللية يقصدها ، مادحاً أسامة بأرق الألفاظ وأعذبها مثنياً على أخلاقه الحميدة وأفعاله المجيدة ، فهو يرى أنه قد حاز الشرف بل جاوز كل الكمال حتى أصبح غيره كالاً عليه ، وأمسى الأنام عيالاً على هذه الأفضال ، ومشيداً بقدرته وموهبته على نظم الشعر كما يرى أنه من جمال شعر أسامة وروعته يعد رواء للظمأ ويجعل للحياة بهجة وبهاء ، فهو شئ نادر نفيس كالدر والياقوت لا مثيل له ولا تجد له نظيراً سواء في البحر أو في الجبل .

وهكذا نجد طلائع شديد الإعجاب بشعر أسامة كما أنه ينتظر قصائده (رسائله) التي يبعث بها إليه في لهفة وشوق مقدراً ما تحمله من معانٍ وأفكار لذلك إذا تأخر أسامة عليه في الرد يعاتبه فيقول:

مـا كَـانَ ظَنِّـيَ أنْ يُحـ ... ـرِمَ منْـهُ لـي السحْرَ الحَـلالاَ
كَـلاً ، ولاَ يَـشْكُو لحَمْـ ... لِ رَسَـائِل منِّـى كَـلالاَ
كَـمْ قَـدْ بَعَثْنـاَ نَحْـوكَ الأشْعَـ ... ـارَ مُـسْرِعَةً عِجـاَلاَ
وَصَـدَدْتَ عَنْهـاَ ، حـينَ رَا ... مَـتْ مـنْ مَحَاسنكَ الوصـاَلاَ

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٨٣

مَـــاَ كَـــاَنَ مُرسِـــلُهاَ ، وَحقِّـــــــك ، يَـــسْتَحِقُّ بِهـــاَ المَـــلاَلاَ
مَـــــعَ أَنَنّا نُـــــولِيكَ صَبْــــــراً فِــــي المَوَدَّةِ واحْتِمَالاَ [1]

فطلائع يعاتب أسامة بكل الحب والود والصدق ، فهو صديقه المقــرب الذي يعتب عليه تأخر رسائله (قصائده) التي تحمل الرد على رسائل (قصائد) طلائع ، فيقول له إنه بعث إليه كثيراً من الرسائل (القصائد) ولم يرد عليــه ، وهذا العتاب لا يكون إلا بين الأصدقاء الذين يجمع بينهم الود والصفاء . ثــم يلتفت طلائع إلى غرضه من هذا العتاب فيقول :

وَنَبِّئْــــــكَ الأَخْبَـــــارَ ، إِنْ أَضْــحَتْ قِـــصَاراً أَوْ طِـــوَالاَ
سَـــارَتْ سَـــرَايَانَا لِقَــصْـــــد الـــشامِ ، تَعْتَــسِفُ الرِّمَـــالاَ
تُزْجِـــى إِلَـــىَ الأَعْـــداَءِ جُـــرْدَ الخَيْــــل أَتْباعَـــاً تَـــوالَى
تَمْـــضي خِفافَـــاً لِلْمُغَـــارِ بِهـــاَ ، وتَأْتِينــــاَ ثِقَــــالاَ
وَالبِـــيضَ لاَمِعَـــةً ، وَبِيـــــضَ الهِنْـدِ، والأَسَـلَ النِّهَـالاَ
هَـــذَاَ ، وَفِي تَلِّ العُجُـــــــــول ، مَـــلأْنَ بِالْقَتْلَـــى التِّلاَلاَ [2]

فهنا يبرر طلائع لأسامة سبب عتابه ، فهو كان يريد أن يبث إليه آخــر أخباره الحربية وفي هذا فخر لما حققه فيها من انتصارات وبطولات وليصف إليه إحدى معاركه التي خاضها ضد الفرنج في – تل العجول – وهـــي اســم الموقع في بلاد الشام ، ولصفا له بسالة جنوده الشجعان وخفة خيولـــه التـــي تمضي بسرعة ورشاقة وهي تحمل فوقها الفرسان في خفة ثم تعــود محملــة بالغنائم والمؤن محققة النصر والفوز على الأعداء ، كما يشيد بتنوع أسـلحته ومضائها في ميدان الحرب ويزهو بانتصاراته على الفرنج وقطــع دَابِــرَهُمْ وقائدهم .

وهكذا يستمر طلائع في فخره بنفسه وبقوة جيشه لانتصاره الدائم علـــى الفرنج سواءاً في البر أو في البحر ، حتى لقد سئم الفرنج لقاءه ليقينهم أنهــم سيخسرون المعركة، ثم ينتقل ويخبر أسامة عن أمنيته التي يتمنى أن تتحقــق في يوم ما فيقول :

فَلَـــو أَنَّ نُـــورَ الـــدِّينِ يَجْــــــعَلُ فِعْلَنَـــاَ فِـــيهِمْ مِثَـــالاَ
ويُـــسيِّرُ الأَجْنَـــادَ جَهْــــــــراً ، كَـــيْ يُنَـــازِلَهُمْ نِـــزَالاَ
وَيَفِـــي لَنَـــاَ ، وَلأَهْـــلِ دَوْلَتِـــهِ بِمَـــاَ قَـــدْ كَـــاَنَ قَـــالاَ
لَرَأَيْـــتَ لِلإِفْـــرِنْجِ طُـــــــرًّا فِـــي مَعَاقِلِهـــاَ اعْتِقَـــالاَ

---

١ – المصدر نفسه – ص ٨٣ ، ص ٨٤
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٨٤

لرَأيـــتَ للإفـــرنج طُـــــ	ـــــرًا فـــي مَعاقلهــاَ اعتقـــاَلا
وتَجَهـــزوا للـــسَيْر نحْـــ	ـــوَ الغَـرْبِ أو قَـصَدُوا الـشَماَلاَ
وإذَا أبَـــــى إلاَّ اطـــ	ـــراحاً للنــصيحَة واعتَـــزالا
عُـــدنَا بِتَـسلّيم الأمُـــو	رِ لِحُكْــم خَالقِنــا تَعالــى (١)

يتمنى طلائع أنْ يتحد جيش نور الدين في الشام مع جيشه المصري في الجهر معاً، ليقفا سويا في وجه أعداء الإسلام والمسلمين ، لكن مازالت هـذه الأمنية لم تتحقق بعد معبرا عنها باستخدامه حرف الشرط (لو) فهـو حـرف للتمني ، فبعث بهذه الأمنية لأسامة لأنه على يقين أنه يتفق معه في هذا الرأي طالبا منه أن يبلغ بها نور الدين محمود ويحاول إقناعه أن يتقبـل نـصيحته ويعي وجهة نظره ورؤيته لهذا الأمر، وإن لم يتقبل هذه النصيحة فسوف يسلم طلائع الأمر لله وحده .

وبعد دراسة هذه القصيدة (الرسالة) لطلائع ووقوفنا على ما جاء بها من أفكار ومعان، وبعد أن شعرنا بتلك المشاعر الصادقة بين المتراسلين خاصـة في الجزء الخاص بالعتاب الذي وجهه طلائع لأسامة . نتوجـه صـوب رد أسامة على طلائع.

فنجد أن أسامة أجاب طلائع برسـالة (قـصيدة) التـزم فيهـا البحـر العروضى نفسه وهو بحر الكامل – مجزوء بحر الكامل – كما التزم حـرف الروى نفسه وهو (حرف اللام).

كما أن أسامة تتبع المعاني التي وردت في قصيدة (رسالة) طلائع ويرد عليها بأسلوب شعري عذب ، فيقول :

يَاأشْـــرفَ الـــوزُرَاء أخْـــ	ـــلاقاً ، وأكـــرمَهم فَعـــاَلاَ
وأعـــزَّهُم جـــاَراً ، وأمْـــ	ـــنَعَهم حمـــىً ، وأجَـــلَّ آلاَ
وأعمَّهـــــم جُـــــوداً ، إذاَ	جَـــادُوا ، وأكْثَـــرهَم نَـــوالاَ
فلِـــذَاكَ قَـــدْ أضْحَـــى الأنَا	مُ علَـى مكَارِمِـــهِ عِيـــاَلاَ (٢)

يبدأ أسامة رسالته باستحضار شخص طلائع وذلك باعتماده على أسلوب النداء الذي استطاع عن طريقه أن يستحضر شخص مخاطبه ويشعر بقربـه منه، ويبدأ أبياته بمديح طلائع دون تمهيد أو قصد إلى مقدمة غزلية أو طللية، وكأنه يلتزم البناء الفني ذاته لقصيدة طلائع، والتي بدأها طلائع دون مقدمات، فيمدح أسامة طلائع بحسن الخلق، وكرم الفعال، وطيب الأصل والعزة والنعمة

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٨٥

٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٦٥

والحسب والرفعة والجود وكثرة العطاء حتى لقد أصبح الخلق جميعاً عيالا عليه في هذا العطاء .

وتلفتنا هذه المعاني المدحية التى مدح بها أسامة صديقه طلائع إلى ضرب من تكرار المعاني التي وردت في قصيدة طلائع ، فأسامة يأخذ من معاني طلائع المدحية ويردها عليه بصياغة تعبيرية جديدة .

ثم يتحول أسامة إلى مديح طلائع بالقوة والشجاعة والجهاد، فيقول :

وَحَمَى البلادَ بسَيفِه عَنْ أنْ تُذَالَ ، وأنْ تُذَالا
وأحَلَّ بالإفرنجِ في بَرٍّ ، وفي بَحْرٍ نَكَالا
حتى لقد سَئِموا لِقاءَ جيوشِ مِصرٍ والقِتالا [1]

فيمدح أسامة طلائع بأنه شجاع ماجد منتصر دائما على الإفرنج في البر والبحر حتى لقد سئم الإفرنج لقاءه وأيقنوا أنهم مهزومون لا مفر ، لذلك هم يهربون دائما من قتال طلائع وجيوشه.

ثم يقف أسامة مع صديقه طلائع وقفة الاعتذار وإيداء الأسباب التي دفعته إلى أن يتأخر عن صديقه في الرد أو الزيارة أو القدوم عليه في مصر ، وهذا - رداً على عتاب طلائع له في رسالته السابقة ، فيقول أسامة :

نبَّهت عَبْداً طالماً نَبهْتَه قَدْراً وحالا
وَعتبْتَه ، فأنَلْتَه شَرَفاً ومَجْداً لَنْ يُنالا
وكَسوتَه شَرَفاً ، إذا ما طَاولَتْهُ الشُهْبُ طالا
لَكِنَّ ذَلِكَ العتبَ يُشْعل في جَوانحه اشْتِعالا
أَسَفاً لَجَدِّ مالَ عَنْهُ إلَى مَسَاءَتِه ، ومَالا
فَلَوْ استَطاعَ السَّعى ، وَهُو الفَرْضُ ، لَمْ يرضَ المَقالا [2]

يذكر أسامة أيادى طلائع عليه وعلى أسرته، ويمدحه بتلك الأيادي البيضاء التى كسته شرفاً ومجداً ورفعة، متعللا بسوء حظه الذى اضطره إلى الرحيل والبعد عن صديقه طلائع، ثم يذكر أن الأيام هي سبب تأخره في الرد على صديقه أو المداومة على مراسلاته ، فدأب الأيام دائما المماطلة والتسويف، ويشترك الدهر أيضاً في هذه المماطلة وهذا بعدائه وبسهامه التى دائماً ما يصوبهاتجاه أسامة .

ثم يلتفت أسامة إلى الاعتذار للملك الصالح طلائع، فيقول :

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦
٢ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٦٦

فإليـــه مَعــــذرةُ المُقَــــــــصّرِ مِــنْ إســاءَتِه اسْـتِقَالا
ويفـــضلُ مالكـــه تعـــوُّذ أن يظـــنَّ بـــه المَــلالا
أوْ أنّـــه يَشكـــو الكلال ، لسَمعـــه السِّحـرَ الحَلالا [1]

فنجد أسامة يتوجه بالاعتذار لطلائع عن تقصيره والذي أبان لنا أسامة من قبل، ويرجو من صاحبه أن يتقبل هذا الاعتذار ولا يظن به الظن السوء أو يعتقد أنه قد تحول عنه أو مل مراسلته ثم يمدحه أسامة مرة أخرى، ثم يلتفت أسامة إلى إجابة طلبه المتعلق بالاتحاد مع نور الدين صاحب الشام، فيقول له:

واشْـدُدْ يَـديك بـودّ نُـورِ الـدّين ، والْـقَ بـه الرِّجَـالا
فَهُـوَ المُحَـامي عَـنْ بـلا دِ الـشَّام جَمْعَـاً أنْ تُـذالا
ومُبيـدُ أمْـلاك الفرنـج وجَمعَهـمُ حـالاً فَحـالا
ملـكٌ يتيـه الـدّهرُ والـدُّنيَا بدَولتـه اختيـالا
جَمَـعَ الخـلالَ الـصّالحات فَلَـمْ يَـدَعْ مِنْهـاَ خـلالا
فـإذا بـدا للنّـاظر يـنَ رأتْ عيـونُهمُ ، الكَمـالا
فَبَقِيتُمـا للمُسلـمـينَ حمىً ، وللدُّنيا جَمالا [2]

نجد أسامة يشارك طلائع في تطلعه للاتحاد مع نور الدين، لـذا فهـو متفائل أنه سوف يأتي يوم ويتم فيه لقاؤهما واتحادهما معاً، ثم يلتفت أسامة إلى نور الدين فيمدحه بالجهاد والدفاع عن المسلمين في الشام وعن دولة الإسـلام فهو مبيد الفرنج، وهو الملك الذي تتيه الدنيا بدولته ويختال الدهر بقوته، وقـد جمع الشمائل والمناقب الصالحة ، وإذا ما بدا للناظرين، فقد رأى النـاظرون الكمال متمثلاً في شخص نور الدين، ثم يدعو أسامة لطلائع ونور الدين بـأن يبقيهما الله للمسلمين مانعاً وحصناً حصيناً في وجه العدو وحسناً وبهاءاً يزيـد الدنيا وتزداد جمالا بهما.

وعلى هذا النحو تأتي قصيدة (رسالة) أسامة جوابا على قصيدة طلائع، ورأينا فيها التزام أسامة بما أسلفنا الحديث عنه، وكاشفاً عن تحول القـصيدة الشعرية إلى رسالة تحمل كل سمات الرسالة الشعرية وتحمل نـسقاً تعبيريـاً جديداً يميز ذلك الفن الشعري بين هذين الشاعرين الصديقين، ونقصد به فـن المراسلات الشعرية.

---

١ - المصدر نفسه – ص ٢٦٦ ، ص ٢٦٧
٢ - المصدر نفسه – ص ٢٦٧

الفصـل الثالـث
البنـاء الفنـي

تتوع شعر شعراء بلاط بني رزيك بين القصائد المنشدة وقصائد أخرى تعد سمة مميزة لهذا البلاط وهي القصيدة الرسالة ، وهناك ما يندرج تحت اسم المقطوعات الشعرية ، لذلك سنحاول في دراستنا للبناء الفني للقصيدة في بلاط بني رزيك أن نتعرف على مدى قدرة هؤلاء الشعراء الفاطميين في نظم الشعر من خلال :

أولا : القصيدة المنشدة :

فنجد في قصائد هؤلاء الشعراء المنشدة تنوع في بنائها الفني بين بناء فني مجدد وبناء فني تقليدي، ومنهم من مزج الاتجاهين معاً ، وهو ما عرف بالاتجاه المجدد المحافظ ، ويتبين لنا ذلك من خلال دراسة عناصر البناء الفني للقصيدة المنشدة وهي :

أ- مقدمة القصيدة

ب- التخلص

ج- خاتمة القصيدة

أ- مقدمة القصيدة :

لاشك أن مقدمة القصيدة هي مفتتح الكلام الذي ينم عن مضمونه ومعناه، وهذه الظاهرة الفنية لم تقف عند حدود تاريخها الذى استقرت فيه حقيقة تعرض نفسها على الشعر والشعراء بل تجاوزت ذلك وعبرت حدود التاريخ وأخذت أحياناً كثيرة تعرض سلطانها على شعراء العصر الحديث ، حتى سنوات غير يسيرة من بداية القرن العشرين ، لدى شعراء الاتجاه المحافظ الذي بعث الشعراء وأعاد إليه رواءه . [1]

فمقدمة القصيدة هي أول شئ يقع في أذن السامع ومن خلاله ينعكس عنده انطباع عام عن القصيدة سواء أكان بالقبول أم بالرفض ؛ لذلك اهتم الشعراء منذ العصر الجاهلي بمطالع قصائدهم اهتماماً كبيراً، متبعين الشروط والقوانين التي قننها نقاد الأدب القدماء ، لينتج الشاعر أفضل مقدمة لقصيدته حتى تقع من نفس الممدوح والقارئ بعد ذلك موضع الرضاء والإعجاب .

---

١ – د. أحمد هيكل – تطور الأدب الحديث في مصر – طبعة دار المعارف – سنة ١٩٦٨م – ص ١٠٦ ، ص ١٥٣

فهذا ابن رشيق القيرواني نراه يضع بعض القوانين التى تستوجب أن يتوخى الشاعر فيها الحذر في مقدمة قصيدته فيقول:

(إن الشعر قفل أوله مفتاحه . وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهله ، وليتجنب (ألا) و (خليليّ) و (قد) فلا يكثر منها في ابتدائه ، فإنها من علامات الضعف والتكلان) [١]

أما ابن طباطبا فيطلب من الشاعر أن (يتحرز في أشعاره ، ومفتتح أقواله مما يتطير به أو يستجفى من الكلام والمخاطبات ، كذكر البكاء ، ووصف إقفار الديار ، وتشتت الآلاف ونعى الشباب وذم الزمان ، لاسيما في القصائد التي تتضمن المدائح أو التهاني ، وتستعمل هذه المعاني في المراثى، ووصف الخطوب الحادثة ، فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه ، وإن كان يعلم أن الشاعر يخاطب نفسه دون الممدوح) [٢]

ويأتي ابن قتيبة بتفسير آخر لهذه الظاهرة الفنية فيقول : (إن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار ، والدمن ، والآثار ، فشكا وبكى، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء .... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له : عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر ، وسرى الليل ، وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجد على صاحبه حق الرجاء وزمام التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة وهزه على الأسماع ، وفصله على الأشياء... فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب) [٣]

---

١ - ابن رشيق القيرواني - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - الجزء الأول - ص ٢١٨.

٢ - ابن طباطبا العلوى - عيار الشعر - تحقيق وتعليق د/ طه الحاجرى ، د/ محمد زغلول سلام ، طبعة شركة الفن للطباعة - ١٩٥٦ م - ص ١٢٢

٣ - ابن قتيبة - الشعر والشعراء - تحقيق أحمد محمد شاكر ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦م - ص ٧٤ ، ص ٧٥.

وهذا كان رأي بعض نقاد الأدب القدماء ، أما النقاد المحدثين فقد اهتموا بنفسية الشاعر أكثر لإيمانهم بأنها تؤثر تأثيراً قوياً في القصيدة ، وبالتالي ينعكس شعور الشاعر عليها ، لذلك فمقدمة القصيدة ما هي إلا (إثارة لنفسية الشاعر إزاء موضوع القصيدة أو مناسبتها .. فإننا حين نعرض مطلع أي قصيدة على نفسية الشاعر - إذا أتيح لنا معرفة نفسيته من خلال حياته وأحداثها - سنجد أن المطلع ليس إلا صدى لنفسية الشاعر وانفعاله .. وأن عنصر المطلع في القصيدة يمثل نفسية الشاعر ومشاعره نحو موضوع القصيدة أو الموقف الذى قال فيه القصيدة، ذلك أن الشاعر قبل أن يبدأ في إنشاء القصيدة تكون تجمعت في نفسه كل المشاعر والانفعالات المرتبطة بالموضوع ، وحين يبدأ في الإنشاء قد يختار تقليداً معيناً كالغزل أو الشكوى ، ليجعله تمهيداً للدخول في الموضوع) (١)

على أية حال فمقدمة القصيدة المنشدة في بلاط بني رزيك تأرجحت بين شعراء اقتفوا أثر القدماء العرب في إنشاء مقدمة طللية أو غزلية ، وهناك من الشعراء من لم يلتزم هذا البناء الفني فيبدأ بمقدمة تحمل غرض الفخر أو الرثاء أو الشكوى وغيرها . لذلك تنوعت المقدمات الشعرية في القصيدة المنشدة عند هؤلاء الشعراء ، هذا بالإضافة إلى أننا وجدنا شعراء طرقوا موضوع القصيدة مباشرة دون تقديم ، وجدير بالذكر هنا أن قصيدة المديح هي التى تحتل الجانب الأكبر في شعر بلاط بنى رزيك ، فسار بعض شعراء بلاط بنى رزيك على نهج سابقيهم من الشعراء العرب القدماء في استهلال قصائدهم بالمقدمة الطللية لكنهم لم يطيلوا الوقوف على أطلال ديار المحبوبة واكتفوا بالإشارة إليها بعد أن اصطنعوا المرور عليها وصوّروا ما تثيره أطلال دارها في نفوسهم من سعادة عندما يتذكرون الماضي، ومن حزن عندما يشاهدون الواقع ، وتمنوا عودة أيام الوصل والأنس، فشعراء بنى رزيك لم يفردوا للوقوف على الأطلال مقدمة طللية كاملة إنما هي إشارة بسيطة في عدد من الأبيات كنوع من الولاء للتراث الأدبي والنقدي الذي خبره جلّ الشعراء ولم يكن هذا انعكاساً لحياتهم الواقعية .

ومما يمثل ذلك قول المهذب بن الزبير في مقدمة إحدى قصائده التي مدح بها طلائع بن رزيك فيقول :

---

١ - د. عبد الحليم حنفي - مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة ١٩٨٧ م - ص ٤٩

رَبَعَ الفُـؤادُ خِـلالَ تَلْـكَ الأرْبُـعِ ... فَكأنَّهــاَ أولَــىَ بِــهِ مِــنْ أضْـلُعي
وَأقَـامَ فِيـــهِ، فـــالْجَوانِحُ بَلْقَــعٌ ... منْــهُ، وَمَــاَ البِيــدُ القِفــارُ بِبَلْقــعِ
وأرىَ الصَّباَ تمرْىَ السّحاَبَ، وإنّما ... تَمْــرىِ صَبابُتَهُ سَحاَبَ الأدْمُعِ [١]

فلقد تذكر المهذب في هذه الأبيات أيام الود والوصل التي قضاها مع محبوبته عندما رأى الدار بعينها حيث كانت ، فبكى من شدة الألم والحزن على فراق الأحبة .

فهي مقدمة تقليدية طللية تقع في ثلاثة أبيات طرقها الشاعر وفاءً للموروث الشعري والنقدي، وله في موضع آخر من شعره قصيدته التي نظمها محاولاً استعطاف داعي الفاطميين في بلاد اليمن لإطلاق سراح أخيه الرشيد بن الزبير لما نمى إليه أنه ادعى الخلافة فقبض عليه وهمَّ بقتله والتنكيل به، فقال المهذب في مقدمة هذه القصيدة :-

ياربْعُ أيْنَ تَـرىَ الأحِبَّـةَ يمَّمُـوا ... هَلْ أنْجَدُوا منْ بعْـدناَ أمْ أتْهمـوُا؟!
نَزَلوُا منْ العَينَ السَّواد وإنْ نَـأوا ... وَمِنْ الفُؤاد مَكـانَ مـاَ أنـا أكْـتُمُ
رَحلواُ وفي القَلْبِ المُعَنَّى بَعْـدهُمْ ... وَجْـدٌ علَـىَ مـرِّ الزَّمـانِ مُخَـيَّمُ
وسروْا وقد كتمُوا المَسيرَ، وإنَّمـا ... تَـسْرى إذا جَـنَّ الظَّـلامُ الأنْجُـمُ
لَولاَهمُ مـا قُمـتُ بـينَ ديـارهمْ ... حَيْـرانَ أسْـتَاقُ الـدّيارَ وألْـثمُ
أمنازِلَ الأحْبَابِ ، أينْ هُمُ ، وأيـ ... ـنَ الصَّبْر مِنْ بَعْدِ التَّفرُّقِ عنهُمُ؟![٢]

استهل الشاعر قصيدته هنا بمقدمة طللية حزينة تعكس لنا إحساسه وشعوره الحزين بسبب ما حدث لأخيه من ظلم ، فكما سبق أن عرضنا أهمية المقدمة التي تعد بمثابة إشارة لنفسية الشاعر إزاء موضوع القصيدة أو مناسبتها فها هو المهذب نراه متألماً ، حزيناً لما أصاب أخيه فعبر عن ذلك في تلك المقدمة بالوقوف على أطلال ديار المحبوبة التي فارقته وبعد عنها، فهنا طالما وقف على الديار تذكر المحبوبة فبكى على أيامه معها متغزلاً فيها متمنياً عودتها مرة ثانية .

وهذا هو المعنى الظاهر لنا من المقدمة أما المعنى الباطن منها الذى قصده الشاعر هو حزنه على فراق أخيه لما أصابه من ظلم وغدر ، فياله من ربط معنوي جميل بين مقدمة القصيدة وموضوعها .

---

١ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢٠٠ ، ص ٢٠١
٢ - المصدر نفسه - ص ٢١٩ ، ص ٢٢٠

وعلى هذا النحو لم يفرد شعراء بني رزيك للمقدمة الطللية مقدمة كاملة، بل هي كما سبق وأن ذكرنا هي إشارة إلى التراث القديم ، بينما نجد كثيراً من المقدمات الطللية تمتزج امتزاجاً واضحاً بالغزل أو بالنسيب ؛ أي يأتي البكاء على الأطلال في ثنايا المقدمات الغزلية لأن علاقة الطلل بالمحبوبة علاقة تلازم لا تنفك حتى عندما يتكلم الشاعر عن الطلل منفرداً؛ فبكاء الطلل إنما هو بكاء الذكريات المرتبطة به ، فالمحرك والباعث الأول للشاعر على ذكر الطلل هو علاقة تلك الآثار بالمحبوبة وذكرياتها مع الشاعر في هذه الأماكن ، فالشاعر يتذكر المكان ويتذكر من كان في هذا المكان .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول ابن قادوس –الذى لم يصل إلينا من شعره إلا قصيدة واحدة– سار فيها على البناء الفني التقليدي للقصيدة المنشدة، وباقي شعره يندرج تحت ما يسمى باسم المقطوعات الشعرية .

فقد استهل ابن قادوس قصيدته هذه بمقدمة يقول فيها : –

أَكْرِمْ بِقَلْبِي لِلأَحِبَّةِ مَنْزِلا	رَبَعُوا بِهِ أم أَزْمَعُوا مُتَرحَلا
جادتْهُ أنواءُ الدّمُوعِ فَما اغْتَدى	يَوماً لمنَّاتِ الحَيَا مُتَحَمِّلا
حفظي لِعَهدِ الغَادرِينَ أَضَاعَ لِي	قَلْباً أَقَامَ غَرامُهُ وتَرَحّلا
لاَ يَبْعُدَنْ زَمنٌ مَضَى لَوْ تُشْتَرى	سَاعاتُهُ بِالعُمرْ أجْمعَ مَا غَلا
أيّامَ أغْصانُ القدُود، قُطوفُها	تُجْنى ، وأقْمَارُ الملاَحةِ تُجْتَلى
ومُهفْهَفٍ لَولاَ سِهامُ جُفُونِهِ	تُصمى لأَدْرَكَ عَاشِقٌ مَا أمَّلا
كالبَدْرِ وجْهاً والغَزَالِ تلفتاً	والحِقْفِ رِدفاً والقَضِيبِ تَمَيُّلاً (١)

هنا بدأ الشاعر بالوقوف على الطلل وذكر الديار على عادة العرب لكنه سرعان ما أن تركها إلى الغزل واستمر في غزل المحبوبة ووصفها وبيان جمالها ، فهو حزين لرحيلها عنه فهو كلما رأى ديارها أفاضت في قلبه العشق والشوق التي اشعلت في قلبه نار البعد والفراق متمنياً عودتها .

وإذا ما انتقلنا إلى ابن قلاقس نجد أنه يستهل كثيراً من مدائحه بمعان غزلية ربطها بالطلل والأماكن التي يقف عليها، فنجد قوله في مقدمة إحدى قصائده التى مدح بها الحافظ السلفى وذكر فيها الصالح بن رزيك فيقول :

---

١ – حريدة القصر – الجزء الأول – ص ٢٢٨ ، ص ٢٢٩

فُحْنَ طيبــاً مــنْ بَعْـدِهِنَّ الــديارُ	فَــوْحَ مــسكٍ أفَاحَــهُ العَطَّــارُ
ذَاكَ نَشْرُ الأَحْبابِ أُودِعَ فــي الـدَّا	رِفَفَاحَــتْ طِيبــاً عَــشِيَّةَ سَــارُوا
رَحَلَتْ ظُعْنُهُمْ فَفَاضَتْ عَلَى الإثْـــ	ـــرِ دُمــوُعٌ مِــنَ الـديارِ غِـزَارُ
وَسفَرْنَ الغــداةَ عَنْ أوْجُــهِ مِنْ	دُونِهــاَ فِي بَهائِهـــاَ الأقْمَارُ (١)

استهل ابن قلاقس قصيدته بذكر الديار والوقوف عليها متذكراً محبوبته رابطاً بين طيب رائحة المحبوبة وطيب رائحة الديار ، كما اقتفى أثر القدماء في وصف الرحلة وما بها من وسائل تنقل وما مر به من أماكن وليل ونهار ونجوم وصباح ، ويعد هذا التطرق للمقدمة الطللية ليس إلا بحثاً عن براعة الاستهلال ، وتذكيراً للممدوح بأصله العربي الخالص وغيرها من السمات الكريمة .

وإذا ما انتقلنا إلى عمارة اليمنى وجدناه لا يختلف عن ابن قادوس وابن قلاقس في المزج بين الطلل والغزل نحو قوله في مقدمة إحدى قصائده التي مدح بها أخا طلائع بن رزيك وهو فارس المسلمين (بدر بن رزيك) فيقول:

سَرَتْ نَفْحَةٌ كَالْمسكِ أزْهىَ وأعْطَـر	وأرْدِيــةُ الظَّلْمــاءِ تُطْـوىَ وتَنْــشُرُ
فَأَوْهَمتْ ذ مُذْنِبٍ أنَّها عُرفُ رَوْضَـةٍ	يِـنمُّ بِهــاَ وَاشِــى النَّـسيمِ ويُخْبِـرُ
وَمــاَ هِــي إلاَّ نَفْحَــةٌ بُعِثَــتْ بِهــاً	سُـلَيْمَى إلــىَ صَــبٍّ تَنــاَم ويــسْهَرُ
وإلاَّ فَماَ بالَ النَّــسيمِ الــذَّى سَــرَى	بِذِى الأَثْلِ عَنْ عُــرفِ العَبِيــرِ يُعَبِــرُ
حَمَى الله مِنْ رَيْبِ الحَوَادِثِ (بِــالْحمَى)	وَجوَهاً بِهاَ رَوْضٌ مِنَ الحُسْنِ يُزْهِــرُ
وَحيا "بِنَجْدٍ" و "الغُــوِيرِ" و "غَــربٍ"	ظَعَــائِن مِنْهـــاَ مُنْجِــدٌ ومغــوِّرُ
سَفَحَــتْ عَلَى سَفْحِ "المحَجرِ" أدْمُعاَ	هِــي الدَّم ماَ اعْتاَد جِفْنٌ ومَحْجَرُ (٢)

اقتفى عمارة أثر الشعراء العرب القدماء في الوقوف على أطلال ديار المحبوبة والبكاء عليها فنراه ذكر بعض أسماء مناطق في شبه الجزيرة العربية التى ربما لم يرها بعينه وهي (ذو الأثل – والحمي – ونجد – والغوير – وغرب – والمحجر) وهي أسماء ومواضع في بلاد العرب ذكرها الشاعر في مقدمة قصيدته تأثراً بالبناء الفني القديم للقصيدة العربية ووفاءً لهذا التراث العظيم، وإلى جانب هذا أظهر أيضا تأثره بالحياة الحضرية التي يعيش فيها وهو الغزل فطالما وقف على الطلل لابد من ذكر المحبوبة وهو في شوق إليها وإخلاص لعهده لها.

---

١ – ديوان ابن قلاقس – ص ٣١١ ، ٣١٢

٢ – ديوان عمارة اليمنى –المجلد الثاني – ص ٥٣٦

وينتهج النهج ذاته المهذب بن الزبير في مقدمة إحدى قصائده التي مدح بها الصالح بن رزيك فيقول :

أقصِرْ- فَدَيْتُكَ-عَنْ لوْمي وَعَنْ عذلي	أوْ لا فَخُذْلي أماناً من ظُبا المُقَل
منْ كُلِّ طَرْف مريضِ الجفنِ تُنْشِدُنا	ألحاظُهُ : (رُبَّ رامٍ منْ بَني ثُعَلِ)
إنْ كانَ فيهِ لَنَا، وهْوَ السَّقيمُ، شَفاً	(فَرُبّما صَحَّت الأَجْسَامُ بالْعِلَلِ)
إنَّ الذى في جُفون البيضِ إذْ نَظرَتْ	نَظِيرُ ما في جُفُونِ البِيضِ والخَلَلِ
كَذاك لمْ يُشْتَبِهْ في القَوْلِ لَفظُهُمَا	إلاّ كَما اشْتَبها في الفعلِ والعَملِ (١)

بدأ هنا الشاعر قصيدته بذكر المحبوبة ووصفها ووصف شوقه إليها ، ثم وقف على الديار وبكاء الأطلال متذكراً محبوبته التي بعدت عنه، لذلك حل عليه السقم والجفى فابتسامتها كانت بالنسبة له شفاء ، أما جمالها فهو جمال طبيعي لا يحتاج إلى زينة ولا حُليّ ، وهكذا جاءت مقدمة المهذب التي امتزج فيها أيضاً الطلل مع الغزل .

وحرص بعض شعراء بلاط بني رزيك على إيجاد الوحدة العضوية بين أجزاء القصيدة المنشدة، فجاءت كثير من **المقدمات الغزلية** ممزوجة بموضوع القصيدة لا تنافر ولا تناقض بينهما ، وصارت كثير من القصائد لديهم (مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض) . (٢)

ويرى ابن رشيق القيرواني أنه يرجع سر اهتمام الشعراء بالغزل إلى (ما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول ، بحسب ما في الطباع من حب الغزل ، والميل إلى اللهو والنساء ، وأن ذلك استدراك لما بعده ...) (٣)

فكثير من الشعراء سلكوا سبيل التغزل سيراً على درب السابقين وحفاظاً على التقاليد النقدية الموروثة ، وجدير بالذكر أن شعراء بني رزيك قد حافظوا على العفة والوقار في جُل قصائدهم المنشدة في مقدماتهم الغزلية .

فها هو المهذب بن الزبير يقول في مقدمة إحدى قصائده التي مدح بها طلائع بن رزيك:

أعَلمْتَ حينَ تَجاوَر الحيّانِ	أنّ القُلوبَ مَواقِدُ النّيرانِ ؟!
وَعَرفْتَ أنّ صُدُورنَا قَدْ أصْبَحتْ	في القَوم وَهْيَ مَرابِضُ الغِزْلاَنِ
وَعيُونَنَا عوضَ العُيون أمدَّهَا	مَا غَادَرُوا فيهَا مِنَ الغُدْرَانَ

---

١ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢١٠ ، ص ٢١١
٢ - ابن رشيق القيرواني - العمدة - ج١ - ص ١١١
٣ - المصدر نفسه - ص ٢٢٥

ما الوخذ هزّ قبابهم ، بل هزّها | قلبي لما فيه من الخفقان
وتراد يكره أن يرى إظعانهم | وكأنما أصبحت في الأظعان
وبمهجتي قمرٌ إذا ما لاح للسـ | ـارى تضاءل دونه القمران [1]

هكذا بدأ المهذب قصيدته المدحية بمقدمة غزلية رقيقة معبراً عن مدى اشتياقه لمحبوبته واصفاً بعده عنها ووصف ليل الفراق البهيم في شوق ولهفة مع حفاظه على العفة والوقار في غزله .

ومما يمثل ذلك أيضا – المهذب بن أسعد الموصلي فنراه استهل إحدى قصائده التي مدح بها طلائع بن رزيك بمقدمة غزلية بديعة فيقول:-

أما كفاك تلافي في تلافيكا | ولست تنقمُ إلا فرطَ حُبّيكا
يامُخجِلَ الغصنِ ما يثنيكَ عن مَلَلٍ | هوىً وكلُّ هواء هبَّ يثنيكا
أصبحتَ للقمر المأسورِ في صدري | أسرٍ وللرشاءِ المملوكِ مملوكا [2]

بدأ هنا الشاعر قصيدته المدحية بالغزل ليكشف عن حبه ووده لمحبوبته في رقة وعذوبة ، محافظا على التقاليد النقدية الموروثة .

كما سلك عمارة اليمني هذا المنهج فها هو في مقدمة إحدى قصائده التي مدح بها طلائع بن رزيك يقول:

مَنْ كانَ لاَ يعشقَ الأجيادَ والحَدقَا | ثُمَّ ادّعى لذَّة الدنيا فما صَدقَا
في العشقِ معنىً لطيفٌ ليس يعرفُهُ | من البَرِيةِ إلا كل مَنْ عشقَا
لا خففَ اللهُ عن قلبي صبابتَه | في الغانيات ولا عن طَرفيَ الأرَقا
إذا سَرقتْ إليهن الخطا سَحَبتْ | أذيالَهنَّ علَى آثارِيَ السَّرَقا [3]

فهنا عمارة سار أيضا على نهج سابقيه من الشعراء القدماء في استهلال قصائدهم بمقدمة غزلية رقيقة تمس القلوب والآذان ، حين يبين لنا حلاوة العشق ومدى صدقه وإخلاصه لتلك المحبوبة الجميلة التي تحظى بالمحاسن والجمال .

وله في موضع آخر – في إحدى قصائده التى مدح فيها الصالح بن رزيك فيقول:

شأنُ الغرامِ أجلُّ أن يَلحاني | فيه وإنْ كُنتَ الشفيقَ الحاني
أنا ذلك الصبُّ الذى قطَعتْ بهِ | صِلةُ الغرامِ مطامعَ السلوانِ

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٠
٢ – خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء الشام – الجزء الثاني – ص ٢٨٢
٣ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٠١

نَمَّت رَجاجــةُ صَــبْرِه بِــضَميرِه فَبَــدَتْ خفَيـــةُ شَـــانِه لِلْـــشانَيِ
غَدَرت بِمَوْثِقَها الــدموعُ فَغَــادرتْ سَــرىَ أسـيراً فــي يَــدِ الإعْــلانِ
عَنَفتْ أجْفانِي فَقــامَ بِعُذْرِهـــاَ وَجْـــةُ يَبيح وَدائعِ الأجْفَـــانِ [١]

لقدغلب على تلك المقدمة الغزلية طابع من الحزن والأســى؛ فالــشاعر يعبر فيها عن أشجانه شاكياً للمحبوب حاله من بعده ، فمن خلال تلك المقدمة الغزلية الحزينة نستطيع أن نتعرف على حالة الشاعر النفسية التي بداخله من حزن فيتبين لنا أنه حزين على آل البيت ويرثيهم بعد تلك المقدمة التي أتى بها الشاعر من باب الالتزام والولاء للتراث الشعريِ .

ومن عمارة اليمنى إلى طلائع بن رزيك فنراه يقول في مقدمة إحــدى قصائده التي مدح بها العزة الطاهرة – سلام الله عليهم – فيقول:–

عَسىَ لِيَ مِنْ وُصْلِ الحَبَيبِ وَصُوُلُ فَفِي مُهجَتىِ مِثْل النــصُولُ نُــصُولُ
إذاَ ماَ خَلَــىَ قَــصرَ النــومَ لِيلَــة فَلَيْلَــيِ بِرَعِيــي لِلنَجُــومُ طَوِيــلُ
غَرام لَــه عنْــدي غَــرِيمُ مُــلاَزِمُ فَلَــيسُ لَــهُ بَعْــدَ الحُلُــولِ رَحِيــلُ
تَحَملْتَ مِنْ عبءِ الصَّبَابَةَ ضعف ما تحمَلَ قَيس فــي الهــوىَ وَجميــلُ
فلو قِيل مِلْ عَنْ نَقْله تَستَرح لمـــاَ رَضِيتُ ســوَى أنــيَ إليــه وأمِيــلُ
يَقُـــلُ لَعَيْنِي فِيــــهِ كثْرُ دُمُوعِهاَ فَلَــــوْ بِــــدَمِ أبْكِى لَقِيــلَ قَلِيلُ [٢]

فلقد أتى طلائع بتلك المقدمة الغزلية كرمز للتعبير عن مشاعره تجاه آل البيت في تسعة أبيات وفيها يفضح عن حبه الكامن في قلبه الذى مــن شــدته سال الدمع من عينه وهذا في رأيه قليل فهو مستعد بأن يفديهم بدمه ، وهــذا يوضح لنا أن المقدمة الغزلية لم تكن هي المقصودة بذاتها إنما هي تعبير عما بداخل الشاعر تجاه موضوع القصيدة عامة ، هذا إلى جانب أنه يلتــزم بهــا الشاعر وفاءً للتراث النقدي القديم .

يقول ابن رشيق الحاتمى أن النسيب يأتي ممزوجاً بما بعده مــن مــدح فيقول:

(من حكم النسيب الذى يفتح به الشاعر كلامه ، وأن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح وذم غير منفصل عنه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أجزائه ببعض فمتى اتصل واحدٌ عن الآخر وباقيه فــي صــحة التركيب ، غادر الجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعرض معالم جماله) [٣]

---

١ – المصدر نفسه – ص ٩٦٤
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق – محمد هادى الأمينى – ص ١١٢
٣ – ابن رشيق – العمدة – الجزء الأول – ص ١١١

اتصال بعض أجزائه ببعض فمتى اتصل واحدٌ عن الآخر وباقيه في صحة التركيب ، غادر الجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعرض معالم جماله) (١)

فلقد طرق شعراء بلاط بنى رزيك النسيب في قصائدهم المنشدة ، وهو ذكر محاسن المحبوب، وإن كان من خلال دراسة أشعارهم لا نجد فرقاً كبيراً في ما جاء من أشعارهم بين الغزل والنسيب؛ فلقد جاءت المعاني متداخلة والألفاظ تحمل دلالات الغزل والنسيب معاً مما يدعونا إلى جعل هذه القصائد مع القصائد المبدوءة بمقدمات غزلية ، ونستدل على هذا بنموذج لابن قلاقس فنراه في مقدمة إحدى قصائده التي مدح بها الحافظ السلفي ذاكراً فضل طلائع بن رزيك فيقول:

ألمَّ بـه طيـف الخيـال مُـسلّما	فـأذكرَهُ مـنِ لوعـة مـا تقـدَّما
ألمَّ به والـصبحُ قـد لاحَ جيـشه	وهمَّت جيوشُ الليـل أن تتـصرَّما
فأرّقـه بعـد المنـام مـزاره	وطيرٌ بـأعلى غُـصنِ بـانٍ ترنَّمـا
فما بات للأحباب ضامنُ من لوعةٍ	لفقدهـم إلا امـروٌ بات مُغْرماً (٢)

فهي مقدمة بديعة تحمل معاني الغزل والنسيب لتعبر عن مشاعر الشاعر وأحاسيسه تجاه محبوبته.

ولم تقتصر مقدمات القصائد المنشدة في بلاط بنى رزيك على المقدمات الطللية والمقدمات الغزلية، وإنما سلك بعض الشعراء مسلك سابقيهم ممن انتهجوا التجديد في مقدماتهم مثل زعيم تيار التجديد أبى نواس مع عدد من شعراء عصره ثم تلاه أبو تمام في القرن الثالث الهجري، فابتكر من المقدمات ما أوحته إليه الطبيعة، فوصف مباهجها وألوانها وتخلى عن قوانين الموروث النقدي.

فمن شعراء بلاط بنى رزيك من افتتح قصائده ببكاء الشباب والتفجع علي أيامه الخالية شاكياً من الزمان ، وما تسبب فيه من تقدمه في السن حتى حل عليه الشيب فهذا عمارة اليمني نراه يقول:

تبسَّم في ليـل الـشّباب مـشيبُ	فأصـبح بُـردَ الهـمِّ وهـو قـشيبُ
وأنكرت ما قـد كنتمـا تعَرفانـهُ	وقد يَحْـضر الرشـدُ الفتَـى ويغيـبُ
ومَنْ شارَف الخمسينُ عاماً فإنـه	وإنْ عَاش بـينَ الأهْـلِ فَهُـوَ غَريـبُ
وَماَ أبْقَـتْ الـدّنْياَ عَليْنَـاَ وإنّمـا	سـهامُ المَنَايـاَ مُخْطِـئٌ وَمـصيبُ

---

١ – ابن رشيق – العمدة – الجزء الأول – ص ١١١

٢ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٩٧

عـلـى أنَّ أنفـاسَ الحَيـاةِ شهيةٌ ‍ وأرْواحُنَا تُغْنـي بِهَا وتَـذُوبُ (١)

لقد أتي عمارة بمقدمة جديدة عبر فيها عن تقدمه في السن وأنه شارف الخمسين عاما فأصبح أكثر عقلاً وصوابا فاستطاع أن يميز بين الجيد والسيئ . ومن خلال تجاربه التى مر بها مع الحياة استنتج أن الحياة جميلة نتلذذ بأنفاسها، وهي مع ذلك تفني أرواحنا وتذيبها، فنحن إذا نتلذذ بما يبيننا، ومع ذلك لا نستطيع أن نكرهها ، فنحن نعيب الدنيا بألسنتنا ولكن قلوبنا تخالفها . كما يحذرنا عمارة من الغرور فالدنيا كالسراب الذى يخدع العين فتصدقه لكنه كذوب فهو لم يلق في الحياة الأمان والاستقرار ، فهي مقدمة تحمل لنا حكمة ذات قيمة ومعنى فهي نتاج خبرة وتجارب شاعر قدير استطاع أن يلم بالعديد من الأفكار .

ونستطيع أن نقول إنه بالرغم من التنوع في مقدمة القصيدة المنشدة ، وأنها جاءت على نهج المجددين على نحو المثال السابق لعمارة اليمني الذى استهل قصيدته بمقدمة بكى فيها الشباب إلا أنها جاءت ذات بناء فني متماسك، استطاع الشاعر أن يجيد الربط بين أجزاء قصيدته وتلاحم عناصرها.

كما عضدَّ الشعراء مقدمات قصائدهم المنشدة **بوصف مظاهر الطبيعة**، وربطها بموضوع القصيدة ليحققوا صورة مثلى تبرز موهبتهم الشعرية ، وتضعهم لدى ممدوحيهم في طليعة الشعراء، فعلى سبيل المثال مقدمة الشاعر عمارة اليمني في إحدى قصائده التي مدح بها طلائع ابن رزيك فيقول:

الْحَمدُ للْعَيْسِ بَعْدَ الْعَـزْمِ وَالْهِمَـمِ ‍ حَمْداً يَقُومُ بمَا أَوْلَـتْ مِـنَ الـنعَمِ
لا أجحدُ الحَقَّ عنـدي للركَابِ يَدٌ ‍ تَمَنَّتَ اللُّجْمَ منهـا رُتْبَةَ الْخَطَمِ (٢)

فهنا أتى عمارة بمقدمة قصيرة تقع في هذين البيتين ليصف لممدوحه الناقة التي ركبها في رحلته عند قدومه أول مرة إلى مصر من اليمن ، فهو يشكر هذه الناقة التي قطعت به الصحراء الواسعة معترفا بالجميل لها وشاكرا لما قدمته له من يد العون والمساعدة حتى وصل إلى مصر بسلام فهي تستحق هذا الشكر لأنها قربته ممن يحب وهو ممدوحه طلائع بن رزيك.

هكذا استطاع عمارة أن يتخلى عن المقدمات التقليدية القديمة ؛ فأتى بمقدمة وصف فيها إحدى مظاهر الطبيعة على سبيل التجديد والتنوع في شعره ليثبت لممدوحه مدى قدرته الشعرية وموهبته الفطرية .

---

١ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الأول - ص ١٠ ، ص١٤٢
٢ - المصدر نفسه - المجلد الثاني - ص ٨٦٤

كما افتتح بعض شعراء بلاط بنى رزيك قصائدهم المنشدة **بشكوى الدهر وعتابه** على ما قدمه لهم من غدر وحزن وألم ، وخير من يمثل ذلك هو أسامة بن منقذ فهو من أكثر الشعراء تعرضاً للأزمات والمحن في حياته منذ صغر سنه وكثيراً ما تعرض للحوادث وتقلبات الأيام – لذلك نراه يقول في مقدمة إحدى قصائده الحزينة التي رثى فيها ابنه أبا بكر شاكياً من غدر الزمان فيقول:

أُعاتِبُ فيكَ الدَّهرَ، لَوْ أعتبَ الدَّهرُ ... وأستنجدُ الصبْرَ الجميلَ ولاَ صَبْرُ
وأَسْأَلُ عنِ نَهْجِ السُّلُوِ، وقَدْ بَدا ... لعَيْنَيَّ ، إلاّ أنَّ مسلكه وعرُ
وكَيفَ التسلّي، والحوادثُ جمَّةٌ ... إذا ما انْقَضَى أمرٌ يَسُوءُ أَتَىَ أمرُ
رمَتْنِى في عشرِ الثَّمانينَ نكبةٌ ... من الثّكلِ يوُهِى حَمْلُها مَن له عَشْرُ
على حينَ أفْنى الدَّهرُ قومى، ولن تزَلْ ... لهم ذِروةُ العلياءِ والعودُ الدَّثْرُ (١)

فتبين لنا هذه المقدمة شعور أسامة الحزين تجاه الزمان ، فهو الذى تسبب في إبعاده عن قومه وذريته وعن فقده لأعز ما عنده وهو ابنه الذى شرع إليه يشكو الزمان ويذم الأيام طالباً الصبر والسلوان ، وبالرغم من ذلك فهو لم يستطع أن يصبر أو يتحمل ذلك ، فجاءت هنا مقدمة القصيدة معبرة عن مشاعر أسامة كما أنها ملائمة لموضوع القصيدة وهو رثاء ابنه.

وهذا المهذب بن الزبير نراه يبدأ قصيدته بمقدمة يشكو فيها أيضاً من الدهر وتقلباته فيقول:

هُو الدَّهرُ، فانظرِ أىَّ قرْنٍ تُحاَرِبُهْ ... وقد دَهَمتْنَا دُهْمُهُ وأشَاَهِبُهْ
ليالٍ وأيَامٌ يُغَرُّ بها الَورَى ... وَمَا هِيَ إلاّ جُنْدُهُ وكتَائِبُهْ (٢)

استخدم هنا المهذب تعبيراً بليغاً في قوله (هو الدَّهرُ) الذى رأى أنه لا سبيل إلى الفرار منه لقسوته وسطوته ، فالدهر دائماً يداهم الكرام ، والليالي التي هي وسيلة غرور الناس هي جنود الدهر وعدته، ولقد أجاد الشاعر هنا في التعبير عن مدى إحساسه بغدر الزمان في هذه المقدمة التي عبر فيها بدقة عن قوة الدهر وقسوته.

وهذه المقدمة أيضاً تعكس لنا مشاعر المهذب بن الزبير لأنه أيضاً تعرض للصعوبات والمتاعب في حياته وكثيراً ما عانى من تقلبات الدهر.

وله في موضع آخر من شعره ما يوضح لنا هذا الكلام ، فنراه يقول في إحدى قصائده التى استهلها بذم الزمان:

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٣٤٧
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٧٧

كَمْ كُنْتُ أَسْمعُ أن الدّهرَ ذو غِيَـرٍ فاليومَ بالخبرِ أستَغْني عـن الخَبَـرِ
تَشابَهَ النّاسُ في خلقٍ وفي خُلُـقٍ تَشابُه الناسِ وَالأصنامِ في الـصُوَرِ
ولم أبتَ قطُ من خلقٍ وعلى ثقـةٍ إلا وأصبَحتَ مِنْ عَقْلي عَلَـى غـررَ
لا تخـدَعنيَ بمرئــيٌ ومُـستَمعٌ فما أُصدّقٍ لا سَمْعي ولا بَـصري
وكيف آمَنُ غيْري عنــد نائبــةٍ يَوْماً إذا كُنتُ مِنْ نَفسي على حَذَرِ؟!(٢)

بدأ الشاعر قصيدته بمقدمة تحمل معاني الشكوى من الزمان ومن الناس جميعاً، فالمهذب تعرض لمحن كثيرة في حياته لعل أهمها ما جـرى لأخيـه القاضي الرشيد من ظلم ثم إهانته بعد آل رزيكٍ ، فقد قبض عليــه (شــاور) وحبسه ، فكانت تجربة مريرة، قاسى منها المهذب آلاما جساماً.

فلا غرابة أن تتخلف أخلاقه ويتغير سلوكه في أخريات حياته، فيجافي الناس ، ويسيئ الظن بهم، بل يفقد الثقة فيهم، ويراهم متشابهين خلقاً وخلقاً مع الأصنام خبثا وجمودا.

ويتفق مع المهذب بن الزبير في ذم الزمان عمارة اليمني فنراه يقـول في مقدمة إحدى قصائده التى مدح فيها طلائع بن رزيك:

أعنـدك أنّ وَجْـدي ولَكتئـابي تَراجع مُذْ رَجَعْـتَ إلـى اجْتنَـابي؟
وأنّ الهَجْـر أخـذتْ لـى سَـلوا يُـسكَن بـردُه حـرَّ التهَـابي؟
وأن الأربعــين إذا توالــت بريَعْـان الـصبَا، قَـبُحَ التَصابي؟
ولو لـم ينهنـى شـيب نهـاني صَباح الشيب في لَيْـلِ الـشبَاب (٢)
وأيـام لهـا فـي كـل وقـت جنايـات تجـل عـن العتـاب
أقضيها وتحسب مـن حياتـي وَقَد أنفقتهنّ بـلا حسـاب

فلقد بدأ عمارة قصيدته بشكوى الزمان الذي تسبب في أن يحـل عليـه الشيب وجعله يشعر بمدى قسوة الدهر ومرور الأيام وتوالي الليالي ، وهو إذ يشكو هذه الشكوى نراه يتطلع إلى ما كان عليه من أيام الصبا ويتذكرها فـي شكوى وحنين لها، وذكر في تلك الفترة الزمنية أن عدوه هو الدهر الـذي لا يرضى أن يراه في حال طيبة ، لذلك نراه يكثر من استخدام كلمة الدهر فهـو بالنسبة له العدو المتربص به دائماً.

وإذا ما انتقلنا إلى المهذب بن أسعد نراه يستهل إحدى قصائده التي مدح بها الصالح بن رزيك بمقدمة يشكو فيها من الزمان ومصائبه وأحداثه فيقول:-

أيَرْجِعُ عَـصرٌ بـالجَزيرة رَائـقُ تقضّى وَأبْقَى حَسْرةً مـا تُفـارقُ
ليـالِي أبكـارُ الـسرورِ وعونـهُ هَـدايا وأمّـاتُ الهمُـوم طَوالـقُ
إذا قلتُ يصحو القلب من فرط ذكره دَعاً خافقٌ في الأيـك أو لاح بـارقُ

---

١ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٠٦
٢ - ديوان عمارة اليمنى - المجلد الأول - ص ١١٤

تركنا التَّشاكى ساعة البين ضـلة ولا غزوَ يومِ البَينِ إن ضَلَّ عاشـقُ
فلا لذَّة الشكوى قضينا ولا الـذى سترناه أخفقته الدُّموعُ السَّوابقُ (١)

فهذه المقدمة الحزينة التي يشكو فيها الشاعر من الزمان هي انعكـاس لواقع حياته الأليم لما حل عليه من فقر وعوز وهموم ، لذلك شكى من الدهر الذى تسبب في هذا الحرمان؛ لذا استمر في شكواه التي تقع في اثنى عشر بيتا يشرح فيها حاله وشدة فقره كمقدمة يبرر بها موقفه أمام صاحب الكرم والجود والعطاء وهو طلائع بن رزيك .

وإذا ما تركنا هذا الجانب من القصائد المنشدة التـي بـدأها أصـحابها بمقدمات متنوعة الموضوعات نحو المقدمات الطللية والغزلية ومقدمات امتزج فيها الطلل مع الغزل، وغيرها من الموضوعات الذاتية كشكوى الدهر والزمان ووصف الرحلة أو الناقة وغيرها، لوجدنا قصائد أخرى منشدة طـرق فيهـا أصحابها الموضوع مباشرة دون تقديم ، وتنوعت أغراضـها بـين المـدح والفخر والرثاء والغزل والشكوى وغيرها .

وارتجال الشعراء لتلك القصائد يرجع إلى أن تلك المناسبات لا تـستلزم من الشاعر تهيئة النفوس أو جذب الانتباه بتمهيد على نحو ما سبق ، لذلك يبدأ الشاعر غرضه مباشرة، فيقتحم الموضوع ويطرق بابه بدافع سخونة الموقف وحرارة الأحداث مباشرة نظرا لجلل الحادثة أو شـرف المناسـبة، كمـا أن النفوس في مثل تلك المناسبات والتجارب الشعورية لا يلفت انتباههـا مقدمـة وإن كانت غزلا، كما لا يشوقها استهلال وإن كان لطيفا بقدر ما هي متطلعـة إلى ما يشبع فضولها بمعرفة أخبار المعركة أو الحادثة ونتيجتها . (٢)

هذا الرأي يتفق مع رأي ابن الأثير في أن الشاعر هو الذى يحدد ما إذا كانت القصيدة تحتاج لمقدمة أو لا ؛ فيقول أن يفتح الـشاعر بغـزل أو لا إذا كانت القصيدة مديحا صرفا لا يختص بحادثة من الحـوادث، أمـا إذا كانـت القصيدة في حادثة من الحوادث، فإنه ينبغي ألا تبدأ بالغزل لدلالة ذلك علـى ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية أوعلى جهله بوضع الكـلام فـي مواضعه ، ولأن الأسماع تكون متطلعة إلي ما يقال في تلك الحوادث والابتداء بالخوض في ذكرها لا الابتداء بالغزل . (٣)

---

١ – خريدة القصر – قسم شعراء الشام – الجزء الثاني – ص ٢٩٢
٢ – د. أشرف محمود نجا – قصيدة المديح في الأندلس عصر الطوائف – دار المعرفـة الإسكندرية – ١٩٩٧ م – ص ١٩٧
٣ – ضياء الدين بن الأثير – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ج٢ – قـسم ٣ – ص ٩٧ – تحقيق د. أحمد الحوفى ، د. بدوى طبانة – طبعة نهضة مصر – القاهرة – ١٩٦٠ م

ومن الأمثلة الدالة على ذلك المهذب بن الزبير حينما طرق المدح مباشرة في إحدى قصائده المنشدة التى أنشدها في مدح طلائع بن رزيك فيقول:

وتَلقى الدّهر منْه بلَيْث غاب ... غَدَتْ سُمْرُ الرّماح لَهُ عَرِينَا
تَخالُ سُيُوفَهُ إمّا انْتَضاها ... جَداوِلَ والرّماحَ لَهَا غُصونا
وَتَحْسَبُ خَيْلَهُ عِقْبانَ دَجْن ... يَرُحْنَ مَعَ الظّلامِ ويَغْتَدِينَا
إذْ قَدَحَتْ بِجِنْحِ الليلِ أوْرَتْ ... سَنَا يغْشَى عُيُونَ النّاظرينَا
وإن جَنَحتْ مَعَ الإصْبَاحِ عَدْواً ... أثَارتْ لِلعَجَاجِ به دُجُونَا (١)

هكذا دفع الشاعر إعجابه بهذا البطل الفارس المغوار ، لما يملكه من قوة وشجاعة وبأس وإقدام فوصفه بالأسد الذى يخوض غمار معاركه في قوة وشجاعة محققاً فيها النصر والفوز ، وهنا اقتحم موضوع القصيدة مباشرة دون حاجة لتمهيد سابق أو مقدمة .

وقد تفيض مشاعر الحزن والألم على الشاعر عندما يفارق المحبوب فتسيطر عليه هذه الحالة فيلجأ إلى الشكوى مباشرة دون تمهيد، فها هوالمهذب بن الزبير نراه في موضع آخر من شعره يتألم لرحيل محبوبته مصورا حالة بعد رحيله وهو حزين متألم فيقول:

هُمْ نُصْبُ عيني: أنْجدُوا أو غَارُوا ... ومُنَي فُؤادى: أتْصَفُوا أو جَارُوا
وهُم مكانُ السرِّ من قلبـي ، وإن ... بَعُدت نَوىً بِهِمُ ، وشَطَّ مَزارُ
فَارقْتُهمْ وكأنّهم في نَاظري ... ممّا تُمَثّلُهُمْ لِيَ الأفكارُ
تَركُوا المَنَازِلَ والدّيارَ فَمَا لَهُمْ ... إلاّ القُلُوبُ مَنَازِلٌ ودِيَارُ (٢)

ويأتي على هذه الشاكلة عمارة اليمنى حينما طرق المدح مباشرة دون تقديم في احدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك فيقول:

في مثْلِ مَدْحكَ شَرْحِ القَوْلِ مُخْتَصَرُ ... وفي طُوَالِ القَوافي عِنْدهُ قَصَرُ
حسُنَتَ ذِكْرَ القَوَافي إذا مُدِحتْ بِهَا ... وَمَا عَلَي كل جَيْدِ تحسن الدررُ
وَمَا مَدَحْتُكَ لَكن مَدَحتْ بكَ الـ ... شعرِ الذى بكَ يَسْتَعْلَى ويُفْتَخَرُ
سَمَا بِكَ الدستَ لمَا نلْتَ مَنْزِلةً ... أَجلِ مَجْدَكَ فيهَا القَدْرُ والقَدَرُ
وبوأتك المَوَاضِي والقَنَا رُتَباً ... أضْعَافَها مِنْ ضَمَانِ الغَيْبِ مُنْتَظَرُ (٣)

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢٨
٢ – المصدر نفسه – ص ١٩٠
٣ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٥٢١

هكذا تفيض مشاعر الإعجاب بصفات طلائع الحميدة من كرم وشجاعة وقوة وذكاء فتدفع الشاعر لإنشادها مباشرة وطرق باب المدح دون تمهيد.

* وله في موضع آخر من شعره قصيدة بدأها بمدح الإمام العاضد لدين الله فيقول:

يَاخَير مَنْ نُظم المديحُ لِمَجْدِه ... وتنزَّلت سُوَرُ الكِتابِ بحمدِه
ياحُجَّةَ اللهِ التي بَضِيائها ... هُديتْ بَصيرَةَ حَائرٍ عن قَصدِه
أَنْتَ الذَى بَلَغَ النِّهايَةَ فِي العُلَى ... عفواً ولَمْ يَبْلغ بدايةَ جَهْدِه
وَرِثَ الهُدَاةَ الرَاشِدينَ إمامةً ... أَحْياً مَعالمَهاَ بواضحِ رَشْدِه
إنْ يَفْتَخِر بنبوةٍ ووصِيَّةٍ ... فَهُما تُراث عنْ أَبِيه وجدِه (١)

وهنا بدأ أيضاً عمارة بمدح الإمام العاضد مباشرة دون تقديم ، فقد سيطر عليه شعور حبه الشديد للفاطميين وآل البيت فاندفع مباشرة نحو المعاني المعبرة عن ذلك في مبالغة شديدة بالمدح.

ومما سبق يتبين لنا إدراك شعراء بنى رزيك لأهمية ارتجال المدح (خاصة) دون تقديم ، لأنه يُعلى من قدره عند الممدوح وتتوق النفوس لمعرفة تفاصيل أكثر عن هذا الممدوح.

وقد اقتفى بعض شعراء بنى رزيك أثر القدماء في استهلالهم لبعض قصائدهم، فهذا المهذب بن الزبير لم يتحرز – في اقتفاء أثرهم – مما حذر منه النقاد القدماء في استهلال القصائد بقول (خليلي) حيث اعتبروا هذا الاستهلال من علامات الضعف ، فنجد المهذب في مطلع إحدى قصائده يقول مبتدئاً:

خَلِيليَّ إنْ ضَاقَت بِلادٌ بُرحْبِه ... وَرائِى ، فَماَ ضاقَ الفَضاءُ أَمَامِياً (٢)

وأسامة بن منقذ أيضاً استهل غزله بالمطلع نفسه وكرره في البيت الثاني قائلاً:

خَليليَّ ، زُورَاِبِى "رُوَيْقَةَ"، إنَّني ... إليْهاَ، علَي قُربِ الزّيَارة، شَيِقُ (٣)
خَلِيليَّ، ما أَلَذُّ عَيْشاً ولاَ لَه ... إذَا ماَ نأَت عَنىِّ "رُويقَةُ" – رَوْنَق

كما استخدم عمارة اليمنى أيضاً كلمة (خليلي) عند وصفه هرمى مصر قائلاً :

---

١ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الأول – ص ٣٤٠
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٤٦
٣ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٤٣

خَلِيلِيَّ هَلْ تَحْتَ السَّمَاءِ بِنْيَةٌ   تُمَاثِلُ فِي إِتْقَانِهَا هَرَمَى مِصْرِ [1]

ب- التخلــــص :

اهتم شعراء بلاط بنى رزيك بعنصر التخلص من مقدمة القصيدة إلى الموضوع الرئيسي، لكي تلتئم المقدمة بالموضوع فلا يحدث انقطاع يفقد القارئ وحدة الانفعال، فيحدث عنده تشتت في فكره وإحساسه عند سماع القصيدة .

فحرصوا على اتباع بعض التقاليد القديمة الموروثة التى اهتم بها نقاد الأدب القدماء والمحدثين، وهي تجويد القصيدة فهي أول ما يجذب انتباه الممدوح أو السامع، ومنها يحسن التخلص ثم ينتقل إلى غرضه من القصيدة على حسب سواء أكان مدح أو غزل أو رثاء أو فخر ... وغيرها من الأغراض الشعرية، لذلك عنصر الربط أو (التخلص) هو الجزء المهم في القصيدة لأنه يربط أول القصيدة بما يليها؛ فلابد للشاعر الحاذق الماهر أن يجعل هذا الربط ربطاً جيداً بليغاً حتى يتوفر في قصيدته الوحدة العضوية والبناء الفني المتماسك، وأن يتوخى الحذر من البتر أو الانتقال فجأة لغرض القصيدة فهذا يعد بناء فني سيئاً .

ولذلك حرص نقاد الأدب القدماء حرصاً شديداً على الاهتمام بشكل القصيدة ودقة الخروج من جزء إلى جزء ، خروجاً يشعر بالتحام الأجزاء وتماسكها ، لا بوجود حواجز واضحة بينهما، ومن هنا جاءت العناية بالتخلص من المقدمة إلى الغرض الرئيسي واشتراط الدقة فيه . [2]

فها هو ابن طباطبا يحث الشاعر على أن يصل كلامه على تصرفاته في فنونه صلة لطيفة فيتخلص من الغزل إلى المديح - بألطف تخلص وأحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلاً به، ممتزجا معه.[3]

كما اهتم نقاد الأدب أيضاً بطبيعة المتلقى النفسية، وانفعالاته المختلفة في تنظيرهم لحسن التخلص من المقدمة إلى الموضوع ، حيث إن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن من الكلام إلى فن مباين له في الكلام نفورا

---

١ - ديوان عمارة اليمنى - المجلد الثاني - ص ٦٦٠

٢ - د. يوسف حسين بكار - بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث- طبعة دار الأندلس - بيروت ١٩٨٢ - ص ٢٢

٣ - ابن طباطبا - عيار الشعر - ص ٦ ، ص ٧

من ذلك، من غير جامع بينهما، وملائم بين طرفيها وجدت الأنفس في طباعها نفوراً من ذلك، ونبت عنه – وكذلك النفوس والأسماع إذا قرعها المدح بعد النسيب دفعة من غير توطئة ، لذلك فإنها تستصعبه ولا تستعمله، وتجد فجوة في انتقالها من غير احتمال، وتلطف فيما يجمع بين حاشيتي الكلام، ويصل بين طرفيه الوصل الذى يوجد للكلام به استواء، والتئام . (١)

هكذا يتبين لنا مدى اهتمام نقاد الأدب القدماء بطبيعة المتلقي النفسية وانفعالاته المختلفة كما تبين من خلال رأي حازم القرطاجنى – في تنظيرهم لحسن التخلص من المقدمة إلى الموضوع.

وقد أجاد شعراء بنى رزيك استخدام بعض الأدوات والأساليب للربط بين مقدمة القصيدة وموضوعها الأساسي ، وعلى الجانب الآخر منهم من أخفق في هذا الربط ، ولم يحقق اتصالاً في المعنى ولا وحدة للقصيدة في بنائها الفني ، ولم نستطع الحكم مباشرة على هؤلاء الشعراء الذين أخفقوا في عنصر التخلص فربما يرجع السبب إلى فقدان كثير من أشعارهم التى ضاعت أو أبيدت على أيدي الأيوبيين أو ما إلى ذلك ، فلم يصل إلينا من شعر الشعراء الفاطميين سوى القليل وأغلب هذا الشعر لم يكن كاملاً بل نشعر دائماً أنه ينقصه بعض الأبيات .

على أية حال ومن خلال ما لدينا من أشعارهم نجد أن هناك من الشعراء من أحسن التخلص من المقدمة ، ومما يمثل ذلك المهذب بن الزبير في قصيدته التي أنشدها لاستعطاف داعي الفاطميين في بلاد اليمن لإطلاق سراح أخيه ، فبعد أن أنشد مقدمة طللية حزينة تقع في أربعة وعشرين بيتاً يحسن التخلص منها في البيت الخامس والعشرين فيقول:–

لَمْ يَعصِمِ الله ابنَ مَعْصُومٍ من الـ ـــآفات، واخْتَرمَ اللَّعِينُ الأَخْــرَمُ
واَعْتَضْتَ بعدهمُ بأكرمِ معشرٍ بَدَعوا لَكَ الفِعلَ الجَمِيلَ وتَمَّمواْ (٢)

فربط باستخدام (لم) النافية الجازمة للتخلص من مقدمته الحزينة إلى موضوع الشكوى والاستعطاف لما حدث لأخيه وافتقاره لأخيه وتعطيل ربعه، ثم ينقم على الوشاة وعلى رأسهم (ابن معصوم) فهو الذى وشى بأخيه عند الداعى اليمنى، ثم يشرع المهذب في استعطاف داعي اليمن لإطلاق سراح

---

١ – أبو الحسن حازم القرطاجنى – منهاج البلغاء وسراج الأدباء – تحقيق محمد حبيب بن الخوجه – دار الكتب الشرقية – تونس ١٩٦٦م –ص٣١٩
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢٢

أخيه ومدحه بالكرم والجود وفيض العطاء من يديه ، فكان تخلصاً جيداً متمكناً في موضعه .

وإذا ما انتقلنا إلى ابن قادوس الذى لم يصل إلينا من شعره سوى قصيدة واحدة قد عرضنا مقدمتها فيما سبق، وهي مقدمة امتزج فيها الغزل مع الشكوى تقع في عشرة أبيات ثم ينتقل انتقالا سهلا لطيفاً من المقدمة إلى الموضوع وهو مدح طلائع بن رزيك فيقول في البيت الحادي عشر :-

وأصُونُ عقْدَ بلاغةٍ نَظَّمْتُهُ ... عَنْ أَنْ يُرى بسوىَ عُلاكَ مُفصّلا
يَامَنْ تَساوَتْ في العُلاَ أَقْسامُهُ ... وَسَما بِهمتِه فَكَانَ الأَفْضَلا (١)

انتقل الشاعر من مقدمته الغزلية إلى موضوع القصيدة وهو المدح في تخلص لطيف وسهل محافظاً على فكر الممدوح متصلاً ،ويوهمه باتصال المعنى بين أجزاء القصيدة عندما استخدم كلمة (عُلاكَ) والتى قصد بها طلائع بن رزيك ثم بدأ في البيت الثاني بمدحه وبالثناء على فضائله باستخدام أداة النداء (يا) .

أما ابن قلاقس فيتوسل بأسلوب التشبيه في تحقيق سهولة الانتقال ولطافة التخلص في إحدى قصائده التي مدح بها الحافظ السلفي وذكر طلائع بن رزيك والتى بدأها بمقدمة غزلية امتزج فيها الغزل مع ذكر ديار المحبوبة والتى استمرت في خمسة وعشرين بيتا، ثم انتقل للمدح في البيت السادس والعشرين، فنراه يقول :-

أو كأنَّ الظَّلْماءَ لَيلٌ وَضَوءَ الصّبـ ... ـحِ فيها لما تبسّمَ نارُ
أو مُحَيَّا الحَبْرَ الإمَامِ إذا مَا ... أُنشِدَت فِيه هكَذا الأشْعارُ (٢)

فتوسل الشاعر بأداة التشبيه (كأن) فأراد أن يشبه الليل والظلماء التي حل عليها ضوء الصباح الذى تبسم وأضاء كالنار كأنه وجه الحبر الإمام ، وهو وجه الحافظ السلفي ، لما فيه من تقى وورع وإيمان ، وهي معانٍ مدحية رقيقة تسر نفس الممدوح فأجاد فيها ابن قلاقس توظيف أسلوب التشبيه .

ويطرق التشبيه أيضاً المهذب بن الزبير في إحدى قصائده المدحية التى مدح بها طلائع بن رزيك واستهلها بمقدمة غزلية امتزج معها الوقوف على الأطلال، والتى استمرت حتى أحد عشر بيتاً ثم قال:-

---

١ - خريدة القصر - ج١ - ص ٢٢٨
٢ - ديوان ابن قلاقس - ص ٣١٢

فاستخدم المهذب أداة التشبيه (كأن) مشبهاً الدماء التى سالت على سيف سيف الدين من آثار الحرب والمعركة مثل حمرة خد المحبوبة وهو تشبيه بليغ أجاد فيه الشاعر وأحسن التخلص إلى موضوع القصيدة الأساسي وهو المدح.

وله في موضع آخر – قصيدة استهلها بمقدمة غزلية بديعة تقع في ثلاثة أبيات، ثم ينتقل إلى غرضه الأساسي منها وهو وصف الخمر ومجلس الشراب، فنراه يقول :–

كَأنَّ قُدودَهُمْ أنْبَتَتْ ... عَلَى كُثُبِ الرَّمْلِ قُضْبَانَها
حَجَجْنَا بِهَا كَعْبَةَ لِلْسُّرُورِ ... تَرَانَا نُمَسِّحُ أَرْكَانَهَا
فَطَوْراً أُعَانِقُ أَغْصَانَهَا ... وطَوْراً أُنَادِمُ غِزْلانَهَا
عَلَى عَاتِقٍ إنْ خَبَتْ شَمْسُنَا ... فَضَضْنَا عَنْ الشَّمْسِ أَدْنَانَهَا (١)

فها هو المهذب يتغزل في وصفه للخمر باستخدامه للفعل (أنادم) الذى يحتاج إلى حرف جر وهو (على) الذى جاء في البيت الذى يليه ، وهو تخلص جيد استطاع أن يربط الشاعر بين الغزل والوصف الذى أراده في هذه القصيدة.

وفي قصيدة أخرى أيضاً للمهذب بن الزبير نراه يشكو الزمان في مقدمة القصيدة ثم ينتقل إلى موضوعه الأساسي وهو الحزن على مصابه وهو رثائه لطلائع بن رزيك فيقول :–

لَقَدْ غَابَ عَنْ أُفْقِ العُلاَ كلُّ مَاجِدٍ ... له حاضرُ المَجْدِ التَّلِيدِ وغَائِبُهْ
إِذا نَكَرَتْه النَّفسَ بِتُّ كأنَّني ... أسير عِداً سُدَّتْ عليه مَذَاهِبُه (٢)

استخدم الشاعر التأكيد (بلام القسم) و (قد) في صورة الماضي (ولقد غاب ... كل ما جد) مؤكداً على أن الدهر هو الذى ارتكب هذه الجريمة بموت هذا البطل ثم استمر في توضيح أثر هذه الحادثة الأليمة في نفسه وفي حياته بعد رحيل طلائع بن رزيك عن الدنيا .

ومن المهذب بن الزبير إلى طلائع بن رزيك الذى توسل بأسلوب النداء في إحدى قصائده التى مدح فيها مناقب العترة الطاهرة – سلام الله عليهم – بعد أن استهلها بمقدمة غزلية تقع في تسعة أبيات يفصح عن وده وحبه لهم ينتقل في البيت العاشر فيقول :–

---

١ - المصدر نفسه – ص ٢٤٠
٢ – :المصدر نفسه – ص ١٧٧

فيَاقَلْب دَعْ عنْكَ التصَابي فَإن منْ تُحِبُ بمَا تَهْوى عليْكَ بَخِيل
ولُذْ بالكِرَامِ السَّالِكينَ منَ الهُدَى مَسَالكَ فيهَا للنّجَاةِ سَبِيلُ [١]

فهنا طرق الشاعر أسلوب النداء باستخدامه (يا) أداة النداء، فهو يقول لقلبه أن يترك حبه للمحبوبة وأن يعمره بحب آخر يكون مسلكه وطريقة للنجاة وهو حب آل البيت والإخلاص والولاء لهم ، فهنا تخلص طلائع بأسلوب جميل لينتقل إلى موضوعه الأساسي وهو مدح آل البيت .

أما ابن قلاقس فنراه في إحدى قصائده التى مدح بها الحافظ السلفى ذاكراً فضل طلائع بن رزيك التي استهلها بمقدمة غزلية رقيقة تقع في تسعة أبيات ثم ينتقل بعدها ويقول : -

وَقُلْتُ لغيثٍ طَبَّقَ الأَرْضَ مَاؤُهُ فَأَزَّرَ بِالنَّورِ الرَّوابِي وعَمَّمَا
يد الصَّالحِ المُنْصُورِ أعْظَمُ نَائلاً وأجْزَلُ إعْطَاءً وأوْفَرُ مَغْنَمَا [٢]

فاستخدم هنا الشاعر كلمة (قُلتَ) وهي تحتاج إلى جملة مقول القول والتى ربط بها بين ما سبقٍ في المقدمة من نسيب وغزل وبين ما أتى من مديح الحافظ السلفي مازجاً معه مدح طلائع بن رزيك وتهنئته بقدوم شهر رجب وهو موضوع القصيدة الأساسي .

ويأتي على هذه الشاكلة عمارة اليمنى في إحدى قصائده التي مدح فيها طلائع بن رزيك والتى استهلها بمقدمة ببكاء الشباب والتفجع على الأيام الخالية شاكياً من الزمان ثم ينتقل بأسلوب بديع فيقول :-

خليلَيَّ قُولاَ للْيَالي نيابَةً وَمَازَالَ خلُّ المرءِ عَنْه يَنُوبُ
تَغَيَّرَ بَعْدَ الصَّالح العَيْشِ فاغْتَدَتْ مَحاسِنَ أيامِى وَهُنَّ عُيوبُ [٣]

هنا يتخلص الشاعر من المقدمة مفتعلاً حواراً بينه وبين صديقين له باستخدامه كلمة (خَليلَيَّ) وجملة مقول القول للفعل (قولا) فهو أراد أن يبلغ طلائع بن رزيك بحاله التي هو عليها من عدم أمانٍ ويأسٍ من الحياة فلم يجد سواه المنجد الوحيد الذي عاش في كنفه وتغيرت حياته في رحاب أيامه الزاهية واستمرت أيضاً بعد رحيله عندما أكمل مسيرته ابنه العادل بن رزيك فمدحه عمارة وشكر فضله لما قدمه له ولغيره من حسنات وتبرعات تدل على كرمه الأصيل وجوده .

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق محمد هادي الأميني - ص ١١٢
٢ - ديوان ابن قلاقس - ص ٢٩٨
٣ - ديوان عمارة اليمنى - المجلد الأول - ١٤٣

وله في موضع آخر استخدم فيها وسيلة أخرى وهي أسلوب الاستفهام في إحدى قصائده التى مدح بها أخا طلائع وهو (فارس المسلمين) بدر بن رزيك والتى استهلها بمقدمة غزلية فنراه يقول :-

لَئِنْ سَاءَني لَيْلٌ بِهَجْرِك مُظْلِمٌ	لَقَدَ سرَّنى صُبْحٌ بوصْلك مُستقِرُ
ذَكَرْتُك والنسْيان يَمْلك خَاطِرى	وآية وَجْدى أنني لستُ أشْعرُ
سَلي خَلْوَتي عَنْ ضَميري: ألَمْ أصُنْ	هَواك؟ ومَعْروفُ الهَوى يتَنَكَّرُ
بِعَيْشِك هَلْ فِي الأَرْضِ غَيْرِى عاشِق؟	وَهَل فَارِسَ الإسْلام إلاَّ المُظَفَّرُ ؟ (١)

فلقد انتقل عمارة بمهارة وقدرة فائقة تنم عن شاعرية فطرية لأنه استطاع أن يفتعل هنا في البيت الثالث حواراً بسيطاً بينه وبين المحبوبة فيسألها بعض الأسئلة والتى يكون جوابها هو أن قلبه مشغول بممدوحه الذى يستحق المدح والثناء وقد أحسن وأجاد الشاعر في التخلص من المقدمة إلى الموضوع .

وله في موضع آخر – وهى قصيدة مدح بها طلائع بن رزيك سار فيها على نهج السابقين فاستهلها بمقدمة غزلية رقيقة تقع في أحد عشر بيتاً ثم يقول في البيت الثاني عشر :-

لَوْ كُنْتُ أَمْلكُ رُوحي وارْتَضيت بِهَا	بَذَلْتَها لَكَ لاَ زُوراً ولاَ مَلَقا
إنَّما (الصَّالِحُ الهادِي) تَمَلَّكَها	بِفَيْضِ جُودِ رَعَى آمَالَها وَسَقَى (٢)

وهنا لجأ عمارة إلى استخدام (لو) الشرطية مع كلمة (روحى) التى قصد بها أنه لو كان يملك روحه لأعطاها للمحبوبة إنما تملكها طلائع بن رزيك (الصالح الهادي) بفضل جوده وكرمه وسخائه الذى ناله الشاعر وعاش فيه .

كما نرى أسلوباً آخر استخدمه أيضا – عمارة اليمنى – في قصيدة أخرى مدح بها الصالح بن رزيك استهلها بمقدمة غزلية استمرت حتى البيت الخامس عشر ثم جاء في البيت السادس عشر ونراه يقول :-

أمْسَى وَقَلْبي بين صَبْرٍ خَاذِلٍ	وَتَجلُّد قَاصٍ وَهَمٍ دَانِ
قَدْ سَهَّلَتْ حَزْنَ الكلام لنادِبٍ	آل الرَّسول نَوَاعِبَ الأَحْزَانِ (٣)

---

١ – المصدر نفسه – المجلد الثاني – ص ٥٣٧
٢ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٧٠٢
٣ – المصدر نفسه – ص ٩٦٥

فهنا تخلص الشاعر من مقدمته بما في البيت الثاني من معنى وهو رثاء ندب آل البيت ذاكراً محاسنهم ومناقبهم، ثم يدخل في موضوع القصيدة مثنياً على الصالح بن رزيك .

فهؤلاء شعراء بذلوا قصارى جهدهم لتحسين تخلصاتهم وإلى جانب هذا هناك شعراء أخفقوا في التخلص من المقدمة بقطع الكلام فجأة بدون تمهيد مناسب، ونستدل على هذا بقصيدة المهذب بن الزبير التى مدح بها طلائع بن رزيك فبدأها بالوقوف على أطلال ديار المحبوبة في ثلاثة أبيات متذكراً أيام الود والوصل ما خلا ثم قطع هذه المقدمة دون تخلص فجأة فنراه يقول :-

يا أَيُّهَا المَلِكُ الذى أَوْصَافُهُ غُـررٌ تَجَلَّتْ للزَّمَانِ الأَسْفَعِ
لا تُطْمِعِ الشُّعَرَاءَ فِيَّ؛ فإنني لو شئتُ لمْ أَجْبُنْ ولَمْ أَتَخَشَّعِ [(1)]

وهذا الانتقال يعرف باسم (البتر) وهو أسوأ أنواع التخلص – وهذا الحكم وفقاً لما ورد لدينا من شعره فربما كان هناك بيت تخلص فيه لكنه فقد أوضاع، لكن من خلال ما بين أيدينا من شعره نراه انتقل فجأة دون تمهيد للمدح مثل باقي شعراء بلاط بنى رزيك .

ج- خاتمة القصيدة :

وكما اهتم نقاد الأدب بمقدمة القصيدة التى تجذب انتباه السامع ، وعنصر التخلص الذى يربط هذه المقدمة بما يليها من انتقال الشاعر لموضوع القصيدة ، اهتموا أيضاً بختام القصيدة أو نهايتها التى هي آخر ما يعلق في أذن السامع ، لذلك لابد أن يجودها الشاعر ويرعاها؛ فهي التى تحدد مدى إعجاب ممدوحه من القصيدة أو استيائه منها .

فيذهب ابن رشيق القيرواني إلى أن خاتمة القصيدة هي القاعدة وآخر ما يتبقى منها في الأسماع وسبيلها أن تكون محكمة ، لا يمكن الزيادة عليها ، ولا يأتي من بعدها أحسن منها ، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً وجب أن يكون الآخر قفلا عليه. [(2)]

ويتفق مع هذا الرأي أبو هلال العسكري الذى يقرر أنه ينبغي أن يكون آخر بيت في القصيدة هو أجود بيت فيها وأدخل في المعنى الذى قصد له الشاعر في نظمها . [(3)]

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٠١
٢ – ابن رشيق القيرواني – العمدة – ج١ – ص ٢٩٩
٣ – أبو هلال العسكري – كتاب الصناعتين – الكتابة والشعر – تحقيق / علي محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة / عيسى البابى الحلبى ، القاهرة – ١٩٧١م – ص ٤٦٤

كما يرى يحيى بن حمزة العلوى أنه من الأفضل أن يختم الشاعر قصيدته بنهاية طبيعية يتوقها السامع ، فمن الشعراء من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متصلة وفيها راغبة مشتهية ، ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعل خاتمة . (١)

وينبه حازم القرطاجنى الشاعر إلى أن يتجنب الألفاظ الكريهة أو معنى منفر للنفس لأن الإساءة فيها تعفى على كثير من الإحسان المتقدم . (٢)

كما يكره ابن رشيق أيضا من الشاعر الختام بالدعاء فهو من وجهة نظره من عمل أهل الضعف إلا للملوك فإنهم يشتهون ذلك . (٣)

ونجد هذا في شعر شعراء بلاط بنى رزيك نحو قصيدة ابن قلاقس التى مدح الحافظ السلفي ومعه طلائع بن رزيك مشيداً بكرمه فنراه يقول في ختامها:-

أيُّهَا الحَافِظُ الذِّى مِنْ يَدَيْهِ ... لِلْوَرَى بِاللُّهَى تَفِيضُ بِحَارُ
رَحَلَ الصَّوْمُ ثُمَّ وَافَى غَدَاةَ ازْ ... تَحَلَ الصَّوْمُ لِلْوَرَى الإِفْطَارُ
وأَتَانَا عِيدٌ وأَنْتَ لَهُ العِيـ ... ـدُ لك الله طُولَ عُمْرِكَ جَارُ
فَابْقِ واسْلَمْ مالاحَ بَرْقٌ وَغَنَّتْ ... فَوْقَ أَغْصَانِ بَاتَةٍ أَطْيَارُ (٤)

فبعد أن مدح الشاعر ممدوحه وهنأه بحلول عيد الفطر المبارك متمنياً له الخير، دعا له أيضاً في ختام القصيدة بطول العمر والبقاء .

وله في موضع آخر في ختام قصيدة مدح بها أيضاً الحافظ السلفي وامتزج معها مدح طلائع بن رزيك فيقول :-

سَأَحْمِلُ مِنْ فِكْرِي إِلَيْكَ قَصَائِداً ... تُرِيكَ مِنَ الأَلْفَاظِ دُرًّا مُنَظَّمَا
تُزِيدُ عَلَى مَرِّ الجَدِيدَيْنِ جِدَّةً ... وَتَنْشُرُ وَشْياً لِلْعُيُونِ مُنَمْنَمَا
فَلاَ زِلْتَ فِي عِزٍّ عَلِيٍّ وَرِفْعَةٍ ... فَمَا العَيْشُ إِلاَّ أَنْ تَعِيشَ وَتَسْلَمَا (٥)

---

١ - يحيى بن حمزة العلوى - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز -. ج٣- طبعة المقتطف القاهرة سنة ١٩١٤م - ص ١٨٣
٢ - حازم القرطاجنى - منهاج البلغاء - ص ٢٨٥
٣ - ابن رشيق القيرواني - العمدة - ج١ - ص ٢٤١
٤ - ديوان ابن قلاقس- ص ٣١٣
٥ - المصدر نفسه - ص ٢٩٨

ويأتي على هذه الشاكلة عمارة اليمنى في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك داعياً له بالدعوة المستجابة وجعلها آخر ما يقرع سمعه حتى تنال القصيدة اعجابه فيقول :-

ولما لَمْ أجِدْ عِنْدي جزاءً ... لكُمْ غَيْرَ الثَّنَاءِ المُستَطاب
شَفَعْتَ جَواهِر الألْفاظِ فيكُمْ ... بِمرْفُوعِ الدُّعاءِ المُسْتَجابِ [1]

وقد يختم بعض الشعراء قصائدهم بالفخر بنفسه وبشعره نحو المهذب بن الزبير في ختام إحدى قصائده المدحية التى مدح بها طلائع بن رزيك فيقول :-

والشِّعرُ ما إنْ جَاءَ فِيه مَطْلَعٌ ... حَسَنٌ، أُضِيفَ إليه حُسنُ المَقْطَعِ
كالوَرْدِ: أولُهُ بِزَهرٍ مُونِقٍ ... يأتِي ، وآخِرهُ بِماءٍ مُمتِعِ [2]

وهذه تعتبر ظاهرة تميز المهذب في شعره فهو كثيراً ما يفخر بنفسه وبشعره ، حتى ختم به قصيدته هذه بأن شعره كالورد مشبهاً إياه أن أوله كالزهر الجميل وآخره أو ختامه بالماء الممتع حلو مذاقه ومستساغ شرابه ، فهذه عادة المهذب أن يختم أغلب قصائده بالفخر بغرر الكلم ، وبديع الشعر وحسن قصائده التى يتوجه بها إلى ممدوحه ، وما يتبع ذلك من الإشارة إلى مواهبه الشعرية ومكانته العالية بين أقرانه من الشعراء وفي النهاية الحكم يرجع إلى الممدوح في تقدير تلك المدائح .

وله في موضع آخر في شعره في ختام قصيدة أخرى مدح بها الصالح بن رزيك ثم ختمها بالفخر بنفسه وبشعره فيقول : -

دُونى الذّي ظَنَّ أنّي دُونَه، فَلهُ ... تَعاظُمٌ لِينَالَ المَجدَ بالحِيَلِ
والبَدْرُ تَعظُمُ في الأبْصارِ صورَتُهُ ... ظَناً ، ويَصْغُرُ في الأفْهامِ عَنْ زُحَلِ
ماضَرَّ شِعْرى أنىَ ماسَبَقْتُ إلى ... (وأجاب دَمْعِى ومَا الدّاعى سِوى طَلَلِ
فإن مَدْحِى لِسَيفِ الدِّين تَاه بِه ... زَهَوا علَى مَدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ البَطَلِ [3]

فهي خاتمة مكررة اعتادها الشاعر في أغلب قصائده بالفخر بذاته ، وهو هنا لم ينافس أحداً ولم يقلد أكابر الشعراء أمثال (المتنبي) إنما هو شاعر يثق في شعره ومن جودته فخوراً به .

---

١ - ديوان عمارة اليمنى - المجلد الأول- ص ١٢٥
٢ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢٠٢
٣ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢١٤ ، ٢١٥

وقد يختم بعض الشعراء قصائدهم بخاتمة تلخص الغرض منها ، وهو في الغالب إشارة إلى كرم الممدوح وعطائه رغبة من الشاعر في نيل رضاد والظفر بجزيل عطائه .

فهذا المهذب بن الزبير في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك بالقوة والشجاعة ووصف جهاده ضد العدو وما تحقق له من انتصارات وبطولات في ميدان القتال؛ فيختم القصيدة بخاتمة تلخص الغرض منها مطرياً على كرم الممدوح وإنعامه وسخائه على شعبه قاصيه ودانيه ، مشيداً برفقته ورحمته بالعاجزين من الناس وبتسامحه وعفوه عن المسئ منهم فيقول : -

يامُنْعِماً ماَ للثَنَاء ولَوَ غَلاَ ... يَوْماً بماَ تُولِى يَدَاهُ يَدانِ
قَلَّدتَ أعْناقَ البرِيَّة كلَّها ... مِنَناً تَحَمَّلُ ثِقْلَهاَ الثَّقَلانَ
حتَى تَساوَى النَّاسُ فِيكَ وأصْبَحَ الـ ... ـقاصِي بِمَنْزِلةَ القَرِيبِ الدَّاني
ورَحِمْتَ أهْلَ العَجْزِ منهم مِثْلماَ ... أصْبَحتَ تَغْفِرُ للمَسئِ الجانيِ (١)

وله في موضع آخر من شعره في قصيدته التى استعطف فيها داعي اليمن لإطلاق سراح أخيه القاضي الرشيد يختمها بقوله :

ملكٌ حماهُ جَنَّةٌ لعُفاته ... لكنَّه للْحاسدينَ جَهَنَّمُ
أُثْني عليكَ بما مَنَنْتَ ، وأنتَ مَن ... أوصَافَ مَجْدكَ يامَلِيكاً أعْظَمُ
فَاغفرْ لي التَّقْصيرَ فيه، وُعَدهُ ... مَعَ ماَ تَجُودُ به علَيَّ وتُنْعمُ
وإذاَ المآثِرُ عُدِّدتْ في مَشْهد ... فَبذكرها يَبدا المَقالُ ويُخْتَمُ
وإذاَ تَلا الرَّاوون محكمَ آيِهاَ ... صَلَّى علَيْكَ السَّامِعُونَ وسَلَّمُوا
وكَفى برَأي إمامِ عَصْرِكَ نَاقِضاً ... ماَ أحْكَمَ الأعْدَاءُ فِيكَ وَأبْرَمُواْ (٢)

وهنا ختم المهذب قصيدته بمدح داعى اليمن بمعانٍ ترفع من منزلته وتعلى شأنه، وهي ظاهرة اتبعها الشعراء الفاطميون وهو المدح بالمذهب الشيعي حتى ينال الشاعر لدى ممدوحه مكانة مميزة وتنال اعجابه، فهنا يقول المهذب إن ممدوحه وقومه هم ملوك البأس والخير من حملة الرماح وأقيال قحطان الذين عرفت مكانتهم ، وبالرغم من ذلك فهم متواضعون مع سمو ناديهم ورفعة مجالسهم ، وكفاهم شرفاً ومجداً أن اختير الداعي من بينهم، ونال هذه الثقة من قبل إمام العصر، ثم طلب منه العفو والمغفرة شاكراً فضله وكرمه داعياً له آملاً في إثارة انفعالاته وأن تنال إعجابه القصيدة .

---

١ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢٣٧
٢ - المصدر نفسه - ص ٢٢٢، ص ٢٢٣

وإذا ما تركنا المهذب بن الزبير وانتقلنا إلى ابن قادوش نجد أنه ختم قصيدته التى مدح بها طلائع بن رزيك بخاتمة تلخص الغرض منها فيقول:-

ونَدَاك ، كُلِ مُؤمِّلٍ ما أمَّلاَ إلاَّ تجَهُمَ للعُفَاةِ وأمَّلاَ
مَلِكٌ يُلاَقِى الطَّيْفَ وهُوَ مُدرَّعٌ حَزماً، ويقتنصُ الفَوَارِسَ أعزَلاَ[1]

هنا حرص الشاعر على ختم القصيدة بالإشارة إلى كرم الممدوح دافعاً إياه لمزيد من البذل والعطاء .

ويأتي على هذه الشاكلة عمارة اليمني فهاهو في إحدى قصائده التى مدح بها أخا طلائع بن رزيك (فارس المسلمين) بدر بن رزيك ثم يختمها بخاتمة تلخص الغرض منها وهو المدح بالكرم والشجاعة والبأس وهي صفات حميدة تسر نفس السامع وتعلق في أذنه فنراه يقول:-

فَلاَ زِلْتَ يَلْقَاكَ الزَّمانُ مُكرَّراً وتَخْدِمِ بالمَدْحِ الذى لا يُكَرَّرُ
وعِشْ وَسَيْفُه الحادثاتِ مُوقَّرٌ وكاهِلُه من حَمْلِ شكرى مُوقَرُ
نجومٌ أبوها البَدْرِ لاشَكَّ أنَّها تُضِئُ بآفَاقِ المَعَالي وتَزْهَرُ
وأغْصَانَ مَجْدٍ أطلَعَتهنَّ دَوْحَةً تُساوَى لَهُ فَرْعَ كَرِيمٍ وعُنْصُرُ
وأشْبَالِ خِيسٍ كُلَّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ يرشحها لِلفَرَسِ لَيْثٌ غَضَنْفَرُ[2]

وهذا طلائع بن رزيك نراه في إحدى قصائده التى مدح بها آل البيت وعدد مناقبهم يختمها بخاتمة تلخص الغرض منها وهو المدح بالكرم مظهراً شوقه للقائهم فنراه يقول:-

علِي أهلِ بيتِ المُصطَفَى مِنْ صَلاَةٍ لَهاَ غَيْثٌ يمح هطُولُ
فَخُذْهاَ لَهُمْ مِنْ (نَجْلِ رُزّيكَ) مِدحَةً تَسِيرُ كمَاَ سَارَتْ صباً وَقَبُولُ[3]

وهي خاتمة تلخص الغرض من القصيدة وهو المدح بمعانٍ مذهبية صادقة معبرة عن حب طلائع الشديد لآل البيت .

وإذا انتقلنا إلى المهذب بن أسعد الموصلى نجد أنه ختم قصيدته التى مدح بها طلائع بن رزيك بخاتمة تلخص الغرض منها وهو المدح بالكرم والعطاء دافعا إياه لمزيد من البذل والعطاء خاصة بعد أن شكا له حاله من تدهور وحاجته للمال فهو يحاول أن يثير عطفه ويستدر عطاياه فيقول :-

---

١ - خريدة القصر - ص ٢٢٩
٢ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الثاني - ص ٥٥٢ ، ص ٥٥٣
٣ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق محمد هادي الأمينى - ص ١١٥

لاَ تَتْرِكْنِي ، ومَا أمَلْتُ في سفرِي … سواكَ ، نَحْو ألأَهْلِ صُعلوكا
أرىَ السِباخَ لها رِيٌ وقَدْ رَضِيَت … مِنْكَ الرّياضِ مُساواةَ وتَشْرِيكاً (١)

وهكذا نجد أن شعراء بلاط بن رزيك لم يلتزموا نهجاً معيناً في خِتم قصائدهم وإن غلب على أكثرها الخاتمة التى تلخص الغرض منها وغالباً ما يكون المدح لإدراكهم أن الممدوح يغدق عليهم من وراء هذا المال الوفير والعطايا الكثيرة .

ثانيا : القصيدة الرسالة :

لقد تنوعت تلك الرسائل التى دارت بين طلائع بن رزيك وأسامة بن منقذ في بنائها الفني بين الاتجاه المجدد والاتجاه المحافظ التقليدي .

كما تميز هذا الفن بخصوصية كون أن هناك رسالة وأخرى رداً عليها، لذلك عند تناولنا لهذه المراسلات الشعرية سنقف على القصيدتين القصيدة الأولى والثانية، وذلك من خلال :

أ- المقدمات :

لقد اقتفى أسامة بن منقذ أثر الشعراء القدماء في إحدى قصائده الشعرية التى بعث بها إلى طلائع والتى بدأها بمقدمة غزلية بديعة فيقول :-

أجيرَةَ قَلْبِي، إنْ تَدانَوا، وإنْ شَطُوا … وَمُنْيةَ نَفْسي، أنْصَفُوني أو اشْتَطُوا
عَصَيْتُ اللوَاحِي فيكُمُ ، وأطَعْتُمُ … مَقَالَهُمُ ، ما هَكَذَا فِي الهَوَى الشَرْطُ
ولَوْ علموا مقْدارِ حَظِّي مِنْكُمُ … وهَمِّي بِكُمْ زَالَ التَنافُسُ والغَبْطُ
إذَا كَانَ حظِّي منْكُم في دُنُوكُم … صدودٌ وهجرٌ، فالتداني هو الشَحطُ
فَياقَلبُ مَهْلاً ، لا تُرَعْ، إنَّ قُربَهمْ … إذَا هَجرَوا ، مِثْلُ التَنائي إذَا شَطُوا
هَواهُمْ هَوىً، لا البعدُ يُبْلِي جَدِيدَه … لَدَيْنا ، ولاعالَيه بالهَجْر يَنْحَطُ (٢)

فهنا بدأ أسامة رسالته (قصيدته) بمقدمة غزلية طويلة تقع في ثلاثة وعشرين بيتاً مفادها شكواه من فراق الأحبة وبعدهم عنه وهذا هو المعنى الظاهر لنا، والمعنى الباطن الذى يريده أسامة من وراء تلك المقدمة الغزلية هو شكواه من بعده عن صديقه الحميم طلائع وبعده عن مصر بلد الكرم والأحباب ، فلقد اتخذ أسامة من الغزل رمزا للتعبير به عن مراده وعن حبه واشتياقه لصديقه طلائع ملتزما البناء الفني التقليدي للقصيدة الشعرية .

---

١ - خريدة القصر – قسم شعراء الشام – ج٢ – ص ٢٨٤
٢ - ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٢٨

فرد عليه طلائع بن رزيك بقصيدة على الوزن العروضي نفسه والقافية نفسها (بحر الطويل وزنا والطاء رويًّا) ، والتزم فيها البناء الفني الموروث فبدأ قصيدته (رسالته) بمقدمة غزلية – أيضا – فيقول :-

هيَ البَدرُ لَكنَّ الثُّرَيـا لَهـا قُـرطُ	ومِنْ أَنجُمِ الجوزاءِ في نَحرِها سِمْطُ
مَشت، وعلَيها للغَمامِ ظَلائـلُ	تَظَلُّ. ومنْ نَسجِ الرَبيعِ لها بُسطُ
تَوَمُّ صَرِيعاً فـي الرِّحالِ كَأنَّـهُ	منَ السُّقمِ، وتُبْدى تَقَلُّبَهُ ، خَطُّ
فما اخضَرَّ تُربُ الأرضِ إلاّ لأنَّها	عَلَيه، إذ زارت ، بأقدامها تَخطُو
ولاَ طَابَ نَشرُ الروضِ إلاَّ لأنَّه	يُجَرُّ عَليه منْ جَلابيبِها مِرْطُ
ولاَ طَارَ نكرُ الظَّبْيِ إلاَّ وَقَد غَدَا	يَصُدُّ كَما صَدَّتْ، ويَعطو، كَما تَعطُو (١)

فلقد أتى طلائع بمقدمة غزلية بديعة وصف فيها جمال المحبوبة ودقق القول في جمالها وجمال وجهها وقدها وشعرها ورائحتها وأصلها العربي، موضحا لنا شدة تعلقه بها وشغفه بحبها ليعظم بعد ذلك ألم فراقها وبعده عنها الذى لا يختلف عن الألم الذى يشعر به من فراق صديقه الحميم أسامة بن منقذ الذى تركه في بحر من الشوق ليس له شاطئ ، وهكذا التزم طلائع بالبناء الفني التقليدي للقصيدة القديمة معتمداً على الغزل فيها كوسيلة للتعبير عن مشاعره الصادقة تجاه صديقه أسامة الذى تركه وما زال يحمل له في قلبه المودة والشوق إليه .

وهذا أسامة بن منقذ نراه يبدأ قصيدة أخرى بعث بها إلى طلائع رزيك التزم فيها أيضاً بالبناء الفني التقليدي حيث بدأها بمقدمة غزلية تمتزج بالشكوى وإظهار الحزن مع التعبير عن الحنين والشوق للمحبوبة فيقول :-

أنكَرِهُم الوُدَّ، إنْ صَدُّوا، وإن صَدَفُوا	إنَّ الكِرَامَ إذَا استَعطفتَهمْ عَطَفُوا
ولا تَرِد شافعاً إلاّ هَواكَ لَهم	يَكفيكَ ما اختَبرُوا مِنهُ وما كَشَفُوا
به دَنَوتَ، وإخلاصُ الهَوَى نَسَبٌ	كَما نأَيتَ، وإفرَاطُ الهَوى تَلَفُ
رَأى الحَسُودُ تَدانِي وُدّنا، فَسعى	حَتَّى غَدتْ بَينَ دَارَينا نَوىً قُذُفُ
وَمَا البَعيدُ الذى تنأى الدِّيارُ بِه	بَلْ مَن تَدانَى ، وعَنه القَلبُ مُنصَرِفُ
أجِيرةَ القَلبِ، والفُسطَاطُ دَارُهُمُ	لَمْ تَصقَبِ الدَّارُ، لَكِنَّ أصقَبَ الكَلَفُ (٢)

فلقد استهل أسامة رسالته (قصيدته) بمقدمة ذكر فيها الحبيب متألماً بسبب بعده عنه ، ونجد أن هذه المقدمة غلب عليها طابع الشكوى والحنين للمحبوبة، وعبر فيها عن شدة ألمه وعذابه من فراقها وأنه ليس لديه ما يعوضه عنها ، فبعده عنها عن غير رضى فهو مكرهٌ على ذلك؛ فيعاتب الزمن الذى تسبب في حرمانه من أحبابه .

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوى – ص ٦٤
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٣٥

وجدير بالذكر هنا أن في شعر أسامة بن منقذ نجد أن مرارة الفراق تضنيه أكثر من غيرها وهذا ظاهر في كثير من شعره الغزلي ، وأنه لم يسعد في حبه كثيراً بل كان دائماً معذباً شقياً به نتيجة عدم استقرار حياته واضطراره للهجر والابتعاد. [١]

فرد عليه طلائع بن رزيك بقصيدة تأتي على الوزن نفسه والقافية نفسها – لكنه لم يلتزم فيها بالبناء الفني التقليدي حيث دخل في جواب الرسالة مباشرة دون تمهيد بأية مقدمات فنراه يقول:–

آدابُك الغرُّ بَحرٌ، مالَهُ طَرَفُ ... في كلِّ سَمْعٍ بدَا من حُسْنِه طُرَفُ
نَقُولُ ، لمَّا أتَانَا ما بَعَثْتَ بِه: ... هَذَا كتَابٌ أتَى ، أمْ رَوْضَةٌ أُنُفُ
خطٌّ تنزَّهَت الأزْهارُ حِينَ بَدَا ... كَأنَه الدُّرُ، عنه فُتِّحَ الصَّدَفُ
إن نَظْمُهُ طَرقَ الأسْمَاعَ كانَ لهَا ... وإنْ حَوتْ عَطَلاً منْ حلْيَةٍ شُنفُ
رَقَّتْ حَوَاشِي كَلَامٍ أنْتَ نَاظمَهُ ... فيه، فَجاءَ كَزَهْرِ الرَّوْضِ يُقتَطَفُ
ورَدْتَ بَحْرَ القَوافي فاغْتَرَفْتَ، كَمَا ... قَدْ حَلَّ يَوْماً بِمدِّ النِّيلِ مُغْتَرِفُ[٢]

بدأ طلائع رسالته (قصيدته) بالدخول في الموضوع مباشرة وهومدح أسامة والثناء عليه مستخدماً أجود التعبيرات وأرق الألفاظ التى تعبر عن مدى تقديره لشخص أسامة ثم يفخر بكرمه وجوده وشجاعته وبأسه الذى لا مثيل له.

– فهنا تخلى طلائع عن قيود البناء الفني للقصيدة وعبر عن مراده مباشرة دون تقديم .

وثمة مقدمة غزلية أخرى أتى بها أسامة بن منقذ في إحدى رسائله التى بعث بها إلى صديقه طلائع بن رزيك فيقول :–

ما منْهُم لَكَ مُعتَاضٌ ، ولاَ خَلَفُ ... فَكَيفَ يَصْبرُ عَنْهُم قَلْبُك الكَلَفُ
إنْ جَارَ صَرفُ اللَّيالي في فِرَاقِهِمْ ... فَلَيْسَ عَنْهُم، على الحالاَت، مُنْصَرَفُ
هُمُ الهوَى، إنْ تنَاءَوا عَنْكَ أو قَرُبُوا ... هُمُ المنَى أقْبَلُوا بالوُدِّ أو صَدَفُوا
لا تَعتذرْ بالنّوى، إنّ الهَوى أبداً ... سيَّانِ فيه التّداني، والنّوَى القُذُفُ
فالشّوقُ تُطوى لَهُ الأرْضُ الفضاءِ كمَا ... تُطْوى. إذاَ استوْعَبَتْ مَضْمُونَهاَ الصُّحُفُ
جاهرْ بوَجْدكَ واعصِ اللّائمين وبُحْ ... بحُبِّهم؛ إنْ كتمَانَ الهوَى تَلَفُ [٣]

لقد اجتهد أسامة هنا في التعبير عن مدى حبه واشتياقه لصديقه الحميم طلائع، مظهراً شوقه له من خلال غزله في المحبوبة متخذاً من الغزل رمزا

---

١ – مقدمة ديوان أسامة – ص ٣٤
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٧١
٣ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٣٦

لموضوعه، فهذه المقدمة الغزلية المعنى الظاهر لها هو اشتياقه لمحبوبته إنما المعنى الباطن هو اشتياقه وحبه لصديقه طلائع ، ملتزما البناء الفني التقليدي للقصيدة العربية القديمة.

فأجابه طلائع برسالة (قصيدة) جاءت على الوزن نفسه والقافية نفسها لكنه تخلى فيها عن قيود البناء الفني فلم يلتزم البدء بالمقدمة أو التمهيد فيقول:-

عُلوُمكَ البَحرُ غمْراً ليسَ تُنْتَزَفُ ... أسماعَنَا لمَعاني دُرّها صَدَفُ
فَإنْ يُجدْ فَلتَةً في الدّهر ذُو أدَب ... تَجدْهُ منْ بَحْركَ الزّخار يُغْتَرفُ
تُجِيلُ فكْركَ في رَوْضِ العُقُول، فَلاَ ... تزَالُ تَخْتَارُ ما تَجتَني، وتَقْتَطفُ
بَعثْت منْها هَدياً في الوَرَى، جُليَتْ ... فالحُسْنُ وقْفٌ عليهَا لِيْسَ ينْصَرفُ
عذراءَ، تثبتُ فضلَ الواصفين لها ... فَقَدْ أفادت جَمَالاً كلُّ مَنْ يَصفُ
بَعثْتها ديماً تُروى بِهاَ عَطَشَ الصَّا ... دى، ومَسْكَنُها في سَيْرهاَالصُّحَفُ(1)

دخل طلائع في موضوع القصيدة مباشرة وهو المدح موضحاً مدى قدرة أسامة الشعرية الرائعة ومعانيه التي يستطيع التعبير عنها بقدرته الفائقة؛ فهو صاحب علوم ومهارة وكفاءة ، مثنيا عليه ومشيدا بصفاته الحميدة .

وهذا أسامة بن منقذ نراه يتجه إلى الاتجاه المجدد في إحدى قصائده التي بعث بها إلى صديقه طلائع عندما بدأ قصيدته (رسالته) بمقدمة تحمل معاني الشكوى من الدهر فيقول :-

كفَّ عنّي واشٍ ، وأغضَى رَقيبُ ... ونَهاني عن التصابي المشيبُ
ولَرتْنى السّنونَ نَهْجى ، وقَد كَا ... ن عَقَا، وهُوَ مَهْيَعٌ ملحُوبُ
وانقَضتْ شِرتَيَ، وشدَّ لي الحِـ ... ـلمُ حُبًا ، لا يحلُها ما يَريبُ
وَخبرتُ الأيّامَ حتى لَقَالَ النَّـ ... ـناسَ : هَذَا هُو الخبيرُ الأريبُ
وعَزيزٌ عليَّ أنى وقد جرَّ ... بتُ دَهْرِي ، لَمْ يَهدنى التَجْريبُ
وإذا حُمّت المَقاديرُ أخطا الـ ... ـمرءُ في الرّأيِ، حيث كان يُصيبُ (2)

ولقد استهل الشاعر قصيدته بالشكوى من الدهر معاتباً إياه على أنه تسبب في تقدمه في العمر، لكنه مع هذا فخور بكثرة خبراته وتجاربه التي مر بها في حياته وهذه هي الحسنة الوحيدة التي أخذها من تقدمه في السن إلا أنه يشكو من رحيل أعز صديق له فهو صفيه وخليله طلائع فلقد تسبب الدهر في الإبعاد بينهما . ثم يشكو من الدهر لما حل عليه من حوادث ونوائب ومحن بعدت عنه وبين صديقه طلائع .

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك - ص ٧٦

٢ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٨١ ولها تكملة في ص ٢١٢

هكذا أتى أسامة بهذه المقدمة على سبيل التجديد إلا أنها لم تختلف عن المعاني التي جاءت في المقدمات الغزلية التقليدية، فهي أيضاً تحمل معاني الشكوى والألم لفراق الصديق وتمنى القرب منه.

فردعليه طلائع برسالة (قصيدة) مدحية جاءت على الوزن نفسه والقافية نفسها أيضاً دون تمهيد أو ومقدمة فيقول :-

بأبي شَخْصُكَ الذي لا يَغيبُ عَنْ عِياني ، وَهوَ البَعيدُ القَريبُ
يَامُقيماً في الصَّدر، قد خِفْتُ أن يُؤ ذِيكَ لِلقلبِ حُرْقَةٌ ووجيبُ
وأَرى الدَّمْعَ لَيسَ يُطفئُ حَرَّ الـ ـوجد ، إنْ جَادَ غَيْثُهُ المَسْكوبُ
كُلَّ يَوْمٍ لِنارِ شوقي ما بَيـ ـنَ ضُلوعي، بماءِ جَفني لَهيبُ
وكذا الصَّبُّ يُحْسِنُ الجَوْرُ في الحُـ ـبِّ لَدَيهِ، ويَعذُبُ التَعْذِيبُ
لا يَهابُ الأُسودَ في حَوْمَةِ الحَرْ بِ، ويَقْتادُهُ الغَزالُ الرَّبِيبُ[1]

تحرر طلائع من قيود البناء الفني هنا فلم يلتزم البدأ بمقدمة أو تمهيد لموضوعه فنجد أنه مدح أسامة بأجمل العبارات وأرق الألفاظ، ووصفه بصفات بديعة مظهراً فيها المناقب التي تحلى بها أسامة ونظمها كقلادة في قصيدته واستمر هكذا طلائع يعدد مآثر صديقه وصفاته الحميدة .

فمن خلال هذه النماذج التي مرت بنا لطلائع نستطيع أن نلاحظ أنه لم يلتزم بالبناء الفني التقليدي في أغلب رسائله (قصائده) ، فربما لأنه يكون مشغولاً بموضوع القصيدة (الرسالة) فلا يحتاج إلى تمهيد أو مقدمة حيث تسيطر عليه مشاعر الحب والشوق لصديقه فيعبر عن هذا مباشرة .

قصائد مراسلات بدون مقدمات :

كتب طلائع بن رزيك قصيدة بعث بها إلى أسامة بن منقذ بدأها بقوله:

قُل لابنِ مُنْقِذ الذي قَدْ حازَ في الفَضلِ الكَمالا
فَلِذاكَ قَدْ أضْحَى الأنا مُ عَلى فَضائِله عِيالا
وَقَريضُهُ عِندَ الظِّما يُنسِيهِمُ الماءَ الزُّلالا
كالدُّرِّ واليَاقوت ، ما سَكَنَ البحارَ ، ولا الجِبالا
لَكِنْ يُجاوِرُ فَيضَ أيمـ ـانٍ، وأخلاماً ثقالا
ما كانَ ظَنّي أن يُحـ ـرَّمَ منهُ لي السِّحْرَ الحَلالا
كَمْ قَدْ بَعَثْنا نَحْوكَ الأشـ ـعارَ مُسرِعَةً عِجالا
وصَدَدْتَ عَنْها ، حينَ را مَتْ مِنْ مَحاسِنِكَ الوِصالا[2]

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك – ص ٥٨
٢ - ديوان طلائع بن رزيك – ص ٨٣

. بدأ طلائع قصيدته (رسالته) مباشرة بقوله (قل لابن منقذ) دون حاجة لتمهيد أو مقدمة فقد دفعته معاني المدح والثناء على صديقه الحميم وصفيه أسامة الذي بعث إليه كثيرا من الرسائل (القصائد) لكنه تأخر في الرد معاتبا صديقه بأسلوب فيه ود ؛ فهو عتاب لا يكون إلا بين الأصدقاء المخلصين .

فرد عليه أسامة بقصيدة جاءت على الوزن نفسه والقافية نفسها – أيضا – وقد تحرر فيها من قيود البناء الفني التقليدي فيقول :–

ياأشْـــرفَ الـــوزَراء أخْــــ	ـــلاقاً ، وأكَــــرمَهمْ فعـــالا
وأعــــزَّهُم جـــاراً ، وأمــــ	ـــنعَهُم حمـــىً ، وأجـــلَّ آلا
وأعمَهـــــم جُــــوداً، إذا	جـــادُوا وأكْثـــرَهم نـــوالاَ
فَلـــذاكَ قَـــدْ أضْـــحَى الأنَـــا	مُ عَلـــى مكارمـــه عيـــالاَ
وحَمَــــي الـــبِلاَد بِـــسيَفِه	عَـــنْ أنْ تـــذَال ، وأنْ تَـــدالاَ
وأحـــلَّ بالإفـــرنج فِـــي	برٍ وفِـــي بَحْرٍ نكــــالا [1]

بدأ أسامة قصيدته (رسالته) مباشرة دون تقديم أو تمهيد فدخل في موضوعه مباشرة وهو (المدح) فيقول (ياأشرف الوزراء أخلاقا) فنشعر من خلال هذا النداء أنه مهتم بالرد مباشرة على صديقه الذى عاتبه ولام عليه تأخر رسائله فاندفع أسامة في لهفة وشوق للرد عليه مباشرة مادحا إياه مؤكدا على كرمه وجوده وسخائه مشيدا ببطولاته وشجاعته وفروسيته وبلائه في محاربة الفرنج، معتذرا له عن أي تقصير فالعتاب على الدهر والأيام وليس عليه.

ويأتي طلائع على هذه الشاكلة في رسالة (قصيدة) أخرى بعث بها إلى صديقه أسامة بدأها مباشرة دون تمهيد فيقول :

ألاَ هَكَذا في الله تَمْـضي العَــزَائمُ	وتَمضِي لَدَى الحَرْبِ السُيُوفُ الصَوَارِمُ
وتُستَزلُ الأعْداءُ منْ طَوْدِ عــزِّهمْ	وليسَ سوى سُمرِ الرِّمَـاح سلالمُ
وتَغْزَى جُيُوشُ الكُفرِ في عُقْرِ دَارِهـَـا	ويُوطا حماها ، والأنـوفُ رواغـمُ
ويُوفى الكرامُ النَّـاذرُونَ بِنـذرِهم	وإنْ بُذِلَتْ فيـه النُفُـوسُ الكـرائمُ
نَذَرْنَا مَسِيرَ الجَيْشِ فِي صَفَرٍ ، فَمَا	مَضَى نِصفُهُ، حَتَّى انثَنَى وهْوَ غانِمُ [2]

دخل طلائع في موضوع رسالته (قصيدته) مباشرة دون تقديم وقد دفعته مشاعر الفخر بالفوز في المعارك التى خاضها ضد الإفرنج، فيصف بطولاته وشجاعة جنوده وانتصاراته في تصوير دقيق لإحدى المعارك التى خاضها وانتصر فيها جيشه على الفرنج حريصا على أن يصل هذا الوصف وهذه الصورة لنور الدين محمود ليتشجع ويتحد معه لمواجهة العدو .

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٦٥
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٩٢

فرد عليه أسامة بقصيدة مطولة تقع في ستة وستين بيتاً جاءت على الوزن نفسه والقافية نفسها تحرر فيها أيضاً من قيود البناء الفني التقليدي فدخل في الموضوع مباشرة دون مقدمات وهو مدح طلائع فيقول :-

لكَ الفضْلُ منْ دُونِ الورَى والمكَارِمُ ... فَمنْ حاتمٌ ، ما نالَ ذا الفخْرِ حاتمٌ
وَصلتَ ، فأغنيتَ الأنامَ عن الحيا ... وصُلْتَ ، فخافتْ منْ سُطاكَ الصَّوارمُ
وُجِدتَ علَى بُخْلِ الزَّمانِ ، فأينَ منْ ... نداكَ السَّكوبِ المُستهِلِّ الغمائمُ
تكفَّلْتَ للإسلامِ أنكَ مانعٌ ... حماهُ ، مُبيحٌ ما حَمَى الكفرُ هَادمُ
فأصبحْتَ ترْعَى سرْحه بصَريمةٍ ... منَ العَزْمِ ، لم تبلُغْ مداها العزائمُ
وأيّدتَه بالعدْلِ، والبَذْلِ ، والتُّقَى ... وضَرْبِ الطُّلَى، والصالِحاتُ دعائمُ (١)

دخل أسامة في موضوع القصيدة مباشرة دون تمهيد مؤكداً على قول طلائع في القصيدة السابقة وهو ما يملكه من قوة وشجاعة وحسن بلاء في خوض الحروب والمعارك معترفاً بقوة جيشه وبسالته في ميادين القتال .

ب- التخلص :

إن عنصر التخلص في مراسلات طلائع وأسامة الشعرية لم يكن عنصراً بارزاً ، ففي معظم قصائدهم (مراسلاتهم) لا نقف فيها على أبيات تسمى بحسن التخلص ، فهذه سمة تميز بها شعر هذين الشاعرين الكبيرين اللذين حرصا على أن تأتي الرسالة أو القصيدة كوحدة واحدة تمثلت فيها أغراضها.

وهناك مراسلات لجأ فيها طلائع وأسامة إلى استحضار المخاطب باستخدام أسلوب النداء للربط بين مقدمة الرسالة (القصيدة) وموضوعها . وهذه سمة من سمات الرسالة النثرية إذ إن استحضار المخاطب على هذا النحو سمة متشابهة بين القصيدة الرسالة والرسالة النثرية .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك رسالة أسامة بن منقذ التى بعث بها إلى طلائع وبدأها بمقدمة غزلية بديعة تحمل معاني الشكوى من فراق الأحبة وكان هذا هو المعنى الظاهر لنا إنما المعنى الباطن الذى أراده الشاعر وقصده هو شكواه من فراق صديقه طلائع وبعده عنه واستمر في هذه المقدمة الى البيت الرابع والعشرين فقال :-

أيَا ساكِني مِصْرَ، رَضِينَا لِبُعْدِكمُ ... عَنْ العَيْشِ والأيَامِ- لاَ تَبعدوا- سُخْطُ (٢)

فهنا توسل أسامة بأسلوب النداء المتمثل في أداة النداء (أيا) لاستحضار المخاطب وهي سمة من سمات الرسالة النثرية التى استعان بها أسامة للربط

١ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٧٤
٢ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ١٣٠

بين المقدمة أو التمهيد الذي يشبه التحية في الرسالة النثرية وبين الموضوع الأساسي للقصيدة وهو المدح فأجاد هنا الشاعر التخلص بما في المقدمة من معنى التي جاءت متسقة تمام الاتساق مع موضوع القصيدة .

وجاء رد طلائع على هذه الرسالة (القصيدة) برسالة (قصيدة) بدأها طلائع بمقدمة غزلية أيضا – تبين لنا مدى تعلقه بالمحبوبة وشغفه بها وهذا هو المعنى الظاهر لنا، إنما المعنى الذى قصده الشاعر هو شوقه وحنينه تجاه صديقه الحميم أسامة الذى تألم من أجل فراقه واستمرت المقدمة في ستة عشر بيتا ثم قال :

أَلَحِبَابَنَا بِالشَّامِ ، عِفْتُمِ جَوَارَنَا   فَجَاوَرَكُمْ في أَرْضِهَا الخَوْفُ والقَحَطُ (١)

فلقد أتى طلائع بقصيدة (رسالة) التزم فيها البناء الفني لقصيدة أسامة السابقة فاستعان هنا بأسلوب النداء – أيضا – المتمثل في أداة النداء (الهمزة) لاستحضار المخاطب وهو أسامة بن منقذ معتمداً على رابط معنوي ربط بين معنى المقدمة الغزلية وما تطرق إليه في المدح وهو موضوع القصيدة حيث ساوى طلائع بين بعُد الحبيب وبُعد الصديق فكلاهما كان محببا إلى نفسه ، وكلاهما كان فراقه مؤلما، لذلك توجه طلائع بالحديث مباشرة إلى صديقه بقوله (ألحبابنا بالشام) محاولاً استحضاره والتقرب منه ومخاطبته.

وفي رسالة (قصيدة) أخرى بعث بها أسامة بن منقذ إلى طلائع بن رزيك بدأها بمقدمة غزلية امتزج فيها معاني الشكوى وإظهار الحزن مع التعبير عن الحنين والشوق للمحبوبة ثم انتقل مباشرة إلى موضوع القصيدة وهو مدح طلائع فيقول :

مَنْ كَانَ لِى من حماةُ حنيسٌ ذى لبد   ضَارِ ، ولِى مَنْ نَداهُ رَوْضَةٌ أُنُفُ
من لَمْ يزَلْ لِى مِنْ جدوَى يَدَيْهِ غِنَىً   وَفِي ذَرَاهِ مِنَ الأَيَّامِ لِى كَنَفُ
المَلِكُ الصَّالِحُ الهَادِي الذى شهدَتَ   بِفَضْلِ أيامه الأَنْبَاءُ والصُّحُفُ
مَلِكٌ أقلُ عَطَايَاهُ الغنَى، فإذا   أدناكَ منه، فأدنى حَظِّكَ الشَّرَفُ
أَغَرُّ، أَرْوَعُ ، في كَفِّيهِ سُحْبُ نَدَى   تَمْتَارُ سُحُبِ الحَيَا مِنْهَا، وتَغْتَرِفُ
هُو الوَزِيرُ الذى يَأوى إلى وَزَرِ   مِنه الأَنَامُ ، فَيكفُوا كُلَّ مَا كَلِفُوا (٢)

فلقد انتقل أسامة من المقدمة الغزلية إلى موضوع القصيدة مباشرةً وهذا الانتقال يعرف باسم (البتر) وهو أسوأ أنواع التخلص، وهذا الحكم وفقا لما ورد لدينا من شعره فربما هناك بيت تخلص فيه من المقدمة لكنه فقد أوضاع مثل باقي الآثار الفاطمية النفيسة.

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٦٧

٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٢٩ ، ص ٢٣٠

وجاء رد طلائع على هذه الرسالة (القصيدة) برسالة لم يلتـزم بالبنـاء الفني التقليدي فلم يأتِ بتمهيد أو مقدمة للموضوع بينما دخل فـي موضـوع القصيدة مباشرة وهو مدح صديقه أسامة بن منقذ مثنياً على فـضائله وعلـى أخلاقه الحميدة معبرا عن مدى تقديره له في ستة وثلاثين بيتاً وهو عدد أبيات القصيدة التى اجتهد فيها طلائع أن تـأتي كوحـدة واحـدة ذات بنـاء فنـي متماسك.[1]

وفي رسالة (قصيدة) أخرى بعث بها أسامة بن منقذ إلى طلائـع بـن رزيك التزم فيها بالبناء الفني التقليدي في البدء بمقدمة غزلية ، والتى أظهـر فيها حبه ولوعته لفراق الحبيب في أسلوب بديع كرمز يعبر بـه عـن مـدى اشتياقه لصديقه طلائع واستمر على هذا النحو في معاني الغزل إلـى البيـت الحادى والعشرين ثم يقول :

دَعْ ذاَ ، وقُلْ لِبنَي الأمالِ: قَدْ وضَحَتْ   لَكُم سَبِيلُ الأمَانِي وانْجلَى الأسَفُ [2]

فلقد تخلص الشاعر هنا من مقدمته الغزلية بقوله (دع ذا) وهو تخلص لا يحبذه النقاد، لكنه تخلص اعتاد عليه الشعراء للانتقال من غرض إلى غرض آخر .

فرد عليه طلائع برسالة (قصيدة) تحرر فيها من قيـود البنـاء الفنـي التقليدي حيث دخل في موضوع القصيدة مباشرة دون تمهيد أو مقدمة والـذى يدور حول نفس المعاني والأفكار في ضرب من التكـرار لإظهـار المحبـة والصداقة التى جمعت بين هذين الصديقين فلم يحتاج هنا الشاعر إلـى بيـت للتخلص فالقصيدة جاءت كبناء واحد متماسك . [3]

هكذا يتبين لنا من خلال مراسلات طلائع وأسامة الشعرية أنه لم يعتمد فيها الشاعران على عنصر التخلص وهما أجادا الربط والتماسك بين مقدمـة الرسالة وموضوعها فغالباً ما تكون المقدمات متسقة تمامـاً مـع الموضـوع وكأنها جزء لا يتجزأ منها ، وهذا يبين لنا أيضاً أن التزام الشاعرين بعنـصر المقدمة جاء على سبيل الولاء للتراث العربي القديم .

ج- الخاتمة :

وكما اهتم الشاعران المتراسلان في مراسلاتهما الـشعرية بالمقـدمات وحرصا على أن تفتتح رسائلهما بأرق الألفاظ وأجود العبارات للتعبيـر عـن

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك – ص ٧١
٢ - ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٣٧
٣ - ديوان طلائع بن رزيك – ص ٧٦

صدق المشاعر والإخلاص اجتهدوا أيضا في الاهتمام بخواتيم مراسلاتهم الشعرية التى هي آخر ما يعلق في أذن السامع فلابد أن يكون كلام مما تشتهيه النفوس .

فجاءت خواتيم هذه المراسلات إما بإهداء السلام والمدح والثناء ، أو بخاتمة تلخص الغرض منها أوختام بالدعاء على الرغم من أن ابن رشيق يرى من وجهة نظره أنه من عمل أهل الضعف إلا للملوك فإنهم يشتهون ذلك . (١)

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول أسامة بن منقذ في ختام إحدى رسائله التى بعث بها إلى طلائع بن رزيك بخاتمة تلخص الغرض منها مؤكداً على كرم ممدوحه وشجاعته حريصاً على الدعاء له بأن يبقيه الله دائما متحكماً في الأمور وأن تسير الأقدار بأمره وحكمه فيقول:-

وما النَّاسُ إلاَّ آلُ رُزِّيكَ ، إنَّهمُ	همُ الذَّادةُ الشُّبَانُ، والسَّادَةُ الشُّمَطُ
بَنُو الحَرْبِ فِي يَوْمِ الوَغَى، وبَنُو النَّدَى	إذَا ماَ بِلادُ النَّاس جَرَّدهَا القَحْطُ
إذَا ماَ احْتَبوا فالرَّاسِياتَ رجاحَةً	وإنْ رَكَبُوا فَالأُسدُ هِيجَتْ لَهاَ نَحْطُ
لَهُمْ جَبَلٌ لاَ زَعْزَعَ الخَطْبُ رُكْنَه	بِه تُؤمَنُ الأَحْدَاثُ والمَيْتَةُ الغَبْطُ
أَقَرَّ الوَرَى أنَّ لَيسَ كُفْئاً لمُلْكِه	سِواهُ، فَقَدْ زَالَ التَّنَافُس والغَبْطُ
فلاَ زالَت الأَقْدَارُ تَجْرِى بِأمْرِه	وَفِي يَدِه حَلُّ المَمَالكِ والرَّبطُ (٢)

هكذا حرص أسامة على أن يجعل آخر بيت في رسالته هو دعاء لممدوحه متمنياً له علو شأنه ودوام الملك ومعبراً له عن صدق مشاعره تجاهه.

فرد عليه طلائع برسالة (قصيدة) بديعة ختمها بخاتمة جيدة بعد أن حمله رسالة يبلغها لنور الدين محمود صاحب الشام محرضاً على الجهاد والخروج للتكاتف لقتال الفرنج، وهذا هو هدف طلائع من رسائله التى كان يرسلها إلى أسامة وهو إظهار قدراته ومهاراته الحربية لنور الدين محمود وذلك عن طريق أسامة فهو حلقة الوصل بينهما فنراه يقول:-

فَقُولُوا لنُورِ الدِّين: لَيسَ لجَائفِ الـ	ـجِرَاحَات إلاَّ الكيُّ فِي الطِّب والبَطُّ
وَحَسمُ أُصُولِ الدَّاءِ أَوْلَي لعاقِل	لَبِيبٍ ، إذاَ استَوْلَى عَلَى المُدْنَف الخلْطُ
وشَمِّرْ، فَإنَّا قَدْ أَعنَّا بِكُلِّ مَا	سَأَلْتَ، وجَهَّزْناَ الجُيُوش، ولَن يُبْطُوا
ودُونَكَ مَجدَ الدِّين، عَذْرَاءَ زَفَّها	إلَيكَ الوَفَاءُ المَحْضُ والكَرَمُ السبطُ

١ - ابن رشيق - العمدة - الجزء الأول - ص ٢١٩
٢ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٢٥

هَدياً تَهادى بَيْنَ حُسْنٍ وَفَاتِنا   وإنْعامناَ ، ذا التَّاجُ زان ، وذا القُرْطُ
عَلَى أنّها تَشْتَطّ إنْ هِـي ساجَلَتْ   (أجيرة قَلْبي. إنْ تداتوا، وإنْ شطُّوا)(١)

فختم طلائع رسالته في آخر بيت بقوله في الشطرة الثانية (أجِيرَةَ قَلْبي، إنْ تَدَانوا، وإنْ شطوا) وهو الشطر الأول من البيت الأول في قصيدة أسامة السابقة التى بعثها إليه في قوله :-

أجِيرَةَ قَلْبي إنْ تَدَانَوا ، وإنْ شَطُّوا   ومُنية نَفْسِى ، أتُصِفُونِي أوْ اشْتَطُّوا

فهو أسلوب بديع يعد من الخواتيم الجيدة البديعة .

كما يطرق أسامة الدعاء في ختام إحدى قصائده (رسائله) التى ردَّ بها على طلائع ولم يلتزم فيها بالبناء الفني التقليدي؛ حيث دخل في الموضوع مباشرة دون تمهيد أو تقديم وهو مدح طلائع بالقوة والشجاعة والجود والكرم وحسن بلائه في خوض الحروب، معترفاً بقوة جيشه وبسالته في ميادين القتال واستمر في هذا المعنى حتى ختم قصيدته بخمسة أبيات بديعة فيقول:-

أتتكَ ابنةُ الفكر الحسير، وإنّها   تَسيرُ مَسيَر البَدْر، واللّيلُ عاتمُ
بمَدْحِ بَديعٍ من ولىّ مُمَدَّحٍ   جَديرٍ بأنْ يُغْلى به السومَ سائمُ
تَسومُ جَميلَ الرأيِ، لا المالَ إنّه   بَذُولٌ له فيمَا قَضتَه المكارمُ
تَضَمَّنَ رَوْضاً ، زَهْرُه مَدحُ مَجْدِكَ الـ   ـعلىّ ، وأوْرَاقُ الكتاب كمائمُ
فدمْتَ ، ودامتْ هَالةٌ، أنْتَ بدرُها   ومُلْكك، ماكرّ الجَديدانِ، دائمُ (٢)

فهي خاتمة بديعة يوضح لطلائع فيها أنه نظم من أجله واحدة من بنات أفكاره التى تسير مسرى البدر في الظلام ليبعثها لشخص جدير بأن يمدح وهو طلائع صديقه الحميم داعياً له بالدوام في الدنيا فهو بدرها وهي ملك يمينه طالما أن هناك ليلاً ونهاراً دائمان .

وفي رسالة أخرى أرسلها أسامة إلى طلائع غرضها المدح فختمها بشكواه من الزمان مبيناً ما حل عليه من نوائب الدهر حتى تشتت شمله طالباً من طلائع يد العون والمساعدة متمنياً أن يجمع الله شملهما مرة ثانية فيقول :-

أشْكُو زَماناً قَضَى بالجَورِ فيَّ، ولم   يَزَلْ يَجُور عَلَى مِثْلى ويَعْتَسِفُ
لَحَت نَوائبهُ عُودى، وأنْفَدَ مو   جُودى ، وشَتّتَ شَمْلى ، وَهُو مُؤتَلِفُ
فاجْمع بِجُودكَ شَمْلاً كَانَ مُجْتَمعاً   فَعادَ بَعْد ائتلاف ، وَهُو مُخْتَلِفُ
وانْشر بِمَعْرُوفك المعْرُوفِ مَيّتَهم   وشُكرَ مَنْ هُو بالإحْسانِ مُعْتَرِفُ

١ - ديوان طلائع بن رزيك - ص ٦٩ ، ص ٧٠
٢ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٧٧

فهـو القريـبُ مَـوالاةً ومُعْتَقَـداً وإنْ أتتْ دُونـه الغبْـراءُ والنُّطـفُ
وعشْ على رغم من يشْنأك مُقتدراً في دَوْلةٍ ، مالها حدٌّ ولا طَرفُ [١]

فهي خاتمة تنم عن مدى ارتباط أسامة بطلائع وثقته بأنه يستطيع أن يخفف عنه أزماته ومحنته لذلك يتمنى له دوام العيش والملك والغنى .

فرد عليه طلائع برسالة مدحه فيها وفخر بكرمه وجوده الذى لا مثيل له واستمر في هذا المعنى في ستة وثلاثين بيتاً وهو عدد أبيات القصيدة التى ختمها بقوله :-

وقدَّمَتْ لَـكَ تَمْهِيـداتُنا ، وبِهـاَ وَحْشُ الفَلاَةِ إذاَ مـا رُوِّعَـت أُلُـفُ
كأنَّنا حـينَ تَجْـرى ذُكْـرَةٌ لَكُـمُ عَلَى اضْطَرَامٍ لَهِيبِ النَّـارِ نَعْتَكِـفُ
فإنْ يُبالِغْ أُنَاسٌ في الثَّنـاَءِ علَـى أوْصَافِكمُ قَصَّرُوا في كُلِّ ماَ وَصَـفُوا
فَخُذْ نِظَاماً علَـى قَدْرِ الذِى كَتَبَت يدَاك إذْ عَدَدُ النَّظْمَـينِ مُؤْتَلِفُ [٢]

وهنا أجاد طلائع في ختام قصيدته ففي آخر بيت ختم وكأنه يهديه السلام محملاً بتلك الهدية وهي ذلك النظم أو الشعر الذى جاء جواباً على ما قدمت يداه من قبل فهذا تعبيرعن قمة الإخلاص في المعاملة والود والصداقة القوية التى تربط بين الشاعرين .

وثمة خاتمة أخرى لأسامة بن منقذ ختم بها إحدى رسائله التى بعث بها إلى طلائع والتى شكا فيها له من الدهر والأيام إلى أن ختم بمدحه فيقول :-

ولَـه بـالنَّوال بَـاعٌ طَويـلٌ ويـدٌ سَـبطة ، وصـدرٌ رَحيـبُ
وبِأيامِـه تبسَّـمتِ الدُّنيَـا سُروراً، فلا اعتَـراهَا قُطُوبُ [٣]

فهي خاتمة تلخص الغرض من الرسالة مذكراً إياه بكرمه وجوده وسعة صدره وبهاء الأيام في عهده.

فرد عليه طلائع بقصيدة مدحه فيها وأثنى عليه واصفا خصاله ومناقبه الحسنة وهي من أجمل القصائد التى تضمنت أرق العبارات والأوصاف البديعة مظهرا فيها صفات أسامة الحسنة كما ينوه فيها عن مركز هو السامى وجهاد ضد العدو بالقول والفعل فهو في حرمه الوغى شجاع لا مثيل له ويستمر على هذا النحو ثم يحمله رسالة والتى يحرص على أن يبلغها إلى نورالدين محمود وهي حثه وتحريضه على الاتحاد معاً لمواجهة العدو فيقول:

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٣٠ ، ص ٢٣١
٢ - ديوان طلائع بن رزيك – ص ٧٥
٣ - ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢١٤

فانهضِ الآنَ مُسرعاً، فَبِأمثـا لِكَ ما زال يُدرِكَ المطلوبُ
والقِ عنَا رسالةً عندَ نور الدِ دِين . ما في إلقائها ما يَريبُ
قُل لهُ دَمْ مُلكه ، وعليه من لباسِ الإقبال بُردٌ قَشيبُ:
أيُها العادلُ الذى هُوَ للدين شَبابٌ وللحُروب شبيبُ
قدْ كتبنا إليكَ، فأوضحْ لنا الآن بماذا عَن الكتاب تُجيبُ
فلدينا من العساكرِ ما ضاقَ بأدناهُمُ الفضاءُ الرَّحيبُ
وعلينا أنْ يُستَهل على الشامِ ، مكانَ الغيُوث ، مالٌ صَبيبُ
أوْ تَراها مثلَ العرُوسِ: ثَراها كُلُّهُ منْ دَم العِدا مَخْضُوبُ
ولِجَمْعِ الحُشُود منْ كلِّ حصنٍ سَلَبٌ مُهمَلٌ لهُمْ ونَهُوبُ
وبِحلولِ الإلهِ ذاكَ، ومنْ غالبَ ربَّي فإنهُ مَغلوبُ [١]

هكذا يحرص طلائع في مراسلاته الشعرية التى بعث بها إلى أسامة أن يحمله رسالة يبلغها لنور الدين مادحاً إياه بأنه هو الذى جدد شباب الإسلام بخوضه غمار الحروب، فهو المنتظر للقاء العدو لنصر المسلمين ، ويستمر هكذا طلائع في أسلوب شبيه بالنثر موجهاً حديثه إلى نور الدين محمود إلى أن ختم بالإشارة إلى أهمية الجهاد ضد العدو الذين يحاربون الله ومن يحارب الله فلن ينتصر فإنه مغلوب ، وهي خاتمة تلخص الغرض من القصيدة .

وعلى هذا النحو تدور المعاني والأفكار في ضرب من التكرار في مراسلات طلائع وأسامة الشعرية التى هي قريبة من النثر منها إلى روح الشعر في خصائصه وسماته وعناصره ، لذلك لم يلتزم فيها الشاعران بالبناء الفني التقليدي للقصيدة المنشدة في المقدمة والتخلص والخاتمة .

بين القصيدة المنشدة والقصيدة الرسالة :

١- لقد تأرجحت القصيدة المنشدة في بنائها الفني بين الاتجاه المجدد وبين الاتجاه المحافظ، فمن الشعراء من التزم بأن يقتضى أثر القدماء في قصائده متأثراً بالنهج القديم في مطلع قصيدته بمقدمة غزلية أو طللية ، ومنهم من مزج الاثنين معاً ثم أحسن التخلص من المقدمة وأجاد الانتقال إلى موضوع القصيدة ببراعة وإتقان ، مع إجادة الربط بين المقدمة والموضوع برابط قوي يجعل القصيدة كأنها بناء واحد متماسك . ثم ختام القصيدة بأسلوب بديع وعبارات تسر نفس الممدوح سواء بالدعاء له أو بالمدح أو بالفخر بمآثره وحسناته .

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك ص ٦١ : ص ٦٣

ومنهم من بدأ بمقدمات ذات موضوعات ذاتية كالشكوى من الدهر أو بكاء الشباب أو وصف الطبيعة كما ألزم البعض نفسه بالحفاظ على المعنى التقليدي للمقدمات الجاهلية فبكوا الأطلال على غرارهم، رغم أنهم عاشوا عيشة حضرية بعيداً عن البادية .

وهناك قصائد منشدة طرق فيها أصحابها الموضوع مباشرة دون تقديم ، وغالباً ما كان الغرض منها هو المدح ، فارتجال المدح في ذلك الحين كان صنعة الشعراء ووسيلة الرزق والعيش بالنسبة لهم ، فلذلك هو يمثل الجانب الأكبر من شعر بلاط بني رزيك .

٢- لقد طرق الشعراء الوافدون على مصر بعض الكلمات والألفاظ الخاصة بالعقيدة الفاطمية الشيعية متأثرين بها ، فظهرت في أشعارهم ومدائحهم خاصة التي سيقت للخلفاء والوزراء ومدائحهم لآل البيت ، حتى تسر نفوسهم وتنال الرضا عندهم ، أو اختتموا بها قصائدهم بمعان مذهبية .

٣- لقد اتضح لنا أن الشعر الفاطمي حقاً جدير بالدراسة والبحث – بالرغم من صعوبة العثور عليه – لما فيه من قصائد بديعة تحمل معانياً وصوراً وألفاظاً متلاحمة وقصائد منشدة ذات بناء فني متماسك قوي ، استطاع فيها الشعراء أن يجددوا وينوعوا في موضوعاتهم محافظين على روح التقاليد العربية القديمة من التراث النقدي .

٤- نظم شعراء بني رزيك قصائدهم المنشدة في أسلوب سهل وبسيط واجتهدوا في انتقاء الألفاظ والعبارات حتى تآزرت وتلاحمت وكونت لنا صوراً بديعة وأفكاراً جميلة ومن خلالها بنيت القصيدة الشعرية بناءاً فنياً جيداً.

٥- ظهر في شعر بلاط بني رزيك اهتمام الشعراء بشعر الجهاد الذي قد يأتي بمفرده أو يأتي ضمن قصائدهم المدحية ، ويتسم بالطابع القصصي، وفيه يعتمد الشاعر على حكمة التفاصيل في المعركة ، وكأنه ينقلنا إلى ساحة القتال في براعة وإتقان، وهذا يبين لنا ما كان لشخصية طلائع بن رزيك وحروبه المتواصلة مع الإفرنج من أثر في نفوس الشعراء ، فانطبع عليهم فأنتجوا شعر الجهاد .

القصيدة الرسالة :

لقد تبين لنا من خلال قراءة تلك المراسلات الشعرية التي دارت بين الشاعرين الكبيرين طلائع بن رزيك وأسامة بن منقذ بعض النقاط ألا وهي :

١- لم يلجأ كلا الشاعرين إلى المقدمة الطللية نظراً لأنهما يفصحان عن ود وحب فلا حاجة هنا إلى اصطناع مقدمات لا ترتبط بموضوع قصائدهما، لذا لجأ كلا الشاعرين إلى الغزل المرتبط بمشاعرهما الصادقة الحقيقية .

٢- تتطلب القصيدة الرسالة رداً عليها ، وما لاحظناه في تلك المراسلات أن القصيدة التي يأتي فيها الرد أو الجواب تكون على الوزن نفسه والقافية نفسها بل وتتفق معها في الموضوع .

٣- لقد استهل أسامة بن منقذ بعض رسائله بمقدمة غزلية ، متخذاً من الغزل هذا رمزاً ليعبر به عن مشاعره تجاه صديقه الحميم طلائع بن رزيك فلم يلجأ إلى الغزل الحسي أو الصريح، إنما عبر في غزله في عفة ووقار كمدخل لموضوع القصيدة ، وأجاد في الربط المعنوي بين المقدمة والموضوع محققاً الوحدة العضوية والبناء الفني السليم في رسائله فغزله جزء لا يتجزأ من موضوع قصيدته ، فيجعله مع غرضه نسيجاً واحداً.

٤- ومن الملاحظ أيضاً في شعر أسامة أنه شاك حزين حتى في غزله الذى يستهل به رسائله، فكما قال د. أحمد بدوى محقق ديوانه (لا تكاد تلمح فيه ابتسامة سرور) ويرجع هذا الحزن لما تعرض له أسامة في حياته من محن ومصائب، وهناك بعض الرسائل دخل فيها أسامة في الموضوع مباشرة دون تقديم ، وفيها استطاع أن يعكس لنا حالته النفسية وهي نتيجة لخوفه وقلقه على أهله الذين تركهم أمانة عند طلائع بن رزيك .

٥- كما تبين لنا مدى صلة أسامة بطلائع ، فهي صلة قوية حقيقية بدأت قبل خروج أسامة من مصر واستمرت إلى مقتل طلائع ، فلقد حاول طلائع مراراً وتكراراً إقناع أسامة أن يظل في مصر حتى أنه أغراه بولاية أسوان لحماية جنوب مصر، لكن خشية أسامة من فتن مصر وسوء ظن أهلها به جعلته يؤثر السلامة ، ويمتثل لنصيحة نور الدين ، ولعل أسامة ببصيرته الثاقبة رأى أن من التسرع العودة إلى مصر استناداً إلى صديق واحد قد لا يدوم .

٦- من خلال هذه الرسائل كشف لنا طلائع عن إحساسه تجاه رحيل أسامة ، فهو دائم الشعور بأن رحيله عن مصر كان خسارة كبيرة لا تعوض، لما لديه من خبرة ودراية وتجارب عديدة في ميادين القتال هذا من

ناحية ومن ناحية أخرى احتياج طلائع لمدائح أسامة التي تبرز مجده وتثري بلاطه .

٧- كما اتضح لنا أن طلائع لم يسلك النهج الفني التقليدي في بنائه الفني للقصيدة فلقد غلب على قصائده الاتجاه المجدد في أغلب الأحيان خاصة القصائد التي بدأها مباشرة بدون تقديم والدخول إلى غرضه منها وفي الغالب كان غرضه المدح ثم وصف حروبه وانتصاراته التي خاضها مظهراً قوته وبسالته، فخورا بذلك، كما أنه حرص كل الحرص على تمجيد ملكه وتعضيد بلاطه الذى ظل طوال مدة وزارته أن يثريه ويزيده بالعلم والثقافة والمال والأسلحة والجيش القوي لتوفير الأمن والسلام والرخاء للبلاد، فجلالة الموقف وسخونة الموضوع غالباً ما كانت تسيطر عليه وتجعله يبدأ القصيدة مباشرة دون مقدمات .

٨- ويرجع السبب أيضاً في عدم استهلال طلائع لقصائده بمقدمات أنه كان فارسا مغوارا، رجل حرب وقائداً عظيماً ، فليس لديه من الوقت أن ينظم مقدمات ثم ينقحها ويجودها ثم يخلص منها إلى غرضه الأساسي، إنما ارتجاله للموضوع مباشرة كان أصدق وأكثر دليل على قدرته الشعرية الفائقة .

٩- كما تبين لنا من خلال تلك المراسلات أنه تراءى لطلائع أن وجود صديقه أسامة بن منقذ إلى جانب نور الدين محمود فرصة عظيمة أحسن استثمارها ، فاتخذ من أسامة سفيراً مقيماً لدى نور الدين يوالي إليه رواتبه في صورة عطايا جزيلة ويوالى أيضاً تكليفه بالمهام السياسية التى أهمها بالدرجة الأولى حث نور الدين على مواجهة الصليبيين .

١٠- ومن خلال هذه المراسلات يمكن أن يستفيد القارئ إلى أي مدى كانت أهمية الحروب الصليبية ، وكيف كان حال الأسطول حينئذ، وما كان عليه الجيش المصري ، فيستطيع الباحث أن يعيش داخل تلك الأحداث بسهولة ويسر ويستمد معلومات وبيانات عن تلك الفترة لما في هذه المراسلات من تشويق وجذب الانتباه لترابط الأحداث .

١١- لقد التزم الصديقان المتراسلان أسلوباً بسيطاً في كتابة هذه الرسائل الشعرية البديعة، حتى جاء بعضها بالنثر أشبه وبالترسل أشد تعلقاً نظرا لما يرجى لهذه الرسائل من الذيوع والانتشار .

ثالثاً: المقطوعة الشعرية :

والى جانب القصيدة المنشدة والقصيدة الرسالة هناك ظاهرة أخرى مميزة لبلاط بنى رزيك ألا وهي غلبة المقطعات الشعرية على شعر بعض

الشعراء، وهذه الظاهرة ليست ظاهرة جديدة ، فقد انتشرت منذ أوائل العصر العباسي، فكما يرى د. شوقي ضيف أن ازدهار الغناء في العصر العباسي قد شجع الشعراء على نظم المقطوعات الشعرية. (١)

والمراد من المقطوعة الشعرية هو أن ينظم الشاعر غرضه على شكل مقطوعات تدور كل واحدة منها حول فكرة واحدة ، ومنها تظهر قدرة الشاعر وبراعته في ارتجاله للشعر وقدرته على إيجازه للفكرة في عدد من الأبيات.

ولقد اختلفت وجهة نظر نقاد الأدب في تحديد عدد أبيات الشعر التي من خلالها نستطيع أن نطلق عليها اسم المقطوعة ، فهذا ابن رشيق القيرواني يقول: (إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير محبب عند أحد من الناس ... ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو بيت واحد). (٢)

أما ابن جنى فيرى أن (الذي في العادة أن يسمى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة، فأما ما زاد على ذلك فإنما تسمية العرب قصيدة). (٣)

ويستند الباقلاني إلى رأى الفراء في تسمية أبيات الشعر إذا بلغت العشرين قصيدة وإذا بلغت العشر فهي قطعة ، ويروى في ذلك قوله العرب تسمى البيت الواحد يتيماً .... فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهي نتفة وإلى العشرة تسمى قطعة وإذا بلغ العشرين استحق أن يسمى قصيدة) . (٤)

والمقطوعات الشعرية التى بين أيدينا فيما يخص شعر بني رزيك تنتمي إلى قصار الشعر وعدد الأبيات لم يتجاوز عشرة أبيات وفقاً لرأي ابن رشيق وهذه النماذج الشعرية أتى بها الشعراء في صورة مقطعات صغيرة، فكانت تظهر بوضوح في المجالس الأدبية التى كان يجمع فيها طلائع بن رزيك الشعراء من حوله ، وكان يغرى بعضهم ببعض كثيرا، حتى تزداد المنافسة وإيداع الشعراء أجود ما عندهم من شعر ، فأحياناً كانوا يتسابقون في نظم معنى غرض واحد أو معنى فرط عليهم أو نحو ذلك .

---

١ - د. شوقي ضيف - الفن ومذاهبه في الشعر العربي - دار المعارف بمصر - ص ٦٣
٢ - ابن رشيق القيرواني - العمدة - ج١ - ص ١٨٨
٣ - ابن منظور - لسان العرب - دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م - مادة قصد .
٤ - الباقلاني أبو بكر محمد بن الخطيب - إعجاز القرآن - تحقيق / السيد أحمد صقر ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧م - ص ٢٥

لذلك تعد المقطوعات بنت المجالس إلهاماً وإنشاداً ، فالمقطوعات في المجالس أرشق وأجول.(١)

وتتميز المقطوعة عند شعراء بنى رزيك بأنها تترجم شعوراً واحداً ، لغرض شعري واحد وتعبير عن خاطرة واحدة أو حالة نفسية واحدة يعبر عنها الشاعر في أبيات معدودة محكمة البناء، مركزة الإحساس ، فكل مقطعة تستقل بموضوع سواء (مدح أو غزل أو وصف ، أو هجاء، أو رثاء .... وغيرها من الأغراض الشعرية) .

ومن سمات المقطوعة أيضاً أنها تمثل حركة نفسية سريعة، فالشاعر يشغل فيها بقضايا نفسه، وهمومه الفردية لذلك لا يلجأ إلى المقدمات أو إلى التصريع فهو يتخلى في المقطوعة عن القيود الفنية التى يلتزم بها عند نظم القصيدة المنشدة .

وإلى جانب هذا فالشعراء يحرصون في منهجهم الفني على العناية بالزخارف والصنعة، لتركيز المعنى في أبيات قليلة ، لإظهار براعتهم ومهارتهم في هذا الارتجال.

ولعل الشاعر ابن الصيّاد يعد خير من يمثل الاتجاه إلى المقطوعات، فلقد بلغت عدد مقطوعاته ألف مقطوعة، لكن مع الأسف فقدت أو ضاعت مثل باقي الآثار الفاطمية النفيسة، ولم يصل إلينا منها إلا نماذج قليلة ، وليس ابن الصيّاد وحده هو الذى فقد شعره إنما أغلب شعراء بنى رزيك فقد شعرهم ولم يلق الاهتمام أو العناية به، فبدخول الأيوبيين أبيدت الآثار الفاطمية والأدبية والشعرية لاعتقادهم أن ما فيها من شعر مدح للأئمة والخلفاء إنما هو لفرق إلحاد .

وعلى أية حال فما بين أيدينا من نماذج شعرية نستطيع أن نتصور من خلالها ما كان عليه هؤلاء الشعراء من براعة وإتقان ودقة في التعبير عن أغراضهم الشعرية ارتجالا في عدة أبيات قليلة لتسجل فكرة ما أو خاطراً طرق على بال الشاعر فيما يسمى (بالمقطوعة الفكرة).

المقطوعة الفكرة :

هي تلك الأبيات القليلة التي يكون فيها الشاعر مشغولاً بفكرة واحدة، سيطرت على عقله فيجتهد في أن يبرزها ويوضحها بشكل جيد، ولكي يتم ذلك

---

١ - ابن أبي الإصبع- تحرير التحبير - تحقيق وتقديم د. حنفي محمد شرف- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.سنة ١٣٨٣هـ - ص ٤١٥

يأتي بتمهيد أو مقدمة موجزة في بيت شعري واحد أو ببيتين ثم يربط بين هذا التمهيد والبيت الذى يليه ، وهو البيت الذي يحمل فكرته ويلخصها ويوجزها ليقدم فكرته في مقطوعة شعرية مكونة من عدد من الأبيات ، وعلى الشاعر أن يحسن الربط بين التمهيد وفكرته ليحقق البناء الفني للمقطوعة الشعرية ، ويعد هذا إتقانا وإبداعاً من الشاعر في أن يجعل البيت الأخير هو ذروة الإبداع.

وقد تأتي المقطوعة الشعرية بدون تمهيد أي يدخل الشاعر في فكرته مباشرة ويركز عليها في عدد من الأبيات وهنا يكون قد تخلى عن البناء الفني المعروف للمقطوعة ، وهذا كنوع من التجديد.

وتتميز المقطوعة الشعرية عند شعراء بنى رزيك بأنها تنوعت في بنائها الفني فهناك بعض من الشعراء اقتفوا أثر القدماء وحافظوا على أن تأتي المقطوعة بتمهيد بسيط قبل أن يدخل في فكرته ويربط بينهما بشكل جيد، وهناك من الشعراء من ركز على فكرته في عدد من الأبيات دون تمهيد.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول المهذب بن الزبير حينما أراد أن يبرز فكرة معينة سيطرت على فكره وهي إعجابه بغلام أو بمعنى أدق إعجابه بلحية هذا الغلام فقال لبيان محاسنه:-

وذى هَيَف يُدْعى بمُوسى، بطَرْفِه ... بَقَّيةُ سحرٍ تأخذُ العينَ والسَّمْعَا
وحَيَّاتُه أصْدَاغُهُ ، وعِذَارُهُ ... يُخيِّلُ لي في وَجْهه أنَّها تَسْعَى [(١)]

أتى المهذب بالبيت الأول هنا كتمهيد بسيط عندما ذكر اسم سيدنا (موسى) ومعجزته ليربط بين هذه القصة وما فيها من حيّات وبين لحية هذا الغلام وعذاره، والمقصود به هو الشعر الملتف بشكل معين يشبه الحيَّة، فهنا جاء بالبيت الثاني وهو البيت المقصود أو البيت الذى أراد أن يعبر فيه الشاعر عن فكرته، لكنه أتى بالبيت الأول كتمهيد للبيت الثاني، ولقد استطاع المهذب أن يتقن في إبراز المعاني وتحسينها وتعميقها لتوضيح فكرته .

وهذا ابن قادوس نجد له عدداً من المقطوعات الشعرية الرائعة، والتى غلب عليها غرض الهجاء والسخرية، نحو ما قاله في الرشيد بن الزبير وكان أسود اللون فقال:-

---

١ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢٠٠

يَاشـــبه لقمـــان بـــلا حكمـــة وخاســـراً فـــي العلـــم لا راســـخاً
سلخت أشعـــــار الورى كلهم فصرتَ تدعى الأســـودَ السالخا (١)

ففي البيت الأول اتخذ الشاعر من اسم (لقمان) وسيلة ليمهد لهجائه الذى أتى به في البيت الثاني ، وبالتجديد ركز التعبير عنها في الشطرة الثانية حينما قال (فصرتَ تدعَى الأسودَ السالخا) ، وهذا يعد إتقاناً من الشاعر وحسن تعبير عن فكرته.

وله في موضع آخر مقطوعة تحمل المعنى نفسه – أيضاً – في هجـــاء الرشيد بن الزبير أنشدها في أحد المجالس الأدبية ارتجالا فقال :–

إنْ قُلْـــتَ مـــنْ نَـــار خُلقْـــــ ـــتَ وفُقْـــتَ كُـــلَّ النَّـــاس فهمَـــاَ
قلنـــــــا صَدَقْتَ فمـــــا الذي أطْفَـــــاكَ حتى صِـــرْتَ فَحْمَاَ ؟ (٢)

لقد أجاد الشاعر وأحسن في الربط بين البيت الأول والبيت الثاني فـــي المعنى ليؤكد فكرته ويتمها في البيت الثاني في الشطرة الثانية عند قوله (حتَى صِرْتَ فحْماَ) ، وهو المقصود من هجاء ابن الزبير لأنه كان أسود اللون .

ومن المقطوعات الطريفة – أيضا – التي نظمها **ابن قادوس** ونجد فيها البناء الفني للمقطوعة الشعرية قوله في رجل كان يكبر في الـــصلاة كثيـــراً فقال:–

وفـــاَتِرِ النِّيـــــة عِنِّينِهـــــاَ مَـــعْ كَثْـــرة الرِّعْـــدَة والهـــزَّةْ
مُكَبِّرٌ سبعـــــــينَ فَـــــي مَرَّةٍ كأنَّهُ صَـــلَّى عَـــــلى حَمْزَةْ (٣)

كما تظهر لنا موهبة ابن قادوس الشعرية – أيضا – في هذه المقطوعة البديعة التى استهلها بالغزل كتمهيد لغرضه الأساسي منهـــا أو فكرتـــه وهـــو وصف الخمر فيقول :–

وليلة كاغتماض الطَّرْف قـــصَّرْها وَصلُ الحَبيبِ ولَمْ نُقْصِرْ عَنِ الأمَـــلِ
بتْنا نَجاذبُ أهْـــدابَ الظـــلامِ بهـــا كَفَّ الملامِ ونَكْـــرَ الـــصدِّ والمَلَـــلِ
وكلمـــا رامَ نُطقـــاً فـــي معـــاتبتي سدَدْتُ فَـــاهُ بطيـــب اللَّـــثْم والقُبَـــلِ
وباتَ بدرُ تمام الحُـــسْنِ معتنقـــى والشمسُ في فَلَكِ الكَاساَتِ لم تَفِـــلِ
فبتُّ منها أرى النارَ التى ســـجدت لَهاَ المجوسُ، منَ الإبْريقِ تَسْجدُ لِي
راحَ إذا سَفَكَ النَّدْمانُ مـــن دمهـــا ظَلَّتْ تُقَهْقهُ في الكَاسَاتِ من جَـــذَلِ

---

١ – خريدة القصر وجريدة العصر – الحزء الأول – ص ٢٢٦
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٢٦
٣ – خريدة القصر – ص ٢٢٦

فقلْ لمــــنْ لامَ فيــها إنني كلِفٌ   مُغْرىً بها مثلَــماَ أُغريتَ بالعَذلِ (١)

لقد اقتفى الشاعر أثر الشعراء القدامى في البناء الفني في هذه المقطوعة عندما استهلها بالغزل في محبوبته، كتمهيد بديع رائع يقع في أربعة أبيات إلى أن أتى بالبيت الخامس ثم انتقل إلى غرضه الأساسي أو فكرته وهو وصــف الخمر ، وبالتحديد في الشطرة الثانية عند قوله (مِنْ الإبْريِق تَسْجُدُ لِي) ونعدها بدأ في وصفه للخمر بصورة بديعة حينما جسدها في صورة صــديق ينادمــه ويؤنس ليلته ولقد استطاع الشاعر في براعة وإتقان أن يؤكد لنا هذا في البيت الأخير بالربط بين التمهيد السابق ووصفه للخمر حينما ذكر أنه مغرم بشرب الخمر مثل غرامه بالغزل في محبوبته فكلاهما عند الشاعر محببٌ إلى قلبه .

وتعد هذه المقطوعة من المقطوعات الشعرية البديعة لابن قادوس التــي توضح لنا مدى شاعريته وقدرته على التعبير عــن فكرتــه بهــذه الــصورة الطريفة.

وهناك مقطوعات شعرية ركز فيها الشعراء على الفكرة مباشــرة دون تمهيد لها ، وفيها يكون الشاعر قد تحرر من البناء الفني التقليدي للمقطوعــة ومما يمثل ذلك قول **الموفق بن الخلال** وفيها رق شعره وأجاد : –

شــيَمُ الأيَّــام صَــدٌّ بعــد وُدّ   واللَّيــالِي عَهْــدَهاَ أهْــوَنُ عَهْــد
إنْ أعانَــتْ عَــدلَتْ أو خــذلَتْ   سَــلَبتْ أوْ وجــدت رَاَعــتْ بِفقْــد
أُفٍّ للــدُّنْياَ فَكَــم تَخْــدَعُناَ   مِــنْ حِباهَــا بِمُعَــارٍ مُــسْتَرَدّ
ما وَفَــتْ أعْــوامُ قُــربٍ بالّــذى   جَنَــت اللَوعــةُ مــن ســاعةِ بُعــد
يأَخاَ الغِرَّةِ حَــسْبُ الــدَهرِ مــن   عظَةِ المغــرورِ مــا أصــبح يُبْــدى
تُؤثِرُ الدُّنْياَ فَــهــل نِلْــتَ بِهاَ   لَحَظَةً تَخلــصُ مِنْ هَــمٍ وكَدّ (٢)

لقد تحرر الشاعر هنا في تلك المقطوعة من قيود الــصنعة والتكلــف ، عندما دخل مباشرة في موضوعه محاولاً أن يقدم لنا نصيحة أو حكمة من خــلال تجاربه وما مر به في حياته من تقلبات من الأيام والدهر، ففي ستة أبيات اســتطاع الموفق بن الخلال أن يوجز ويركز فكرته التي أراد التعبير عنها ، واستمر في شرح فكرته إلى أن وصل إلى البيت الأخير وقدم لنا خلاصة رأيه وهــو أن الإنسان لم ينل في الدنيا لحظة يتخلص فيها من الهم والكد .

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢٢٨
٢ – خريدة القصر – ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧

الموفق بن الخلال أن يوجز ويركز فكرته التي أراد التعبير عنها ، واستمر في شرح فكرته إلى أن وصل إلى البيت الأخير وقدم لنا خلاصة رأيه وهو أن الإنسان لم ينل في الدنيا لحظة يتخلص فيها من الهم والكد .

وربما نظم الموفق تلك المقطوعة بعد أن أدبرت عنه الدنيا واضطر إلى البقاء ضريراً في منزله.

ونستطيع أن نلمس رقة إحساسِ القاضي الجليس بن الحباب وشعوره الطيب في رثائه لأبيه الذى مات غريقاً بالبحر فقال :-

وكُنْتُ أُهدَى مَعَ الرِّيحِ السَلامَ لَـهُ ... ماَ هَبت الرِّيحُ في صُبحٍ وإمْساَءِ
إِحْدى ثِقاَتي عَلَيْه كُنْتُ أحسبُهَا ... وَلَمْ أَخَلْ أنَّها مِنْ بَعْضِ أعْدَائي [1]

يطالعنا القاضي الجليس في هذين البيتين بفكرة واحدة ، دون تمهيد وهي رثاؤه لأبيه الذى مات غريقاً في البحر لريح عصفت .

وهنا وفق الشاعر في التعبير عن حزنه وألمه لفراق أبيه معبراً عن ذلك في بيتين من الشعر .

وهذا المهذب بن الزبير نرى أنه عبر في إحدى مقطوعاته الشعرية عن فكرة معينة قد سيطرت على عقله يقول فيها :-

لا تطْمَعَنْ فيِّ أَرْضٌ أن أُقِيمَ بهـا ... فَلَيْسَ بيْنَى وَبَيْنَ الأَرْضِ من نَسبِ
حَيْثُ اغْترِبتُ فلي مِنْ عِفَّتي وطنٌ ... آوِي إليه ، وأهلٌ مِنْ ذَوِي الأدبِ
لولا التَّنقُّلُ أعْيى أن يَبِينَ على ... باَقِي الكوَاكِبِ فَضْلُ السَبْعةِ الشُّهُبِ[2]

فتدور أبيات المهذب حول فكرة واحدة وهي فخر الشاعر بذاته وبشعره داعياً للتنقل وتحبيب الاغترابَ وتبريره.

وفيها تخلى الشاعر عن البناء الفني التقليدي للمقطوعة – أيضاً – فدخل في غرضه مباشرة معبرا عن رأيه في معانٍ واضحة .

وله في موضع آخر من شعره، مقطوعة أخرى يعبر فيها عن إحساسه بحرارة الشوق ولوعته وما له من أثر في النفوس معبراً عن ذلك في براعة وإتقان في فكرة تقع في أربعة أبيات يقول فيها :-

لكمُ خَيالٌ فــي الجُفُونِ مُمَثَّلُ ... أبـداً ، وذكـرٌ بالفؤاد مُوكَّلُ
وإلــى ديَاركمُ نَحنُّ صَبابةً ... ونَفُضُّ أوْعيَةَ الدموع ونُرسلُ

---

1 – المصدر نفسه – ص ١٩٩
2 – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٨٠

تلكَ المَنَــازِلُ مــا تَمـرُّ سـحابةٌ تَهمـي بِهـاَ إلاَّ وَعَـينٌ تَهمُـلُ
مَا ضَرَّها إذْ ينْزِلونَ رَبُوعَـــها ألاَّ يُرى ، ((فِيهَا لعلْـوةَ منْزِلُ)) [١]

تدور أبيات الشاعر هنا حول فكرة معينة وهي المزج بين الطلل والغزلِ فهنا الشاعر وقف على ديار المحبوبة مستحضِرها من خلال ديارها، متوجها بالحديث إلى المحبوبة التى استحضرها مقررا أنه دائم الذكر لهـا وأن فـؤاده دائما مشغوف بها متجه إليها ، ثم يجمع الشاعر في براعة شديدة بـين هـذا الحب للمحبوبة وبين حبه لديار المحبوبة فيلفتنا المهذب إلى أنه دائماً ما يحـن إلى ديارها وهذا الشوق يجعل عينه تدمع ، فما شوق الشاعر للديار إلا شوقه لمحبوبته.

ثم يقف بنا في صورة جميلة يرسم فيها صورة السحاب التى تمر على الديار وتمطر مع صورة العين التى تبكى من ذكرى المحبوبة وذكرى ديارها ثم يتساءل في آخر بيت من المقطوعة (ألا يرون لمحبوبته منزل) ويقصد باسم محبوبته هنا التى ذكرها البحترى في قوله:-

عَرِّج عَلى حلبٍ فَحـــيِّ مَحَلَّةً مأنوسةً فِيـــــهاَ لِعلْوة مَنْزِلُ [٢]

ومما يمثل ذلك قول ابن قادوس في إحدى مقطوعاته الشعرية البديعـة معبراً عن فكرة ما ، وهي إعجابه بجارية سوداء فيقول :-

وعَــــاذِلٍ مُحْتَفِـــــلِ مُجْتَهِـــــد فـــي عَـــذْلِي
يَلـــومُنى فـــي ظَبيـــةٍ مَخْلوُقـــةٍ مـــن كَحَـــلِ
إنّ الـــسَّوادَ عِلّـــةٌ مـــنْ نـــوُرِ هَـــذى المُقَـــلِ
والحَجُـــرُ الأسْـــودُ لَـــمْ يُخْلَـــقْ لغَيْـــرِ القُبَـــلِ
والفَـــأرُ - مُنْكَـــانَ - وَعَا ءُ السَلْســـبِيلِ السَّلْـــسلِ [٣]

استطاع ابن قادوس هنا أن ينفذ إلى التعليلات الطريفة ليلتمس بها مـا يحسن إعجابه بتلك الجارية محاولا توضيح أسباب هذا الإعجاب الذى سيطر عليه واقتنع به ففي البيتين الأول والثاني يكشف لنا عن مراده وهو إعجابـه بجارية سوداء اللون، وفي البيت الثالث يبدأ في تبرير موقفه هذا إلى وصـل إلى البيتين الرابع والخامس وفيهما يذكر النماذج والأمثلة ليبرهن ويؤكد وجهة

---

1 - المصدر نفسه – ص ٢٠٩
2 - ديوان البحترى – تحقيق/ حسن كامل الصيرفى – الطبعة الثانية ، دار المعـارف – بمصر سنة ١٩٧٣م – ج٣ – ص ١٥٩٩
3 - خريدة القصر – ص ٢٣٢

نظره وهو أن اللون الأسود ليس عيباً فبالرغم من أن الحجر الأسود لونه أسود إلا أن الناس تقبله ، والفأر وعَاءُ السلسبيل السلسل ؛ وهذه كلها مبررات ليوضح لنا فكرته التى أراد التعبير عنها مباشرة دون تمهيد أو مقدمة .

المقطوعة الصورة :

وهناك من الشعراء من حرص على التصوير والوصف والتشخيص لمنظر ما أو شئ ما وقعت عليه عينه، لذلك يلجأ الشاعر لنظم مقطوعة شعرية قائمة من أجل إبراز تلك الصورة فتسمى (بالمقطوعة الصورة) .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول الموفق بن الخلال في وصفه لشمعة فنراه يقول :

وصَحيفة بَيضَاء تَطلُعُ في الدُّجي ... صُبْحاً وتَشْفي النَّاظرين بِدَائها
شَابَتْ ذَوَائبهُا أوانَ شَبابِها ... واسودَّ مَفْرِقُها أوانَ فَنَائها
كَالعَيْنِ في طَبَقَاتِها ودُمُوعِها ... وَسَوَادِها وبَيَاضِها وضِيَائِها [1]

لقد التزم الشاعر في هذه المقطوعة الشعرية البناء الفني التقليدي فلقد جاء بالبيتين الأول والثاني كتمهيد أو مقدمة يصف فيهما حال هذه الشمعة من بياض مشع الذى هو دلالة على الشيب قبل الأوان واسوداد مفرقها الذى هو دلالة على الفراق والفناء ، فيقارن هنا الشاعر بين الشبه الذى بين هذه الشمعة وبين العين في جميع وجهاتها في سواد مقلتها وبياض صحفتها، فمن أجل تلك الصورة التى تقع في البيت الثالث بنى الشاعر هذه المقطوعة لإبراز هذه الصورة التى سيطرت على خياله ملتزماً البناء الفني للمقطوعة الشعرية .

ويأتي على هذه الشاكلة قول أسامة بن منقذ في إحدى مقطوعاته الشعرية البديعة التى اعتمد في بنائها على توضيح صورة معينة فنراه يقول

إيَّاكَ والسُّلْطانَ لا يُدنيك مِنْ ... أبْوَابِه مُتَكسِّبٌ ومَعَاشُ
واعلم بأنَّهم، علَى ما كانَ مِنْ ... أحْوالِهِمْ ، نارٌ ونحنُ فَرَاشُ [2]

فلقد أتى الشاعر بالبيت الأول هنا كتمهيد أو مقدمة من أجل بناء الصورة التى أراد رسمها في البيت الثاني ، ويقول الشاعر مخاطباً أضرابه من الشعراء والذين يتوسلون بالشعر تقرباً من ذوى السلطان أو طمعاً في مكسب مادي موضحاً لهم أن القرب من ذوى السلطان ليس مغنماً بل هو مغرم ولكي يوضح هذا أتى بالصورة البديعة في بيته الثاني والتي شبه فيها

---

1 – خريدة القصر – ص ٢٣٦
2 – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٨٨

الشعراء بالفراش وشبه الخلفاء أو ذوى السلطان بالنار ودائماً ما تجذب النار الفراش ولا يصيب الفراش من ورائها أي مغنم بل يكتوى بنارها ولفيحها الملتهب ، وهكذا حال الشعراء الذين يحاولون التقرب بمدائحهم من ذوى السلطان .

ولا شك أن هذه الصورة مستمدة من الخبرة الكبيرة التي اكتسبها أسامة من خلال حياته والتجارب التي مرّ بها .

وله في موضع آخر معتمداً في بناء هذه المقطوعة على توضيح الصورة فيقول :-

يا ناسيا عشرة التصافي | وخافراً حرمة الذمام
إلام أغتر بالأماني | فيك كمستمطر الجهام
كأنني في الذي أرجي | بلوغه منك في المنام
وطالب الوصل من ملول | كطالب الماء في الضرام (١)

هنا قدم الشاعر لمقطوعته بثلاثة أبيات كتمهيد يعكس لنا من خلاله ما بداخل الشاعر من أحاسيس ومشاعر تجاه ارتباطه بصديق له بعيد عنه يتمنى قربه، ولكي يحقق هذه الأمنية فيلجأ الشاعر إلى الموازنة بين الأماني الكاذبة التى لن تتحقق والسحاب الجهام وهو الذى لا ماء فيه الذى يريد مستمطره غيثه دون جدوى، أو كمن يريد تحقيق الأحلام ثم هو يشبه المشوق إلى حبيبه الذى يرجو وصاله بمن يطلب الماء في جوف النار، وهذه هي الصورة التى بنى الشاعر من أجلها تلك المقطوعة والتى تقع في البيت الرابع معتمداً في بنائها على التشبيه والاستعارة.

ومما يمثل ذلك أيضاً قول المهذب بن الزبير حينما أراد أن يقدم نصيحة أو حكمة نتيجة خبراته وتجاربه التى مرَّ بها في حياته فيقول :-

لاَ تَرْجُ ذا نقص ولو أصبحت | من دُونه في الرُّتبة، الشمسُ
كيوانُ أعلىَ كوكبٍ موضعاً | وَهوَ- إذاَ أنصفته- نَحْسُ (٢)

أراد المهذب أن تعمل النصيحة عملها في هذه المقطوعة التى بناها من أجلها، لذلك قدّم لها بالبيت الأول كتمهيد أو مقدمة ينهى فيها عن رجاء اللئيم والطمع في الناقص الذميم ولو ارتفعت في الحياة رتبه بقوله (لاَ ترْج ذاَ نقص) وهذا تمهيد للصورة التى قصدها في البيت الثاني في قوله (كيوانُ أعلى كوكبٍ) فهي صورة تعتمد على التشبيه الضمني مؤكداً فيها أن الخير ليس وقفاً

1 - ديوان أسامة بن منقذ – ص٩٣
2 - شعر المهذب بن الزبير – ص ١٩٩

على سمو المنزلة وأن العبرة ليست بارتفاع المرتبة فإن كيوان أعلى الكواكب إلا أنه في موازين النحس والتشاؤم عند الناس .

وله في موضع آخر يصف شمعة ، فنراه يقول:-

ومصفَّرة لاَ عَنْ هَوىً غَيْر أنُّهـا تَحُوزُ صِـفَات المُسْتَهَام المُعَـذَّبِ
شجُوناً، وسُقْماً، واصْطباراً، وأدْمعـاً وَخفقـاً وتَسْـهيداً وَفَـرْطَ تلَهُّـبِ
إذا جَمَّشَتْـها الريحُ كانَتْ كمِعْصَمٍ يُردُّ سلاماً بالبنَـانِ المُخَضَّبِ (١)

هنا التزم الشاعر البناء الفني التقليدي للمقطوعة عندما أتى بالبيتين الأول والثاني كتمهيد أو مقدمة يصف فيها الشمعة في أنها تتفق مع المستهام في الشجو والسقم والصبر والخفق والبكاء والتسهيد من فرط التلهب ، ليبرز صورته التى أراد التعبير عنها في البيت الثالث عندما اعتمد على التشبيه التمثيلي في تجسيد هذه الشمعة بأنها قريبة الشبه من صورة المعصم المخضب الذى يردُّ السلام وقت التحية خاصة إذا غازلتها الريح وداعبتها النسائم، فهي صورة بديعة توحي بدقة ملاحظة الشاعر وسمو فطنته وبلاغة تعبيره.

وهذا القاضي الجليس نراه يعتمد في إحدى مقطوعاته الشعرية على ثمانية تشبيهات جمعها في بيت واحد من أجل إبراز صورته فيقول :-

بَدَا وأرَانـا مَنْظَـراً جَامعـاً لمـاَ تفَرق من حُسْنٍ على الخلق مُونقَـا
أقَاحاً وراحاً تَحْتَ وردٍ ونَرْجِسٍ ولَيْلاً وصُبْحاً فوقَ غصنٍ على نقاً (٢)

مهّد الشاعر بالبيت الأول لإبراز صورته التى قصدها في البيت الثاني عندما صور المحبوبة معتمداً على التشبيهات التى وصل عددها إلى ثمانية تشبيهات حيث شبه عين المحبوبة بالنرجس وخدها بالورد، وطيب فمها بالخمر، وجمال شفتيها بالأقاح وشعرها الأسود بالليل ، وبياض جبينها بالصبح وكل هذا يتكأ على غصن ممشوق حيث شبه قوامها الممشوق بغصن البان.

فهنا ربط الشاعر ربطاً بديعاً بين البيتين في هذه المقطوعة لإبراز صورته التى أراد التعبير عنها وهي وصف محبوبته التى ظهرت في منظرٍ في غاية الحسن والجمال .

1 - ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٧٨
2 - خريدة القصر – ص ١٩٨

المقطوعة البديعية :

وقد يعتمد بعض الشعراء في بناء المقطوعة الشعرية على التلاعب اللفظي حيث الصنعة البديعية الواضحة والتى كانت معروفة عند هؤلاء الشعراء في تلك الحقبة فتسمى (بالمقطوعة البديعية).

ومما يمثل ذلك قول القاضي الجليس في إحدى مقطوعاته الشعرية الغزلية فيقول :-

رَبَّ بيضٍ سَلَلْن باللحظ بِيضاً ... مُرْهفاتٍ جفونُهُنَّ الجُفُونُ
وخُدودٍ للدمعِ فيها خُدودٌ ... وعُيونٍ قَدْ فَاضَ مِنْهَا عيُوْنُ [1]

هنا أقام الشاعر فكرته ومعناه الذى يريده في التغزل على البديع الذى أفاد إفادة كبيرة من الدلالة للمحسن البديعي حيث اعتمد بناء هذين البيتين على الجناس التام حيث وضح التلاعب اللفظي والمعاني التى يعطيها الجناس التام وما يحدثه من تأثير في النفس وجذب الانتباه للقارئ فنراه يقول بأن البِيض ويقصد بهن الفتيات الجميلات قد سيطرن وسللن أي جعلن السيوف ملكاً لهن حيث قصد بالبيض الثانية السيوف والبيض الأولى جفونها أى أماكن حفظ السيوف وهي جفون الفتيات البيض ، وفي البيت الثاني اعتمد على الجناس في (خدودٍ ، خدودٌ) فيصف الخدود الأولى ويقصد بها خدود الفتيات الجميلات بأنها من كثرة الدمع قد صنعت خدود وهي الخدود الثانية وقصد بها الشقوق . ثم يقول بأن هذا الدمع قد فاض من عيون هؤلاء الفتيات الجميلات كأن هذه العيون أصبحت عيون ماء .

– هكذا اعتمد الشاعر اعتماداً كلياً على البديع في هذه المقطوعة لذلك تسمى بالمقطوعة البديعية.

وهذه مقطوعة أخرى بديعية اعتمد فيها على الجناس التام في وصفه للخيل فيقول :-

جَنَائبُ : إنْ قِيدَتْ فأسدٌ، وإن عَدَتْ ... بأبطالِهَا فهِيَ الصَّبَا والجنائبُ
أثارتْ بأكنافِ المُصَلّىٰ عجاجةً ... دجَتْ وبَدَتْ للبيض منها كواكِبُ [2]

حيث اعتمد الشاعر في بناء هذه المقطوعة في وصف الخيل على محسن بديعي وهو أحد أنوع الجناس وهو الجناس التام بين (جنائبَ وجنائبُ) فيقصد بالأولى الخيل والثانية هي الريح الطيبة القادمة من الجنوب ، فجاء هنا

---

١ – خريدة القصر – ص ١٩٤
٢ – خريدة القصر – ص ١٩٨

هذا المحسن البديعي كي يوظفه الشاعر لخدمة الصورة التى أراد من ورائها وصف الخيل، فوصفها تارة بالأسود، وتارة أخرى بالريح الطيبة التى تهب من الجنوب، فهي من فرط سرعتها تثير نقعاً يصبح ظلاماً وهذا الظلام يبدو لنا فيه الكواكب ويشبه هنا السيوف المتلالئة بالكولكب والمقصود بها الليل .

وهي تكاد تكون صورة قديمة معتادة مقتبسة من بشار بن برد الذى أجاد فيها الوصف من قبل حين قال:-

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْـعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا ... وأَسْيَافَنا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُه

وهذا المهذب بن الزبير في إحدى مقطوعاته الشعرية الغزلية نجد أنه اعتمد فيها على التلاعب اللفظي فيقول :-

لَمْ تَنَلْ بالسُيوفُ فـي الحَـرب إلاَّ ... مثلَمـاَ نلـت بـاللَّواحَظ منَّـا
وعـيونِ الظبَاظبا ، وبهـذاَ ... سُمَّيَ الجَفْـنُ لِلتَشـابُه جَفْناَ (١)

لقد مّهد الشاعر بالبيت الأول لتلك المقارنة التى عقدها في البيت الثاني بين تأثير عيونِ الفتاة الجميلة التى شبهها بالظبي وبين تأثير الرماح في المعركة معتمدا علي المعنى البديعي بين (الظبا والظبا) فهو جناس ناقص وبين (الجفنُ – جفنا) فهو محسن بديعي يعطي تأثيرا جميلاً للمعنى يجذب الانتباه ويشد أذن السامع ويجعله متطلعا لما يقوله الشاعر .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك أيضاً قول المهذب في مقطوعة بديعية أخرى :

بُليـتُ برفَـاء لَـواَحظُ طرَفـه ... بناَ فعلتْ ما لـيس يفعلُـهُ النَّـصلُ
يجورُ على العُشاقِ، والعَـدلُ دَأبُهُ ... ويقطَعُني ظُلْماً، صنَعتُهُ الوصـل (٢)

هكذا التزم المهذب البناء الفني التقليدي للمقطوعة عندما أتى بالبيت الأول كتمهيد أو مقدمة للبيت الثاني الذى قصده فنراه استغل الطباق والمقابلات كوسيلة بيانية من صدّ واعراض هذا الرفاء الذى أعجب به، فهو يقاطعه ويصدّه من دون ذنب اقترفه، ومن هنا يعقد الشاعر مقابلة طريفة بين سلوك هذا الغلام مع عشاقه من (جور ، وقطع) وبين سلوكه مع ثيابه من (عدل ، ووصل) فهنا تلاعب الشاعر بالألفاظ والمعاني فأجاد توظيفها .

---

1 – شعرِ المهذب بن الزبير – ص ٢٤٠
2 – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٠٨

كما يطرق طلائع بن رزيك المحسنات البديعية المختلفة في بناء إحدى مقطوعاته الشعرية البديعية فيقول :-

عاذلي عذلك سهمٌ في الحشا | كيف كتماني وسري قد فشا؟!
صارماً بي من غرامٍ كامنٍ | ظاهراً ينقله واشٍ وشي
من رأى قبلي يساريم الفلا | أسداً يقتصه لحظ رشا (١)

هنا اعتمد الشاعر على المحسنات البديعية لنقل الفكرة التي سيطرت عليه فنجد أنه استخدم الجناس الناقص في قوله (عاذلي، وعذلك) وفي (واشي، وشي) كما نراه اعتمد على المقابلة أيضا في قوله (كتماني ، وسرّي قد فشا) وفي البيت الثاني (كامن ، وظاهر) وهكذا تأتي تلك المقطوعة المكونة من ثلاثة أبيات معتمدة على الألوان البديعية فيما نسميه بالمقطوعة البديعية.

وله في موضع آخر في مقطوعة بديعية أخرى يقول :-

مشيبك قد نضا صبغ الشباب | وحلّ الباز في وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان يقظى | وما ناب النوائب عنك نابي
وكيف بقاء عمرك وهو كنزٌ | وقد أنفقت منه بلا حساب (٢)

الشاعر يريد في هذه الأبيات الثلاثة أن يعبر لنا عن فكرة ذهاب الشباب وتقدم الإنسان في العمر وأن ما يذهب من عمر الإنسان لن يعود ثانية ودائما ما تترصده أعين الدهر وأن المصائب والنوائب لن يردها أحد ، ولكي يعبر الشاعر عن هذه الفكرة اعتمد في توضيحها وبيانها على البديع اعتماداً كلياً فأتى بالطباق في بيته الأول بين المشيب والشباب ثم قوّى هذا الطباق بمجيئ اللون الأبيض وهو ما يتحلى به الباز محل اللون الأسود وهو ما يعرف عن لون الغراب .

فنجد الطباق والمقابلة بين (المشيب – الشباب) ، (الباز – الغراب) ثم الطباق في البيت الثاني بين (تنام – يقظى) وما فيها من غفلة الإنسان وترقب الدهر وأيامه ومصائبه .

ثم يأتي بالجناس بين (نابَ) ، (نابي) ، والأول يقصد بها مخالب المصائب والثانية يقصد بها أنه يبتعد عنه أو يخطئه ثم المقابلة في البيت الأخير بين بقاء عمر الإنسان وبين الإنفاق منه بلا حساب.

وعلى هذا النحو أتى التعبير عن الفكرة معتمداً ومتكئاً على البديع بما نستطيع أن نسميها بالمقطوعة البديعية .

---

1 – ديوان طلائع بن رزيك – د. أحمد بدوي – ص ٣١ ، ص ٣٢
2 – المصدر نفسه – ص ٣٩

الفصل الرابع
الصورة

إن الشعر وليد ملكة الخيال وعاطفة الشاعر وإرادته متغلغلتان في العمل الفني ومسيطرتان عليه، لذلك الحكم على العمل الفني يكون صادراً عن التذوق له، ومرده إلى ما فيه من جمال أو ما يحققه من إحساس يرضي الذوق، وغاية الجمال مدركة في موضوعه، والتي تكمن في الصورة الشعرية.

وبما أن الصورة الشعرية مكوّن أساسي من المكونات الأصيلة لبناء القصيدة الشعرية ، فقيمتها لا تبدو في قدرتها على عقد التماثل الخارجي بين الأشياء ، وإيجاد الصلات المنطقية بينها ، وإنما قدرتها في الكشف عن العالم النفسي للشاعر والمزج بين عاطفته والطبيعة .

فالصورة خلق فني يرجع لإحساس الشاعر وخياله ، ومنها تظهر قدرة الشاعر على الفصاحة والإدراك، ونظراً لأهمية الصورة الشعرية وجه النقاد القدماء العناية بها متفقين في الرأي على أنها تعبير ورسم للأحداث التي يمرّ بها الشاعر في حياته فيحوّل أو يترجم هذه الأحداث إلى ألفاظ ينتقيها وينسقها لتكوّن صورة شعرية بديعة معبرة .

ومن هؤلاء النقاد (قدامة بن جعفر) حيث يرى أن (المعاني كلها معروضة للشاعر، له أن يتكلم فيما أحب وآثر من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام به، إذ المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة ، والشعر فيها كالصورة). (١)

كما ذهب (عبد القاهر الجرجاني) إلى أن (سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة) (٢) وهذا يبين لنا مدى أهمية الصورة في بنية العمل الأدبي .

فالصورة الشعرية هي في جوهرها تشكيل لغوي يعمل الخيال على تخليقه من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها على نحو لا تكون الصورة فيه مجرد تسجيل فوتوغرافي للأشياء، وإنما تصبح (تعبيراً عن حالة نفسية معينة يعاينها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة) (٣)

---

١ – قدامة بن جعفر – نقد الشعر – تحقيق د. كمال مصطفى – مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الثالثة ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ ص ٦٥

٢ – عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – تحقيق محمود محمد شاكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ – ص ٦ – مكتبة صبح القاهرة ، ١٩٦٠ م ، ص ٢٥٤ – ص ٢٥٥

٣ – د. محمد زكي العشماوي – قضايا النقد الأدبي المعاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م – ص ١٠٨ .

ويؤيد هذا القول (نورمان فريدمان) في تعريفه للصورة الشعرية بين الصورة والتجربة فقال (أما الصورة الفنية Imagery فإنها تستخدم في مجال الأدب على وجه التشخيص لتشير إلى الصورة التى تولدها اللغة في الذهن ، بحيث تشير الكلمات أو العبارات إمّا إلى تجارب خبرها المتلقي من قبل، أو إلى انطباعات حسية فحسب). (١)

كما يرى أحد الباحثين أن (الصورة خلق جديد للغة حيث تنفح الصورة حياة جديدة في الكلمة، فيبعثها من عالم الأموات حيث كانت مدفونة ومكفنة بمعانيها الاصطلاحية خلال قرون من الزمان، فتردها الصورة إلى الطفولة ، وتسكنها المفاجأة والدهشة وتفر مدلولاتها من الجوامد فرار ذوات الجناح، وهكذا تنجذب اللفظة التى حررتها الصورة نحو ألفاظ أخرى خضعت هي بدورها للمصير نفسه فتدخل كلها في عملية تحالف وتآلف مفاجئة ومصادفة لتشكل مجتمعة لغة صورية، هذا هو سحر الصورة الشعرية وسرها ؛ لأن الشاعر في النتيجة لا يضيف ألفاظاً جديدة إلى اللغة، وإنما ينحصر قاموسه بالألفاظ المعروفة من كل الناس والمستهلكة أحياناً كثيرة من جراء الاستعمال الدائم) . (٢)

وقد اقتضت طبيعة الصورة الشعرية في شعر بلاط بنى رزيك أن تأتي دراستها على ثلاثة محاور :

أولا: مصادر الصورة :

إذا نظرنا إلى مصادر الصورة نجد عدداً من المؤثرات التى حركت عملية الصورة عند شعراء بلاط بنى رزيك ، وأمدتهم بمفردات صورهم ، كالواقع والثقافة وذات الشاعر وقدرتها التي تبدع خلقاً جديداً لا نكاد نهتدي إلى أصوله وينابيعه ، فأقاموا علاقات جديدة مبتكرة بين الأشياء الملموسة ومشاعرهم وما يريدون التعبير عنه، فكانت تلك المؤثرات ينابيع فجرت في أشعارهم مساحات ثرية من التصوير .

فلقد اجتهد شعراء بنى رزيك ببراعة وإتقان في خلق الصورة الشعرية خلقاً جديداً بعد أن صهروها بضوء الفن المنهمر من وجدانهم ووظفوها توظيفاً

---

١ – د. مصطفى الصاوى الجويني – البيان في الصورة – طبعة دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ١٩٩٣ م – ص ١٧٣ نقلا عن مجلة الأديب العراقية ترجمة د. جابر عصفور العدد : (١٦) .

٢ – د. صبحي البستاني – الصورة الشعرية في الكتابة الفنية ، الأصول والفروع – دار الفكر اللبناني – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٩٨٦ م ، ص ٣٠ ، ص ٣١

فنياً ثرياً بالإيحاءات والدلالات المبتكرة المعبرة والملاءمة لروح الحياة الحضارية التي كانوا يعيشون فيها . وإلى جانب هذا لم يتخلوا عن التراث العربي القديم ليضيف لعملهم الأدبي الجدة والأصالة .

ونقف الآن على المادة الأولى في أشعارهم ، والتي كانت مصدراً ثرياً لتكوين الصورة .

أ- البيئة الطبيعة :

تعد الطبيعة من أبرز مصادر الصورة الشعرية عند شعراء بلاط بني رزيك ، فلقد اختص الله سبحانه وتعالى مصر بطبيعة ساحرة فتن بجمالها كل من عاش فيها لاسيما الأدباء باعتبارهم أصحاب مواهب فنية يذكيها طبع مرهف واستعداد فطري وذكاء نافذ ، ومثل هذه الموهبة لا تقف جامدة أمام سحر الطبيعة وفتنها ، فلابد أن تستجيب إلى مؤثراتها .

والطبيعة وإن كانت واقعاً ماثلاً أمام الشاعر إلا أنها تتحول في الصورة إلى واقع جديد وعالم مغاير مختلف عما كانت عليه ، فالشاعر يندمج في الطبيعة ، ويضفي عليها مشاعر ويحدث تكاملاً فنياً بين الشعر والطبيعة لذلك يرى أحد الباحثين أن (الصورة دائماً غير واقعية وإن كانت منتزعة من الواقع؛ لأن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع، ومن ثم يبدو لنا في كثير من الأحيان أن الشاعر أو الفنان يعبث في صوره بالطبيعة وبالأشياء الواقعة) .[1]

ولقد استجاب شعراء بنى رزيك لمؤثرات الطبيعة من حولهم واستلهموا خيالهم من الطبيعة والاستعانة بمفرداتها كمادة لصورهم وتتمثل في (الصحراء – والسماء – والأرض – والبحر – والطيور – والحيوانات ...) وغيرها من مكونات الطبيعة بنوعيها الصامتة والصائتة .

فامتزج شعراء بنى رزيك مع الطبيعة وحاوروها وخلعوا على مظاهرها مشاعرهم المختلفة، فجعلوها تشاركهم أفراحهم وأحزانهم في مختلف الأغراض والموضوعات .

ويطول بنا المقام لو حاولنا استقصاء النماذج والأمثلة الدالة على ذلك ، ولكننا سنشير إلى بعض الأمثلة .

---

١ – د. عز الدين اسماعيل – الشعر العربي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ – ص ١٢٧ .

فنجد المهذب بن الزبير في إحدى قصائده التي مدح بها الصالح بن رزيك والتي استهلها بمقدمة غزلية بديعة يقول فيها :

وَعَرَفتُ أنَّ صُدُورنا قَدْ أصْبَحَتْ ... في القَومِ وَهْيَ مَرابِضُ الغِزْلانِ
وعيوننَا عوضَ العُيون أمدَّها ... ما غادروا فيها من الغُدْرانِ
ما الوَخْذُ هَزّ قِبَابِهِم ، بَلْ هزَّهَا ... قَلْبي لما فيه مِنَ الخفقانِ
وَتَراهُ يَكْرَهُ أنْ يرَى إظْعانَهم ... وكأنَّما أصْبَحَتْ في الأظْعانِ
وبِمُهْجَتِي قَمَرٌ إذا مَا لاحَ للسَّـ ... ـارِي تَضَاءَل دُونَهُ القَمرَانِ (١)

فاستعان المهذب بعناصر الطبيعة الصامتة والصائتة لتكوين تلك الصورة البديعة وهي غزله في محبوبته، ووصفه لليل الفراق البهيم ، واستعان بمفردات الطبيعة مثل (الغزلان – الوخذ – الإظعان – القمر) ولقد لون صورته الغزلية من ألفاظ وكلمات تنتمي للبيئة الطبيعية متأثراً بها، بل تبدو لنا براعة المهذب بن الزبير في حرصه على الموائمة بين عناصر الطبيعة المختلفة والإتيان بما يلائمها من أفعال تلائم طبيعتها.

وله من قصيدة أخرى أبيات وصف فيها ليلة سعيدة قضاها بين الخمر والغناء وقد بدّد ظلمتها بشموع تجلو سواد الدجى فقال :

ولَمَّا طَوَى اللّيلُ ثَوبَ النَّهارِ ... وَجَرَّتْ دياجِيهُ أرْدَانَهَا
جَلَوْنَا عَرائسَ مِثْلَ اللُّجَيْنِ ... صَنَعْنَا مِنَ النَّارِ تِيجانَهَا
وصَاغَتْ مَدَامِعَهَا حِلْيةً ... عَلَيْهَا تُوَشِّحُ جُثْمانَهَا (٢)

وهنا تأثر الشاعر بالجو النفسي المبهج في قصيدته، فأتى بصورة جميلة حينما جسم الشموع، وهي تنتمي إلى الطبيعة الصامتة ، فجعلها عرائس يجلسن مرتديات ثوب الزفاف، ذلك الثوب الأبيض الذى يحاكي اللّجين أي الفضة في نصاعته ، فببراعة وإتقان تمكن المهذب من توظيف المكونات الطبيعية الصامتة والصائتة ، ومزج الاثنين معاً وربطهما ببعض بما يوافقهما من معنى ربطاً مناسباً للصورة وجعل من النار في قمتها كأنها تيجانٌ على رؤوسهن؛ ليعرضن على أزواجهن مجلوّات حسنوات ، وحقاً هي صورة جميلة للشموع رسمها المهذب بإحساسه المرهف وتذوقه للطبيعة من حوله .

---

١ – د. محمد عبد الحميد سالم – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٠
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٤١

وفي القصيدة نفسها نجد صورة أخرى بديعة للشموع تتبع الصورة السابقة في قوله :

رِملَحاً مِنَ الشَّمْعِ تُفْرِي الدُّجَى   إذَا صَقَلَ اللَّيلُ خُرصَانَهَا [1]

تخيل المهذب هنا أن الشموع المُحلاة أنها رماحٌ، فجعل الليل صاقلاً يجلوها لتظل حادة وقوية، والدجى خصماً تشقه الرماح – وهي الشموع – شقاً كلما جن الليل الذى يزيد الشموع اشتعالاً وتألقا ، وهذه صورة اعتمد فيها الشاعر على خياله وقدرته على التصوير لمعركة هي في ميدان خياله بين رماح الشموع والدُّجى في بيت شعري واحد .

وهذا دليل على بلاغة المهذب وقدرته على التصوير متخذاً من الطبيعة مادةً استقى منها ألفاظه الرقيقة ، وعباراته الخفية ، وصوره الشفافة .

وإذا انتقلنا إلى عمارة اليمنى نجد أنه أكثر شعراء بنى رزيك استلهاماً للطبيعة واستعانةً بمفرداتها ، بل إننا لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إنه من أهم الشعراء الوافدين امتزاجا بالطبيعة المصرية الخلابة متأثرا بها، فيناجيها ويخلع على مظاهرها مشاعره المختلفة لتشاركه في كثير من الصور التي تدور في خياله ، على نحو قوله في إحدى قصائده التي مدح فيها العادل بن رزيك في مطلعها متخذاً من اسم (كوكب الجوزاء) دليلا على علو وارتفاعه مكانة ممدوحه فقال:

جَاوَزْ بِمَجْدِكَ أَنْجُمَ الْجَوْزَاءْ   وازْدَدْ عُلواً فَوْقَ كُلِّ عَلاَءِ [2]

كما استقى عمارة اليمنى مادة صورته من الطبيعة ، عند وصفه لكتائب الجيش المصري التي أعدها الناصر بن رزيك لمحاربة الفرنج فقال :

جَيْشٌ إِذَا انْضَم قَطْرَاهُ رَأَيْتَ عَلَى   أَرْجَائِه شَجَرَاتَ الْخطِّ تَشْتَجِرُ [3]

وهنا أجاد عمارة توظيف مفردات الطبيعة الصامتة والتي تتمثل في (الأشجار) حيث شبه الرماح في التحامها ، وكأنها تحاكى اختلاف أصول الأشجار وتلاحم فروعها وأغصانها.

كما اتخذ عمارة من الطبيعة الصائتة مادة لصورته ، حينما رثى زوجته أم ولده سيف الملك بقصيدة مؤثرة موحية فقال:

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٤١
٢ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الأول – ص ٧٣
٣ – المصدر نفسه – المجلد الثاني – ص ٥٤٥

نَبَّهتْنِي حَمَامَةٌ بِسُحَيْرٍ عِنْدَ تَغْرِيدِهَا عَلَى الأَغْصَانِ
هَتَفَتْ بِي وَقَدْ تَحَدَّرَ دَمْعِي فَوْقَ خَدِّيَ أَحْمَراً كَالْجُمَانِ
زَدْتِ هَمّاً بِنَوْحِهَا فَوْقَ هَمِّي وَاعْتَرَانِي حُزْنٌ عَلَى أَحْزَانِي
قُلْتُ: مَاذَا التَّغْرِيدِ؟ قَالَتْ: دَهَانِي فِي خَلِيلِي رَيْبٌ مِنَ الْحَدَثَانِ
قُلْتُ: إِنْ كُنْتِ قَدْ عَدِمْتِ خَلِيلاً فَأَنَا قَدْ عَدِمْتُ ظَبْيَةَ بَانِ (١)

حقاً إنها صورة جميلة وبديعة رسمها عمارة حينما اتخذ أو تخيل أن (الحمامة) إنسان يتحدث معه يشاركه أحزانه وهمه ، فاستطاع الشاعر في براعةٍ أن يوحد الحدث عند الحمامة التي فقدت خليلها وفقده هو أيضاً لزوجته، متخذاً مادةَ صورته من الطبيعة معتمداً فيها على الخيال الواسع وعنصر التشخيص لغير الإنسان وإدارة الحديث على لسان الحمامة، فهي صورة جميلة مؤثرة .

كما وظف القاضي الجليس مفردات الطبيعة المتمثلة في (الربيع – النرجس – الرياض) فاستعان الشاعر هنا بخياله الشعري لإقامة تلك الصورة التى اعتمد فيها على عنصر التشخيص في قوله :

وَفَدَ الرَّبِيعُ عَلَى الْعُيُونِ بِنَرْجِسٍ يَحْكِي الْعُيُونَ فَقَدْ حَبَاهَا نَفْسَهَا
عَلِقَتْ عَلَى اسْتِحْسَانِهِ أَبْصَارُنَا شَغَفاً إذِ الأَشْيَاءُ تَعْشَقُ جِنْسَهَا
يُلْهِي ويُونِس مَنْ جَفَاهُ خَلِيلُهُ كَمْ مِنَّةٍ فِي أُنْسِهِ لَمْ أَنْسَهَا
فَأرضِ الرِّيَاضِ بِزَوْرَةٍ تَلْهُو بِهَا ولْحَثُّ عَلَى حَدَقِ الحَدَائِقِ عَكْسَهَا(٢)

لقد جسد الشاعر الربيع في صورة إنسان ، وفد علينا حاملاً معه النرجس والزهور ، لِينشرَ في المكان اللهو والمؤانسة وتغيير الحال إلى الأحسن بقدومه مبيناً ما حل على الرياض من سعادة وبهجة وفرح ، وهي صورة حية جميلة ، رسمها لنا القاضي الجليس بخياله مستمداً مادة صورته من الطبيعة المصرية الساحرة التي تسر النفوس وتمتعها .

ومن صور القاضي الجليس البديعة أيضا ، تلك الصورة التى رسمها لغلام تركي تغزل فيه بقوله:

ظَبْيٌ مِنَ الأَتْرَاكِ أَجْفَانُهُ تَسْطُو عَلَى الرَّامِحِ وَالنَّابِلِ
سِيَّانِ مِنْهُ إِنْ رَمَى أَورَنَا لَيْسَ مِنَ السَّهْمِينِ مِنْ وَائِلِ

---

١ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٩٩٠
٢ – خريدة القصر – الجزء الأول – ص ١٩٥

يفــرُّ منـــه القـــرنُ خوفـــاً كمــا يفـــرُّ ظبـــيُ القَـــاعِ مـــن حابــلِ
يـــاويْحَ أعـــدائك مـــا هـــالَهُم مـــن غـــصنٍ فـــوقَ نقـــا هائـــلِ
لا تَفرَقَـــوُا صَـــولَةَ نُـــشَّابِهِ فـــربَّ سَـــهْمٍ لـــيس بالقاتـــلِ
وحَـــاذِروا أسهـــم أجفَانِـــه فسحـــرُ ذا النـــابلِ من بابل [1]

ففي تلك الصورة مفردات تم توظيفها لتكوين صورة جميلة ، وهذه المفردات من الطبيعة استقاها الشاعر من (الظبي – الرماح – الغصن – بابل) وهذا دليل على التفات الشاعر للطبيعة من حوله واتخذها مادة ثرية لإثراء المعنى وإبراز صورته الشعرية .

كما طرق طلائع بن رزيك هذهِ الصورة في شعره، حينما اتخذ من (الظبي) مادة يستقى منها غزله متخيلاً أنه إنسان يخاطبه في قوله :

ظَبْيٌ يُحيِّــرُ فــي المَلاَحــةِ كُلَّمــاَ كَررْتُ طَرْفِي فـــي بَـــديعِ فُنُونِـــه
أشْـــكو إليْـــهِ صَـــبابَتِي فَيُجيُبِنـــي وَرْدٌ يُبَـــرِّدُ لَـــوْعتي بَمعينِـــه
قَـــسماً بِـــه وبَـــوَرْدَةٍ فـــي خـــدِّه وتَمــــامِ قَامتِـــه وسَـحرَ جُفُونِـــه
لَوْ أنَّ رَكْباً فـــي الفَـــلاةِ تَحيَّروُا لَسَروا بِضَوءٍ من هِلاَلِ جَبِينِه [2]

لقد أجاد طلائع توظيف الطبيعة الصائتة المتمثلة في (الظبـــي) معتمداً على عنصر التشخيص، حينما ربط بينها وبين صورته التى رسمها لغلامـه الذى يدعي (ورد) متخذاً من الظبي وسيلة لوصف هذا الغلام والتغـزل فيـه بصورة طريفة اعتمد فيها طلائع على الخيـال وعنصر التـشخيص لغيـر الإنسان.

ومن الظواهر الطبيعية التي كانت مادة للتصوير الشعري (البحر) ومـا فيه من الدر والصدف والموج وحبب الماء ، و(المطر) وما يتبعه من ظواهر مثل الرعد والبرق.

فهذا طلائع بن رزيك نراه في إحدى قصائده التى مدح فيها ذاته يرسـم صورة جميلة لنفسه ربط فيها بين المطر كظاهرة طبيعية تحمل معنى الخيـر والكرم والسخاء وبين صفاته الكريمة وجوده، فقال :

قَـــد علِمْـــتُم بـــأنَّ غيـــث أيَادِينـــاَ علَـــى النَّـــاسِ بالنُّـــضار سَـــكوبُ
نَحْنُ كالسُحْبِ بالبَـــوارِقِ والـــر عْدُ لَدَيْنَا التَّرْغِـــيبُ والتَّرْهِـــيبُ [3]

---

١ – خريدة القصر – الجزء الأول – ص ١٩٥
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٣٥ ، ص ٣٦
٣ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٥٩

فمن (السحب ، والبرق والرعد – والغيث) استقى طلائع مادة صورته من حيث المعاني التي يحملها المطر من كرم يشبه كرمه وسخائه على الناس وإلى أي مدى هو كريم معطاء معهم إذا اتبعوا تعليماته وأوامره ، ومن يخرج عن نظامه هذا فيكون مثل البرق والرعد بما فيهما من معاني القوة والبطش وقت الشدة .

وفي قصيدة له كان يرد بها على قصيدة أخرى يمدحه فيها الفقيه الشاعر : نصر بن عبد الرحمن وكان من أهل الإسكندرية، صورة بديعة مستمدة من الأزهار والورود المختلفة قال فيها:

أَهْدَي لِيَ القَاضِي الفَقِيهُ عَرَائِساً ... فِيهَا بَدِيعُ الوَشْيِ مِنْ تَنْمِيقِه
فَأَجلْتُ طَرْفِي، فِي بَدِيعِ رِيَاضِه ... مِنْ وَرْدِه ، وَبَهَارِه ، وَشَقِيقِه
فَكَأَنَّمَا اجْتَمَعَ الأَحِبَّةُ، فَاتَبَرَتْ ... يَدُ عَاشِقٍ تَهْوِي إِلَى مَعْشُوقِه
نَزَّهْتُ فِي بُسْتَانِ نَظْمِكَ خَاطِرِي ... فَحَظِيتُ مِنْ زَهْرِ الرُّبَا بِأَنِيقِه (١)

إن شعور طلائع بالسعادة والسرور يظهر آثارهما في صورته البديعة متخذاً مادتها من عناصر الطبيعة مثل (العرائس – والرياض – والورود – والبهار والبستان – وزهر الربا) وغيرها، إن هذا التكامل بين مشاعر طلائع وبين عناصر الطبيعة ساعد على تكوين الصور المتتابعة التي تتألق وتتسجم معاً لتكون صورة معبرة ، فأجاد طلائع في توظيف مفردات الطبيعة توظيفاً جيداً في التعبير عن مشاعره إزاء وصول قصيدة صديقه الفقيه نصر بن عبد الرحمن الذي أشعره بمشاعر الحب والود مما دفعه إلى تكوين هذه الصورة .

فكانت الطبيعة نبعاً ثرياً استقى منه طلائع بن رزيك معظم صوره، وحرص على أن تشاركه الطبيعة مشاعره، وأن تتواجد معه من خلال مشاركة وجدانية تجعل الصور أكثر حيوية وأكثر تدفقاً وجمالاً.

ومن إحدى قصائده التي أرسلها إلى أسامة بن منقذ استهلها بمقدمة غزلية بديعة تأتي صورها مستمدة من الطبيعة فقال :

هِيَ البَدْرُ ، لكِنَّ الثُّرَيَّا لَهَا قُرطٌ ... وَمِنْ أَنْجُمِ الجَوْزَاءِ فِي نَحْرِهَا سِمْطُ
مَشَتْ وَعَلَيْهَا لِلغَمَامِ ظَلائِلٌ ... تَظَلُّ ، وَمِنْ نَسْجِ الرَّبِيعِ لَهَا بُسْطُ
تَرُومُ صَرِيعاً فِي الرِّحَالِ ، كَأَنَّهُ ... مِنَ السُّقْمِ ، والأَيْدَى تَقَلِّبُهُ ، خَطُّ
فَمَا اخْضَرَّ تُرْبُ الأَرْضِ إِلا لأَنَّهَا ... عَلَيْهِ، إذا زَارَتْ ، بِأَقْدَامِهَا تَخْطُو (٢)

---

١ – المصدر نفسه – ص ١٠٤
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٦٤

فكما يبدو لنا واضحاً أنه بنى صورته الشعرية معتمداً اعتماداً كلياً على مفردات الطبيعة المتمثلة في (البدر) وجعل حبيبته مثل (البدر، والكواكب، والنجوم ومثل الثريا، والجوزاء، والغمام، والربيع، واخضرار تراب الأرض) ، وكلها مفردات طبيعية وظفها الشاعر توظيفا بديعا لرسم صورته التي يتغزل فيها في محبوبته .

وهذا أسامة بن منقذ اتخذ من مفردات الطبيعة صورة بديعة رسمها لمن يحب فقال في إحدى قصائده :

انظُر إليهَا ، ولا نَظَرت ، تَرى ... شَخصاً عَنِ العَاشقِينَ يَختَلِجُ
غُصنٌ ودِعصٌ ، فالغصنُ من هَيَف ... يَميسُ لِينا، والدِعْصُ يَرتَجُ
شمسٌ وليلٌ، فاعجب لشمسِ ضُحىً ... تَشرق ، والليل راكدٌ يدجو
رَحيقُ ريقٍ عَذْبٍ ؛ ففي كبدي ... منهُ سعيرٌ ، وفي فمي ثَلَجُ
في وجْهِها كَعْبةُ الجَمال، فللعَيـ ... ـنِ إلى حُسنِ وَجْهِها حَجُّ [(١)]

لقد أجاد الشاعر توظيف جُلّ كائنات الطبيعة والتي تتمثل في (الغصن ، والدعص ، والشمس، والليل ، والرحيق ، والفم ، والوجه ...) وغيرها فمزج أسامة في براعة ومهارة بين وصف الطبيعة ووصف الحبيبة وأتى بما يلائم الوصف ، لقد جعل أسامة من أبياته هذه الأبيات منظومة متسقة فجاءت تعبيراته بما تحمل صورة شعرية بديعة رائعة حاشدا في وصفه لتلك المحبوبة ظلالا من الاستعارات والتشبيهات .

كما استلهم أسامة من عناصر الطبيعة المختلفة صورة بديعة أجاد رسمها ، فقال فيها :

عَقائلُ الحيِّ ، أمْ سِربُ المَها سَنَحا ... أقسَمْنَ مَا كَانَ بالسُلوانِ قَدْ صَلَحَا
بَرزْنَ كالبَانِ في الكُثبانِ حَاملةً ... شَمْسياً أضَاءَتْ ولَيْلاً رَاكِداً جَنَحا
فاقتَدْنَ بالحبِّ مَنْ أعطَى مَقادَتَه ... طَوعاً ، وروضن بِحُسْنِ الدَلّ مَن جَمَحا
مِنْ كُلِّ غَيداءَ مِكْسالٍ إذا انتَبَهتْ ... تَنفَّستْ عَنْ نَسيمِ الرَّوضِ إذ نَفَحَا [(٢)]

فمن مفردات الطبيعة التي تتمثل في (قطيع الغزلان) المتمثل في قوله (سرب المها) و (البان، والكثبان، والشمس ، والليل ، والغيداء ، والروض ، والنسيم) وهذه كلها مفردات طبيعية أجاد أسامة توظيفها ليكون مادته الشعرية والتي أبدع فيها وصف المحبوبة أو رسم صورة بديعة للمحبوبة واستعار من الطبيعة أجمل ما فيها ونسبه إلى هذه المحبوبة .

وله في إحدى قصائده التي مدح بها الصالح بن رزيك ، متخذاً من (المطر) مادة ثرية لصورته فقال :

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٥٩
٢ – المصدر نفسه – ص ٦١

قُلْ لَغيثِى الْهتُونِ في أزمـةِ المَحْـ ـــل وُغَـوثى إنْ أرْهقَتنــى الْخُطـوبُ
كاشـف الغُمَّةِ المُـبيرُ عَلى السُـ ـحْبِ بِجـودِ مَدَى الزَّمــانِ يصـوبُ (١)

يربط هنا أسامة في مدحه بين (السحب) كظاهرة طبيعية تجلب المطر الذى يحمل معنى الخير والسخاء والكرم للناس، وبين جود ممدوحه وكرمه في صورة جميلة معبرة عن المعنى.

كما استقى شعراء بنى رزيك صورهم الشعرية من الطبيعة المصرية الخلابة، لما تتمتع به من مناخ معتدل، وآثار تاريخية عظيمة، متخذين من مفرداتها مادة خصبة تثري صورهم الشعرية، نتيجة لحياتهم التى قضاها معظم هؤلاء الشعراء بين ربوعها أو جزءا منها، فترسب في وجدانهم مظاهر جمالها ، كما تأثر بها أيضا الوافدون عليها من مختلف بقاع الأرض متأثرين بعناصر الطبيعة فيها نحو :

وصف عمارة اليمنى لأحد الآثار المصرية العريقة ، وهي الأهرامات الثلاثة وصفاً جميلاً يقول فيه :

خَليلـيَّ هَـلْ تَحْـتَ السَّماءِ بِنْيِـةٌ تُماثِـلُ فـي إتْقَانِهَـا هَرَمـيْ مِصْرَ
بِنَـاءٍ يَخَـافُ الـدَّهْرِ منْـه وكـلُّ مـاَ عَلَى ظَاهِرِ الدُّنيا يَخَـافُ مِـنْ الـدَّهْرِ
تَنَزَّه طَرَفِي فِـي بَدِيـعِ بِنَـائِهَا ولَمْ يتنزه فِـي المـرادِ بِهَا فِكْرِى(٢)

فهنا وصف عمارة الأهرامات بأنها بناء يخاف منه الدهر وهذا دليل على العظمة والقوة التى لا نستطيع فهم أسرارها وما المراد منها ، فالبيئة المصرية هنا كانت عاملاً مهما في ذلك الالتفات وتلك الخصوصية لتلك الآثار فجسدها في صورة إنسان يهاب منه الدهر ، فهي استعارة بديعة تبرز معنى القوة والعظمة والصلابة .

وله في موضع آخر مقطوعة شعرية بديعة استقى مادتها أيضاً من الآثار المصرية فيقول :

انْظُـر إلـى الهَـرَمَيْنِ إذْ بَـرَزَا لِلْعَـينِ فـي عُلْـو وَفـي صُـعُدِ
وكأنَّمـا الأرضُ العَرِيـضة إذْ ظَمِئـتْ لِفَـرْطِ الحـرِّ والومَـدِ
حَسَرَتْ عَـنْ الثَّـدْيَيْنِ بـارِزَةً تـدْعوُ الإلـه لفرقـةِ الولَـدِ
فَأَجابَهـا بِالنِّـيلِ يُوسعهـا رِيًا ويُشْـفيها مِـنْ الكَمَـدِ (٣)

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢١٣
٢ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٦٦٠
٣ – المصدر نفسه – ص ٦٦١

التقط لنا الشاعر صورة بديعة نسجها من خياله الواسع متخيلاً الأرض وقد ضربها الظمأ والكمد والجفاف ، تلجأ إلى الخالق تدعوه بأن يفرج أزمتها ويعيد إلى ثدييها ماء الحياة، فصير الهرمين سبيلاً للدعاء ومرسى للرجاء، حتى أن أجابها الله ببالغ عطائه وفيض كرمه ووسع عليها بغزير ريه ودفعه لنيلها المعطاء ليشبعها ويشفيها من الكمد .

والصورة هنا تحوى بين مضامنيها رمزاً يكشف عن مكانة هرمي مصر إلى جوار نيلها ، وكيف أنهم يمثلون جميعاً بالنسبة لأهلها مورداً ثميناً من موارد الحياة ... لا ينضب ولا يجف معينه ولا تخفي مآثره وعطاياه .

وهذا طلائع بن رزيك استمد صورته في مدح صديقه الحميم أسامة بن منقذ من البيئة المصرية متخذاً من (النيل) مصدراً لإلهامه فقال :

وَمَا كَانَ بَعـــدَ النَّـــيلِ وَالنَّيل زَاخـرٌ   بِمَصـــرٍ لِيغْنِي عَنْكُم ذَلِكَ الخَطُّ [1]

فمن شدة اشتياق طلائع لأسامة وحبه له متمنياً عودته إلى مصر مرة ثانية شبهه بالنيل في عطائه ووفائه ، وهي صورة جميلة معبرة عن مدى ارتباط الصديقين ببعضهما .

كما استقى ابن قلاقس مادة صورته الشعرية من تلك الآثار الخالدة في وصف (منار الإسكندرية) وكان أحد الأبنية العجيبة في العالم فقال :

وَمَنْــزِلِ جَــاوَزَ الْجَــوزَاءِ مُرتَقِيــاً   كَأَنَّمــاَ فِيــهِ لِلنَّـــسرَيَنِ أَوكَـــارِ
رَاسِى القَرارَة، سَامِي الفرعَ، فِي يَـدِهِ   لِلنُّـــونِ وَالنُّـــورِ أَخبــارِ وَأَخبــارِ
أُطلقَت فِيهِ عَنَــانَ لِلنظـــــم فَاطرَتَت   خيل لهَــا فِي بَدِيعِ الشِّعر مُضمَارِ [2]

هنا استعان ابن قلاقس بعناصر الطبيعة الصامتة والتي تتمثل في (النجوم، والكواكب، والسماء) والطبيعة الصائتة والتى تتمثل في (النسور) . ويبدو هنا التفات الشاعر إلى المنار وهو أحد المظاهر الطبيعية التى اختصت بها مصر ، كما أنه وظف هنا مفردات الطبيعة توظيفاً جيداً في التعبير عن وصفه وتكوين صورته الشعرية.

وعلى هذا النحو رفدت الطبيعة بمظاهرها المختلفة صور شعراء بني رزيك فكانت نبعاً ثرياً لصورهم، وكانت مصدراً واصفاً كما كانت موضوعاً موصوفاً، واستطاع شعراء بنى رزيك بما لديهم من موهبة فطرية وطبيعة

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق د. أحمد بدوي - ص ٦٧
٢ - ديوان ابن قلاقس - ص ٣١٣

شعرية أن يمزجوا بين مشاعرهم وبين عناصر الطبيعة وأن تتوحد أحاسيسهم مع مفردات الطبيعة .

كما استقى شعراء بني رزيك مادة صورهم الشعرية من **البيئة الحربية**، متأثرين بها واستلهموا منها صورهم، ولذلك نجد الحرب بكل مشاهدها وجيوشها وأسلحتها وكرها وفرها وهروبها وإقدامها مرسومة بدقة للعيان، وكأنك تشاهدها حية متحركة ، تسمع أصواتها ، وترى غبارها، لذلك كانت الحروب والمعارك مصدراً مهماً لمادة التصوير عند هؤلاء الشعراء .

وليس أدل على تمكن الطبيعة الحربية من فكر أسامة بن منقذ وخياله من الاعتماد عليها في رسم صورة مما يتمثل في تلك الصورة الحية الجميلة التي وردت في إحدى قصائده التي بعث بها إلى طلائع بن رزيك بعد انتصار طلائع على الفرنج فقال :

غَزَوتَهُم في البَحرِ حَتَّى كَأنَّما الـ ... أسَاطِيلُ فِيهِ مَوجُهُ المُتَلاطِمُ
بفرسانِ بحرٍ فَوقَ دُهمٍ كَأنَّها ... عَلَى المَاءِ طَيرٌ، مَا لَهنَّ قَوادِمُ
يُصرِّفُهاَ فُرسانُها بأعنّةٍ ... جَرَتْ حَيثُ لَمْ توصل بهُن الشكائمُ
إذا دفعوهُا قُلتَ: فُرسانُ غارَةٍ ... سَرَوا بِجيادٍ، مَا لهن قَوائِمُ
يَسُوقُ أساطيلَ الفرنجِ إليهم ... حَمامٌ، وَطيرٌ للفرنجِ أشائمُ
دمَاؤهُم في البَحرِ حُمرٌ سوائحٌ ... وَهَامُهمُ في البرِّ سُحمٌ جَوائمُ
فَلَمْ يَخفِ فِي فَجٍ مِنَ الأرضِ هَاربٌ ... وَلمَ يَنجُ فِي لُجٍ مِن المَاءِ عائمُ [١]

رسم أسامة صورة بديعة موحية لمعركة بحرية انتصر فيها الجيش المصري بقيادة طلائع بن رزيك على العدو وهم الفرنج رسماً بديعاً متخذاً من مفردات الطبيعة مادة رسم بها هذه اللوحة الفنية لتصوير المعركة، فمن (البحر والطير) كون أسامة صورته ووظفها توظيفا جيداً حيث نقلنا بخياله إلى ساحة القتال وكأننا نعيش داخل تلك الصورة فهي صورة حية متحركة معبرة يظهر فيها تأثير البيئة الحربية على الشاعر.

ومما يمثل ذلك أيضاً صورة المهذب بن الزبير التى صورها في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك متخذاً من البيئة الحربية مادة لصورته فقال:

وكَأَن بَحرَ الرُوم خَلْق وجهُهُ ... وَطَفَتْ عَلَيهِ مَنَابِتَ المَرجانِ

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٧٦

وَلَقد أتَى الأسْطولُ حِينَ غـزا بمـا	لَـمْ يـأتِ فـي حـينٍ مـن الأحيـانِ
أحْبِبْ إلـيَّ بِهـا شـوَاني أصْبحت	مـنْ فتكهـا ولَهـا الغـداةُ شـواني
شُـبّهْنَ بالغِربـانِ فـي ألْوانِهـا	وَفَعَلْـنَ فعـلَ كواسـرِ العقبـانِ
أوقَرتهـا عُـددَ القتـالِ فقـد غـدَتْ	فِيهـا القنـا عوضـاً مـن الأشـطانِ
فَأتتـكَ مُـوقرةً بِـسَبْي بينـه	أسْـراهُمُ مَغلولـةَ الأذقـانِ
حَرْبٌ عَـوانٌ حكّمـتكَ مِن العـداَ	في كلّ بِـكرٍ عـندهم وعَـوانِ (١)

ومفردات الطبيعة واضحة تماماً متمثلة فـي (البحـر – والمرجـان – والغربان) وأتى المهذب في مهارة بما يتوافق ويتلاءم مع كل عنـصر مـن عناصر الطبيعة لتكوين صورته عن الأسطول المصري الذى أعده طلائع بن رزيك فاستعان (بالبحر والبر) لتكوين صورته في مهارة وإتقان، ويعد ذلـك أثرا من آثار البيئة الحربية التي أثرت في الشاعر .

وفي موضع آخر من القصيدة نفسها التى استهلها المهذب بمقدمة غزلية بديعة نرى أثر البيئة الحربية واضحاً إلى أي مدى وقد تسلل إلى معاني الغزل حين قال :

لِلـرُّمحِ نَـصلٌ وَاحِـدٌ، ولَقَـدُه	مِـنْ نَاظِرِيـه إذْ رَنَـا نَـصلانِ
والسّيفُ ليْسَ لَهُ سِـوى جَفْـنٍ وقَـد	أضْـحَى لِـصارِمِ طَرْفِـه جَفنـانِ
والسَّهم تكفِي القوْسُ فيه وقَـد غـدا	مِـن حاجِبَيْـه للحظـه قَوسَـانِ
ولرُبّ ليلٍ خلَـتْ خَاطِـفَ بَرْقِه	ناراً تلفـعُ للدُّجَـى بِدُخَـانِ (٢)

فمن (الرمح – والسيف – والسهم – والقوسِ) وهي مفردات من البيئة الحربية استلهم المهذب صورته التى رسمها متغزلا في محبوبتـه، وببراعـة استطاع أن يربط بين هذه الأدوات الحربية وبين جمال محبوبته .

كما استلهم ابن قلاقس صورته في إحدى قصائده التى مدح بها طلائـع بن رزيك مما حوله من البيئة الحربية متأثراً بمناخ الحروب التي خاضها هذا الفارس المغوار (أبو الغارات) محققاً النصر والفوز فيها فقال :

هُـوَ كَالّـسيفِ غيْـر أنّ لَـهُ مِـنْ	كُـلِّ وَجْـهٍ للمُفْـسدِينَ غِـرَارُ
عَزْمَـةُ سَـيفُهُ، وهيبَتُـهُ الرّعْـ	ـبُ حقيقـاً، ونَـصرَهُ الأنـصَارُ
فلَـه منْـه وَحـدَه حَالَـةُ الحـرْ	ب للأعْـداء جَحْفَـلٌ جَـرَّارُ

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٥ ، ص ٢٣٦
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٣١

إذا ما الخَطّيُ غُرّسَ في الأعــداء يوماً فللرؤوس نثارُ (١)

استعان ابن قلاقس بأحد عناصر البيئة الحربية وهو (السيف) كمادة لصورته البديعة التي وصف فيها طلائع بصفات القوة والشجاعة والإقدام، وأجاد توظيف مادة صورته في ربطة بين ما يحمله السيف من معاني الترهيب والهيبة وبين صفات ممدوحه التي اشتهر بها وهي البسالة والشجاعة، وتحقيقه للنصر والفوز في ميدان الحروب .

وله في موضع آخر من شعره مستمد فيها مادة صورته من مناخ الحروب وبيئتها فيقول :

كأنّما الرّعدُ والسّحابُ وقد جَدّ هُبوباً والبَرقُ إذ لاحا
ثلاثةٌ منْ عدوّهِمْ نفروا إليهِمْ قدْ غدا وقدْ راحا
فسلّ هذا سيفاً لهُ وبكى هذا وهذا من خيفةٍ صاحا (٢)

فتخيل هنا ابن قلاقس أن الرعد والسحاب والبرق ثلاثة أشخاص مختلفة معتمداً على الخيال في تشخيص صورته وتجسيمها فهو يرى أن البرق لاح كالسيف القاطع والسحاب لاح كالباكي المنهزم وبدا الرعد كالصائح الخائف من هول المعركة وشدتها.

فهذه الصورة تعكس لنا واقعاً حيويا استخلص منه الشاعر صورة الطبيعة من قلب الميادين الحربية كما أنها تعد نموذجاً يكشف لنا مدى ربط الشعراء بين مفردات السماء والقتال باعتبار أن السماء رمزٌ من رموز الخلاص والنصر والتمرد والسيادة .

أما طلائع بن رزيك فالبيئة الحربية تعد نبعاً ثرياً استقى منها صوره ، فلا عجب في هذا فهو شاعر كان هدفه وغرامه الذي كرّس له حياته هو تحقيق النصر وهزيمة العدو فهذا أسمى طموحاته ليحقق لمصر في عهده مناخ من الأمن والاستقرار وأن يظل عهده خالداً على مرّ التاريخ بالذكرى المشرفة .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله في إحدى قصائده التي مدح بها صديقه الحميم أسامة بن منقذ محرضاً فيها نور الدين محمود صاحب الشام على الجهاد والاتحاد معاً ضد العدو فيقول :

---

١ - ديوان ابن قلاقس - ص ٣١٣
٢ - المصدر نفسه - ص ٣٩٠

قَلَــدِيْنَا مِــنَ العَــساكِرِ مَــا ضَــاقَ بِأَدْنَــــاهُمُ الفَـــضاءُ الرَّحِيـــبُ
وَعَلَيْنَـــا أَن يــستَهِلَّ علـــى الــشَّام مكـــانَ الغيــوثِ ، مَـــالٌ صَـــبِيبُ
أَوتَرَاهـــا مِثْـــلَ العَـــرُوسِ: تَرَاهَـــا كُلُّـــه مِـــنْ دَمِ العِـــدا مَخْــضُوبُ
لِطنين السَّـــيُوفِ فِـــي فَلَـقِ الصُّبْــ ـحِ علَـى هَامِ أَهْلِـــها تَطْـــرِيبُ [1]

فكما يبدو لنا اعتماد طلائع في رسم صورته في التعبير عن شجاعته بجيشه في تصويره لإحدى المعارك التى حقق فيها النصر ، فالتفت إلى البيئة المحيطة به وهي البيئة الحربية التى تتمثل مفرداتها الفاعلة في تشكيل الصور والمتمثلة في (العساكر – والعروس – والدم – والسيوف – والصباح – والهام (الرقاب)) وهي مفردات ذات صلة وثيقة بالحروب تلك البيئة التى كان طلائع لا يفتأ في أن يجاهد أعداءه الفرنج ، وهذا ليس بشئ غريب على بطل ثبت في التاريخ جهاده وشجاعته.

ب- التراث الثقافي :

من المصادر المهمة التى رفدت الصورة عند شعراء بنى رزيك ثقافتهم المتنوعة المتمثلة في الثقافة الإسلامية والعربية والتاريخية ، فلقد كان هؤلاء الشعراء على درجة عالية من الثقافة التى طبعت أساليبهم ومعجمهم اللغوي بطابع خاص، كما أمدتهم هذه الثقافة بزاد وافر من الصور والأخيلة فقد وجدوا في عصر نضجت فيه العلوم والآداب وامتزجت فيه الثقافة العربية بثقافات أخرى متنوعة ، وقد أثرت مجالس العلماء والأدباء والشعراء محصول الشعراء الثقافي ، فكانت أكبر معين لجأوا إليه يستوحون منه صورهم وأخيلتهم .

فجمعوا في ثقافتهم بين الثقافة الدينية وبين العلوم الدنيوية وبين الثقافة التراثية ، ولجادوا في توظيفها وتكوين الصور البيانية المعتمدة عليها .

فيستلهم عمارة اليمني صورته من موروثه الديني المتمثل في القرآن الكريم الذي يعد مثلاً أعلى في الفصاحة والبيان، إذ نراه يقول في صورته الشعرية التى صور فيها مصير قتلة الوزير طلائع بن رزيك في إحدى قصائده مخاطباً الإمام العاضد:

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٦٢ – ص ٦٣

يهنى أميرَ المؤمنينَ قيامُهُ   في ثأرِكمْ وَوَفَاؤهُ المَعْهُودُ
لَمْ يرضَ بالأمرَ الذى رَضيت به   في الملك أطرافٌ طغت وعَبيدُ
فشقوا بيوم " الصالح " الهادي كمَا   شقيت بصالح النبِّي ثَمُودُ [1]

فلقد أجاد عمارة حينما وظف الصورة القرآنية التي وردت في قوله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا) توظيفاً رائعاً، حيث استدعى من اسم سيدنا صالح – عليه السلام – ومن قصة قوم ثمود وصراعه معهم جول الحق والباطل صورته وربط بينها وبين اسم الصالح بن رزيك وكأنه هو معجزة عصره الذى أنقذ مصر والخلافة ونهض بها وهنا أحسن عمارة في إبراز عنصر المشاكلة لتوضيح المعنى وإبرازه .

وينتهج النهج ذاته في وصفه لدار الخليفة العاضد فاستلهم صورته في إحدى قصائده التى مدح بها القرآن الكريم فقال فيها :

هِيَ الصَّرح إلاَّ أنَ هَامَان لَمْ يشد   بِنَاهُ ولاَ اَستَمْطَاهُ فِرعَونَ لِلْكُفرِ [2]

يشير هنا عمارة إلى قوله تعالى : (وقَالَ فِرْعَون يَاهَامَانَ ابْن لِي صَرْحاً ....) والصرح استمد صورته من الصرح الذي بناه هامان وزير فرعون ليكون مرصداً يرصد منه أحوال الكواكب، فشبه هنا الشاعر دار الممدوح بصرح فرعون ارتفاعاً وأناقة.

كما التقط عمارة تلك الصورة أيضاً من القرآن الكريم الذى أكسب صورته قوة وبريقاً وعذوبة حينما رسم صورة تعرض طلائع بن رزيك للاغتيال ودفاع أخيه فارس المسلمين بدر بن رزيك عنه فقال :

وَرَبَّ نَازِلَةٍ شَمرتَ مُجتَهِداً   فِي كَشْفِ غُمتْهَا عَنْ كَاشِفِ الْغَمّم
فعل " الوصى علىّ " بالنبيِّ وَقَدْ   همَتْ بِحُرمَتهُ الكُفَّار فِي الْحَرمِ [3]

فلقد نسج عمارة من الصورة الدينية المتمثلة في المؤامرة التي دبرها المشركون ضد الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ودفاع سيدنا علي (رضى الله عنه) عنه حامياً ظهره من العدو، فمن هذه القصة استلهم عمارة صورته التى صور فيها تلك المؤامرة المريبة التى تعرض لها طلائع بن

---

١ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الأول – ص ٣٢٢ ، ص ٣٢٣
٢ – المصدر نفسه – ص ٤٧٦
٣ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٩٠٢

رزيك ودفاع أخيه بدر عنه ، فأجد عمارة توظيف الصورة وإبراز عنصر التشابه بين الصورتين والربط بينهما .

وإذا انتقلنا إلى المهذب بن الزبير نجد أنه يستمد في إحدى قصائده التي مدح بها طلائع بن رزيك صورته من موروثه الديني المتمثل في القرآن الكريم حين قال في مقدمته الغزلية :

وكُلَّ بَيْضاءَ لَوْ مَسَّتْ أنامِلُها قَميصَ يُوسُفَ يَوماً قُدَّ مِنْ قُبلِ [1]

هنا يستدعي من القرآن الكريم قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز حين راودته عن نفسه في قوله تعالى على لسان يوسف :

(قَالَ هِي راَوَدتْني عَنْ نَفْسي وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَميصه قُدَّ مِنْ قُبَلِ فَصدقَت وهو مِنَ الكاذبِينَ) [2] .

فاتخذ المهذب من هذه القصة شبهاً لصورته الشعرية ، فأجاد في إبراز عنصر المشاكلة بين الصورتين.

وله في موضع آخر إذ يتخذ من قصة موسى – عليه السلام – والتي وردت في القرآن الكريم مصدراً لإلهامه حينما وصف غلام أعجب به فقال :

وَذِى هَيَفٍ يُدْعىَ بِمُوسَى بِطَرْقِهِ بَقيةُ سَحْرٍ تَأْخُذُ العَيْنَ وَالسَّمْعَا
وحيَّاتُه أصْداغُهُ ، وعِذارُهُ يُخيَلُ لِي فِي وَجْهِهِ أنّها تَسْعَىَ [3]

فلقد وفق المهذب في رسم صورته لهذا الغلام وتصوير لحيته على أنها تشبه الحيَّة مستدعياً حكاية سيدنا موسى عليه السلام مخاطباً سحرة فرعونٍ في قوله تعلى **(قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُم وعَصيُّهم يُخيَّل إِليَهْ مِنْ سِحْرِهِمْ أنها تَسْعَى)** ، كما أنه أحدث مطابقة بين اسم سيدنا (موسى) واسم الغلام (موسى) مما ساعد الشاعر على استدعاء هذه الصورة بشكل جيد فهي صورة بديعة أجاد المهذب رسمها .

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢١١
٢ – سورة يوسف – الآية رقم ٢٦
٣ – المصدر نفسه – ص ٢٠٠

وعلى هذه الشاكلة يأتي ابن قادوس في رسم صورة هجائه لرجل كبير الأنف مستلهماً كبر حجمها من موروثه الديني المتمثل في القرآن الكريم فقال:

كَأَنَّـــه السَـــدُ الذَّي بَيْـــــنَنَا وَبَيْن يَأْجُـــوج وَمَأْجُـــوجِ [١]

فاستلهم هنا ابن قادوس من الآية القرآنية التى ورد ذكرها فـي سـورة الكهف عن سد (يأجوج ومأجوج) في تصوير أنف ذلك الرجل بكبر حجمها . معتمداً على عنصر التشابه بين الصورتين.

كما استلهم طلائع بن رزيك من موروثه الديني أيضا – المتمثـل فـي القرآن الكريم هذه الصورة التى أتى بها في إحدى قصائده التى مدح بها أسامة بن منقذ فقال :

إِلىَ الْعَرَبِ الأَمْحَاضِ يُعْزَى قَبِيلـُـهاَ وَقَدْ ضَمَّهاَ فِي الْحُسْنِ مَعَ يُوسفِ سِبِطُ [٢]

ففي مقدمة قصيدته الغزلية استدعى طلائع من جمال سيدنا يوسف عليه السلام مادة ليربط بينها وبين جمال محبوبته بهذا الأسلوب البديع ، ولقد أجاد طلائع في توظيف المعنى وإبراز عنصر المشاكلة بين الصورتين .

كما كانت العلوم الدنيوية مصدراً آخر استمد منه شعراء بنـي رزيـك كثيراً من صورهم الشعرية، فاتخذوا من عناصرها ومفرداتها مادة لصورهم .

فهذا طلائع بن رزيك نراه لجأ إلى بعض المـصطلحات الطبيـة فـي تصويره لإحدى الصور التى أتى بها في إحدى قصائده التى أرسلها إلى أسامة بن منقذ محرضاً إياه على الجهاد والتصدّي للعدو والاتحاد معاً فقال :

فَقولُوا لنُور الدّين: لَيْس لجائف الْجراَ حـاَتِ إلاَّ الكـيُّ فـي الطـبِّ والـبطُ
وَحسم أصُـــولِ الدَّاء أوْلىَ لِعاَقـلِ لَبِيـبٍ إِذا استَولىَ علىَ المُدنف الخِلْطُ [٣]

فلقد استدعى هنا طلائع من ثقافته المتنوعة والتى تتمثل في (الجراحات – الطبّ – الداءّ) وهي مصطلحات طبية وظفها بشكل جيد لتلاءم صـورته وتأتي في سياق المعنى لتصويره ما أصاب الشام على أيدي الصليبيين وهدفه من ذلك هو نقل الصورة لنور الدين محمود صاحب الشام ، ليتحدا معاً ويكونا جبهة قوية تتصدي للعدو الجاسم .

---

١ – خريدة القصر – الجزء الأول – ص ٢٣٤
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٦٥
٣ – المصدر نفسه – ص ٦٩

كما تأثر شعراء بنى رزيك بعلم الفلك واتخذوا منه مادة تثري صورهم الشعرية؛ فالمصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلاً عليها، وشغفاً بها وسكوناً إليها.

فنجد المهذب بن الزبير يعتمد في بعض صوره على بعض المصطلحات التي تنتمي إلى علم الفلك نحو قوله في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك :

وَتَرى المَجرَّةَ في النُّجُومِ كَأنَّها | تَسقِى الرِّياضَ بِجَدولٍ مَلآنِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ نَهراً لمَا عَامَت بِهِ | أبداً نُجومُ الحوتِ والسَّرَطَانِ [1]

فمن (المجرة – والنجوم – وبرج الحوت – وبرج السرطان) وهي مفردات من علم الفلك وظفها المهذب لتلائم المعنى وتوضح صورته في أن النجوم تركزت حتى تراءت من الأرض كوشاح أبيض يعرض في السماء، وهي صورة بديعة أجاد المهذب رسمها معتمداً فيها على مخزونه الثقافي الواسع .

وله في موضع آخر من نفس القصيدة السابقة قوله :

فَلْيَهنِهِ أنْ فَازَ مِنكَ بِسيّدٍ | وَقَى بِرُتْبَتِهِ عَلَى كَيوانِ [2]

وبهذه الصورة يقصد نور الدين محمود الذى فاز بصداقة طلائع بن رزيك مستمداً صورته من (كيوان) وهو كوكب زحل الذى يضرب به المثل في العلوّ وبعد المسافة، فأتى به المهذب في صورته ليدل على ارتفاع منزلة ممدوحه وقدره وهو طلائع بن رزيك .

كما استمد المهذب صورته في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك من مصطلح علم (الكيمياء) حين قال :

أعِزْ نَظم شِعْرِي مِنْكَ عَيْناً بَصِيرةً | فَفِي طَيِّه لِلْكِيمياءِ كُمُونُ [3]

فاستلهم الشاعر من علم الكيمياء معنى الحيلة والحذق في مدحه لشعره وجودته وهذا ينم على ثقافة علمية واسعة .

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٣١.
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٣٧
٣ – المصدر نفسه – ص ٢٢٦

كما طرق عمارة اليمنى علم (الفلك) في رسم إحدى الصور التى مدح بها الناصر بن رزيك قائلاً:

أعلمتنَا لـــمَا طَلَعْـــت ببُرجِهاَ أنّ البـرُوج مَطـالِعُ الأقْـمَارِ (١)

فمن مفردات علم الفلك والتى تتمثل في (البروج – والأقمار) والمقصود بها بروج السماء الاثنى عشر وهي (الحمل – والثور – والجوزاء – والسرطان – والأسد – والسنبلة – والميزان – والعقرب – والقوس – والجدي – والدلو – والحوت) استقى منها عمارة مادة صورته التى مدح بها ابن الصالح بن رزيك بهذه الصورة البديعة وأجاد فيها توظيف المفردات بما يتناسب مع المعنى .

وعندما رغب شعراء بلاط بني رزيك في إضفاء صفتي الجدة والأصالة على أشعارهم ، عادوا إلى التراث الشعري العربي القديم ، فجعلوه زاداً لصورهم الشعرية ، واتخذوا من مفرداته مادة خصبة لصورهم وانتقوا منه ما يعمق معاني أشعارهم ، ويخدم بها مضامينه.

ومما يمثل ذلك قول المهذب بن الزبير في قصيدته التي مدح فيها داعي اليمن محاولاً استعطافه لإطلاق سراح أخيه الرشيد بن الزبير فقال مشيراً إلى رفعة قدر أخيه ومبيناً مدى اشتياقه إليه ووجده عليه :

مَا كَانِ بعد أخِي الذى فَارَقْتهُ لِيبَوح ، إلاَّ ، بالْشكَاية لِي فَمُ

هُو ذَاكَ لمَ يَمْلكْ عُلاهُ مَالكٌ كَلاَّ ، ولا وَجدَىْ عَليِه مُتَيّمُ (٢)

فتتجلي ثاقفة المهذب الأدبية الواسعة العميقة في حفظه للشعر العربي القديم مشيراً إلى قصة مالك بن نويرة بن حمزة بن شداد وأخيه متمم، إذ يفضل أخاه على مالك بن نويرة أخي متمم الذى قيل فيه : فتى ولا كمالك ، ولا يخفي التورية في (متمم) يريد أن وجده عليه لا نهاية له، وهيهات شأن يكون له تمام يحدّه أو أمد يقف عنده، وكان متمم (صحابي جليل وشاعر بليغ)، هذا وقلّ أن تجد أخاً لأخيه مثل ما كان متمم لأخيه مالك . وقد أراد المهذب هنا أن يكون فوق ذلك في اشتياقه لأخيه ووجده عليه .

ويقول المهذب في قصيدة أخرى مشيداً بطموحه متغنياً بمكارمه وأمجاده معتمداً على ما حفظه من الشعر العربي القديم حيث قال :

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٤٧٢

٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢١

تَأبى المَكارِمُ وَالمَجـــدُ المُؤَثَّلُ لِـي مِنْ أَنْ أُقِـــيم وآمالي على سَفَرِ [1]

استمد المهذب مادته الشعرية هنا من معنى الشاعر العربي القديم امرئ القيس حينما ترفع عن طلب الدنيا وزهى بطموحه قائلاً:

وَلَـوْ أَنَّ مَـا أَسْـعَى لأدنَـى مَعيشةٍ كَفَاني، ولَمْ أَطْلُبْ، قَليـلٌ مِـنَ المـالِ
وَلَكنَّي أَسْــعَى لِمجــدٍ مُؤثــلٍ وَهَل يُدركُ المَجْد المُؤَثـلِ أمثالـي ؟!

فلقد استطاع المهذب ببراعة وإتقان أن يوظف هذا المعنى حيـث أتـى (بالمكارم والمجد المؤثل) على أنهما شخصان يأبيان عليه أن يرضى بالهوان في عيشه؛ فهو لا يقف على ذلك إنما هو مصرّ على أن يضيف لحياته التـي هي دائماً على سفر وتفيد هنا الثبوت والدوام، فاعتمد هنا المهذب في صورته على صورة من الشعر العربي القديم .

كما تتجلى ثقافة المهذب الأدبية الواسعة في حفظـه **للأمثـال العربيـة المأثورة** فقال في إحدى قصائده التى مدح بها الصالح بن رزيك :

نَادَمْتُ فِـــيهِ الفَرْقَـــدَينِ كَأَنَّنى دُونَ الوَرَى – وَجَذيمِـــةَ أَخَوانِ [2]

فلقد استمد المهذب مادته الشعرية من المثل العربي القـديم (كنـدماني جذيمة) وأشار إلى هذا المثل أيضاً متمم بن نويرة في رثاء أخيه (مالك) قائلاً:

وكنا كندمَـــاني جَذيمةَ حِـــقبةً مِنَ الدَّهرِ حَتَّى قيـــلَ لَنْ يتَصَدَعَا

فيرى المهذب أنه في هذا الليل الطويل العريض ساهراً فيه وحيداً ، لـم يجد له نديماً إلا الفرقدين، كأنه جذيمة الأبرش ونديماه مالك وعقيـل ، وهـذا دليل واضح على تأثر المهذب بن الزبـير بالأمثال العربية المأثورة وحفظـه لها.

وهذا ابن الصياد استمد مادة صورته في إحدى قصائده التى مدح بهـا طلائع بن رزيك من صوره كررها الشعراء القدماء في أشعارهم فقال :

وَالمَـــشرفِيةِ قَــدْ حَكَـتْ فِـي جَيْـشه في العَـلّ وَالنَّهـلِ القَطَـا الفُرَّاطـا
فجِيَادُهُ تَشكُو مُزاحَمَـــةَ القَـــنَا وتَردُّ خِرْصَـــانَ الرِّماحِ سِياطاً [3]

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٩٧
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٣١
٣ – خريدة القصر – الجزء الأول – ص ٢٤٣

فلقد اعتمد ابن الصياد في وصفه نقتل أرناط مقدم خيل الفرنج الذى قتل على يد طلائع بن رزيك على صورة قديمة تقليدية اعتاد عليها الشعراء القدماء وهو وصف السيوف المشرفية وهي تسيل منها دماء الفرنج بالقطا الفراط المتقدم لورد المياه ، وكذلك الجياد التى تشكو من زحام الرماح، وتشبيهه للرماح بالخرصان والسياط فكليا صور مستهلكة من قبل .

وله في موضع آخر صورة استمد مادتها – أيضا – من التراث القديم في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك فقال:–

أَضْرَمْتَ فِي أَكْبَادَهِم مِنْ بَعْدِهِ   بِالنَّصلَ نَارَ تَأسُّفٍ وتَلَهُّفِ
فَفُؤادُ ذِى الجَأشِ الرَّبِيطِ مَخَافةً   يَحْكِى جِنَاحَ الطَّائرِ المُتَرفْرِفِ (١)

وهنا اعتمد الشاعر أيضاً على موروثه الثقافي المتمثل في ما اعتاد عليه الشعراء القدماء في وصف خوف الجنود وذعرهم الذى خلع قلوبهم ، وتصوير أفئدة ذي الجأش منهم في خفقاتها وفي نبضها بجناح الطائر المترفرف وهي صورة اعتاد عليها الشعراء.

ويأتي على هذه الشاكلة عمارة اليمني في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك معتمداً على التراث القديم في صورته فقال :

شَرُفَتْ بَنُو رزِّيكَ حَتَّى أَنَّهمُ   دُوَنَ البرِيَّةَ لِلْكَوَاكِبِ مَعْشَرُ
وتَوَاضَعوا والدَّهرُ يَعْظُمُ والعُلَى   أنَّ الزَّمانَ بِهِمْ يتيهِ وَيَفْخَرُ (٢)

وتصوير عمارة للزمان على أنه إنسان يتيه ويفخر بأهله ، هذا التجسيد ليس بجديد على الصورة الشعرية ، وكذلك صورة القوم على أنهم معشر للكواكب صورة مكررة ومستهلكة من قبل الشعراء القدامى .

وعلى هذا النحو استلهم شعراء بني رزيك مادة صورهم الشعرية من الطبيعة بأنواعها وعناصرها المختلفة ، ومن الطبيعة المصرية وآثارها العظيمة متأثرين بهذه العظمة والشموخ، كما تأثروا بالبيئة الحربية التى كانت عنصراً مهماً استقى منه هؤلاء الشعراء مادة صورهم الشعرية .

وإلى جانب ذلك لم يغفلوا الاستفادة من التراث الثقافي كمصدرٍ غنيٍّ لهم فاتخذوا من الموروثِ الثقافيِ الديني والمتمثل فيما حفظه الشعراء من القرآن الكريم الذى يعد مدداً متصلا ومثلا أعلى للفصاحة والبيان، وكذلك تتجلى

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢٤٤
٢ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ٤٣٢

ثقافتهم الواسعة فيما اعتمد عليه الشعراء من المصطلحات العلمية التي تبين لنا مدى تأثرهم بعلوم عصرهم نحو الطب، والفلك، والكيمياء وغيرهما من العلوم والثقافات المتنوعة في ذلك العصر .

كما اتضح لنا إلى أي مدى تأثروا بالموروث الثقافي القديم المتمثل فيما حفظه الشعراء من الشعر القديم والأمثال العربية المأثورة معتمدين عليها كمادة أصيلة لصورهم الشعرية لإضفاء عنصري الأصالة والجدة في أشعارهم .

ويبقى بعد ذلك لكل شاعر ذاتيته فيما يأخذ وفيما يدع ، وفيما يكثر من استخدام مادة التصوير، وهذا يرجع إلى شخصية كل شاعر ونمط الحياة التى عاشها والتجارب التى مرت به . (١)

ثانيا: وسائل تشكيل الصورة :

استعان شعراء بلاط بني رزيك بوسائل عدة لتشكيل صورهم الشعرية ، واتخذت صورهم أكثر من شكل أدائي ، فتنوعت بين التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، وهذه الوسائل البيانية تعد بالنسبة للصورة عين المجاز وأصل بنائها .

أ- التشبيه :

تجلى التشبيه كوسيلة من وسائل تقريب المعنى وإيضاحه في تراثنا العربي ، وهو من أبرز العناصر التي عنى بها شعرار بني رزيك في رسم العديد من صورهم ، وتتبدى مهارة الشعراء من خلال قدرتهم على إجادة التشبيه وتوظيفه لتكوين الصورة وإبرازها وبث الحياة والحركة فيها.

فالتشبيه يجسد في صورة حسية الأفكار المجردة ، فتمثلها وكأنها موجودة أمامنا ، ولهذا نال التشبيه عناية النقاد والبلاغيين القدماء واهتمامهم لما له من عظيم الشأن في الشعر العربي.(٢)

---

١ - د. فوزي أمين - شعر بشر بن أبى خازم الأسدى - رؤية تاريخية وفنية - منشأة المعارف ، بالإسكندرية، ١٩٩٨م - ص ١٣٩

٢ - راجع التشبيه في:

- الإمام عبد القاهر الجرجانى - أسرار البلاغة في علم البيان - شرح السيد محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت - لبنان ص ٧٠ ، ص ٧١ .
- قدامة بن جعفر - نقد النثر - د. محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة الكليات الأزهرية - ط القاهرة - ص ٤٩ .
- أبو هلال العسكري - الصناعتين - ص ١٨٠ ، ص ١٨٢ ومن النقاد المعاصرين :

ويجلُّ التشبيه عن الحصر في شعر شعراء بلاط بني رزيك لكن نشير إلى بعض النماذج الدالة على التشبيه دلالة واضحة .

فهذا طلائع بن رزيك نراه في إحدى قصائده التى بعث بها إلى أسامة بن منقذ مادحاً يقول :

نَحْنُ كَالسُّحْبِ بِالْبَوارِقِ والرَّعْـ ـدِ لَدَيْنَا التَّرْغِيبُ والتَّرْهِيبُ
تَارةً نُسْعِرُ الحُرُوبَ على النَّاسِ وَطَوراً بِالمَكْرُمَاتِ نَصُوبُ (١)

شبه هنا طلائع نفسه بالسحب لما تحمله من معاني الخير للناس وقت نزول المطر، وقد تكون شراً لهم إذا انقلب الحال إلى رعد وبرق وصواعق، فتجلب لهم في هذا الحال الشر، فهنا شبه طلائع نفسه بالسحب ليرغبِ الناس فيه وفي كرمه وبالصواعق والرعد ليرهبهم من شره وغضبه مؤكداً ذلك في البيت الثاني بأنه تارة يقسو على الناس وتارة ينعم عليهم بالكرم والخير، وهنا اعتمد طلائع على التشبيه لتشكيل هذه الصورة الشعرية.

وقال طلائع في إحدى قصائده التى بعث بها إلى أسامة بن منقذ:

خَلَطْنَا النَّدى بِالْبأسِ ، حَتَّى كَأَنَّنَا سحَابٌ، لَدَيْه البَرَقُ والرَّعْدُ والقَطْرُ
تَرَانَا إِذَا رُحْنَا إِلَى الحَرْبِ مَرَّةً قَرِيْنَا، وَمِنْ أَضْيافِنَا الذِّئْبُ والنَّسرُ
كماَ أنَّنا فِي السِّلْمِ نَبْذُلُ جُودَنَا ويَرْتَعُ فِي إِنْعامِنا العَبدُ والحُرُ (٢)

يعتمد طلائع في هذه الصورة الممتدة على التشبيه كوسيلة بيانية تجمع بين طرفيهما، والطرف الأول هو المشبه وهو (كرمه) ، والطرف الثاني المشبه به وهو (السحاب) فاستطاع في براعة وإتقان أن يجسد صفة الكرم ويشبهها بالسحاب بما يحمله من معاني الخير والنعم ، مادحاً نفسه فخوراً بذلك حتى إن كرمه يتضح ويظهر في السلم وفي الحرب، فهنا يسهم التشبيه بما له من قدرة على التقريب والتوضيح وإبراز الصورة في تشكيل الصورة التى هدف إليها طلائع بن رزيك والتى مدح فيها نفسه بالكرم .

وفي موضع آخر من قصائده يستعين طلائع بالتشبيه فيقول :

- د. صبحي البستاني – الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – الأصول والفروع – دار الفكر اللبناني – بيروت ، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م – ص ١٠٣ ، ص ١٢٢
- د. مصطفى ناصف – الصورة الأدبية ، دار الأندلس ، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م – ص ٤٦ ، ص ٧٢

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٥٩
٢ – المصدر نفسه – ص ٦٣ ، ص ٦٤

آدَابُكَ الغُرُّ بَحْرٌ، مَالَهُ طَرَفٌ فِي كُلِّ سَمْعٍ بَدَا مِنْ حُسْنِهِ طُرَفٌ
نَقُولُ ، لما أتانا ما بَعَثْتَ بِهِ : هَذا كِتابٌ أتى ، أمْ روضةٌ أُنُفٌ [1]

أتى طلائع هنا بتشبيه بليغ حيث شبه آداب أسامة وما يشتمل عليه من خصال كريمة بالبحر الذي ليس له حدٌ أو قدرٌ معين فحينما يذكر أسامة في أي مكان يبدو لنا جزءٌ من محاسنه وهو تشبيه بليغ محذوف الأداة ، وذلك للتعبير عن المبالغة في وصفه لحبه وتقديره لأسامة بن منقذ. [2]

كما أكثر ابن قلاقس من استخدامه للتشبيه والاستعانة به لتشكيل صوره، ومن ذلك قوله في إحدى قصائده التي مدح بها الحافظ السلفي وذكر فيها طلائع بن رزيك فقال :

يُرِيكَ إذا سالَمْتَه البَدرَ طَالِعاً تَمَاماً وإنْ حَارَبتَهُ اللَّيثَ مُقدِماً [3]

اعتمد ابن قلاقس في تشكيل صورته على التشبيه مشبهاً الملك الصالح بالبدر وقت السلم، فهو كالبدر في ثنائه وسموه وضيائه وبهائه ، وفي الصورة أيضاً استعارة حيث شبه طلائع بالأسد المقدام الشجاع وقت الحرب، وهي صورة بديعة أجاد في رسمها ابن قلاقس للملك الصالح بن رزيك .

وله في موضع آخر من القصيدة نفسها معتمداً على التشبيه كوسيلة بيانية لتشكيل صورته فقال:

هَلْ البدرُ إلاَّ أنْتَ لَيلةَ تَمِّهِ هَلْ البَحرُ إلاَّ أنْتَ سَاعَةَ أنْ طَمَا [4]

لقد أتى ابن قلاقس بتشبيه بليغ فيه قمة المبالغة مشبهاً ذلك الفقيه الحافظ السلفي بالبدر ليلة تمامه والبدر يكون مكتمل البهاء ، مكتمل الضياء ، وفي الشطره الثانية يشبهه أنه بحرٌ كثير العطاء ، كثير البذل ، يحمل الخير الوفير.

ولقد أجاد ابن قلاقس توظيف الصورة التشبيهية لخدمة المعنى الذى يعبر عنه وهو مدح الحافظ السلفي .

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٧١
٢ – راجع مواضع استخدام طلائع بن رزيك للتشبيه في ديوانه – ص ٥٨، ص٥٩، ص ٦٠، ص ٦٣، ص ٦٤، ص ٧١، ص ٧٦، ص ٧٧، ص ٨١ ، ص ٨٣، ص ٨٦ . وغيرها
٣ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٩٨
٤ – المصدر نفسه .

وقال ابن قلاقس في قصيدة أخرى مدح بها الحافظ السلفي ، وتعرض فيها بالمدح للصالح بن رزيك معتمداً على التشبيه فقال :

كَاللَّيْثِ لَكِنْ تَرَى يَومَ الكِفَاحِ لَهُ ... في هَامِ الأَعْدَاءِ ظُراً صَارِماً ذَكَراَ
كَالْغَيثِ لَكِنْ حَيَاً هَذا لَهُ أَبَدَاً ... فَمَنْ هُنَا هُوَ حَقّاً فَارَقَ المَطَرَا
كَالبَحرِ لَكِنَّهُ تَصفُو مَوَاهِبَه ... وَالبَحْرُ لا بُدَّ أَنْ يَبدُو لَنَا كَدِرَا
كَالشَّمسِ بَلْ لَوْ بَدَا لِلشَّمسِ أَخْجَلَهَا ... كَالبَدرِ بَلْ هُوَ حَقّاً يُخْجِلُ القَمَرَا [1]

فهنا اعتمد الشاعر على التشبيه لتشكيل صورته التى أجاد توظيفها وتطويعها لخدمة أفكاره ومعانيه فنجده يكثر من استخدام التشبيه مدركاً قيمته البلاغية والدلالية وذلك في قوله مادحاً طلائع بن رزيك أنه (كالليث – كالغيث – كالبحر – كالشمس – كالبدر) ، ونلاحظ أن المشبه واحد والمشبه به متعدد.

فحذف المشبه هنا خمس مرات ليبرز صورته البديعة ويوضح معناه وهو شجاعة ممدوحه وكرمه وبهاؤه. [2]

ومما يمثل ذلك أيضاً عمارة اليمني الذي اعتمد على التشبيه لتشكيل معظم صوره التى أجاد توظيفها وتطويعها لخدمة أفكاره ومعانيه، نحو الصورة التى رثى بها جدّة الخليفة العاضد بعد مرور سنة على موتها فقال :

نَرْجُو مُسَالَمَةَ الزَّمَانِ وَلَمْ يَزَلْ ... كَدرُ الليالي مولعاً بصفاتها
مَزَجَتْ لَنَا كَأْسَ الحَيَاةِ بِغَدرِهَا ... وتعلَّقت آمالنا بوفاتها !!
مِثْلَ الأَفَاعِي سُمُّهَا تِريَاقُهَا ... لاَ يَستَبِينُ دَوَاؤُهَا مِنْ دائِهَا [3]

لقد أجاد عمارة توظيف الصورة التشبيهية لخدمة المعنى الذى يعبر عنه وهو في معرض رثائه لجدة الخليفة العاضد، فشبه الليالي وما تحمله من خير وشرٍ معاً، وما يعانيه الإنسان من شرها أحياناً وما يجده وما يهنأ به من خير حيناً آخر ، فشبه صورة هذه الليالي بالأفاعي، تلك الحيَّات التى تحمل السم القاتل والترياق المعالج، فكما أن الليالي تحمل الغدر والوفاء فالأفاعي تحمل الموت والحياة معاً ، ومن العجب أن سم الأفعى هو ترياق النجاة وهو الدواء

---

١ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٧٩
٢ – راجع مواضع استخدام ابن قلاقس للتشبيه ، ديوانه – ص٢٩٧ ، ص ٢٩٨ ، ص٣١١ ، ص٣١٢ ، ص٣١٣ ، وغيرها
٣ – بيوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٨١

الذى يعالج به الداء ، وتلك الصورة الرائعة بديعة أجاد عمارة رسمها لما يحمله لنا الزمان من أحداث بخيره وشرّه.

وقال في إحدي قصائده التي مدح بها طلائع بن رزيك في صورة اعتمد فيها على التشبيه قائلاً:

سَمَا إِلَيْهِم سُمُوُّ الْبَدْرِ تَصْحَبُهُ كَوَاكِبٌ مِنْ سَحَابِ النَّقْعِ فِي حُجُبِ [1]

هنا تشبيه بليغ فيه مبالغة حيث شبه عمارة الملك الصالح بن رزيك في هجومه وإغارته على الأعداء بالبدر وشبه جنوده بالكواكب التى تصاحب البدر في ترحاله في السماء وهم يسيرون مقدمين في حجب من العدو مثلما يسير البدر مع كواكبه مستتراً بالسحاب، وما السحاب هذا الذي يسير فيه طلائع إلا النقع وهو التراب المتطاير من مسير الخيل المسرعة وهي صورة جميلة تذكرنا بصورة بشار بن برد الرائعة التي يقول فيها :

كأنَّ مثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وأَسْيافَنا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُه [2]

كما يأتي على هذه الشاكلة المهذب بن الزبير في وصفه للشمعة متخذاً من التشبيه وسيلة بيانية لها قيمة بلاغية فقال :

إِذَا جَمَّشَتْهَا الرِّيحُ كَانَتْ كَمِعْصَمٍ يُرِدُّ سَلَامَاً بِالْبنَانِ الْمُخَضَّبِ [3]

يشبه هنا الشاعر الشمعة التى تلاعبها الريح فتحرك نارها بالمعصم الذى يردّ السلام، وذلك المعصم يده مخضبة بالحناء بلون جميل ، وهذا التشبيه تشبيه صورة بصورة وهو من التشبيهات البديعة التى التفت إليها الشاعر المهذب وهو في معرض وصفه للشمعة .

وله في موضع آخر تشبيه جميل بديع قاله ارتجالاً وهو في أحد مجالس طلائع بن رزيك- تلك التى كانت تميز فترة وزارته في مصر - فيقول في هذين البيتين :

---

١ - المصدر نفسه - ص ١٣٣

٢ - راجع مواضع استخدام عمارة اليمني للتشبيه لتشكيل صوره ، في ديوانه المجلد الأول - ص٧٣ ، ص٧٤ ، ص٧٥ ، ص٧٦ ، ص١٢٦ ، ص ١٢٧ وغيرها في مواضع متعددة ، وفي المجلد الثاني ص ٥١٧ ، ص ٥١٨ ، ص ٨٦٦ ، ص ٨٦٧ ، ص ٩١٥ ، ص ٩١٦ ، وغيرها

٣ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٧٨.

كأني وقد فاضَت سيُولُ مدَامعي فَشَبَّتْ حَرِيقاً في الحشاَ والتَّرائب
ذُبالة قِنديلٍ تَعُومُ بمائِها وتَشْعِل فِيها النّارَ مِنْ كلِّ جانبِ [١]

يشبه المهذب نفسه وحاله وقد فاضت منه سيول مدامعه ، فأثرت في داخله وأشعلت ناراً شديدة في قلبه وفي عظامه ، فيشبه تلك الصورة بصورة أخرى، وهو تشبيه تمثيلي مكتمل الأركان، فيشبه تلك الصورة بصورة سراج قنديل تعوم بمائها وهي تشعل فيها النار من كل جانب، وهي أي هذه الصورة من الصور الجميلة البديعة التى اكتملت فيها أركان التشبيه .

وفي إحدى قصائد المهذب بن الزبير التى مدح بها طلائع بن رزيك يقول معتمداً على التشبيه:

والشِّعر إنْ جَاءَ فِيه مَطْلَعٌ حَسَنٌ، أُضِيفَ إليهِ حُسنُ المَقْطَعِ
كالوَرْدِ: أولُه بِزهرٍ مُونقٍ يَأتي، وآخِرُهُ بِماءٍ مُمَتّعِ [٢]

يعلم هنا الشاعر قدر الشعر ومكانته فيشبه في هذين البيتين الشعر الجميل الذى يتميز بحسن المطلع ، كما يتميز بحسن المقاطع ، والتخلص وشبه ذلك كله بالورد الجميل الذى أوله زهرٌ مونق ممتعٌ وآخره ووسطه ماءٌ دائمٌ بالغ الجودة ، وهو تشبيه تمثيلي مكتمل الأركان حيث المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ، فهنا شبه صورة بصورة . [٣]

كما يحتفى أسامة بن منقذ بالتشبيه فيكثر من استخدامه والاعتماد عليه في تشكيل صوره مجيداً الجمع بين طرفي التشبيه حريصاً على الملائمة والموائمة، ومن أمثلة ذلك قوله في إحدى قصائده التى أرسلها إلى طلائع بن رزيك شاكياً له ومشتاقاً إليه فقال :

فَكاتِمُ الحُبِّ إنْ لَمْ يَقْضِ مِنْ كَمَدٍ فَإنّهُ لإصَابَاتِ الرّدىٰ هَدَفُ
كَساتِرِ النّارِ فِي أثوابِه غَرَراً بِهَا تُحرِّقُه يَوماً وتَنْكَشِفُ [٤]

---

١ - شعر المهذب بن الزبير– ص ١٧٩
٢ - المصدر نفسه – ص ٢٠٢
٣ - راجع مواضع استخدام المهذب بن الزبير للتشبيه لتشكيل صوره ، شعر المهذب بن الزبير – ص ١٧٧ ، ص١٧٨ ، ص١٨٦ ، ص١٩٠ ، ص ٢٠١ ، ص ٢١٠ ، ص٢١١ ، ص ٢١٢ إلى ص ٢١٥ ، ص٢٢٨ ، ص٢٢٩ ، ص ٢٣٠ إلى ص ٢٣٧ ، ص ٢٤٠ ، ص ٢٤١
٤ - ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٣٦

هذان البيتان يعتمدان على وسيلة بيانية مهمة لتوضيح المعنى وتقريبه واعتمد فيهما أسامة على التشبيه التمثيلي الذى يصور صورة بصورة، الصورة الأولى تتمثل في الشخص المحب العاشق الذي يكتم حبه فهو إن لم يقض عليه الحزن والكمد لما يكتمه من هوىً فإنه هدف سهل للموت يأتيه في أي وقت، هذه الصورة أراد أسامة تقريبها وتوضيحها فشبهها بالذي يخفي النار في أثوابه غير مهتم بما قد تفعله فيه مغتراً بأنها لن تؤذيه إلا أنها رويداً رويداً تحرقه ثم ما تلبث وتبدي وجهها، وهي من الصور الجميلة التى أجاد أسامة رسمها والتعبير عنه معتمداً على التشبيه.

ومما يمثل ذلك أيضاً قوله في قصيدة أخرى له مدح فيها الصالح بن رزيك في صورة بديعة اعتمد فيها على التشبيه فقال :

مِثْلَ مُنْهلٌ أنعم الملك الصا لح: يَروَى دَانٍ بِه وسَحيقُ
سُحُبٌ، وَبِلُهاَ النُضَارُ وللأعْداءِ فيها صَوَاعِقٌ وَحَرِيقُ (١)

هنا تشبيه جميلٌ يشبه فيه أسامة كرم طلائع ونعمه وعطاياه الكثيرة التى تشبه الماء الذي يرتوي به القريب والبعيد شبه هذه العطايا بالسحب التى تحمل في طياتها خيراً وفيراً لمن يريد طلائع له الخير، وتحمل في طياتها كذلك موتاً وصواعق محرقة لأعدائه الذين يحاربونه أو هو يجاهدُ فيهم، وهي صورة تعتمد على التشبيه كوسيلة بيانية موضحة ، معبرة ، مقربة للمعنى . (٢)

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢٣٨

٢ – راجع مواضع استخدام أسامة للتشبيه لتشكيل صوره، ديوانه: ص٢٣٣، ص٢٤٤، ص٢٤٥، ص٢٦٥، ص٢٦٦، ص٢٦٧، ص٢٨١، ص٣٢٦ وغيرها .

ب- الاستعارة:

تعد الاستعارة وسيلة أصيلة في الشعر العربي ، فهي الركن الرئيسي في تكوين الشعر وخلق الصور، بل أصبحت أهم خيوط نسجه ومحور صوره ، ولقد اتفق النقاد [١] على مكانة الاستعارة الفطرية من الشعر ، فتبرز بين أهم وسائل التعبير الشعري وذلك بقدرتها على تصوير الأحاسيس وتجسيد المشاعر.

وتنشأ الاستعارة عن علاقة المشابهة التي هي منشأ التشبيه أيضاً ، وتتفوق عليه لما لها من قدرة على إظهار الصورة في ثوب شيق وممتع، فالاستعارة لها قدرة على بث الحركة والحياة في الصورة حتى تخرج علينا ثرية خصبة .

ولهذا يقول د. صلاح فضل : (القصيدة في كثير من الأحيان لا تعدو أن تكون استعارة مطولة أو مجموعة منتظمة من الاستعارات التي تخضع لقوانين تركيبية صارمة) . [٢]

فالاستعارة تعتمد على نقل حالة شعورية معينة يحياها الشاعر مما يتطلب معه خلق تصورات غير مألوفة في سياق القصيدة ، لذلك الاستعارة هي تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه أيضاً ، حتى يعطي للخيال مساحة أرحب للربط بين الأطراف ومن هنا كانت قيمتها الجمالية وبلاغتها.

---

١ – انظر في الاستعارة:
أبي هلال العسكري – الصناعتين – الكتابة والشعر – ص ٢٧٤
عبد القاهر الجرجاني – أسرار البلاغة – ص ٣٢ ، ص ٧٠
ومن النقاد المعاصرين :
د. أحمد عبد السيد الصاوى – فن الاستعارة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – فرع الإسكندرية ص ١٧ ، ص ١٨
د. فايز الدايه – جماليات الأسلوب – الصورة الفنية في الأدب العربي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت، لبنان، دار الفكر ، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م – ص ١١٣ ، ص ١٣٧
د. صبحي البستاني – الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – ص ٦٨ ، ص ١٠٢
د. محمد زغلول سلام – تاريخ النقد العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري – طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦٤م – ص ١٨٦
٢ – د. صلاح فضل – نظرية البنائية في النقد الأدبي – مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م – ص ٣٥٤

ولقد اعتمد شعراء بلاط بني رزيك على الاستعارة كوسيلة من وسائل تشكيل الصورة الشعرية، وركزوا على استخدامها بما يتوافق وطبيعتهم، وذلك أثر بارز في شعر هؤلاء الشعراء.

ومما يمثل ذلك طلائع بن رزيك حيث تكثر الصور المعتمدة على الاستعارة في شعره نحو قوله:

أَهْدَى لِيَ الْقَاضِي الْفَقِيهُ عَرَائِساً … فِيهَا بَدِيعُ الْوَشْيِ مِنْ تَنْمِيقِه [1]

يصف طلائع القصيدة التي جاءته من الفقيه الشاعر نصر بن عبد الرحمن – وكان من أهل الإسكندرية – معتمداً على الاستعارة للتعبير عن صورته، فهو حقاً شاعرٌ بارعٌ رسم صورة تجسيدية رائعة لهذه القصيدة، فاستطاع أن يجعلنا نرى أو نتخيل هذه القصيدة كأنها عروس مزينة منمقة أبدع أهلها في تزيينها وتحسينها لزفافها إلى زوجها، فحذف المشبه وصرح بالمشبه به في استعارة تصريحية جميلة تبرز جمال أبيات القصيدة وما ورد فيها من ألفاظ بديعة.

وفي موضع آخر اعتمد طلائع بن رزيك على الاستعارة في تشكيل صورته، في إحدى قصائده التي بعث بها إلى أسامة بن منقذ مادحاً إياه فقال:

تُجِيلُ فِكْرَكَ فِي رَوْضِ الْعُقُولِ، فَلاَ … تُزَالُ تَخْتَارُ مَا يَجْنِي، وَتَقْتَطِفُ
بَعَثْتَ مِنْهَا هَدِياً فِي الْوَرَى جُلِيَتْ … فَالحُسْنُ وَقْفٌ عليها ليسَ ينْصرِفُ [2]

تعتمد الصورة على عنصر التشخيص اعتماداً كبيراً، ووسيلة طلائع في تشكيل صورته هي الاستعارة المكنية المتعددة حيث يمنح الجامد صفات الحي ويحيل المعنوي إلى المحسوس فيجعلنا نتخيل فكر أسامة وما يقدم عليه من كتابة للشعر بأنه شخص يتجول ما بين العقول فيختار منها ما يشاء، ويقوم بجنيه وقطف ثماره ثم يغلفها في ثوب قشيب مطرز ويرسل بها هدية لمن يحب؛ لذلك فكل قصائده وما ينتج عن فكره الحسن وقف عليه، ولا يذهب لغيره في توظيف بديع رائع للخيال وتجسيد معنوي يوضح لنا مدى براعة طلائع ومهارته في أشعاره. [3]

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٥٣
٢ – المصدر نفسه – ص ٧٦
٣ – راجع مواضع استخدام طلائع للاستعارة – ديوانه ص ٥٨ إلى ص ٦٣، ص٦٤ ص٦٥، ص١٠٢، ص١٠٣، ص١٠٨، ص٧٦، ص ٨١، ص٨٦، وغيرها.

وتلك قدرة على التصوير حيث تصبح الصورة مسرحاً كبيراً ، يلعب فيه الخيال دوراً مستحضراً صوره المعتمدة هنا على الاستعارة التى تسهم في تجسيد الصورة وتجسيدها فتغدو واضحة بارزة.(١)

كما يعتمد ابن قلاقس اعتماداً واضحاً على الاستعارة في تشكيل صوره ، التى تمنحه ما يريد من إيحاءات ودلالات في إحدى قصائده التى مدح فيها الحافظ السلفي ، وذكر فيها الملك الصالح بن رزيك في مقدمة القصيدة.

أَلَمَّ بِهِ وَالصُبحُ قَدْ لاحَ جَيْشُهُ وَهَمَّتْ جُيُوشُ اللَّيلِ أنْ تَتصرَّمَا (٢)

لقد حرص الشاعر في صورته على تشخيص موضوعاته ، وخلع عليها الصفات الإنسانية، معتمداً على الاستعارة المكنية، فهنا اعتمد على الخيال في تصوير معركة تحدث بصفة مستمرة، تلك المعركة تتمثل في قدوم الصباح وذهاب الليل ، لكن قدرة ابن قلاقس الشعرية تتجلي في تصويره لتلك الصورة التقليدية العادية ، في صورة خيالية بديعة ، مشبهاً الصبح أنه إنسان أتى بجيشه في هجوم على الليل الذى هم بجيشه بالفرار منه . (٣)

وينتهج النهج ذاته عمارة اليمني في تشكيل صوره معتمداً على الاستعارة ، نحو قوله في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك :

وَلَوْ لَمْ يَنْهَنِي شَيْبٌ نَهَانِي صَبَاحُ الشَّيْبِ فِي لَيلِ الشَّبَابِ (٤)

حيث شبه الشيب وهو من علامات تقدم العمر بإنسان ، يقوم بنهى الشاعر عن أفعال لا تتناسب مع سنه في صورة جميلة ، حيث صور لنا الشيب بالصباح والشباب بالليل وهي من الصور المعتادة والمتكررة في الشعر العربي ، وذلك لأن المعتاد في الشباب أن يكون صاحب شعر أسود فهذا هو الليل، والشيب ينبئ عنه بياض الشعر وهذا هو المشيب وهذا هو الصباح، فالصباح أبيض والليل مظلم ، وهي من الصور التقليدية في الشعر العربي عبر عنها عمارة بالاستعارة كوسيلة بيانية فعالة في أداء المعنى .

وفي قصيدة أخرى قال عمارة مادحاً طلائع بن رزيك بالشجاعة والقوة ، في صورة جميلة لجأ فيها للاستعارة فقال :

---

١ - د. أحمد عبد السيد الصاوى - فن الاستعارة - ص ٩٤

٢ - ديوان ابن قلاقس - ص ٢٩٧

٣ - راجع مواضع استخدام ابن قلاقس للاستعارة في ديوانه - ص ٢٩ ، ص٣١٢ ، ص٣١٣ ، ص٤٦٠، ص٤٦١ ....، وغيرها.

٤ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الأول - ص ١١٥

قَوْمٌ إِذَا الْحَرْبُ قَامَتْ سُوقُـــــهَا جَلَبُوا مِنَ النُّفُوسِ إِلَيْهَا أَنْفُـــــسَ الْجَلَبِ [1]

حيث يشبه عمارة طلائع وجنوده في الحرب بأنهم أصحاب بأسٍ وقــوة وإقدام في الحرب ولا يهابهم الموت بل يسعون إليها ويقدمون لها كــلّ غــالٍ ونفسٍ ، حيث يصور الشاعر الحرب إذا قامت ، وكأنها سوق تعرض فيها كل بضاعة غالية نفيسة ، وما البضاعة المعروضة في تلك السوق سوى النفــوس التي هي أثمن شئ لدى الإنسان وهي استعارة بديعة مبتكرة ، اعتمــد فيهــا عمارة على التشخيص المعنوي وتجسيده لتوضيح صورته وتقريبها . [2]

كما يجيد المهذب بن الزبير توظيف الاستعارة لخدمة أفكاره ومعانيه ، فينتقي ما ينسجم والسياق، وما يتلاءم والمعنى الذى يعبر عنه فمــن إحــدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك قال :

تَلْقَى الدَّهرَ مِنهُ بِلَيْـــــــثِ غَابٍ غَدَتْ سُمرُ الرِّمَـــــــــاحِ لَهُ عَرِيناً [3]

حيث يمدح المهذب طلائع فيشبهه بالليث المفترس المقدام ، الذى لا يقف أمامه أحد ، وهي استعارة تصريحية حيث حذف المشبه وصرّح بالمشبه به ، ثم قوى هذه الاستعارة باستعارة أخرى مشبهاً الرّماح التي يــستخدمها الملــك الصالح طلائع بالعرين والعرين هو بيت الأسد، وهي استعارة أكدها الــشاعر بتلك الاستعارة الثانية ، وتلك القصيدة تعتمد في بنائها البياني على الاســتعارة التي فيها وصفٌ تفصيلي لمعارك طلائع وانتصاراته علــى أعدائــه ، بمــا نستطيع أن نسميها الصورة الكلية ، وسيأتي الحديث عنها في موضعها إن شاء الله .

ويبدو المهذب بن الزبيرَ معتمداً على الاستعارة اعتماداً كبيراً وواضحاً في تشكيل صوره، فحرص على الاستعارة التى تفيد المعنى وتؤكده ، ويبــدو لنا هذا في أكثر من موضع في أشعاره، ومن ذلك قوله في إحدى قصائده التى مدح فيها طلائع بن رزيك :

وَإِذَا بَدَا لِي الهُجْــــــرُ لَمْ أَرْشَخْـــصَهُ وَإِذَا يُقَـــــــالُ لِيَ الْخَنَا لَمْ أَسْمَعِ [1]

---

١ – المصدر نفسه – ص ١٣٣ .

٢ – انظر مواضع استخدام عمارة اليمني للاستعارة في ديوانه المجلد الأول – ص ١٩٢ ، ص١٩٣ ، ص٢٠٠، ص ٢٠١، ص ٢٩٥، ص ٢٩٦ ، ص ٣٦٧ ، ص ٣٦٨ وفــي المجلد الثاني – ص ٥١٨ ، ص ٥٢٢ ، ص ٥٣٦ ، ص ٧٩٠ ، ص ٧٩ وغيرها .

٣ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢٨.

ويعتمد هنا الشاعر في رسم صورته على الاستعارة التي تجعلنا نشعر بأننا أمام كائن حي له من الصفات الإنسانية ، وهذا حينما شبه الكلام القبيح من القول بشخص يبدو أمامه ، والشاعر يتغافل عن رؤيته لأن الشاعر ينأى بفضله عن مثل هذا القول القبيح ، كما أن في الشطرة الثانية كناية عن ترفعه عن الدنايا وعن القول الفاحش . (٢)

ويطرق أسامة بن منقذ الاستعارة في أكثر من موضع من أشعاره، ومما يمثل ذلك قوله في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك شاكياً له من الدهر معتمداً في صورته على الاستعارة كوسيلة بيانية توضح صورته فقال :

وَلَستَ أُنكِرُ مَا يَأتِي الزَّمَانُ بِهِ ... كُلُّ الوَرَى لِرزَايَا دَهرِهِم هَدَفُ
كم فَاجَأتني اللَّيالي بالخُطُوبِ ، فَمَا ... رَأتْ فُؤَادِي مِنْ روعَاتِهَا يَجِفُ (٣)

هذان البيتان يعتمدان على الاستعارة المكنية، في رسم الصورة حيث شبه الشاعر الزمان أو الدّهر بإنسان يأتي بخطوب ومصائب متوالية ، وكأن الناس أهداف لهذه المصائب ، ويخبرنا أسامة بأنه واحد ممن كانت تفاجئهم الليالي بمثل هذه المصائب ، لكنه ثابتٌ قويٌّ لا يخاف فلا يبدى فزعاً أو رعباً مما تأتي به الليالي ، واعتمد أسامة في التعبير عن هذا المعنى بتجسيد المعنوي وتشخيصه معتمداً على الاستعارة كوسيلة تشكيل مهمة وفعالة في التعبير عن هذا المعنى .

كما يجعل أسامة السحاب دليلاً على كرم طلائع بن رزيك في إحدى قصائده التى مدحه بها، واصفاً كرمه معتمداً على الاستعارة التصريحية ، كوسيلة بيانية تثري المعنى وتضيف إليه فقال :

وسَحَابٌ مِنْه تعلَّمتِ السَّحبُ، وإنْ لَمْ تُشْبِههُ كَيفَ تصوبُ (٤)

حيث شبه الشاعر يد طلائع في كرمها وسخائها بالسحاب المعروف بالكرم والخير، لما يهبه للأرض من ماء وفير، وخير غزير، وهي صورة جميلة حذف فيها المشبه وهو (يد ممدوحه) وصرح بالمشبه به وهو (السحاب) لإبراز المعنى وتوضيحه .

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢٠١
٢ – انظر مواضع استخدام المهذب بن الزبير للاستعارة في كتاب شعر المهذب بن الزبير ص ٢١٠ ، ص٢١٥ ، ص٢١٧ ، ص٢١٨ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٢٣ ، ص٢٢٨ ص٢٢٩ ، ص ٢٣٠ ، ص ٢٣٧ ، ص ٢٤٠ ، ص ٢٤١ ... وغيرها.
٣ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٣٥
٤ – المصدر نفسه – ص ٢١٢

كما توسل أسامة بن منقذ في موضع آخر من قصائده الشعرية البديعة بالاستعارة فقال في قصيدة غرضها الرثاء :

أنّ الندَى قَدْ مَاتَ . فَاستَعصِمُوا بِاليأسِ . مِنْ دَانٍ ، وَمِنْ شَاسِعِ [1]

حيث شبه أسامة المرثى بالكرم فحذف المشبه وصرح بالمشبه به آتياً بشئ من لوازم ذلك وهو الكرم، وفي تلك إشارة واضحة إلى الكرم والجود الذي كان يتمتع بهما ذلك المرثى فليس للناس بعد ذلك من معط ، لذا فعليهم أن يتشبهوا اليأس لأنهم لن يجدوا أحداً في مثل عطاء هذا الميت، ويبدو واضحاً تجسيم المعنوي وجعله في صورة الحسي الملموس مما يساعد ويسهم في توضيح المعنى وإبرازه . [2]

كما يكثر المهذب بن أسعد الموصلى من الاعتماد على الاستعارة في تشكيل صوره ، نحو قوله في إحدى قصائده المدحية التى مدح بها طلائع بن رزيك :

أمسَوْا مُلوكاً ذَوى أسْرٍ فَصَبَّحَهُمْ أُسدٌ أتَوكَ بهِمْ أسرَىَ مَمَالِيكاَ [3]

هنا أتى الشاعر باستعارة جميلة بديعة أتت في سياق مدح الشاعر لطلائع وجنوده بالشجاعة والبأس والإقدام ، فشبه الشاعر في هذا البيت جنود طلائع وجيوشه بالأسود المفترسة الضارية التى أغارت على أعدائه ، وعادت بهم إلى طلائع أسرى مكبلين في الأغلال ، حيث حذف المشبه وصرح بالمشبه به معتمداً الشاعر على تلك الاستعارة التصريحية في تجسيد المعنى .

وله في موضع آخر من القصيدة نفسها صورة بديعة اعتمد فيها المهذب بن أسعد على الاستعارة المكنية لتعبر عن معناه فقال مادحاً طلائع بن رزيك :

يَاكَعْبةَ الْجُودِ إنَّ الْفَقرَ أقْعَدَنىِ وَرِقَّةُ الحَالِ عَنْ مَفْرُوضِ حَجِّيكاَ [4]

هنا عبر الشاعر عن المعنى بالاستعارة المكنية التى حرص على توضيحها في هذا البيت وفيما يليه من الأبيات مؤكداً على كرم طلائع الشديد

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٣٣٤
٢ – راجع مواضع استخدام أسامة بن منقذ للاستعارة ، ديوان أسامة بن منقذ ص ٥٥، ص ٧٦، ص ٧٧، ص ٧٨ ، ص ٨٨، ص ١٣٦، ص ١٤٣ ، ص٢١٢ ، ص ٢٨١ وغيرها
٣ – انظر خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء الشام – الجزء الثاني – تحقيق د. شكري فيصل ص ٢٨٤
٤ – المصدر نفسه

وجوده غير المنقطع ، وعطائه المتواصل المستمر، حيث يشبه الشاعر بأنه كعبة مقصودة للجود ويقصدها كل من جاء وأن طلائع قد صار مأوى لكل محتاج مسكين، فيحج إليه الناس مثل حج المسلمين إلى الكعبة ، وهي من الصور الجميلة البديعة ، وفيها يعترف الشاعر بعدم استطاعته قضاء فريضة الحج إلى كعبة طلائع حيث إن الفقر الشديد ورقة حاله قد أقعدته ، وفي هذا إشارة واضحة إلى استجداء طلائع وحثه على بذل عطائه المعهود مع ذلك الشاعر المادح . (١)

جـ - الكناية :

حفلت قصائد شعراء بلاط بني رزيك بوسيلة أخرى مهمة لتشكيل صورهم الشعرية وهي الكناية، والتي نالت اهتمام نقاد الأدب العربي قديماً وحديثاً. (٢) لما لها من دور بلاغي عظيم في إثراء الصنعة الشعرية، فهي ذات طابع إشاري للغة التي تعتمد على الإيحاءات والإيماءات التى يريدها الشاعر لتدل على لطيف المعاني وتحقق الإمتاع والإثارة للقارئ .

فاتكأ شعراء بلاط بنى رزيك على بلاغة الكناية في رسم طائفة كبيرة من صورهم ولوحاتهم الشعرية، وكان ذلك ما أسبغ على تلك القصائد حللا قشيبة من الجمال وروعة التصوير ودقة التعبير، أضف إلى ذلك غزارة الثقافة التى كان يتمتع بها هؤلاء الشعراء التى مكنتهم من توظيف اللغة بأسلوب بديع لتدل على ما في خيالهم من معانٍ وأفكار ، ولتريح نفس ممدوحيهم وتهز وجدانهم ، فتنهال أيدي ممدوحيهم بالعطايا والهدايا بالرزق الوفير .

ومما يمثل ذلك المهذب بن الزبير الذى توسل بالكناية في تصوير ممدوحه وهو طلائع بن رزيك بصفة الشجاعة ، ذلك البطل الذي ينهي بفكره وقوته وشجاعته المعارك بالنصر ، فيقول في قصيدة طويلة بدءاً من البيت الحادي والعشرين وما بعده بخمسة أبيات :

---

١ – راجع استخدام الاستعارة في شعر المهذب بن أسعد، في خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء الشام – ص ٢٨٢، ص٢٨٣، ص٢٨٤، ص ٢٨٦، ص ٢٨٧، ص ٢٩٣ ، ص ٢٩٤ ، وغيرها .

٢ – راجع الكناية في :

– قدامه بن جعفر – نقد الشعر – ص ١٥٥ ، ص ١٥٦

– ابن حجة الحموى – خزانة الأدب – المطبعة العامرة القاهرة – ١٢٩١ هـ – ص ٤٤٠

– عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – ص ٣٠٦

بِالكاسرِ الأصنامِ قُمْ فانْهَضْ بِنا   حتّى تَصيرَ مُكسِّرَ الصُّلبانِ
فالشّامُ ، مُلْكُكَ قَدْ ورثتَ تُراثَهُ   عَنْ قَوْمِكَ الماضينَ مِنْ غَسّانِ
فإذاً شككتَ أنّها أوطانُهمْ   قدماً ، فَسلْ مِنْ حارِثِ الجَوْلانِ
أوْرُمتَ أنْ تتلوا محاسنَ ذكرهِمْ   فأسند رُوايتها إلى حسّانِ
مازُلزلتْ أرضُ العِدا، بلْ ذاكَ ما   بِقلوبِ أهْلِيها منَ الخَفَقانِ [1]

فهنا وصف الشاعر قوة ممدوحه وشجاعته وهو طلائع ومدحه بالقوة والبأس، كما أن هذه الأبيات كناية عن مجده وأصله العربي المنسوب إلى غسان، وهي كنايات متعددة مؤكدة بالدليل المادي، ويقول المهذب في موضع آخر من قصيدة ذمَّ فيها الزمان ، فكنى عن علو مكانته ومنزلته بقوله:

تَأبَى المكارمُ والمَجدُ المؤثَّلُ لي   مِنْ أنْ أُقيمَ ، وآمالِيَ عَلى سَفَرِ
إنِّيْ لأشْهَرُ مِنْ أهْلِ الفَصاحَةِ مِنَ   شَمْسٍ ، وأسْيَرُ فِي الآفاقِ من قمرِ [2]

هنا توسل الشاعر بالكناية المقرونة بالدليل على تميزه بخصال حميدة منها الفضل والمجد القديم والمستديم ، ومنها شاعريته الكبيرة وفصاحته التى لا يختلف حولها الناس؛ ففصاحته أشهر من الشمس وأسير في الآفاق من القمر ، وهي كناية جميلة تعبر عن المعنى وتوضحه، مؤكدة بالدليل المعنوي والماديّ . [3]

كما توسل عمارة اليمني بالصورة الكنائية في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك فقال:

وَعَلَّمَني اقْتِضابَ المدْحِ فيهِ   مَكارِمُ دائماتُ الاقْتِضابِ
تَزيد مثوبةً وأزيدُ شكراً   وذلك دابُها أبَداً ودابي [4]

هنا كناية عن الجود والكرم الشديد والعطاء الذي ليس له حدود ، فأعطى الشاعر المعنى وأتى بأكثر من دليل ، ودليله على كثرة كرم ممدوحه ، وهو طلائع ، أنه تعلم ارتجال الشعر وارتجال المديح في طلائع لكثرة عطاياه

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٢ ، ص٢٣٣
٢ – المصدر نفسه – ص ١٩٧
٣ – راجع مواضع استخدام المهذب بن الزبير للكناية – ص ٢٠٣، ص ٢٠٤، ص ٢٠٥ ، ص ٢٠٦ ، ص ٢١٢ ، ص ٢١٣ ، ص ٢١٤، ص ٢١٥ ، ص ٢١٧ ، وغيرها
٤ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الأول – ص ١١٨

والارتجال هو قول الشعر دون إعداد ، كما أن طلائع يرتجل إعطاء المكارم دون سؤالٍ أو طلبٍ من الذين يعطيهم طلائع ويجود عليهم . (١)

ومما يمثل ذلك أيضاً – ابن قلاقس في إحدى قصائده التى مدح بها الفقيه الحافظ السلفي وتعرض بالمدح لطلائع بن رزيك فقال :

يَدُ الصالحِ المَنصُورِ أعظَمُ نَائلاً ... وأجزَلُ إعطَاءً وأوفَرُ مَغنَماً
مليكٌ أضاءَ الليلَ منْ نُورِ وَجْهِهِ ... وأفعالهِ الحُسنَى وقد كانَ مُظْلِماً
سجيَّتُهُ بذل النَّوالِ فلن تَرَى ... بأرضٍ ثوى فيها مِنَ الناس مُعْدِماً (٢)

لقد رسم ابن قلاقس صورة مدحية رائعة معتمد فيها على الكناية ، كوسيلة بيانية تؤكد المعنى وتبرزه ، ففي ثلاثة أبيات كنى لنا الشاعر عن قمة العطاء والجود والكرم والبذل في مصر في عهد طلائع بن رزيك ، ودليل ذلك أنه الملك الصالح بن رزيك لم يبقَ أحد في مصر محتاجا أو فقيرا ، فهي صورة جميلة معبرة ومؤكدة أنه إلى أي مدى كان الملك الصالح بن رزيك رجلا كريماً ومعطاءاً بالفطرة . (٣)

وينتهج النهج ذاته أسامة بن منقذ في كثير من مواضع شعره ، منها قوله في وصف شجاعة طلائع بن رزيك في إحدى قصائده التى مدحه بها قائلا:

مَلِكٌ زاده التَّوَاضُعُ للّـ ... ـه جلالاً ، يروعُ ، ثم يروقُ
سَطَواتٌ تخشى ، وحلمٌ يُرجَّى ... ونوالٌ طلقٌ ، ووجهٌ طَليقُ (٤)

هذان البيتان أو القصيدة كلها كناية عن البأس والشجاعة التي انفرد بها طلائع دون غيره من الوزراء (هكذا يرى أسامة) لأنه وصفه بصفات فيها كثير من المبالغة لكنها تعطي معاني جميلة معتمداً فيها على الكناية التي دائماً ما تكون مصحوبة بالدليل، دليل على كرمه وشجاعته وقوته.

وقال أسامة بن منقذ في موضع آخر من شعره مستمداً صورته من موروثه الثقافي الديني مستخدماً الكناية كوسيلة بيانية للتعبير عنها قائلا :

خلقٌ تحلىّ به سليمانُ بينك من ... أخلاقك الغُرِّ يا ذا البأس والنِّعمِ (١)

---

١ – راجع مواضع استخدام عمارة اليمني للكناية – المجلد الأول – ص ٢٩٦ ، ص٢٩٧ ، ص٣٣٣ ، ص٣٣٤ ، ص٣٣٥ ، والمجلد الثاني ص٥٢١ ، ص٧٢٠ ، ص٧٧١ ، ص٧٢٤ ، ص٧٢٥ ، وغيرها .
٢ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٩٨
٣ – راجع مواضع استخدام ابن قلاقس للكناية في ديوانه – ص ٢٩٨ ، ص٣١٢ ، ص ٣١٣ ، ص٤٦٠ ، ص ٤٦١ ... وغيرها.
٤ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٣٨

وهي صورة مستمدة من التراث الثقافي تثبت معرفة أسامة بتاريخ الصحابة ومنهم سلمان الفارسي أحد الصحبة الأجلاء ، وهو من المعروف عنهم بالخلق الكريم ، وهي كناية عن أخلاق محمودة عالية تحلى بها طلائع بن رزيك وتميز بها .

كما أن بها استعارة جميلة أيضاً حيث جعل طلائع صاحباً أو مالكاً للجود والكرم وهو مالكٌ أيضا للشجاعة والبأس والإقدام . (٢)

وهذا المهذب بن أسعد كنى عن كرم طلائع بن رزيك في إحدى قصائده المدحية معتمداً على الكناية كوسيلة بيانية تبرز المعنى وتوضحه فقال :

هَادى الدُّعَاة أبى الْغَارات خيرُ فتىً … أدْنى عَطيَّاته أقْصَى أمَانيكَا
القَاتلَ الألفُ يلقَاهُم فيَغلبُهُمْ … والواهِب الألفَ تلْقاه فيُغْنيكَا (٣)

كلا البيتين كناية عن الكرم والجود والبأس والشجاعة والإقدام؛ إذ عبر الشاعر عن ذلك المعنى بألفاظ رائعة جميلة ، ومن أفضل ما قاله تلك الجملة الرائعة البديعة التى يقول فيها (أدْنىَ عَطيَّاته أقْصىَ أمَانيكَا) وهي من الكنايات البديعة الجميلة ، وإن كانت تقليدية في معناها لكن الشاعر أجاد في التعبير عنها ، وهي كناية رائعة عن الجود والكرم .

وفي البيت الثاني جمع بين الجود والبأس والشجاعة في تعبير وصياغة جميلة معبراً عن المعنى مصحوباً بالدليل ، وهذا هو سر جمال الكناية .

وله في موضع آخر من قصيدة أخرى مدح بها الصالح بن رزيك مستخدماً الكناية أيضا في مدحه فقال:

أخُو الْحَربِ رَبُّ الْمكْرُمَاتِ أبُو النَّدى … حَلِيفُ الْعُلىَ صَبٌّ إلىَ العُرفِ تائقُ (٤)

هنا كناية ممتزجة بالاستعارة في صورة متداخلة مركبة ، يجيد الشاعر تركيبها للتعبير عن المعنى وهو الجود والبأس والشجاعة التي تميز بها الممدوح طلائع . (٥)

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢٤٤
٢ – راجع مواضع استخدام أسامة بن منقذ للكناية في ديوانه – ص ١٢٧، ص١٢٨، ص ١٣٥، ص ٢١٢، ص ٢٧٤، ص٢٧٥، ص٢٧٦ .... وغيرها .
٣ – خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء الشام – الجزء الثاني – ص ٢٨٢
٤ – المصدر نفسه – ص ٢٩٣
٥ – راجع استخدام الكناية في شعر المهذب بن أسعد في خريدة القصر – قسم شعراء الشام – الجزء الثاني – ص ٢٨٢، ص ٢٨٣، ص ٢٨٤، ص ٢٨٧، ص ٢٨٩ ، ص ٢٩٢ ، ص ٢٩٣ ، ص ٢٩٤ .... وغيرها .

ثالثاً: أنواع الصورة :

نقف في شعر بلاط بني رزيك على نوعين من الصورة التى يمكن أن نسميها كما سمّاها النقاد من قبل بالصورة الجزئية والصورة الكلية والتي من خلالها آثروا استخدامها وأداروا فيها حواسهم وحققوا قدراً من التميز والتفرد لبناءاتهم التصويرية ، ومن خلال صورهم الشعرية نستطيع أن نرى إلى أى مدى حرص شعراء بنى رزيك على استنفار طاقاتها وتوظيفها، فأغلب صورهم تعتمد على عنصر التشخيص الذى أجادوا توظيفه فإذا بالكائنات الجامدة وقد استحالت إلى كائنات حية تنبض بالحياة ، وتشارك الناس صفاتهم وعاداتهم وطبعائهم ، وهي كالآتي :

أولاً: الصورة الجزئية :

تتمثل الصور الجزئية في عدد من التشبيهات والاستعارات التى يعتمد عليها الشاعر في تكوين صور جزئية ، وإما أن تأتي منفردة أو تأتي في سياق يؤلف بين عدد من الصور الجزئية مكونا صورة كلية معبرة عن حالة شعورية تنتظم القصيدة كلها .

وقد اتكأ شعراء بنى رزيك على الصور الجزئية ، فبنوا عليها صورهم ، ومن ذلك ، قول طلائع بن رزيك في ثنايا إحدى قصائده الغزلية ، فيقول:

وَجْهُكَ الرَّوضَةُ آتتْ نرجِساً وجَنِيُّ الوردِ فيها فُرشَا
خِفْتُ أن يُجْنَى ، فوكَلْتَ بها عقرباً طَوراً ، وطَوراً حَنَشاً (١)

فالصورة هنا جزئية تقوم على التشبيه حيث شبه الشاعر وجه المحبوبة بالروضة الغناء الثرية رابطاً الصورة بالطبيعة بما في الروضة من نرجس وورد وأزاهير التى باتت تنتظر الجنى والقطف إلا أن هناك عقرباً حال بينه وبينها ومنعه من قطف ثمار الحسن من وجه المحبوبة بعد أن اعتلاه موكلاً بالدفاع عنه والاستماته دون مس ثمرة من ثماره ، ويقصد بالعقرب هنا سالفة الشعر التى تزين الخد .

وله في موضع آخر صورة جزئية طرقها عندما امتدح رسالة وصلته من صديق له وهو الفقيه الشاعر نصر بن عبد الرحمن وهو من أهل الإسكندرية فيقول :

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٣٢

أهْدَى لِيَ القَاضِي الفَقيهُ عَرَائِســـــاً فِيــــــهاَ بَدِيعُ الوَشْيَ مِنْ تَنْمِيقِهِ (١)

فاجتهد طلائع في رسم صورة مثالية لرسالة ممدوحـــه معتمــداً علـــى الاستعارة التصريحية في تشبيه هذه القصيدة (الرسالة) التى وصلته من صديقه بالعروس الجميلة المزينة فهي صورة جزئية تعتمد علـــى عنــصر التجــسيد لتطرق الصورة حس المتلقى كما طرقت عقله .

وثمة صورة جزئية أخرى طرقها القاضي الجليس في الوصف فيقول :

وَفَدَ الرَّبِيعُ عَلَى العُيُونِ بِنَرجِـــسٍ يَحْكِي العُيونَ فَقَدْ حَبَاهَا نَفْســـــَهاَ (٢)

نجح هنا الشاعر في استنطاق تلك الصورة الجزئية المعبرة التى اعتمد فيها على الاستعارة المتمثلة في تشخيص الربيع كأنه إنسان قد وفد علينا حاملاً معه النرجس والزهور لينشر في المكان السعادة والــسرور والبهجـــة، فهـــي صورة جزئية لكنها تموج بالحركة والحياة والتعبير.

ونجد ابن قلاقس يعتمد في رسم صوره الجزئية على التشبيه في إحدى قصائده التي مدح بها الحافظ السلفي وطلائع بن رزيك معتمداً على عدد مـــن التشبيهات والاستعارات في صور جزئية متتابعة فيقول:

وكَـــأنَّ الـــسَّماءَ رَوْضٌ أنيـــقٌ حفّـــهُ مـــنْ نُجومُهـــا أزْهَـــارُ
وَعليهـــا مـــن المجـــرَّةِ نهـــرٌ قَـــدْ ســـقَاها مـــنْ دونِـــه الأنهـــارُ
وكـــأن الهـــلالَ إذ لاح فيهـــا زَوْرَقٌ يُعْجِـــبُ العيـــونَ نُـــضارُ
وَتَرى أنْجُـــمُ الثريا فقُلْـــــنا هَوَ كأسٌ لِلْغـــرْبَ فِيهِ عقـــارُ (٣)

هنا اعتمد الشاعر على خياله في رسم الصور الجزئية المتتابعة حيـــث شبه السماء كروضة فريدة بديعة الحسن والسحر ، كما شـــبه النجـــوم فيهـــا بالأزهار التى تحيطها من كل جانب، أما المجرات فشبهها بالأنهار في وسطها الرياض الأخضر، والهلال بدا كزورق يسبح على وجه النهر ، ويسير وفـــق تياره المناسب في منظر رائع خلاب، ولاحت نجوم الثريا من فيض لمعانهـــا كالكئوس أذلتها فورة العقار والخمر ، فلقد أجاد ابن قلاقس فـــي رســـم تلـــك الصور الجزئية المتتابعة معتمداً على بعض ألوانِ التـــشكيل البلاغـــي منهـــا الاستعارة والتشبيه .

١ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق د. أحمد بدوي - ص ٥٣
٢ - خريدة القصر - ص ١٩٥
٣ - ديوان ابن قلاقس - ص ٣١٢

ومن أمثلة الصور الجزئية أيضاً قول عمارة اليمني في إحدى قصائده التي مدح بها طلائع بن رزيك فيقول :

اللابسُ الفخر لم يَنْسج غلائلَهُ   الأيدُ الصّانعين السيفُ والقلم (١)

فالصورة هنا جزئية تعتمد على الاستعارة المكنية في قوله (اللابسُ الفخر) حيث شبه الفخر بثوب يلبس فحذف المشبه به وأتى بشئ من لوازمه وهو اللبس كما طرق أيضاً الاستعارة المكنية في قوله (يد الصانعين السيف والقلم) فهو يقصد من وراء صورته مدح طلائع بالشجاعة والقوة كما مدحه بالأدب والعلم .

ومما يمثل ذلك قول المهذب بن الزبير في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك فيقول:

وكأنَّ بَحْرَ الرُّومِ خُلِّقَ وجْههُ   وطَفَتْ علَيْهِ مَنابتُ المُرْجَانِ (٢)

اعتمد المهذب في هذه الصورة الجزئية على الكناية فهي كناية عن قوة أسطول طلائع وشجاعة جيشه وبسالته في خوض المعارك والحروب .

وهذه صورة جزئية أخرى لأسامة بن منقذ في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك فيقول :

يامُوجِد الفَضلِ والإفضالِ إذ عُدِمَا   حتَّى لَقَدْ أصْبَحا نارَيْن في عَلَمِ
مملوكُكَ الأصغرُ القِنُّ المُبالغ في الإ   خلاصِ ، والسَّيرُ مقدودٌ من الأدمِ
لوَ نالَ مَا يتَمَنّى مِنَ مشيئته   مشى إليكَ خُضوعاً مِشيَةَ القَلَمِ (٣)

فهي صورة جزئية تعتمد على التشبيه كوسيلة ليبرز بها الشاعر صورته ولتوضيح وتقريب المعنوي بالحسي وهو تقدير طلائع لمواهب أسامة ورضاه عليه .

وثمة صورة جزئية أخرى لأسامة بن منقذ طرقها في ثنايا إحدى قصائده المدحية التى مدح بها طلائع بن رزيك فيقول :

وَسَحابٌ مِنْهُ تعلَّمت السُّحْـ   ـبُ وإنْ لم تُشبِهْهُ كيف تَصَوبُ (٤)

---

١ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الثاني - ص ٨٦٦
٢ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢٣٥
٣ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٤٧
٤ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢١٢

فاستعان هنا الشاعر بالاستعارة لتوضيح صورته وهي تشبيه كرم طلائع وجوده بالسحاب الذى يهب الأرض الخير الوفير المتمثل في الماء أو المطر فيهب الأرض الحياة والسخاء فهنا حذف المستعار له وهو (يد طلائع) وصرح بالمستعار وهو (السحاب) لتأكيد صورته التى أراد التعبير عنها .

ثانيا: الصورة الكلية :

الصورة الكلية أو الممتدة تتمثل في أن المبدع (يعمل على رسم مشهد طويل يستقصى فيه صفات وخصائص تعكس ما يعتمل في نفسه من مشاعر وأحاسيس أو ما يحيط بها ، وفيه تبدو حرية المبدع في خلق مجموعة من المشاهد الجزئية المتتابعة التي تخلف أثراً متكامل الجوانب) (١)

فجمال الصورة الشعرية لا ينبع من صور جزئية متعددة الأجزاء بل ينبع من الشكل الفني المتكامل المتآلف ، وهذا ما برع فيه شعراء بنى رزيك في أغلب أشعارهم التى تعتمد علي موضوعٍ واحدٍ ، فنجد أن القصيدة أو المقطوعة الشعرية تتناول موضوعاً واحداً مثل المدح، أو الوصف ، أو الغزل ، أو الرثاء وغيرها من الأغراض الشعرية ، ولعل هذا يفسر لنا وجود عدد كبير من القصائد القصار عند هؤلاء الشعراء ووجود عدد آخر من المقطوعات الشعرية وهذه خاصية وسمة برزت في بلاط بنى رزيك .

ومما يمثل ذلك القول المهذب بن الزبير في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك فاستهلها بمقدمة غزلية وفيها وصف الليل وهو في هذا يعبر أو يصف شيئاً تقليدياً قام بوصفه الشعراء الأقدمون منذ الجاهلية وعلى رأسهم امرؤ القيس في وصفه البديع لليل ، ولكن الجديد عند المهذب في وصفه لهذا الليل هو تلك الصورة البديعة التى تشهد بقدرته الإبداعية ودقة ملاحظته وخصوبة خياله ، ولنقف على أبيات هذه الصورة التى يقول فيها :

وَلَرُبَّ لَيلٍ خِلْتُ خَاطِفَ بَرْقِهِ ... ناراً تلفَّعَ للدُّجى بِدُخانِ
كَالمَائِلِ الوَسْنَانِ مِن طُولِ السُّرَى ... جَوزاؤُهُ ، والرَّاقِصِ السكرانِ
مَا بَانَ فِيهِ مِن ثُرَيَّاهُ سِوَى ... إِعْجَامِهَا ، والدَّالُ فِي الدَّبَرانِ
وتَرى المَجَرَّةَ فِي النُّجومِ كَأنَّهَا ... تَسقِى الرِّيَاضَ بِجَدْوَلٍ مَلآنِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ نَهْراً لَمَا عَامَت بِهِ ... أَبَداً نُجُومُ الحُوتِ والسَّرَطانِ
تَلَاَمَتُ فِيهِ الفَرْقَدينِ كَأنَّنِى ... - دُونَ الوَرَى - وَجَذِيمَةَ أَخَوانِ (٢)

---

١ - د. فايز الداية - جماليات الأسلوب - ص ١٠٢ ، ص ١٠٣
٢ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢٣١

فنجد أننا أمام ليل أسودّ حالكٌ شديد السواد يبدو برقه لنا ناراً يتلفع بها الدُّجى بدخان، والجوزاء في هذا الليل قد أصيبت بالإرهاق والإعياء من شدة وفرط طول هذا الليل وكثرة السير فيه حتى تحولت هذه الجوزاء كالمائـل الوسنان أو الراقص الميسان من فرط هذا الإرهاق والتعب أما الثريا في هذا الليل فلشدة عمق ليلها وكثرة وضيق محلها تتراءى شديدة البعد حتى تكاد تختفي إلا ما يبدو منها هو الإعجام والدال كما يقول الشاعر، والمجرة جدول ملآن يروى الرياض ويسقيها ويسبح في هذا الجدول الحوت والسرطان ، وشاعرنا في هذا الليل العجيب البديع الطويل يظل ساهراً وحيداً لا يجد له رفيقاً أو مسامراً إلا الفرقدين وكأنه تحول إلى مثل جنيمة الأبرش ونديماه (مالك وعقيل)، وهذا ما جاء في وصف المهذب لليل ، وكما قلنا وصف الليل فكرة قديمة تناولها الشعراء منذ القدم ، ولكن يحق لنا أن نقول إن الشاعر أتى بصورة طريفة بديعة غريبة لهذا الليل الذى يعاني من شدة طوله وكثرة سهاده فيه فوقف أمام عدد من الصور الجزئية حيث جعل البرق له نارٌ ودخان ، وجعل الجوزاء تصاب بالإعياء ، فتتمايل وجعل الثريا تكاد تختفي، وجعل المجرة التى هي مجموعة من النجوم جعلها في صورة طريفة مثل النهر الصغير الذى يقوم على سقاية الرياض ثم يتبعها صورة أكثر طرافة وغرابة إذ جعل نجوم الحوت والسرطان تسبح في مياه النهر ، وهو في ظل هذا كله لا يجد من ينادمه إلا الفرقدين مستمداً من موروثه الثقافي في منادمة مالك وعقيل لجذيمة الأبرش، وتلك صورة نستطيع أن نقول عنها إنها صورة كلية استطاع الشاعر بقدرة وإبداع أن يؤلف صوراً جزئية تآزرت فيما بينها حتى تتآلف وتنصهر جميعاً في بوتقة تلك الصور الكلية البديعة ، كما نستطيع أن نقول بأن أي قارئ لهذه الأبيات عن طريق إعمال الخيال يستطيع أن يتخيل تلك الصورة التى رسمها المهذب ، وذلك هو الخيال المبدع ، ذلك الخيال القادر على نقل الصورة إلى خيال المتلقى وكأنه يراها رؤيا العين .

ومن النماذج شديدة الدلالة على وجود الصورة الكلية عند شعراء بني رزيك ما نجده في أكثر من موضع من شعر طلائع وشعر المهذب وشعر أسامة في وصف المعارك الحربية ، فوصف المعركة الحربية في شعر هؤلاء الشعراء يمثل صورة كلية متكاملة الأطراف والعناصر ، ويوجد لدينا أكثر من نموذج، ولعل من هذه النماذج نص أسامة الذى أجاب به الملك الصالح بن رزيك إذ أرسل له الصالح طلائع قصيدة واصفاً فيها قوة جيشه في معركة من المعارك بينه وبين الفرنجة وكيف انتصرت هذه الجيوش المصرية في هذه المعركة التى سجلها التاريخ، فما كان لأسامة إلا أن أجابه بقصيدة بديعة مدحه

(أي مدح فيها طلائع) بالشجاعة والبأس والإقدام ، كما مدحه بالكرم والجود والعطاء وفي أبيات القصيدة يطالعنا أسامة بصورة كلية متكاملة لهذه المعركة الحربية التي بدأت أول الأمر في البر ثم انتقلت إلى البحر وهذه الأبيات يقول فيها :

وَيبعثُها شُعثَ النَّواصي ، كأنَّها ... ذئابَ الفَلا تُردى ، عليها الضَّراغِمُ
تَلُظُّ بأرضِ المُشركين ، كأنَّها ... صَوادٍ إلى وِردٍ ، حَوانٍ حَوائمُ
فَوَيحَ العِدا مِنْ بأسِها ، إنَّما سَرى ... إليها ، ولم تَشعُر ، رَدىً وأداهِمُ
فَهمْ جُزُرٌ للبِيضِ ، والبِيضُ كالدُّمَى ... سَبايا تَهادى ، والبِلادُ مَعالِمُ
غَزوتَهمُ في أرضِهم وبِلادِهمْ ... وَجحفَلُهُم في أرضِها مُتَزاحمُ
فَأفنيتَهُم قَتلاً وأسراً بأسرِهِم ... فَناجِيهمُ مُستَسلِمٌ أو مُسالِمُ
فلمَّا أبادتهُم سيوفكَ ، وانجَلَتْ ... عن الأرضِ منهم ظُلمةٌ ومَظالِمُ
غَزَوتَهُم في البَحرِ ، حتَّى كأنَّما الـ ... أساطيلُ فيه موجةُ المُتلاطِمُ
بِفُرسانِ بَحرٍ ، فَوقَ دُهمٍ ، كأنَّها ... عَلَى الماءِ طَيرٌ ، ما لهنَّ قَوادِمُ
يَصرِّفُها فُرسانُها بأعِنَّةٍ ... جَرَتْ ، حَيثُ لَمْ توصل بهِنَّ الشَّكائِمُ
إذا دَفَعُوها قُلتَ : فُرسانُ غارةٍ ... سَرَوا بِجيادٍ ، ما لَهن قَوائمُ
يَسوقُ أساطيلَ الفَرنجِ إليهِمُ ... حِمامٌ ، وطيرٌ للفَرنجِ أشائِمُ
دِماؤُهُم في البَحرِ حُمرٌ سَوائِحٌ ... وهامُهمُ في البرِ سُحمٌ جَوائِمُ
فَلَمْ يخفَ في فجٍ مِنَ الأرضِ هارِبٌ ... ولم يَنجُ في لُجٍّ مِنَ الماءِ عائِمُ
وعادَ الأسارى مُردفِين ، وسُفنُهم ... تُقادُ ، كما قادَ المَهارى الخَزائِمُ
وقَدَ شَمَّرَ المَلكانِ في الله ، طالِبي ... رِضاهُ ، بِعَزمٍ لم تَعُقهُ اللَّوائمُ
بجدٍ ، هو العضبُ الحُسامُ ، وحدُّه ... لِعادِيةِ الأعداءِ والكُفرِ حاسِمُ
وَقاما بنَصرِ الدِّين ، والله قائمٌ ... بِنَصرِهِما ، ما دامَ للسَّيفِ قائمُ
وَما دُونَ أنْ يفنى الفرنجُ، ونَفتحَ الـ ... بلادُ ، سِوى أن يُمضي العزمَ عازِمُ (١)

ومن خلال هذه الأبيات نستطيع أن نقول أو نذهب مع النقاد الذين يسمون بعض القصائد بالقصيدة الصورة ، فيحق لنا أن نقول مطمئنين إن هذه الأبيات تمثل قصيدة صورة ففيها يوضح لنا أسامة، كيف يرسل طلائع جنوده وغاراته وكأنهم ذئاب ضارية تريد أن تصل إلى العدو وتفترسه ، وهي تلح في غاراتها وتكررها وكأنها تسعى إلى قنص فريستها فهم يحملون الموت للأعداء، والأعداء يمثلون الشاه المذبوحة التي تقتل على يد جنود طلائع

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٧٥ ، ٢٧٦

فينتصر طلائع وجنوده على الفرنجة في الأرض ويفنيهم تماماً قتلاً وأسـراً. ولما انكشف ذلك الظلم عن الأرض بفضل شجاعة طلائع وجنوده تتبعه طلائع وجيوشه في البحر فقام بغزوهم في أساطيله التي تشبه الموج المتلاطم ، هـذه الأساطيل التي تحمل فوق ظهورها هؤلاء الجنود الشجعان الذين يمتطون سفن سوداء كأنها طيردون ريش ، وهم أي هؤلاء الفرسان يتحكمون فيها وكـأنهم يملكون زمامها فإذا ما أسرعوا بها قلنا بأنهم فرسان يغيرون بجياد طائرة ليس لها قوائم وهم يحملون الموت لفرنجة وأساطيلهم، هذا المـوت الـذى جعل دماءهم في البحر حُمراً هذا الموت أيضاً الذى جعل رقابهم في البر سوداً ملقاة على الأرض لذلك لم يبق منهم في الأرض فارّ أو هارب ولم ينجُ منهم مـن الماء أحد وقد عادت جيوش طلائع بالأسرى وسفن الأعداء، هذا كلـه يثبـت شجاعة طلائع وجنوده براً وبحرا ، وعلى هذا النحو عبر أسامة في وصـفه لتلك المعركة البرية البحرية التى يثني فيها على شجاعة جنود طلائع وإقدامه وبأسه ولكنه قدم لنا هذه المعاني في صورة بديعة صورة كلية اسـتمد فيهـا أسامة صوره الجزئية من الطبيعة الحربية ومن البيئة المحيطة به، فنجد لديـه تشبيه جنود طلائع بذئاب الصحراء والأسود الضارية، ونجد تصويره للفرنجة بأنهم شاة مذبوحة بسيوف المصريين ، ونجد تصويره للمعركـة البريـة ثـم تصويره للمعركة البحرية معتمداً على عدد مـن التـشبيهات والاسـتعارات والكنايات التى تآزرت فيما بينها وانصهرت انصهاراً تاماً لتصب في بوتقـة الصلورة الكلية لتنتج لنا صورة بديعة رائعة أبسط ما يقال عنها بأنها تحولـت من صورة مرسومة بالكلمات إلى صورة مرسومة بألوانٍ وحركات وأصوات نكاد نراها ونسمعها كأنها واقع لاشك فيه ، وهذه هي قدرة الخيال المبدع ذلك الخيال الذى ينقل الصورة إلى المتلقى فيشعر وكأنه يراها، وذلك – أزعـم – أنه قد حدث لقارئ هذه الأبيات الذى يكاد يصل بتفاعله مع تلك الصورة إلـى استشعاره رؤيتها .

رابعا: أنماط الصورة :

من خلال دراستنا للصورة في شعر شعراء بنى رزيك وجدنا عدداً من الصور اللافتة التي يمكن أن نضع يدينا عليها بجوار النوعين السابقين وهمـا الصورة الجزئية والصورة الكلية ، فوجدنا عددا من الأنماط التي يؤثِر عـدد من النقاد تسميتها تبعاً للحاسة الإنسانية التى تميزها ، فنجد لدينا عددا من هذه الأنماط التي أجاد هؤلاء الشعراء رسمها وتشكيلها وتتمثل في :

الصورة الحركية ، والصورة الشمّية ، والصورة السمعية ، والـصورة اللونية ، والصورة الذوقية.

١- الصورة الحركية :

حرص شعراء بني رزيك في الكثير من صورهم على بث الحياة والحركة والحيوية معتمدين على قدرتهم في جعل الموصوف محسوساً ، ويكثر وجود الصور الحركية بكثرة شديدة في أشعارهم نظراً لأن الملك الصالح طلائع بن رزيك ، كان كثير الحروب وكان شعراؤه يهتمون بوصف هذه الحروب ، فاعتمدت أوصافهم على الصورة الحركية التى تتآزر مع عدد من الصور الأخرى كاللونية والسمعية ، وهي من الصور الكثيرة التي لا يستطيع البحث أن يسجلها كلها لذا سيكتفي بعرض أمثلة دالة على وجود مثل هذه الصور الحركية .

فهذا طلائع بن رزيك يرسم صورة بديعة تموج بالحركة في إحدى قصائده التى بعث بها إلى صديقه أسامة بن منقذ فقال :

نَسيرُ إلى الأعداءِ والطَّيرُ فَوقَنَا … ولَهاَ القُوتُ مِنْ أعدَائنَا ، ولَنَا النَّصرُ
فَبأسٌ يذوبُ الصَّخرُ مِن حَرِّ نارهِ … ولُطفٌ لهُ بالماءِ يَنْبَجِسُ الصَّخرُ
وَجَيشٌ إذا لاقى العدَو ظَنَنْتهَم … أُسودَ الشرَى عَنَّت لها الأُثُم والعُفْرُ [١]

يرسم طلائع لنا صورة حركية جميلة نكاد نتخيلها ونراها رؤيا العين ، تتمثل في مسير الجيش على الأرض وتصاحبه الطيور في السماء وذلك ليقينها أنها ستجد طعامها الذى تعودت عليه من القتلى الكثيرين من أعداء طلائع وطلائع يثق أنه سينتصر .

وهي صورة تقليدية مكررة نجد بدايتها عند النابغة الذبياني* في الشعر الجاهلي .

وله في موضع آخر من القصيدة نفسها صورة أخرى حيَّة بديعة قال فيها :

هُمْ الأُسدُ مِنْ بِيضِ الصَّوارِمِ والقَنَا … لَهُمْ فِي الوغَى النَّابُ الحَديدَةُ والظُّفرُ [٢]

---

١ – القصيدة كاملة في ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٥١ إلى ص ٢٥٦

ينظر الشاعر إلى قول النابغة الذبياني:

إذَا ماَ غَزو بِالجَيْش حلّق فوقَهمْ … عَصائبَ طَيرٍ تهتدى بِعَصائبِ

٢ – المصدر نفسه – ص ٦٣

لقد شبه هنا الجيش بالأسود ، والأسود تتميز بقوة الهجوم والافتراس على العدو، وهي توضح المعنى مبينة قوة طلائع في الحروب والتي تمثلت في تلك الحركة السريعة التي تيميز بها الأسد عند افتراس الحيوانات .

ويأتي على هذه الشاكلة عمارة اليمني وهو في معرض هجائه لأبى دخان فقال :

إنْ كَانَ يَحْسبُ أنَّ خِسةَ أصله   تَحْميه مِنْ حَمْتي ومرُّ ذعَافي
فَالأسد تَفْترسُ الكَلاب إذا عَدَتْ   أطوارَهَا والأسدُ غيرُ ضعافِ (١)

وهنا تشبيه ضمني جميل يعتمد على الحركة ، فاعتمد فيه عمارة على التشبيه في هجائه لمن سمى بالديوان بابن دخان فيقول إن كان دناءة أصله تحميه من هجائه وإيذائه له لكان أولى أن تترك الأسود الكلاب إذا تجاوزت حدّها معها ، فالأسود تفترس الكلاب إذا ما تجاوزت وأخطأت ، وكذلك الشاعر وذلك المهجو إذا ما تخطي حده معه فله منه العقاب ولا يؤثر ذلك العقاب في كرم حسبه وأصله ونسبه .

ومن أمثلة ذلك قول المهذب بن الزبير في وصفه للشمعة قائلاً:

إذا جمّشتها الرِّيحُ كَانَتْ كَمِعْصَمٍ   يُردُّ سلاماً بالبنانِ المُخَضَّبِ (٢)

إنها صورة بديعة شبه فيها المهذب حركة الشمعة المشتعلة التى تحركها الريح بحركة اليد التي ترد السلام ، وهي صورة تعتمد في رسمها على الحركة، وهي صورة طريفة أجاد المهذب رسمها.

ومن ذلك الصورة التى أتى بها المهذب بن أسعد الموصلى في إحدى قصائده التى مدح بها الصالح بن رزيك قائلاً :

سَارُوا إلى المَوت قُدَماً ما كأنَّهمُ   رَأَوُا طَرِيقَ فِرارٍ قَطُّ مَسلُوكَا
فَأورَدُوا السُّمْرَ شُرْباً مِن نحورهمُ   وأوطأوا الهَام بالقَاعِ السَّنابِيكا
ضَرباً وطَعناً يقدُّ البِيضَ مُحكَمَةً   وَيخْرِقُ الزَّرَدَ المَاذِيَّ مَحبُوكَا (٣)

هنا صورة اعتمد فيها المهذب بن أسعد على الحركة في وصف معركة حربية ، كعادة هؤلاء الشعراء في تلك الفترة الزمنية في وصف الحروب

---

١ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الثاني - ٦٩٩
٢ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٧٨
٣ - خريدة القصر وجريدة العصر - قسم شعراء الشام - ص ٢٨٣

وتحرك جيش طلائع إلى الفرنجة وإقدامهم وبأسهم يحملون الموت عن طريق الرماح والسيوف فمرّة يضربون بالرمح ، ومرّه يضربون بالسيف وهي كلها صور تعتمد اعتماداً كلياً على الحركة ، ولقد أجاد الشاعر المهذب رسم الصورة وإن كانت تقليدية في عصر اشتهر بالحروب الصليبية.

٢- الصورة الشمّية :

وهي الصورة التى تعتمد على الروائح أو ما يدل عليها ، حيث تكون الصورة مبنية على ما يمكن شمه من عطور ، وأزهار ، وورود وغيرها من الروائح .

نحو قول عمارة اليمنى في إحدى قصائده المدحية التى مدح بها فارس المسلمين أخا الملك الصالح بن رزيك فقال :

سَرَتْ نَفحةٌ كَالْمِسْكِ أَزْهَى وَأَعْطَر ... وأرْدِيــةُ الظَّلْمــاءِ تُطْــوىَ وتُنْــشَرُ
فَأَوْهَمتْ صَحْبِىَ أنَّهَا عُـرف رَوضَـةٍ ... يَــنمُّ بهــا وَاشــىَ النَّــسيمِ ويخبــرُ
وَمَا هَيَ إلاَّ نَفـــحةٌ بعثـــتَ بِــهاَ ... سلـيمى إلــى صَبٍّ تَنَامَ ويســـهرُ [١]

هنا صورة اعتمدت في تشكيلها وتكوينها على حاسة الشم، إذ يتحدث فيها عمارة في مقدمة قصيدته المدحية عن رائحة طيبة شبهها برائحة المسك بل هي أزهى وأعطر وهي تتنقل من مكان إلى آخر ، فيقول عنها إنها رائحة طيبة نابعة من روضة غناء وما هذه الرائحة الطيبة إلا نفحة رائعة من محبوبته أرسلتها إلى العاشق المستهام، أرسلتها المحبوبة والصبَّ العاشق يسهر لا ينام، وما يهمنا هنا أن الصورة اعتمدت على حاسة الشم في تكوينها فنجد الألفاظ ملائمة ومعبرة خير تعبير عن تلك الحاسة الإنسانية .

وينتهج النهج ذاته المهذب بن الزبير في إحدى قصائده المدحية قائلاً :

بِـــــاللهِ يَــــارِيحَ الـــشَّما ... ـــلِ إذَا اشْــتَمَلَت اللّيـلُ بُــردَا
وَحَمـلتِ مِنَ نَشــــرِ الخُـــزا ... مَى مـــا اغْـــتَدَىَ للــنَّدِّ نِدًا [٢]

اعتمد المهذب في حديثه ورسمه للصورة على حاسة الشم. إذ ذكر نبتاً زهرة من أطيب الأزهار رائحة ، ونستطيع أن نقول إن أبيات هذا النص تعتمد كلها وعددها اثنا عشر بيتاً على حاسة الشم، إذ يكثر الشاعر من الحديث عن الأزهار والورود والنسيم والأنفاس في تكوين بديع لصورة شمية متكاملة.

---

١ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٥٣٦
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٨٦

ومما يمثل ذلك أيضاً طلائع بن رزيك في مقدمة إحدى قصائده التي مدح بها أسامة بن منقذ قائلاً:

ذوائبُ زارَ الخصرَ منهُنَّ فاحمٌ … تَحدَّرَ لاجَعْدُ النباتِ ولا سَبِطْ
يُنافي سنا الكافورِ إنْ مُشّطتْ بهِ … ويُخفي سوادَ المسكِ فهو لها خلطْ [1]

يمدح طلائع أسامة بن منقذ بقصيدة استهلها بمقدمة غزلية بديعة ، واصفاً فيها جمال محبوبته ورقتها فمزج بين وصفه للحبيبة ووصفه للطبيعة مستعيناً باثنين من أجود العطور وهما (الكافور – والمسك) متخذاً في صورته الألوان حيث تؤدي الألوان دوراً مؤثراً في تشكيل صورة الحبيبة إذ شبه رائحته ببياض الكافور ولونه بسواد المسك .

وهذا ابن قلاقس نراه يعتمد في صورته على حاسة الشم في إحدى قصائده المدحية التي مدح بها الحافظ السلفي وأثنى فيها طلائع بن رزيك فقال:

مَنْ في الملوكِ كَمثلِ الصالحِ الملكِ الّـ … ـذي يفوحُ ثناهُ عنبراً ذفرا [2]

فأجاد هنا الشاعر توظيف رائحة العنبر وهو في معرض مدحه للصالح بن رزيك .

٣- الصورة السمعية :

وهي تلك الصورة التي تعتمد على حاسة السمع لإدراك ما بها من قيم جمالية .

فهذا عمارة اليمني يستدعي حاسة السمع في إحدى قصائده الشعرية وغرضها الشكوى قائلاً:

أُنادي من الأخوانِ غيرَ مُجيبِ … وأمدحُ بالأشعارِ غيرَ مُثيبِ
وأقطعُ أياماً تقولُ همومها … لأنفاسِ نفسي كيف شئتَ فذوبي
ومُستخبرٍ: ما بالُ حالكَ حالكاً؟ … فقلتُ : سقامٌ لمْ يُعنْ بطبيبِ [3]

هي أبيات في الشكوى اعتمد عمارة في رسمها على الحوار مما ينبه السمع ويجعله مشاركاً أساسياً في تكوين الصورة فنجد الألفاظ (أنادي ، تقول ، ومُستخبرٍ ، فقلتُ) وهي ألفاظ تعتمد على تنبيه حاسة السمع وحاسة الانتباه وقد أجاد عمارة رسمها مما يمثل صورة سمعية بديعة وطريفة.

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٦٦
٢ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٧٩
٣ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٢٤٤

ومما يمثل ذلك قول المهذب بن الزبير في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك فقال:

إنْ عَانَقُوا هَـذِهِ فـي يَـوْمِ مَعْرَكَـةٍ ... لاحَتْ لَهُـمْ بتلظّـى تِلْـكَ كالـشُعَلِ
وقد لَقُوا كلَّ مـن غـاروا بمُـشْبِهِهِ ... حتى لقُوا النُّجْلَ عند العَرْضِ بالنُّجُلِ
وَضَارِب الـرّومِ رُومٌ مـنْ سُـيُوفِهِم ... وَطاعَنَ العُرْبَ أعْرابٌ مـن الأسَـلِ
وَهَزّهم لصَهيلِ الخَيلِ تحْتَ صَهيـ ... ـلِ البيضِ ماهَزّ أعطافَ القنا الخطلِ
فالدَّم خَمْرٌ، وَأصـواتُ الجيـادِ لَهُـمْ ... أصواتُ مَعْبَدَ في الأهْـزَاجِ والرَّمَـلِ
والخيلُ قد أطْرَبَتْهَا - مثلما طربوا - ... أفْعالُهمْ ، فهيِ تَمْشِي مِـشْيَةَ الثَّمِـلِ
مِـنْ كـلِّ أجْـرَدَ مُخْتَـالٍ بفارِسِـهِ ... إلى الطِّعانِ جَرِيحُ الـصَّدْرِ والكَفَـلِ
وَكُـلُّ سَلْهَبَةٍ للـرِيحِ نِسْبَتُهَـا ... لكنّهـا لـو بَغَتْهَا الرِّيحُ لم تُنَلِ [1]

هنا يتحدث المهذب عن صليل السيوف ، ووصف معركة من معارك الملك الصالح بن رزيك وما يحدث فيها من حركة ، ومن ضرب وكروفر ، وطعن وقتال ، وصوت الفرسان المتصارعين وصوت صهيل الخيول وأصواتهم التى تشبه أصوات المغنى المعروف (معبد) وهو معروف في العصر الأموي ، وكأن الخيل تطرب من هذه الأصوات والأهزاج، ويختم المهذب أبيات صورته السمعية التى تعتمد في تشكيلها على الصوت كمكون أساسي فاعل في رسم الصورة ، يختمها بنداء فارس المسلمين الملك الصالح طالباً منه أن يشاركه السماع وهذا ما نقصده بالصورة السمعية قائلاً له :

أفَارِسَ الْمُسلمِينَ اسْمَعْ ، فَلاَ سَمِعت ... عِداكَ غَيْرَ صَلِيلَ الْبِيضِ فِي القُلَلِ [2]

٤- الصورة اللونية :

ومجال هذه الصورة الألوان لما لها من تأثير فعّال على الصور الفنية وتعطي دلالات عميقة للمعنى .

نحو قول المهذب بن الزبير في وصفه لشمعة قائلاً:

ومُصْفَرةٍ لاَ عَنْ هـوىً غيـرَ أنّهـا ... تحوزُ صفات المستَهامِ الْمعـذَّبِ
شُجوناً ، وسقماً ، واضطِبَاراً وأدمُعاً ... وَخَفْقاً ، وتَسَهيداً ، وفَرط تَلَهُّـبِ
إذاَ جمّشَتْها الريـحُ كانَت كَمِعْصَـمٍ ... يُردُّ سلاماً بالبنـانِ المُخضّبِ [3]

---

١ - شعر المهذب بن الزبير ص ٢١٢ ، ص ٢١٣
٢ - المصدر نفسه - ص ٢١٣
٣ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٧٨

يصف الشاعر في تلك الأبيات شمعة، فاعتمد في رسم هذه الصورة على اللون حيث شبه الشمعة بلون الحبيب الذى يعاني من الأرق والسهر وعدم القدرة على النوم فيصيبه الإصفار ، كما أنها تشتمل على صفات ذلك الصب المعذب من سقم وخفقان وسهر وشجون وهي صورة تعتمد في رسمها اعتماداً كلياً على اللون الذى يؤثر تأثيراً فاعلاً على اللون .

ويأتي على هذه الشاكلة عمارة اليمني في إحدى قصائده التى مدح بها الملك الناصر العادل بن الصالح بن رزيك قائلا:

تَبسَّم فِي لَيْلِ الشَّبابِ مَشِيبُ   فَأصبحَ بُردُ الهمِّ وَهُو قَشيبُ [1]

(تبسَّم) استعارة جميلة اعتمد في رسمها عمارة على اللون ، فهي صورة جميلة اعتمد فيها على المقابلة بين لونين (الأبيض والأسود) المتمثلين في لون الشباب ولون المشيب ، فالمعروف والمتداول في الصورة العربية القديمة أن الشباب يرمز له باللون الأسود نظراً لاسوداد شعر الرأس والمشيب يرمز له باللون الأبيض نظراً لأن لون الشعر يصبح أبيضاً فأجاد عمارة في رسم الصورة اللونية الجميلة المعتمدة على الطباق بين لون المشيب والشباب.

ومن أمثلة ذلك قول طلائع بن رزيك في إحدى قصائده التى بعث بها إلى أسامة بن منقذ قائلاً:

وُقَدْ كَانَ لَونَ الخَيْلِ شَتَىً فَأصبَحتْ   تُعادُ إلينَا ، وَهيَ مِنْ دَمُهم شقرُ [2]

وهذا القاضي الجليس بن الحباب يستدعي اللون الأحمر في إحدى صوره البديعة الغزلية قائلاً:

حَيٍّ بتُفَاحة مُخضَبْة   مِنْ شَفَّنِي حُبُّهُ وتَيَّمنِي
فقلتُ مَا إنْ رَأيتُ مُشبِهُهَا   فَاحمَرَّ مِنْ خَجَلِه فَكَذَّبَنِي [3]

هنا يخلع على التفاحة عنصر التشخيص فجعلها وكأنها إنسانة تخجل وتحمر خجلاً ، ثم يتغزل فيها مازجاً بين وصفه للطبيعة ووصفه للحبيبة وهو معتمد اعتماداً كلياً على اللون الأحمر .

---

١ - عمارة اليمني - المجلد الأول - ص ١٤١
٢ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٢٥٢
٣ - خريدة القصر وجريدة العصر - الجزء الأول - ص ١٨٩

فأجاد القاضي الجليس استخدام اللون وتوظيفه لتشكيل صورته التي تسهم في إثراء المعنى ، فنراه وظف صوره كلها لخدمة ما هو بصدده وهو الغزل .

أما ابن قادوس فله صورة لونية واضحة وهو في معرض هجائه للرشيد بن الزبير قائلا :

إنْ قُلْتَ مِنْ نَارٍ خُلِقْتَ وفُقْتَ كلَّ الناس فهْمَا
قلنا صَدَقْتَ فَمَا الذي أطفاكَ حتّى صِرْتَ فَحْمَا؟ (١)

اعتمد ابن قادوس في رسم صورته على اللون لأن الرشيد كان أسود اللون فاستغل الشاعر اللون في رسم تلك الصورة الطريفة للرشيد مشبهاً إياه أن لونه مثل الفحم الأسود شديد السواد.

ومن أمثلة ذلك قول الموفق بن الخلال في وصفه للشمعة قائلاً :

وَصَحِيفَةٍ بَيضَاءَ تَطْلعُ في الدُّجَى صُبْحاً وَتَشْفِي النَّاظِرِينَ بِدَائِهَا
شَابَتْ ذَوائِبُهَا أَوَانَ شَبَابِهَا وَاسْوَدَّ مَفْرِقُهَا أَوانَ فَنائِهَا
كَالعَيْنِ فِي طَبَقَاتِهَا وَدُمُوعِهَا وَسَوادِهَا وَبَيَاضِهَا وَضِيائِهَا (٢)

هنا صورة لونية فيها حركة ، حيث وصف الموفق بن الخلال الشمعة وصفاً بديعاً ، فشبه درجات لونها بدرجات لون العين، كما شبه قطرات الشمع التي تتساقط عند اشتعال الشمعة بالدموع التي تتساقط من العين، وهي صورة تعتمد اعتماداً كلياً على حاسة البصر، كما أنها تعتمد على الحركة والرصد الدقيق للشمعة في أحوالها كلها ، وهي من الصور الطريفة التي أجاد الموفق في رسمها.

٥- الصورة الذوقية :

وهي الصورة التي تبنى على حاسة الذوق ، فتعطي الصورة الشعور بالحرارة واللذة أو التذوق والحلاوة .

نحو قول عمارة اليمني في إحدي قصائده التي مدح بها الصالح بن رزيك :

ياساقياً بكؤوس الحمد مَسْمَعَةً سقيت مصطبحاً منها ومغْتبقا (٣)

هنا استعارة بديعة اعتمد فيها عمارة على الذوق حيث الشراب، وجعل الشراب هنا كؤوس متعددة من الحمد والثناء على ممدوحه الملك الصالح

---

١ - المصدر نفسه – ص ٢٢٩
٢ - المصدر نفسه – ص ٢٣٦
٣ - ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٠٧

طلائع وجعل الشارب شارباً في الصباح والمساء وكأنها كؤوس خمر، واعتمد فيها على الذوق ومن الألفاظ المستخدمة (ياساقيا – سقيت – مصطبحا – مغتبقا) .

وبنتهج النهج ذاته المهذب بن الزبير قائلاً معتمداً على حاسة التذوق :

وَماَ لِى إِلىَ مــاءٍ سِوَى النِّيلِ غُلَّةٌ ولــو أَنَهُ – أَستَغفِرُ الله – زَمْزَمُ [1]

هنا كناية تعتمد على التذوق في صورة ذوقية بها قدر كبير من المبالغة غير المقبولة في إطار الدين إلا أن الشاعر أجاد الإعتذار باســتغفار الله فــي جملة اعتراضية ، إذ إنه يوضح أنه ليس هناك في العــالم مــاءٌ يــستطيع أن يروى ظمأه إلا ماء النيل حتى لو كان هذا الماء ماء زمزم ، ويبدو أن الشاعر قد استشعر أنه قد أخطأ فاستغفر الله عن هذا الخطأ ، إلا أنها كناية عن مــدى حبه الشديد لمصر وما فيها من ماء وهو ماء النيل ، في اعتماد على التــذوق في تشكيل الصورة ورسمها فيخرج لنا صورة ذوقية طريفة .

وهذا القاضي الجليس بن الحباب نراه يصف الخمر في صورة بديعــة معتمداً فيها على حاسة التذوق فيقول :

مُعَتَقةٌ قَدْ طَالَ فــي الــدنّ حَبْــسُها وكَمْ يَدَعُهَا شُــرَّابُها بِنْــت عَامِهَــا
وقـــدْ أشبهَتْ نَارَ الخَليِلِ لأنهــــا حكَتْهـــا لَنَا فِي بَرْدِهَا وسَلاَمِهَا [2]

اعتمد الشاعر على حاسة التذوق في بناء صورته هنا، وهي الكناية عن طيب هذه الخمر وجودتها، وذلك لأنها خمر قديمة معتقة ، وأثبت هذا تــذوق الشاربين لها فأدركوا أنها خمر جيدة وليست خمراً حديثه غير جيــدة، وهــي خمر تحمل البرد والسلام لشاربيها ، ولهذا فهي تشبه نار الخليل إبراهيم عليه السلام التى أمرها الله – تعالى – أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك أيضاً قول ابن قلاقس في إحــدى قــصائده التى مدح بها الحافظ السلفي وطلائع بن رزيك فقال :

وفــيَ الكِلَّةِ الْحَمْرَاءِ ظَبــيٌ صَرِيعةٍ سَقَاني غداةَ البَيْنَ بالبين علْقماَ [3]

وهنا اتكأ الشاعر في صورته على حاسة التذوق مشبهاً صعوبة فــراق الأحبة وما يشعر به من عذاب وألم بطعم العلقم ومذاقه المؤلم .

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢١٧
٢ – خريدة القصر – الجزء الأول – ص ١٩٨
٣ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٩٧

الفصل الخامس
التشكيـل اللغـوي

تعد اللغة أهم عناصر الإبداع الأدبي فهي أداة الشاعر ووسيلته للتعبير عن الخلق ، بل هي أعظم أدوات الإنسان في تعامله مع عالمه وفي السيطرة عليه ، لكنها ليست أداة عمل كأدوات الإنتاج، إنما هي أداة أعم، تقف وراء العمل الاجتماعي كله ووجودها شرط قيام المجتمع، ولذا فهي ليس نتاجاً طبيعياً بل هي نتاج اجتماعي يمثل تطور صلة الإنسان بعالمه الاجتماعي وعلاقاته، ويعد من أبرز مهامها على الإطلاق أنها تختزن سياقاً تاريخياً واجتماعياً أكثر من أية أداة فنية أخرى ، فهي الأداة الوحيدة التي تلتحم بصورة مباشرة متينة بالتطور التاريخي لتكوين الإنسان عضوياً وذهنياً كما أنها الأداة الوحيدة التي يواكب نضجها تكوين المجتمعات البشرية ويحدد شروط بقائها . (١)

وعلى هذا فالشاعر المبدع الأصيل هو الشاعر القادر على صوغ العبارات وتنسيق الألفاظ وانتقائها ليكوّن بناءاً أسلوبياً مميزاً حيث إنَّ اللغة في الحياة اليومية لغة اصطلاحية تكتفي بمجرد نقل الفكرة ، أو الإشارة إلى الصورة المادية أو الواقعة للشئ فإنها في الشعر خلق فني تتحول فيه اللغة إلى رموز تصور حالة الأديب الباطنية وتعبر عن تجربته . (٢)

لذلك يعدُّ اللفظ في يد الشاعر المبدع (كمادة التمثال في يد المثال أو الألوان في ريشة الفنان لابد لكليهما من الوقوف على طياتها وخصائصها حتى يسمو بفئة إلى مراتب الجودة والإتقان). (٣)

كما نتفق مع كون اللغة بالنسبة للشاعر هي موسيقاه وهي ألوانه ، وهي فكره وهي المادة الخام التي سوى منها كائناً ذا ملامح وسمات كائناً ذا نبض وحركة وحياة . (٤)

فإذا كان العمل الأدبي بعامة يتوقف على الدقة في الصياغة فإن أولى مميزات الشعر هي استثمار خصائص اللغة بوصفها مادة بنائه . (٥)

ولقد تعددت آراء النقاد والدارسين لتقرير أن لكل أديب أسلوبه الذاتي الذي يعبر به عن أفكاره ومعانيه فإن الأسلوب هو طريقة الكتابة ومنهج

---

١ – د. عبد المنعم تليمه – مقدمة في نظرية الأدب – الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٧ م – ص ١٧ ، ص ١٨

٢ – د. محمد زكي العشماوي – قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث – ص ٥٠

٣ – د. حلمي مرزوق – تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين – بيروت – لبنان – ١٩٨٣ م – ص ٣٧٢

٤ – قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ص ٤١

٥ – النقد الأدبي الحديث – ص ٤٠٩

التعبير ، وفن التراكيب وإيراد الفكرة في صورة مؤثرة بليغة . ترجع إلى قدرة الأديب المبدع الذى يصوغها صياغة تحمل الكثير من شخصيته وخياله وقدرته على الخلق فمهمة الشاعر أن يكسب مادة التجربة نظاماً متناسقاً والتي هي بمثابة الهيكل للتجربة . (١)

وعلى هذا يرى ابن الأثير أن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك، وأما الرقيق فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر الأعياد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك . (٢)

ويكتمل لنا الحديث برأي الأستاذ أحمد الشايب الذي يرى أن للغزل أسلوباً يمتاز بالرقة واللين والسهولة في غير ابتذال وأن للرثاء أسلوباً رقيقاً ليناً ، وللمديح والهجاء أسلوباً جزلاً واضحاً شديد التأثير، وللوصف أسلوباً يختلف باختلاف ما يوصف به فهو جزل قوي في وصف الحروب وأصوات الطبيعة وحوادثها المفزعة ولين سلس في وصف العواطف الرقيقة ورائع جذاب في وصف البروق اللامعة . (٣)

ومن خلال دراسة شعر شعراء بنى رزيك نجد أن الأساليب قد تباينت بين السهولة والسلاسة في الألفاظ حيناً، والجزالة والفحولة في التعبير حيناً آخر، وذلك تبعاً للموضوعات الشعرية التى طرقها الشعراء (لكي يظهروا البراعة والتمكن من ناصية اللغة وليثبتوا للممدوح علوّ كعبهم في الصنعة، وسعة باعهم في فنون القول) . (٤)

ومن هنا نستطيع أن نقول إن شعراء بنى رزيك استطاعوا أن يغوصوا في أعماق قاموس اللغة فيخرجوا أروع التراكيب وأجود الألفاظ وكأنها حبات جمان جمعت ليتحلى بقلائدها الزمان، ففي أشعارهم تجد جزالة الأسلوب وقوته ودقة الألفاظ وحسن استغلال اللغة؛ فهم حقاً نجوم الدهر التي ازدان بها سماء بلاط بنى رزيك في مصر في تلك الآونة .

---

١ - أ. ريتشاردز - العلم والشعر - ترجمة د. محمد مصطفى بدوى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١ ص ٦٩

٢ - ضياء الدين بن الأثير - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - جـ ١ ص ٦٥

٣ - أحمد الشايب - الأسلوب طبع المطبعة الفاروقية - بالإسكندرية - ١٩٣٩ م - ص ٧٧ ، ص ٨٣

٤ - د. فوزي أمين - الحركة الفكرية والأدبية في الإسكندرية - ص ٢٩٤

- ونبدأ بالحديث عن الأساليب المهمة والتي شاع استخدامها في شعر شعراء بنى رزيك، ومنها:

أسلوب القصر:

يعد أسلوب القصر من أهم الأساليب التى اعتمد عليها شعراء بنى رزيك في أشعارهم ، وذلك لأهميته كمادة أسلوبية ترسخ المعاني وتعمق المضامين ، فهو إحدى البنى الرئيسية التى تعتمد في إنتاج دلالتها على المستوى العميق من حيث كانت أداة تعبيرية في تخصيص شئ بطريق مخصوص . (١)

كما أنه بكثرته وتنوع استخداماته وأشكاله ووظائفه داخل النص يمثل ظاهرة أسلوبية مميزة لأسلوبهم .

ونجد هذه الظاهرة الأسلوبية واضحة في شهر المهذب بن الزبير ، فلقد استعان بأسلوب القصر ليضيف إلى المعنى قيمة دلالية تعمق من التجربة ؛ وتخدم المعنى العام الذى يريد استخدامه في التعبير عن أغراض متنوعة كالمدح والشكوى والرثاء والوصف .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله في إحدى قصائده وغرضها الرثاء :

هُوَ الدهرُ ، فانظر أيَّ قِرنٍ تُحاربُهُ	وقد دَهَمَتْنا دُهْمُهُ ، وأشاهبُهُ
ليالٍ ، وأيامٌ يُغِرُّ بها الورى	وما هِيَ إلاّ جُنْدُهُ وكتائبُهُ (٢)

فالمهذب بن الزبير رجل حنكته تجارب الحياة ، وأفاد منها ومن أحداثها ونوائبها وهو هنا يقدم حكمة وموعظة لمن يغتر بالدنيا غير مدرك لحقيقتها ، فيطلعه المهذب على حقيقتها مستعيناً بأسلوب القصر وكانت صيغته (النفي + الاستثناء) (ما + إلا) كبناء لغوىّ يحدد ويخصص مؤكداً أن الأيام والليالي لا تخدم هنا إلا الدهر وهي حكمة صاغها الشاعر في أسلوب موجز وبسيط .

وله في موضع آخر من شعره مستخدماً أسلوب القصر فيقول :

تركوا المنازلَ والدّيارَ فَمالهم	إلاّ القلوبُ مَنَازِلٌ وَدِيارُ (٣)

يشكو المهذب من سوء حاله بعد رحيل المحبوب فاستعان هنا بأسلوب خبرى اعتمد فيه على أسلوب القصر مستخدماً الجملة الفعلية المثبتة (تركوا

---

١ - د. محمد عبد المطلب - البلاغة العربية قراءة أخرى - الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان - القاهرة - ص ٢٦٠

٢ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٧٧

٣ - المصدر نفسه - ص ١٩٠

المنازل والديار) ثم اعتمد على النفي (فما) والاستثناء (إلا) لكي يحدد ويوضح لمخاطبه الحال التى صار عليها وهو أسلوب خبري يعبر فيه الشاعر عن تجربته.

وبدراسة أسلوب القصر عند المهذب بن الزبير نجد أن أكثر صور القصر لديه تتمثل في النفي+ الاستثناء التي تأتي في صورة (ما + إلا) .

ونجد هذه الظاهرة الأسلوبية في شعر عمارة اليمنى ، وتكثر الأمثلة الدالة على ذلك ومنها قوله :

وَمَا هَذِهِ الأَيام إلاّ رَوَاحِل   تُبِيدُ بِهاَ الأَعْمَارَ ثُمَّ تُبِيدُ (١)

وهنا نظم الشاعر نموذجاً لحكم عام أو عظة ، وهو في معرض مدحه لفارس المسلمين أخى الصالح بن رزيك مستعيناً بأسلوب القصر كوسيلة لغوية، وتتمثل في النفي (ما) + الاستثناء (إلا) عبر فيها عمارة عن معنى من معاني الحكمة والعظة التي رأى أنها تزداد دلالة وثراءاً معنوياً إذا ما صيغت بذلك الأسلوب البلاغي البديع ، وفيها يذهب إلى أن الأيام ليست مجموعة من الرواحل التي تحمل الأعمار وتهلك فهذه هي أيامنا وأعمارنا ، ولقد أجاد الشاعر توظيف ذلك الأسلوب البلاغي في التعبير عن المعنى .

وله في موضع آخر من شعره قوله :

وَمَا هَذِهِ الأَعْمَارَ إلا صحائفٌ   تُورخ وَقْتاً ثُمَّ تُمْحَى وتُمْحَقُ (٢)

هنا يرثى عمارة طلائع بن رزيك فلجأ إلى أسلوب القصر المتمثل في النفي + الاستثناء (ما + إلا) كبناء لغوي يحقق له القيم الفنية التي يريدها ، ومقام الرثاء جعل هنا من الضروري أن يلجأ عمارة لأسلوب القصر، فالأعمار لا أحد يستطيع أن يتحكم فيها أو يعرف ميعادها وبذلك تبدو القيمة الدلالية للقصر واضحة .

ومن خلال دراسة شعر عمارة اليمني نجد أن أكثر صور القصر لديه تتمثل في النفي + الاستثناء التى تأتي أيضاً في صورة (ما + إلا) .

كما يلجأ أسامة بن منقذ إلى استخدام أسلوب القصر في قوله :

وَلاَ تُرِدْ شَافِعاً إلاَّ هَـوَاكَ لَهُـمْ   يكفِيكَ مَا اخْتَبُروا مِنْهُ، ومَاَ كَشَفُوا (١)

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٣٣٢
٢ – المصدر نفسه – المجلد الثاني – ص ٧٠٩

هنا اعتمد الشاعر على النهي (لا) + الاستثناء (إلاّ) وهو في حديثه عن أحبابه الذين رحلوا فيخاطب نفسه موضحاً أن الشفيع لهؤلاء الأحبابَ الذين رحلوا هو حبه لهم وهواه الذي اختبروه وعرفوه ، ولقد أعطى أسلوب القصر قيمة دلالية واضحة ومحددة قصدها أسامة وهدف إليها لتضيف إلى معنى القصيدة .

وله في موضع آخر من القصيدة نفسها فيقول :

وماَ البعيدُ الذي تَنأى الديَارُ بـه   بل مَن تَدَانىَ ، وعنهُ القلبُ منصرفُ (٢)

وفي هذا البيت يتحدث أسامة عن حكمة عامة ، وأسامة فيها صادق كل الصدق وهنا أسلوب القصر يتمثل في (ما) + حرف العطف (بل) هذه الحكمة التي صاغها أسامة في هذا الأسلوب ليبين أن البعيد الذى نسميه بعيداً ليس من رحل عنا ، ولا من فات دياره، بل هو من يجلس بجوارنا والقلب منصرف عنه ، فكأنه ليس موجوداً، وهي من المعاني الجميلة التي أجاد الشاعر التعبير عنها .

وقد استخدم أسامة بن منقذ طريقتين للبناء اللغوي للقصر ، الأولى استخدم عدداً من أدوات النفي مع عدد من أدوات الاستثناء ، فاستخدم (لا) مع (إلا)، واستخدم (لا) مع (لا)، واستخدم (ما) مع (سوى) ، واستخدم (ما) مع (إلا) والأخرى استخدم (إنما) في بعض الموضع من شعره .

استعان أسامة بأسلوب القصر ، ليضيف إلى المعنى قيمة دلالية تعمق تجربته وتخدم المعنى العام الذي يريد استخدامه في التعبير عن أغراضه وهي كثيرة متنوعة كالمدح والغزل، والوصف ، والرثاء ، والعتاب والشكوى ، والفخر وأيضاً في المراسلات الشعرية التى دارت بينه وبين صديقه الحميم طلائع بن رزيك .

وهذا ابن قادوس توسل بأسلوب القصر في وصفه للخمر وحديثه عنها فيقول :

لَيس لَها عَيـبٌ سِوَى أنَّـهاَ   حَـسرةُ أقـوامٍ مقَاليسِ (٣)

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٣٥
٢ – المصدر نفسه
٣ – خريدة القصر – الجزء الأول – ص ٢٢٧

وهنا يعتمد الشاعر على النفي + الاستثناء (ليس + سوى) فهو يتحدث عن الخمر ومجلسها وهذا الأسلوب يتفق مع شخصية ابن قادوس الطريفة لأنه يؤكد أنّ الخمر ليس لها أي عيب على الإطلاق ، ثم يستثنى لها عيباً واحداً وهو عيب لا ذنب لها فيه هذا العيب يتمثل في أنها تشعر الناس المفلسين بالحسرة لأنهم لا يجدون مالا يشربون به تلك الخمر التي هي من وجهة نظر الشاعر أفضل ما في الدنيا .

كما تبدو لنا أهمية أسلوب القصر واضحة أيضاً في شعر القاضي الجليس – وفقاً لما ورد لدينا من شعره – نحو قوله :

فَماَ غَالِبٌ إلاّ بِنَصْرِكَ غَالِبٌ   وَمَا هاشِمٌ إلاّ بِسَيفِكِ هَاشِمُ [1]

يستخدم هنا الشاعر أسلوب القصر الذي يتمثل في النفي + الاستثناء بـ (ما + إلا) مخاطباً ممدوحه وهو طلائع بن رزيك مطالباً إياه أن يخرج للدفاع عن حق بنى هاشم وأن يعيد إليهم ملكهم ولن يكون هذا إلا بسيف طلائع ومؤازرته ، فلم يجد الشاعر أفضل من أسلوب القصر كي يعتمد عليه اعتمادا كلياً ، وهذا يبدو لنا من استخدامه للأسلوب مرتين في البيت الواحد.

وهذا طلائع بن رزيك في إحدى قصائده التي بعث بها إلى أسامة بن منقذ ويستعين بأسلوب القصر في مدحه فيقول :

وَمَا هُو إلاّ الشمّسُ أَضْحىَ يَزُورنَا   بِمَسْرَاهُ مِنْ شَرْقِ البِلاَدِ إلى الَغرْبِ [2]

وهنا لجأ طلائع إلى أسلوب القصر بوسيلة النفي + الاستثناء (ما + إلا) الذى يعطيه الدلالة التي يريدها وهي الثناء والمدح فيقول إن أسامة مثل الشمس التى تزورنا من الشرق إلى الغرب ، وكذا أسامة الذى يأتينا من الشرق إلى الغرب ، ولقد أجاد الشاعر في رسم هذه الصورة لصديقه وصاحبه وصفيه أسامة بن منقذ .

التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير هو أحد أساليب البلاغة وهو دلالة على التمكن في الفصاحة وحسن التصرف في الكلام، ووضعه في الموضع الذى يقتضيه. [3]

---

١ – خريدة القصر – الجزء الأول – ص ١٩١
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٥٦
٣ – د. يوسف أبو العدوس – البلاغة والأسلوبية – مقدمات عامة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، الأردن – الطبعة الأولى ١٩٩٩م – ص ٧١

ويلجأ الشاعر إلى التقديم والتأخير حسب ما يعتمل في نفسه من مشاعر ومعاناه هي صدى لتجربته: (ويعد التقديم والتأخير من عناصر التحويل حسب إرادة المتكلم في نقل المعاني التي يقصدها ، فيغير في الترتيب ، وينقل اللفظ من موقع أصل له إلى موقع جديد ، مغيراً بذلك نمط الجملة. ناقلا معناها إلى معنى آخر أكثر تركيزاً وأشد إيضاحاً) [١] .

ونجد هذه الظاهرة الأسلوبية واضحة في شعر طلائع بن رزيك فنراه قصد إلى أسلوب التقديم والتأخير قصداً وهو في قصيدة يكتب بها إلى أسامة بن منقذ جواباً عن قصيدة أرسلها إليه أسامة فيقول :

كُلَّ يَوْمٍ لِنَارِ شَوْقِيَ، مَا بينَ ضُـــــلوعِي، بِماءِ جفْني، لَهِيبُ [٢]

فأراد طلائع هنا أن يوضح لأسامة مدى شوقه وحنينه لرؤيته وما يفعله ذلك الشوق فيه وتأثيره في نفسه ، فقدم طلائع شبه الجملة المكون من الظرف والمضاف إليه المتعلق بالخبر المحذوف على المبتدأ المؤخر .

وهدف الشاعر في هذا التقديم والتأخير أن يوضح ما يفعله بُعد أسامة عنه، فنجد نار الشوق تزداد كل يوم ، فيبكي لها بماء جفنه وهذه النار هي التي لها لهيب ، فهنا التقديم والتأخير أفاد كثيراً في التعبير عن المعنى المراد.

ويكثر عمارة اليمني من أسلوب التقديم والتأخير وهي ظاهرة لغوية تتكرر كثيراً في شعره نحو قوله في إحدى قصائده المدحية التي مدح بها العادل بن رزيك فيقول :

فَفي تَاجِهِ بَدْرٌ وَفـــي كَفِّــه حَيــاً وَفي سَرْجِه لَيْثٌ وفي دَسْتِه مَـدحٌ
لَكَ الجُـــودُ كالفَتْخِ الكَواسِرِ لَمْ يَزل يَلوُحُ على رَايَاتِها الفَتْحُ والفَتخُ [٣]

هنا اعتمد عمارة على التقديم والتأخير ويتمثل في تقديم شبه الجملة (الجار والمجرور) المتعلق بخبر المبتدأ المحذوف على المبتدأ المؤخر (النكرة) مثل قوله (في تاجه بدرٌ) وقوله (في كفه حيا) وقوله (في سرجه ليث) وهكذا.

ومعروف أن التقديم والتأخير من أساليب البلاغة التي تعطي معنى القصر والاختصاص والحصر والاهتمام بالمتقدم وهي معاني أرادها عمارة

---

١ – د. على إبراهيم أبو زيد – أحمد بن يوسف الكاتب الوزير – دراسة أسلوبية في آثاره النثرية – دار المعارف – الطبعة الأولى ١٩٩٧م – ص ٦٧.
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – د. أحمد بدوي – ص ٥٨.
٣ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٣٠٠.

وأجاد التعبير عنها من خلال اعتماده على ذلك الأسلوب البلاغي ونلاحظ أنه أكثر من استخدام هذا الأسلوب في غرض المدح .

وإذا ما انتقلنا إلى المهذب بن الزبير نجده يلجأ إلى أسلوب التقديم والتأخير في إحدى قصائده التي مدح بها طلائع بن رزيك ، واستهلها بمقدمة غزلية بديعة فيقول :

لِلْرُّمحِ نَصلٌ وَاحِدٌ ، ولِقَدِّهِ   مِنْ نَاظِرِيهِ إِذَا رَنَا نَصلانِ (١)

وهنا قدم الشاعر شبه الجملة على المبتدأ النكرة مرتين في بيت واحد ، فالتقديم والتأخير من الأساليب المعروفة في البلاغة العربية، وهي تؤكد المعنى، والشاعر هنا يرى أن للرمح نصل واحد بينما لمعشوقته التي يتغزل بها في هذه الأبيات نصلان قاتلان يتمثلان في ناظريها مستخدماً هذا التقديم والتأخير .

وتوجد أمثلة متنوعة في شعر المهذب فيها التقديم والتأخير تدل على ما يؤديه من قيم فنية وبلاغية ودلالية تضيف إلى المعنى العام والصورة العامة .

ويأتي على هذه الشاكلة الجليس بن الحباب ومن الأمثلة الدالة على ذلك في شعره قوله :

فَفِي يَدِ جَاحدِ الإِحْسَانِ غُلٌّ   وَفِي يَدِ حَامِدِ النعْمى سَوارٌ (٢)

قدم الشاعر هنا شبه الجملة المتعلق بخبر على المبتدأ المؤخر ، والشاعر لجأ إلى أسلوب التقديم والتأخير لهدف بلاغي وحرصاً منه على توكيد ذلك الأسلوب وتوكيد المعنى فلجأ إلى تكرار الأسلوب في الشطرة الثانية من البيت .

ونجد ابن قادوس يستعين بأسلوب التقديم والتأخير وهو في معرض هجائه لرجل كبير الأنف فيقول :

عَلَيْكَ لاَ لَكَ أَنْفٌ ظَلَّ مُشْتَرِفَا   حَتى غَدَا بِنُجُومِ الأُفْقِ مُلتَصِقَا
فَلا تَقُل خِلْقَةُ الله ازْدَرَيْتَ بِهَا   فَقَدْ يُعاذُبِهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَا (٣)

هذه من الأبيات الطريفة الظريفة التي يصف بها الشاعر رجلاً كبير الانف ، فلجأ الشاعر إلى أسلوب التقديم والتأخير مقدماً شبه الجملة على المبتدأ

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣١
٢ – خريدة القصر – ص ١٩٢
٣ – خريدة القصر – ص ٢٣٤

النكرة ثم لجأ إلى أسلوب العطف بـــ (لا) النافية كي يزيد الأمر سخرية مـــن كبر أنف الرجل ، وهي من الأبيات الجديدة في شعرنا العربي، وفي الـــشطرة الثانية قدم شبه الجملة الخبر المنصوب للفعل وهو يقصد هذا التقديم والتـــأخير لأنه مفيدٌ في معناه .

وهناك طرافه لغوية في استخدام الشاعر لكلمة عليك بدلاً من لك وكأن هذا الأنف من فرط كبر حجمه صار عبئاً على صاحبه وليس نافعاً له .

أسلوب الشرط :

هو أسلوب إنشائي غير طلبي ، استعان به شعراء بنـــي رزيـــك فـــي مواضع عديدة من أشعارهم وتنوعت أدوات الشرط بين (كلما) وأداة الـــشرط (من) وأداة الشرط (إذا) ، وأداة الشرط (لو) ، لإدراكهم أنـــه مـــن الأســـاليب المهمة الموضحة للمعنى .

ومما يمثل ذلك قول المهذب بن الزبير في وصفه للشمعة فيقول :

إِذَا جِمِّشْتَهَا الرِّيحُ كَانَتْ كَمِعْصَمٍ   يُرِدُّ سَلَامَاً بِالبَنَـــانِ المُخَضَّبِ (١)

هنا أجاد الشاعر توظيف أسلوب الشرط في التعبير عن صورته التـــى وصف فيها الريح التي تحرك الشمعة فتبدو للناظر وكأنها كف يد يرد السلام ، وأفاد من الدلالة البلاغية التي يعطيها أسلوب الشرط (إذا) ، والذي استطاع أن يؤدي المعنى ويبرزه ويبدو لنا أن المهذب اعتمد على أسلوب الشرط ليعطيـــه قيمة دلالية تؤكد وتضيف إلى المعنى، وتنوعت أدوات الشرط في شعره فمنها أداة الشرط (إذا)، وأداة الشرط (إن)، وأداة الشرط (لو) لو جاءت في صـــيغة (لولا).

وأكثر عمارة اليمني من استخدام أسلوب الشرط مدركاً لقيمته البلاغيـــة والدلاليـــة التي يضيفها إلى القيم الفنية لشعره، وباستقراء أبيات شعر عمـــارة نجد أنه يكثر من استخدام حرف الشرط (لو) الذي قد يـــأتي وحـــده أو يـــأتي بصيغة (لولا) وهذه ظاهرة لغوية متكررة كما أنها سمة أسلوبية مميزة لـــشعر عمارة .

ومن هذا الشرط قوله في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك:

لَو كُنْتُ أَمْلِكُ رُوحِي وارتَضَيْتَ بِـــهَا   بَذَلْتُهَا لكِ لازُوراً ولا مـــلَقـــاً (١)

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٧٨

استخدم هنا الشاعر الشرط غير الجازم بحرف الشرط (لو) ولـــو فـــي الشرط تعطي معنى الامتناع للامتناع ، واستخدمها عمارة للمبالغة لأنه وهـــو في إطار إظهار حبه ومدحه للصالح بن رزيك أراد أن يقدم له روحه ويجعلها ملكاً لطلائع ولعلمه بأنه لا يملك هذه الروح فاستخدم حرف الشرط ليعطي هذه الدلالة فلو أنه يملك الروح لبذلها لطلائع ولكنه لا يملكها فاستخدم (لو) .

وهذا ابن قادوس لجأ إلى أسلوب الشرط وهو في معرض هجائه للرشيد بن الزبير وكان أسود اللون فيقول :

إنْ قُلْــتَ مِـــنْ نَـــارٍ خُلِقْــــتَ وَفُقْـتَ كُلَّ النَّـاسِ فِهْمـاَ
قُلْنَا صَـــدَقْتَ فَمــاَ الـــذِي أطْفَـــاكَ حتَّى صِرْتَ فَحَماً ؟ (٢)

اتكأ الشاعر في هذين البيتين على أسلوب الشرط الذى أجـاد اختيـاره ليكون وسيلته في الهجاء الشديد لابن الزبير ، فاعتمد على حرف الشرط (إن) الذي يعطي معنى الشك والتقليل، وجعل جواب الشرط فـي البيـت الثـاني، ويمكن القول بأن الشاعر كان بارعاً حينما تخير أسلوب هجائه أسلوب الشرط لقيمته البلاغية وما يحمله من دلالة .

ومما يمثل ذلك أيضاً قول القاضي الجليس بن الحباب وهو يمدح طبيبه المعالج فيقول :

أُقْسِـمُ أنْ لَوْ طَبَبْـتَ دَهْــراً لَعَادَ كَـــوْناً بِـــلاَ فَسَـــادِ (٣)

أجاد الشاعر استخدام أسلوب الشرط ، وإن كان فيه قـدر كبيـر مـن المبالغة إلا أن الشاعر أجاد استخدام أداة الشرط فلجأ إلى حرف الشرط (لــو) الذي هو عند البلاغيين والنحويين حرف امتنـاع لامتنـاع ، وهـو التمنـي للمستحيل لأن الشاعر هنا يمدح طبيبه الذى يداويه في مرضه الأخير بأنه لو قام بعلاج الدهر (الزمن) لعاد ذلك الدهر عالماً أو كوناً بلا أي أمراض فـلا فساد فيه ولا ظلم .

ومن المعاني التى عبر عنها القاضي الجليس بأسلوب الشرط قوله :

وَلَوْ جادَ بالدُّنْياَ وعَادَ بِضِعْفِهاَ لَظَنَّ مِنْ اسْتِصْغَارِهِ أنَّهُ ضَنَّاَ (٤)

---

١ - ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٠٢
٢ - خريدة القصر – ص ٢٢٩
٣ - المصدر نفسه – ص ١٩٣
٤ - خريدة القصر – ص ١٩٤

اعتمد هنا القاضي الجليس في مدحه على أسلوب الشرط ، وهو يحمل قدراً كبيراً من المبالغة التى لجأ فيها الشاعر لاستخدام حرف الشرط (لو) واصفاً ممدوحه أنه صاحب كرم شديد فلو أنه جاد بالدنيا ثم جاد بضعفها لظن أنه بخيل شديد البخل لأنه يبحث عن كرم أكبر وأكبر . واستخدام الشاعر (لو) أفاد في التعبير عن هذا المعنى .

ومن الأساليب التي لجأ إليها طلائع بن رزيك في التعبير عن المعنى والتي أجاد استخدام الأداة في التعبير عما يريد هو أسلوب الشرط ، فنجد طلائع في إحدى رسائله التي أرسلها إلى صديقه أسامة بن منقذ يلجأ إلى أسلوب الشرط مستخدماً حرف الشرط (إن) وهو عند البلاغيين يعطي معنى الشك والتقليل فنراه يقول :

إنْ يَبْتَسِمْ غَلْطَةً فِي الدَّهْرِ عَاتَبَهُ ... قَلْبٌ مَدَامِعُهُ فِي صَدْرِهِ تَكِفُ [1]

فهو يعبر عن حزنه الشديد وهمه الثقيل الذى يعانيه من تطلعه الدائم لجهاد الفرنج ، ومن بُعد أسامة عنه ومن شوقه الشديد إليه ، فكل هذه الهموم أثقلت قلبه بالحزن الشديد ، فيوضح لنا أنه لشخص إن أخطأ مرة ، وابتسم فسوف يعاتبه قلبه على هذا الابتسام لأن الهموم التى تثقل كاهل هذا القلب كثيرة ، فكيف لصاحبه يبتسم ! لهذا لجأ طلائع إلى حرف الشرط (إن) لأنه يعلم أن الابتسام لصاحب هذا القلب هو من الأمور المستحيلة .

ويستخدم طلائع أسلوب الشرط في مواضع كثيرة من شعره وهو مدركاً تماماً لقيمته البلاغية والدلالية كما أنه يجيد استخدام حروف الشرط بدلالتها المختلفة فنجد أن هناك تنوع بين أدوات الشرط مثل (إذا – وإن – ولو) في مواضع مختلفة من شعره، على أن أكثر حروف الشرط استخداماً في شعره هو حرف الشرط (إن) .

أسلوب الاستفهام :

هو أسلوب له قيمته وأهميته في الأساليب اللغوية ؛ فهو (تخليق باللغة للقلق والحيرة والعجز عن الفهم أو رفض الإقناع ، ومن ثم الافتقار إلى خصيصة التآلف والتكيف إن مع الكون أو مع البشر والكائنين قاطبة) . [2]

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – د. أحمد بدوي – ص ٧٨

٢ – د. صالح اليظى – أثر التشاؤم في شعر ابن الرومي – الإسكندرية – ١٩٨٦م – ص ٣٩٥

فالاستفهام من أكثر الوظائف اللغوية استعمالاً لأن الاتصال الكلامي يكاد يكون حواراً بين مستفهم ومجيب .[1]

ولقد استعان شعراء بلاط بني رزيك بأسلوب الاستفهام في التعبير عن معانيهم المختلفة لإدراكهم لأهمية هذا الأسلوب لما له من قيمة فنية وجمالية عالية في مستوى الشكل والمضمون .

فها هو المهذب بن الزبير استعان بأسلوب الاستفهام للتعبير عن معان متنوعة في مواضع مختلفة من شعره منها قوله وهو في معتقله في سجن الخزانة فيقول :

وَقُولاَ لِضَوْءِ الصُّبْحِ هـل أنت عائدٌ إلى نَظَرِي، أَمْ لاَ أرى بعْدها صُبْحاً؟![2]

هنا أتى الشاعر بأداة الاستفهام (هل) وغرضه منها التمني والرجاء أن يمن الله عليه ويفرج عليه كربته ، ويرى نور الصباح ثانية .

وتتعدد الأغراض التي خرج إليها الاستفهام في استخدام المهذب بن الزبير له ، وتعددت أدواته بما يتناسب ويتوافق والمضمون الذى يعبر عنه المهذب فيستخدم أدوات الاستفهام بخصائص اللغة ومميزاتها .

ويأتي على هذه الشاكلة عمارة اليمني الذى يعد استخدامه لأسلوب الاستفهام يمثل ظاهرة أسلوبية مميزة للتعبير عن أفكاره ومعانيه خاصة في أغراض الشكوى والرثاء والحنين وهي سمة أسلوبية واضحة وضوحاً شديداً من خلال تحليل اللغة في شعر عمارة ، فيبدو لنا اعتماده على أسلوب الاستفهام الذى يجيد توظيفه في التعبير عن حزنه وشكواه .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله :

أَيَحْسَبُ صَرْفُ الدَّهر أنّيَ عاتِبـهُ على مَا أتـىَ مـن زلَّـةٍ وأعاتِبـهُ ؟
ومَا ذا عَسىَ يُجدِي عليَّ عَاتِبه؟ وقد أنْشبت في خلْبِ قلبْي مَخَالبهُ![3]

لقد أتى عمارة في البيت الأول بالهمزة الدالة على الاستفهام وجعلها بداية محور أفكاره ، يرتب فيه الأفكار ويعطف عليه المعاني المتتالية التى تصب كلها في خدمة المعنى الذى يهدف إليه لإدراكه للقيمة البلاغية والدلالية لأسلوب الاستفهام ، فاستخدم في البيت الأول حرف الاستفهام (الهمزة) معطياً

---

١ - د. عبده الراجحى - التطبيق النحوي - دار المعرفة - ص ٢٩٩
٢ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٨٢
٣ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الأول - ص ٢٠٤

دلالة التعجب والنفي والتسليم والإقرار ، بما يأتي به الدهر مؤكـداً المعنـى نفسه في البيت الثاني معتمدا على أداة الاستفهام (ما)، وهذان البيتان يعطيـان المعنى الذى أراد التعبير عنه الشاعر وهو أن الزمن أو الدهر كما عبر عنه لا يمكن لأحد أن يصدّه أو يقف أمام خطوبه فلا يجدى معه عتاب .

ويستعين القاضي الجليس بن الحباب بأسلوب الاستفهام مـدركاً لمـا يضيفه من قيم فنية ودلالة إلى المعنى العام فيقول :

فأيْنَ بَنُو رُزَّيِك عَنْهـــاَ وَنَصْرهُمْ   وَمــاَ لهمُ مِــنْ منْعَـــةِ وزِيَادِ (١)

نجد أن الاستفهام هنا خرج عن معناه الحقيقي في اسـتخدام القاضـي الجليس لهذا البناء الأسلوبي ليوضح معناه، واستخدم أسلوب الاستفهام للحـث وجعل طلائع بن رزيك يهب لنجدة أهل القصر نظراً للفتن التـى كانـت قـد وقعت – وسبق الحديث عنها – فأجاد الشاعر هنا استخدام أسلوب الاسـتفهام لأنه يبحث عن مخلص لأهل القصر من ظلم الوزير المستبد عباس الصنهاجي.

أما أسامة بن منقذ فقد استخدم أسلوب الاستفهام كركيزة لغوية لإضـافة قيم بلاغية ودلالية في شعره نحو قوله في إحدى مدائحه التى بعث بهـا إلـى صديقه الوزير طلائع بن رزيك فيقول :

ماَ خَطَـر السُّلوانُ فـي بَالِي   فَمــا الذَّى أطمـــعَ عُذَّالي (٢)

هنا لجأ الشاعر إلى أسلوب الاستفهام بغـرض التعجـب والاسـتنكار وإظهار الدهشة وهو في مقام توكيده وإثباته لحب طلائع ، فيبدي تعجبه ممـا يقوله العاذلون ويجعلهم يطمعون فيه ويفسدون ما بينه وبين طلائع فلجأ إلـى اسم الاستفهام (ما) كي يعطيه تلك الدلالة البلاغية التى يريدها .

وإذا ما انتقلنا إلى ابن قادوس نجد أنه استعان بأسلوب الاستفهام – أيضاً – وهو في معرض هجائه للرشيد بن الزبير فيقول :

إنْ قُلــتَ مِــنْ نَــارٍ خُلقْــ   ــتَ وَفُقْتَ كـل النــاس فَهْمـاَ
قُلناَ صَدَقْتَ فَمــا الـــذى   أطْفَاكَ حتــى صِرْتَ فَحْماً ؟ (٣)

هنا يهجو الشاعر الرشيد بن الزبير ويتعجب من أنه يفخـر بنفسـه ، ويأتي بأسلوب الاستفهام الذى يجعله جوابا لأسلوب الشرط .

---

١ – خريدة القصر – ص ١٩٠
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٨٨
٣ – خريدة القصر – ص ٢٢٩

ومما يمثل ذلك أيضاً طلائع بن رزيك الذى استعان باسم الاستفهام (كيف) وهو اسم مناسب تماماً في دلالته عن المعنى الذى أراد التعبير عنه في أبياته في باب الحكمة فنراه يقول :

وَكَيْفَ بَقَاءُ عَمْـرِكَ وَهْوَ كَنْزٌ وَقَدْ أَنْفَقْتَ مِنْـهُ بِـلاَ حِسَابِ [١]

فهو يبدى الدهشة والاستنكار من الذى يضيع عمره هباءاً فعمر الإنسان كنز يجب الحفاظ عليه ، ويحرص عليه فلا ينفق منه بلا حساب، ولقد وفق الشاعر هنا في استخدام الأسلوب الإنشائي المتمثل في الاستفهام للتعبير عن معناه .

أسلوب النداء :

النداء هو علامة من علامات (الاتصال) بين الناس والتي وظفها الشعراء للإعلاء من شأن موصوفهم وتبجيله وذلك بتشخيصه وبخطابه بخطاب الحسن والجمال .

فالنداء هو طلب الإقبال وقد يأتي بحرف من حروف النداء نحو (يا) أو (الهمزة) وقد يأتي النداء محذوف الأداة ، وكثيرا ما يخرج عن معناه الذى وضع له فهو من الأساليب النثرية المليئة بالدلالات الموحية المعبرة التي تخدم اللغة .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول المهذب بن الزبير حينما اعتقل في سجن الخزانة فيقول :

أيَا صَاحِبَىْ سِجْنِ الخِزانةِ خَلِّيَا نَسيمَ الصَّبا يُرسِلْ إلى كَبدي نَفْحاَ [٢]

هنا الغرض من النداء التماس الشفقة والعطف وإظهار الحزن الشديد نظراً لأنه كان معتقلاً في سجن الخزانة ، فنادى صاحبى السجن وفي هذا النداء إشعار بهذه المعاناة التى عاناها الشاعر في سجنه وخاصة أنه أشعرنا أنه مثل نبى الله يوسف – عليه السلام – الذى نادى صاحبي السجن في قصته المعروفة .

ويتكرر أسلوب النداء عند المهذب في أكثر من موضع حاملاً بناءاً لغوياً يدور حول غرض المدح والشكوى والاستعطاف .

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – د. أحمد بدوي – ص ٣٩
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٨٢

كما توسل أسامة بن منقذ بأسلوب النداء في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك فيقول :

ياكافِي الْخَلْقِ بالنُّعمَى، وكـافِلهم حتَّى لَقد آمنُوا فـي عدلـه وكُفُـوا
ياكاشف الغُمَّة، اسمع دعوةً كملت شكراً، تظلُّ له الأسماعُ وترتَشِفُ [1]

هنا استحضر أسامة شخص طلائع بأسلوب النداء ؛ حيث استخدم حرف النداء (يا) ليعبر عن صدق مشاعره ورغبة منه في استشعار مدى قربه من ممدوحه مما يشعره بالسعادة والسرور.

ويتكرر أسلوب النداء عند أسامة حتى أنه خرج عن غرضه الحقيقي إلى غرضه البلاغي، فنراه يقول في إحدى رسائله المدحية التى بعث بها إلى طلائع بن رزيك :

أأحْبَابَنا مـذْ أفْـردتنَي منكُـمُ صُروفُ اللَّيالي، أفْرَدتْنِيَ باهِمِ [2]

هنا خرج أسلوب النداء عن غرضه الحقيقي إلى غرضه البلاغي وهو التماس التعزية والتسلية عن فقد المحبين ، فالشاعر شديد الحزن لبعد أحبابه عنه فهو يريد أن يواسيه أحد ، فيستحضر هؤلاء الأحباب بأسلوب النداء باستخدامه حرف النداء (الهمزة) الذى يعطي دلالة للقرب الشديد بأن يكون مواسياً له على فراق أحبابه وهي من الأساليب البلاغية المتميزة عند أسامة .

ويعدُّ أسامة بن منقذ أكثر شعراء بنى رزيك استخداماً للنداء، وأكثر أدوات النداء استخداماً للنداء عنده (الياء) وهي أصل حروف النداء ، وعنده أيضاً (الهمزة) حينما يكون في موضع استحضار للمحبوب والتعبير عن قربه الشديد منه مما يشعره بالسعادة والسرور .

ويأتي على نفس الشاكلة عمارة اليمني حيث يكثر من استخدام أسلوب النداء في المدح لاستحضار شخص الممدوح نحو قوله في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك فيقول:

ياحارِسَ الـدِّين الـذِّى لَـمْ يَـسرْ سَـيْرَ ثَنـاه المَثَـلُ السـَّائرُ
يَـامَنْ غَـدا بالمَجْـد مُـستأثراً ولـيس بالنعْمـة يَـستَأثِرُ
ياسَابِقاً لا يُّدعـى سَابِـق مَـدْح مَعالِيـهِ ولا حَاضِـرُ [3]

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٣٤
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٤٨
٣ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٥٢٠

حرص هنا عمارة على استخدام أسلوب النداء باستحضار المنادى وفي هذا قدر كبير من التقدير والإجلال لممدوحه ، وهو طلائع بن رزيك خالعـ عليه كل أسلوب من أساليب المجد والسيادة والشرف ، لذلك حـرص علـى تكرار حرف النداء (يا) وهو أصل حروف النداء.

وينتهج النهج ذاته القاضي الجليس بن الحباب الذى وظف أسلوب النداء في شعره توظيفاً جيداً عند مدحه لطبيب كان يداويه في مرضه الأخير فيقول:

يَاوَارِثـــاً عَــنْ أبٍ وَجَـــدٍّ فَـضِيلةَ الطِّـبِّ والسَّـدَادِ
وكَامِـــلاً ردَّ كـلَّ نَفْــسٍ هَمَّتْ عـن الجِسْمِ بالبِعَادِ (١)

جاء النداء حاملاً معنى المدح – أيضاً – بأنه طبيب ورث عـن آبائـه وأجداده التمكن في الطب والسداد فيه ، وقد كرر الشاعر أسلوب النـداء فـي البيت الذى يليه مستمراً في مدحه والثناء عليه ، وقد أجاد الشاعر هنا توظيف أسلوب النداء .

أما طلائع بن رزيك فيكثر في شعره استخدام أسلوب النداء وأكثر مـن حرف النداء (يا) وهو حرف النداء الأصلي عند علماء البلاغـة وهـو نـداء للقريب والبعيد، ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله في قصيدة شاكياً من الدهر :

يَادَهْرُ، حَسْبُكَ مَـا فَعَلْتَ بِنَا أَتُـرَاكَ تَطْلُـبُ عِنْدَنَا إحَنَا (٢)

فطلائع يخاطب الدهر معاتباً إياه راجياً منه أن يكف عن أفعاله بنا كـي لا يكرهه الناس أو يحقد عليه الناس نظراً لأفعاله ، فاستخدم الشاعر حـرف النداء (يا) فهو وسيلة تجسيد للدهر، ومعبراً عن معناه الذى يريده.

أسلوب الأمر:

الغرض الأصلي الذى وضع له الأمر هو طلب حـصول الفعـل مـن المخاطب إلا أنه قد يخرج عن هذا الغرض إلى أغراض إيحائية أخرى .

فمما يمثل هذا قول المهذب بن الزبير في إحدى قـصائده ، مـستخدماً أسلوب الأمر لإبراز المعنى فتراه يقول :

فَقُلْ للِيَالِي بَعْدَ مَـا صَنَعَتْ بِنَا : ألا هكَذا فَلْيَسْلُبِ المَجدَ سَالِبُه ؟! (٣)

---

١ – خريدة القصر – ص ١٩٣
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوي – ص ٤٣
٣ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٧٨

وهنا خرج الشاعر عن غرضه الأساسي أو الحقيقي إلى غرض الرثاء وإظهار الحزن والأسى لفقد هذا المرثى مستعيناً بأسلوب الأمر الذى وضح المعنى وأثراه بتوجيه الأمر إلى الليالي التى هي أحد أجناد الدهر في صنيعه بالناس .

واستخدم عمارة اليمني أسلوب الأمر كثيراً للتعبير عن معان متنوعة في شعره ومن الأمثلة الدالة على ذلك هجاؤه لشخص يدعى (ابن دخان) مستخدما أسلوب الأمر في ثمانية أبيات مطلعها:

قُلْ لابن دخَّانَ إذاَ جئتَهُ وَوَجْهُهُ ينْدى مِنَ القَرْقفِ (١)

نجد عمارة في تلك القصيدة التي يهجو فيها ذلك المهجو يعتمد اعتماداً كلياً في بناء القصيدة على أسلوب الأمر الذي يحمل السخرية والاستهزاء والتقليل من شأن المهجو ومنها قوله :

فاكْسَبْ وحَصِّلْ وادَّخِرْ واكْتَنِزْ واسرقْ وخُنْ وابطشْ وخذ واخْطِفِ (٢)

هنا اعتمد الشاعر على استخدام أسلوب الأمر بشكل واضح ووظّفه توظيفاً بلاغياً دلالياً جيداً.

كما لجأ الجليس بن الحباب لأسلوب الأمر ونراه يخرج عن غرضه الحقيقي وهو الفخر إلى غرض بلاغي يهدف من ورائه الشاعر إلى معنى الرجاء أو الالتماس أو الطلب فيقول :

خُذْهاَ إِليكَ بِماَءِ الطّبعِ قَدْ شرِقَتْ لَوْ مَازَجَ البَحْرَ مِنْهاَ لَفْظَةٌ عَذُباَ (٣)

هنا يطلب الشاعر من ممدوحه راجياً أن يقبل منه قصيدته التى يمدحه بها، ثم يبدأ في الفخر بأبياته التى يمدح بها ممدوحه فلم يجد سوى لفظة (خذها إليك) على سبيل الرجاء أو الالتماس والإغراء.

وهذا الأسلوب الذى يحمل معنى الاستدعاء والطلب يدل على مهارة وقدرة لغوية أعانت القاضي الجليس في التنويع في استخدام الأساليب للتعبير عن معانيه وأفكاره .

وهذا ابن قادوس يستعين بأسلوب الأمر في شعره فنراه يقول :

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٠٠
٢ – المصدر نفسه
٣ – خريدة القصر – ص ١٩٧

أبــــنُ فُــــلانٍ رَجُـــلٌ صـــالِحٌ فَــــامتَحِنوهُ واقبَلــــوا رَأيِــــي
ارمُوهُ فــي البَحرِ لِكـــي تَنظُروا فَإنَّـــهُ يَمشي علَـــى الماءِ [1]

يسخر الشاعر من رجل صالح أو يدعى أنه صالح ، فيلجأ إلى أسـلوب الأمر كي يمعن في سخريته فيطلب من مخاطبيه أن يمتحنـوا صـلاح هـذا الرجل، ويقبلوا برأيه وأن يرموا به في البحر كي يثبت صدق صـلاح ذلـك الرجل ، فاعتمد الشاعر في هذين البيتين على أسلوب الأمر الذى يحمل قـدراً كبيراً من السخرية والاستهزاء .

فإذا ما انتقلنا إلى أسامة بن منقذ نجد أنه استعان بأسلوب الأمر في كثير من مواضع مختلفة في شعره ، واستطاع في براعة أن ينوع في الأغـراض الشعرية كل على حسب أفكاره ومعانيه ومن أمثلة ذلك قوله :

أَجِبْ دَوَاعِي الهَوىَ بِالأدمـعُ السُّجُمُ وبُح ، فَماَ الحبُّ في حَالٍ بِمكتَتَمِ [2]

هنا استخدم الشاعر أسلوب الأمر وغرضه النصح والإرشاد وهو فـي مقام الغزل فينصح فيه العاشق أن يستجيب للهوى ، فهو يبوح به لأن صعب على الإنسان أن يكتم أمر هذا الحب فلجأ الشاعر هنا إلى أسلوب يحمل الرجاء والنصيحة ، فوجد الأمر ملائماً فلجأ إليه كأسلوب إنشائي.

وهناك ظاهرة أسلوبية ترتبط بأسلوب الأمر عند أسامة هي أنه يكثر من استخدام أسلوب الأمر خاصة في مراسلاته مع طلائع بن رزيك وفي إخوانياته كما أنه يكثر من استخدام أسلوب يندرج تحت أسلوب الأمر ، وهو حينما يريد التخلص من غرض إلى غرض فيقول (دع ذا) وهي ظاهرة أسلوبية متكـررة في شعر أسامة بن منقذ .

فمما يمثل ذلك قوله في إحدى قصائده التى بعث بها إلى طلائـع بـن رزيك فيقول :

دَعْ ذَا ، وقُلْ لِبنَي الآمَالِ: قَد وَضَحتَ لَكُم سَبِيلُ الأَمانِي وانجلَى الأَسفُ [3]

كما أن أسامة لديه سمة أسلوبية أخرى ترتبط أيضاً بأسـلوب الأمـر ، وهو خاص بالحوار فأسامة كثير اللجوء إلى الحوار في شعره وهـي سـمة مميزة أيضاً لشعر أسامة .

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢٣٣
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٩٤
٣ – المصدر نفسه – ص ٢٣٣

وهذا طلائع بن رزيك يلجأ إلى أسلوب الأمر في شعره نحو قوله في قصيدته التى بعث بها إلى عمارة اليمني ليحثه على الدخول في المذهب الشيعي فيقول له :

قُلْ للفَقيهِ عُمارَةَ: ياخَيْرَ مَنْ   أضْحَى يُؤَلِّفُ خُطْبَةً وخطابَا
اقْبَلْ نَصيحَةَ مَنْ دَعَاكَ إلى الهُدَى   قُلْ: حطةٌ ، وادْخُلْ إلَيْنَا البَابَا (١)

هنا لجأ طلائع إلى أسلوب الأمر للترغيب نظراً لأنه كان يرغب في جعل عمارة اليمني وهو شاعر كبير في تلك الفترة الزمنية ، أن يدخل في مذهبه الشيعي ويكون بوقاً كبيراً مناصراً للشيعة والفاطميين ، وفي هذه الأبيات كان قد أرسل إليه هدية وهي ثلاثة أكياس ذهباً داعياً إياه للدخول في الباب – ويقصد بالباب هنا باب المذهب الشيعي – فلجأ طلائع إلى أسلوب الأمر معتمداً فيه على الترغيب وحث عمارة على الدخول إلى مذهبه الديني .

ويكثر طلائع من استخدام أسلوب الأمر الذى يعطي معنى الالتماس والرجاء والتمني خاصة في خطابه مع أسامة بن منقذ ، والذي يحاول فيه أن يجعله وسطاً بينه وبين صاحب الشام نور الدين محمود ، كي يحثه على التجهيز لمحاربة الفرنجة وإقامة الوحدة بين مصر والشام للوقوف جنباً إلى جنب ضد هذا العدوان الصليبي، والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة ومتنوعة ومن هذا قوله في إحدى رسائله التى بعث بها إلى أسامة :

فَانْهَضْ الآنَ مُسرعاً ، فَبِأَ   مْثَالِكَ مَازَالَ يُدْرَكُ المَطْلُوبُ
وَالْقِ عنَّا رسَالَةً عندَ نُور الدِّ   ينِ، مَا فِي إلْقائِهَا مَا يَرِيبُ
قُلْ لَهُ دَمَ مُلْكُهُ ، وَعَلَيْهِ   مِنْ لِباسِ الإِقْبالِ بُرْدٌ قَشِيبُ (٢)

وقوله في رسالة (قصيدة) أخرى :

فَابْلُغَنْ قَوْلَنَا إلَى المَلِكَ العَادِ   لِ ، فَهُوَ المَرْجُوُّ وَالمَأْمُولُ
قُلْ لَهُ: كَمْ تُمَاطِلُ الدِّينَ فِي الكُـ   ـفَّارِ، فَاحْذَرْ أنْ يَغْضَبَ الممطُولُ (٣)

وغير هذا في كثير من مراسلات طلائع مع أسامة .

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – د. أحمد بدوي – ص ٤٥
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – د. أحمد بدوي – ص ٦١ ، ص٦٢
٣ – المصدر نفسه – ص ٨٧

أسلوب النهي :

من الأساليب الطلبية التى أجاد الشعراء توظيفها لما يمتاز به هذا الأسلوب من طابع النصح والتوجيه في بعض الأحيان . [1]

وللنهي صيغة واحدة هي المضارع المقرون بلا الناهية الجازمة ، ويأتي في القرآن الكريم على سبيل التحريم .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك المهذب بن الزبير الذى لجأ إلى أسلوب النهي في شعره فنراه يقول :

لاَ تَطْمَعَنْ فيَّ أَرْضٌ أَنْ أُقِيمَ بِهــاَ فَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ الأَرْضِ مِنْ نَسَبِ [2]

استعان الشاعر هنا بأسلوب النهي ليبرز غرضه، وهو إظهار العزة والفخر والشعور بالقدرة الأدبية العالية التي ليس لها سبيل من الآخرين.

وقد استخدم عمارة اليمني أسلوب النهي في إحدى قصائده المدحية التي مدح بها الإمام العاضد ووزيره طلائع بن رزيك فنراه يقول:

لاَ تَغْتَرِر بِبَشَاشَـــةٍ مِنْ بَشْـــرِه فَالسَيف يَلْمَـــع والرَّدى فِي حَدِه [3]

صاغ عمارة هذا البيت وهو معتمد على أسلوب النهي الذى يحمل النصيحة المتمثلة في قوله لمخاطبه أن لا يأمن جانب ذلك الممدوح لأنه حاسم قاطع حتى ولو أظهر بشاشة وسماحة، وهذا البيت يذكرنا ببيت المتنبي الذى يقول فيه :

إِذاَ رأيـــتَ نُيُوب الليَّــث بــاَرِزَةً فَلَا تَظُنَنَ أَنَّ الليَـــثَ يَبْتَــسِمِ

فإذا ما انتقلنا إلى ابن قادوس نجد أنه توسل بأسلوب النهي وهو يصف الخمر ومجلسها وما تحدثه في شاربيها فنراه يقول :

تُجْلى عَلَيْنَا بِاَسِمـــاَ ثَغْرُهـــاَ فــــلاَ تُقَابِلْهـــاَ بِتَعْبِيسِ [4]

يلجأ الشاعر هنا لأسلوب النهي ليوضح المعنى الذى يريده ، وهو أنه إذا قابل الخمر ويقصد هنا (مخاطبه) أن يقابلها مبتسماً وينهاه أن يقابلها عابساً وجهه .

---

١ – د. يوسف أبو العدوس – البلاغة الأسلوبية – ص ٦١
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٨٠
٣ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٣٤٣
٤ – خريدة القصر – ص ٢٢٧

وهذا الأسلوب من الأساليب البلاغية الطريفة التى تتناسب وشخصية ابن قادوس التى اشتهر عنها الطرفة والفكاهة.

ويكثر طلائع بن رزيك من استخدام أسلوب النهي خاصة في قصائده التى مدح فيها آل البيت وتحدث عن مناقبهم وفضائلهم ، فمن الأمثلة الدالة على ذلك قوله وهو في إطار دفاعه عن حبه الشديد لهم، يخاطب طلائع - ذلك الشاعر المذهبي - يخاطب من يلومه في حب آل البيت فيقول:

لاَ تَعْذِلَنِى اَنَنِى لاَ أَقْتَفِى سبْلَ الضَلاَلِ لِقَوْلِ كل عَذُولِ [(١)]

فلجأ هنا الشاعر لأسلوب النهي طالباً منـ على سبيل الرجاء والالتماس والحسم أنه محب شديد الحب للعترة الطاهرة - عليهم السلام - ولن يثنيه عن ذلك الحب لوم أو عزل موضحاً أن ذلك الحب هو سبيل الهدى وغيره هو سبيل الضلال لذلك هو لن يقتفي سبيل الضلال ولن يسمح لقول أى عذول.

ومما يمثل ذلك أيضاً - القاضي الجليس بن الحباب الذى استعان بأسلوب النهي الوحيد في شعره الذى بين أيدينا فيقول:

لاَ تعْجَبِي مِنْ صَدِّهِ ونِفَارِهِ لَوْلاَ الْمَشِيبُ لَكُنت مِنْ زُوَّارِهِ [(٢)]

لجأ الشاعر لأسلوب النهي ، وهو أسلوب واضح وصريح ولكن الغرض منه هنا الرجاء والتماس النصيحة لأنه يناسب غرض الشكوى والحكمة التى يلتمسها الشاعر من توالي السنين ومرور الأيام لأنه يقول هذه الأبيات وقد أناف على السبعين من عمره .

التراث واللغة :

لقد اهتم النقاد بالحديث [(٣)] عن ضرورة تسلح الأديب بمختلف ألوان الثقافة ، وكثرت أحاديثهم عن صنوف هذه الثقافات التي ينبغي أن يتزود بها الأديب والتي يمكن تلخيصها في:

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك - محمد هادي الأميني - ص ١١٠.
٢ - خريدة القصر - ص ١٨٩.
٣ - للوقوف على اهتمام النقاد بهذه الثقافة ووجوب توافرها عند الأديب راجع:
- ابن قتيبة - أدب الكاتب شرحه وضبطه وقدم له - على فاعور - دار الكتب العلمية
- بيروت - لبنان - من ص ٦ إلى ص ١٩.
- ابن الأثير - المثل السائر - الجزء الأول - من ص ٣٨ إلى ص ٤١.
- ابن طباطبا - عيار الشعر - ص ١٠.
- أبو هلال العسكري - الصناعتين - ص ١١٥.

ضرور التسلح بالثقافة العربية والإسلامية والتاريخية والإلمام بالأصول العامة لصناعة الأدب والوقوف على مذاهب الأدباء .

واستعانة الأديب في إبداع أدبه بتوظيف التراث سواء كان هذا التراث من البيان القرآني أم من الشعر أم من خلال الأمثال والحكم ، إنما هو توظيف لمؤثر لغوي أو مؤثر أسلوبي يعطي دلالة تضيف إلى المعنى العام للنص مع ما ينفرد به الموروث الديني من قداسة وامتياز مع التسليم لقيمته الاحتجاجية التى لا تطاولها قيمة .

(وفي العادة يكون المختار لتضمينه أو الاقتباس منه آية من آيات البلاغة لما فيه من اختيار لفظٍ أو قوة معنىً ، ولقد بلغ من النفوس مبلغاً من الإعجاب صلح معه أن يجريَ على ألسنتهم ويصبح مثلاً سائراً جديراً بالإعادة والتكرار أو يكون ذلك من الأدباء على سبيل التملح والتظرف، كما يبدو في استخدام مصطلحات العلوم والفنون . وفي هذا دليل واضح على مهارة الأديب وسعة ثقافته وفره اطلاعه) . [١]

وعلى ذلك نستطيع أن نقول بأن توظيف التراث بأنماطه وأشكاله المختلفة يعتمد اعتماداً كلياً على ثقافة الأديب وسعة معرفته ويتوقف على عمق هذه الثقافة وتنوعها ويأتي توظيف هذا الموروث على صور متعددة منه كما عرضنا توظيف التراث الديني المتمثل في القرآن الكريم، والحديث النبوي ، وتوظيف الموروث التاريخي بما فيه من تاريخ أدبي أو تاريخ للشخصيات أو الأحداث أو الدول ، وتوظيف لبعض الأمثال والحكم.

وبدراسة الشعر في بلاط بنى رزيك نجد أن هؤلاء الشعراء حرصوا حرصاً بالغاً على الإفادة من التراث بكل صوره وأنماطه وأفادوا من توظيفه إفادة كبيرة بما أعطي لمعانيهم دلالة تتضاف إلى المعنى العام للنص . وسوف يعرض البحث لهذا بشئ من التفصيل:

أ- الموروث الديني:

يعد التراث الديني والثقافة الإسلامية معيناً لا ينضب للشاعر كي يستخدمه ويوظفه في شعره، وكان من أهم المؤثرات التى طبعت شعر شعراء بنى رزيك بطابع مميز ، ويعد تأثر هؤلاء الشعراء بهذه الحياة صورة لتأثر

---

١ - د. بدوي طبانة – كتاب السرقات الأدبية – دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة الطبعة الرابعة – ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م – ص ١٦٨.

المجتمع الأدبي في ذلك العصر بهذه الحياة الدينيــة، فلقــد حــرص هــؤلاء الشعراء على الإفادة من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبويــة الــشريفة، وجاء هذا التأثر على صورة متعددة إما بالاستشهاد عن طريــق الإلمــاح أو الإيماء دون استشهاد قرآني صريح، وقد يستخدم الشاعر كلمة واحدة تشير إلى نصوص قرآنية أو قصة لنبي من الأنبياء.

وبدراسة شعر شعراء بنى رزيك يتبين لنا أنهم قد أفادوا إفادة كاملة من ذلك التراث الديني، فكان الموروث الديني رافداً مهماً من الروافد التي أسهمت في التعبير عن المعاني المختلفة وتشكيل الصور البلاغية.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول طلائع بن رزيك الذى تأثر تأثراً كبيراً بموروثه الديني فأفاد منه في مواضع كثيرة منها قصائده المدحية في آل البيت والعترة الطاهرة، فأجاد صياغة هذا الموروث الديني وتوظيفه في شعره بمــا يتناسب مع المعنى الذى يريده فنراه يقول:

مَا قَالَ قدما: أعدوا مَا استَطَاع لــه ... اولاء للقوم مِنْ خَيل وَمِــنْ خُــول
ولَــو تولاهـــم الأدبار إن زَحفوُا ... يــوماً فرار الى الأستار والكللِ (١)

فالبيت الأول إشارة صريحة واضحة إلى الآية الكريمة " وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا استَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ " . (٢)

والبيت الثاني أيضاً استشهاد صريح بقوله تعالى " يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ " (٣)

ولقد أجاد طلائع توظيف المعنى القرآني في هذا الموضع الذى يتناسب وحثه على الجهاد ضد الفرنج فيفيد من آيات القرآن وما تحمله من هالة قدسية تقوى المعنى وتوضحه.

وله في موضع آخر من قصيدة مدحية رائعة خص بها عترة الرســول الأعظم صلى الله عليه وسلم – مشيداً بما أعده الله للمؤمنين فــي دار النعــيم فيقول:

إن الأبْــرارَ يَــشرَبُونَ بِكَــأْس ... كَــاَن حَقــاً مِزَاجُهـــاَ كَــافُورَا
ولَهَــمُ أنــشأ المهــيمنُ عَيِنــا ... فَجَرَوُهـــاَ – عِبَــادَة تَفْجِيــرَا

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادي الأميني – ص ١١٨
٢ – سورة الأنفال – الآية رقم ٦٠
٣ – سورة الأنفال – الآية رقم ١٥

وهَــداهم وقَــال يُوفــونَ بالنـــذْ ... ر فَمــنْ مــثْلهُمْ يُــوفى النُــذورُا
ويَخَــافون يَعْــدَ ذلــكَ يَومْــاً ... هَــائلاَ كَــانَ شَــرُه مُــسْتَطيرا
يطْعمُـــونَ الطَعـــامَ ذَا اليَتــيمِ ... والمسْكين في حُبِّ رَبِّهم والأَســيرا
إِننَــا نطعْــم الطَعــامَ لوَجْــه الله ... لاَ نبتَغِـــي لـــدَيْكمْ شـــكوُرَا
ويَحلــوَنَ بالأَســاوَر فِيهـــاً ... وَسَــقاهُمْ ربهُــمُ شـرَاباً طَهَــورَا
وعلَــيهم ثِيــاَب مــنْ الــسّنْدسِ ... خــضَر فــي الخُلــدْ تَلمــع نــوُراَ
أَنْ هَذاَ لَكُمْ جَــزاَءٌ مِـــنَ اللهِ ... وَقَـــدْ كاَنَ سَعْيُكمْ مَشْكُـــورَا (١)

هنا اقتباس تام لسورة الإنسان ويخص طلائع آل بيت الرسول بأنهم هم الأبرار الذين ينتظرهم هذا الثواب في الآخرة وأنهم هم الذين امتثلوا لأوامــر الله في الدنيا، هم ومن تبعهم وناصرهم فكان هذا الجزاء في الآخرة من نعيم.

ولقد عبر طلائع عن معاني هذه الصورة القرآنية في أكثر من موضــع في شعره منه قوله:

إِذْ جَـــاءهم ســـائِل يَتـــيم ... وَجــاءَ مِــنْ بَعْــده أسِــير
لَخَـــافهم فـــي المعَـــادِ يَـــوْم ... مُعْظَـــم الهـــولِ قَمطَرِيـــر
فَقَـــد وقَـــوا شَـــرَّ مـــا اتقـــوا ... وَصَـــار عقَـــابُهم الـــسرُوُر
فـــي جَنَّـــةَ لا يَـــرَون فيهـــا ... شَمْـــساً وَلاَثـــم زَمْهَرِيـــر
يَطُـــوف وِلْـــدانهم علـــيهم ... كـــأنهم لُؤلـــؤ نثِيـــر
لبِاسُـــهم فـــي جنـــانِ عَـــدْنِ ... سُنْدُسُـــهاَ الأخَـــضر الحرِيـــر
جَزاهـــم ربُهـــــم بِهَـــذا ... وَهُـــو لمـــاَ قَدْ سَعُوا شَكُورَا (٢)

وله في المعنى أيضاً قوله:

وَالله أثنَـــــى عَلَـــيهمْ ... ولَمـــاَ وَفُـــوا بالنُـــذُورِ
وَخَـــصهُمْ وَحَبـــاهُمْ ... بِجنُــــةَ وَحَرِيــــرِ
لاَ يَعْرِفُـــون بـــشَمْس ... فِيهـــا ولاَ زَمْهَرِيـــرِ
يَسقَـــون كَأسَاَ رَحـــيقاَ ... مَزِيجَـــه الكافُـــور (٣)

كما أفاد طلائع من آيات القرآن الكريم في دعوته لعمارة اليمني في أن يعتنق المذهب الشيعي فيقول:

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق محمد هادى الأميني - ص ٧٨
٢ - المصدر نفسه - ص ٨٠
٣ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق محمد هادى الأميني - ص ٥٨

قلْ للفقيـه عمَـارة: يـاخَيْرَ مَـنْ ... أضْـحيَ يؤلِّـفُ خطْبَـةً وخطابـا
اقبلْ نصيحةً مَنْ دعَاكَ إلى الهُـدىَ ... قلْ: حطةٌ وادخُـلْ إليْنَا البابَـا [١]

فالشطرة الثانية من البيت هو إشارة إلى الآية الكريمة (**وقولوا حطة وادخلوا الباب**[٢]) وهنا المقصود بالباب هو اعتناق المذهب الشيعي والذي يجب على عمارة أن يسلم له ويعتنقه.

وإذا ما انتقلنا إلى المهذب بن الزبير نجد شعره ينم عن ثقافة دينية غزيرة ووفرة لمحفوظه من القرآن الكريم ، ويبدو هذا لمن يطالع شعره ، ومن أمثلة ذلك قوله :

وكلُّ بَيْضاءَ لو مَسَّتْ أنَامُلهـا ... قَميصَ يُوسـفَ يَوماً قُدَّ مِـنْ قُبُلِ [٣]

هنا اقتبس الشاعر المعنى الذى أراده من الآية الكريمة " **قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ** " [٤]

وله في موضع آخر من شعره يقول :

مالُـهُ مـن فَتْـكِ راحَتِـه ... كَأعاديـه علَـى وَجَـلِ
أبـداً تتلـو مواهِبُهُ ... (خُلِق الإنسَـانُ مـن عَجَلِ) [٥]

هنا استشهد بقوله تعالى " **خُلِقَ الْإِنسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ** " [٦] في الشطرة الثانية من البيت الثاني، وقد أجاد الشاعر صياغته وتوظيف المعنى الذى أراد التعبير عنه وهو تصوير سرعة عطاء ممدوحه وكثرته ويقصد هنا (طلائع بن رزيك) .

كما استوحى المهذب معانيه من حكاية موسى عليه السلام مخاطباً سحرة فرعون وذلك في قوله :

---

١ - المصدر نفسه - ص ٥٨
٢ - سورة الأعراف الآية رقم ١٦١
٣ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢١١
٤ - سورة يوسف - الآية رقم ٢٦
٥ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢١٥
٦ - سورة الأنبياء - الآية رقم ٣٧

وذى هيف يُدْعي بموسى، بطرفه بَقيَةُ سحر تأخذُ العينَ والسَمعا
وحَياته أصداغهُ ، وعِذارُهُ يُخَيلُ لي في وَجْهه أنّها تسعَى [1]

فلقد استوحى معانيه من الآية الكريمة " **قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى** " [2]

فأفاد المهذب من هذه القصة الموسوية ولقائه بسحرة فرعون إفادة كبيرة في التعبير عن المعنى الذى أراده في هذين البيتين ، فربط هنا ربطاً بديعاً بين هذا الغلام الذى يدعي موسى وما يتميز به من بهاء وحسن يسحر العين والسمع ، وبين سحرة فرعون حين ألقوا ما بأيديهم من حبال وعصى فخيلت لمن يرى بأنها حيَّات تسعى ، والهدف من وراء هذا هو إظهار حسن موسى الغلام ، وبهائه ومدى تأثير هذا الحسن على الناظرين وكأنه السحر .

ونجد مثل هذه الإفادة من الموروث الديني عند الجليس بن الحباب الذى يقول : وقد رسم صورة الذعر التى دبت في قصر الخلافة إثر مقتل الخليفة الظافر فيقول:

وَقَدْ كَادَ أَنْ يُطْفِي تَأَلُّق نُوره عَلَى الْحقِّ عادٍ مِنْ بغته عَادِ [3]

فهنا اقتباس من الآية الكريمة " **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** " [4]

فهو هنا يرسم صورة للخارجين الذين قتلوا الخليفة الظافر ، وما أرادوه وأبى الله أن يتم لهم ما أرادوه ، فهب طلائع لنصر آل البيت الفاطمي والخلافة في مصر .

وله في موضع آخر من شعره قوله :

وَشَانَ قرينَه لمَا أَتَاهُ كَمَا قَدْ شَانَ أسرته قُدَارُ [5]

هنا إشارة واضحة إلى قوم سيدنا صالح عليه السلام الذين عقروا ناقته وكان عاقرها وهو (قدار بن سالف) فجلب على قومه الخراب والدمار ، وفيها

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٠٠
٢ – سورة طه ، الآية رقم ٦٦
٣ – النجوم الزاهرة – ج٥ – ص ٢٩٢
٤ – سورة التوبة ، الآية رقم ٣٢
٥ – خريدة القصر – ج١ – ص ١٩٢

يستمد قوله تعالى : " فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّه نَاقَةَ اللَّـه وَسُـقْيَاهَا * فَكَـذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا " (١)

ومن ذلك أيضاً قوله :

أَعَدْتَ إِلى جِسمْ الـوِزَارة رُوحَـهُ ... وَمَاَ كَانَ يُرْجَي بَعثُهـا ونُـشُورُهَا
أَقَامَتْ زماناً عِنـد غـيرك طامثاً ... وَهـــذا أوانُ قُرئها وطهورُهــا (٢)

فهنا استخدم كلمات ذات أصل ديني مثل (بعث ، نشور ، قرء، طهور) فهي مستمدة من الآية الكريمة " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ " (٣)

وأيضاً من الآية الكريمة : " وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُـرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُـنَّ مِثْـلُ الَّـذِي عَلَـيْهِنَّ بِـالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَـالِ عَلَـيْهِنَّ دَرَجَـةٌ وَاللَّـهُ عَزِيـزٌ حَكُيمٌ " (٤)

وقوله :

وَحَـاذِرُوا أَسْهُـمَ أَجْفَانَــــه ... فَسِحْـرُ ذاَ النَابِلِ مِنْ بَابِلِ (٥)

هنا اعتمد الشاعر على موروثه الديني القرآني لبيان شدة السحر فـأتى بما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى : " وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَـدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ " (٦)

---

١ – سورة الشمس – آية رقم ١٣ ، رقم ١٤
٢ – خريدة القصر – ص ١٩٣
٣ – سورة البقرة ، الآية رقم ٢٢٢
٤ – سورة البقرة – الآية رقم ٢٢٨
٥ – خريدة القصر – ص ١٩٥
٦ – سورة البقرة ، الآية رقم ١٠٢

فسحر ذا النابل من بابل هو سحر بابلي يضرب به المثل في السحر إذا كان سحراً قوياً.

ومن ذلك قوله :

وَقد أشبهتْ نَارَ الخليلِ لأنَّهـــا حكتْهـــاَ لنَاَ فِي بَرْدِهاَ وسَلاَمِهاَ [1]

فهنا أفاد الشاعر إفادة واضحة مما جاء في قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام والتي يقول فيها المولى عز وجل : " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَـــرْدًا وَسَـــلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ " [2]

ويأتي على هذه الشاكلة عمارة اليمني معتمداً على موروثه الديني في قوله:

كَأنَّهـــم فَـــوقَهاَ خُشْب مَسنَدَةٌ إنَّ النِّفاَق لَمنْسوب إلَى الخَشَبِ [3]

فهو هنا يستعين بقوله تعالى : " وَإِذَا رَأَيْـــتَهُمْ تُعْجِبُـــكَ أَجْـــسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ " [4]

وله في موضع آخر من شعره قوله :

علَى أمْ مِنْ لاَ يَعْتَنِي بِحوَائِجِـــي الَّتِى يُرْكِبْنَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ [5]

فأراد هنا الشاعر بالتي تركب الخيل والبغال والحمير المذكورة في الآية الكريمة: " وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" [6]

وهو اقتباس بديع وإشارة طريفة أفاد فيها الشاعر من موروثه الـــديني ومحفوظه القرآني .

وهذا ابن قلاقس نراه يستشهد بآيات القرآن الكريم في قوله :

ياقَلْـــبُ تُـــبْ واسْـــألِ المُهـــيمن أنْ يَغْفر مَاَ قَـــدْ مَـــضَى وَقُـــلْ حطَّـــة
والجَأ إلى الحافـــظِ الإمامِ ومَـــنْ قَدْ زِيدَ فِي العِلْمِ وَالعُلَـــى بَسْطَةَ [7]

---

١ – خريدة القصر – ص ١٩٨
٢ – سورة الأنبياء ، الآية رقم ٦٩
٣ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ١٣٣
٤ – سورة المنافقون ، الآية رقم ٤
٥ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٨٥٠
٦ – سورة النحل – الآية رقم ٨
٧ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٨٠

فقد اقتبس الشاعر الشطرة الثانية من البيت الأول من قوله تعالى : **"وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ "** (١)

أما الشطرة الثانية من البيت الثاني فقد اقتبسها من الآية الكريمة : **" قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ "** (٢)

وله في موضع آخر من شعره قوله :

يَقِظٌ أَضَاءَ بِقَلْبِهِ نُورَ الْهُــــدى   فَكَأَنَّــــه النِّبراسُ فِي مِشْكَاتِه (٣)

أفاد الشاعر من محفوظه القرآني في مقام المديح للإمام الحافظ السلفي حيث جعل نوره مثل النور الذي يضرب به المثل في الآية الكريمة : **" مَثَــلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَــبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ "** (٤)

ومن الواضح أن الشاعر حينما يلجأ إلى الموروث الديني وخاصة القرآن الكريم فهذا يكون لإكساب المعنى قيمة وقدرة وهالة قدسية مستمدة من المعاني القرآنية ومستمدة أيضاً من قدر القرآن وقيمته في نفوس المسلمين وما للقرآن من إعجاز بلاغي ومعنوي ودلالي ، فيحاول الشاعر الإفادة من هذا كله في توظيفه لبعض هذه الآيات في التعبير عن المعاني التي يريدها.

وإذا ما انتقلنا إلى ابن قادوس نجد أنه اعتمد أيضاً على موروثه الديني في توضيح بعض معانيه التي أرادها في شعره نحو قوله :

كَأَنَّـــــه الســـــدَّ الذَّى بَيْننَا   وَبَيْنَ يأجــــوجٍ ومَأْجُـــوج (٥)

فهنا إشارة إلى الآية الكريمة : **" قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا"**(٦)

وقوله في موضع آخر :

إِنْ قُلــتَ مَــنْ نَــارٍ خُلِقْـــ   ــتَ وفُقْــتَ كُــلَ النَّــاسِ فَهمَــا
قُلْنَا صدقـــــتَ فَمَا الــــذى   أَطْفَــاكَ حتَّى صِــرْتَ فَحْماً ؟ (١)

---

١ – سورة البقرة ، الآية رقم ٥٨
٢ – سورة البقرة ، الآية رقم ٢٤٧
٣ – ديوان ابن قلاقس – ص ٥٩٨
٤ – سورة النور ، الآية رقم ٣٥
٥ – خريدة القصر – ص ٢٣٤
٦ – سورة الكهف ، الآية رقم ٩٤

في هذين البيتين اللذين جاءا في الهجاء نجد أن ابن قادوس قد أفاد من قصة إبليس مع المولى عز وجل حين أبى السجود لآدم متعللاً بأنه خير من آدم عليه السلام – لأنه قد خلق من نار وآدم قد خلق من طين .

فيأتي ابن قادوس ويوظف هذه القصة في هجائه للرشيد بن الزبير بما يعطيه قيمة بلاغية ذات دلالة بالغة في التعبير عن معناه وذلك إفادة من قوله تعالى : " **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** " (٢)

ومما يمثل ذلك أيضاً – قول ابن الصياد :

وَلَمَا رَأى الغَدَّارُ قُـرْبَ حُلُولِهِ   تَيَقَّنَ أَنَّ المَوْتَ ماَ مِنهُ عَاصِمُ (٣)

يفيد هنا ابن الصياد من موروثه الديني المتمثل في محفوظه من القرآن الكريم وخاصة قصة سيدنا نوح – عليه السلام – مع ابنه الذى ظن أنه سيعتصم بالجبل من الماء فرد عليه نبي الله نوح بأنه لا عاصم اليوم من أمر الله فيتكئ عليه ابن الصياد ويوظفه توظيفاً جيداً في وصفه لقدرة طلائع وإدراك هذا العدو لأنه لا عاصم من الموت إذا ما اقترب منه طلائع وجيشه ، وقد أجاد ابن الصياد توظيف هذا المعنى القرآني وربطه في براعة بمعناه الذي يعبر عنه في أبياته هذه من الآية الكريمة : " **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** " (٤)

وهذا أسامة بن منقذ استطاع أن يوظف موروثه القرآني في مضمون أبياته في مهارة لغوية تنم عن كثرة حفظه لآيات القرآن الكريم فنراه يقول :

دَعَوْتُ الذَّى نَادَاه مُوسى لدِفعِ مـا   يُحاذِرُ من فِرعـونَ ، فـانفرقَ الـيمُّ
وناديتُ مَنْ نَاداهُ ذُو النُّونِ واتَّقا   به في ظلامِ البَحرِ ، فانكشَفَ الغَمُّ (٥)

فلقد استعان أسامة في البيت الأول بآية الكريمة : " **فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** " (٦)

---

١ – خريدة القصر – ص ٢٢٩
٢ – سورة الأعراف ، الآية رقم ١٢
٣ – خريدة القصر – ص ٢٤٣
٤ – سورة هود ، الآية رقم ٤٢ ، الآية رقم ٤٣
٥ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٣٣٩
٦ – سورة الشعراء ، الآية رقم ٦٣

والبيت الثاني هو إشارة إلى الآية الكريمة " وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ "(١)

وقوله تعالى " فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ " (٢)

وقد أفاد الشاعر من ذلك بأنه يوضح لنا أنه ينادي الخالق – تعالى – ويدعوه مبتهلاً والله سبحانه – عز وجل – مجيب للدعاء مفرج للكرب والهم وهذا ما يتمناه الشاعر في هذا الموضع من أبياته .

وقوله :

لو أنَّ كلَّ العيس ناقةُ صالحٍ   ما ساءني أتى الغداةَ قُدارُهُ (٣)

وظف الشاعر موروثه القرآني ومعرفته بقصة سيدنا صالح عليه السلام وناقته التى عقرها قدار وأشار إلي ذلك في بيته السابق ، وفيه إشارة إلي الآية القرآنية : " فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا " (٤)

وقد يأتي الموروث الديني رافداً يلجأ إليه الشعراء في مواضع أخرى ، فيفيدون من السنة النبوية الشريفة ، ومنها بعض أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – أو بعض مواقف الصحابة مع الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول المهذب بن الزبير في إحدى قصائده التى مدح بها الخليفة العاضد فيقول :

لِقولِ رسولِ اللهِ تَلْقَوْنَ عِتْرتي   معاً ، وكتابَ الله في مَوْرِدِ الحَشْرِ (٥)

هنا يشير إلى ما تدعيه الشيعة من أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال لأصحابه (إنى قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا: الثقلين ، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل الله ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى إلا أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض) (٦).

---

١ – سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨٧
٢ – سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨٨
٣ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٢٠
٤ – سورة الشمس ، الآية رقم ١٣ ، ١٤
٥ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٩٦
٦ – انظر للشيخ محمد رضا المظفر – عقائد الإمامية – العراق – النجف – منشورات دار التعاون سنة ١٩٧٢

وله في موضع آخر في مدح أمير المؤمنين على بن أبي طالب :

وحُبُكَ إنْ يَكُــنْ قَــدْ حلَّ قَلْبِي فَفِي لَحْمِي اِسْتَكَنَّ وفِي عِظَامِي [1]

هنا يستعين بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة لــه فــي المسلمين: (ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ فقالوا: بلى، قال : ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى ، قــال : مــن كنت مولاه ، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه ، وأدر الحق معــه حيــث دار)[2]

ومن الواضح أن الشاعر يفيد من الأحاديث أو الخطب المحمدية التــي ترفع من شأن آل البيت وتعظم من مكانتهم وهذا يتفق مع مذهب الشيعة فــي ذلك .

وهذا طلائع بن رزيك نراه يستعين بقول الرسول – صــلى الله عليــه وسلم – في إحدى قصائده التي رثى فيها العترة الطاهرة عليهم السلام فيقول :

قُلْــتُ لِمَــنْ قَــدْ لامَنِــي فِــيهِم: لاَ لَـــوُمَ عِنْـــدِي لِلْمَجـــانِينْ
أَنَا – ابنَ رزيك – ولَــى لِمــن رتبتــه رَتَبـــةَ هارونْ [3]

فالبيت الثاني إشارة إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (علــى منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبى بعدي) [4] ومن الطبيعــي أن يفيد طلائع من كل الأحاديث التي يتمسك بها الــشيعة ويعتقــدون بــصحتها ونسبتها إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيوظفها ويفيد منها في تقويــة مكانة عليّ وآل بيته وأنهم أولى الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم – وأنهــم على الحق وغيرهم على الباطل ، فلا مجال هنا للوم أو عتاب يوجه لمن يحب عترة النبي وآل بيته .

ومما يمثل هذا أيضاً – قول عمارة اليمنى الــذى استــشهد بأحاديــث الرسول – صلى الله عليه وسلم – في قوله :

فَيَدُ الشُكْــرِ والمَحَامِدِ أَرْضٌ وَيَدَ الفَضْـــلِ والجَمِيــلِ سَمَاءُ [5]

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢٤
٢ – انظر د. محمد كامل حسين – طائفة الإسماعيلية – النهضة المــصرية – ١٩٥٩م – ص ١٤٧
٣ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادى الأميني – ص ١٤٩
٤ – نقلا عن رسالة د. محمد عبد الحميد سالم – طلائع بن رزيك حياتــه وشــعره – ص ١٦٦
٥ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ١٠٩

فهنا يستشهد الشاعر بقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (اليد العليا خير من اليد السفلى وفي كلاهما خير) فأفاد عمارة من هذا الحديث المأثورة للرسول – صلى الله عليه وسلم – في رسم صورة بديعة لمن يعطي ويمنح ويجود ويتفضل فهو في الأعلى (السماء) ومن يشكر ويمدح هذا الجميل فهو في الأدنى (الأرض) والسماء دائماً تعطي الأرض وتمنحها الخير الكثير .

ويأتي على نفس الشاكلة قول ابن قلاقس :

هَل سبيلٌ إلى القصـــاص فَقالوا   إنَّ جُرْحَ العجماءِ صَاحَ جُبار [١]

فاستعان هنا الشاعر بأحد الأحاديث النبوية الشريفة وهو (جرح العجماء جبار) وهو يضرب به المثل لمن يستهان به . [٢]

ب- الموروث الشعري :

تبدو ظاهرة التأثر بالموروث الشعري ظاهرة واضحة مميزة لأسلوب شعر شعراء بني رزيك وهذه مهارة وبراعة تميز بها هؤلاء الشعراء تنم على ثراء محفوظهم الشعري وحسن اختيار ما يناسب التعبير عن معانيهم من هذا الموروث الشعري ويجيدون توظيفه.

ومن ذلك المهذب بن الزبير ، فمن خلال شعره يتبين لنا ثقافته الواسعة المتنوعة لما حفظه من شعر الشعراء القدماء وحفظه أيضاً للأشعار العربية فالأمثلة الدالة على ذلك كثيرة ومتعددة منها قوله في إحدى قصائده التى مدح بها طلائع بن رزيك :

ماضَرَّ شِعْرِيَ إنيّ ما سَبَقْتُ إلىَ   (أجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعَي سوىَ طَلَل) [٣]

هنا الشطرة الثانية من البيت هي صدر بيت مطلع قصيدة للمتنبي قالها في مدح سيف الدولة وهو قوله :

أجَابَ دَمْعِي وَماَ الداعِي سِوىَ طَلَل   دعَا فلبَّاهُ، قَبْلَ الرَّكْب والإبِلِ [٤]

وقوله وهو يقصد الطرف المريض الجفن :

إنْ كانَ فِيهِ لنا وهو السَّقِيمُ، شِفاً   (فَرُبَّماَ صَحَّت الأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ) [٥]

---

١ – ديوان ابن قلاقس – ص ٣١١
٢ – ابن الأثير – ج١ – ص ١٤٢
٣ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢١٥
٤ – ديوان أبى الطيب المتنبي – جـ ٣ – ٧٤
٥ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢١١

فالشطرة الثانية هي عجز بيت للمتنبي وهو قوله :

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُـــهُ فرُبّما صَحَّتِ الأجْسَامُ بِالْعِلَلِ [١]

وله في إحدى قصائده المدحية :

من كلِّ طرفٍ مريضِ الجفنِ تُنشدُنا أَلْحاظُهُ : (رُبَّ رامٍ مِنْ بَنِي ثُعَلِ) [٢]

فالشطرة الثانية هي تضمين قول امرئ القيس :

رُبَّ رَامٍ مِـــنْ بَنِـــي ثُعلْ مُتْلِـــج كَفيْهِ فِـــي قُتْرِه [٣]

وإذا ما انتقلنا إلى أسامة بن منقذ نجده يضمن الشعر العربي القديم في شعره نحو قوله في إحدى قصائده المدحية مفتخرا بنفسه :

فَصَاحةٌ أَسْمَعَتْ مَنْ كَاَن ذَا صَمَمٍ وَحُسْنُ مَعْنىً أَفَادَ الفَهمَ ذَا اللَّمَمِ [٤]

ومن الواضح في البيت السابق أن الشاعر تأثر بقول أبي الطيب المتنبي في إحدى قصائده الشهيرة التى عاتب فيها سيف الدولة الحمدانى وفخر بذاته قائلا:

أَنَا الذَّي نَظَرَ الأَعْمَـــى إلى أدَبي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ [٥]

وله في موضع آخر من شعره قصيدة بعث بها إلى طلائع بن رزيك شاكياً له طول الفراق وشدة شوقه إليه فيقول :

عَجِبتُ لَـــهُ كيفَ اهْتَدَى لرِحَالِنَا وكَم للوَّى من دُون تَعْرِيسِنَا سِقْطُ [٦]

وهنا يشير أسامة إلى قول امرئ القيس في إحدى قصائده المعروفة :

قِفَانَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بيْنَ الدَّخولِ فَحَوْمَلِ [٧]

---

١ – ديوان المتنبي – ج٣ – ص ٨٠
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢١١
٣ – ديوان امرئ القيس – تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم – طبعة دار المعارف- ١٩٥٨م – القاهرة – ص ١٢٣
٤ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٤٦
٥ – ديوان المتنبي – ج٣ – ص ٣٦٧
٦ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٢٩
٧ – ديوان امرئ القيس – ص ٣٧٧

ويكثر أسامة بن منقذ من تضمينه شعر الشعراء القدامى في شعره ، ولعل أكثر هؤلاء الشعراء هو المتنبي نحو قوله :

قُل للّذينَ نأوْا ، والقلبُ دارُهُمُ وجدانُنا كلُّ شيءٍ بَعدَكم عَدَمُ [1]

فالشطرة الثانية من هذا البيت هي عجز بيت للمتنبي صدره:

يامَنْ يَعِزُّ عَلَيْنا أنْ نُفارِقَهُمْ وَجِدانُنا كُلُّ شيءٍ بعدكُمْ عَدَمُ [2]

وقوله :

ياقلبُ دَعْهُمُ، فقد جرّبتَ غدرَهُمُ وَفِي التّجارِبِ بَعدَ الغيِّ ما يَزَعُ [3]

فالشطرة الثانية مأخوذة من بيت للمتنبي وهو قوله :

أهْلُ الحَفيظَةِ إلاّ أنْ تُجَرّبَهُمْ وَفِي التّجارِبِ بَعدَ الغَيِّ ما يَزَعُ [4]

ولأسامة بن منقذ قصيدة كلها مبنية على الاستعانة بأبيات شعر لشعراء سابقين عليه فهي قائمة على التضمين ، وهذا يدل على سعة ثقافته الأدبية وكثرة محفوظه الشعري ومطلعها :

أطاعَ الهوىَ مِنْ بعدهُم، وعَصى الصّبْرُ فَليسَ له نهيٌ عليه ولاَ أمْرُ [5]

فهنا مضمن لبيت أبي فراس الحمداني وهو قوله :

أرَاكَ عَصِيَّ الدّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ أمَا لِلْهوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلاَ أمْرُ [6]

وقوله في القصيدة نفسها :

أسكّانَ أكْنافِ العَواصِمِ دَعْوةً بفيَّ بَروداً، وهِي في كَبِدي جُمر [7]

فالشطرة الثانية هي عجز بيت للمتنبي :

أرِيقُكِ أمْ مَاءُ الغَمَامَةِ أمْ خَمْرُ بِفِيَّ بَرُودٌ وَهْوَ فِي كَبِدِي جَمْرُ [8]

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٤٨
٢ – ديوان المتنبي – ج ٣ – ص ٣٧٠
٣ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٣٢
٤ – ديوان المتنبي – ج٢– ص ٢٢١
٥ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٢٢
٦ – ديوان أبي فراس الحمداني – إعداد د. محمد بن شريفه – مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري – ٢٠٠٠م – ص ١٣٧
٧ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٢٢
٨ – ديوان المتنبي – ج٢ – ص ١٢٣

وقوله في القصيدة نفسها – أيضاً – :

وَمازَالَ صرفُ الدَّهر يَسْعى بيْنَناَ   فلمَّا انقَضَى ما بيْنَناَ سكَنَ الدَّهرُ (١)

هنا الشطرة الثانية مأخوذة من عجز بيت لأبي صخر الهذلي وهو قوله:

عَجِبْتُ لِسَعى الدَّهر بينـي وَبينَهاَ   فَلَمَّا انقَضَى ما بيْنَناَ سكَنَ الدَّهرُ (٢)

وقوله :

فَأذهَلُ حتَـى لاَ أجـيبَ مُنَادِياً   وأبْهتُ، لاَ عـرفُ لَدىً ، ولا نُكْرُ (٣)

وهنا مضمن قول أبي صخر الهذلي في الشطرة الثانية في قوله :

وَماَ هُوَ إلاَّ أنْ أرَاهاَ بخلْـوةٍ   فَأبْهَتُ لاَ عُـرفٌ لَدىَ وَلاَ نُكْرُ (٤)

وقوله في القصيدة نفسها:

وَرَوعةُ شوقٍ تَعْتَرِينِـي إلـيكُمُ   كَماَ انْتَفَضَ العُصفورُ ، بِلَّله القَطْرُ

فيارَوعتى، لاَ تسكُنى بَعدَ بُعدهم   ويَاسَلْوةَ الأيَّام، موعدكِ الحشرُ (٥)

فالبيت الأول ضمن أسامة عجز بيت أبى صخر الهذلي :

وإنِّى لَتَعْرونى لذِكـرَاكِ هَزّه   كَماَ انْتفضَ العُصفور بَلَلَهُ القَطْرُ (٦)

والبيت الثاني هو عجز بيت للشاعر نفسه أيضاً وهو أبى صخر الهذلي في قوله :

فياَحبَها زِدنِى جَوى كُل لَيلة   ويَاسلْوةَ الأيَام مَوْعِدك الَحشْرُ (٧)

ومما يمثل ذلك – أيضاً – قول عمارة اليمني في إحدى قصائده التـي رثى فيها طلائع بن رزيك ومدح ولده الناصر بن رزيك فنراه يقول معتمـدا على موروثه الشعري :

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٢٣

٢ – كتاب شرح أشعار الهذليين – لأبي سعيد السكري- تحقيق / عبد الستار أحمد فراج- القاهرة – ١٩٦٥م – ج٢ ص ٩٥٤

٣ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٢٣

٤ – كتاب شرح أشعار الهذليين – ج٢- ص ٩٥٨

٥ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٢٤

٦ – شرح أشعار الهذليين – ج٢ – ص ٩٥٩

٧ – المصدر نفسه – ص ٩٥٨

وماَ هَـذه الأعمـارُ إلاّ صـحائفٌ		تُـؤرخ وَقْتـاً ثـم تُمْحـىَ وتَمْحَـقُ
وإنـك يالبن الهالكين وصَوْهُـم		وَولَدهـم مِنْ دَوْحَةِ المَوتِ مغرقُ (١)

فالبيت الثاني مأخوذ من قول أبى نواس:

أرَىَ كلَّ حـــيٍ هَالِكـاً وابـنَ هَالكٍ		وذا نسبٍ فـــي الهالكِينَ عريق (٢)

وقوله في موضع آخر من شعره :

دَانـــى القليب المُستقَى قـصيرةً		أرشيــة الحاجَاتِ مِنْ نَوالــــه (٣)

فهنا ينظر عمارة إلى قول ابن الرومى :

وإذاَ امْـرُؤٌ مَـدَحَ امـرأً لنوالَــهِ		وأطَـالَ فِيــه فَقَـدْ أطـالَ هجـاءه
لَوْ لَمْ يَقدر فِيه بعـدُ المَستقَىَ		عِنـد الورُوُدِ لَماَ طَـالَ وَشاءه (٤)

وقوله في القاضى الجليس بن الحباب وقد حدث له مرض أخـرّه عـن حضور مجلس طلائع بن رزيك فيقول عمارة اليمني في ذلك :

وأظلَم جوُ الفضلِ إذْ غاَب بدرُه		(وَفِي اللّيلَةِ الظّلْماَء يُفتَقَدُ البَدرُ) (٥)

فالشطرة الثانية من قصيدة لأبى فراس الحمدانى وهي قوله :

سَيَذْكُرُني قَومِي إذا جَدَّ جَدُّهمْ		وَفِي اللّيلَةِ الظّلْماءِ يُفتَقَدُ البَدرُ (٦)

ويكثر طلائع بن رزيك من الاقتباس من شعر الشعراء السابقين وخاصة من الشاعر الكبير المتنبي نحو قوله :

والعرَب أقتلُ دَاء يَهلكون بِــــهِ		أنْ تَملّكَ الحكْمِ في أعنَاقِهِماَ عَجَم (١)

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٠٩
٢ – ديوان أبى نواس – تحقيق / أحمد عبد المجيد الغزالي – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – ص ٦٢١
٣ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٨٣٠
٤ – ديوان ابن الرومى – د. حسين نصار – الجزء الأول – مكتبة الأسرة ٢٠٠٤م – ص ١٥
٥ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٥٦١
٦ – ديوان أبى فراس الحمداني – ص ١٤٢

وهو بيت مأخوذ من قول المتنبي :

وإنَّمــــاَ النَّاسُ بالمُلُـــوكِ ومَاَ تُفلِـحُ عُرْبٌ مُلُوكُهــــاَ عَجَمُ [٢]

وقوله في إحدى رسائله التى بعث بها إلى صديقه أسامة بن منقذ يقدر له مدى تمسكه به واخلاصه له واشتياقه إليه فقال :

قالُوا: المعارَف فِي أهْلِ النهى ذِمَم وَقْد غدا بَيْنَناَ العرفان والذِّمم [٣]

وهذا البيت إشارة إلى بيت المتنبي :

وَبَيْنَناَ لَوْ رَعَيْتُـــم ذَاكَ مَعْرِفَةٌ إنَّ المَعارِفَ فِي أهْلِ النُّهى ذِمَمُ [٤]

كما تظهر ثقافته الأدبية أيضاً في تضمين شعره بأقوال الشعراء قبله كقوله مشيراً إلى وقعة الجمل :

وَأَقْبلــت بـــالْعراق تَقْـصده زَحفــاَ إليـــه فـــي مَوكـــب زُحَــلِ
هَلْ غادر القوم حَـول هَودجهــا تَـسيل أرواحهــم علــى الأسـلِ
فَليـــس يَسْطِيعِ أنْ يقـــول لَناَ (لاَ ناقَتــي فيهـــم ولا جَملــيِ) [٥]

فإن الشطرة الثانية من البيت الأخير مأخوذ من قول (الطغرائــى) فــي قصيدته الشهيرة التى عرفت بلامية العجم:

أصَالَةُ الرَّأيِ صَانَتْنى عَنْ الخَطَـلِ وحلْيَــه الفَـضْلِ زَانَتْنــي لَــدىَ العَطَــلِ
مَجدِى أخِيراً وَمَجْدِى أوْ لاَ شـرع وَالشَّمْس رَادَ الضُّحىَ كالشَّمْس فِي الطفــلِ
فِيهمَ الإقَامَـــة بالزوْراءِ لاَ سكنيِ فِيها ولاَ ناقتـــيِ فِيـــهاَ ولاَ جَمَليِ [٦]

وهذا ابن قلاقس نراه يقول في إحدى قصائده المدحية التى مــدح بهــا الحافظ السلفي وذكر طلائع بن رزيك فيقول :

بِكَ استَبشَرْ الشَّهــر الأصمُ تَشَوقاَ لِلُقيَاكَ حتَّى كـــــادَ أنْ يَتَكلَّماَ [٧]

اعتمد هنا الشاعر على موروثه الشعري ومحفوظه فلجــأ إلــى بيــت مشهور في وصف الربيع وهو أشهر أبيات البحترى في الوصف وهو قوله:

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق محمد هادي الأميني - ص ١٣٤
٢ - ديوان المتنبي - ج٤ - ص ٥٩.
٣ - ديوان طلائع بن رزيك - ص ١٣٤.
٤ - ديوان المتنبي - ج٣ - ص ٣٧٠.
٥ - ديوان طلائع بن رزيك - ص ١٢٤.
٦ - ديوان طلائع بن رزيك - ص ١٢٤.
٧ - ديوان ابن قلاقس - ص ٢٩٨.

أتاكَ الربيْعُ الطَّلق يَخْتَالُ ضاحكاً   منْ الحُسْنِ حتَّى كاد أنْ يتَكلماَ (١)

فأفاد الشاعر منه ووظفه توظيفاً فنياً بديعاً في إطار المديح .

جـ- الموروث التاريخي :

وقد يأتي هذا التوظيف للموروث التاريخي اعتماداً على التاريخ الأدبي وثقافة الشاعر من هذا الجانب الأدبي ، ومنه قول أسامة بن منقذ في إحدى قصائده التي مدح بها صديقه طلائع بن رزيك فيقول :

وإنْ أكُنْ كزُهيرٍ في الثَّناَءِ، فَقَد   علوتَ مجداً وجودا عن مدَى هرمٍ (٢)

استمد الشاعر من تاريخ الأدب العلاقة الوطيدة المعروفة بين الشاعر الكبير الجاهلي زهير بن أبي سلمى ومدحه لهرم بن سنان ، فشبه الشاعر هنا نفسه بزهير وجعل ممدوحه وهو (طلائع) يعلو فوق مكانة بن سنان .

وقوله في موضع آخر من شعره :

هَذا الهَوَى ، لاَ هوى القَيسَين، إنهمَّا   عاَشاَ مَلياً، وذَا مُوفٍ على رَمَقَى (٣)

فالمقصود هنا بالقيسين هما: قيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح وهما اللذان يضرب بهما المثل في العشق والغرام ، فالأول مجنون ليلى والثاني المعروف بقيس ولبنى .

ومن ذلك قوله :

خُلقٌ تَحلَّى بــه سلمـان بينك منْ   أخْلاَقِك الغُرّياَ ذَا اليأسِ وَالنَّعَمِ (٤)

من الواضح الحديث عن سلمان الفارسي وهو صحابي جليل في تلك الفترة ، فربط هنا الشاعر في صياغة لغوية جيدة بين أخلاق هذا الصحابي الجليل وبين كرم وجود وسخاء ممدوحه وهو طلائع بن رزيك .

ونحو قوله :

كَوَجْـد لبيدِ ، أو كَـوَجْدِ مُتَمّمِ   ومن مالِكٌ معَ منْ فقدتُ وأربَدُ (٥)

---

١ – ديوان البحترى – ص ٢٠٩٢
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٤٥
٣ – المصدر نفسه – ص ١٣٩
٤ – المصدر نفسه – ص ٢٤٤
٥ – المصدر نفسه – ص ٢١٣

هنا وظف الشاعر اسم الشاعر الجاهلي (لبيد بن أبي ربيعة) ، واسم (متمم بن نويرة) وأخوه (مالك بن نويرة) ، وكذلك (أربد بن ربيحة) وكلهم شعراء معروفون.

وقوله :

ولـــو أنَّها إذْ أعولَتْ فاضَ دَمْعُهَا ... لَقُلْتُ : هِي الخَنْسَاءُ، تبكِي على صَخْرِ [١]

اعتمد الشاعر هنا على موروثه التاريخي الأدبي ومعرفته بالشاعرة المخضرمة الخنساء التي أوقفت شعرها كله في رثاء أخويها معاوية وصخر .

وتبين لنا من خلال شعر المهذب بن الزبير ثقافته الواسعة والتي ظهر أثرها في ديوانه نحو درايته ومعرفته وتمكنه من علم الأنساب وتبين لنا ذلك من خلال مدحه لداعي اليمن وقومه فنراه يقول :

أقْيَالُ بأسٍ خَيرُ منْ حَمَلـوُا القَنـاَ ... ومُلـوكُ قَحْطـاَنَ الـذَّينَ هُـمُ هُـمُ
وكفـاهُمُ شَـرفاً ومجـداً أنَّهـمْ ... قَدْ أصبَحَ الـدَّاعِي المُتـوَّجُ منـهمُ
هو بدْرُهُمْ فِـي سمـــاءِ عُلاهمُ ... وبنـــو أبيــه بنو زُرَيْعٍ أنْجُمُ [٢]

فبنو رزيع نسبة إلى جدّهم السلطان صاحب عدن (زريع بن العباس بن المكرّم اليامى الهمدانى) المقتول سنة ٤٨١ هـ ، وقيل سنة ٥١٣ هـ أو ٥٠٤ هـ . [٣]

وقوله في موضع آخر من شعره :

وأغدَتَ رسُلَ ابنْ القسَيِم إليهِ فــيِ ... شعبــانَ كَيْ يتلاَءَمَ الشَّعْبـــانِ [٤]

فابن القسيم هو الملك العادل نور الدين محمود ، صاحب الشام ، والقسيم هو جده : آق سنقر ابن عبد الله البرسقي الغازي الملقب بقسيم سيف الدين صاحب الموصل والرحبة وتلك البلاد . [٥]

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٢٦.
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢٢.
٣ – انظر أخبار آل رزيع في المختصر المفيد – لعمارة اليمني – مخطوط بدار الكتب المصرية برقم / ٠٨٠٤٨ ح والمصوّر – ثمه – على الميكروفيلم تحت رقم / ٠٣٦٨٥٣ ح – ص ٦٤ ، ص ٨٠.
٤ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٦.
٥ – انظر معجم الأدباء – ياقوت الحموى – ج٩ – ص٤٨ ، ص٤٩ – ومفرج الكروب في أخبار دولة بنى أيوب– لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل – ج١ – ص ١١ ، الروضتين في أخبار الدولتين – لشهاب الدين المقدسى – ج١ – ص ٩.

والأمثلة الدالة على تمكن المهذب في علم الأنساب كثيرة فمن تمكنه في هذا المجال أنه قد صنف كتاباً كبيراً وهو كتاب (الأنساب) وقال عنه ياقوت الحموى :

(وصنف المهذب كتاب الأنساب) وهو كتابٌ كبير أكثر من عشرين مجلداً كل مجلد عشرون كراساً ، رأيت بعضه فوجدته مع تحقيقي هذا العلم وبحثي عن كتبه غاية في معناه لا مزيد عليه؛ يدل على وجود قريحة مؤلفه وكثر اطلاعه ...) [1]

وله في موضع آخر من شعره قوله :

أوَرُمْتَ أنْ تَتْلُو مَحاسِنَ ذكرِهمْ فَاسْنِد روايتها إلى حسَّانِ [2]

هنا إشارة إلى حسان بن ثابت الذى اشتهر بمدحه للغساسنة قبل الإسلام، والمهذب هنا يمدح طلائع بن رزيك ويذكره بما كان لجدوده من الغساسنة من مجد وعزة وفخر وهنا حث طلائع على جهاد الفرنج.

ومما يمثل هذا أيضاً قول الجليس بن الحباب معتمداً على موروثه التاريخي فنراه يقول :

وَتَبَرّهـا بِتَدْبيرِ لَطيفِ حكـاهُ عَنْ سِنانٍ أوْ حُنَيْنِ [3]

فذكر الجليس هنا أشهر من عرف بالطب عند العرب وهما سنان بن ثابت ، وحنين بن إسحق، وقد أفاد في توظيف هذين العلمين في معناه الذى يقصده من السخرية من الطبيب الذى كان يعالجه.

وينتهج النهج ذاته عمارة اليمني حيث أفاد من موروثه التاريخي ومعرفته بالتاريخ الديني في قوله :

فَعَلْتَ فِعْلَ (عليٍّ) يا علـي وَقـدْ فَدىَ نَبيَّ الْهُدَى بَلْ سَيِّدُ الْعَرَبِ [4]

فهو هنا يشير إلى قصة سيدنا علي عليه السلام المشهورة حينما نام في فراش النبي – صلى الله عليه وسلم – ليلة هجرته لتآمر قريش على قتله ، وهو هنا يمدح الأمير المكرم (علي بن الزبد) ويذكر بلاءه في القصر عند قتل طلائع بن رزيك محاولاً الدفاع عنه وحمايته.

---

١ – ياقوت الحمدى – معجم الأدباء – ج٩ – ص ٤٨ ، ص ٤٩
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٢
٣ – خريدة القصر – ص ١٩٢
٤ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ١٨٢

ويقول عمارة اليمني في إحدى قصائده التى رثى فيها الصالح بن رزيك ثم مدح ابنه العادل الناصر بن رزيك فيقول مقتبساً من التاريخ العربي القديم بعض الألفاظ والمعاني فيقول :

وأجْرَدَ تحكِي الطَّرف مِنْ نَسلِ لاَحق ... تَفرُّ الصَّبا والبرقُ أنَّ لَيْس يُلحقُ (١)

فهنا استخدم الشاعر كلمة (لاحق) وهي اسم فرس لمعاوية، وهنا يريد الشاعر أن فرس المرثى يندبه ، وقد قال قدامة بن جعفر في ذلك أن من شأن ما كان يوصف في حياة الميت بكده إياه أن يتذكر اعتباطه لموته ، ومن ذلك الخنساء في مرثية صخر حيث قالت تذكر اعتباط فرس صخر بموته فقالت في نفس هذا المعنى :

فَقَدْ فقدتك حذقه فاستَرَاحت ... فَلَيْتَ الخَيْل فَارِسَهَا يَرَاهَا

وقوله في إحدى قصائده التي مدح بها طلائع بن رزيك يقول:

إذَا ما ذَكَرنَا وقْعَةَ مِنْ حُرُوبِهِ ... فَما يَتذْكُر الحَيَاة بَكْرٌ وتَغْلِبٌ (٢)

فـ (بكر ، تغلب) هما اسمان لقبيلتان من قبائل العرب سميت كل واحد منهما باسم جدها الأعلى بكر وتغلب وهما ابنا وائل بن قاسط من القبائل العدنانية، وهي إشارة من الشاعر إلى الحرب التي قامت بين هاتين القبيلتين بكر وتغلب وهي حرب البسوس المشهورة .

وله في موضع آخر من شعره قوله :

دَعوُا يابَنى الأخبَار "يَحْيىَ" و "جَعْفَر" ... فَكلُّ بَنىِ "رُزّيك" و "يَحْيى" و "جَعْفرُ"
وَلاَ تذْكرُوا "كَعْباً" و "عُمراً" و "عَنْتراً" ... فَخادِمُهم "كَعبٌ" و "عَمْروٌ" و "عَنْترُ"
وخلوا حديث "البَحْتُري" فإنني ... لَهُمْ بُحتَرىٌ لَمْ تُناسِبه بُحترُ (٣)

فيقصد هنا الشاعر بـ "يحيى" وهو أبو الفضل يحى بن خالد بن برمك وزير هارون الرشيد الذى عرف عنه النبل والجود والعقل وحسن التدبير في عمله.

أما "جعفر" فهو ابن يحيى وكان آية في اللسن والبلاغة وعلو الهمة وجلالة القدر وسماحة الأخلاق والجود والسخاء ، فلقد أتى الشاعر بهاتين الشخصيتين لمدح بنى رزيك اللذين عرف عنهم مثل هذه الصفات الحميدة .

---

١ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الثاني - ص ٧١١
٢ - المصدر نفسه - المجلد الأول - ص ٢٠٠
٣ - المصدر نفسه - المجلد الثاني - ص٥٤٢

وفي البيت الثاني قصد بـ (كعب) وهو كعب بن أمامة الأيادي، وكان أحد أجواد العرب يضرب به المثل في الوفاء .

و "عمراً" هو عمرو بن معدى كرب الزبيدى المذحجى اليمني، الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع المشهورة في الجاهلية وكنيته أبو ثور ثم دخل في الإسلام وأبلى بلاءاً حسناً في حروب كثيرة . أما (عنترة) فهو أبو المغلس عنترة بن شداد

و "البحترى" هو أبو عباده الوليد بن عبيد الله الطائى ، الشاعر العربي المعروف، فهنا اعتمد عمارة في أبياته الثلاثة على موروثه التاريخي وهو في إطار المديح .

ويأتي على نفس الشاكلة ابن قلاقس الذي نراه يقول في إحدى قصائده التى مدح بها الحافظ السلفي وذكر طلائع بن رزيك فيقول معتمداً على موروثه التاريخي :

رَيَض ابنُ حُجْرٍ حَجْرَةً عن شأوِهِ   واغتالَ غَيْلاناً مَدَى غايَاتِه [1]

فاستعان هنا الشاعر بموروثه التاريخي الأدبي ووظف فيه أسماء شاعرين كبيرين الأول هو أبى حجر ويقصد به امرؤ القيس ، والثاني هو غيلان ويقصد به ذو الرمَّه الشاعر الإسلامي المعروف واسمه غيلان بن عقبة.

وقوله في موضع آخر من شعره :

حازَ منه الإزارُ قَسًّا وزَيْداً   وابْنَ إدْرِيس حازَ مِنْهُ الإزَارُ [2]

فوظف هنا الشاعر ثقافته العربية فلجأ وهو في مقام المديح للإمام الحافظ السلفي إلى مضرب الأمثال في الفصاحة والورع والتقى ، فذكر قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب الأول ، ومضرب العرب في الفصاحة ، والإمام زيد بن على بن زين العابدين بن الحسين ، وذكر ابن إدريس وهو (محمد بن إدريس الشافعي) .

وإذا ما انتقلنا إلى طلائع بن رزيك نجد أن من السمات المميزة لشعره ، هي سمة النضج الثقافي أي أنه استفاد من ثقافة عصره وتسرب بعضها إلى شعره بحيث يشف منها والأمثلة الدالة على ذلك متنوعة ، ومنها قوله :

---

١ – ديوان ابن قلاقس – ص ٥٩٨

٢ – المصدر نفسه – ص ٣١٢

تَحملْتَ مِنْ عِبْءِ الصَّبَابَةِ ضِعفَ مَا تَحمّلَ قَيْسٍ فِي الْهَوَى وَجَمِيلِ [1]

فهنا يضرب بـ (قيس بن الملوح ، جميل بن معمر) المثل في الغزل العذري وصدق العاطفة ويقصد بذلك غرام (قيس مع ليلى) و (جميل مع بثينة) معتمدا على موروثه من التاريخ الأدبي.

وقوله مشيراً لبعض القبائل العربية عندما تعرض لمغتصبي الخلافة من (علي بن أبي طالب) فيقول :

أَخَذْتُمْ علَى القُرْبَى خلافَةَ أحمدٍ وصَيرتمُوهَا بَعدهُ فِي الأَجَانِبْ
وَأَيْن علَى التحقيق (تيمْ بِنْ مُرّةَ) لو أخرتُم الأنصاف مِنْ آل طالبْ) [2]

اعتمد هنا طلائع على موروثه التاريخي في أخبار الأنساب وأخبار القبائل ووظفها بما يتفق مع معنى شعره الذى أراده.

د- التأثر بالأمثال المأثورة:

وكانت الأمثال من الروافد المهمة التى رفدت الشعر في بلاط بني رزيك ، فأفاد الشعراء من الأمثال ووظفوها لخدمة المعنى الذى يريدون التعبير عنه .

فلقد استطاع عمارة اليمني أن يوظف هذا الموروث الشعبي وهو حفظه للأمثال للتعبير عن المعاني التى قصدها بما يتناسب معها في المعنى والمضمون، نحو قوله في مدح طلائع بن رزيك :

مَلِكٌ إذا عُدَّ الملوكُ وفَضْلُهَا بَدأَ اللّسان بِهِ وثَنّى الخِنْصَرُ [3]

وهنا وهو في مقام المديح أفاد من المثل الذى يقول : (فلان يشار إليه بالبنان).

وله في موضع آخر من شعره وهو يمدح الملك الناصر بن طلائع بن رزيك فيقول :

وَعَادَ فِي الرَّأسِ عطاس الرَجا يَسْحبُ ذَيْلَ الطَّالِعِ النَّازِلِ [4]

فهنا أخذ المعنى الذى أراده وهو اخفاق الأمل بعد قرب تحققه من المثل اليمني (وعاد في الرأس عطاس الرجا).

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادي الأميني – ص ١١٢
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادي الأميني – ص ٥٥
٣ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٤٣٢
٤ – المصدر نفسه – المجلد الثاني – ص ٧٥٩

وقوله وهو يمدح فارس المسلمين بدر بن رزيك يقول :

وخطب عظيم قام في نفع صدره ... وما زال مذخوراً لدفع العظائم
ينادي لأمر لا ينادي وليده ... إذا حزم الإشفاق شمل الحيازم [1]

هنا تأثر بمثل القائل (فلان ينادى لأمر لا ينادى ولده) وهو مثل يضرب في تناهي الأمر في الشدة.

ومما يمثل ذلك قول المهذب بن الزبير الذى ينم على ثقافة غزيرة وواسعة نحو قوله :

فلا تيئسوا إنّ الزمان صروفه ... وأحداثه مثل الحديث شجون [2]

فهنا استشهد بالمثل العربي (الحديث ذو شجون) [3]

وله في موضع آخر قوله :

لحقت المخاضين الشعر قبلي ... وإن أخلوا من الزند الوطابا
فقل لمقعقع بشنان لفظ ... تفى إثباتك القشر اللبابا [4]

هنا في البيت الثاني اقتبس المثل العربي الذى يقول (ما يقعقع له بالشّنان) [5]

كما اعتمد على موروثه من الأمثال العربية في قوله :

نادمت فيه الفرقدين، كأنني ... دون الورى ، وجذيمة أخوان [6]

هنا استلهم من المثل العربي (كندماني جذيمة) [7] الذى يشير إلى متمم بن نويرة في رثاء أخيه (مالك) و (عقيل) ابنا فالج من بلقين.

وله في موضع آخر قوله:

فليهنه أن فاز منك بسيد ... أو في برتبته على كيوان [8]

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٨٧٤
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢٦
٣ – مجمع الأمثال للميدانى – الناشر – عبد الرحمن محمد – مصر – ١٣٥٢ هـ – ج١، ص ٢٢٦
٤ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٨١
٥ – مجمع الأمثال – ج٢ – ص ٢١٥
٦ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣١
٧ – مجمع الأمثال ج٢ – ص ١١١ ، ص ١١٢
٨ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٧

هنا أفاد الشاعر في وصفه بالمثل الذى يضرب بكيوان وهو كوكب زحل الذى يضرب به المثل عند العرب في العلو والبعد.

الألوان البديعية :

فتن شعراء بلاط بنى رزيك بتجويد شعرهم وإحكام صياغته حتي جاء غاية في الروعة الفنية، فنجد إلى جانب خصائصهم الأسلوبية اهتماماً وتفنناً بالألوان البديعية التى تعتمد على التلاعب بالألفاظ والحروف تلاعباً ينم عن كثير من المهارة والحذق.

فعلم البديع في تلك الحقبة كان يمثل نوعاً من الحداثة التعبيرية التى وظفها المبدعون في إنتاج خطاب أدبي فيه كثير من الملاءمة بين ذواتهم وبين ما يقولون من شعر من ناحية، ثم الملاءمة بين هذا الشعر وطبيعة الحياة الجديدة التي كانت المفارقة الاجتماعية والثقافية أهم ملامحها من ناحية أخرى) (١)

فأصبح البديع أداة تعبيرية يعتمد المفارقة الحسية والمعنوية لغة بذاتها ، كما يجعل من الإيقاع التكراري خاصية بذاتها وكل ذلك يمثل عملية تنظيم الأدوات التعبيرية التى كان الإلحاح عليها وسيلة لقبولها أولاً ، ثم الإعجاب بها ثانياً . (٢)

لذلك شغف جل الأدباء والنقاد بالبديع لأنهم رأو في الافتنان في الحلية اللفظية المجال الأكبر للتجديد، وإيماناً منهم بأن الأولين استغرقوا المعاني ، وأتوا على معظمها ولم يتركوا إلا ما استبهين به ، أو صعب الوصول إليه ، فلم يبق أمام المحدثين شئ يولعون به إلا البديع والحلية اللفظية ، فكان الإبداع والإغراب منحصراً في هذين الميدانين . (٣)

فظاهرة البديع في هذه الفترة ترتبط بطبيعة الحياة المترفة التى كان يعيش فيها هؤلاء الشعراء والتى كان لها أثرها على خيالهم فأصبحت تروق لهم المحسنات اللفظية مما جعل البديع يعد انعكاساً لحياة الترف والبذخ التى عُرِف بها الفاطميون في مصر آنذاك . (٤)

---

١ - د. محمد عبد المطلب - البلاغة العربية قراءة أخرى - ص ٣٤٧

٢ - المصدر نفسه - ص ٣٤٨

٣ - القاضي الجرجاني- الوساطة بين المتنبي وخصومه - عيسى الحلبي- القاهرة - ص ٢٠٨

٤ - راجع : - محمد كامل حسين - أدب مصر الفاطمية - ص ٢٩١ ، ص ٢٩٢.
- عوض على البارى - شعر الطبيعة في الأدب المصري- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م - ص ٢٨٥

وفي هذا يرى دكتور فوزي أمين أن ظاهرة البديع ترتبط ارتباطاً جوهرياً بطبيعة الفن الإسلامي الذى يقوم على المنظور الروحي المسطح . هذا المنظور الذى لا يهتم بالبعد الثالث للصورة ، ومن ثم يميل إلى التجريد ، كما أنه يميل إلى ملء الفراغ بعناصر كثيفة حتى لا يبقى مجال لعبث الشر المتمثل في إبليس . إذن لا غرابة أن يتسلط الذوق البديعي على الصفوة المتأدبة التي يعد الفكر الإسلامي رافداً هاماً من روافد ثقافتها ، ولا غرابة في أن يصبح البديع مطلباً يقصد لذاته . (١)

ولنا أن نقول إنه بالرغم من استخدام شعراء بني رزيك واهتمامهم بالبديع داخل العمل الأدبي إلا أنهم في أحيان كثيرة – لم يقصدوه قصداً بل جاء في عفوية غير متكلفة ، ومنهم من قصده وتعمد استخدامه لكن في مهارة وإتقان ، فاستطاعوا أن ينتقوا ما يتناسب مع أغراضهم الشعرية ومع المعاني التى أرادوها بما يكسبها روعة وعذوبة وبهاء .

وهذا ما سيبدو لنا واضحاً عند دراسة الألوان البديعية في شعر شعراء بنى رزيك ونبدأ بـــ:

أ- الجناس :

لقد حظى الجناس باهتمام علماء البلاغة ، فهو يعد من أهم الألوان البديعية التى تثرى اللغة الشعرية .

ولقد عرفه يحيى بن حمزة العلوى – (بأنه تكون اللفظة تصلح لمعنيين مختلفين فالمعنى الذى تدل عليه هذه اللفظة هي بعينها تدل على المعنى الآخر من غير مخالفة بينهما) (٢)

وهذا ابن المعتز عرفه بقوله (هو أن تجئ الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها) (٣)

والجناس كما هو معروف عند البديعيين نوعان – جناس تام وله أكثر من نوع وجناس ناقص غير تام وله أكثر من نوع، وبدراسة شعر شعراء بنى رزيك نجد أنهم قد أجادوا توظيف الجناس بأنواعه المختلفة .

---

١ – د. فوزي أمين – أدب العصر المملوكي الأول – ملامح المجتمع المصري– دار المعرفة الجامعية– ٢٠٠٣م – ص ٤٤٣

٢ – يحى بن حمزة العلوى– الطراز– المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقوق الإعجاز– الجزء الثاني– دار الكتب العلمية– ص ٣٥٥

٣ – ابن المعتز – البديع – ص ٢٥

فمن أمثلة الجناس التام نجد قول المهذب بن الزبير الذى يعد أبرز شعراء بنى رزيك استخداماً لهذا اللون البديعي، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده إلا ووجدنا بها الجناس، ومن ذلك قوله :

لقد جرَّد الإسلامُ منك مُهنّداً حديداً شَباهُ لا يُداويَ له جُرحُ
إقامةُ حَدِّ الله في الخلقِ حدُّهُ إذا سلَّهُ – والصَّفحُ عنهمْ له صَفحُ [1]

فيبدو الجناس التام (المماثل) في الكلمات (حَدّ – حَدّهُ) ويقصد بالكلمة الأولى شرع الله وحدوده ونواهيه ، ويقصد بالكلمة الثانية حد السيف، وبين (الصَّفحُ – صَفْحُ) جناس تام– (مماثل) – أيضاً، والكلمة الأولى يقصد بها العفو والسماح، والثانية يقصد بها عرض السيف.

ونحو قوله :

ومُرنَّح الأعطافِ تحسَبُ أنَّهُ رُمْحٌ ، ولكنْ قَدَّ قَلْبِيَ قَدُّهُ [2]

فالجناس التام (مماثل) في قوله (قَدَّ – قدَّهُ) فالشاعر استخدم هنا الجناس وهو يتغزل في غلام قوامه ممشوق ويقصد من الكلمة الأولى هو القطع ، والثانية هي القوام الممشوق.

وقوله :

وإنَّ أميرَ المؤمنينَ وذكرَهُ قَرينانِ لِلآىَ المُنزّلِ في الذّكرِ [3]

هنا الجناس تام (مماثل) بين اسمين هما (ذكر – الذّكرِ) الأولى فيقصد بها ذكر الخليفة العاضد وهو في مقام المدح ، والثانية المقصود بها القرآن الكريم .

ومن أمثلة الجناس الناقص – غير التام – قوله :

هُوَ الدَّهرُ، فانْظُر أىَّ قِرنٍ تُحاربُهْ وَقَد دَهَمَتْنَا دُهْمُهُ وُأشَاهِبُهْ [4]

فالجناس الناقص هنا بين فعل واسم في قوله (دَهَمَتْنَا – دُهْمُهُ) وهو جناس اشتقاق لجذب الانتباه .

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٨٤
٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٨٧
٣ – المصدر نفسه – ص ١٩٥
٤ – المصدر نفسه – ص ١٧٧

ونحو قوله :

تُحمّلُهُ سَلْمَى إلينـــا ســـلامَها فيكتُمُهُ ألاّ يَضـــوعَ بِطِيبِــهِ [1]

الجناس الناقص بين (سلمى وسلامها) وهو جناس (اشتقاق) .

وقوله :

فياشاعراً قَدْ قَالَ أَلْـفَ قَـصيدةٍ وَلَكِنَّهـــا مِـــنْ بَيْتِـــهِ لَـــيْسَ تَبْـــرحُ
ليهنِكَ - لاهُنِّئتَ - أنَّ قصائـــدى مع النَّجمِ تَسْرِى أوْ مَعَ الرِّيحِ تَسْرَحُ[2]

يبدو الجناس الناقص هنا بين فعلين وهما (تَسْرِى - تَسْرَحُ) وهو جناس مذيل.

وقوله:

لَحَيَتْ وأرْنَتْ؛ فَمِـــنِ أنْوائِهاَ أبَداً صَوبُ النَّدىَ والرَّدى فِي النَّاس مُنْهَمِرُ [3]

فمن الواضح الجناس الناقص بين اسمين وهما (النَّدى - الرَّدى) ونوعه جناس تصحيف.

وقوله:

تَشابَهَ النَّاسُ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ تَشابُهَ الناسِ والأصنامِ في الصُّور [4]

الجناس هنا بين (خَلْقٍ وخُلُقٍ) وهو جناس بين اسمين وهو جنـــاس تحريف.

ومما يمثل ذلك قول ابن قلاقس في إحدى قصائده المدحية فيقول معتمداً على الجناس :

فتحتَ اللُّها لَماَ تَبرعــتْ بِاللُّهـــى فَأعربَ بالشكرِ الذى كَانَ أعْجَماَ [5]

فالجناس الناقص هنا بين (اللَّها - اللُّهى) وهو جناس تحريف ، وفـــي نفس البيت استخدم الشاعر لون بديعي آخر وهو الطبـــاق بـــين (أعـــرب - أعجما) وهو من فنون البديع المعنوية التى من فوائدها إبراز المعنى وتوكيده.

---

١ - المصدر نفسه - ص ١٨٠
٢ - المصدر نفسه - ص ١٨٤
٣ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٨٩
٤ - المصدر نفسه - ص ١٩٧
٥ - ديوان ابن قلاقس - ص ٢٩٨

ونحو قوله :

فُحْنَ طيباً مِنْ بَعـدِهِنَّ الديــارُ   فَـوْحَ مِسكٍ أفَاحَـهُ العَطَارُ (١)

اعتمد الشاعر في هذا البيت على التلاعب اللفظي بين الكلمات الثلاثة وهي : (فُحْنَ - فوْحَ - أفاحهُ) فهنا جناس ناقص (اشتقاق) وتكرار حرف الحاء يعطي جرساً موسيقياً تطرب له الآذان ويلفت الانتباه خاصة أنه أتى بهذا البيت في أول قصيدته المدحية .

وقوله :

ياأهـــل رامةَ مــاريمكُمُ عَدَا   في فَتْكَةٍ بالأسْدِ عَنْ عادَاتِهِ (٢)

فيبدو الجناس الناقص (اشتقاق) بين (رامَةَ - رَيمكُمُ) وبين (عَـدا - عادَاتِهِ) وقوله من القصيدة نفسها:

ولَكَمْ نَهى عَنِّيَ النُّهى فَعصيتُهُ   ورَضيتُ بيعَ النفس في مَرْضَـاته
ولقــد عَدِمْتُ العَيْشَ لمَّا هَالنى   بـدرٌ حدُوجُ العيسِ مِنْ هالاتِهِ (٣)

فلقد جمع الشاعر بين بعض أنواع الجناس في هـذين البيتـين فنـرى الجناس الناقص في البيت الأول بين (نهى - النهى) وهو جناس تحريف وبين (رضيت - مَرْضاتِه) وهو جناس اشتقاق، وفي البيت الثاني جناس ناقص بين (العيش - العـيس) وهو جناس تصحيف وبين (هـالنى - هالاتـه) جنـاس اشتقاق.

وقوله:

كالغيثِ فِـي إرواتِهِ ورَوَاتِــــهِ   والليْــث فـــي وثَباتِهِ وثَباتِهِ (٤)

فهذا البيت قائم على الجناس اللفظي فالجناس الناقص هنا جناس لاحـق بين (إرواته - ورواته) والجناس التام (المماثل) بين اسمين وهما (وثباتـه - وثباته).

وهذا المهذب بن أسعد الموصلى يستخدم الجناس لإثراء المعنـى فـي شعره نحو قوله :

---

١ - المصدر نفسه - ص ٣١١
٢ - المصدر نفسه - ص ٥٩٨
٣ - ديوان ابن قلاقس - ص ٥٩٨
٤ - المصدر نفسه - ص ٥٩٩

يأحاملَ الـرّاح في فيهِ وراحَتِـهِ   دِ ما بكفِّكَ روْح الْعَيْش في فيكاَ (١)

فالجناس التام (المماثل) بين اسمين وهما (الـرَّاح - راحتـه) ويقـصد بالكلمة الأولى الخمر والثانية يقصد بها كف يد وفي نفس البيت جناس ناقص (لاحق) بين (الرّاح - الروّح).

ونحو قوله من القصيدة نفسها:

أمْسَوْا مُلوكاً نوَى أسْرِ فَصبَّحهمْ   أسدٌ أتُوكَ بِهمْ أسْرىَ مَماليكاَ (٢)

فالجناس الناقص بين (أسْرِ - أسْرى) وهو جناس (مذيَّل) وفـي نفـس البيت استخدم الشاعر لون بديعي آخر وهو الطباق بين (أمسوا - فـصبحّهم) أفاد في إبراز المعنى وتوكيده.

وقوله :

كَمْ فِي الْعِذَارِ إلى العُذَّالِ لي عُذُرُ   وكَمْ يُحاوِرهُمُ عَنْ لوْمِيَ الحَوَرُ (٣)

هنا جناس ناقص وهو جناس اشتقاق بين الكلمات الثلاثـة (العـذار - العُذَّال - عُذرُ) .

وأيضاً في قوله :

مَتَى نَلْتَقِى فِي غَيرْ نَوْمِ ويشْتَكِي   مَشُوقٌ ويَشْكِي مِنْ جوَى الْبيْنِ شَائِقُ (٤)

اعتمد هنا الشاعر على الجناس الناقص في قوله (يشْتَكي - يـشكى - شائِقٍ) وهو جناس اشتقاق مع حرصه على تكرار حرف الشين الذى يعطـي جرساً موسيقياً يؤثر في المعنى .

ومما يمثل ذلك قول عمارة اليمني الذى حرص على استخدام الجنـاس في مواضع مختلفة في شعره منها قوله :

وَغَيضتَ مِنَ زُهْرِ الدُّموعِ طَوالعاً   لَهاَ في غُرُوبِ الْمُقْلَين غرُوُبُ (٥)

---

١ - خريدة القصر - قسم شعراء الشام - ص ٢٨٢
٢ - المصدر نفسه - ص ٢٨٤
٣ - المصدر نفسه - ص ٢٨٦
٤ - خريدة القصر - قسم شعراء الشام - ص ٢٩٣
٥ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الأول - ص ١٤٤

فالجناس التام (المماثل) بين اسمين وهما (غروب – غروبُ) المقصود بالأولى مقدمة المقلتين ومؤخرتهما، والثانية يقصد بها الغروب العادي وهو الغيام .

ونحو قوله:

وَإِنَّمـــا سوَّلتْ لِلْقومِ أَنْفسُهــم   أَنْ يَقْطَعُوا سَبَبَ النُّعْمَى بِلاَ سَبَبِ [(١)]

هنا جناس تام بين (سَبَب – سَبَبِ) وهنا يقصد بالأولى جعلها أو صلتها، والثانية يقصد بها الباعث أو العامل .

وقوله:

وَالطَّعن فِي الكَرِّ بَعْدَ الفرِّ مَنْقَصة   وَالضَرْبِ يَقْتَضِب الْأعمارَ بِالقُضُبِ [(٢)]

الجناس الناقص يبدو واضحاً في (يَقْتَضِب – بالقُضْب) وهو جناس اشتقاق .

وقوله من القصيدة نفسها:

بثَّ الندىَ والرَّدى زَجْراً وتَكْرِمة   فَكُل قَلبْ رَهِين للرُّغْبِ والرَّغَبِ [(٣)]

لقد جمع الشاعر في هذا البيتِ بين نوعين من الجناس الناقص ، النوع الأول وهو الجناس المطرف بين (النَّدَى – الرَّدىَ) والآخر وهو الجناس التصحيف بين (الرُّغْبِ – الرَّغبِ) .

وقوله :

سَمَـــا إِليهمْ سُمُوّ الْبَدْرِ تَصْحَبُهُ   كَوَاكِب مِنْ سَحَابِ النَّقْعِ فِي حُجُبِ [(٤)]

فمن الواضح الجناس الناقص بين (سَمَاً – سُموَّ) وهو جناس مذيل.

وقوله :

كَالسَّيْل وَالَّليل لاَ يَنْجو طَرِيدهُماَ   مِنَ المَنِيةَ فِي الإِمْعَانِ بِالْهَرَبِ [(٥)]

استخدم هنا الشاعر الجناس الناقص ونوعه المطرف في قوله (كالسَّيْل – اللّيْل) وهو له أثره في جذب الانتباه .

---

١ – المصدر نفسه – ص ١٣١
٢ – المصدر نفسه – ص ١٢٩
٣ – المصدر نفسه – ص ١٢٩
٤ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ١٣٣
٥ – المصدر نفسه – ص ١٣٦

وإذا ما انتقلنا إلى طلائع بن رزيك نجد أنه استخدم الجناس في مواضع كثيرة من شعره نحو قوله :

وبيض الضُبىَ أحلىَ بِقَلْبي علاَقَة لَدىَ النَّهْرِ منْ بيضِ الظُّباءَ الكَواعِبِ [١]

فالجناس هنا تام (مماثل) بين اسمين هما (بيض – بيضِ) فالكلمة الأولى يقصد بها السيوف والثانية يقصد بها الفتيات الحسان.

وقوله :

تنـــام ومُقلَة الحدثَان يَقْظَـــى وَمـــا نَابَ النَّواتـب عَنْكَ نَابِي [٢]

هنا جناس تام بين فعل ماضٍ + اسم وهما (ناب – نابى) وهو جناس تام مستوفى .

ونحو قوله :

أسامـــة لي منْهُ اعْتزَام أُسَامـــة وَمُرْهَف فِيهِ هزّه المُرْهَف العَضَبِ [٣]

لقد أجاد الشاعر في استخدام الجناس في هذا البيت وهو جنـــاس تـــام (مماثل) بين (أسامَة – أسامَة) فالأولى يقصد بها أسامة بـــن منقـــذ صـــديقه ومخاطبه في الأبيات، ويقصد بالثانية اسم من أسماء الأسد .

وفي الشطرة الثانية جناس تام أيضاً (مماثل) بين (مُرْهَف – مُرْهَـــف) الأولى يقصد بها مرهف بن أسامة بن منقذ، والثانية يقصد بها السيف الحـــاد الدقيق القاطع .

ونحو قوله :

تَوَالَتْ عَلَيْنَا فِي الْكَتَائِب والْكُتُبِ بَشَائِر مِنْ شَرْقِ الْبِلاَدِ وَمِنْ غَرْبِ [٤]

فالجناس الناقص بين (الكَتَائِب – الكُتُبِ) وهو جناس اشتقاق .

وقوله :

ولَماَ أسـر الغَـدْر أوْرَدَتْهُ الرَّدَى فَأوْرَدتُهُ مِنْ رَاحَتَي مَوْرِدَ النَّدى [٥]

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادي الأميني – ص ٥٣
٢ – المصدر نفسه – ص ٥٧
٣ – المصدر نفسه – ص ٦١
٤ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادي الأميني – ص ٥٨
٥ – المصدر نفسه – ص ٧٢

في هذا البيت جناس ناقص بين (النَّدى – الرَّدى) وهو جناس مطرف ، وفي البيت تكرار لحرف الراء واستخدامه في أكثر من كلمة في تلاعب لفظي وحرص على إقامة مصدر صوتي متماثل وذلك في الكلمات (أورَدتُهُ – رَاحتِي – مَوْرِدَ – أسر – الغَدْر – أوْرَدتُهُ – الرَّدى) فنجد أن حرف الرَّاء تكرر سبع مرات في البيت الواحد مما يعطي جرساً موسيقياً يسميه علماء الأصوات بالضفيرة الصوتية .

ومما يمثل هذا الموفق بن الخلال في قوله :

عَذُبتْ ليالٍ بالعُذَيب خَوالي وحلتْ مواقِفُ بالوصالِ حَوَالِي [1]

فالجناس الناقص هنا بين (خَوالى – حَوَالِى) وهو جناس تصحيف وبين (عَذُبتْ – بالعُذَيب) جناس ناقص نوعه اشتقاق .

ونحو قوله من المقطوعة نفسها:

وجلت موردَّة الخدود فَأوثَقَتْ في الصَّبوَةِ الْخالَى بحُسْنِ الخالِ [2]

هنا اعتمد الشاعر على الجناس الناقص المذيل في قوله (الخالَى – الخالِ) ويقصد بالكلمة الأولى الغير مشغول بأمر ما، ويقصد بالثانية الخالَ أو هي العلامة الجميلة في الوجه.

ويأتي على نفس الشاكلة ابن الصيَّاد في قوله :

غَداةَ جَعلَتَ البيضَ أغْمادَها الطُّلاَ وَخَيلَ العِداَ تقْنَى وسُمْرَ القَنَاَ تُقْناَ [3]

فيبدو الجناس الناقص بين قوله (تُقْنَى – تُقْناَ) وهو جناس مذيَّل ويقصد بالأولى الاقتناء أى الملكية ، والثانية يقصد بها لوناً قاتناً أي قريب من اللون الأحمر .

كما يلجأ القاضي الجليس بن الحباب للجناس في شعره في أكثر من موضع ومن أمثلة ذلك قوله :

وَقَدَتْ له الجُرْدَ الخفافَ كأنَّما قَوائمهُا عند الطِّراد قوادمُ
تجافتْ عن الماءِ القرَاحِ فَريهُا دِماءُ العَدا فهي الصوادىْ الصَوادِمُ [4]

---

١ – خريدة القصر – ص ٢٣٥
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٣٥
٣ – خريدة القصر – ص ٢٤٣
٤ – المصدر نفسه – ص ١٩٠

فاعتمد الشاعر في هذين البيتين على الجناس الناقص بين (قَوائم – قَوائمُ) وهو جناس لاحق وفي البيت الثاني جناس ناقص (لاحق) بين (الصَوادىْ – الصَوادِمُ) .

ونحو قوله :

مليكٌ إذَا ألْهىَ الملُوكَ عن اللهُـاَ — خُمَارٌ ، وخمرٌ ، هاجَر الدَلَّ والدَنَّا
ولم تُنسه الأوتَادَ أوتَار قينةٍ — إذا ماَ دعاه السيفُ لم يُثْنِه المثنَى (١)

جمع هنا الشاعر بين بعض أنواع الجناس الناقص والتى تتمثل في جناس التحريف في قوله (ألْلهَي – اللهُا)، والجناس المكتنف أو الزائد في قوله (خمَّار – خمرٌ)، والجناس المذيل في قوله (الدَلَّ – الدَنّاَ)، وفي البيت الثاني جناس ناقص مذيل بين (الأوتَادَ – أوتَار) .

وقوله :

رُبَّ بيضٍ سَلَلْنَ بـاللَّحظ بيضاً — مُرْهَفَاتَ جُفُونُهُنَّ الجفونُ
وخُدُودٍ للدَّمْعِ فِيهاَ خُدُودٌ — وعيونٍ قَدْ فَاضَ مِنهاَ عُيونُ (٢)

ففي البيت الأول جناس تام مماثل بين اسمين هما (بيض – بيضاً) وبين (جفون – جفونُ)، وفي البيت الثاني جناس تام أيضاً (مماثل) بين (خُدوُد – خدوُدٌ) يقصد بالكلمة الأولى جمع كلمة خدود وهو وجه الإنسان، والثانية يقصد بها الشقوق وفي الشطرة الثانية جناس تام بين (عيونٍ – عيونُ) يقصد بالأولى العين وهي أداة البصر عند الإنسان والثانية هي آبار الماء .

ونحو قوله :

جَنَائِبُ: إنْ قِيدَتْ فأُسدٌ، وإن عَدَتْ — بِأبطالَهِـاَ فَهْـيَ الصبَّاَ والجَنَائِبُ (٣)

فمن الواضح الجناس التام (المماثل) بين اسمين وهما (جَنَائِبُ – الجَنَائِبُ) ويقصد بالكلمة الأولى الخيل والثانية يقصد بها الرياح الجنوبيةَ .

كما يعتمد ابن قادوس على الجناس – أيضاً – في شعره كلون بديعي يثرى المعنى ويوضحه فنراه يقول :

أَثرُ المشيب بِفَوده وفُؤادهِ — ألْجَاهُ أنْ يَبغْـى لَدَيْهاَ الْجاَهاَ (٤)

---

١ – المصدر نفسه – ص ١٩٤
٢ – المصدر نفسه – ص ١٩٤
٣ – خريدة القصر – ص ١٩٨
٤ – المصدر نفسه – ص ٢٢٦

فالجناس الناقص يبدو لنا في قوله (فَوْدِه – فُؤَادِه) وهو الجناس المكتنف أو الزائد ويقصد بالكلمة الأولى مقدم الشعْرْ وجانبيه، والثانية يقصد بها قلبه.

وفي الشطرة الثانية جناس تام مماثل بين كلمتين هما (ألجاهُ – ألجاهــا) ويقصد بالأولى فعل بمعنى جعله يلجأ إليه أو يحتاج إليه، والثانية اسم بمعنــى المكانة والسلطة .

ونحو قوله :

يَاشبيــه لُقْمَانَ بِلاَ حكمـــةٍ وخاســراً في الْعِلمِ لاَ راسِخاَ [1]

فالجناس الناقص هنا بين (خاسراً – راسخاً) وهو جناس مقلوب .

وقوله:

وكَــمْ كَرْبَــةٍ يَــوْمَ النِّــزالِ تكــشَّفَتْ بِحَمْلاَتِه وهْــيَ الغَواشــي الغَواشِــمُ
تَشِيدُ بِنــاءَ الْحَمْــدِ والمَجْــدِ بِيضُه وهُــنَّ لأَســاسِ الْهَــوَادِي هَــوادِمُ
رِقَاقُ الظُّبا تجرى بآجالِ نوى الورَىَ وأرزاقِهِمْ ، فَهْي القواسى القواسِمُ [2]

اعتمد هنا الشاعر على الجناس الناقص في قوله (الغَوَاشى – الغَواشِمُ) و (الهَوَادِى – هَوادِمُ) وبين (القَواسى – القَواسمُ) هو جناس مــذيل . وفــي البيت الثاني جناس ناقص بين (الحَمْدِ – المجْدِ) وهو جناس تصحيف .

وقوله :

لاَمَ العَــــــواذلُ مُغرمــــــاً فــــي حــــبِّ مُلْهِيَــــةٍ وَقَيْنَــــة
ولــــو أنهــــنَّ رأيــــن تأ ثِيرَ الغــــرامِ بــــهِ وَقَيْنَــه [3]

فيبدو واضحاً الجناس التام بين (وقينة – وقينه) وهو جناس مماثل بين كلمتين يقصد بالكلمة الأولى الجارية أو المغنية ، والثانية يقصد بها حافظ عليه أو حميه وهو جناس بديع يتناسب مع المعنى الذى أراد الشاعر التعبير عنه .

ويأتي على نفس الشاكله أسامة بن منقذ في استخدامه للجناس بأنواعــه في مواضع مختلفة منها قوله :

يلَصاحِ، مــاَ أصحاكَ عَــنْ سكرَتِي عقلى بِأحوَى ذِى مِراحٍ ورَاَحْ [4]

---

١ – المصدر نفسه
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٢٩
٣ – خريدة القصر – ص ٢٣١
٤ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٦٠

فاستخدم الشاعر في هذا البيت الجناس الناقص في قوله (مِراح - رَاحْ) وهو الجناس المطرف والكلمة الأولى المرح والفرح، والثانية هي اسم الخمر وفي البيت تلاعب لفظي وتكرار لحرف الحاء مما يدل على شغف الشاعر بالبديع والصنعة ، فنجد أنه كرر حرف الحاء في (ياصاحِ – أصْحَاكَ) وبينهما جناس ناقص (اشتقاق) وفي قوله (أحْوى – مِراحِ – رَاحْ) .

ونحو قوله :

وعلامَ أُعمِلُ فكـــرتي في سادرٍ سَاهٍ ، وأسْهـــرُ مُقْلتيَّ لـراقدِ [1]

فالجناس الناقص هنا بين (سادر – سَاهٍ) وهو جناس لاحق ويقصد بالأولى الشخص الذى لا يهتم ولا يبالي بما صنع ، والثانية يقصد بها الشخص الغافل عما حوله.

وقوله :

سَلا قَلبَه: مـــا غالَ حُسْنَ سلُوّهِ وردَّاهُ فـــي غيِّ الهَـــوى وغُلُوّهِ [2]

جمع هنا الشاعر نوعين من الجناس الناقص فالأول في قوله (سُـــلُوّهِ – غُلُوّهِ) وهو الجناس المطرف وبين (سَلاَ – سلُوّهِ) وهو الجناس المذيل .

ونحو قوله :

وأغدُو على أُسوْانَ أسوانَ في الحَشاَ لِبُعـــدىَ عَنها لوعَةٌ وغلَيلُ [3]

فيبدو واضحاً الجناس التام بين اسمين هما (أُسوْان – أَسوْانَ) ويقصد بالكلمة الأولى مدينة بجنوب مصر وهي مدينة أسوان، ويقصد بالثانيــة أنــه حزين مهموم .

ب- الطباق :

وعرفه يحيى بن حمزة العلوى بأنه (يقال لـــه التـضادّ ، والتكـــافؤ ، والطّباق) ، وهو أن يؤتى بالشئ وبضدّه في الكلام . [4]

فهو لون من الألوان البديعية ، وأداة لتجميل الكلام ، ونمط من أنمـــاط الصنعة لإبراز صورة فنية مميزة، وذلك يكون بلفظين مـــن نـــوع واحـــد : اسمين، أو فعلين ، أو حرفين ، وإما بلفظين من نوعين.

---

١ – المصدر نفسه – ص ٦٢

٢ – المصدر نفسه – ص ١٥٥

٣ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٤٥

٤ – يحى بن حمزة العلوي – الطراز – ص ٣٧٧

فمن الأمثلة الدالة على ذلك قول المهذب بن الزبير في مواضع كثيرة في شعره منها قوله :

وما سُمُّهُ غَيرُ الكـــرامِ ، كأنَّما   مناقِبهُمْ – عند الفَخارِ – مثالبُهْ [1]

فالطباق هنا يبين اسم واسم وهما (مناقب – مثالب) وهو طباق لإبراز المعنى وتوكيده.

ونحو قوله :

وكم ليلةٍ ساهرتُ أَنْجُمَ أُفْقِهـا   إذا غابَ عنيَ كوكبٌ لاحَ صـاحبُهْ
يَطولُ عليَّ الليلُ حتـى كأنمــا   مشــارِقهُ للنّاظرين مغـارِبُهْ [2]

ففي البيت الأول الطباق بين (غَابَ – لاَحَ) وفي البيت الثاني طباق آخر بين اسمين وهما (مَشَارِقُهُ – وَمغَارِبُهُ) .

ونحو قوله :

فَوَ الله ماَ أَدْرِى: أَطَرْفِى سـاهِرٌ   علَى طُول هَذَا اللَّيل، أَمْ غيرُ ساَهِرُ؟! [3]

هنا طباق بالسلب بين اسمين أحدهما مثبت والآخر منفى وهما (ساَهِرُ – غَيْر ساَهِرُ) .

وقوله:

يَشْكُو مَصاَئبَ أيّامٍ قد اتَّســعتْ   فضاقَ مِنْهاَ عليــه أَوْسـعُ السُّبُلِ [4]

فالطباق هنا بين فعلين وهما (اتسَّعتْ – فَضاَقَ)

ويأتي على نفس الشاكلة قول عمارة اليمني مستخدماً الطباق في شعره نحو قوله :

وأَنْكَرتَ ما قَدْ كُنْتُماَ تَعرِفاَنـه   وقَدْ يَحْضـرِ الرشدُ الفتَى ويَغيبُ [5]

فالطباق هنا بين فعلين (يَحْضرِ – ويَغيبُ) أفاد المعنى ووضحه .

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٧٧
٢ – المصدر نفسه – ص ١٧٨
٣ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٩٥
٤ – المصدر نفسه – ص ٢١٣
٥ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ١٤١

وقوله في نفس القصيدة :

وماَ أبقَتْ الدّنْياَ علَيْناَ وإنمّا ... سهَامُ المنَاياَ مُخطئٌ ومصيبُ [1]

يبدو واضحاً الطباق بين (مخطئٌ – مصيبُ) وهو طباق بين اسمين .

ومما يمثل استخدام شعراء بني رزيك للطباق – أيضاً – قول المهذب بن أسعد الموصلي في إحدى قصائده المدحية فنراه يقول :

هاَدي الدُعاة أبى الغارَات خيرَ فتىَ ... أدنَى عطِياته أقْصىَ أماَنِيكاَ [2]

هنا الطباق بين (أدنَى – أقْصَى) .

ونحو قوله من القصيدة نفسها :

أمسُوا ملوُكاً ذوى أسرٍ فَصبَّحَهُمْ ... أسدٌ أتُوكَ بِهم أسْرىَ ممَاَلِيكاَ [3]

يأتي الطباق هنا بين (أمسُوا – فَصبَّحَهُمْ) .

ومن الأمثلة الدالة على ذلك – قول ابن قلاقس في إحدى قصائده المدحية :

مَليكٌ أضاَء الليلَ من نُورِ وجْهِهِ ... وأفْعاَله الحُسْنَى وقَدْ كاَنَ مُظْلِماَ [4]

فيبدو لنا الطباق هنا بين (نُورِ – مُظْلِماَ) وهو طباق أفاد المعنى ووضحه .

ونحو قوله من نفس القصيدة :

سلبْتُ العِدَى أثوابَها ونُفوُسَهاَ ... وألْبَسْتَهاَ ثوباً صَفِيقاً من الدّماَ [5]

هنا استخدم الشاعر الطباق بين (سَلَبْت – ألْبَستَهاَ) .

وقوله في موضع آخر من نفس القصيدة أيضاً :

عَلَوْتَ مَحلاً أصبَحَ النجمُ دُونَهُ ... وأدْنَيْتَ ماَ تَحْوىِ يَدَاكَ تَكرُماَ [6]

---

١ – المصدر نفسه – ص ١٤٢
٢ – خريدة القصر – قسم شعراء الشام – ص ٢٨٢
٣ – المصدر نفسه – ص ٢٨٤
٤ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٩٨
٥ – المصدر نفسه
٦ – المصدر نفسه – ص ٢٩٨

فاستخدام الشاعر هنا الطباق الذى يبدو لنا في قوله (عَلَوْتَ - أدْنَيْتَ) كما استخدم لون بديعي آخر في البيت نفسه وهو المقابلة والتى جاءت بين الشطرة الأولى والشطرة الثانية .

ومنه قوله :

بِعَزْمِكَ طارَ العدلَ شَرْقاً وغَرْباً وأنجدَ في أعلىَ البِلادِ وأتْهماَ [1]

استخدم هنا الشاعر الطباق وهو بين (شرقاً -غرباً) وهو مفيدٌ لتوضيح المعنى .

وتكثر الأمثلة الدالة على الطباق في شعر طلائع بن رزيك فمما يمثل ذلك قوله :

مِـــنَ الأَحْبابِ قَرَّبَني ولاَتي وَمِـنَ أعدَاي بَرَّأني بِـراتي [2]

فاستخدم الشاعر الطباق والذى تمثل في قوله (الأحباب - أعداي) وبين (قَرَبَنِي - بَراتى) وبين (ولاتى - براتى) وهو لا يكتفي بذلك بل استخدم لونا بديعيا آخر أفاد المعنى ووضحه وهو المقابلة بين شطري البيت والمقابلة من فنون البديع المعنوية التى من فوائدها إبراز المعنى وتوكيده، ونحو قوله :

ولَستُ أبالِي ان افــارِق كَاذباً إذاَ كُنْتُ في حَوزِ امرءِ غَيْرِ كاذبِ [3]

وفي قوله :

ولَماَ نَأَتْ عنَّا ، علَى كُل حالَةٍ تَساَوى الرِّضاَ والسُّخط والقُرب والشَحطُ [4]

فيبدو لنا الطباق واضحاً بين (الرِّضـا - السَّخْط) وبين (القُـرْب - والشَحْط) .

وقوله :

فَإنْ تَبْعِدوُا عنَّا فَفي حِفْظِ رَبِّكمْ وإن تقربوا منَّا فَفِي المَنْزِلِ الرَّحْبِ [5]

لجأ هنا الشاعر للطباق بين (تَبْعِدواَ - تَقْرِبوُا) كما استخدم المقابلة التى تتمثل في المقابلة بين الشطرتين .

---

١ - المصدر نفسه

٢ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق محمد هادي الأميني - ص ٥١

٣ - المصدر نفسه - ص ٥٥

٤ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق محمد هادي الأميني - ص ٨٥

٥ - المصدر نفسه - ص ٦١

وهذا ابن الصيّاد نجد أنه استخدم الطباق في شعره فمن ذلك قوله :

غداةَ جَعَلَتَ البيضَ أغمادَها الطُّلاَ وخَيَلَ اليداَ تُقْنَى وسُمْرُ القَنَا تَقْنَا[١]

فالطباق هنا بين (البيضَ – سُمر القَنَا) ويقصد بكلمة الأولى السيوف، والثانية هي الرماح .

ونحو قوله :

فذلُّوا كأنَّ العزَّ ما كــــان بَيْنَهُمْ وَصارُوا كأنَّ الفَقْر عندهُم قبْرُ [٢]

فيبدو من الواضح الطباق بين (ذَلُّوا – العزَّ) .

ومما يمثل ذلك قول القاضي الجليس بن الحباب :

عَدَلْتَ وقَدْ قَسَمْتَ وكَـــم مُلُوكِ أرَادوا العـــدلَ في قَسْمٍ فجَارُواْ [٣]

فهنا الطباق بين (عَدَلْتَ – جارُوا) .

وفي قوله :

ولَوْ جـــادَ بالدُّنياَ وعَادَ بِضَعْفِهاَ لظنَّ مِنْ استِصْغارِهِ أنـــه ضَنَّا [٤]

وهنا الطباق بين (جَاد – ضَنَّا).

ويأتي على نفس الشاكلة قول ابن قادوس الذى اتخذ من الطبـاق لونـاً بديعياً يوضح به المعنى الذى يريد التعبير عنه ، ومن ذلك قوله :

أكـــرِمْ بِقَلْبِـــى لِلأحبَّةِ مَنْزِلاَ رَبَعـــوُا بـــه أمْ أزْمَعُوا مُتَرَحِّلاَ [٥]

فالطباق هنا بين (رَبَعوُا – أزْمَعوُا مُرْتَحَلا) ويقصد بـالأولى أقـاموا، والكلمة الثانية يقصد بها رحلوا .

وإذا ما انتقلنا إلى أسامة بن منقذ نجد اهتمامه بالطباق كلون بديعي يزين به شعره في مواضع مختلفة منها قوله :

وَماَ بَالهُ تَلْقِى البَرِئُ مـن الضَّنَى جَرِيرةَ مـا يأتى المسئُ مِنْ الذَّنْب [٦]

---

١ – خريدة القصر – ص ٢٤٣
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٤٤
٣ – المصدر نفسه – ص ١٩٢
٤ – المصدر نفسه – ص ١٩٤
٥ – خريدة القصر – ص ٢٢٨
٦ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٥٢

فيبدو الطباق بين (البَرِئَ – المَسِئَ) .

ونحو قوله :

شَمْسٌ وليلٌ، فاعْجب لِشَمْسِ ضُحَى تَشْـــرقُ، واللَّيْل راكـــدٌ يَدْجــوُ [١]

استخدم هنا الشاعر الطباق وهو بين (شَمْسٌ – لَيْلٌ) كما استخدم لـــون بديعي آخر في البيت نفسه وهو المقابلة والتي تتمثل في قوله :

فاعْجِـــب لِـــشَمْسِ ضُـــحَى تَـــشْرُقُ
وَاللَّيْـــــــل راكِـــــدٌ يَدْجـــــــوُ

ونحو قوله :

أجيرةَ قَلبي، إن تداَنوا، وإن شَطُّوا ومُنْيةَ نفسى، أنْصَفُوني أو اشْتَطُّوا [٢]

هنا الطباق بين (تَداَنوْا – شَطُّوا) وبين (أنْصفُوني – اشْتَطُّوا) .

وهذه القصيدة كلها معارضة لقصيدة أبى العلاء المعرى التى مطلعها :

لِمَنْ جِيرَةَ سِيَموُا النَّـــوال فَلَمْ يَنْطوُا يَظلهـــم مـــاَ ظَلَّ بِنَبْنَبه الخَطُّ

وفي قوله :

لَكَ أنْ أُطِيعَكَ راضـــياً أو ساَخِـــطاً وأصُونُ سِرَّك راَجِياً أو قاَنِطاً [٣]

يبدو لنا واضحاً الطباق في الشطرة الأولى بين (راضياً – ساخطاً) وفي الشطرة الثانية بين (راَجِياً – وقاَنِطاً) .

---

١ – المصدر نفسه
٢ – المصدر نفسه – ص ١٢٨
٣ – المصدر نفسه – ص ١٢٨

الفصل السادس
البنية الموسيقية

" الوزن الشعري أعظم أركان حد الشعر ، وأولاهابه خصوصية وهو مشتمل على القافية وجالب لها " [١] . على هذا النحو جاء تعريف ابن رشيق للوزن في معرض حديثه عن أركان الشعر، وهو حديث يجعلنا ندرك ما للوزن من أهمية بالغة في النص الشعري .

ولقد أولى النقاد القدماء فائق عنايتهم بموسيقى الشعر ومصادرها ، وحرصوا في تعريفاتهم للشعر وأركانه على وجود ركنين مهمين للنص الشعري، وهما ركنان أساسيان لا غنى عنهما وهما (الوزن أو ما يعرف بالموسيقى الخارجية أو موسيقى الإطار وكذلك الإيقاع الداخلي المتمثل في موسيقى النسيج أو ما أسماه البعض بالموسيقى الداخلية والركن الآخر القافية التى لا تقل أهمية عن الوزن) .

أولاً: الوزن :

الوزن هو أهم مصادر الإيقاع الخارجي في الشعر العربي ، في إطاره ينشد الشاعر ألحانه، ومن خلاله يوقع أغانيه ، والوزن هو الصفة الجوهرية للشعر، ويرى بعض النقاد أن الشعر موسيقى تحولت فيه الفكرة إلى عاطفة.[٢]

ويؤكد كروتشه على أهمية الموسيقى في الشعر فيقول : (إنك لو جردت الشعر من أبحره وألفاظه وقوافيه ، لما بقى هنالك فكرة شعرية كما يخيل إلى بعضهم ، بل لما بقى شئ البتة، فإنما نشأ الشعر مع هذه الألفاظ وهذه القوافي وهذه الأبحر) . [٣]

ويذهب تشارلتن إلى أن (الشعر بناء موسيقى باللغة، فالموسيقى سلسلة صوتية تنبعث عنها المعاني ، لأن الشعر في حد ذاته تنظيم لنسق من أصوات اللغة تنظيماً يحدث نوعاً من الإثارة، فالإنسان مفطور بطبعه على إيثار الصوت الموسيقي المنغوم) . [٤]

والقصيدة العربية ارتبطت منذ نشأتها بالإنشاد ، لذا كان الوزن عنصراً أساسياً من عناصر القصيدة بل لعله أهم عناصرها ، ولذلك حرص الشعراء

---

١ – ابن رشيق – العمدة – ج١ – ص ٧٧

٢ – د. مصطفى سويف – الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة – دار المعارف – الطبعة الثالثة – ١٩٦٩م – ص ١٥ ، ص ١٧

٣ – بندتوكروتشه – المجمل في فلسفة الفن– ترجمة سامى الدروبى– دار الأوابد – دمشق – الطبعة الثانية – ١٩٦٤م – ص ٧٠

٤ – هـ.ب – تشارلتن– فنون الأدب– ترجمة د. زكي نجيب محمود – لجنة التأليف والترجمة والنشر– الطبعة الثانية – ١٩٥٩م – ص ٦٠

منذ العصر الجاهلي على أن يوفروا لقصائدهم لوناً من الإيقاع الـذى يعلـق بالسمع ويضمن لشعرهم الذيوع والانتشار .

وتبدو لنا أهمية الوزن وقيمته من خلال اهتمام النقاد القـدماء بركنـي الشعر الأساسيين وهما الوزن والقافية ، ويبدو هذا من خلال تعريفاتهم للشعر:

فنجد أن قدامة بن جعفر يذهب في تعريفه للشعر إلى (أنه قول موزون مقفى يدل على معنى والمفردات التى يحيط بها حد الشعر هي : اللفظ والمعنى والوزن والتقفية) . (١)

ونجد ابن رشيق في تعريفه للشعر يقول في باب حد الشعر بعد النيـة : (وإنه مكون من أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية، فهذا هو حد الشعر لأن من الكلام كلاماً موزوناً مقفى وليس بشعر لعدم الصنعة والنيـة ، كأشياء اتزنت من القرآن ومن كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر) . (٢)

ويكاد يكون تعريف ابن خلدون للشعر المنظوم تعريفـاً عروضـياً ، إذ يقول : (وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذى تكون أوزانه كلها على روى واحد وهو القافية) . (٣)

فنجد ابن خلدون يحدد ميزات الشعر في الوزن والقافية .

وعلى هذا النحو نجد أن النقاد القدماء من علماء العربية لا يرون فـي الشعر أمراً جديراً يميزه عن النثر إلا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافي .

ورغم اختلاف القدماء والمحدثين حول وضع تعريف قاطع محدد للشعر إلا أنهم اشترطوا وجود عنصرين مهمين في تعريف الشعر أحدهما: العاطفـة المستندة بفكرة ، والآخر وسيلة التعبير وهي الخيال واللغة الموزونة المقفـاة ، ولهذا يخلص الأستاذ أحمد الشايب إلى أن تعريف الشعر هو (الكلام الموزون المقفى الذى يصور العاطفة والعقل) . (٤)

---

١ – قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص ٣ ، ص ٧

٢ – ابن رشيق – العمدة – الجزء الأول – ص ٧٧

٣ – ابن خلدون– كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومـن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر– المقدمة – مطبعة مصطفى محمد– القاهرة – ص ٦٤٧ – الفصل الرابع والأربعون بعنوان : في انقسام الكلام إلى فنى النظم والنثر .

٤ – أحمد الشايب – أصول النقد الأدبي– مكتبة النهضة المصرية – القـاهرة – الطبعـة العاشرة – ١٩٩٩م – ص ٢٩٨

وعلى هذا فيجب ارتباط الوزن مع العاطفة ، فلا يكون حلية لا علاقة لها بعاطفة الشاعر ، بل يكون الوزن ظاهرة طبيعية لتصوير العاطفة لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً، وذلك لأن العاطفة تؤثر تأثيراً واضحاً في نظم الشعر وتخير الشاعر لبحر دون بحر وعلى هذا يكون الوزن من أظهر خواص الشعر ومن أبرز عناصره .

ويؤكد على هذا كولردج إذ يرى أن الوزن الشعري أو الموسيقى الشعرية جزء لا يتجزأ من الإنتاج الشعري، وكان في تحليله للنماذج الشعرية المختلفة يوضح كيف يؤكد الوزن المعنى، وكيف تؤثر العاطفة في الوزن والنغم، بل كيف يعبر عن شخصية المتكلم؛ فالوزن عنده ينبع من حالة التوازن في النفس التي توجد نتيجة الصراع بين نزعتين متضاربتين أولهما إطلاق العاطفة الثائرة، وذلك عن طريق فرض نظام عليها أو وحدة موسيقية تتكسر بشئ من النظام). (١)

ويرى النقاد أن الشاعر لا يتخير الوزن العروضي قبل أن يكتب قصيدته ولكن التجربة الشعرية هي التي تفرض عليه أوزاناً ما ، وقد ناقش كثير من القدماء والمحدثين قضية ارتباط الوزن الشعري والموضوع ؛ فمنهم من ربط بين الموضوع الشعري والوزن فرأى أن لكل وزن طبعاً يرافقه في شاعرية الشعراء ويميل إليه كلامهم (فالشاعر المتكمن القدير إذا استخدم البحر الوافر اعتدل كلامه وزال عنه ما يوجد فيه من غيره من قوة العارضة وصلابة النبع وإذا سلك البحر الطويل توعر في كثير من نظمه حتى يتبغض كما هو الحال في شعر أبى العلاء، فالكلام تختلف أنماطه باختلاف ما يجري فيه من أوزان وللأعاريض درجات أعلاها الطويل والبسيط فهما من الأعاريض الفخمة الرضية التى تتصلح لمقاصد الجد كالفخر ونحوه، ففي الطويل بهاء وقوة ، وللبسيط بساطة وطلاوة ، ويتلوهما الوافر والكامل ثم الخفيف وله جزالة ورشاقة ، فأما المديد والرمل ففيهما لين وضعف ، فأما الأوزان المستكرهة فالمنسرح، والسريع، والمتقارب ، والهزج ، والمجتث ، والمقتضب ، والمضارع) (٢)

---

١ – كولردج – سلسلة نوابغ الفكر العربي – بقلم د. محمد مصطفى بدوي – دار المعارف – الطبعة الأولى – القاهرة – ١٩٨٨م – ص ٩٨ وما بعدها .

٢ – القرطاجني– حازم بن محمد بن حسن بن حازم – منهاج البلغاء وسراج الأدباء – ص ٢٥٨ وما بعدها .

وهذا الربط بين الموضوع والوزن جذب انتباه عدد من النقاد والمحدثين، فأعجبوا به كثيراً ووضعوا له دراسة وافية ، ومن أكثرها إيفاءاً ما كتبه البستاني في مقدمة ترجمته للإلياذه فقد تناول البحور الشعرية وما يصلح له كل بحر ، والمعاني التى تصلح لبحر دون غيره . [١]

وهناك من لا يعتقد بصحة هذا الربط بين الوزن والموضوع الشعري ومن هؤلاء الدكتور إبراهيم أنيس الذى يرى (أن استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرنا بمثل هذا التخير، أو الربط بين موضوع الشعر ووزنه؛ فهم كانوا يمدحون ويفاخرون أو يتغزلون في كل بحور الشعر التي شاعت عندهم، ويكفي أن نذكر المعلقات التي قيلت كلها في موضوع واحد تقريباً، ونذكر أنها نظمت من الطويل والبسيط والخفيف والوافر والكامل ، لنعرف أن القدماء لم يتخيروا وزناً خاصاً لنوع خاص) . [٢]

ومهما يكن من أمر فإن الوزن له صلة عضوية بالنص الشعري ، وذلك بما يبعثه من موسيقى مؤثرة في النفس والحس معاً، ويبدو أن أول صورة راقية لأنغام الشعر العربي وألحانه كانت صورة العصر الجاهلي والتي أخذت صورتها النهائية في تلك الأوزان والبحور التي اكتشفها الخليل ابن أحمد فوضعها في علمي العروض والقوافي . [٣]

وبدراسة الوزن في شعر شعراء بنى رزيك نجد أنهم قد أولوا الأوزان اهتماماً كبيراً، ونجد أن الشعراء لم يخرجوا عن الوزن العروضى التقليدي الموروث عن الخليل بن أحمد ، فداروا في فلكها ونسجوا على منوالها، واعتمدوا اعتماداً واضحاً على البحور الشائعة والمتداولة في صورتها التامة والمجزوءة ، ولم يستعينوا بالبحور النادرة الاستخدام أو القليلة أو المهملة أو الصور المعكوسة أو المقطوعة أو المنهوكة .

ويتبين لنا من خلال استعراض نماذج تطبيقية للأوزان الشعرية التي اتكأ عليها شعراء بنى رزيك، أنهم أكثروا من استخدام بحر الكامل ، فكان صاحب النصيب الأوفر في الاستخدام، وهو بحر صافي التفعيلة الذى يعتمد على تفعيله موحده، وبحر الكامل هو أحد البحور المهمة التى صاغ فيها

---

١ - نقلاً عن د. عبد الفتاح صالح نافع – عضوية الموسيقى في النص الشعري– مكتبة المنار– الأردن– الطبعة الأولى – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م – ص ٧٠

٢ - د. إبراهيم أنيس – موسيقى الشعر – مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الخامسة – ١٩٧٨م – ص ١٧٧

٣ - د. عبد الفتاح صالح – عضوية الموسيقى في النص الشعري – ص ٦٧

الشعراء العرب منذ القدم أشعارهم، وهو البحر الذى تكثر فيه الحركات، فهو أكثر البحور حركات فهو يحتوي على ثلاثين حركة، وليس في الشعر شئ له ثلاثون حركة غيره) . [1]

ومن شواهده في شعر شعراء بنى رزيك نجد قول المهذب بن الزبير:

هُمْ نُصبُ عينى: أنْجَدوُا أو غارَوُا		ومُنَى فُؤادِى: أنصفُوا أو جارُوا [2]

فنجد أن المهذب يعتمد في هذه القصيدة على بحر الكامل وزناً شعرياً لأبياته، ولم يحدث للكامل أى تغيير فهو في صورته التامة المكونة من :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن		متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وإن حدث إضمار في عدد من تفعيلاته، وهذا البحر كما ذكرنا آنفا من البحور موحدة التفعيلة أو كما يسميها العروضيون الصافية، وقد اعتمد المهذب على بحر الكامل ٤ مرات في قصائده، وهو يمثل المرتبة الثانية بعد بحر الطويل ، وقبل البسيط الذى يأتي ثالثاً في اعتماد المهذب على البحور العروضية، كما جاء استخدام المهذب للكامل في صورته المجزوءة مرة واحدة تمثل في قوله:

بالله ياريحَ الشَّما		لِ إذاَ اشْتَملتِ اللّيلَ بُرْدا [3]

متفاعلن متفاعلن		متفاعلن متفاعلن

كما اعتمد على بحر الكامل عمارة اليمني ، فجاء في المرتبة الأولى من حيث العدد، حيث يبلغ استخدامه عند عمارة في قصائده ٢٧ مرة وهو ما يعكس لنا اهتمامه ببحر الكامل ، واهتمامه بصياغة الأشعار في هذا الوزن العروضي، ومن الأمثلة الكثيرة التى نجدها في شعر عمارة نجد قوله :

بصِفَاتِ مَجْدِكَ يَشرفُ التَّمْجِيدُ		وبِنوُرِ وَجْهِكَ يَشْرِقَ التَّوْحِيدُ [4]

---

١ – الخطيب التبريزى– الوافي في العروض والقوافي ، القاهرة – ١٩٦٥م – ص ٧٨

٢ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٩٠

٣ – المصدر نفسه – ص ١٨٦

٤ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٣١٦

فنجد أن الشاعر اعتمد على بحر الكامل ، حيث أتى الكامل تاماً ليس فيه أي علة ، وهذه الأبيات في المدح المذهبي الذى عرف به عمارة وشهر به من حبه للفاطميين وإخلاصه ومودته للصالح بن رزيك، فضلاً عن حرصه الذى يتضح لنا من خلال قصائده كلها – على ما يسميه البلاغيون بالتصريع.

وكما جاء استخدم عمارة لبحر الكامل في صورته التامة استخدمه أيضاً في صورته المجزوءة، وجاء ذلك في مرتين من شعره ومثال ذلك قوله :

لَـــولاَ جُفُـــونٌ ومُقَـــلْ مكحُولـــةٌ مِـــنَ الْكُحْـــلْ [1]

يمدح عمارة في هذه الأبيات الملك الناصر بن طلائع بن رزيك وإذا ما لحظنا نجد أن عمارة يحرص على استخدام بحر الكامل بصورة واضحة في قصائد المديح، وهذه ملاحظة مهمة لشاعر يعتمد على بحر الكامل وهو بحر كما أوضحنا من قبل صافى التفعيلة لتناسب التعبير عن الأغراض الشعرية .

وكذلك اعتمد أسامة بن منقذ اعتماداً واضحاً على بحر الكامل ، فنجد أن أسامة يلجأ إلى صياغة أشعاره في بحر الكامل عدداً كبيراً من المرات يصل إلى ١٣٧ مرة ، وفي هذا توضيح لاهتمامه ببحر الكامل وصياغة معظم أشعاره فيه.

ولقد أتى بحر الكامل عند أسامة على أكثر من صورة ، فأتى منه الكامل التام مثل قوله :

لَوْ أحسَنُوا فِي مَلِكنا، أو أعتَقُــوا لَصَفَا لَهُــم مِنْ وُدِّنا مــارَنَّقُوا [2]

فنرى أن أسامة استخدم الكامل في صورته التامة التى لم يصبها علة من العلل العروضية.

كما أنه استخدم الكامل المقطوع ، وهو الذى أصابته علة القطع مثل قوله :

لاَ تُفْسِـــدَنَّ نَصِيحَتِـــى بِشِقَـــاقِ وأبِيكَ مَـــا السُّلْوانُ مِنْ أخْلاَقِي [3]

فنجد أن التفعيلات تكون على النحو التالي :

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٧٩٨
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٣٧
٣ – المصدر نفسه – ص ١٨١

متفاعلن متفاعلن متفاعلْ   متفاعلن متفاعلن متفاعلْ

كما أن أسامة استخدم الكامل في صورته المجزوءة وذلك في قوله :

يـــادَهْــرُ ، كَـــمْ هَـــذَا التَّفرُّ   قُ . والتَغَـــربُ ، والشَتَـــاتُ [١]

وهو مجزوء مرفل ، وعلى هذا النحو يأتي استخدام أسامة في شعره لبحر الكامل حيث استخدمه تاماً ومقطوعاً ومجزوءاً.

وإذا ما انتقلنا إلى طلائع بن رزيك نجد أن بحر الكامل عنده يحتل المرتبة الأولى في الأوزان الشعرية التى استخدمها في صياغة أشعاره ، فقد استخدم بحر الكامل ١٢ مرة وذلك مثل قوله:

مـــاَ كَانَ أوّلَ تَائِه بِجَمَالِـــــه   بَدْر مَنَـــالَ الْبَدرِ دُوْنَ مَنَالِه [٢]

وهنا البحر جاء في صورته التامة ، كما أنه استخدم الكامل في صورته المقطوعة ومثل ذلك قوله :

لَوْلاَ قَـــوامَكَ ياقَضيب الْبَـــاَن   لَمْ يَحْسـن القُضْبَاَن في الكُثْبَاَنِ [٣]

كما أن طلائع استخدم بحر الكامل في صورته المجزوءة في شعره ثلاث مرات مثل قوله:

يارَاكِـبَا قَطَـــع الْقَـــرِيناَ   بِالْعَيْـسِ اذْ تَشْكُـــو البْرِينَا [٤]

ويأتي بحر الطويل في المرتبة الثانية من حيث استخدام شعراء بني رزيك له في أشعارهم، فنجد أن المهذب بن الزبير يستخدم بحر الطويل ٦ مرات في شعره، وهو بهذا يأتي في المرتبة الأولى في شعر المهذب .

وبحر الطويل يأتي في شعر المهذب في صورته المقبوضة حيث يكون العروض مقبوضاً والضرب أيضاً، وذلك مثل قوله:

هُوَ الدَّهر، فانْظُر أيَّ قِرْنِ تُحاربُهْ   وقَـــدْ دَهَمَتْنَا دُهْمُهُ وأشَاهِبُـــهْ [١]

---

١ – المصدر نفسه – ص ٣٤٦
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادي الأميني – ص ١٢٦
٣ – المصدر نفسه – ص ١٤٣
٤ – المصدر نفسه – ص ١٥٠

فنجد أن تفعيلات هذا البحر كما وضعها العروضيون هي :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن　　　فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

وبحر الطويل من البحور شائعة الاستخدام في الشعر العربي القديم ، وهو من البحور المعروفة بالجزالة لذلك نجد أن شعراء بني رزيك حرصوا على استخدام هذا البحر لتعدد سكناته وحركاته . ولأنه يعطي مساحة كبيرة للتعبير عن المعاني .

ولا نجد لبحر الطويل صورة أخرى في شعر المهذب بن الزبير .

وإذا ما انتقلنا إلى عمارة اليمني لوجدنا أنه استخدم بحر الطويل ٢٦ مرة ، وهو يمثل المرتبة الثانية في استخدامه للأوزان الشعرية بعد بحر الكامل ومن ذلك قوله :

هَلْ القَــلْب إلاّ مُضْغَةٌ تَتَقلَّبُ　　　لَهُ خَاطِر يَرْضَى مِرَاراً ويَغْضَبُ (٢)

وهو أيضاً في صورة بحر الطويل المقبوضة في العروض والضرب .

ونجد لبحر الطويل صورة أخرى في استخدامات عمارة له ، فنجد أنه يستخدمه على النحو الذى تصيبه علة الحذف ، وذلك مثل قوله :

أُنَادِي مِنَ الأَخَــوانِ غَيْرَ مُجِيبِ　　　وأمْدَح بِالأَشْعَارِ غَيْرَ مُثِيبِ (٣)

وهذه الصورة تكون على النحو التالي :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعــى　　　فعولن مفاعيلن فعولن مفاعــى

حيث تصيب علة الحذف العروض والضرب ، وتأتي هذه الصورة في أكثر من موضع في شعر عمارة وذلك أيضاً مثل قوله :

سَأَبْكِــي عَلَى ابْنِى مُدَّتِى وَحَيَاتِى　　　وَيَبْكِيهِ عَنِّى الشِّعْر بَعْدَ مَمَاتِــى (٤)

ويبدو أنه قد وجد أن هذه الصورة تناسب غرض الرثاء والشكوى .

---

١ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٧٧
٢ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الأول - ص ١٩٢
٣ - المصدر نفسه - ص ٢٤٤
٤ - المصدر نفسه - ص ٢٤٦

وإذا ما انتقلنا إلى شاعر آخر مثل أسامة بن منقذ لوجدناه يعتمد اعتماداً كبيراً على بحر الطويل، فيأتي في المرتبة الثانية بعد استخدامه لبحر الكامل ، فيستخدم أسامة بحر الطويل ١٠٤ مرة ومن ذلك قوله :

أَأَحبابَنا، مــاَ مِصرُ بَعْــدكُمْ مِصرٌ ولَكِنَّهاَ قَفْرٌ، إليكُـــم بِهــا فَقْرٌ (١)

وهذا الاستخدام لبحر الطويل يأتي في صورته التامة غيــر المقبوضـــة وتكون تفعيلات هذه الصورة على النحو التالي :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وتلك الصورة هي الصورة التامة في بحر الطويل والتـــى لا يـــصيبها قبض، كما استخدم أسامة بحر الطويل في صورته المقبوضة ، وذلـــك نحـــو قوله :

لَكَ الفضلُ من دون الوَرى والمكارمُ فَمنْ حاتمٌ، ما نَالَ ذا الفخرَ حاتمٌ (٢)

كما أن أسامة استخدم الطويل في صورته التى يصيبها علة الحذف في العروض والضرب وذلك مثل قوله :

إِلَيكِ ، فماَ تثنى شنُوئَك شاَنِي ولا تَملك العينُ الحِسَانُ عِناَنِي (٣)

وعلى هذا النحو يأتي استخدام أسامة لبحر الطويل في صوره الثلاثـــة المعروفة في العروض العربي تاماً، ومقبوضاً، ومحذوفاً .

فإذا ما انتقلنا إلى طلائع بن رزيك لوجدنا أنه استخدم بحر الطويل ١٠ مرات ، وهو بهذا يمثل المرتبة الثانية في استخداماته للأوزان الشعرية ، ونجد أن طلائع أيضاً استخدم بحر الطويل في صوره الثلاثة ، فأتى فـــي صـــورته المقبوضة وذلك مثل قوله :

لِذاَذَةَ سَمْعِي فِـــي قِــراَعِ الْكَتاَئِب أَلَذُّ وأَشْهَى مِنْ عِتاَبِ الحَباَيِب (٤)

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٧١
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٧٤
٣ – المصدر نفسه – ص ٢٧٨
٤ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٥٣

فتأتي هذه الصورة من صور بحر الطويل على النحو الـذى ذكرنـاه سابقاً وهو:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلـن   فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلـن

كما أنه استخدم بحر الطويل في صورته التامة وذلك في قوله :

تَوالَتْ عَلَيْنا فِي الْكَتائِبِ والكُتُبِ   بَشائِرِ مِنْ شَرْقِ البِلادِ ومِنْ غَرْبِ [١]

واستخدم بحر الطويل في صورته المحذوفة ، وذلك مثل قوله :

هَلْ الوَجْــد الاَّ زَفْــرةَ وَأنِينْ   أمْ الشَّوْق ، الاَّ صَبْوةَ وحَنِين [٢]

وعلى هذا النحو يأتي استخدام هؤلاء الشعراء لبحر الطويل اسـتخداماً مدركاً لصوره الثلاثة .

ويأتي بحر البسيط في المرتبة الثالثة من حيث عدد مرات الاستخدام في شعر هؤلاء الشعراء.

فاستخدمه المهذب ثلاث مرات وذلك مثل قوله :

كَمْ كُنْتُ أسمعُ أنَّ الدَّهْرَ ذُو غِيَرٍ   فَالَيومَ بِالخُبْرِ أسْتَغْنى عن الخَبَرِ [٣]

وبحر البسيط من البحور مزدوجة التفعيلة حيث يأتي في صورته التامة وتكون تفعيلاته على النحو التالي :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن   مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

حيث يأتي العروض والضرب مخبونين دائماً إلا في حـالات نـادرة، والمهذب استخدم البسيط في صورته التامة ، ولم يأتِ في شعره بأى صـورة من صور بحر البسيط الأخرى .

ويأتي عمارة اليمني ليعتمد على بحر البسيط في شـعره ١٠ مـرات ، وهو بهذا يأتي في المرتبة الثالثة من حيث عـدد مـرات اسـتخدام الأوزان

---

١ – المصدر نفسه – ص ٥٨

٢ – المصدر نفسه – ص ١٦٠

٣ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٩٦

الشعرية في شعره بعد بحر الكامل والطويل، ومن أمثلة استخدام عمارة لبحر البسيط قوله :

الْحَمد لِلْعَيْس بَعْد الْعَزم والهِمَمِ   حَمْداً يَقوْم بِماَ أوْلَتْ مِنَ النّعمِ (١)

وهذه القصيدة هي أول شعر قاله عمارة في مصر ، ويأتي فيه بحر البسيط في صورته التامة، فنجد أن العروض والضرب قد أصابهما زحاف الخبن .

وإذا ما انتقلنا إلى شعر أسامة بن منقذ لوجدناه استخدم بحر البسيط ١٠٠ مرة ، وهو بهذا يمثل المرتبة الثالثة وهذا يدل دلالة قاطعة على اهتمام أسامة بصياغة أشعاره في ذلك البحر العروضى ، ومن ذلك قوله :

أَجِبْ دَوَاعِي الهَوىَ بِالأَدْمُعِ السُّجُمِ   وَبُحْ ، فما الحبُّ في حالٍ بمُكْتَتَمِ (٢)

أما طلائع بن رزيك فيستخدم بحر البسيط ٩ مرات حيث يأتي أيضاً في المرتبة الثالثة من حيث استخدامه للأوزان الشعرية، وبحر البسيط في شعر طلائع يأتي في صورته المعهودة المعروفة التى أوضحناها قبلاً وذلك مثل قوله :

ياَصاَحِبَيَّ بِجَرْعاَء الغُوَيْر قِفاَ   نَجِدْ لِمَنْ بَانَ بالدَّمعِ الذي وكَفاَ(٣)

ونجد أن طلائع قد لجأ إلى صورة أخرى من صور البسيط ، وهي ما يسميه العروضيون بمخلع البسيط وذلك في قوله :

ياتُرْبَــــةَ بِالْطَف جــــادَتْ   فَــوقَكَ الدِّيَـــم الهَمُــوعَه (٤)

وهذه الصورة تكون تفعيلاتها على النحو التالي :

مستفعلــن فاعلــن فعولــن   مستفعلــن فاعلــن فعولــن

وعلى هذا النحو يأتي استخدام هؤلاء الشعراء لبحر البسيط الذى يأتي في أشعارهم في المرتبة الثالثة .

وهذه البحور الثلاثة تمثل الركن الأساسي في استخدام هؤلاء الشعراء للأوزان الشعرية لأن استخدامهم لباقي الأوزان الشعرية يأتي استخداماً منفرداً

---

١ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٨٦٤
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٩٤
٣ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٩٥
٤ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٩٢

أو يستخدمه الشاعر مرتين على الأكثر. رغم أننا نجد استخدام طلائع بن رزيك لبحر الوافر ٣ مرات ، ومن ذلك قوله :

مِنَ الأحْبَابْ قرَبنِي وِلاَئِي وَمِنْ أعـــــداى بَرأنِي برائيِ (١)

ويستخدمه أيضاً عمارة اليمنى ٣ مرات ، ومن ذلك قوله :

صَفَا كَدَرُ الشَّرِيعَةِ واسْتَقَّرا وأُيِّد أمرُهـــــا بكَ واسْتَمرًا (٢)

واستخدمه المهذب بن الزبير مرتين ، ومن ذلك قوله :

أميرَ المؤُمنِين ، وَخيرَ ملْجا يُسَارُ إلى حِمَاهُ ، وخَيْرَ حَامِ (٣)

ومعلوم أن بحر الوافر من البحور الموحدة التفعيلة الذى يعتمد على تفعيلة (مفاعلتن) وتتكرر ثلاث مرات في كل شطرة إلا أنه لا يستعمل في العروض العربي إلا مقطوفاً .

والقطف هي علة تصيب التفعيلة الثالثة من كل شطرة فتتحول (مفاعلتن) إلى (مفاعلْ) ، والتي ينقلها العرضيون إلى (فعولن) .

فتكون تفعيلات بحر الوافر على هذا النحو :

مفاعلـتن مفاعلـتن فعولـــن مفاعلـتن مفاعلـتن فعولـــن

ومن الأبحر التى لجأ إليها أيضاً شعراء بنى رزيك نجد بحر الخفيف حيث استخدمه أسامة بن منقذ ٢٧ مرة وذلك نحو قوله :

كُلُّ شئٍ تَراهُ فـــي هَـذه الدُنـــ ـــياَ خيالٌ إذاَ انْتَبهتَ يَزولُ (٤)

واستخدمه عمارة اليمنى ٦ مرات ، وذلك نحو قوله :

قُلْ لِمَنْ يُرْتَجَـــى طَنينَ الــرَّبَاب عِنْـدَ تَغْرِيدِ طَائِرَاتِ الذُّبَابِ (٥)

واستخدمه طلائع بن رزيك مرتين ، وذلك في قوله :

أنَاَ مِـــنْ شيعَةِ الامِـــاَم (علِي) حَرْبُ أعْداَءِه ، وسِلْم الوَلِي (١)

---

١ – المصدر نفسه – ص ٥١
٢ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٥٩٥
٣ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢٤
٤ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٣٠٦
٥ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الأول – ص ٢٢٤

ولم يلجأ إليه المهذب بن الزبير ، ومعلوم أيضاً أن بحر الخفيف من الأبحر مزدوجة التفعيلة حيث تأتي تفعيلاته على النحو التالي :

فاعلاتن مستفع لـن فاعلاتن   فاعلاتن مستفع لـن فاعلاتن

ونجد أن الشعراء لجأوا في مرة واحدة إلى استخدام بحر مثل بحر المتقارب، والسريع، والرمل ، والرجز .

وعلى هذا النحو يأتي استخدام شعراء بنى رزيك (الذين لهم دواوين شعرية) لبحور الشعر العربي، وجاءهذا الاستخدام للبحور الشعرية المتداولة والمشهورة، وأكثر هذه البحور شهرة وتداولاً في الشعر العربي هو كما جاء في هذه الدراسة من استخدام بحر الكامل ، ثم بحر الطويل ، ثم بحر البسيط، وآثر هؤلاء الشعراء استخدام هذه البحور في صورتها التامة ، ولم يلجأ هؤلاء الشعراء إلى المجزوء منها إلا مرات قليلة .

فنجد المهذب بن الزبير يلجأ إلى مجزوء الكامل مرتين وذلك أشرنا إليه في موضعه .

ونجد عمارة يلجأ إلى مجزوء الكامل مرتين ، كما أنه استخدم مجزوء الرجز مرة واحدة.

كما أن أسامة لجأ إلى مجزوء الكامل ، ولجأ طلائع إلى مجزوء الرمل مرتين ومجزوء الرجز ثلاث مرات ومجزوء الكامل ثلاث مرات .

لذلك نستطيع أن نقول مطمئنين بأن شعراء بنى رزيك صاغوا أشعارهم في البحور الخليلية المشهورة والمتداولة بين القدماء كالطويل ، والكامل، والبسيط ، وذلك لما تتميز به هذه البحور من اتساع يعطي للشاعر إمكانية وافية للتعبير عما يريد من معانٍ وأفكار، هذا الاتساع العروضى الذى يتمثل في كم كبير من السواكن والمتحركات ولعل هؤلاء الشعراء لم يخرجوا عن المعهود والمألوف في الشعر العربي القديم ، وهذه سمة تميز شعرهم وتسمه بسمة مميزة.

أما باقي شعراء بلاط بنى رزيك الذين لم نجد لهم دواوين شعرية، أو مجموع أشعار أو قصائد طويلة متعددة ، نلاحظ أن شعرهم يدور في فلك المقطوعات الشعرية ، وهذا ما وجدناه في المصادر التي بين أيدينا وخاصة (خريدة القصر وجريدة العصر).

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك – ص ١٧١

وبالدراسة العروضية لهذه المقطوعات الشعرية نجد أنها لا تخرج عن المألوف والمعهود في الشعر العربي ، فنجد مثلاً أن القاضي الجليس استخدم بحر الطويل ١٣ مرة وذلك مثل قوله:

دَعِ البينَ تَحدُونا حثاثُ رِكابِهِ فَغَيْرِيَ مَنْ يَشْجُوهُ صوتُ غُرابِهِ (١)

وهذه الصورة من بحر الطويل التي يأتي فيها مقبوضاً في العروض والضرب ، كما أنه استخدم بحر الطويل في صورته غير المقبوضة ، وذلك مثل قوله :

وكَمْ طامحِ الآمالِ همَّ فَقصَّرَتْ خُطاهُ به إن العُلاَ صَعْبَةُ المَرْقَى (٢)

واستخدم صورته المحذوفة ، وذلك مثل قوله:

فَأَيْنَ بَنوُ رُزَّيك عَنْهاَ وَنَصرُهُم وَماَ لَهُمُ مِنْ مِنْعةٍ وزِيادِ (٣)

كما جاء بحر الطويل عند ابن قادوس ٤ مرات ومن ذلك قوله:

إذاَ قَائِمُ السيفِ انْثَنَى في مُلِمَّةٍ عَنْ الْفِعلِ أَغْنَى وحدَهُ وهْوَ قائِمُ (٤)

وهي صورته المقبوضة .

كما استخدم الرشيد بن الزبير بحر الطويل ٣ مرات ، ومن ذلك قوله :

إذاَ ما نَبَتْ بالحُرِّ دارٌ يَوَدُّها ولَمْ يَرتَحِلْ عَنْهاَ فَلَيْسَ بِذِي حَزْمِ(٥)

وهذه الصورة فيها العروض مقبوضاً والضرب تاماً .

واستخدم أيضاً ابن الصياد بحر الطويل ٣ مرات ، وذلك مثل قوله:

كَأنَّ اخْتِطاَفَ الْهاَمِ عِنْدكَ بالظُباَ انْـ ـتِهاَجاً به يَوْمَ الْوَغَى ثَمرٌ يُجْتَنَى (٦)

وهو في بحر الطويل في صورته مقبوضة العروض وتامة في الضرب، وأتى أيضاً استخدامه للطويل في صورته المقبوضة في العروض والضرب، وذلك مثل قوله :

---

١ – خريدة القصر – ص ١٩٧
٢ – المصدر نفسه – ص ١٩٦
٣ – المصدر نفسه – ص ١٩٠
٤ – المصدر نفسه – ص ٢٣٠
٥ – المصدر نفسه – ص ٢٠٠
٦ – خريدة القصر – ص ٢٤٣

ولما رأى الغَدَّارُ قُرْبَ حُلُولِـــــه تيقَّنَ أنَّ المَوْتَ ما مِنْهُ عاصِمُ (١)

كما أتى أيضاً بحر الكامل في شعر المقطوعة ، حيث نجد أن الـشعراء حرصوا على صياغة أشعارهم في بحر الكامل سواء في صورته التامـة أو المجزوءة ، وذلك مثل ما نجده عند القاضى الجليس الذى استخدمه ٥ مرات ، ومن ذلك قوله :

وَقَدَ الرَّبيعُ على الغيونِ بِنَرجِسٍ يَحكِي العُيونَ فَقَدْ حَبَاهَا نَفْسَهاَ(٢)

وهو الكامل في صورته التامة ، وله أيضاً استخدام الكامل في الصورة نفسها، ومن ذلك قوله:

لاَ تَعْجَبِـى مِـــن صَدِّهِ ونِفَارِهِ لَوْلاَ المَشيبُ لَكُنْت من زُوَّارِهِ (٣)

واستخدم ابن قادوس الكامل في صورته التامة مرتين ، ومن ذلك قوله :

يافَجْعَةً هِي فـي الجنانِ مَسَرَّةٌ لِقدُومِه تَختَال في غُرفاتِهاَ (٤)

كما لجأ إليه ابن الصياد ٤ مرات ، ومن ذلك قوله :

أضْرَمْتَ فـي أكْبَادِهِم من بَعْدِهِ بالنَّصل نارَ تأسُّفٍ وتَلَهُّفِ (٥)

كما استخدم بحر الكامل أيضاً في صورته المقطوعة ، ومن ذلك قوله :

أضْحَتْ لواتَهُ شُرَّداً مـن بأسِهِ فَلَدِيهِمْ سِعَةُ الفَضاءِ مَضِيقُ (٦)

فجاء العروض تاماً وجاء الضرب مقطوعاً .

أما الموفق بن الخلال فقد استخدم بحر الكامل مرتين ، ومن ذلك قوله :

وَصحِيفَةٍ بَيْضاءَ تَطْلُعُ فِي الدُّجى صُبْحاً وتَشْفَى النَّاظِرِينَ بِدَاتِها (٧)

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢٤٣
٢ – المصدر نفسه – ص ١٩٥
٣ – المصدر نفسه – ص ١٨٩
٤ – المصدر نفسه – ص ٢٣١
٥ – المصدر نفسه – ص ٢٤٤
٦ – المصدر نفسه – ص ٢٤٤
٧ – خريدة القصر – ص ٢٣٦

ونجد أيضاً أنَّ هؤلاء الشعراء لجأوا في مقطوعاتهم الشعرية إلى بحر البسيط مثلما نجد عند القاضي الجليس الذى استخدم بحر البسيط ٣ مرات في صورته التامة ، ومن ذلك قوله :

خُذْهاَ إليكَ بماءِ الطَّبْعِ قد شَرِقَتْ　　　لَوْ مَازَجَ البَحْرَ مِنْهاَ لَفظَةً عَذُباَ [١]

كما أنه استخدم مخلع البسيط مرة واحدة ، وذلك في قوله :

يــاَوَارِثاً عـــــن أبٍ وَجــدٍ　　　فضيلـــةَ الطِـــبِّ والسَّـدَادِ [٢]

ويأتى على نفس الشاكلة ابن قادوس فنجد أنه اســتخدم بحــر البــسيط مرتين، وذلك في قوله:

عَلَيكَ لاَ لَكَ أنفٌ ظـلَّ مُشْتَرِفاَ　　　حتَّى غَدا بِنُجُوم الأُفْقِ مُلْتَصِقاَ [٣]

كما استخدم مخلع البسيط مرة واحدة وذلك في قوله :

أهْــوِنْ بِلَوْنِ السَّــوادِ لَوْناً　　　ماَ فيـــهِ مـــن حُجَّةٍ لَنَاسِبْ [٤]

ولجأ الموفق بن الخلال إلى استخدام بحر البسيط ، فاســتخدمه مــرتين نحو قوله :

وصَعْدَةٍ لَدنةٍ كالتبر تَفْتَقُ في　　　جنحِ الظَّلاَمِ إذا ما أبْرَزَتْ فَلَقاَ [٥]

ونستطيع أن نلاحظ أيضاً في الأوزان الخليلية لشعر المقطوعات حرص بعض الشعراء على نظم أشعارهم في بحر السريع ، فنجد مثلاً شاعراً كــابن قادوس ينظم شعره أو مقطوعاته الشعرية في بحر السريع سبع مرات ، وهو عدد كبير بالقياس إلى ما وصلنا من مقطوعاته الشعرية ، ومن أمثلــة ذلــك الاستخدام قوله :

ياَشَبَـــه لُقْمَان بِلاَ حِكْمَــــةٍ　　　وخَاسِراً فِــي العِلْمِ لاَ رَاسِخاَ [٦]

وبحر السريع تفعيلاته تكون على النحو التالي :

---

١ - المصدر نفسه – ص ١٩٧
٢ - المصدر نفسه – ص ١٩٣
٣ - المصدر نفسه – ص ٢٣٤
٤ - المصدر نفسه – ص ٢٣٣
٥ - المصدر نفسه – ص ٢٣٦
٦ - المصدر نفسه – ص ٢٢٦

مستفعلــن مستفعلــن فاعلــن   مستفعلــن مستفعلــن فاعلــن

وهذا القاضى الجليس نجد مقطوعاته جاءت في بحـر الـسريع ثـلاث مرات، ومن ذلك قوله:

ظَبيٌ مِـنَ الأَتـــراكِ أجفَانُــهُ   تَسطـوُ على الرَّامـحِ والنَّابِلِ (١)

والذى نستطيع أن نلاحظه أيضاً على شعر المقطوعات مـن الناحيـة العروضية هو غلبة المجزوء عند هؤلاء الشعراء ، فنجد أن الشعراء لجـأوا كثيراً إلى مجزوء البحور ، ولعل المجزوء أنسب للمقطوعة الشعرية ، والتى تمثل دفقة شعورية وتعبيراً عن إحساس وجداني خالص ، فيلجأ الشاعر إلـى الأوزان البسيطة السهلة وليس هناك أسهل من مجزوء البحر، وعلى هذا نجد أن هؤلاء الشعراء استخدموا مجزوء بحر الكامل ، ومجزوء بحر الخفيـف ، ومجزوء بحر الرجز .

ومن أمثلة ذلك الاستخدام للمجزوء ، قول ابن قادوس مستخدماً مجزوء الرجز :

ولائِــــــمٍ يَلومُنِـــــــــى   يُرِيــــدُ مِنِّــــى تَوبَتِــى (٢)

ومجزوء الرجز يكون على النحو التالي:

مستفعلــــــن مستفعلــــــن   مستفعلــــــن مستفعلــــــن

وكذلك قول ابن قادوس مستخدماً مجزوء بحر الكامل في قوله:

أَأَرَيتَهـــاَ تَبقَـــى وقَـــــدْ   كَلَّفتَهـــاَ بِالْمــاَءِ قُوتـــاَ (٣)

وهو مجزوء مرفل تكون صورته على النحو التالي :

متفاعلــــــن متفاعلــــــن   متفاعلــــــن متفاعــلاتن

وعلى هذا النحو أتى الوزن العروضى للمقطوعات الشعرية في شـعر شعراء بنى رزيك ، والذى تراوح بين استخدامهم للبحور الشعرية المـشهورة

---

١ - خريدة القصر – ص ١٩٥
٢ - المصدر نفسه – ص ٢٢٦
٣ - المصدر نفسه – ص ٢٣٣

والمتداولة في الشعر العربي القديم كالطويل، والكامل، والبسيط ، وبين استخدامهم للبحور الخفيفة والسهلة مثل بحر الخفيف، السريع، والوافر، والمتقارب .

وبين استخدامهم لمجزوءات البحور ، وذلك مثل مجزوء بحر الكامل ، ومجزوء بحر الرجز ، ومجزوء بحر الخفيف .

وقبل أن نختم حديثنا عن الوزن العروضى لشعر شعراء بنى رزيك يجدر بنا الوقوف على أوزان القصائد المتبادلة بين الصديقين الشاعرين طلائع بن رزيك وأسامة بن منقذ والتي أسميناها بالمراسلات الشعرية ، وبدراسة هذه المراسلات الشعرية نجد أنه كان من شروطها التى التزم بها كلا الشاعرين أنه إذا صاغ أحد الشاعرين رسالته الأولى في بحر عروضى ما، فإن الشاعر الآخر الذى يجيبه برسالة أو بقصيدة شعرية يلزم نفسه بالبحر العروضى نفسه للقصيدة الأولى .

وبدراسة الأوزان العروضية لشعر المراسلات والتي يبلغ عددها عشر رسائل وجدنا أن الشاعرين التزما صياغة رسائلهما في البحور الشعرية المشهورة والمتداولة في الشعر العربي القديم ، ولم يخرجا عن ذلك .

فلقد استخدما بحر الطويل ثلاث مرات ومن ذلك قول طلائع بن رزيك :

أَلاَ هَكَذَا فِي اللهِ تَمْضِي العَزَائِمُ ... وتَمْضِي لَدَى الحَرْبِ السُّيُوفُ الصَّوَارِمُ (١)

فردَّ عليه أسامة بن منقذ ملتزماً البحر العروضى نفسه ، فيقول :

لَكَ الفَضْلُ مِنْ دُونِ الوَرَى والمَكَارِمُ ... فمنْ حاتِمٌ ، ما نَالَ ذا الفَخْرَ حاتِمٌ (٢)

كما أنهما استخدما بحر البسيط ثلاث مرات أيضاً، وذلك مثل قول أسامة بن منقذ في إحدى رسائله التى بعث بها لطلائع ، فنراه يقول:

أُذَكِرهُمْ الوُدَّ، إن صَدُّوا ، وإن صَدَفُوا ... إنَّ الكِرَامَ إذا استَعْطَفْتَهُم عَطَفُوا(٣)

فردَّ عليه طلائع ملتزماً البحر العروضى نفسه ، فيقول:

آدابُكَ الغُرُّ بَحْرٌ، مَالَهُ طَـرَفُ ... فِي كُلِّ سَمْعٍ بَدَا مِنْ حُسْنِهِ طُرَفُ(٤)

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق د. أحمد بدوى – ص ٩٢
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٧٤
٣ – المصدر نفسه – ص ١٣٥
٤ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٧١

ونجد أنهما استخدما بحر الخفيف ثلاث مرات ، وذلك مثل قول طلائع في رسالة بعث بها إلى أسامة ، فيقول :

أيُّهَا السَّائِرُ المُجِدُّ إلى الشَّا ... مِ تَبَارَى رِكَابُهُ والخُيُولُ [١]

فأجابه أسامة برسالة (قصيدة) التزم فيها البحر العروضي نفسه وهو بحر الخفيف فنراه يقول:

أيْنَ سَمْعِي عَمَّا يَقُولُ العَذُولُ ... أنَا بِالْهَجْرِ والنَّوَى مَشْغُولُ [٢]

كما أن كلا الشاعرين استخدما بحر الكامل في صورته المجزوءة مرة واحدة وهو مجزوء مرفل وذلك عندما بعث طلائع لأسامة بقصيدة ، فنراه يقول :

قُلْ لابْنِ مُنْقِذِ الَّذِي ... قَدْ حَازَ في الفَضْلِ الكَمَالاَ [٣]

فردّ عليه أسامة بقوله :

يأشْرَفَ الوُزَرَاءِ أخْـ ... ـلاقاً ، وأكْرَمَهُمْ فعالاَ [٤]

ثانياً: القافية :

لقد اتفق العروضيون على أن القافية هي مجموعة الحروف التي تبدأ بمتحرك قبل آخر ساكنين، أو هي مجموعة أصوات متكررة في آخر الأبيات من القصيدة، وتكرارها هذا يكون جزءاً مهماً من الموسيقى الشعرية ، إذ إن الموسيقى التي يبعثها الوزن ويثيرها تعظم وتتنامى وتؤثر إذا توافرت القافية؛ " فهي تضيف بموسيقاها قوة ومفعولاً لا تتوافران عن طريق الوزن وحده"[٥]

فالقافية إذن تعتمد على تكرار أصوات واحدة تلتزم بها في كل القصيدة، إذ تلتزم بتكرار فونيمات أو وحدات غير دالة في اللغة ، والوظيفة الأولى

١ – المصدر نفسه – ص ٨٦
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ١٩٠
٣ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ٨٣
٤ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٦٥
٥ – د. عبد الفتاح صالح – عضوية الموسيقى في النص الشعري – ص ٧٤

للقافية من خلال التعريف السابق تقوم على ضبط الإيقاع ، الذى يؤدي بدوره إلى ملاحظة نهاية البيت . (١)

وهذا التكرار يكون جزءاً مهماً من الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها ، ويستمتع بهذا التردد الذى يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة ، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظم خاص . (٢)

وذلك يعين على اتساق النغم بما تحمله القافية من تماثل وانسجام وهذا التكرار والتوازن جعلا القافية أشرف ما في البيت .

وقد حاول القدماء إيجاد علاقة بين المعنى والقافية فربطوا بين القافية، وما يسبقها من الكلمات ارتباطاً عضوياً، بحيث تسوق الأفكار والمعاني إليها ، وتكون هي أحق بهذا الموضوع دون غيرها ، فليس الهدف من القافية هو مجرد التوحيد بين أبيات القصيدة في حرف الروى، وإن أحس القارئ باجتلابها واستدعائها، وإنما هي تدخل في سياق الكلام كله وتؤدي وظيفتها مع ما يجاورها من كلمات . (٣)

وفي هذا يرى ابن طباطبا أن القوافي يجب أن تكون " قواعد للبناء ، يتركب عليها ويعلو فوقها ، فيكون ما قبلها مسوقاً إليها ، ولا تكون مسوقة إليه، فتقلق في مواضعها ، ولا توافق ما يتصل بها " . (٤)

كما يرى المرزوقى أن القافية يجب أن تأتي متممة للمعنى فتأتي " كالموعود المنتظر يتشوفها المعنى بحقه ، واللفظ بقسطه ، وإلا كانت قلقة في مقرها ، مجتلبة لمستغنٍ عنها " . (٥)

ويشترط فيها قدامة بن جعفر أن تكون "عذبة الحرف، سلسة المخرج، وأن تكون معلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له، وملائمة لما مرَّ به".(٦)

---

١ – د. يسرية محمد المصري – بنية القصيدة في شعر أبى تمام – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٧م – ص ٦٨

٢ – د. إبراهيم أنيس – موسيقى الشعر – ص ٤٢٦

٣ – أحمد الشايب – أصول النقد الأدبي – ص ٣٩٣

٤ – ابن طباطبا العلوى – عيار الشعر – ص ٥

٥ – المرزوقى – أحمد بن محمد – شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين ، وعبد السلام هارون – القاهرة – ١٩٦٧– ج١ – ص ١١

٦ – قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص ١٦٧

وقد ربط عدد من الباحثين بين القافية والموضوع الشعري . فالقاف تجود في الشدة والحرب ، والدال في الفخر والحماسة ، والميم واللام في الوصف والخبر ، والراء في الغزل والنسيب. (١)

وفي النقد الحديث ربط النقاد بين الالتزام بقافية بعينها ، وبين الحالة النفسية والانفعالية للمبدع ذاته، باعتبار أن الشاعر الصادق هو الذى تتطبع انفعالاته وعواطفه على تجربته الشعرية ، فليس الوزن والقافية مما يفرض عليه فرضا ، إنما هو يأخذ بزمام الانفعال الذى هز كيان نفسه ، وحرك وجدانه وإحساساته ، فيضع ذلك كله في وزن يضبط سيره ، وقافية تؤدي به إلى الغاية المنشودة ، وهي إحداث اللذة العقلية . (٢)

فنجد أن " شعراء الرقة يميلون إلى استعمال الكسر لما فيه من لين وانكسار يلائم العواطف الرقيقة المنكسرة ، وشعراء الفخامة يميلون إلى الضم ليناسب تحدياتهم وقوة شخصياتهم " .(٣)

فالشاعر الحاذق هو القادر على أن يطوع كل حروف الهجاء لخدمة قافيته أو الروى ، حيث إنَّ القافية جزء لا يتجزأ من معنى النص الشعري ، لذلك يجب ألا ننظر للقافية بمعزل عن بقية عناصر العمل الشعري .

-وللقافية حروف كثيرة منها التأسيس والدخيل والردف والوصل والخروج، ولعل أهم هذه الحروف هو حرف الروى ، فهو أقل ما يمكن أن يراعى تكراره ، وما يجب أن يشترك في كل قوافي القصيدة ، فتبنى عليه الأبيات وإليه تنسب القصيدة .

ولقد قسم الدكتور : إبراهيم أنيس ، في كتابه (موسيقى الشعر) حروف الهجاء التى تقع رويًا بكثرة حسب نسبة شيوعها في الشعر العربي إلى أربعة أقسام هي:

أ- حروف تجئ روياً بكثرة وإن اختلفت نسبة شيوعها في أشعار الشعراء وتلك هي: (الراء، اللام، الميم ، النون ، الباء ، الدال ، السين ، العين).

---

١ - د. عبد الفتاح صالح - عضوية الموسيقى في النص الشعري - ص ٧٦

٢ - محمد خلف الله أحمد - من الوجهة النفسية في دراسة الأدب والنقد - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧م ، ص ٦٧

٣ - د. عبد الله المجذوب - المرشد إلى فهم أشعار العرب - مطبعة الحلبي بالقاهرة - ١٩٥٥م ، ج١ ص ٧١

ب- حروف متوسطة الشيوع وتلك هي : (القاف ، الكاف ، الهمزة ، الحاء ، الفاء ، الياء ، الجيم) .

ج- حروف قليلة الشيوع وهي : (الضاد ، الطاء ، الهاء ، التاء ، الصاد ، الثاء) .

د- حروف نادرة في مجيئها رويًا وهي : (الذال ، الغين ، الخاء ، الشين ، الزاى ، الظاء ، الواو) . [١]

وعلى أية حال فإن هناك ضرورة حتمية للوزن والقافية في النص الشعري إذ إنهما عنصر جوهري في الصوت الموسيقى ، ويذهب العقاد إلى أبعد من هذا بقوله : " الفن الكامل هو الشعر الذى توافرت له شروط الوزن والقافية وتقسيمات البحور والأعاريض التي تعرف بأوزانها وأسمائها . [٢]

وبدراسة <u>القافية</u> في شعر شعراء بلاط بنى رزيك نجد أنهم قد استخدموا حروفاً كثيرة من حروف الهجاء وجعلوها روياً لقصائدهم، وهذه الحروف التى اعتمد عليها شعراء بنى رزيك تتفق مع الحروف التى رأى فيها الدكتور/ إبراهيم أنيس في تقسيمه لحروف الهجاء التى تقع روياً حسب نسبة شيوعها في الشعر العربي ، فجاءت هذه الحروف مع الحروف التى تجئ روياً بكثرة، وتتمثل هذه الحروف في :

(الراء ، واللام ، والميم ، والباء ، والدال ، والنون)

فنجد أن أكثر الحروف دوراناً واستخداماً في شعر هؤلاء الشعراء فيأتي في المرتبة الأولى <u>حرف الراء</u> ، والراء من الحروف الجهرية متوسطة الشدة تكراري ، ويسميه علماء الأصوات حرفاً ذلقياً لخروجه من ذلق اللسان أي من طرفه ، والراء يناسب الإنشاد والتغنى نظراً لتكرار الصوت ، وهو أكثر وضوحاً في السمع والذى يعلق بالذهن ويبقى في السمع هي القافية، لذلك حرص هؤلاء الشعراء على الاعتماد في جزء كبير من أشعارهم على استخدام حرف الراء كحرف روى ، ولعل ما يثبت لنا ذلك أن القصائد التى جاء فيها حرف الراء كانت في الأغلب الأعم في قصائد المديح.

ومن المعلوم أن قصيدة المديح كانت تعتمد على الإلقاء أو الإنشاد ومن أمثلة ذلك قول المهذب بن الزبير في مديح الخليفة العاضد:

---

١ - د. إبراهيم أنيس – موسيقى الشعر – ص ٢٤٨

٢ - عباس محمود العقاد – اللغة الشاعرة – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٥ م – ص ٢٢

وإنّ أمــيرَ المُؤمنينَ ونكــرَهُ　　　قَرينانَ لِلأَىَ المُنَزّلِ في الذّكْرِ [1]

فنجد أن حرف الراء أتى حرفاً للروى ، وقد قسم القدماء القافيــة تبعــاً لحرف الروى إذا كان ساكناً أو متحركاً إلى قسمين :

أ- قافية مطلقة وهي التي يكون فيها حرف الروى متحركاً .

ب- قافية مقيدة وهي التى يكون فيها حرف الروى ساكناً .

والنوع الثاني من القافية قليل الشيوع في الشعر العربي لا يكاد يتجاوز ١% . [2]

ونجد المهذب قد أتى بقافية من القسم الأول وهي القافية المطلقــة ، ولا نجد صدىً كبيراً للقافية المقيدة في شعره .

وله في موضع آخر من شعره قصيدة في المديح أيضاً يقول فيها :

وقَبْلَ كفِّكَ - لاَ زالَــتْ مُقَبَّلَةً -　　　ماَ إنْ رَأَيْنَاَ سَحَاباً قَطْرُهُ بِدرٌ [3]

نجد هنا اعتماد الشاعر على حرف الراء حرفاً للروى وجــاءت أيــضاً القافية قافية مطلقة .

كما نجد هذا أيضاً في شعر أسامة بن منقذ ، ويبدو لنا ذلــك بــصورة واضحة لاستخدامه لحرف الراء روياً ، ومن الأمثلة الدالة على ذلــك قولــه مخاطباً صديقه القاضي الرشيد بن الزبير :

أَلَحْبابَنَاَ ، ماَ مَصْرُ بَعدكمُ مِصْرٌ　　　ولَكنَّها قَفْرٌ ، إلَيكم بِها فَقْرٌ [4]

فجاءت عنده القافية قافية مطلقة ، وله في موضع آخر يخاطب صــديقه الملك الصالح بن رزيك مفتخراً بنفسه ، ومادحاً صديقه فيقول:

أبى اللهُ إلاّ أن يَكُونَ لَناَ الأَمْرُ　　　لِتَحيَا بنا الدُّنياَ ، ويَفْتَخَرِ العصرُ [5]

وهذا عمارة اليمنى نجد أنه أكثر هؤلاء الشعراء استخداماً لحرف الراء في شعره كحرف للروى، وجاءت قوافيه كلها قوافي مطلقة ، ومن أمثلة ذلــك قوله يمدح الملك الصالح بن رزيك:

---

١ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٩٥
٢ - د. إبراهيم أنيس - موسيقى الشعر - ص ٢٤٨
٣ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٨٩
٤ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ١٧١
٥ - المصدر نفسه - ص ٢٥١

لَيالِيَّ بالفُسطاط من شاطئيْ "مصرِ" سقى عَهدك الماضى عَهادٌ من القَطْرِ [1]

فنجد أن الراء حرف روى والقافية هنا قافية مطلقة إذا جاء حرف الروى متحركاً بالكسر.

ونجد له في موضع آخر من شعره قصيدة يمدح فيها بدراً أخا الصالح بن رزيك فنراه يقول:

فدىً لبني رُزّيك قَومٌ رَفَعتَهمْ بِمَدحِي ولما يرْفَعُوا لِلْثنا قَدْراً [2]

ومن الملاحظ هنا أن الشاعر أتى بألف الإطلاق بعد حرف الروى الراء.

ويأتي على نفس الشاكلة طلائع بن رزيك في استخدامه لحرف الراء روياً ، إلا أنه لا يحتل المرتبة الأولى في شعره بين حروف الروى الأخرى بل يأتي في المرتبة الرابعة بعد (اللام ، والنون ، والباء).

ومن الأمثلة الدالة على استخدامه في شعر طلائع قوله في قصيدة بعث بها إلى صديقه أسامة فيقول :

أبى الله إلاّ أنْ يَدين لَنا الدَهْر ويَخْدمِنا في مُلْكِنا العز والنَّصرُ [3]

فنجد أنه قد استخدم الراء روياً وجاء حرف الراء متحركاً بالضم فتكون القافية قافية مطلقة . ويأتي حرف اللام في المرتبة الثانية من حيث عدد مرات الاستخدام في شعر هؤلاء الشعراء ، واللام هو حرف مخرجه أسناني لَثَوِيّ ، متوسط ، مجهور ، جانبيّ .

وقد استخدمه المهذب بن الزبير في مواضع كثيرة في شعره منها قوله يمدح الملك الصالح بن رزيك :

أقصِرْ- فَدَيْتُكَ- عن لَوْمِي وعن عَذْلِي لَوْ لا فَخَذْلى أماناً من ظُباَ المُقَلِ [4]

والقافية أيضاً جاءت مطلقة إذ أتى حرف الروى حرفاً متحركاً .

وعند أسامة بن منقذ نجده في قوله :

---

١ - ديوان عمارة اليمنى - المجلد الثاني - ص ٦٣٥
٢ - المصدر نفسه - ص ٦٣٩
٣ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق محمد هادي الأميني - ص ٨١
٤ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢١٠

بِنَفسي عَذُولٌ ، لام فيكُمْ، فردَ لى   بذكركمْ رَوْحَ الحَياةِ عذُولُ [1]

فلقد اعتمد أسامة على القافية المطلقة ، فلا نجد استخداماً للحروف الساكنة في قصائده ، ونجد هنا أسامة قد أتى بحرف ردف قبل حرف الروى فتكون القافية مردفة .

وتأتي اللام في المرتبة الثانية في شعر عمارة اليمني ، ومن أمثلة ذلك قوله وهو يرثى ولده حسينا:

الدَّمْـــع يَهْمِل والفؤَادُ عَليــلُ   وَالْقَلْبُ في غَمَراتِهِ متْبُولُ [2]

ونجد هنا أن عمارة أتى بحرف مد قبل حرف الروى وهو ما يسميه العروضيون بالردف والقافية هنا قافية مطلقة إذ جاءت اللام متحركة بالضم .

ويكثر في شعر عمارة استخدامه لحرف اللام كحرف للروى ، ثم يتبعه بحرف الهاء والتى يسميها العروضيون بهاء الوصل ، وقد يأتي بعدها حرف خروج ، ومن ذلك الاستخدام قوله وهو يهجو أحد الأشخاص :

لــم يَبْقَ لابن دُخَانٍ عِنْدَ خَالقه   أُمْنِيةٌ يتَمَنَّاهـــا ويَأْمَلُهاَ [3]

فنجد أن عمارة يجعل حرف اللام روياً وحرف الهاء وصلاً، والألف خروجاً وهذا الأمر قد تكرر في شعره في أكثر من موضع .

أما طلائع بن رزيك فيأتي حرف اللام في المرتبة الأولى من حيث عدد مرات الاستخدام ومن أمثلة ذلك قوله في رثاء العترة الطاهرة من آل البيت :

يانَفْــس كَمْ تَخْدَعِــينَ بالأَمَلِ   وكَــمْ تُحِبينَ فَسْحَــة الأَجَلِ [4]

فنجد أن حرف الروى هو اللام وهو حرف متحرك بالكسر فتكون القافية قافية مطلقة .

ثم يأتي حرف الميم في المرتبة الثالثة من حيث عدد مرات الاستخدام أو من حيث عدد مرات مجيئه روياً ، وحرف الميم من الحروف الشفوية يخرج من بين الشفتين وهو متوسط ، مجهور، أنفيّ .

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ١٤٥
٢ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الثاني - ص ٨٤٨
٣- ديوان عمارة اليمنى - المجلد الثاني - ص ٨٥١
٤- ديوان طلائع بن رزيك - ص ١٢٢

ومن أمثلة استخدامه عند المهذب بن الزبير ، قوله يمدح طلائع بن رزيك :

عَضَدْتَ النَّدى بالبَأسِ؛ تَقْضي على العِدَا سُيوفُكَ، أوْ تقضَى عَلَيكَ المَكَارِمُ[1]

وفي هذا البيت نجد أن الميم حرف روى وقد سبقها ألف يسميها العروضيون ألف التأسيس وما بين التأسيس والروى حرف الراء وهو يسمى بالدخيل ، والقافية هنا قافية مطلقة .

ومن أمثلة استخدام أسامة بن منقذ لحرف الروى الميم قوله :

أَجِبْ دَوَاعِيَ الهَوَى بالأَدْمُعِ السُّجُمِ وَبُحْ ، فما الحبُّ في حالٍ بِمُكْتَتَمِ [2]

ونجد هنا الميم حرف روى وهو حرف محرك بالكسر مما يجعل القافية قافية مطلقة .

وهذا عمارة اليمنى نراه يقول وهو يمدح الإمام الفائز ووزيره الصالح بن رزيك وهي أول أشعاره في مصر :

الحَمْدُ للْعَيْسِ بَعْدَ العَزْمِ والهِمَمِ حَمْداً يَقُومِ بِمَا أَوْلَتْ مِنَ النِّعَمِ [3]

وتأتي أيضاً القافية هنا قافية مطلقة وذلك من وجود الميم حرف روى متحرك، ونلاحظ أيضاً في شعر عمارة في استخدامه لحرف الميم أنه يكثر من استخدام قوافي مردفة أى يسبق حرف الروى حرف مدّ يسميه العروضيون بالردف ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله وهو يمدح الإمام العاضد :

ثَغْــرَ الهُــدَى مُتَبَلِّجٌ بسَّامُ وَوُجُــوه أيَام الزَّمَانِ وِسَامُ [4]

فالميم حرف روى محرك بالضم والألف حرف مد يسميه العروضيون بالردف .

ويأتي على نفس الشاكلة طلائع بن رزيك، فمن أمثلة استخدامه لحرف الميم رويا قوله إذ يمدح الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام:

١- شعر المهذب بن الزبير – ص ٢١٧

٢- ديوان أسامة بن منقذ – ص ٩٤

٣ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٨٦٤

٤ – المصدر نفسه – ص ٨٧٧

كأنّي إذْ جَعلْتُ إليكَ قَصْدي   قَصدتُ الرُكْنَ والبَيتِ الحَرامِ [1]

فنجد أن هذه القافية قافية مردفة إذ سبقها حرف الألف ، وهو ردف لأنه من حروف المد ، ومن الملاحظ أيضاً أن طلائع يكثر من استخدام القافية المردفة إذا جاء الميم روياً.

ثم يأتي في المرتبة الرابعة حرف الباء من حيث عدد مرات الاستخدام، والباء حرف يخرج مما بين الشفتين، فهو شفوي ، انفجارى مجهور ، مرقق ، وهو من الحروف التى يكثر استخدامها في الشعر العربي، ونجد أن أكثر هؤلاء الشعراء استخداماً للباء هو أسامة بن منقذ، إذ يعتمد عليها اعتماداً كبيراً، ومن الأمثلة الدالة على ذلك قوله في إحدى قصائده التى بعث بها إلى طلائع بن رزيك:

كَفَّ عنّى وَاشٍ وأغْضى رَقِيبُ   ونَهانِى عَنْ التَّصابِى المَشيِبُ [2]

وهذه القافية أيضاً قافية مردفة لأنها مسبوقة بحرف الياء والياء من حروف المد .

ومن أمثلة استخدام المهذب بن الزبير لحرف الباء كحرف للروى قوله :

هُو الدَّهر ، فانظر أىَّ قِرْنٍ تُحارِبُهْ   وقد دَهَمَتْنا دُهْمُهُ وأشاهِبُهْ [3]

ومن الملاحظ على هذه القافية أن الشاعر التزم بعد حرف الروى ، حرف الهاء الساكنة ، ويسميها العرضيون بهاء الوصل .

كما يطرق عمارة اليمنى حرف الباء كحرف بورى ، ومن أمثلة ذلك قوله في إحدى قصائده التى مدح فيها الملك الناصر العادل بن الصالح طلائع فنراه يقول :

تَبسَّمَ في لَيلِ الشَّبابِ مَشيِبُ   فَأصبَح بُرْدُ الهَمِ وهَوُ قَشيِبُ [4]

وهي من القوافي المردفة التى يسبق حرف الروى حرف مد ، وهو حرف الياء .

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ١٣٢
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٨١
٣ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٧٧
٤ – ديوان عمارة اليمنى – ص ١٤١

ونجد عمارة اليمنى يكثر من استخدام هاء الوصل بعد حرف الــروى الباء ، ويستخدمه في أكثر من موضع في شعره ومن ذلك قوله:

مَساَعِيكَ يَهْدى للنّجاَحِ طُلاّبُهَا وتَحدِى لإصْلاَحِ الفَسَادِ رِكابُهاَ [1]

فنجد أن الشاعر أتى بالباء حرف روى ، وقبل حــرف الــروى جــاء بحرف ردف ثم تأتي هاء الوصل ثم ألف الاطلاق التى يـتسميها العرضــيون بالخروج .

وهذا طلائع بن رزيك نجد أنه استخدم أيضاً حرف الباء حرفاً للــروى ومن أمثلة هذا الاستخدام قوله يخاطب صديقه أسامة بن منقذ :

مِنْ اليَوْم لا أغْترُّ ماَ عِشْتَ بالْحُبِّ ولاَ أطْلُبُ العتْبى مِنَ الخَلْ بالعتبِ[2]

فنجد أن حرف الروى هو الباء المتحرك بالكسر ، والقافية هنــا قافيــة مطلقة . ولقد استخدم طلائع القافية المردفة عند استخدامه لحرف الباء كروى وهو يكثر من ذلك في مواضع مختلفة من شعره .

ثم يأتي حرف الدال كواحد من الحروف المهمة التى اعتمد عليها هؤلاء الشعراء ووظفوها واستغلوها في المرتبة الخامسة وهو حرف أسنانى لثوىّ ، انفجارى ، مجهور ، مرقق.

ومن أمثلة ذلك قول المهذب بن الزبير في إحدى قصائده الغزلية :

وقَدْ أنْكَروُا قَتْلِى بِسَيْفِ لِحاَظِهِ ولَوْ أنْصَفُونِى ماَ اسْتَطاَعُوا لَهُ جَحْداَ [3]

والشاعر هنا أتى بعد حرف الروى وهو الدال بالألف ، والتى يــسميها العرضيون بألف الإطلاق ، وقافيته كما هو معتاد عنده قافية مطلقة .

وهذا أسامة بن منقذ نجد من أمثلة استخدامه لحرف الدال حــرف روى نحو قوله:

إنْ خـــانَ عَهْدَكَ مـــن تَوَدُّهْ ونـــأى ، فـــلا يُحْزِنْكَ فقدُهْ [4]

ومن الملاحظ أن أسامة يكثر من استخدام حرف الهاء بعد حرف الروى خاصة إذا كان حرف الدال ومن هذه الأمثلة قوله :

---

١ - المصدر نفسه - ص ٢٠٥
٢ - ديوان طلائع بن رزيك - ص ٥٩
٣ - شعر المهذب بن الزبير - ص ١٨٥
٤ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٦٣

مُروَّعٌ بالقلىَ ، والصَّدَ . ليس له صَبْرٌ، على الهَجْرِ والإعراضِ، يَسْعِدُهُ [١]

ومن أمثلة استخدام عمارة اليمنى لحرف الدال حرفاً للروى ، نجد قوله يمدح فارس المسلمين أخا الملك الصالح :

إذا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ القُلُوبِ صُدُودُ فَأَهْوَن شَئٍ أَنْ تَصدَّ خُدُودُ [٢]

وهي قافية مردفة مطلقة ، كما نلاحظ أيضاً في شعر عمارة أنه يكثر من استخدام هاء الوصل بعد الروى الدال ، وقد استخدمها في مواضع كثيرة من ذلك قوله وهو يمدح افمام العاضد :

ياخَير مَن نُظِمَ المَدِيحُ لِمَجْدِهِ وتنزَّلَتْ سُوَرَ الكِتَابِ بِحَمْدِهِ [٣]

فهنا الدال روى والهاء وصل وحركة الكسر هي خروج.

ومن أمثلة استخدام طلائع بن رزيك لحرف الدال قوله في رثاء السبط المفدى الإمام الشهيد الحسين عليه السلام:

يَالِلْرجَالَ لِمدنَف مَجْهُودِ لَمْ يُؤْتَ مِنْ هَجْرٍ وطُولِ صُدُودِ [٤]

وهي قافية مردفة مطلقة، وقد يأتي طلائع أيضاً بهاء الوصل في قافيته.

ومن أمثلة ذلك قوله:

يـاأُمَةَ سَلَكَتْ ضَلالاً بيِّناَ حَتَّى استَوىَ إقْرارَهاَ وجُحُودهاَ [٥]

فنجد هنا أن الدال حرف روى ، والواو ردف ، والهاء وصل والألف خروج .

ويأتي حرف النون في المرتبة السادسة من حيث عدد مرات الاستخدام في شعر هؤلاء الشعراء ، والنون من الحروف الجهرية متوسطة الشدة التى يصاحبها خفة عند النطق بها لخروجه من طرف اللسان أو من إحدى الشفتين أو منهما معاً.

---

١ - المصدر نفسه - ص ٦٤
٢ - ديوان عمارة اليمنى - المجلد الأول - ص ٣٤٠
٣ - المصدر نفسه - ص ٣٤٠
٤ - ديوان طلائع بن رزيك - ص ٧٥
٥ - المصدر نفسه - ص ٧٢

وقد استخدم المهذب حرف النون استخداماً يجعله يحتل المرتبة الأولى في شعره ، ومن ذلك قوله وهو يمدح الصالح بن رزيك :

أعلِمْتَ حـــينَ تَجـــاوَرَ الحيّانِ   أنّ القُلـــوبَ مَواقِدُ النّيرانِ ؟! [1]

وهي من القوافي المردفة المطلقة ، والملاحظ فـــي اســـتخدام المهـــذب لحرف الروى النون أنه استخدمه مرة واحدة كقافية مقيدة ، إذ أتـــى بـــالنون الساكنة في بيتين له يتغزل فيهما وهي من المرات النادرة في استخدام القوافي المقيدة في شعر هؤلاء الشعراء ، ويتمثل ذلك في قوله :

وشَادِنٍ مـــا مِثْلُه فـــي الجِنانْ   قَدْ فاقَ في الحُسْنِ جَمِيعَ الحِسانْ [2]

فالنون الساكنة هنا هي حرف الروى ، وهي قافية مقيدة ، وقـــد ســـبق حرف الروى حرف مد مما يجعل القافية قافية مردفة .

ومن أمثلة استخدام أسامة بن منقذ لحرف النون كحرف روى قوله وهو يمدح الملك الصالح فيقول :

ورَدَتْ إلَيْنا مِنْكَ "مَجْدَ الدّيـــن"   بَيْضاءُ تَخْطِرُ في الثّيابِ الجُونِ [3]

ونلاحظ أن القافية هنا قافية مردفة إذ سبق حرف الروى حرف مد وهو حرف الواو ، وهي قافية مطلقة لأن الروى حرف متحرك .

ومن نماذج استخدام عمارة لحرف النون كحرف روى قوله في مـــدح الإمام العاضد :

وَلاؤكَ دَيْنٌ فـــي الرّقابِ ودَيْنُ   وودُكَ حِصْنٌ في المعادِ حَصِينُ [4]

وهي من القوافي المردفة ، وله في موضع آخر من شعره قوله وهـــو يمدح أخا الصالح بن رزيك ، فنراه يقول :

بَقَـــاؤكَ يافــــارِسَ المُسْلِمينا   أقــــرَّ الهُدَى وأقــرَّ العُيُونا [5]

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٣٠

٢ – المصدر نفسه – ص ٢٣٩

٣ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٢٤٧

٤ – ديوان عمارة اليمنى – المجلد الثاني – ص ٩٥٨

٥ – المصدر نفسه – ص ٩٧٥

وهي من القوافي المردفة أيضاً ، والتى أتبع فيها عمارة بعد حرف النون حرف ألف الإطلاق

ونختم بطلائع بن رزيك الذى يقول في رثاء العترة الطاهرة :

لَوْلَا قَوامك بِاقَضيبَ الْبَانِ   لَمْ يحسن الْقُضْبانِ في الكُثْبَانِ [(١)]

وهي أيضاً من القوافي المردفة التى يسبق فيها حرف مد ، وهي من القوافي المطلقة.

ويأتي طلائع في مواضع أخرى من شعره بألف الإطلاق بعد حرف الروى ، ومن ذلك قوله في مديح العترة الطاهرة :

لَولاَ هَواكُمْ مَا قَطَعْتَ البِيْنَا   وَلاَ طَلَبْتَ فِي العُلَى مَعِيناَ [(٢)]

فنجد أن القافية أتت مردفة ، ثم أتى الشاعر بحرف الألف بعد حرف الروى .

– وعلى هذا النحو أتى استخدام هؤلاء الشعراء لحروف الروى الأكثر شيوعاً في الشعر العربي، والتى قد تؤدي دوراً فعالاً في التعبير عن المعاني التى يريدونها أو يأملون في التعبير عنها، كما نلاحظ أن هؤلاء الشعراء قد أدركوا أهمية القافية ، ومدى تأثيرها من حيث الوظيفة الإيقاعية، وذلك بما توفره من تكرار عنصر صوتى يعمل على استدعاء متشابهاته من المفردات، ومن حيث الوظيفة الدلالية فيسلك هذه المفردات في نظام الجملة من جانب والعمل على استقطاب أكبر قدر من التركيز الدلالي من جانب آخر .

وتأتي باقي الحروف على تفاوت واضح من حيث عدد مرات استخدامها ولكنها لا ترقى إلى أن تمثل ظاهرة يمكن الحكم عليها فنجد أن هؤلاء الشعراء استخدموا حرف الحاء ، والعين ، والثاء ، والتاء ، والشين ، والخاء ، والفاء .

وهي من الحروف متوسطة الشيوع في الشعر العربي ، والذى نستطيع أيضاً أن نلاحظه أنهم لم يلجأوا إلى الحروف النادرة الاستخدام في الشعر العربي كحروف روى ، ومن أمثال ذلك حرف الذال ، وحرف الغين، وحرف الظاء ، وحرف الواو ، وحرف الزاى .

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – ص ١٤٣
٢ – المصدر نفسه – ص ١٥٣

وعلى هذا نستطيع أن نقول مطمئنين إن هؤلاء الشعراء في أوزانهم العروضية لم يخرجوا عن المعهود أو المألوف في الشعر العربي كما أنهم لم يخرجوا عن المعهود أو المألوف من المستخدم من حروف الهجاء كحروف روى ، وهذا إن دل فقد يدل على التزام هؤلاء الشعراء بالموروث القديم من الشعر العربي ، وبأنهم كانوا محافظين غير مجددين في هذا الجانب المهم وهو الوزن والقافية .

الإيقاع :

قد فطن القدماء إلى أهمية الإيقاع وموسيقى الألفاظ في الشعر ، فالشعر عبارة وتركيب، والعبارة تتكون من كلمات ضم بعضها إلى بعض ، والكلمة تتكون من مقاطع، وكل مقطع يتكون من أصوات .

والإيقاع يختلف عن الوزن ، فالإيقاع يقصد به وحدة النغمة التى تتكرر على نحو ما في الكلام أو في البيت ، أي توالى الحركات والسكنات على نحو منتظم في فقرتين أو أكثر من فقر الكلام أو في أبيات القصيدة ، وقد يتوافر الإيقاع في النثر. أما الإيقاع في الشعر فتمثله التفعيلة في البحر العربي، فحركة كل تفعيلة تمثل وحدة الإيقاع في البيت، أما الوزن فهو مجموع التفعيلات التى يتألف منها البيت، وقد كان البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة العربية. (١)

والشاعر يملك وسائل متعددة لتحقيق الإيقاع الجمالي في شعره؛ فهو يملك الكلمة المفردة والأسلوب والنظم والوزن والقافية ، والمهم أن يتمكن الأديب من السيطرة على اللغة وأن يخضع كل عنصر من عناصرها لنوع من الإيقاع والرنين والنغم بما يحقق التناسق والاتساق في الإيقاع.

فالإيقاع يكمن في الصوت واختيار الكلمة ودلالات الألفاظ وإيحاءاتها وتكرارها وما يحدث ذلك التكرار من وقع لحنى ناجم عن التناغم بين الكلمات مع اشتراط ارتباط هذا كله ارتباطاً وثيقاً بمضمون الفن وبعاطفة الشاعر الكامنة خلف هذه الإيقاعات .

وما ينبغي التأكيد عليه هو أن الإيقاع في الشعر هو إيقاع موظف لتوصيل المعنى على نحو فنى ، فالإيقاع عنصر أساسي في الشعر، ولا ينبغي أن ننظر إليه منفصلاً عن الفكرة أو المعنى .

---

١ - د. محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث- دار النهضة العربية- القاهرة ١٩٦٩م - ص ٤٦٣

وفي دراستنا للإيقاع ومصادره لدى شعراء بني رزيك سنلتزم بعدد من العناصر التى من خلالها نستطيع الوقوف على موسيقى الألفاظ وذلك على النحو التالي :

أ- التشطير:

التشطير هو توازن مصراعى البيت وتعادل أقسامهما ، مع قيام كل منهما بنفسه واستغنائه عن الآخر . (١)

وأمثلة التشطير متنوعة ، منها قول ابن قلاقس في إحدى قصائده المدحية :

وظَلْت لِنظمِ الهامِ فيه مُنَثَّرا وبتُّ لنشرِ الطَّعِنْ فيه مُنظَّما (٢)

فمن الواضح وجود نوع من التوازن المتولد من شطرى البيت ، حيث اعتمد الشاعر على تماثل الجمل في التراكيب والبنية النحوية وذلك يتمثل في قوله :

وَظلت لَـنظمِ الهـامَ فِيه مُنَثَّرا
وبتُّ لِنَشرِ الطِّعِنْ فِيهِ مُنظَّما

فكل جملة عبارة عن (فعل + شبه جملة + مضاف إليه + شبه جملة + خبر ناسخ منصوب) كما أن كل جملة لها قافيتها المتفقة مع بقية الجمل وهذا يحقق الثراء اللغوي .

ونحو قوله :

هَلْ البَدرُ إلاَّ أنْتَ لَيْلَةَ تِمِّهِ هلِ البحرُ إلا أَنْتَ ساعَةَ أنْ طَماَ (٣)

إن التماثل أو التشطير يبدو بصورة واضحة في البناء اللغوي الذى نراه يتمثل في قوله :

هَلْ البَدرُ إلاَّ أَنْتَ لَيْلَةَ تمِّه
هل البحرُ إلا أَنْتَ ساعَةَ أنْ طَماَ

---

١ - د. محمد العبد - إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي - مدخل لغوي أسلوبي - دار المعارف الطبعة الأولى - ١٩٨٨م - ص ٣٤

٢ - ديوان ابن قلاقس - ص ٢٩٨

٣ - ديوان ابن قلاقس - ص ٢٩٨

فكل جملة عبارة عن (حرف استفهام + مبتدأ + حرف استثناء + ضمير + ظرف) .

وقوله :

كالغيثِ في إرْواتهِ ورَواتهِ   واللَّـيث في وثَباتهِ وثَباتهِ [1]

فالبيت كله قائم على المماثلة في البناء اللغوي وهو قوله :

كَالغَيـــث فـــي إرْواتـــه ورَواتـــه
واللَيـــثِ فـــي وثَباتِـــهِ وثَباتِـــهِ

فالشطرة الأولى مكونة من (شبه جملة ثم يتبعها شبه جملة آخر) تولد عنه توازن وتشطير يجذب الانتباه والسمع.

ومما يمثل ذلك قول الرشيد بن الزبير في أبياته التى أجاب بها ابن قلاقس ، فيقول:

يامُغْرَماً بنَفِيسِ الدرّ يجمعُهُ   ومُولَعاً بِجمَيلِ البرّ يصنعُهُ [2]

فالبيت هنا قائم على المماثلة والمتمثل في وحدة البناء اللغوي المتمثل في :

يامُغْرَمـــاً بنَفـــيسِ الـــدرّ يجمعُـــهُ
ومُولَعـــاً بِجمَيـــلِ البـــرّ يـــصنعُهُ

فكل جملة عبارة عن (منادى + جار ومجرور + مضاف إليه جملة فعلية).

وهذا المهذب بن الزبير نجد أنه يستخدم التشطير في شعره نحو قوله :

فلَـوْلاَ أنْتَ لَمْ تُقْبَلْ صَـــلاتي   ولَوْلاَ أنْتَ لَمْ يُقْبل صِيامي [3]

فالتوازن والتماثل المتولد من شطري البيت يتمثل في قول الشاعر :

---

١ – المصدر نفسه – ص ٥٩٩
٢ – المصدر نفسه – ص ٤٦١
٣ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢٤

فَلَــولاَ أنْــتَ لَــمْ تُقْبَــلْ صَــلاَتي
ولَــولاَ أنْــتَ لَــمْ يُقْبَــل صِــيَامي

فلقد اعتمد الشاعر هنا على تماثل الجمل في التراكيب والبنية النحوية ، فكل جملة عبارة عن (حرف شرط + ضمير + حرف جزم + فعل مضارع + نائب فاعل) .

وقوله :

هُمْ نُصبُ عَيْني : أنْجدَوُا أو غَاروُا   ومُنَى فُؤَادِي: أنْصفَوُا أوْ جَاروُا [1]

فلقد التزم الشاعر هنا قافية واحدة تربط بين شطري البيت ببعض مما أحدث توازن وذلك يتمثل في قوله :

هُمْ نُــصبُ عَيْنــي : أنْجــدَوُا أو غَــاروُا
ومُنَـــى فُــؤَادِي: أنْــصفَوُا أوْ جــاَروُا

وإذا ما انتقلنا إلى طلائع بن رزيك نجد أنه استخدم التشطير في شعره في مواضع كثيرة فمما يمثل ذلك قوله :

فَإنْ تَبْعدوُا عنَّا فَفِي حِفْظِ ربكم   وإنْ تُقَرِّبوُا مِنَّا فَفِي المَنْزِلِ الرَّحْبِ [2]

إن التماثل والتوازن يبدوان بصورة واضحة في البناء اللغوي للجملة الواحدة الذى نراه متماثلاً في قوله:

فَــإنْ تَبْعــدوُا عنَّــا فَفِــي حِفْــظِ ربكــم
وإنْ تُقَرِّبوُا مِنَّــا فَفِــي المَنْــزِلِ الرَّحْــبِ

فالبناء اللغوي هنا واحد بين الجملتين فكل جملة عبارة عن (شــرط + فعل + شبه جملة + شبه جملة + اسم).

ونحو قوله :

---

١ – المصدر نفسه – ص ١٩٠
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – محمد هادي الأميني – ص ٦١

بِهم تَبلُغ الآمال مِنْ كلِّ أمـــل   بِهم تُقْبل التَّوبات مِنْ كُل تَائب [1]

إن مصدر الإيقاع ناتج عن التوازن والتماثل الذى نراه في قوله :

بِهـــم تَبلُـــغ الآمـــال مِـــنْ كَـــلٍّ أمـــل
بِهـــم تُقْبَـــل التَّوبـــات مِـــنْ كُـــل تَائِـــب

فكل جملة عبارة عن (شبه جملة + فعل + نائب فاعل + شبه جملـــة + مضاف إليه) .

ونحو قوله :

مَنْ كَان يَخذله فالله يَخْذِلُهُ   أوْ كَان يَعْضده فَالله يَعضُدُه [2]

فبين الشطرتين تشطير أو تماثل في البناء اللغوي ، فكل شطرة عبـــارة عن :

(فعل ناقص + خبر جملة فعلية + اسم + خبر مبتدأ جملة فعلية)

ويأتي على نفس الشاكلة القاضي الجليس بن الحبـــاب فـــي اســـتخدامه للتشطير في شعره نحو قوله:

طَرِيقُكَ لا يفوتُكَ منـــــه ثَارٌ   وخِصْمُكَ لاَ يُقَالُ له عِثَارُ [3]

هنا التزم الشاعر بقافية واحدة تربط شطرتى البيت معاً مما يعطي البيت جرساً موسيقياً بديع وذلك يتمثل في قوله :

طَرِيـــــدُكَ لا يفوتُـــــكَ منـــــه ثَـــــارٌ
وخِـــــصمُكَ لاَ يُقـــــالُ لـــــه عِثـــــارُ

فالبناء اللغوي واحد والذى تمثل في (اسم + فعل + شبه جملة + اسم)

ونحو قوله :

فأشْرقَ ضوءُ الصبحِ وهُو جَبينُهاَ   وفلحَتْ أزاهيرُ الرُّبا وَهْيَ ريَّاهاَ [1]

---

١ – ديوان طلائع بن رزيك – محمد هادي الأميني – ص ٥٤
٢ – المصدر نفسه – ص ٧٣
٣ – خريدة القصر – ص ١٩١

فيبدو لنا التشطير في قوله :

فَأشْرقَ ضَـوْءُ الـصبحِ وهُـو جَبينُهـا
وفَاحَـتْ أزَاهيـرُ الرُبـا وَهْـيَ رِيَّاهـا

فكل جملة تتكون من بناء لغوي واحد ويتمثل في (فعل + فاعل + مضاف إليه + جملة حال (ضمير + اسم)) .

وهذا قول الموفق بن الخلال :

عَذُبَتْ ليالٍ بِالعُذَيب خَـوَالى   وحلَتْ مواقِفُ بالوِصالِ حَوَالِى (٢)

إن مصدر التوازن والتماثل الذى نراه ناتج عن التشطير وذلك في قوله:

عَـذُبَتْ ليـالٍ بالعُـذَيب خـوَالى
وحلَـتْ مواقِـفُ بالوِصـالِ حَـوَالِى

فالبناء اللغوي هنا بين الجملتين واحد وهو يتمثل في (فعل + اسم + شبه جملة + اسم) .

ونحو قوله :

شَابَتْ ذَوائِبهـا أوَان شبَابِهاَ   واسْـودَّ مَفْرِقُها أوَان فَنائِـها (٣)

فمن الواضح وجود نوع من التوازن المتولد من شطرى البيت حيث اعتمد الموفق بن الخلال على تماثل الجمل في التراكيب والبنية النحوية والتى تتمثل في قوله :

شَـابَتْ ذَوائِبهـا أوَان شَـبابِهاَ
واسْـودَّ مَفْرِقُهـا أوَان فَنائِهـاَ

فكل جملة عبارة عن (فعل + فاعل + ظرف + مضاف إليه) كما أن كل جملة لها قافيتها وهذا يحقق الثراء اللغوي .

---

١ – خريدة القصر – ص ١٩٤
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٣٥
٣ – المصدر نفسه– ص ٢٣٦

ومما يمثل ذلك – أيضاً – قول عمارة اليمني :

فَجاءَ – حَقِيقُ الحزم – بالمَجْد والعُلَى   وَجاء – خَلِيقُ العَزْمِ – بالنَّهِى والأمْر [1]

فالتشطير في هذا البيت يتمثل في قوله :

فَجاءَ – حَقِيقُ الحَزم – بالمَجْـد والعُلَـى
وَجاء – خَلِيقُ العَزْمِ – بـالنَهِى والأمْـر

هكذا يتعادل الشطران في التكوين اللغوي الذي هو عبارة عن : (فعل + جملة اعتراضية + شبه جملة + معطوف) .

ومن أمثلة ذلك قوله :

لَئن ساءَني ليلٌ بِهَجْرِك مُظْلمٌ   لَقَدْ سرَّنى صُبحٌ بِوصلِكَ مُستقرُ [2]

لقد حرص عمارة في هذا البيت على أن يجمع بين عدد من الألوان البديعية التي أثرت المعنى الذي أراد التعبير عنه ففي هذا البيتً تشطير ويتمثل في قوله :

لَـئن سـاءَني لَيـلٌ بِهَجْـرِك مُظْلـمٌ
لَقَـدْ سـرَّنى صُـبحٌ بِوصَـلِكَ مُـستقرُ

فكل جملة عبارة عن (فعل ماض + ضمير (مفعول به) + فاعل + شبه جملة + نعت (اسم نكرة)، كما استخدم الشاعر لوناً بديعياً آخر وهو المقابلـة والتي تتمثل في المقابلة بين شطرتى البيت التي توضـح المعنـى وتقويـة ، وهناك طباق نراه بين الألفاظ المفردة وهي (ساءَ – سَرَّ)، (لَيـلٌ – صُـبحٌ) ، (هَجْر – وَصْل) ، (مُظْلمٌ – مُستقرُ).

لَهُ صارمٌ في أسُودِ النَّقع أحْمرٌ   لَهُ جانب في أحْمَرِ الحَدْب أخْضَرٌ [3]

فمن الواضح التشطير والتماثل في قوله :

لـه صـارمٌ فـي أسُـود النَّقـع أحمـرٌ

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الثاني – ص ٥٣١
٢ – المصدر نفسه – ص ٥٣٧
٣ – المصدر نفسه – ص ٥٤١

لَهُ جانـب فـي أحمـرِ الحَـذب أخْـضَرّ

فعمارة يوّحد البناء اللغوي بين الجملتين والذى يتمثل في :

(شبه جملة + مبتدأ مؤخر + شبه جملة + مضاف إليه + اسم (نعت))

ويأتي على نفس الشاكلة أسامة بن منقذ في استخدامه للتشطير في شعره في أكثر من موضع من ذلك قوله :

حَنِيني إلى مَنْ خلبُ قلبي دارُهُ وشَوقِي إلى مَنْ لَيس عنىَ بِغائِبِ [1]

حرص التوازن والتماثل بين شطرتى البيت وذلك يتمثل في قوله :

حَنِينِـي إلـى مَـنْ خلـبُ قلبـي دارُهُ
وشَوقِي إلـى مَـنْ لَـيس عنـىَ بِغائـبِ

فكل جملة تتكون من (مبتدأ + شبه جملة + جملة فعلية)

وقوله :

لِطَرفِهِ فَتكةُ بِيضِ الظُّبا وقَدِّهِ هَزَّةُ سُمرِ الرِّماحْ [2]

بين الشطرتين في هذا البيت تشطير الذى يتمثل في قوله :

لِطَرفِـــه فَتكـــةُ بــــِيضِ الظُّبـــاَ
وَقَـــدِّهِ هَـــزَّةُ سُـــمرِ الرِّمـــاحْ

فالبناء اللغوي واحد وهو عبارة عن (شبه جملـة + مبتـدأ مـؤخر + مضاف + مضاف إليه).

ونحو قوله :

هُمُ الهَوى، إن تَناءَوا عنكَ أو قَرُبُوا هُمُ المُنى، أقبلوا بالوُدِّ أو صَدَفُوا [3]

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ – ص ٥٢
٢ - المصدر نفسه – ص ٦٠
٣ - المصدر نفسه – ص ١٣٦

فيبدو لنا التزام الشاعر بقافية واحدة تربط بين الجملتين وحرصه فيها على التشطير والتماثل وذلك في قوله :

هُمْ الهَوى، إن تناءوا عنكَ أو قَرَبُوا
هُمُ المُنى، أقبلوُا بالوُدِّ أو صَدَقُوا

فالجملتين اتفقا في البناء اللغوي فهو عبارة عن :

(مبتدأ جملة اسمية مكونة من (مبتدأ وضمير) + خبر اسم معرف بأل + جملة شرطية)

ومما يمثل ذلك قول المهذب بن أسعد الموصلي في إحدى قصائده المدحية :

يُنَالُ الحياَ مِنْ بَحْره وهو نازِحٌ وَيدنُو الجنىَ من فَرْعِهِ وهو باسقُ (١)

فلقد وحدَّ الشاعر البناء اللغوي للجملتين بما يثرى المعنى ويوضحه وذلك يتمثل في التشطير في قوله:

يُنَالُ الحياَ مِنْ بَحْره وهو نازِحٌ
وَيدنُو الجنىَ مِن فَرْعِهِ وهو باسقُ

فكل جملة عبارة عن (فعل + فاعل + حرف جر + اسم مجرور + ضمير + اسم) .

ب- الترصيع :

الترصيع هو ما يكون في حشو البيت من سجع ، وقد عرّفه قدامة بن جعفر بقوله : (ومن نعوت الوزن الترصيع ، وأن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف).(٢)

وهي ظاهرة أطلق عليها دكتور – سليمان العطار اسم ظاهرة التقفير ، والتي يقصد بها خلق الفقرات داخل الأبيات وهي ظاهرة قديمة تسمى (الترصيع) . (١)

---

١ – حريدة القصر – قسم شعراء الشام – ص ٢٩٣
٢ – قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص ٨٠

ولقد استخدم شعراء بني رزيك هذا اللون البديعي لتـزيين أشـعارهم وتنميقها، والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة ومتنوعة ومنها قول طلائع بن رزيك:

ولا سيَّما إن قال لي مُتَصنِّعاً: ففارَقَكُمْ جِسْمِي وَجاوَرَكُمْ قَلْبِي (٢)

فإيجاد قافية داخلية متمثلة في الترصيع الداخلي في الشطرة الثانية فـي قوله :

فَفـــــارَقَكُمْ جِـــــسْمِي
وَجـــــاوَرَكُمْ قَلْبِـــــي

فنجد تماثلاً واضحاً في البنية اللغوية لكلا العبارتين مما يـؤثر تـأثيراً واضحاً على الإيقاع النغمي .

ونحو قوله :

مَنْ كان يَخذِلُهُ فَالله يَخْذُلُهُ أَوْ كَانَ يَعْضده فالله يَعضدهُ (٣)

هنا ترصيع في البيت كله والذى يتمثل في قوله (مَنْ كَانَ يَخْذِلهُ – فَالله يَخْذِلُهُ) وفي (أَوْ كَانَ يَعْضده – فالله يَعضُدُه) .

ومن ذلك قول ابن قلاقس :

يَد الصَّالحِ المَنصورِ أعظَمُ نائلاً وأَجْزَلُ إعطاءً وأوفَرُ مَغْنَماً (٤)

إن مصدر الإيقاع ناتج عن ذلك التوازن والتماثل الذى نراه في قوله :

أعْظَـــــمُ نـــــائلاً
أجْـــــزلُ إعطـــــاءً
وأوفَـــــر مُغْنَمـــــاً

---

١ – د. سليمان العطار – الخيال والشعر في تصوف الأندلس – دار المعارف – الطبعة الأولى ١٩٨١ م – ص ٢١٦
٢ – ديوان طلائع بن رزيك – محمد هادي الأميني – ص ٥٥
٣ – ديوان طلائع بن رزيك – محمد هادي الأميني – ص ٧٥٣
٤ – ديوان ابن قلاقس – ص ٢٩٨

فلقد حرص ابن قلاقس على التماثل في التركيب اللغوي وذلك بـالتزم قافية واحدة في هذه الجمل الثلاثة الذى تولد عنه تـوازن موسـيقي يجـذب الانتباه.

ونحو قوله :

عزمُهُ سيْفُهُ وهَيْبَتُهُ الرُعــ ـــبُ حقيقاً ونَصرُهُ الأنْصارَ (١)

فيبدو الترصيع في قوله :

عَزمُــــهُ سَـــيْفُهُ
وهَيْبَتُــهُ الرُعــــبُ
ونَـــصرُهُ الأنْـــصارُ

فالجمل الثلاثة تتفق في البناء اللغوي وهو عبارة عن (جمل اسمية تعتمد على المبتدأ + الخبر) (اسم + اسم) .

وهذا المهذب بن الزبير يقول معتمداً على الترصيع :

فَسلَوتُ إلا عَنكمُ ، وقَنعْتُ إلاَّ منكمُ ، وزهدتُ إلاَّ فيكمُ (٢)

فمن الواضح التماثل والترصيع أو حسن التقسيم الموجود في هذا البيت الذي أحدث نوعاً من الموسيقى الداخلية التى تتمثل في قوله:

فَــــسلَوتِ إلاَّ عـــنكمُ
وقَنعْــــتُ إلاَّ مــــنكمُ
وزَهــــدتُ إلاَّ فــــيكمُ

فالتركيب اللغوي واحد والذى يتمثل في (فعل + ضمير + حرف استثناء + شبه جملة)

ومما يمثل ذلك قول ابن قادوس:

كالبَدرِ وَجْهاً والغَزالِ تلفُتاً والحَقفُ رَدْفاً والقَضيِبَ تَمُيلاً (٣)

---

١ - المصدر نفسه - ص ٣١٣
٢ - شعر المهذب بن الزبير - ص ٢٢١
٣ - خريدة القصر - ص ٢٢٩

هنا اعتمد الشاعر في بناء هذا البيت على حسن التقسيم أو الترصيع الذى يبدو لنا في قوله:

كالبدرِ وجْهاً
والغزالِ تلفُّتاً
والحقفِ ردْفاً
والقضيبَ تمُيلاً

ونحو قول الموفق بن الخلال :

كالعين في طَبقاتِهاَ ودُمُوعِها وسَوادِها وبَياضِهاَ وضِيائِهاَ [١]

اعتمد الموفق بن الخلال على حسن التقسيم في براعة واتقان وهو بصدد وصفه للشمعة، والذى يتمثل في قوله (طَبَقاتِهاَ – دُمُوعِهاَ – سَوادِهاَ – بَياضِهاَ – ضِيائِهاَ) .

وفي قوله :

إن أعانَتْ عَدلَتْ أَوْ خَذَلتْ سَلَبَتْ أَوْ وجدت راعت بفقْدِ [٢]

اعتمد الشاعر هنا على الترصيع في هذا البيت الذى يتمثل في قوله :

(أعانَتْ عَدلَتْ – خَذَلَتْ سَلَبتْ – وجَدَتْ راعتْ)

ويأتي على نفس الشاكلة قول الجليس بن الحباب :

وَمِنْ عَجَب إنَّ السُّيوف لَديهِمْ تَحيضُ دماءً والسُّيوفُ ذُكُورُ
وأَعَجب مِنْ ذا أنَّها في أكفُهُمْ تأجَّجُ ناراً والأكفُّ بُحورُ [٣]

فلقد أجاد الشاعر في تقسيم الشطرة الثانية في هذين البيتين معتمداً على إيجاد قافية داخلية بين الألفاظ في شطرتى البيتين المتمثل في قوله :

تَحيضُ دماءً والسُّيوفُ ذُكُورُ
تَأجَّجُ ناراً والأكفُ بحُورُ

---

١ – المصدر نفسه – ص ٢٣٦
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٣٧
٣ – خريدة القصر – ص ١٩٠

فهنا تماثل في البناء اللغوي في بيتين متتاليين مما يثرى الجرس الموسيقي ويجذب الانتباه ويعطي دلالة المعنى الذى يريده الشاعر .

ومن أمثلة ذلك قول عمارة اليمني :

وسِعتَهم بالنَّدى والحلْم قاطِبَةً　　　فالرِّزق مُتَّسِعٌ والذَّنْب مُغْتَفَرٌ (١)

فيبدو لنا الترصيع واضحاً في الشطرة الثانية والذى تمثل في قوله :

فــــالرِّزق مُتَّـــــسِعٌ
والـــــذَّنب مُغْتَفـــــرٌ

ونحو قوله من القصيدة نفسها:

تَفيضُ رَحْمتهُ تَغيضُ نقْمتـــهُ　　　والبَحر تطفأ في تَيارِهِ الشررُ (٢)

فهنا حسن التقسيم والترصيع استخدمه الشاعر في الشطرة الأولى فـــي هذا البيت والذى يتمثل في قوله :

تَفـــيضُ رَحْمتـــــهُ
تَغَـــيضُ نقْمـــــهُ

ونحو قوله :

وقَد عمر الإنْعام والبَأسِ ذِكْرهُم　　　بِأنْديةِ خضرٍ وألْوِيةِ حمرِ (٣)

ففي الشطرة الثانية اعتمد الشاعر على حسن التقسيم أو الترصيع، والذى يتضح لنا في قوله :

بِأنْديـــــةِ خـــــضرِ
وألْوِيـــــةِ حمـــــرِ

وهذا أسامة بن منقذ نراه يقول :

---

١ - ديوان عمارة اليمني - المجلد الثاني - ص ٥٢٦
٢ - المصدر نفسه
٣ - المصدر نفسه - ص ٥٣٤

حفَظتُ ماَ ضيَّعوا، أغضيتُ حين جنَواْ وفِيتُ إذ غدرَوا . واصلتُ إذا صرَمُوا[1]

فالترصيع هنا يتمثل في قوله :

حفَظـــتُ مـــاَ ضَـــيَّعوا
أغـــضيتُ حـــين جنَـــواْ
وفِيـــــتُ إذ غَـــــدرُوا
واصـــلتُ إذا صَـــرَمُوا

فالبيت كله قائم على أربع جمل فعلية متوازنة متماثلة فيها حسن تقـسيم أو ترصيع بديع يجذب الانتباه .

ونحو قوله:

أهوى بِلا ملَلٍ يُسلي، ولاَ طَمعٍ يُملِي ، ولا رَيْبَةٍ تُزرِي بذى كَرَمِ [2]

فالترصيع هنا يتمثل في قوله :

بـــلا ملَـــلٍ يُـــسلي
ولاَ طَمـــعٍ يُملـــي
وَلا رَيْبَـــةٍ تُـــزْرِي

فبين هذه الجمل الثلاثة ترصيع أو حسن تقسيم فكل جملة مكونة من :

(نفى + اسم + فعل مضارع)

---

١ - ديوان أسامة بن منقذ - ص ٩٠
٢ - المصدر نفسه - ص ٩٤

جـ - التصريع :

التصريع هو عبارة عن (جعل مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها) [1]

(وأن تكون ألفاظ الفصل الأول فيه مساوية لألفاظ الفصل الثاني في الأوزان واتفاقِ الأعجاز، ويرد في الكلام على وجهين ، الوجه الأول منهما أن يكون كاملاً ، وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الأوزان والقوافي من غير مخالفة لأحدهما للثاني في زيادة ولا نقصان وما هذا حاله فإنه يعزُّ وجُودُه . [2]

ويذهب قدامة بن جعفرٍ إلى أن بنية الشعر إنما هي التسجيع والتقفية ، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالاً عليه كان أدخل في باب الشعر وأخرج له عن مذهب النثر . [3]

ولقد احتفى شعراء بني رزيك احتفاءاً خاصاً بالتصريع مدركين أهميته التي أشار إليها قدامة بن جعفر ، فنوعوا في استخدامه فمنهم من التزم نهج القدماء في التزامهم التصريع في مطلع القصيدة ، ومنهم من لم يلتزم التصريع في أول بيت فقط بل نراه في أبيات كثيرة داخل قصائدهم.

والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة ومتنوعة ، فمما يمثل ذلك قول المهذب بن الزبير في مطلع إحدى قصائده:

هُمْ نُصْبُ عيني: أَنْجَدُوا أَوْ غَارُوا   ومُنَى فؤادي : أنْصفوا أَوْ جَارُوا [4]

ونحو قوله في مطلع قصيدة أخرى :

أعلِمْتَ حِـــينَ تَجــاوَرَ الحيّانِ   أنّ القلـــوبَ مواقدُ النيرانِ ؟! [5]

ونحو قوله :

يَارَبْعُ أَيْن تَـــرى الأحبَّةَ يمَّمُوا   هَلْ أَنْجدُوا مِنْ بَعْدِنَا أَمْ أَتْهمُوا ؟! [6]

---

١ – قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص ٨٦
٢ – يحى بن حمزة العلوى – الطراز – ص ٣٧٣
٣ – قدامة بن جعفر – نقد الشعر – ص ٩٠
٤ – شعر المهذب بن الزبير – ص ١٩٠
٥ – المصدر نفسه – ص ٢٣٠
٦ – المصدر نفسه – ص ٢١٩

كما يحرص المهذب على التصريع داخل أبيات القصيدة فهو لا يكتفي بالتصريع في البيت الأول بل نجده حريصاً على إيجاد التصريع في أبيات أخرى داخل القصيدة نحو قوله من القصيدة نفسها :

جَهلوا فَظَنُّوا أنَّ بُعـدَكَ مَغْنَمٌ   لمَّا رحلتَ ، وإنَّما هو مغرمُ [1]

وقوله أيضاً :

مُتَواضعون ولَوْ تَرىَ نَـادِيهمْ   مـا اسْـطَعْت مـن إجْلالهـم تـتَكلَمْ
هو بدْرُ تِمٍّ في سمـاءِ عُلاهمُ   وبنـو أبيـه بنـو زُرَيْعٍ أنْجُمْ [2]

وقوله في إحدى قصائده التي مدح بها أمير المؤمنين على بن أبي طالب فيقول :

أيَامولاي ذِكْرُكَ فـي قُعُـودي   ويـامولايَ ذكْـرُكَ فـيِ قيـامِي
وأنْت إذا انْتبهتُ سميرَ فكرى   كـذلك أنْـت أُنْـسى فـي منـامِي
وحُبُكَ إن يكن قـد حـلَّ قَلْبِي   فَفِي لحْمِـى استَكنَ وفيِ عظامِي [3]

فالتصريع يبدو لنا من خلال هذه الأبيات الثلاثة بين الشطرة الأولى والشطرة الثانية، كما استخدم الشاعر في هذهِ الأبيات تكراراً لبنية لغوية واحدة يكررها ثلاث مرات متتالية مما يضفي جمالاً وثراء للإيقاع وذلك في قوله :

فـي قِيـامي
فـي مَنـامِي
وفـي عِظـامِي

وهو تكرار لبنية لغوية واحدة (حرف جر + اسم مجرور) وتأتي على نحو رأسي مما يجذب الانتباه والأسماع.

ويأتي على نفس الشاكلة ابن قلاقس في اعتماده على التصريع في قوله في مطلع القصيدة :

فُحْنَ طيباً من بعـدهِنَّ الديارُ   فـوح مِسكٍ أفَاحهُ العَطَّارُ [4]

---

١ – شعر المهذب بن الزبير – ص ٢٢١
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٢٢
٣ – المصدر نفسه – ص ٢٢٤
٤ – ديوان ابن قلاقس – ص ٣١١

ثم يلجأ للتصريع كوسيلة إيقاع داخلي في بيت من أبيات القصيدة السابقة في قوله :

وعليْهاَ مـــنَ المجَرّةِ نَهْرٌ قَدْ سَقَاهاَ مِنْ دُونِهِ الأنْهارُ (١)

ونحو قوله في قصيدة أخرى في داخلهْ معتمداً على التصريع فيقول:

لوْلا ظَبى تَنْسلُ مــنْ لَحظاَتــه لَجنَيِــتُ وَرْداً لاحَ فـــي وَجَنَاتــه
ظبىٌ تحمّل خَصْرِهَ مــن رِدْفِــهَ خطراً إذا ما اختـــال فـــي خُطُواتـــهَ
أَجْنَى العُيُونَ جلِىً نُــور جبينِهِ وجنـــىَ بمنــــعِ جنىً نورِ لِثاتِه (٢)

ويد الواضح وجود التصريع في ثلاثة أبيات متتالية داخل قصيدته وهذا يؤكد ـ دور موسيقى التصريع في التمييز لبنية الشعر عن بنية النثر كما ذهب قدامة بن جعفر .

ومن أمثلة ذلك قول الموفق بن الخلال :

وأغــــنَّ سيـــفُ لحاظِـــهِ يفـــرى الحُســـاَم بحدِّهِ (٣)

فهو لا يكتفي بالتصريع في البيت الأول من مقطوعته الشعرية بل نجده حريصاً على إيجاد التصريع في أبيات أخرى داخل شعر نحو قوله من المقطوعة السابقة :

كبَقَاءِ عَنْـــبر خـــالِهِ فـــي نـــارِ صَفْحةِ خدِّهِ (٤)

ونحو قوله معتمداً على التصريع داخل أبيات مقطوعة شعرية أخرى :

شَـاَبتْ ذَوائِبُهــاَ أوانَ شَـبابِهاَ واســـودَّ مفرقهـــا أوانَ فَنائهـــاَ
كالعين فـــي طَبَقَاتِهاَ ودُموعِهاَ وسَوادِهـــا وَبيـــاضِها وضِيائِهاَ (٥)

وهذا ابن قادوس يحرص على التصريع في البيت الأول في بعض مقطوعاته الشعرية منها قوله :

وَلائـــمٍ يلومـــنى يُريـــدُ منِـــىَ تَوبَتِى (٦)

---

١ - ديوان ابن قلاقس – ص ٣١٢
٢ - المصدر نفسه – ص ٥٩٧
٣ - خريدة القصر – ص ٢٣٦
٤ - المصدر نفسه – ص ٢٣٦
٥ - المصدر نفسه
٦ - المصدر نفسه – ص ٢٢٦

ونحو قوله :

أَكْرِمْ بِقلبِــي للأحبَّةِ مــنْزِلاَ　　　وقفوا به أم أزمَعُوا مُتَرَحِلا [١]

أما ابن الصيّاد فنجد أنه استخدم التصريع في موضعين فــي شـعره – الذى وصل إلينا – الموضع الأول في مطلع قصيدة له فيقول :

بِسَمْعي عن التَعذالِ فيكَ تصلعُمُ　　　فَجَهْدي عِصْيانى إذا لاَمَ لائِمُ [٢]

والموضع الثاني جاء التصريع في داخل أبيات قصيدته وذلك في قوله :

عَنْ سيفِ دين الله سلْ أرناطاَ　　　حيثُ المنية كاسُها يُتعاطَىَ [٣]

ومما يمثل ذلك قول الجليس بن الحباب :

لاَ تَعْجَبي مـــــن صَدِّهِ ونفارِهِ　　　لولا المشيبُ لكنت من زُوَّارِهِ [٤]

ونحو قوله حريصاً على إيجاد التصريع داخل شعره :

مُعتَّقةٌ قد طَاَلَ في الدنِّ حَبْـسُهاَ　　　ولَــمْ يَــدْعُها شُــرَّابُهاَ بنــتَ عامِهــاَ
وَقد أشبهتْ نارَ الخليلِ لأنهـــا　　　حكتهـــا لنا فـــي برْدِها وسَلاَمِها[٥]

ونحو قول عمارة اليمني الذي التزم نهج القدماء في التزامهم بالتصريع في مطلع القصيدة، فعمارة التزم التصريع في قصائده خاصة في البيت الأول، والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة ومتنوعة ؛ منها قوله في مطلع إحدى قصائده :

جاوِزْ بِمَجْـدِكَ أَنْجُــمَ الجَوْزَاءِ　　　وازْدَدْ عَلَوّاً فَوقَ كـلِّ عَـلاَءِ [٦]

ونحو قوله :

لَوْ كَاَن يَنْفَع أنْ تَجود بِماَئِهـــا　　　عَـــين لَجاَدَتْ أعينٌ بدِمِاَئِهاَ [٧]

ثم يأتي بالتصريع في أبيات داخل القصيدة نفسها فيقول :

---

١ – خريدة القصر – ص ٢٢٨
٢ – المصدر نفسه – ص ٢٤٣
٣ – المصدر نفسه – ص ٢٤٣
٤ – المصدر نفسه – ص ١٨٩
٥ – المصدر نفسه – ص ١٩٨
٦ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٧٣
٧ – المصدر نفسه – ص ٨١

مَزجَتْ لَنَا كَأسَ الحَيَاةَ بِغَـدْرِهَا   وتَعلقَّـــت آمالنـــا بوَفائهـــا
مِثْلُ الأَفْــاعِي سُـمُّها تِرْيَاقُهــا   لايَـستَبِينَ دَوَاؤُهــا مــن دائهــا
أَو مَا تَرَى الدُّنْيَا استَمرَّ خِلافُهَا   في عَهْدِهــا حَتَّى عَلَى خُلَفَائهَا [١]

فمن الواضح وجود التصريع في هذه الأبيات الثلاثة من القصيدة وهـذا تأكيد على أهمية التصريع ودوره في الموسيقى التي يلعبها في الشعر .

ومما يمثل ذلك أسامة بن منقذ الذى التزم – أيضاً – التصريع في شعره سيراً على نهج سابقيه في مطلع القصيدة، والأمثلة الدالة كثيرة ومتنوعة ومنها قوله في البيت الأول :

أمَا في الهَــــوى حـــاكمٌ يَعدلُ   ولا مَـــــنْ يَكُـــفُّ ولاَ يَعْذُلُ [٢]

وقوله :

ما يريدُ الشَّوقُ من قلبِ مُعنَّى   ذكـــرَ الأُلاَّفَ والوَصلَ ، فحنَّا [٣]

ودليل اهتمام أسامة بالتصريع أنه اعتمد عليه في إحدى قصائده وهـي مكونة من واحد وعشرين بيتاً كلها قائمة على التصريع الداخلي ومنها قوله :

مَا هَاجَ هَذا الشَّوقِ غيرُ الــذِكْرِ   وزورةُ الطيفِ سَرَىَ من مــصْرِ
مِنْ بَعْدِ طــولِ جفــوةٍ وهجــرِ   كَمْ خَاضَ بَحْــراً وفــلا كبحــرِ
يَجوبـُـه اليــلَ حَليــفَ ذُعــرِ   حَتَّى أَتَــى طَلائحــاً فــي قفــرِ
قَدْ انطَوينَ منِ سُــرى وضُــمرِ   حتَّى اغتَــدَيْنَ كَهــلاَلِ الــشَّهْرِ
يَحْملنَّ كــلَ ماجـــدٍ كالصَّقْرِ   كـأنـــه مُهَنّدٌ ذُو أثْــــرِ [٤]

ونجد في شعر أسامة بن منقذ في أكثر من موضع من مواضع شـعره ظاهرة يعرفها النقاد والدارسون (بالتزام ما لا يلزم) ، أو ما رأيناه عند أبـى العلاء المعرى والمسمى (باللزميات) .

ويقال لها (الإعنات) وهو أن يلتزم الناظم قبل حـرف الـروىَّ حرفـاً مخصوصاً، أو حركة مخصوصة من الحركات قبل حرف الروىَّ أيضاً . [٥]

---

١ – ديوان عمارة اليمني – المجلد الأول – ص ٨١
٢ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٨٤
٣ – المصدر نفسه – ص ١٥٠
٤ – المصدر نفسه – ص ٦٧
٥ – يحى بن حمزة العلوى – الطراز – ص ٣٩٧

وهذه الظاهرة ظاهرة بديعة تؤثر في الإيقاع الموسيقي للأبيات وتدل دلالة واضحة على شغف صاحبها بالبديع وإلزام نفسه في أبياته ما لا يلزم .

ومن شواهد هذه الظاهرة عند أسامة قصيدته التي يقول فيها :

إنْ خـانَ عهـدكَ مـن تـودُّهُ ونـأى ، فـلا يحزنْـكَ فقـدُهْ
واهجُـرْهُ هجـركَ مـن تُجـ ـبُ، إذا قضى وحـواهُ لحـدُهْ
وإذا سُئلـتَ عـام تـ ـهـجـرُه ، فقلْ: ماصحَّ عهدُهْ [1]

فالشاعر ألزم نفسه في كل أبيات هذه القصيدة بحرف الدال قبل الهاء التي للوصل .

وله في موضع آخر من شعره قوله :

مُروَّعٌ بالقلىَ، والصدِّ، ليس لـه صبرٌ على الهجرِ والإعراض ، يُسْعدُهُ
إذا استَغْر الكرى أجفـانَ مُقلتِه وافىَ – الخيالُ بطولِ الهجر يُوعِدُهُ[2]

نجد أسامة يلزم نفسه في أبياته بالتزام حرف العين والدال قبل الوصل والشواهد عند أسامة كثيرة ومتعددة . [3]

كما يقتفي المهذب بن أسعد الموصلي أثر القدماء في استخدامه للتصريع في البيت الأول من القصيدة نحو قوله :

أمـا كفاك تَلافى فـي تَلافيكا ولَسـت ينْقمُ إلا فرْط حُبّيكا [4]

ونحو قوله :

كم في العِذار إلى العُذّال لـى عُذْرَ وكم يحاورهُمْ عن لَوْمِى الحَوَرُ [5]

ونحو قوله :

أيرجعُ عَصرٌ بالجـزيرة رائـقُ تَقَضى وأبْقَى حسرةً ما تُفارقُ [6]

---

١ – ديوان أسامة بن منقذ – ص ٦٣ ، ص ٦٤
٢ – المصدر نفسه – ص ٦٤
٣ – يمكن الرجوع إلى الشواهد الدالة على ذلك في المواضع التالية في ديوانه: ص٦٥ ، ص٦٦، ص٦٧، ص٧١ ، ص٧٦، ص٨١ ، ص٨٣ .... وغيرها .
٤ – خريدة القصر – قسم شعراء الشام – ص ٢٨٢
٥ – المصدر نفسه – ص ٢٨٦
٦ – المصدر نفسه – ص ٢٩٢

وإذا ما انتقلنا إلى طلائع بن رزيك يبدو لنا حرصه على استخدام التصريع في مطلع القصيدة كما أنه لا يكتفي بهذا بل نراه داخل أبيات القصيدة مما يثري الإيقاع ويجذب الانتباه، والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة ومتنوعة منها قوله :

لَبِسَ الحَديدَ، فَزادَ في إعْجابِهِ ... بدرٌ تظَلُّ الشَّمْسُ مِنْ حُجَّابِهِ [١]

ثم يأتي بالتصريع في بيتين متتاليين من أبيات هذه المقطوعة نفسها فيقول :

قَدْ كان يغْنيه سُيُوفُ لحاظِهِ ... عن حَمْلِ صَارمه ليَوم ضِرابه
لَوْ جادَ لي فَوقَ اللثام بقُبْلَةٍ ... تشْفي فُؤاد الصَّبِّ مِنْ أو صَابِهِ [٢]

ونحو قوله في إحدى قصائده التى مدح بها أمير المؤمنين عليه السلام وعد مناقبه وفضائله فقال في مطلع القصيدة ملتزماً التصريع .

يأصاحبيَّ بِجَرْعَاء الغوير قِفاَ ... يَجد لِمَنْ بَانَ بِالدَّمعِ الذّي وكَفاَ [٣]

فهو لا يكتفي بالتصريع في البيت الأول من القصيدة بل نجده يحرص عليه في أبيات أخرى داخل القصيدة منها قوله :

ماضَره إذاَ رَأىَ مُذْعنَه قد عَطَفا ... لَوْ أنه رقَّ - لِى بالْوَصْلِ ما انعطَفاَ [٤]

وقوله من القصيدة نفسها - أيضاً - :

اذاَ حَكَى الرِّيم مِنْ أجْفَانِه وطَفَا ... حَكَى قضيب النَّقا مِنْ خَصْره هَيفاَ [٥]

---

١ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق د. أحمد بدوي - ص ٣١
٢ - المصدر نفسه - ص ٣١
٣ - ديوان طلائع بن رزيك - تحقيق محمد هادى الأميني - ص ٩٥
٤ - المصدر نفسه
٥ - المصدر نفسه

الخاتمة

وبعد دراسة الشعر في بلاط بني رزيك نستطيع أن نخرج بعدد من النتائج والنقاط المهمة التي انتهى إليها البحث والتي يمكن تلخيصها في:

- أن الحياة السياسية في مصر في العصر الفاطمي – في تلك الفترة – لم تكن مستقرة حيث كثرت الفتن والحروب والصراعات والتناحر حول تولي منصب الوزارة، خاصة أن الخليفة في ذلك الحين لم يكن له أمر ولا سلطان فكأنه لم يكن موجوداً، لذلك سمي هذا العصر (بعصر الوزراء العظام).
- كان لهذه التقلبات والأحداث أثرها على قصر الخلافة الفاطمية حيث تعرض الخليفة الفاطمي وهو الخليفة الظافر للقتل مما دفع أهل القصر إلى استدعاء وطلب الحماية والنجدة من رجلٍ عُرف عنه الشجاعة والقوة والبأس، وهو طلائع بن رزيك وكان والياً على أشمونين وبهنسا في صعيد مصر – في ذلك الحين – وعلى الفور لبى نداء أهل القصر وأثبت لهم ولائه وقضى على أعداء الخلافة وبذلك كان يستحق كل التقدير لذلك تولى منصب الوزارة وكان الخليفة هو الفائز بن الظافر.
- امتاز عصر وزارة طلائع بن رزيكٍ بالحيوية والنشاط حيث كان حريصاً أن يجعل من بلاطه في مصر بلاطاً ينافس به بلاط سيف الدولة في حلب ويكون كعبة يقصدها كل الشعراء والأدباء والعلماء، فقد امتاز طلائع بصفات حميدة في شخصيته هيئته لأن يكون صاحب بلاط يقصده الشعراء.
- لذلك التف حول طلائع بن رزيك كوكبه من الشعراء البارزين في ذلك العصر منهم: المهذب بن الزبير – والرشيد بن الزبير – والقاضي الجليس بن الحباب – وابن قادوس – وابن الصياد – فضلاً عن أن طلائع نفسه كان شاعراً.
- ومن الوافدين عمارة اليمنى – وأسامة بن منقذ – وابن قلاقس ... وغيرهم.
- تنوعت الموضوعات الشعرية التي عبر عنها هؤلاء الشعراء في أشعارهم مثل المدح والغزل والوصف والرثاء والهجاء والفخر ... ولعلنا أوضحنا أن غرض المدح هو الغرض الذي يحتل الجانب الأكبر من بين هذه

الأغراض، ويرجع السبب في هذا إلى أن المدح يسر نفس الممدوح، ويعود على الشاعر بالنفع والرزق والتكسب، كما أن قصائد المديح في تلك الفترة كانت تستخدم كوسيلة من وسائل الدعاية والإعلان في عصرنا للنشر وللدعوة للمذهب الشيعي.

هذا بالإضافة إلى أن المدح كان يستخدم للانتصار وكيد الأعداء في بعض الأمور السياسية على ذلك يثاب الشاعر من قبل الممدوح.

- لقد أبرز البحث جانباً مهماً في غرض المدح وهو مدح طلائع بن رزيك لآل البيت وهي قصائد حقاً بديعة أثبتت لنا مدى شاعريته وولائه ووفائه لآل البيت.

- كما ظهرت لنا سمة جديدة في ذلك العصر وهي ظاهرة **المراسلات الشعرية** وقد وضحت لنا من خلال المراسلات التي دارت بين الشاعرين الكبيرين طلائع بن رزيك من مصر وأسامة بن منقذ من الشام ، وكانا يتبادلان فيها الآراء والأفكار ويعبران عن صدق المشاعر والحب ، كما كانت تحمل تكليفاً غير رسمي من طلائع لأسامة بأن يكون رسولاً بينه وبين صاحب الشام آنذاك نور الدين محمود من أجل الاتحاد والوقوف معاً ضد الفرنجة .

- وجد البحث أن هناك شعراء اقتفوا أثر القدماء في الالتزام بالبناء الفني التقليدي للقصيدة العربية وذلك ببدء القصيدة بمقدمة غزلية أو مقدمة طللية، وهناك من مزج بين الغزل والطلل ، وهناك من اتبع الاتجاه المجدد فجاءت مقدمات فيها شكوى ، ووصف ... وغيرها. وهناك من الشعراء من لم يلتزم هذا الموروث وجاءت قصائدهم بدون مقدمات .

أما عنصر التخلص فلقد نوّع هؤلاء الشعراء في استخدام أدوات التخلص محاولين الربط بين مقدمة القصيدة والموضوع، وهناك من أخفق في محاولة استخدام عنصر التخلص، وأخيراً عن عنصر الخاتمة فجاءت أيضاً متنوعة بين خاتمة فيها دعاء أو حكمة أو خاتمة تلخص الغرض من القصيدة.

- ومن حيث الصورة والأخيلة برع شعراء بلاط بني رزيك في تشكيل صورهم ولاحظنا أنهم استمدوا صورهم من مظان كثيرة كان في مقدمتها الطبيعة المصرية الخلابة التي ظهر أثرها بوضوح في نفوسهم ، فكانت مصدراً واصفاً وموصوفاً في قصائدهم الشعرية، كما مثل التراث الثقافي

مصدراً ثرياً ومعيناً لا ينضب للشعراء فاستقوا منه عديداً من صورهم الرائعة وأجادوا توظيفها لخدمة أفكارهم ومعانيهم .

- اعتمد شعراء بلاط بنى رزيك في تشكيل صورهم على التشبيه والاستعارة والكناية فبرعوا في ذلك مؤكدين لنا مدى قدراتهم الشعرية عندما نشروا على صورهم الصفات الإنسانية، وأضفوا على موصوفاتهم التشخيص والحيوية .
- ومن حيث أنماط الصورة فقد وقف هؤلاء الشعراء على معظم أنماطها كالصورة الجزئية والكلية، كذلك تعددت أنماط الصورة عندهم نحو صور حركية – وبصرية – وسمعية – ولونية – وشمية ، والتفرد في هذا المجال.
- اهتم شعراء بلاط بنى رزيك بالتشكيل اللغوي وبناء الجملة واستخدامهم للأساليب اللغوية وإلى أى مدى برعوا في توظيفها بما يتناسب مع المعنى الشعري ، كما تستحوذ على إعجابنا براعتهم في الاقتباسات والتضمينات من القرآن الكريم، ومنِ الحديث النبوي، ومن الشعر ومن التاريخ الأدبي ، كما وجدنا هناك اقتباساً من الأمثال والحكم .
- صاغ شعراء بنى رزيك أشعارهم في الأوزان الخليلية ، وجاءت قصائدهم في البحور العروضية المشهورة والمتداولة بين القدماء كبحر الطويل ، وبحر الكامل، وبحر البسيط، وذلك لما تتميز به هذه البحور من اتساع يعطى للشعراء من خلال كمية كبيرة من السواكن والمتحركات إمكانية وافية للتعبير عن أفكارهم .
- فالتزموا بالوزن الواحد والقافية الواحدة ، ومزجوا في ذلك بين الأوزان الطويلة والأوزان القصيرة كما مالوا إلى الأوزان المجزوءة .
- أدرك شعراء بلاط بنى رزيك أهمية القافية وقيمتها من حيث وظيفتها الإيقاعية ، ومن حيث وظيفتها الدلالية .
- اعتمد الشعراء على عدد من ألوان البديع المختلفة والتى تمثلت في الجناس والطباق والتشطير والتصريع والترصيع واستطاع هؤلاء الشعراء أن يوظفوا هذه الألوان البديعية توظيفاً جيداً لخدمة المعنى وإثراء الإيقاع .

المصادر والمراجع

أولاً: المصــادر:

- **القرآن الكريم :**

- **ابن أبى الإصبع : (أبو محمد زكى الدين عبد العظيم)**

١) تحرير التحبير – تحقيق وتقديم د. حنفى محمد شرف – المجلس الأعلــى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة – ١٤١٦ هــ – ١٩٩٥ م .

- **أحمد بن خلكان :**

٢) وفيات الأعيان – المطبعة الميمنية ١٣١٠ هــ

- **أحمد بن عبد الوهاب النويرى :**

٣) نهاية الأرب في فنون الأدب – بدار الكتب رقم ٥٤٩ – معارف عامة .

- **أحمد بن على المقريزى :**

٤) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا – الجزء الثالث – تحقيــق د. محمد حلمى أحمد – مطبعة الذخائر .

٥) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – المعروف بالخطط المقريزية – الجزء الرابع – طبعة مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ١٩٨٧ م .

- **الأدفوى الشافعى :**

٦) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد – تحقيق سعد محمد حــسن – مراجعة د. طه الحاجرى – القاهرة ١٩٦٦ م .

- **أسامة بن منقذ :**

٧) كتاب الاعتبار – مقدمة وناشره فيليب – طبعة جامعة ونشون ١٩٣٠ م .

٨) لباب الآداب – طبع مصر ١٩٣٠ م .

٩) المنازل والديار – تحقيق – مصطفى حجازى – دار ســعاد الــصباح – القاهرة .

١٠) ديوان أسامة بن منقذ – تحقيق د. أحمد بدوى ، حامد عبــد المجيــد – عالم الكتب – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية – ١٩٨٣ م .

- **ابن إسماعيل المقدسى :**

١١) الروضتين في أخبار الدولتين – مطبعة وادي النيل بمصر ١٢٨٧ هــ.

- **امرؤ القيس :**

١٢) ديوانه – تحقيق محمد أبو الفضل إبــراهيم – طبعــة دار المعــارف – ١٩٥٨م – القاهرة.

- **أمية بن أبى الصلت :** (أمية بن عبد العزيز الأندلسى)
١٣) الرسالة المصرية – بتحقيق عبد السلام هارون – القاهرة – لجنة التأليف ١٣٧٠ هـ – ١٩٥١م.
- **الباقلانى :** (أبو بكر محمد الطيب)
١٤) إعجاز القرآن – تحقيق السيد أحمد صقر – الطبعة الرابعة – دار المعارف – القاهرة ١٩٧٧م.
- **البحترى :**
١٥) ديوانه – تحقيق حسن كامل الصيرفى – الطبعة الثانية – دار المعارف بمصر ١٩٧٣ م .
- **ابن تغرى :** (جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى الأتابكى)
١٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – الجزء الخامس – طبعة دار الكتب المصرية – القاهرة ١٣٥٥ هـ .
- **جمال الدين بن واصل :**
١٧) مفرج الكروب في دولة بنى أيوب – نشره د. جمال الدين الشيال – مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم ١٩٥٣ هـ .
- **ابن حجه الحموى :**
١٨) خزانة الأدب وغاية الأرب – المطبعة الأميرية ببولاق .
- **الخطيب البتريزى :**
١٩) الوافى في العروض والقوافى – القاهرة ١٩٦٥ م .
- **ابن خلدون :** (العلامة عبد الرحمن بن خلدون)
٢٠) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر – المقدمة – مطبعة مصطفى محمد – القاهرة .
- **خير الدين الزركلى :**
٢١) الأعلام – قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين – عشرة أجزاء – القاهرة ١٩٥٤ م .
- **ابن دقماق :** (إبراهيم بن محمد بن أيدمر)
٢٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار – المطبعة الأميرية .
- **ابن رشيق القيروانى :** (أبو على الحسن الأزدى)
٢٣) العمدة في محاسن الشعر ونقده – تحقيق محى الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت – لبنان – الطبعة الخامسة – ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .

- **ركن الدين محمد بن الوهرانى :**

٢٤) مناما‌ت الوهرانى ورسائله – تحقيق إبراهيم شعلان ، محمد نغش – مراجعة د. عبد العزيز الأعوانى – دار الكتاب – ١٩٦٨ م .

- **ابن الرومى :**

٢٥) ديوانه – د. حسين نصار – مكتبة الأسرة الجزء الأول – ٢٠٠٤ م.

- **السبكى : (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب)**

٢٦) طبقات الشافعية الكبرى – تحقيق محمود الطناحى ، د. عبد الفتاح الحلو – القاهرة ١٩٦٤ م – الجزء الرابع .

- **أبو سعيد السكرى :**

٢٧) شرح كتاب الهذليين – تحقيق عبد الستار أحمد فراج – القاهرة ١٩٦٥م – الجزء الثاني .

- **السيوطى :**

٢٨) حسن المحاضرة – الجزء الأول – مطبعة الكتبى القاهرة – ١٣٢١ هـ.

- **ابن شاكر الكتبى :**

٢٩) فوات الوفيات – تحقيق د. إحسان عباس – دار صادر – بيروت ١٩٧٣م.

- **شلبى حاجى خليفة :**

٣٠) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون – طبع الأستانة ١٩٤١ م.

- **شمس الدين بن عبد الله الذهبى :**

٣١) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام – مخطوط بدار الكتب برقم ١٤٥٤ تاريخ .

- **ابن طباطبا العلوى :**

٣٢) عيار الشعر – تحقيق د. طه الحاجرى ، د. محمد زغلول سلام – طبعة شركة الفن للطباعة ١٩٥٦ م.

- **طلائع بن رزيك :**

٣٣) ديوانه – تحقيق د. أحمد أحمد بدوى – مكتبة نهضة مصر – الفجالة – القاهرة .

٣٤) ديوان طلائع بن رزيك – تحقيق محمد هادى الأمينى – طبع في مطابع النعمان – النجف الأشرف – ١٨٤ ... – ١٩٦٤م .

- **أبو الطيب المتنبى :**

٣٥) ديوانه – بشرح أبى البقاء العكبرى – المسمى التبيان في شرح الديوان – تحقيق مصطفى السقا ، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابلى الحلبى وأولاده – بمصر – ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م.

– صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى :

٣٦) الوافى بالوفيات – مصور بدار الكتب رقم ١٢١٩ تاريخ .

– ضياء الدين بن الأثير :

٣٧) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – تحقيق د. أحمد الحوفى ، د. بدوى طبانة – طبعة دار نهضة مصر القاهرة ١٩٥٩م.

– عبد القاهر الجرجانى :

٣٨) دلائل الإعجاز – تحقيق محمود محمد شاكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٠م– مكتبة صبح القاهرة ١٩٦٠م .

٣٩) أسرار البلاغة في علم البيان – شرح السيد محمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت – لبنان .

– ابن عساكر : (ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن الدمشقى)

٤٠) تهذيب التاريخ – عبد القادر بدران – ١٣٢٩م – الجزء السابع.

– على بن ظافر الأزدى :

٤١) بدائع البدائة – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٠م.

– على بن محمد بن الأثير :

٤٢) الكامل في التاريخ – المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠١ هـ – الجزء التاسع .

– العماد الأصفهانى الكاتب :

٤٣) خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء مصر – الجزء الأول – تحقيق د. أحمد أمين، د. شوقى ضيف ، د. إحسان عباس – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م .

٤٤) خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء الشام – الجزء الثاني – تحقيق د. شكرى فيصل– المطبعة الهاشمية بدمشق – ١٣٧٨هـ – ١٩٥٩م.

– ابن العماد الحنبلى : (أبو الفلاح عبد الحى)

٤٥) شذرات الذهب في أخبار من ذهب – ذخائر التراث العربي – بيروت – الجزء الرابع.

- **عماد الدين أبى الفداء اسماعيل بن كثير :**
٤٦) البداية والنهاية – مطبعة السعادة بالقاهرة .
- **عمارة اليمنى :**
٤٧) النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية – طبع مدينة شالون ١٨١٧م .
٤٨) ديوان عمارة اليمنى – تحقيق عبد الرحمن يحى الأرياني ، أحمد عبد الرحمن المعلمى – في مجلدين .
٤٩) المختصر المفيد – مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٠٨٠٤٨ ح والمصور – ثمة –على ميكروفيلم تحت رقم ٠٣٦٨٥٣ ح .
- **أبو فراس الحمدانى :**
٥٠) ديوانه – إعداد د. محمد بن شريفة – مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين – للإبداع الشعري – ٢٠٠٠م .
- **ابن فضل الله العمرى :**
٥١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – تحقيق الأستاذ أحمد زكى الباشا – دار الكتب المصرية – ١٣٤٢ هـ – ١٩٢٤ م.
- **ابن الفوطى الشيبانى الحنبلى :**
٥٢) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب – تحقيق د. مصطفى جواد – الجزء الرابع .
- **القاضى الجرجانى :**
٥٣) الوساطة بن المتنبى وخصومه – عيسى الحلبى – القاهرة .
- **ابن قتيبة :**
٥٤) الشعر والشعراء – تحقيق أحمد محمد شاكر – طبعة دار المعارف – القاهرة ١٩٦٦م .
٥٥) أدب الكاتب – شرحه وضبطه وقدم له – على فاعور – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
- **القرطاجنى :** (حازم بن محمد بن حسن بن حازم)
٥٦) منهاج البلغاء وسراج الأدباء – تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة – دار الكتب الشرقية – تونس – ١٩٦٦م .
- **ابن قلاقس :**
٥٧) ديوانه – تحقيق د. سهام الفريح – مكتبة المعلا – الكويت – ١٩٨٨م.

- القلقشندى :
٥٨) صبح الأعشى في صناعة الإنشا – طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر – الهيئة العامة .
- المرزوقى : (أحمد بن محمد)
٥٩) شرح ديوان الحماسة – تحقيق أحمد أمين ، وعبد السلام هارون – القاهرة ١٩٦٧م.
- ابن منظور : (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)
٦٠) لسان العرب – دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي– بيروت– لبنان – الطبعة الثانية – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .
- الميداني :
٦١) مجمع الأمثال – الناشر – عبد الرحمن محمد – مصر – ١٣٥٢ هـ .
- أبى ميسر :
٦٢) تاريخ مصر – طبع المعهد العلمى الفرنسى بمصر .
- أبو نواس :
٦٣) ديوانه – تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالى – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان .
- أبو هلال العسكرى : (الحسن بن عبد الله بن سهل)
٦٤) كتاب الصناعتين – الكتابة والشعر – تحقيق على محمد البجاوى – محمد أبو الفضل إبراهيم – طبعة عيسى البابلى الحلبى – القاهرة ١٩٧١ م.
- ياقوت الحموى :
٦٥) معجم الأدباء – طبع دار المأمون – الجزء التاسع .
- يحى بن حمزة العلوى :
٦٦) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – طبعة المقتطف القاهرة ١٩١٤م.

ثانياً: المراجع العربية :

- ابراهيم أنيس : (الدكتور)
٦٧) موسيقى الشعر – مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الخامسة ١٩٧٨م.
- أحمد أحمد بدوى : (الدكتور)
٦٨) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام – نهضة مصر.
- أحمد الشايب : (الأستاذ)
٦٩) الأسلوب – طبع المكتبة الفاروقية بالإسكندرية ١٩٣٩م .

٧٠) أصول النقد الأدبي – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – الطبعة العاشرة ١٩٩٩م.
- **أحمد عبد السيد الصاوى : (الدكتور)**
٧١) فن الاستعارة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – فرع الإسكندرية .
- **أحمد هيكل : (الدكتور)**
٧٢) تطور الأدب الحديث في مصر – طبعة دار المعارف – ١٩٦٨م.
- **أشرف محمود نجا : (الدكتور)**
٧٣) قصيدة المديح في الأندلس عصر الطوائف – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٩٧م.
- **بدوى طبانة : (الدكتور)**
٧٤) كتاب السرقات الأدبية – دراسة في ابتكار الأعمال وتقليدها – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – الطبعة الرابعة – ١٣٩٥ م – ١٩٧٥م .
- **حسن إبراهيم حسن : (الدكتور)**
٧٥) تاريخ الدولة الفاطمية – طبع مكتبة النهضة ١٩٧٢م .
٧٦) تاريخ الإسلام السياسى – القاهرة ١٩٤٩م .
- **حسن عباس : (الدكتور)**
٧٧) أسامة بن منقذ – حياته وشعره – الهيئة المصرية العامة للكتاب – جزآن.
- **حلمى مرزوق : (الدكتور)**
٧٨) تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين– بيروت – لبنان – ١٩٨٣م.
- **سليمان العطار : (الدكتور)**
٧٩) الخيال والشعر في تصوف الأندلس – دار المعارف – الطبعة الأولى – ١٩٨١م .
- **شوقى ضيف : (الدكتور)**
٨٠) تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والإمارات – مصر – دار المعارف – ١٩٨٤م .
٨١) الرثاء – سلسلة فنون الأدب العربي – رقم ٢ .
٨٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي – دار المعارف – مصر .
- **صالح اليظى : (الدكتور)**
٨٣) أثر التشاؤم في شعر ابن الرومى – الإسكندرية – ١٩٨٧ م.

- صبحى البستانى : (الدكتور)
٨٤) الصورة الشعرية في الكتابة الفنية – الأصول والفروع – دار الفكر اللبناني – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٩٦٨ م .
- صلاح فضل : (الدكتور)
٨٥) نظرية البنائية في النقد الأدبي – مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الثانية ١٩٨٠م .
- عباس محمود العقاد : (الدكتور)
٨٦) أشتات مجتمعات في اللغة والآداب – دار المعارف – مصر .
٨٧) اللغة الشاعرة – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٥م .
- عبد الحليم حنفى : (الدكتور)
٨٨) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.
- عبد الفتاح صالح نافع : (الدكتور)
٨٩) عضوية الموسيقى في النص الشعري – مكتبة المنار – الأردن – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
- عبد اللطيف حمزة : (الدكتور)
٩٠) في أدب الحروب الصليبية – مطبعة الإعتماد – ١٩٤٩م.
- عبد الله المجذوب : (الدكتور)
٩١) المرشد إلى فهم أشعار العرب – مطبعة الحلبى بالقاهرة ١٩٥٥م .
- عبد المنعم تليمه : (الدكتور)
٩٢) مقدمة في نظرية الأدب – الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧م.
- عبد المنعم ماجد : (الدكتور)
٩٣) ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها – دار المعارف – مصر .
٩٤) نظم الفاطميين ورسومهم في مصر – في جزءين – القاهرة – ١٩٥٣م .
- عبده الراجحى : (الدكتور)
٩٥) التطبيق النحوى – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية .
- عز الدين إسماعيل : (الدكتور)
٩٦) الشعر العربي المعاصر – قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية – دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٧م.

- علي إبراهيم أبو زيد : (الدكتور)
٩٧) أحمد بن يوسف الكاتب الوزير – دراسة أسلوبية في آثره النثرية – دار المعارف – الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
- عوض علي الباري :
٩٨) شعر الطبيعة في الأدب المصرى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٩م.
- فايز الداية : (الدكتور)
٩٩) جماليات الأسلوب – الصورة الفنية في الأدب العربي – دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٩٩٦م .
- فوزى محمد أمين : (الدكتور)
١٠٠) الحركة الفكرية والأدبية في الإسكندرية – دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر .
١٠١) شعر بشر بن أبى حازم الأسدى – رؤية تاريخية وفنية – منشأة المعارف بالإسكندرية – ١٩٩٨.
١٠٢) أدب العصر المملوكى الأول – ملامح المجتمع المصرى – دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٣م.
- محمد خلف الله أحمد :
١٠٣) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب والنقد – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – ١٩٤٧م.
- محمد راغب بن محمود الطباخ الحلبى :
١٠٤) أعلام النبلاء– المطبعة العلمية – بحلب – الجزء الرابع – ١٣٤٢هـ.
- محمد رضا المظفر:
١٠٥) عقائدهم الإمامية – العراق – – النجف – منشورات دار التعاون – ١٩٧٢م.
- محمد زغلول سلام : (الدكتور)
١٠٦) الأدب في العصر الفاطمى – الكتابة والكتاب – منشأة المعارف – الإسكندرية .
١٠٧) تاريخ النقد العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري – طبعة دار المعارف – القاهرة ١٩٦٤م.
- محمد زكى العشماوى : (الدكتور)
١٠٨) قضايا النقد الأدبي المعاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٥م.

١٠٩) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث – دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية .
– محمد العبد : (الدكتور)
١١٠) إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي – مدخل لغوي أسلوبي – دار المعارف – الطبعة الأولى – ١٩٨٨م.
– محمد عبد الحميد سالم : (الدكتور)
١١١) طلائع بن رزيك – حياته وشعره – رسالة ماجستير – دار العلوم – القاهرة – ١٩٧٤م.
١١٢) شعر المهذب بن الزبير – هجر للطباعة والنشر – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤٠٩هـ – ١٩٨٨م.
– محمد عبد الغنى حسن : (الدكتور)
١١٣) مصر الشاعرة في العصر الفاطمي – الهيئة القومية العامة للكتاب .
– محمد كامل حسين : (الدكتور)
١١٤) في أدب مصر الفاطمية – دار الفكر العربي – ١٩٥٠م .
١١٥) طائفة الإسماعيلية – النهضة المصرية – ١٩٥٩م.
– محمد عبد المطلب : (الدكتور)
١١٦) البلاغة العربية قراءة أخرى – الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان – القاهرة .
– محمد غنيمى : (الدكتور)
١١٧) النقد الأدبي الحديث – دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٦٩م.
– د. محمد مصطفى بدوى :
١١٨) كولردج – سلسلة نوابغ الفكر العربي – دار المعارف الطبعة الأولى – القاهرة ١٩٨٨م.
– مصطفى سويف : (الدكتور)
١١٩) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة – دار المعارف – الطبعة الثالثة – ١٩٦٩ م.
– مصطفى الصاوى الجوينى : (الدكتور)
١٢٠) البيان في الصورة – طبعة دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ١٩٩٣م.
– يسرية محمد المصرى : (الدكتورة)
١٢١) بنية القصيدة في شعر أبى تمام – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٧م.

- **يوسف حسين بكار : (الدكتور)**
١٢٢) بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث – طبعة دار الأندلس – بيروت – ١٩٨٢م.
- **يوسف أبو العدوس : (الدكتور)**
١٢٣) البلاغة والأسلوبية – مقدمات عامة – الأهلية للنشر والتوزيع – الأردن – الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

ثالثاً: المراجع المترجمة :

- **بندتو كروتشه :**
١٢٤) المجمل في فلسفة الفن – ترجمة سامي الدروبى – دار الأوابد – دمشق – الطبعة الثانية ١٩٦٤م.
- **تشارلتن هـ . ب:**
١٢٥) فنون الأدب – ترجمة د. زكي نجيب محمود – لجنة التأليف والترجمة والنشر – الطبعة الثانية ١٩٥٩م.
- **ريتشاردز:**
١٢٦) العلم والشعر – ترجمة د. محمد مصطفى بدوى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠١ م.

الفهـــرس

الشعر في العصر الفاطمي

(بلاط بني رزيك نموذجاً)



أماني زين كامل الخويسكي
كلية الآداب جامعة الإسكندرية

الشعر في العصر الفاطمي (بلاط بني رزيك نموذجاً) أماني زين كامل الخويسكي

